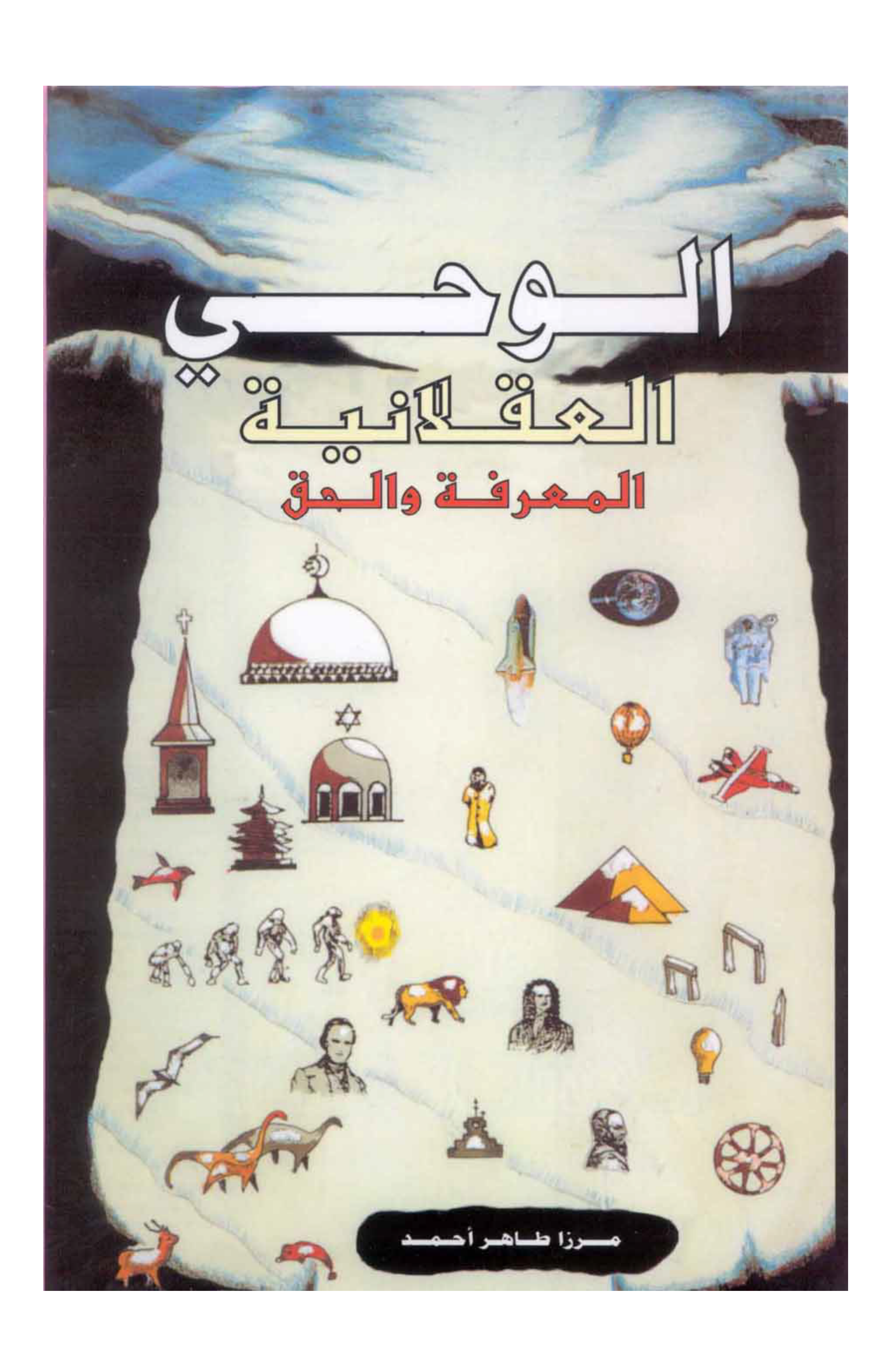


الوحي
العقلانية
المعرفة والحق
مرزا طاهر أحمد

الوحي

العقلانية

المعرفة والحق

مرزا طاهر أحمد

٢٠٠٤ م
الشركة الإسلامية المحدودة

اسم الكتاب: الوحي، العقلانية، المعرفة والحق

الطبعة العربية: ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤م

Revelation, Rationality, Knowledge and Truth
By: Hadhrat Mirza Tahir Ahmad

Arabic Translation

Translated by: Mustapha Sabit

Published by:
Islam International Publications Limited
“Islamabad”
Sheephatch Lane
Tilford, Surrey GU10 2AQ
United Kingdom

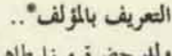
Printed at:
The Bath Press
Lower Bristol Road
Bath BA2 3BL
United Kingdom

ISBN: 185372 781 4

إهداء

أهدي هذا الكتاب
إلى سيدنا مرزا غلام أحمد عليه السلام
مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية
الذي ألّف الكتابين الفريدين
في الدين والفلسفة
"البراهين الأحمدية"
و
"فلسفة تعاليم الإسلام"
خلال العقدين الأخيرين من القرن الماضي.
لقد أزالا الظلام وملآ الزمان بنور الحكمة الربانية
التي كانت تشع من قلمه.
لم تكن براعتهما محصورة في ذلك القرن وحده
بل كان من المقدّر لهما أن يظلا عملين رائعين في عظمة فريدة
لجميع القرون التالية.

إنني مدين بما حققتُه في حياتي لأمي.. مريم
التي انتقلت إلى جوار الله
والتي وقفت أدعيتُها بجواري دائما
رغم أنها لم تستطع ذلك بنفسها.
عسى أن يتغمدها الله تعالى برحمته.



التعريف بالمؤلف*..

ولد حضرة مرزا طاهر أحمد في قاديان بالهند عام ١٩٢٨ لأبويه مرزا بشير الدين محمود أحمد وزوجته السيدة مريم رضي الله عنهما. وقد نال دراسته الابتدائية في قاديان ثم التحق بالكلية الحكومية في لاهور عام ١٩٤٤، بعد مرور بضعة أشهر على وفاة والدته.

وبعد أن تخرّج بتفوق في جامعة المبشرين بربوة، حصل على درجة الشرف في اللغة العربية من جامعة البنجاب. وقد زار لندن للمرة الأولى عام ١٩٥٥ بصحبة والده الذي أشار عليه بالبقاء فيها لتحسين لغته الإنجليزية والتعرف على عادات المجتمع الأوربي. وقد التحق بجامعة لندن في قسم الدراسات الأفريقية والآسيوية، حيث قضى عامين ونصف العام. وفي نهاية عام ١٩٥٧ كان قد زار وتعرّف على معظم إنجلترا، وإيرلندا، وإسكوتلاندا، وويلز، كما زار أيضا معظم دول أوربا الغربية. وكان هذا ملخصا لدراساته بالإضافة إلى ولعه الشديد بقراءة الكتب التي كثيرا ما كانت خارج نطاق المقررات الدراسية.

كان من المقدّر لهذه الخبرة التي اكتسبها في تلك السنوات أن يكون لها أثر هام خلال الفترة التي تحمل فيها المسؤوليات الجسام عندما صار إماما للجماعة الإسلامية الأحمدية، وقد تم انتخابه لحمل هذه المسؤولية عام ١٩٨٢ بعد يوم واحد من وفاة الإمام السابق حضرة مرزا ناصر أحمد رحمه الله.

وقد اضطر مرزا طاهر أحمد لمغادرة باكستان من فوره على إثر القرار المعادي للأحمدية الذي أصدره الجنرال ضياء الحق في ٢٦ أبريل (نيسان) ١٩٨٤، فقرر أن يأتي إلى إنجلترا حيث اتخذ مركزا مؤقتا خلال السنوات التي قضاها في المنفى. وخلال بضع سنوات قام بتدريب الآلاف من الرجال والنساء والأطفال الذين تطوعوا لمساعدته في القيام بمسؤولياته في العالم أجمع. وأعظم ما حققه هو إقامة المحطة الفضائية MTA أي محطة التلفاز الإسلامي الأحمدي. وقد أمكن من خلال هذه المحطة بث العديد من البرامج التعليمية لمدة أربع وعشرين ساعة يوميا، وهي خدمة تصل إلى جميع قارات الأرض، ناطقةً بمعظم اللغات الرئيسة في العالم. وقد تزامنت أنشطته منذ مغادرته باكستان مع الانتشار السريع والعجيب للجماعة في أكثر من ١٥٠ دولة من دول العالم. كذلك فقد تم من خلال MTA بث جلسات "سؤال وجواب" التي كان يعقدها في إنجلترا وأثناء جولاته العديدة في مختلف بلاد العالم.

ويكفي القول إنه بالإضافة إلى كونه زعيمًا دينيًا فإنه أيضا طبيبا حاذقًا في طب الهوموباتي له شهرة عالمية، كما أنه كاتب بارع، وشاعر موهوب، ورياضي فذ. كذلك فإنه راوٍ ماهر للقصص عندما يجالس الأطفال، وله قدرة مدهشة على إشعارهم بأنه واحد منهم. ولكن.. للتعرّف عليه في هذه الأنشطة وفي أعماله العديدة المتنوعة.. لا بد من قراءة هذا الكتاب الذي يجمع فلسفة حياته بأكملها.

---

* انتقل حضرته إلى جوار ربه في التاسع عشر من شهر إبريل (نيسان) عام ٢٠٠٣، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

مقدمة المؤلف

بدأ الأمر كله في زيورخ عام ١٩٨٧ باقتراح من المرحوم مسعود أحمد الجهلمي.. الذي كان في ذلك الوقت المشرف والمسؤول عن مركز الجماعة الإسلامية الأحمدية في سويسرا. وقد اقترح على البروفيسور الدكتور كارل هينكينغ (Karl Henking) الأستاذ في مادة علم طبقات الأمم أو ما يسمى بعلم أجناس البشر بجامعة زيورخ.. أن يوجه الدعوة إلى إمام الجماعة الإسلامية الأحمدية العالمية لكي يتفضل بإلقاء محاضرة عن الإسلام، وعن موضوع لم يتناوله أحد من علماء الدين من قبل على منبر الجامعة.

كان رد فعل البروفيسور سلبيا بعض الشيء في أول الأمر، إذ كان من رأيه أنه ليس لدى طلبة الجامعة أي اهتمام بالدين، بل في الواقع إن معظمهم يتباهون بكونهم ملحدين ولا يكادون يعيرون الدين أي احترام بشكل عام. غير أنه بعد بضعة أيام.. اقترح البروفيسور نفسه على مسعود أنه إذا تم تغيير الأمر وصار الموضوع يعالج مسألة العقلانية كموضوع رئيس للمحاضرة.. وأضيف موضوع الوحي بطريق المقارنة، لكي يتبين كيف يقوم كل من الاثنين بدور حيوي يؤدي إلى المعرفة والحقيقة الأزلية، فعندئذ ربما يثير مثل هذا الموضوع اهتمام طلبة الجامعة. وقد أثبتت الوقائع التي حدثت فيما بعد أنه كان على حق.

وفي يوم الخميس.. الرابع عشر من شهر يونيو (حزيران) عام ١٩٨٧ في الساعة الثامنة والربع مساء، أُلقيت المحاضرة المقترحة تحت عنوان: العقلانية، الوحي، المعرفة، والحقيقة الأزلية. وكان عنوان المحاضرة قد أثار اهتمام الطلبة الذين ازدحموا في قاعة الاجتماعات الكبرى التي تسمى "أوول" في الجامعة، والتي سرعان ما امتلأت تماما حتى لقد استدعى الأمر

تخصيص قاعة إضافية لاستيعاب الأعداد الزائدة من الطلبة لمتابعة المحاضرة عبر شاشات التلفاز الداخلي.

وبالمناسبة.. كانت هذه هي نفس القاعة الكبرى التي ألقى فيها السير ونستون تشرشل خطابه التاريخي في التاسع من سبتمبر (أيلول) عام ١٩٤٦، بعنوان: "فلتنهض أوربا". وفي الواقع.. كانت هذه المحاضرة النواة الأولى التي أنبتت السوق الأوربية المشتركة الموجودة اليوم. ولم يكن تشرشل في ذلك الوقت رئيسا لوزراء بريطانيا العظمى، غير أن عظمته لم تكن محصورة في المنصب الذي شغله، وإنما ازداد ذلك المنصب عظمة حين شغله ذلك الرجل. ولا غرْوَ أن محاضرته كانت حدثا تاريخيا.

ولما حان موعد محاضرتي في التاريخ المحدد، بدأت بتقديم بعض الملاحظات باللغة الإنجليزية، ثم تبع ذلك إلقاء المحاضرة التي كتبتها أصلا باللغة الأردية، والتي تولى الشيخ ناصر أحمد ترجمتها ترجمة رائعة إلى اللغة الألمانية، واستغرق في إلقائها حوالي خمس وسبعين دقيقة. وفي النهاية تم دعوة جمهور المستمعين لسؤال ما يعنّ لهم من أسئلة. وحيث إن الأسئلة كانت موجهة لي، فقد تولى الشيخ ناصر أحمد القيام بدور المترجم. كانت أحداث تلك الليلة مثيرة مفيدة للجميع حيث امتد الاجتماع لمدة ساعتين ونصف الساعة، ومع ذلك فقد ظل اهتمام الطلبة على أشده إلى أن اقتضى الأمر إنهاء الاجتماع في الساعة الحادية عشر إلا ربع مساء حيث إن نظام الجامعة كان يقتضي إخلاء القاعة في ذلك الوقت.

هكذا تم زرع البذرة الأولى لهذا الكتاب. وهي لم تكن سوى بذرة على أية حال، لأن المحاضرة التي تم ترجمتها إلى اللغة الألمانية لم تغط معظم النقاط التي احتواها الأصل الأردو. وأيضا بسبب ضيق الوقت لم يتمكن الشيخ ناصر أحمد من قراءة المحاضرة التي قام بترجمتها إلى نهايتها.

وقد تمت الكثير من المحاولات خلال الأعوام التالية لإتمام ترجمة مسوداتي الأصلية التي كُتبت باللغة الأردية.. إلى اللغة الإنجليزية. وكنت

– فيما بعد – قد أضفت الكثير إليها مما جعلها تتضخم حجما. واستغرقت هذه المحاولات عدة سنوات إلى أن انتهت بعد أن باءت جميعها بالفشل في نهاية الأمر. كان مدار البحث متنوعا حتى إنه لم يوجد واحد من العلماء استطاع أن يقوم بترجمة كل موضوعات الكتاب بالشكل الذي يرضى هو عنه. وقد حاولَتْ ذلك بعض المجموعات من العلماء مشتركين أيضا ولكن بغير جدوى.

وأخيرا.. وبرغم انشغالي بمسؤولياتي العديدة.. تبين أنه من الضروري أن أتولى أنا بنفسي إملاء معظم الكتاب من جديد. وقد تطوع باسط أحمد بتقديم خدماته في هذا الصدد. وهو يعمل حاليا ضمن هيئة تحرير مجلة "مقارنة الأديان" (The Review of Religions) واستطاع بواسطة حاسوبه المحمول أن يقوم بكتابة العديد من النسخ التي كان يتم تغييرها وتعديلها من المواد التي قمت بإملائها عليه. غير أن أيا من تلك النسخ لم يقنع أحدنا بقيمته، لأن الفترة بين لقاءاتنا كانت طويلة في أكثر الأحيان، حتى إن إخراج عمل متناسق بغير تكرار لم يعد ممكنًا. وبالإضافة.. كل مرة يتم فيها إملاء جديد.. كانت تُضاف بعض الأفكار الجديدة، مما يستدعي القيام بالكثير من التعديلات والإضافات والتغييرات في الفصول الأخرى أيضا. وقد بذل جهدا كبيرا ومستمرا لمدة عامين متواليين، بغير شكوى ولا تذمر، حتى إني بدأت أشعر بالألم من أجله، لأنه كان يعاني من بذل الجهد ولكن دون تحقيق فائدة. وكان لا بد من إعفائه من العمل، غير أن جهده وخدماته الغالية ساعدت كثيرا على دفع العمل إلى الأمام وتحقيق الهدف، إذ كانت كل نسخة من النسخ التي قام بإعدادها تبين تقدما كبيرا عن النسخة السابقة.

وبعد باسط.. قامت مجموعة من السيدات باستئناف العمل. وهكذا بدأ العمل يتقدم خطوة بعد أخرى، غير أنه لم يمكن أن يتم في شكل متناسق بغير انقطاع في السياق.

ولم يعد أمامي في نهاية الأمر من خيار سوى أن أعيد كتابة معظم المسودات بيدي، الأمر الذي استغرق مني وقتا طويلا في العام الماضي، تخللته انقطاعات عديدة بسبب المسؤوليات الأخرى الضاغطة. وفي النهاية.. استدعى الأمر أن يراجع العمل كله شخص ذو كفاءة يقوم بفحصه من أوله إلى آخره بحثا عن زلات القلم أو الأخطاء والتكرار الذي يكون قد بقي بغير الانتباه إليه. وقد قامت بتأدية هذا الجهد الشاق والجوهري بأروع ما يكون السيدة فرينة قريْشي، وقام بمساعدتها فريق من العاملات اللاتي كرّسن أنفسهن لهذا العمل، وكنّ يتمتعن بخبرات علمية متنوعة. وقد استطعن بجهدهن المشترك وتحت إشرافها الدقيق أن يستخرجن لي بعض التناقضات التي لم أنتبه إليها. وهكذا استطعت أن أزيل بعض التجاعيد من النسخة الأصلية للكتاب وأقدمها كصيغة مستوية في شكلها النهائي.

أما الفريق الذي اشترك في هذا العمل فهو يتكون من السيدة فريدة غازي، والسيدة منصورة حيدر، والبروفيسور أمة المجيد شودهري، والسيدة صالحة صفي، والسيد منير الدين شمس، والسيد محمود أحمد ملك – الذي تولى طبع متن الكتاب على الحاسوب، والسيد منير أحمد جاويد. وتضم هذه الأسماء قائمة طويلة من أعضاء شرف.. كانوا من العاملين الممتازين الذين بذلوا أقصى جهدهم، والذين أدين لهم بأخلص الامتنان.

أصبح الكتاب معدا للنشر بعد انتظار كان يبدو بلا نهاية.. امتد على مدى عشر سنوات منذ بدايته الأولى في زيورخ. ولولا البروفيسور دوكينْز.. وهو عالم بريطاني بارز في علوم الحيوان ومؤلف الكتاب المشهور بعنوان: "صانع الساعة الأعمى".. لكان من الممكن نشر هذا الكتاب منذ وقت طويل. وفي الواقع.. لقد أعاد دوكينْز كتابة ما قاله دارون، مع المبالغة في الدفاع عن نظرياته بغرض إثبات عدم وجود أي إله سوى فكرة القانون الأعمى للانتخاب الطبيعي.

ولسوء الحظ.. تم لفت انتباهي إلى كتاب "صانع الساعة الأعمى" في وقت متأخر، بعد أن انتهيت تقريبا من إضافة اللمسات الأخيرة لكتابي. وكالمعتاد.. اضطررت لتأجيل النشر بسبب هذه المعلومات، إلى الوقت الذي أنتهي فيه من قراءة كتاب دوكينْز ودراسة حججه بعمق. وبعد أن تم هذا أضفت إلى الكتاب فصلا جديدا كاملا تناولت فيه النظرية التي توهمها البروفيسور دوكينْز عن خلق بغير خالق. ومن الواضح.. أن كل مخلوق يتطلب وجود خالق، فمن المستحيل الإيمان بوجود لوحة الموناليزا وإنكار وجود الفنان ليوناردو دافنتشي، ومع ذلك فقد كانت هذه تماما هي الغلطة الفاحشة التي ارتكبها دوكينْز. فبينما يؤمن بوجود الخليقة إذا به ينكر وجود الخالق، ويحاول بطريقة خرقاء استبدال الخالق بالانتخاب الطبيعي الذي ذكره دارون. وكان هذا أبعد ما يكون متوقعا منه وهو عالم الأحياء البارز، فقد كان من المفترض أن يعلم أن الآراء الدارونية ليست آراء خلاقة.

وسوف نتناول هذا البحث في فصل بعنوان: "صانع الساعة الأعمى.. الذي هو أيضا أصم وأبكم". ونرى أنه من المناسب أن نشير هنا إلى أن العنوان الذي اختاره البروفيسور دوكينْز لكتابه كان من الممكن أن يكون أكثر توافقا لو تم تغييره إلى: "السيد الخفاش صانع الساعة العظيم". فمن الواضح أن صانع الساعة الأعمى في كتاب البروفيسور دوكينْز ليس رجلا، وإنما هو مجرد فكرة. غير أن الأفكار المجردة لا تستطيع أن تصنع شيئا، ناهيك عن صنع ساعة. أما الخفافيش.. كما يصفها البروفيسور دوكينْز.. فهي أقدر على صنع الساعات، لأن لها عقلا، وتستطيع أن تسمع الأصوات بشكل لا يستطيعه حيوان آخر. وفي الواقع إنها تستطيع أن ترى في الظلمة الكاملة، وتستطيع



أن تُفرّق بين الترددات الصوتية المتناهية في الصغر التي لا تستطيع أن تميز بينها حتى أحدث الأجهزة الصوتية المتقدمة التي صنعها الإنسان. ويستطيع الخفاش أن يسمع أدق حركة لاصطكاك الأسنان وحركة لولب الساعة التي لا تستطيع أن تسمعها الأذن القديرة لصانع الساعات.

ونكتفي بهذا القدر عن عنوان الكتاب، غير أننا نجد أنفسنا في خلاف شديد معه، ولكننا نستميحه عذرا عندما نصف نظريته بأنها خالية تماما من أي مضمون، ومع هذا فإن البروفيسور دوكينْز يتمتع بشهرة واسعة في العالم أجمع، وذلك لأن معظم المعجبين به هم من بين أجيال العلماء الذين كانوا ملحدين أولا وعلماء بعد ذلك. ولا بد أنهم كانوا دائما في ذهول من الأسرار الهائلة الموجودة في الطبيعة، وانتابتهم الدهشة البالغة أنه كيف يمكن أن تكون قد خُلقت بغير مصمم حاذق ذي إدراك. ولعلهم وجدوا في شخص البروفيسور دوكينْز بطلهم المنشود بعد أن لوى أعناق الأمور بشكل متقن تماما، حتى إن بعض الدارسين المتقدمين في علوم الطبيعة أيضا قد خُدعوا وصدّقوا أن مشكلتهم قد وجدت حلا. ولكنه لم يخدع سوى أولئك الذين كانوا يريدون في أعماق أنفسهم أن يُخدَعوا. ولو أنهم اختبروا ما قدمه البروفيسور دوكينْز عن الانتخاب الطبيعي بعقول منفتحة وغير منحازة، لاستطاعوا بكل تأكيد أن يكتشفوا العيوب والتباينات والتناقضات التي تحتوي عليها أطروحته. ولعلهم أرادوا أن يجدوا ملتجأ في الغوامض التي خلقها لأنهم لا يريدون أن يؤمنوا بالله تعالى.

ونحن على خبرة بأولئك الذين لديهم تصميم مسبق على التمسك بعقائدهم في جميع مجالات المذاهب والمعتقدات. وكتابنا هذا ليس موجها لهؤلاء بشكل مباشر، ولا يحدونا أمل حقيقي في هدايتهم، وإنما يتوجه الكتاب إلى القارئ العام الذي لم يعقد العزم مسبقا على التشبث بعقيدة علمية أو غير علمية. إن نظرية التطور "قليلا قليلا" التي أعلنها البروفيسور دوكينْز ليست في الواقع مفاجئة، لأن دارون قد سبق وذكر نفس هذه

النظرية منذ عام ١٨٥٩ في كتابه القيّم: "أصل الأنواع"، حين تحدث عن التعقيدات الموجودة في العين كعضو من أعضاء الجسم. وهناك اعترف صراحة بأن الآليات شديدة التعقيد الموجودة في العين لا يمكن تفسيرها بنظريته الخاصة عن الانتخاب الطبيعي. وفيما يلي الاعتراف الذي صرّح به دارون في كلماته:

> "إنني أعترف بوضوح، بأن فكرة أن الانتخاب الطبيعي هو الذي كَوّن العين بكل ما فيها من وسائل منقطعة النظير من أجل تعديل بؤرة النظر على مسافات مختلفة، ومن أجل إدخال الكميات المختلفة من الضوء، ومن أجل تصويب التحديب والزيغان اللوني.. هي فكرة باطلة عبثية بأعلى درجة".[١]

وبعد أن اعترف بهذا اتخذ لنفسه سبيلا للانسحاب باختراع نظرية "قليلا قليلا" التي أصبحت الآن الدعامة التي تقوم عليها حجج البروفيسور دوكينْز تأييدا لاعتبار أن الانتخاب الطبيعي هو الخالق الوحيد. غير أن نظرية دارون في التطور "قليلا قليلا" تقوم على افتراضات ثبت أنها خاطئة تماما، وليس لها قيمة باعتبارها غير بناءة. وهكذا راح دارون يقول بعد الاعتراف الأمين الذي صرح به فيما سبق:

> "ومع ذلك فإن العقل يخبرني بأنه إذا كان من الممكن إثبات وجود تدرجات متعددة من العين الكاملة فائقة التعقيد إلى عين معيبة غير تامة بسيطة التركيب، وكل تدرُّج من تلك التدرجات كان مفيدا تماما للكائن الذي يملكها؛ وبالإضافة.. إذا كانت العين تتغير ولو قليلا من جيل إلى جيل، وكان من الممكن توارث هذه التغييرات، كما هو الحال بالتأكيد؛ وإذا كانت التغييرات أو التعديلات في هذا العضو مفيدة للحيوان تحت ظروف الحياة المتغيرة، فحينئذ تكون صعوبة كون العين كاملة الإتقان شديدة التعقيد من نتاج الانتخاب الطبيعي، أمرًا يمكن بالكاد اعتباره صحيحا، رغم أن خيالنا لا يستطيع تصوره".[١]

وعلى هذا.. فإن نظرية التطور "قليلا قليلا" المبالغ في أهميتها قد سبق أن ذكرها دارون نفسه، وكان ذلك يتعلق أيضا بالعين حصرا. ولكن ها قد ثبت خطؤه، في ضوء البحوث الحديثة للعلماء.. التي كشفت عن آليات متقدمة في عيون العيّنات الأثرية الأولية بالغة القدم.

وقد كشفت دراساهم لأعماق البحار أن عيّنات العيون بالغة القدم، والتي وُجدت في الحفريات القديمة من الحياة المائية كانت تحفة فنية من الأجهزة البصرية التي تثير حيرة ودهشة صنّاع أكثر آلات البصريات تقدما وحداثة. وليس هذا مكان الدخول في مناقشة مفصلة للموضوع، ولكننا نحيل القارئ إلى مقالة بعنوان: "عيون الحيوان ومرايا البصريات"[٢]، لمؤلفها مايكل ف. لاند، والمنشورة في مجلة: *Scientific American* منذ عشرين عاما قبل أن ينشر دوكينْز كتابه. ونحن نلفت أنظار القارئ إلى صفحة رقم ٩٣ بالذات من هذه المقالة التي تصف عين حيوان *Gigantocypris* . إن معجزة خلق عينيه الفريدتين مع عاكستين في منتهى الدقة، بدلا من العيون الكروية المعتادة التي تحتاج إلى عدسات لتركيز بؤرة البصر، إنما هي أعجوبة من درجة عليا. وهذا هو بالضبط ما كان مطلوبا في عالم الظلام في أعماق المحيط التي يعيش فيها هذا الحيوان. إذ أنه يحتاج إلى الاستفادة من أقل ضوء يمكن أن يوجد على حافة الظلام التام. و لم يكن من الممكن حدوث هذا لو لم يسبق ذلك وجود مدبّر عليم قدير ذي خبرة كاملة.. يمكن له أن يصمم ويصنع هـــذه الآلة التي –رغم بدائيتها– تعتبر بحق آلة بصرية في منتهى الدقة. وتغطي المقالة بأكملها العديد من الأمثلة الحقيقية للعيون الخلابة لبعض الحيوانات القديمة، والتي صُنعت من أجل تحقيق أغراض معينة، وكل منها يهدم تماما ويحطم إلى أهباء تذروها الرياح تلك النظريات عن التطور "قليلا قليلا" التي يقول بها البروفيسور دوكينْز، وتلك التي لأستاذه الكبير شارلس دارون. ونحن لم نذكر كل هذا في كتابنا الممتلئ مسبقا بأمثلة شبيهة، ولكن حيث إننا قد

أشرنا هنا إلى رأي دارون الافتراضي في حق نظريته عن التطور "قليلا قليلا" فيما يختص بتركيب العين، فإن هذه الإشارة تصبح بالضرورة مناقضة لما افترضه. وإن قراءة تلك المقالة بتمعن سوف يقنع حتى أشد المتشككين من أصحاب مذهب الطبيعة الخالقة.. أن ما يدخل في صنع العين أكثر كثيرا مما يمكن أن تراه العين. ولكن إذا كان التشكك يقوم على تصميم في التحيز للرأي المسبق، فلا شيء يمكن عمله عند ذاك. ونرجو أن يساعد الفصل الذي كتبناه عن الكتاب الشهير للبروفيسور دوكينْز أولئك الذين لم يتفقوا معه في الرأي، ومع ذلك كانوا متأثرين به جدا بسبب صيته وشهرته.

ونحن نطلب من العالم وغير العالم على السواء أن لا يكتفي بقراءة الفصل عن كتاب البروفيسور دوكينْز فحسب، وإنما يقرأ كتابنا بأكمله الذي دُوِّن قبل كتابه. وسيجد القارئ.. حتى بغير ذكر كتابه على الإطلاق.. أن كتابنا قدّم الإجابات المرْضية لجميع الأسئلة التي أثارها البروفيسور. غير أن الموضوع العام للكتاب أوسع كثيرا من المناقشة المحدودة التي أشرنا إليها عاليه. وهو يتعلق بالمعالجة القرآنية لجميع الأمور التي يضمها الكتاب – وهي معالجة خلابة وعقلانية في نفس الوقت حتى إنها تذهل عقول أهل الرأي. وهذا ما يجدر بالقارئ أن يركز انتباهه عليه. وفي هذا الطريق قد يلتقي القارئ أيضا غوامض الحياة والحلول التي قدمها القرآن لهذه الغوامض.

إننا نَعد القارئ بأنه سوف يستمتع بقراءة هذا الكتاب، وسوف تساعد دراسته على وُلوجه إلى العتبة الكريمة لمولاه – الخالق.. رب العالمين.

شكر وتقدير

إن القائمـــة التي تحتوي على أسماء أولئك الذين قدموا لي المساعدة أثـــناء تدوين هذا الكتاب.. وبعد الانتهاء منه.. لهي قائمة طويلة، غير أن ذكرياتي معهم مطبوعة في قلبي بحب وتقدير عظيمَين.

ومـــع تعدد المراحل التي مر بها الكتاب.. تعدد أيضا الأشخاص الذين قاموا بالمساعدة. وأغلبهم لم يكن يستطيع سوى القيام بمجهود صادق في تـــرجمة أميـــنة للأصول الأردية، ولكن مجهوداتهم لم تذهب هباء، فكلما كنـــت أقـــوم بفحص أي من الترجمات بعين ناقدة كانت تتولد في ذهني دائمـــا أفكار جديدة ينبغي أن يحتويها الكتاب. كذلك فإني قررت بعد الفحـــص الدقيق للترجمات التي قاموا بها أن أغير تسلسل الموضوعات إلى ســـياق آخـــر أفضل. وهكذا كنت أتقدم من صيغة للكتاب إلى أخرى أفضل، كما لو كنت أخطو صاعدا على طريق التطور، ويحدوني الأمل أن أكون قد بلغت القمة بهذه الصيغة النهائية للكتاب.

وخـــلال جميع تلك المراحل كان هناك الكثير من العلماء والفنيين قد اشـــتركوا ليس في أعمال الترجمة فحسب بل في أمور ما كنت لأستطيع تحقـــيقها بمفـــردي. فمثلا.. كنت في حاجة لاقتباس بعض النصوص من كتـــب ومقالات كنت قد قرأتها خلال الأربعين عاما الماضية من حياتي. وكانـــت تلـــك النصـــوص متباينة ومتنوعة حتى إنها كانت تتعلق بجميع الموضـــوعات التي عالجها الكتاب، ويرى القارئ أنها ليست قليلة العدد، فكـــان لا بد للكثير من العلماء أن يقوموا بزيارة المكتبات في العديد من البلاد والقارات للعثور على هذه النصوص.

ومن ربوة.. المقر الرئيسي للجماعة الإسلامية الأحمدية.. انخرط العديد من العلماء في البحث عن المراجع الدينية.

ومـــن أمريكا.. قام البروفيسور ملك مسعود أحمد والفريق الذي كان

يعمل معه بالبحث عن كثير من المراجع التي كانت تتعلق بمجلة Scientific America ومجلة American Scientist خلال العشرين عاما المنصرمة.. أو ما يقـــرب من ذلك. وكان فريقه يتكون من نخبة من العلماء من جميع أنحاء القـــارة الأمريكـــية. ومن الصعب ذكر أسماء جميع هؤلاء في هذا الشكر المختصر، غير أنه لا بد من ذكر أنه تلقى مساعدات جمّة بوجه خاص من الدكتور صلاح الدين وابنه جواد ملك.

وقـــد قام الدكتور صلاح الدين على وجه الخصوص بعمل عظيم فيما يتعلق بالمراجع الضائعة.. إذ أنني لم أتذكر عناوين المقالات أو الأعوام التي نشـــرت فيها. وكان كل ما لديه من معلومات هو مجرد فكرة عامة عن الموضوع الذي ظل في ذاكرتي. ومما يثير الدهشة حقا أنه استطاع العثور على كل شيء. ولفرط سروري ودهشتي أن ذاكرتي كانت دقيقة لكل ما قلته.

وفي لـــندن كانـــت السيدة صالحة صفي من قامت بالدور الرئيس في عملـــية البحث عن المراجع، وساعدتها ابنتها صفية صفي محمود وبذلت مجهـــودات مدهشـــة في تتبع الكتب المختلفة التي كانت تحتوي النصوص المطلوبة. ثم كان هناك أولئك الفتيات والشبان والنساء والرجال في لندن الذيـــن قدموا أنفسهم تطوّعا للقيام بأعمال مختلفة، وأدّوا مهامهم بإتقان وجهـــد بـــالغ. وإنه من المستحيل أن أذكر أسماءهم جميعا ولكن أرجو المعذرة إذا قدمت قائمة لبعض الأسماء التي لها في ذاكرتي مكان خاص.

ولا بـــد أن أذكـــر عـــلى رأس هذه القائمة السيدة فرينة قريشي ومجهودهـــا عديم المثال في تنظيم وتوجيه فريق من العلماء لمساعدتها على كشف وتحديد الأماكن التي تحتاج مني العناية خاصة. وفي هذا الخصوص كـــان المجهود الذي بذلته السيدة فريدة غازي يبزّ جميع العاملين في الفريق عدا السيدة فرينة بالطبع. لقد كانت فرينةُ سيدةً متواضعة جدا رغم هذه الخدمة الجليلة التي أدتها. وقد التزمت من ناحية المبدأ بالامتناع عن اقتراح

أية تعديلات أو تحسينات قد يحتاجها النص. ونادرا ما كنت أطلب منها أو من أعضاء فريقها اقتراح بعض التعديلات في بعض الأماكن المعينة.. فكانوا يستجيبون بتواضع، ولكن اقتراحاتهم لم تكن دائما تلقى القبول. ولا بد لي أن أشيد برحابة صدورهم لأنهم كانوا دائما يتقبلون قراري بطيب الخاطر. وقد أدركوا خلال محاولة إيجاد اقتراحات بديلة.. كما أدركت أنا أيضا.. مدى صعوبة تغيير تعبير معين دون تغيير جميع حلقات السياق الفكري المؤدي إليه. وقد استمتعنا كثيرا بهذا الجهد الذي وجدنا فيه تسرية كنا في حاجة إليها. وباختصار.. ليس هناك من شكر وتقدير من جانبي يمكن أن يعدل المجهود الذي ساهموا به في مساعدتي على تحسين نوعية هذا الكتاب. وفيما يلي تنويه بهذا الفريق.

ومن بين هؤلاء الذين قاموا بمساعدتي في إتمام هذا الكتاب الكثير ممن جاءت أسماؤهم فيما بعد. وقد تكون الذاكرة خانتني فلم أستطع أن أتذكر جميع الأسماء، فإليهم جميعا أقدم اعتذاري الصادق.

١- منير أحمد جاويد، السكرتير الخاص، لندن

٢- منير الدين شمس، لندن

٣- فرينة قريشي، لندن

٤- منصورة حيدر، لندن

٥- فريدة غازي، لندن

٦- محمود أحمد ملك، إسلام أباد، المملكة المتحدة

٧- البروفيسور أمة المجيد شودهري، إسلام أباد، المملكة المتحدة

٨- باسط أحمد، لندن

٩- فوزية شاه، لندن

١٠- مسرت بهتي، ساوتهـ هامتون

وقد تم اختيار هذه القائمة من قائمة أطول تحتوي أسماء الكثيرين ممن قدموا المساعدة في مراحل مختلفة من مراحل إعداد هذا الكتاب. غير أن

مشـــاركة هؤلاء المذكورين أعلاه كانت متواصلة وعلى جانب كبير من الأهمـــية في طبيعتها حتى إني لا أشعر بارتياح إذا أغفلت ذكر هؤلاء على وجـــه الخصوص. لقد قام منير جاويد.. الأول في القائمة.. بدور حيوي في إنجاز الخطة التي وضعتُها وأسندتُ فيها أدوارا مختلفة للكثير من العلماء. وقد اكتسب منير الدين شمس مكانة خاصة للجهد الشاق المتواصل الذي بذله والكم الهائل الذي أمكن له أن يتحمّله. والكثير ممن ذُكرت أسماؤهم عالـــيه قـــد عمل لأيام وليال دون أن ينالوا قسطا من الراحة، وبغير أن يخبروني بتضحياتهم المدهشة. وكان عليّ أن أراقبهم عن كثب بشكل ما، فكنت أطل عليهم من الستار الذي كانوا قد أقاموه لإخفاء جهدهم عن عيني. وفي بعض الأحيان.. لم يكن هناك من مناص سوى أن آمرهم بأن ينالوا قسطا من الراحة ويتناولوا شيئا من الطعام قبل أن يسقطوا من شدة الإعياء بعد أن وصلوا إلى منتهى طاقة تحملهم.

١١- مظفّر أحمد ملك، إسلام أباد، المملكة المتحدة

يســـتحق مظفّـــر أحمد ذكرا خاصا لأنه هو الذي أُسندت إليه مهمة الطباعة النهائية ومفاوضة المطابع المختلفة للحصول على أفضل الأسعار. أما في إعداده النسخة النهائية التي تصلح للتصوير فكان عمله رائعا بحق.

١٢- بشير أحمد، مكتب السكرتير الخاص، لندن

١٣- پير محمد عالم، مكتب السكرتير الخاص، لندن

كـــان كـــل من بشير أحمد و پير محمد عالم متطوعا قام بدور هام في الســـهر عـــلى راحة العلماء الذين ساعدوني أثناء وجودهم في المكتب. وحيـــنما كـــانوا يقومون بعملهم طوال الليل، كان بشير صاحب و پير صـــاحب يسهران على خدمتهم وتلبية طلباتهم أثناء العمل. وأحيانا كانا يقدمـــان لهم وجبات الطعام رغم أنهم كثيرا ما كانوا يحجمون عن التعبير عن مدى إحساسهم بالجوع.

وفيما يلي قائمة بأسماء بعض العلماء من ربوة الذين كان يتم الاتصال

بهم من آن لآخر بواسطة منير أحمد جاويد، وذلك عند الحاجة إلى بعض المواد التي كانت في متناول أيديهم:

١٤- المولوي دوست محمد شاهد، ربوة

١٥- سيد عبد الحي، ربوة

١٦- الحافظ مظفّر أحمد، ربوة

١٧- حبيب الرحمن زيروي، مساعد بالمكتبة، ربوة

١٨- بروفيسور شودهري محمد علي، ربوة

وهـــناك شخص لم يشترك في العمل، غير أني أدين له بالكثير للخدمة الـــتي أســـداها إليّ. أنا أتحدث هنا عن البروفيسور راجا غالب أحمد من لاهـــور، الـــذي أصرّ على إضافة فصل في نهاية الكتاب عن ختم النبوة. وهذا الفصل يهديه تحية خاصة، فكم كنت محقّا يا راجا صاحب!

أمـــا منصورة حيدر.. فقد قامت بعمل على جانب كبير من الأهمية، وكان يقتضي بذل الكثير من الجهد والعناية الفائقة. إذ أنها قامت بمراجعة جمـــيع المقتبسات المذكورة في هذا الكتاب ومطابقتها بأصولها، مع بذل العـــناية الدقيقة للتأكد من أن كل نقطة وكل فاصلة وكل كلمة بحروفها كانـــت تماما كما جاءت في أصل المقتبس. واستدعى هذا تكوين مكتبة صغيرة تحتوي فقط على الكتب التي انتقينا منها مقتبساتنا. وقد أدّت هذا العمل بدقة تصل إلى حد الكمال. وحسب علمي كان الأمر يقتضي منها البحـــث الطويـــل عـــن الكتب الأصلية التي ذُكرت كمراجع في بعض المقـــالات. ولم تكـــفّ عن البحث والتنقيب إلى أن تظفر فعلا في يدها بالكتاب المطلوب. ولهذا العمل المذهل فإنها تستحق الثناء والتقدير الخاص هنا.

وعند الرجوع إلى المراجع الأصلية التي كانت باللغة الصينية وترجماتها المـــتاحة.. كان لا بد من الاستعانة بالخدمات التي لم يمكن للعمل أن يتم بغيرهـــا، والتي قدمها عثمان م. چاو. إنه عالم عظيم، وقد لاقت ترجمته

لمعـــاني القرآن الكريم إلى اللغة الصينية قبولا واسعا من العلماء الصينيين. وبغير مساعداته لم يكن لنا أن نتأكد من الحصول على الترجمة الصحيحة والدقيقة للعديد من التعبيرات الصينية التي لم تلق ترجماتها الدقة الكاملة في الأعمال الأدبية الكلاسيكية القديمة.

ولا بـــد لي أيضا أن أعبر عن شكري وتقديري العميق للسيدة عظمى آفـــتاب أحمـــد خان، فهي سيدة مدرّبة باحتراف على فحص الأعمال الأدبية للبحث عن الهفوات والعيوب الصغيرة التي غالبا ما تجد طريقها إلى هـــذه الأعمـــال دون أن يفطن إليها أحد. وقد برَعَت في هذا الفحص والتدقيق للمواد في صيغتها النهائية قبل تقديمها للطبع. وسرّني أنا والفريق الـــذي يعمل معي أن نرى أنها بالفعل ذات عينين تتمتعان بالقدرة الفائقة على الملاحظة الدقيقة غير العادية. وبغير مساعدتها وعملها الدؤوب.. ربما لم نكـــن قد استطعنا ملاحظة أن العديد من التعبيرات تحتاج إلى مزيد من الشـــرح، وأن الكثير من السياق يحتاج إلى الترتيب والتنسيق. إن خدماتها الحاذقة التي قدمتها تطوّعا كاملا جعلتني أشعر تجاهها بكثير من التقدير.

وفي الفرصـــة الأخيرة التي أتاحتها لنا المطبعة للكشف عن الأخطاء.. كانت فوزية شاه هي من قامت بجهد عظيم، ويبدو أنها قد وُلدت بموهبة الكشف عن الأخطاء. فكيف أوفيها حقها من الشكر!

أمـــا إعداد الفهرس المفصل لموضوعات هذا الكتاب فكان عملية شاقة مجهـــدة قام بها منوّر أحمد سعيد من واشنطن العاصمة الأمريكية. وكان الفريق الذي يساعده يتكوّن من مجموعة من العاملين الذين أوقفوا أنفسهم لإنجـــاز هذا العمل، وكان هذا الفريق يضم ابنه أحمد منيب سعيد، كما يضـــم أيضا فوزان پال، وجواد أ. ملك، ومظهر أحمد، وفيضان عبد الله. ورغـــم أن الوقت الذي كان متاحا لهم كان قصيرا، وكان العمل طويلا وشاقا، فإنهم رغم ذلك قاموا بإنجاز العمل على أكمل وجه. ما شاء الله!

الفنانون

بذلـــت نعمى سعيد من أمريكا محاولات عديدة للتعبير التصويري عن محـــتويات الكـــتاب، وذلك بغرض تصميم غلاف له. ومما يؤسف له أن عمـــلها الطويل المضني لم يلق قبول الخبراء من المطبعة. فقد نصحوا بشدة أن تكون رسومات الغلاف تعبيرا عن انطباع الفنان لمحتويات الكتاب تعبر عنه ريشة الفنان بدلا من صورة ينتجها الحاسوب الآلي، وقد تقرر أخيرا الأخذ بهذه النصيحة الحكيمة. وتمّت الاستعانة بخدمات الكثير من الفنانين من لندن كان على رأسهم هادي على شودهري و ش. عبد الرشيد، وهو مهندس متميز برز في التعبير التصويري عن الأفكار التجريدية، وسيد فهيم زكريا من برمنجهام، وكان يساعدهم فريق من الفنانين من اختيارهم.

كـــان الكـــثير من الفنانين يعملون في العديد من الأعمال الفنية التي يحتويها الكتاب، ولكن صفدر حسين عباسي وهادي علي شودهري قاما بـــتأدية الكثير من الخدمات الجليلة التي فاقت في نوعيتها الدقيقة كل ما أنتجه الآخرون. وكان الفنانون الآخرون هم مسرت بهتي، وفريدة غازي، وفهريجة أفديتش، وطاهرة عثمان.

وهـــناك شخص لا بد من ذكره دون ذكر اسمه، فهذا ما طلبه بنفسه، عـــندما عـــرض عـــليّ مبلغا كبيرا من المال للإنفاق منه على المصاريف التحضيرية. وكان كل ما طلبه أن أذكره هو ووالديه وأسرته في أدعيتي. وقد قررت أن أذكر هذا حتى إن الآخرين الذين يريدون أن يشتركوا معي في الدعاء أن يفعلوا ذلك.

وأيضا ابنتي فائزة لقمان تستحق امتناني الخاص. فطوال مرحلة تدوين هـــذا الكتاب كانت.. من أعماق قلبها.. وبغير كلل.. تسهر على راحة جميع المساعدين الذين كانوا يقومون بالعمل في أوقات صعبة، وكانوا في حاجة إلى وجبات الطعام. ولذلك فإني مدين لها بالشكر الجزيل لخدماتها الصامتة التي أقدّرها بكل محبة.

عسى أن يبارك الله تعالى جميع هؤلاء الذين جاء ذكر أسمائهم فيما سبق، وأيضا جميع أولئك الذين لم تُذكر أسماؤهم.. ولكنني سوف أظل أذكر خدماتهم بتقدير خاص. آمين!

مرزا طاهر أحمد

مقدمة المترجم

يبحث هذا الكتاب الفذ الفريد مدى تأثير الوحي والعقلانية في الحصول على المعرفة والوصول إلى الحق في مجالات الحياة المتباينة. لذلك كان لا بد أن يغطي العديد من الموضوعات الإنسانية.. الاجتماعية، والسياسية، والأخلاقية، والفلسفية، والتاريخية، والعلمية؛ ويناقش الفلسفات المتعددة، كالفلسفة الأوربية، واليونانية، والإسلامية؛ ويبحث في ديانات الإنسان المختلفة، كالهندوسية، والبوذية، والكونفوشيوسية، والطاوية، والزرداشتية، وديانات السكان الأصليين في أستراليا؛ ويتعرض للعلوم الطبيعية، والكيميائية، والجيولوجية، والطبية، والفلكية؛ ويجول في المملكة الحيوانية والنباتية، ويتناول أيضا الحشرات وتشريحها، وخاصة تلك التي ذكرها القرآن المجيد.. كالنحل والعنكبوت والبعوض. ولكل من هذه الموضوعات ألفاظها وتعبيراتها الخاصة بها، مما يجعل مهمة المترجم شبه مستحيلة، كما أشار إلى ذلك المؤلف نفسه في مقدمته.. حين عهد إلى بعض الأشخاص مهمة ترجمة أصول كتابه التي كتبها باللغة الأردية إلى اللغة الإنجليزية، فلم يستطع أحد أن يؤدي حقها.. مما اضطره إلى كتابته بالإنجليزية بنفسه.

وبعد صدور الكتاب.. وما علمت من مؤلفه العظيم رحمه الله تعالى عن مدى أهميته والجهد الكبير الذي بذله فيه.. راودتني رغبة في ترجمته إلى لغة الضاد حتى تتحقق الفائدة المتوخاة لقراء العربية. ولم أكن قد قرأت الكتاب بالطبع حين تقدمت طالبا أن أنال شرف القيام بهذه الترجمة، وتفضل حضرته مشكورا فأولاني هذا الشرف. وبعد أن قمت بترجمة بعض الصفحات.. تبين لي أنني اقتحمت عقبة لست أهلا لها، وتقدمت لحمل أمانة أكبر من أن أطيق ثقلها، وشعرت أني أقف كقزم مقعد صغير.. أمام جبل شاهق كبير، يريد أن يتسلق أحجاره وأزقته،

ويبتغي أن يصل سريعا إلى قمته.

غير أنه لم يكن هناك من مجال للتراجع بعد أن طلبت بنفسي نوال شرف الترجمة، ولم يكن من اللائق أن أنسحب بعد أن قبلت المهمة، فلم يبق أمامي من سبيل سوى أن أتوجه إلى الله تعالى بالدعاء وطلب التوفيق، وكان مما شد من أزري أن مؤلف الكتاب نفسه قد دعا لي بالتوفيق.

لذلك فإني أطلب من القارئ العذر والمعذرة، إذا رأى أني لم أحسن الترجمة. فما أسأت فيه فهو من جهلي وقلة خبرتي، وما أخطأت التعبير عنه فهو من ضعفي وقلة حيلتي. وأما ما أحسنت فيه فكان بتوفيق من الله تعالى، واشتراك إخوة كرام وأستاذة أفاضل.. من علماء اللغة وخبراء اللسان، ومعهم الأستاذ عبد المجيد عامر.. قاموا جميعا بجهد كبير وكريم، رائع وعظيم، ليس فقط في مراجعة الترجمة وتصحيح ما أخطأت فيه، وتعديل ما أسأت التعبير عنه، بالإضافة إلى حسن اختيار اللفظ الأعذب، وانتقاء المعنى الأنسب، وانتخاب التعبير الأصوب.. بل أيضا في تدقيق لغتي العربية التي اشتدت معاناتها، لأني كثيرا ما كنت أنكر عليها قواعدها، وأغمطها حقوقها التي اتفق عليها أدباؤها، وأقرها جهابذتها وعلماؤها، إلى أن تفضل أساتذتي الكرام فأعادوا للغة العربية جميع حقوقها وقواعدها الصحيحة، وردوا إليها رونقها وروعتها المليحة، فجزاهم الله عني حسن الجزاء، وأجزل لهم في الدنيا والآخرة خير العطاء.

بقي أن أقول إن الترجمة هي محاولة لنقل المعنى الذي يعبر عنه الكاتب بلغة ما إلى اللغة التي يعرفها القارئ. وعند ترجمة هذا الكتاب.. لم يكن الأمر مجرد ترجمة ألفاظ وكلمات، بل ترجمة معان في روعة وعمق البحر، وأفكار في جمال وسحر الفجر، وتعبيرات في صعوبة الصبر.. بالإضافة إلى ما تقتضيه صياغة الترجمة في أسلوب عربي كي لا يشعر القارئ بأجنبيته. ويقتضي ذلك أحيانا إضافة بعض الكلمات التي تزيد في رونق الأسلوب العربي، بدون أن تُغير المعنى الذي يريده الكاتب. ولتقديم مثل للقارئ..

نفترض أن هناك جملة تقول:

إن المتحدث استعان ببعض الكلمات to improve his speech

فيمكن ترجمة الكلمات الإنجليزية بإحدى الطرق التالية:

١) لتحسين حديثه

٢) ليحسن من شأن حديثه

٣) لكي يُضفي على حديثه حلاوة ويُكسبه طلاوة

كذلك قد يحتاج الأمر إلى إضافة بعض الكلمات لشرح ما يود الكاتب أن يقوله، رغم أن هذه الكلمات لم ترد في النص المترجَم. فمثلا إذا كانت هناك جملة تقول:

إن المتحدث استعان ببعض الأمثلة to explain himself

فيمكن ترجمة الكلمات الإنجليزية بإحدى الطرق التالية:

١- ليشرح قوله

٢- ليشرح ما كان يقصده

٣- ليشرح مكنونات نفسه ويعبر عما في وجدانه

قد تختلف وجهات النظر لدى المترجمين والقراء، ولكني أفضّل الطريقة الثالثة، في الحالتين. وهذا ما حاولت قدر الإمكان أن أقدمه للقارئ، لكي يشعر دوما أنه يقرأ كتابا كأنه كُتب أصلا باللغة العربية. فإن أصبت فأرجو من القارئ حسن الدعاء، وإن أخطأت فأسأله التجاوز عن الأخطاء. وأسأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل الذي أدّيته بإخلاص ووفاء، وأن يجعله بفضله في ميزان الحسنات يوم الجزاء، إنه سبحانه رب كريم معطاء، ذو الفضل والإحسان وذو الآلاء.

مصطفى ثابت

المُحتَويات

الباب الثالث

الباب الرابع

الباب الخامس

الباب السادس

الباب السابع

فهارس

توجـــد بعض الرسوم التوضيحية خلال الكتاب، وهذه مرقمة ١,١, ١,٢, ١,٣ وهكذا. كذلك توجد بعض اللوحات الملونة، وهذه مرقمة بالأرقام من ١ – ٨، عدا اللوحة الأولى والثانية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العلمين الرحمن

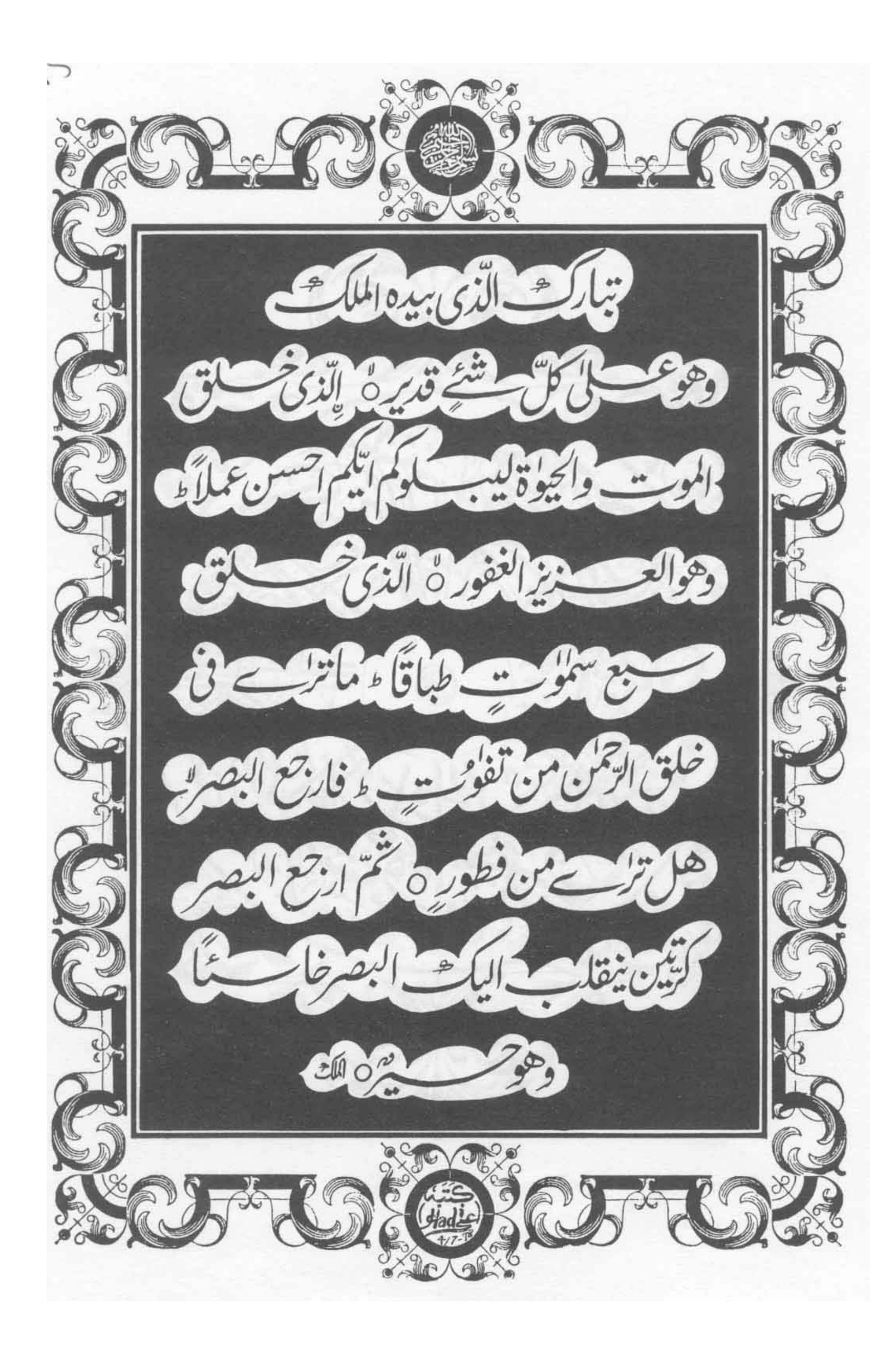
الرحيم ملك يوم الدين اياك

نعبد واياك نستعين اهدنا

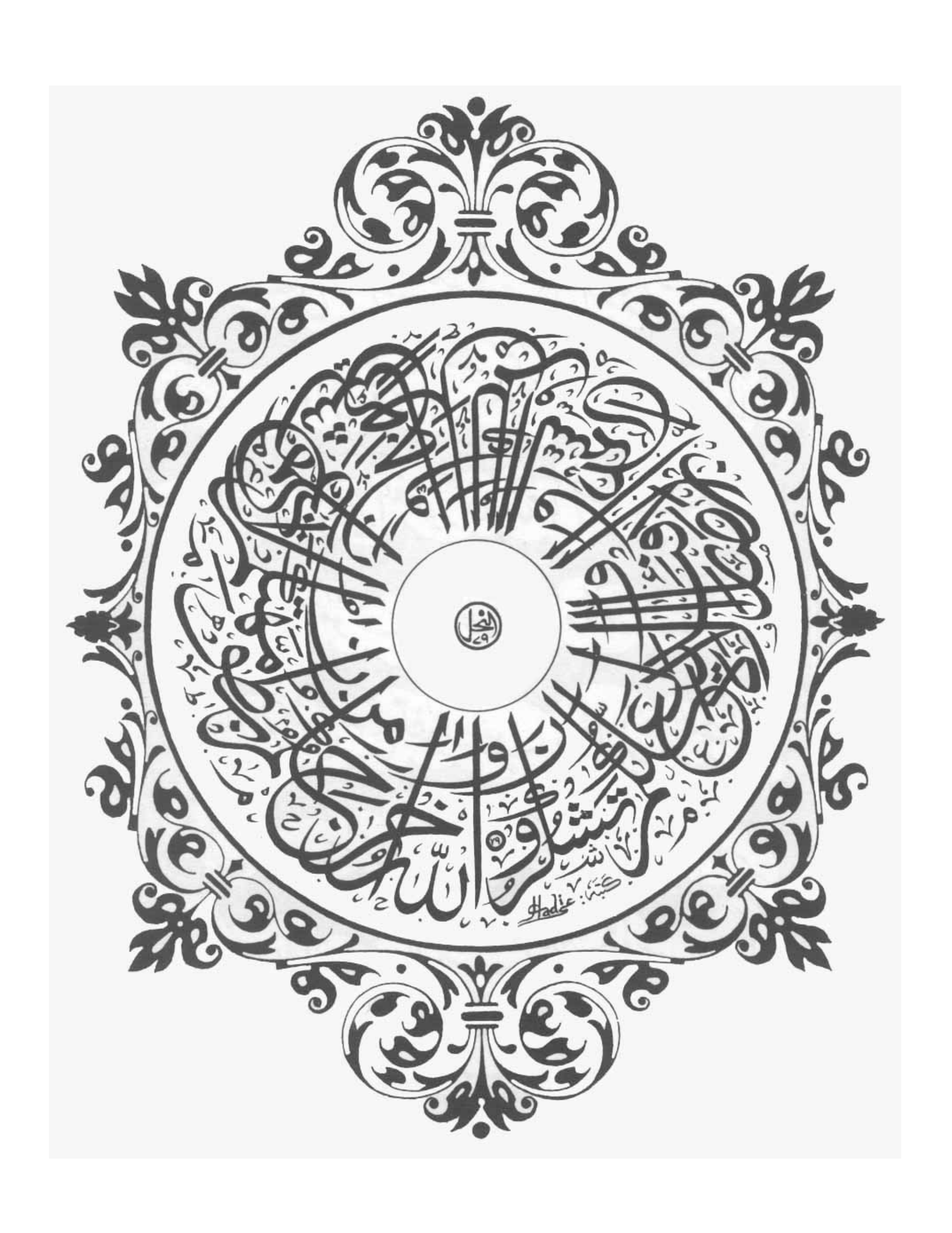
الصراط المستقيم صراط الذين

انعمت عليهم غير المغضوب

عليهم ولا الضالين



تبارک الذی بیدہ الملک
وھو علی کل شئ قدیر ۝ الذی خلق
الموت والحیوۃ لیبلوکم ایکم احسن عملا
وھو العزیز الغفور ۝ الذی خلق
سبع سموٰت طباقا ما تری فی
خلق الرحمٰن من تفوت فارجع البصر
ھل تری من فطور ۝ ثم ارجع البصر
کرتین ینقلب الیک البصر خاسئا
وھو حسیر ۝ الملک



الباب الأول

- مقدمة مع منظور تاريخي
- الفرد مقابل المجتمع
- مدارس الفكر الإسلامي
- الفلسفة الأوربية
- الفلسفة اليونانية

الفصل الأول

مقدمة مع منظور تاريخي

يتبين من دراسة تاريخ الفكر الديني والعلماني أنه خلال الأزمان المختلفة كانت لدى الفلاسفة العظام، ورجال الحكمة، والزعماء الدينين، مفاهيم متباينة عن قيمة العقل والمنطق والوحي، حيث يمكن تقسيمهم إلى مجموعات عدة.

فهناك من يؤكدون على أهمية دور العقلانية، إلى حد أنهم يعتبرون أن العقل هو الأداة الوحيدة للمعرفة واكتشاف الحقيقة. وبالنسبة لهم، يُعتبر الأمر الوحيد المعقول الذي يمكن أن يرتضيه العقل هو التفكير الجدلي المبني على الحقائق الحسية المنظورة. وعلى ذلك، فإنهم يعتقدون أن الحق (أيا كان الشكل الذي يُعَرِّفونه به) يمكن الوصول إليه فقط من خلال الملكة العقلية.

وهناك بعض المفكرين الذين يؤمنون بظاهرة الهدي الإلهي، التي – حسب ما يظن هؤلاء – تلعب دورا معيّنا في تنوير العقل البشري، وتمده بالإجابة على الكثير من المعضلات التي لم تُحل.

وأيضا هناك أولئك الذين يعتقدون أنه لا يمكن التوصل إلى الحقيقة إلا من خلال تجارب ذاتية تسمى "إلهامات". ويعتبرون أن هذا الإلهام يمكن الوصول إليه من خلال التأمل العميق في أغوار النفس، كما لو كانت صورة من تلك الإلهامات قد انطبعت على كل روح إنسانية. فَهُم يسبرون أعماق أنفسهم، ومن خلال الدراسة الذاتية للنفس الإنسانية يتأتى لهم الفهم الأساسي للطبيعة وكيفية عملها.

وهناك نوع آخر من طرق الوصول إلى الحقيقة، تشترك فيه كل من المدرسة الفكرية الدينية والعلمانية، وهو التصوف. فالنّزوع إلى اعتبار

الحياة لغزا كبيرا.. يبدو وكأنه القاسم المشترك بين المؤمنين وغير المؤمنين على السواء. وقد ينتمي المتصوفون إلى كل الفئات المذكورة أعلاه، ومن الممكن أن يكون منهجهم فلسفيا أو دينيا، ولكن السمة المميزة لهم هي أنهم يتصفون بالغموض.

ثم هناك أشباه الفلاسفة الذين يستعملون كلمات وجُملا يصعب على الإنسان العادي أن يفهمها. وعلى ذلك فإنهم يحجبون أفكارهم وآراءهم وراء ستار غامض من منطوقاتهم وأقوالهم التي يسهبون فيها. بينما هناك آخرون لهم عقول علمية، ولكنهم في حقيقة الأمر متصوفون بنفس القدر، مثل فيثاغورث وابن رشد (المعروف في الغرب باسم Averroes). إنهم يغوصون في الأعماق بحثا عن جوهر الحقيقة، ولا يكتفون بالتحليق حول مظاهر الأشياء. وإنه لمن المفيد دائما أن نقتفي آثار هؤلاء بالأسلوب العقلاني.

وفي عالم الأديان نجد متصوّفين من عدة أشكال وألوان. فهناك أولئك الذين يتبعون الدين ويؤدون العبادات الظاهرية التي يتطلبها الدين، ولكنهم يسعون جاهدين ليجدوا معنًى أعمق لهذه المتطلبات. وهناك من يتشدد في تأكيد أهمية المعاني العميقة على حساب ظواهر العبادات، مما يؤدي أحيانا إلى إهمال القيام بالعبادات الظاهرية وإلغائها كلية.

ولكن أتباع الديانات التي تقوم على الوحي الإلهي.. لا يبقون دائما محصورين بجدل في نطاق حدود الحقائق الموحى بها. ففي المراحل المتأخرة من كل دين نجد أيضا مثل هذه الجدليات التي لا يمكن اعتبارها كلها بأنها ذات طابع ديني. إذ نجد نفس الأسئلة القديمة التي طال عليها الأمد، قد عادت مرة أخرى إلى الحياة، ولكن في إطار جديد.. ما هو العقل؟ وأي دور يلعب في الأمور التي تخص الإنسان؟ وما هو موقف الوحي بالنسبة للمنطق والعقل؟

ومن الملاحظ بوجه عام وفي جميع الأحوال، أن التداخل والتباين بين

الأفكار المختلفة في المراحل المتأخرة من تاريخ أي دين من الأديان، يميل إلى العودة إلى الاضطراب الفكري الذي كان سائدا قبل مَقْدم ذلك الدين. ويحدث هذا لأن تأثير البشر على الدين يؤدي دائما إلى انقسامه إلى فرق كثيرة ومذاهب متعددة، وينتكس به جزئيا إلى الفلسفات والأفكار الأسطورية القديمة. ومن النادر أن يؤدي ذلك التأثير البشري إلى التوحيد والتلاحم بين المدارس الفكرية المختلفة، التي تتولد خلال مراحل الفساد والانحطاط الفكري التي تسبب الفُرقة والانقسام في الأديان. إذ أن هذا الفساد يكون قد استشرى وضرب بأطنابه، حيث يبدو أنه قد صار من المستحيل إعادة الدين إلى ما كان عليه.

لذا نجد أن أدياننا تبدأ بالإيمان اليقيني بوحدانية الله، ثم تتحول تدريجيا إلى طوائف وثنية متعددة. وأحيانا يقوم الإنسان ببعض المحاولات لتوحيد المفاهيم الدينية لدى أتباع الأديان، وإعادة توطيد وحدانية الله. ولكن بكل أسف، نجد أن هذه الجهود لا تنال سوى نجاح محدود. وعموما.. لا يمكن إرجاع العقيدة إلى ما كانت عليه من الصفاء، ما لم يكن هناك عون وهدي إلهي.

ولا نستطيع هنا أن نناقش بالتفصيل كل الآراء المتباينة التي قدمها الفلاسفة والحكماء في الماضي، ولكنا نستطيع أن نقدم وصفا مختصرا لمدلول الوحي والعقل، ومدى الارتباط بينهما.. كما قدمه بعض المفكرين العظام في الماضي.

ما هي الحقيقة الأزلية، وما هي المعرفة؟ وما هي العلاقة بين الاثنتين، إذا كانت هناك علاقة أصلا؟ هل الوحي هو الذي يقدم المعرفة.. التي بدورها تقود إلى الحقائق الأزلية، أم هل يمكن أن نحصل على المعرفة ونكتشف الحقائق الأزلية بواسطة العقل وحده؟

هذه الأسئلة، وأمثالها الكثيرة، كانت تثير عقول الفلاسفة ورجال الدين والمفكرين العلمانيين منذ فجر التاريخ. ولكن قبل أن نبدأ دراسة

حذرة وعميقة لهذه الأمور، فإنه قد يكون من المناسب إيضاح طبيعة الحقيقة الأزلية كما فهمها مختلف المفكرين.

إن جميع المؤمنين بالله الذين يؤمنون بوجود حقيقة أزلية، يفهمون هذه الحقيقة على أنها ثابتة لا تتغير بالنسبة للماضي والحاضر والمستقبل. وهم في الواقع يقصدون الله تعالى وصفاته القدسية بما يذكرونه على أنه الحقيقة الأزلية. ولكن.. حينما يبحث المفكرون العلمانيون نفس الموضوع، فإنهم غالبا لا يبحثونه فيما يختص بالله تعالى. إذ يدور بحثهم ونقاشهم عامة حول قِيَم معينة.. مثل الحق، الأمانة، الكرامة، الإيمان، الولاء، وهلم جرًّا. والسؤال الهام الذي حَيرّ عقول الفلاسفة، هو ما إذا كان يوجد بالفعل حقيقة لا تتغير.. حتى في مواجهة الظروف المتغيرة. وكثيرا ما كانت الموضوعية لحقيقة من الحقائق محل جدل ونقاش لتقرير ما إذا كانت تستحق أن تُعتبر بالفعل حقيقة، حتى إن الإنسان كثيرا ما يعجب ما إذا كانت للحقيقة معان متغايرة في الظروف المتباينة.

وجانب آخر لنفس السؤال يتعلق بفكرة الحقيقة التي تختص بالحقائق المتوارية خلف ستار ما هو واضح. فمثلا.. إذا اعتبرنا أن ضوء الشمس هو حقيقة قائمة بذاتها فقد يجانبنا الصواب. فأهم من الضوء نفسه هو الحقيقة السببية للإشعاع التي تعمل من خلف جميع مظاهر الإشعاع، وليس الضوء سوى أحد هذه المظاهر. فالحقيقة العامة الخفية هي خاصية الإشعاع التي قد تتردد أو لا تتردد في موجات طيف، يمكن أن يراه الإنسان في صورة ضوء. ومن هذه الزاوية، فلا يوجد هناك شيء يبدو أنه أزلي عن سطوع الشمس. ولكن، كما ذُكر عاليه، إذا كان من الممكن فهم سبب إشعاع الشمس فهما تاما، فحينئذ.. حيثما كان يعمل هذا السبب الذي يتسبب في الإشعاع، فإنه سيؤدي إلى نفس النتائج. ومن هذا المنطلق.. يمكن اعتبار أنه الحقيقة "الأزلية" التي تتحكم في قوانين الإشعاع وخاصية الإشراق. وبهذا المثال يصير من الواضح تماما أن لفظ

"أزلي" لا يدل دائما على حالة من الدوام المستمر الذي لا ينقطع. فهنا ينطبق اللفظ فقط على ظاهرة سببية، طالما وُجدت فإنها تعطي نفس النتيجة دائما.

بهذا الفهم البسيط للحقيقة الأزلية، فيما يتعلق بالحقائق العرضية، يمكن بحق اعتبار ظاهرة الجاذبية حقيقة أزلية. غير أنه لا بد أن يكون من الواضح في الأذهان أن أدنى تغير في تأثير قوى الجذب، لا يؤثر بحال من الأحوال في الأساس اللامتغير لحقيقة الجاذبية.

ويتضح من المناقشة السابقة.. أنه رغم أن جميع الحقائق الأزلية تؤدي إلى معرفة معينة، فإن جميع المعارف لا يمكن اعتبارها أزلية. فالمعرفة يمكن تعريفها بأنها فكرة عن شيء ما، محفوظة في العقل بأمان على أنها نتفة معلومة، يمكن الاعتماد على صحتها، والرجوع إليها. وحينما تجتمع كل هذه النتف من المعلومات بعضها مع بعض تُكَوّن المخزن الذي تُخزن فيه معارف الإنسان. ولكن.. كيف يمكن لنا أن نكتسب معرفة معينة، وكيف يمكن لنا أن نقرر صدق أو كذب ما إذا كانت معرفة ما.. على وجه التحديد.. صادقة أم كاذبة؟

ومرة أخرى نتساءل.. بأي الوسائل يمكن لنا أن نُصنف المعرفة على أنها حقيقة عرضية، أو حقيقة جوهرية، أو حقيقة أزلية، أو حقيقة مشروطة.. إلى آخر ذلك؟ إنها قدرة التفكير للإنسان وحدها وعقلانيته التي تتأمل هذه الحقائق حينما تُغذَّى للمخ، ثم تُقَلّبها.. وتُقَلّبها مرة أخرى.. وتجعل منها مجموعات مؤتلفة متعددة. هذه العملية الذهنية التي تُفرّق بين الصحيح والخاطئ، بين الواضح والغامض، وبين المحدود وغير المحدود، هي ما نسميه بالميكانيكية العقلانية.

ولكن هنا ينشأ سؤال عن مدى صحة طريقة التحليل هذه لعناصر المعرفة. إذ حينما نصل إلى هذه المرحلة من إدراكنا للعقل، فإن أسئلة محيرة أخرى تتوارد على أفكارنا. فنحن نعرف، مثلا، أنه ليس للعقل الإنساني

ثبات فيما يتعلق بما يكتشفه ذلك العقل. ونحن نعلم على وجه اليقين أن ما يُعتبر معقولا في عصر من العصور، قد لا يكون بالضرورة معقولا في عصر غيره. ونعلم، بغير شك، أن القدرة العقلانية كانت تنمو وتنضج باطراد منذ أن خرج الإنسان من عالم المملكة الحيوانية إلى عالم البشر. ومنذ ذلك الوقت تباعا، فإن المحصلة الجامعة للتجارب الإنسانية، المتراكمة في شكل معارف وحقائق في العقل الإنساني، استمرت في تحسين قدراته العقلية، ونوعية تقديراته الفكرية.

وكما أن التدريبات الرياضية تُحَسّن قوة العضلات، كذلك فإن القدرات الفكرية والعقلانية والذاكرة، تنمو وتكتسب قوة عن طريق التدريب الفكري. ولعل هذا التدريب أيضا هو الذي ساهم في النمو المتزايد لحجم مخ الحيوانات.

هذا الإدراك للتقدم المطرد لقدراتنا الفكرية.. رغم كونه مستحبا من ناحية، فإنه ليس بمستحب من ناحية أخرى، إذ إنه يجعل استنتاجاتنا العقلانية الفكرية محل شك وتساؤل خلال مراحل تطورنا المختلفة.

أليس من المحتمل أن تكون نفس تلك الحقائق، التي غُذِّي بها المخُ البشري خلال المراحل المختلفة من تطوره، قد أسفرت عن استنتاجات مختلفة؟ وإذا كانت الحقائق الموضوعية تبدو متباينة، حين يُنظر إليها من زوايا مختلفة، وإذا كانت الاستنتاجات التي استخلصها العقل الإنساني بغير انحياز، تختلف هي الأخرى في الأزمنة المختلفة، فحينئذ.. ألا يسوغ الحكم عليها بأنها ليست سوى مجرد حقائق مُبررة؟ وعليه.. فبالمنطق الاستدلالي والعقل وحده، في أي زمن من الأزمان، لا يمكن لنا أن نحكم على أي معرفة اكتسبناها بأنها الحقيقة المطلقة.

إن الأمور التي سوف نقوم ببحثها تتعلق بالآليات التي تقود إلى المعرفة، والأسلوب الذي بواسطته يمكن التأكيد على أن معرفة معينة تُعتبر بالفعل حقيقة ثابتة. وإذا أمكن وضع جميع الزوايا، التي يمكن أن ينظر منها

الإنسان على منصة متحركة، مع التغيير المستمر لزاوية النظر، فكيف يمكن لأية معرفة أو معلومة يمكن لنا تحصيلها.. أن نعتبرها حقيقة، وبأي درجة من درجات اليقين؟ إن هناك منظورًا واحدًا، وذلك هو الذي لله الخالق، وذلك هو المنظور الأزلي والثابت. وعلى هذا.. إذا أمكن إثبات وجود إله عليم بكل شيء، قدير على كل شيء، حاضر في كل مكان، وكان أزليا في وجوده، قدوسا لا يخطئ، متعاليا يسمو على كل شيء، ذا قوة مطلقة بغير حدود، وله جميع الصفات المطلقة، فحينئذ.. وفقط حينئذ.. يمكن أن يكون هناك احتمال الحصول منه على معارف الحقائق الأزلية. ولكن هذا الافتراض قائم على أساس أن هذا الكائن الأعظم ليس فقط موجودًا، بل يتصل ويتحدث أيضا مع البشر. وهذا الاتصال بين الله والبشر هو ما يُسمى وحيا في المصطلح الديني.

إن بحث أمور على مثل هذا الجانب العظيم من الأهمية، على أساس عقلاني وعلماني خالص لا يُعتبر مهمة سهلة. وتزداد المهمة صعوبة وتحديا، إذا أضفنا إليها موضوع الوحي، وما إذا كان قد لعب دورا هاما في هداية الإنسان. ومع ذلك.. فإن هذه هي المهمة التي أخذنا على عاتقنا تبيانها، مع إدراكنا الكامل لجميع التعقيدات التي يتضمنها هذا التبيان.

إننا نسأل القارئ، بكل احترام، أن يبذل جهدا لكي يظل منتبها، ومتى عوّد القارئ نفسه على خبايا اللغز الفلسفي والعقلاني، فإنه سوف يجني شعورا بالسرور العظيم، حين يرى كل قطعة من هذا اللغز تقع في مكانها الصحيح.

وبالنسبة للدين، فقد أدى هذا المنظور إلى توَلد مدرسة فكرية بين علماء الاجتماع والمفكرين في العصر الحديث، الذين يرون أن نشوء الدين وارتقاءه إنما كان انعكاسا لنمو القوة العقلانية في الإنسان. وهذا يعني أن الذكاء البدائي نسبيا للإنسان في الماضي السحيق، هو الذي خلق صورا وأفكارا متعددة عن آلهة، أدت مع مرور الزمن إلى مولد فكرة وجود إله

واحد، يسمى "الله" في العربية، أو GOD في الإنجليزية، أو PARMATMA في الهندية، الخ. وإذا أمكن قبول هذه النظرية، فإنها تؤدي بنا إلى استنتاج أن الدين في كل مرحلة من مراحل تاريخه، كان ينمو حسب القدرات العقلانية المتغايرة للإنسان.

وهذا المنظور يعارض تماما الرأي الذي تقول به العديد من الأديان في العالم، والتي تؤمن جميعها بأن الدين قد انبثق عن الله تعالى. وطبقا لهذا الرأي.. فإن الله الواحد الأزلي الحكيم هو الذي علم الإنسان الدين مباشرة. ويرى هذا الرأي أن الشرك، أو التعددية الإلهية التي سادت بعض المراحل من التاريخ الإنساني، لم تكن سوى عملية انتكاسية، أي أنها عملية كانت تحدث دوما عقب عملية التوحيد، أو الوحدانية الإلهية، بعد أن أرسى قواعدها رسل الله ووطدوا أركانها. وسوف نذكر فيما بعد مناقشة لهذه الأمور والقضايا.

إن معظم الأديان العظمى تقريبًا تدعو للإيمان بإله غير منظور.. إله يستطيع أن يتصل بالإنسان، بل ويتصل به فعلا. وهي تقول إن الله يختار مندوبين من بين البشر، وأن تلك الاتصالات التي يتلقاها هؤلاء من الله، هي الطريقة الوحيدة التي يمكن الاعتماد عليها في الوصول إلى المعرفة الصحيحة. وهي تقول بأنه من المستحيل التأكيد على صدق أية حقيقة، بيقين تام، إذا كانت قائمة فقط على التجارب الإنسانية والاستنتاجات العقلانية.

إن كل ما ذكرناه عاليه باختصار قد تناولناه بتفصيل أكثر في الفصول التالية.

الفصل الثاني

الفرد مقابل المجتمع

الحرية حق لكل الكائنات الحية، ولا يُستثنى الإنسان من ذلك. فالحرية هي أغلى ثمرات الحياة. وليس الإنسان إلا صورة مصغرة للحرية المنقوشة في ذاته، فالنسيج الإنساني نفسه مغزول بفتائل من الحرية. ومع ذلك، وبكل غرابة.. نجد أن جميع المؤسسات التي خلقها الإنسان، يؤول أمرها في النهاية إلى أن تعمل ضد حرية الإنسان.

والدراسة الدقيقة لتاريخ النمو المطرد للتقاليد والعادات والقوانين، تكفي لكي تبرهن على صحة هذه المقولة. فإن نشوء الدولة، حين يُرى من منظور حيادي مستقل، سوف يبدو كما لو كان لا يزيد عن كونه رحلة تقنينية للإنسان، تجاه عبودية مطردة فرضها الإنسان على نفسه. وحل هذه المعضلة يتطلب فهما عميقا للعوامل المسؤولة عن هذا التحول من الحرية إلى العبودية، خطوة بعد أخرى.

غير أن هناك أمرًا لا بد من إيضاحه بادئ ذي بدء، وهو أن الإنسان بطبيعته يخضع لسُلطة المجتمع فقط حينما يكون مسوقا بدوافع أنانية؛ وإلا فلا بد من قهره على الخضوع. أما أن يكون الفرد مجرد عضو في مجتمع.. فهذا أمر ليس مقصورا على الإنسان وحده، إذ أن الْمُشاهَد في المملكة الحيوانية أنه كلما كانت هناك حركة من الأدنى إلى الأعلى، يكون هناك تحول تدريجي من الحياة العشوائية غير المنظمة، إلى حياة في مجتمع أكثر انضباطا وتنظيما ومركزية. ونلاحظ أحيانا أن هناك نزوعا مُعَينا، حيث لا بد وأن تكون الحاجة مثلا قد علّمت الحيوان أن يعيش بعضه مع بعض، حفاظا على المصلحة المشتركة من أجل البقاء. وأحيانا، ولشدة ما

يثير العجب، نجد نظاما اجتماعيا وانضباطا دقيقا في بعض السلالات الحيوانية، التي لا تأتي في أعلى سلم الارتقاء، إذ لا يوجد هنا تأثير للارتقاء التدريجي يمكن تتبعه في نمطها المنظم، الذي يبدو وكأنه قد انبثق كما هو على هيئته الكاملة الأخيرة. وكل ما يمكن لنا أن نستخلصه من دراستنا لوجودها المنظم، هو أن هذا التنظيم منطبع في فطرتها.

خذ مثلا حالة بعض الحشرات.. أين يمكن لنا أن نضع على سلم النشوء والارتقاء مجتمعَ نحل العسل؟ وما عساه يمكن أن يكون قد سبق النحل في الوجود، إذا كان النحل قد نشأ وارتقى خطوة بعد خطوة؟ أين يمكن لنا أن نجد الدليل على وجود تطور، أو تدرج مرحلي للنمو في العديد من أنواع الحشرات، التي انتهت في ارتقائها إلى وجود نحل العسل؟ كذلك.. حينما نستقصي أحوال حشرة الترمايت أو النمل الأبيض، وبعض السلالات الأخرى من النمل في مملكة الحشرات، فإننا نصطدم بمشاكل وأسئلة مماثلة.

وفي غيبة كل أثر يدل على وقوع تطور مرحلي، يمكننا استخلاص أن هذه الحشرات جميعها قد وُجِدت لتؤدي وظائف معينة عن طريق نظام فطري تتبعه بكل دقة. وبالنسبة لها.. هناك قانون لا تُنتهك حرمتُه أبدًا، مسجل في بواطنها من RNA وDNA. وبالمقارنة.. نجد أن هذه المجتمعات الحشرية تجعل حتى أكثر المجتمعات الشيوعية صرامة ونظاما تشعر بالخجل. فهي جميعها حالات فريدة في نوعها لعجائب منظمة خلاقة، لا تشير إلى وجود تاريخ يمكن تتبعه لبداية أولية أقل تعقيدا، تطورت تدريجيا إلى مرتبة أعلى لمجتمعات أكثر تعقيدا.

ويمكن لنا بكل اطمئنان أن نستخلص من هذا أن الحياة، على حالها، تقدم نموذجين من الأنماط يمكن لنا دراستهما.. أحدهما يبدو فجائيا، كما لو كان قد وُجد من لا شيء، وقد انبثق فجأة نتيجة لعجائب الله تعالى الخلاقة، غير أن العلماء قد يُرجعونها إلى مجموعة من التغيرات الطفرية،

التي وقعت كلها في نفس الوقت وفي لحظة واحدة فريدة. وغني عن القول أن هذا التعليل الافتراضي غير مقبول من الناحية العلمية بطبيعة الحال.

والنموذج الثاني لنمو النظام الاجتماعي في المملكة الحيوانية، هو أكثر شمولا وتقدما في طبيعته، رغم أن النتائج ليست أكثر دلالة ولا أكبر أثرا كما هو الحال في الأمثلة السابقة. فحتى الكلاب، والذئاب، والبقر الوحشي، تعيش كل منها سويا في مجتمعات من أجل مصلحة بقاء النوع. ومهما كان السبب، فإننا نلاحظ أيضا نزوعا مشابها في تجمع الطيور من نفس النوع. وبالمثل فإن مجموعات السمك، وأنواع السلاحف، والـقنافذ البحرية.. كلها تُبدي ميولا مماثلة. إذن هذا الارتباط بين أفراد كل نوع من الأنواع أمر عام من مقتضيات الحياة.

ومع النظام، تتولد السُلطة وتظهر القيادة، كما يبدأ في الظهور مفهوم باهت للجريمة والعقاب في كل مستويات هذه المجتمعات. لذلك.. فإن نشوء الإنسان كحيوان اجتماعي ليس بحادث منفرد، بل يتوافق مع أسلوب سبق تدبيره، يتساوى معه فيه معظم الحيوانات الأخرى، بدرجة أدنى أو أعلى.

أما كيف حدث أن نشأت المؤسسات الاجتماعية في نفس الوقت في جميع أنحاء العالم.. فهو سؤال يتطلب مناقشة طويلة. ونريد فقط أن نبحث بعض السمات الهامة للنمو الاجتماعي بين البشر، تلك السمات التي ترتبط مباشرة بالموضوع قيد البحث.

لقد كانت الحرية الشخصية في صدام دائم مع القيود التي يفرضها المجتمع. ولا بد من فهم المعضلة الناشئة عن هذه المعادلة فهما عميقا، لأن هذا الفهم على درجة عظيمة من الأهمية، وذلك لكي ندرك بشكل أفضل تأثير القوى التي ترسم في النهاية الحدود لحرية الفرد من ناحية، والقوة المتنامية للمجتمع من ناحية أخرى. إن علاقة الفرد بالأسرة، وعلاقته بالعشيرة، وعلاقته بالدولة، كلها أمثلة لما يمكن به دراسة الحياة في

معتركها الحضاري. فإذا كان الإنسان حرا يعشق الحرية، يكون حينئذ السؤال الهام الذي يجب بحثه أولا هو.. لماذا يرضخ الإنسان لأية سُلطة اجتماعية.

حيثما ينشأ نظام اجتماعي، أو عنصري، أو اقتصادي، أو سياسي، فإنه ينشأ حول مفاهيم غير مكتوبة من "هات وخذ" بين المجتمع.. وبين الأفراد الذين يُكَوّنون هذا المجتمع. فإن الفرد لن يقبل أن يوضع قيدٌ على حريته، إلا وهو يعلم أنه سوف يكسب في النهاية أكثر مما يخسر.

فأولا وقبل كل شيء.. يكون الحصول على السلامة والأمن الشخصي هو ما يساوم الفرد من أجله على حساب بعض حرياته الشخصية. إذ من ناحية.. نجد أن الفرد يتخلى عن بعض حقوقه للمجتمع الذي ينتمي إليه، ومن ناحية أخرى.. فإنه يكسب بعض الحماية المضمونة، والمساعدة التي تجعل من وجوده الفردي أكثر سهولة وأنعم راحة.

ومن الطريف أن نعلم أنه في بداية تكوين المجتمع على كافة المستويات، نجد أن الأفراد دائما هم المنتفعون. وهذا ما نجده كنُزوع طبيعي في المملكة الحيوانية. وهذا أيضا صحيح في المجتمعات الإنسانية في مستوياتها البدائية. ولكن المجتمعات الإنسانية حينما تتنامَى تنظيميا، تميل إلى عدم التوازن عند توزيع السُلطة بين الفرد والمجتمع. وكلما ازدادت النسبة بين عدد الأفراد في المجتمع وبين عدد القلة الحاكمة، كلما زاد خطر سوء استغلال السُلطة، وإساءة استعمالها في يد القلة الحاكمة.

ورغم أنه من الممكن نظريا للفرد أن يربح بعض المكاسب في مقابل كل خسارة يتحملها على حساب حريته، إلا أن هذا لا يتوافق دائما مع ما هو متوقع ومنتظر عادة، إذ نجد أن المبدأ الأعظم للحرية الشخصية يُقدم قربانا على مذبح المجتمع. وكثيرا ما يحدث أنه مع نمو المجتمع.. إذا به يصير أكثر سُلطويا، وأقل تقديرا للمصالح الخاصة للفرد.

وسوف يكون لنا نقاش أكثر تفصيلا لهذا الموضوع، حينما نتناول موضوع الماركسية. ولكن الغرض هنا هو مجرد أن نقرر السبب الأساسي الذي أدى إلى هذه الحالة من التردي. فلماذا لا يشعر الفرد بأنه أنعم راحة وأكثر أمنا، في مجتمع يكون أكثر نموا وأشد قوة؟ إذ لا يحدث أبدا أن نجد بين الحيوانات مجتمعا يشوبه الاتجاه التآكلي والانهياري في سلوكهم الاجتماعي. فلماذا تكون المجتمعات الإنسانية وحدها هي التي تعجز عن تحقيق أهدافها، فيما يتعلق بمسؤولياتها تجاه حقوق الفرد؟

إن الخط الفاصل بين الحيوان والبشر، الذي يفصل تماما بين الاثنين، هو النّزوع القوي لدى الإنسان أن يخدع ويغش، ويخالف القوانين الطبيعية. وفي هذا المجال نجد أن البشر يتفَوق على جميع أنواع الحيوانات بقدر كبير. والحيوانات أيضا، تبدو أحيانا كأنها تغش، ولكن دائما لا يعدو فعلها هذا إلا أن يكون حيلة يلجأ إليها الحيوان، وليس هو خداعا بالمعنى الإجرامي. فليس هناك خيانة للثقة بين الحيوان، كما هو الحال بين الإنسان. إذ تعيش الحيوانات حياة بسيطة، لها نظامها في نطاق سلسلة القوانين الطبيعية التي تحكمها وتسيطر عليها. وحين يبدو الحيوان وكأنه يغش، فإنه يفعل ذلك بفطرته، حيث إنه محكوم بنوازع غريزته، التي تخرج عن نطاق تعريف الجريمة.

وهذا في الواقع نتاج لموهبة حرية الاختيار. فالحيوانات محكومة تماما بالميول الفطرية والقوانين الغريزية، وليس لها خيار فيما يتعلق بالصحيح والخطأ. بل في حقيقة الأمر لا يوجد بالنسبة لها صحيح أو خطأ.

إن البشر وحدهم هم الذين يستطيعون بإرادتهم أن يتجاهلوا مسؤولياتهم، وأن يستغلوا حقوق الأفراد الآخرين في المجتمع، وهم يعلمون أن هذا الاستغلال أمر خاطئ. وعلى ذلك، فإن الحرية الشخصية.. فيما يتعلق بالمسؤولية الجماعية التي يدين بها الإنسان لأي مجتمع.. تتهاوى وتُقَوَّض بسبب الدوافع التي تدفعه لمخالفة القوانين، وارتكاب جرائم

الغش، والسلوك الخاطئ، ومع ذلك فإنه يأمل أن يفلت بكل ما يستطيع أن يضع عليه يده. وعلى هذا، حينما لاحظ كارل ماركس أن الإنسان حيوان فاسد، كان بالفعل محقا.. غير أنه لم يكن من حقه أن يستثني نفسه، ولم يكن من حقه أن يستثني القيادة الاشتراكية، التي كان من المفروض أن تُبنَى على قوالب من اللاأخلاقية. وهذه هي مأساة المجتمع الإنساني خلال عصور الزمن التي لم يخل منها أي مجتمع. فإن الخلل الموجود في العلاقة بين الفرد والمجتمع، يؤدي في مختلف الأنظمة إلى النّزوع نحو إصدار المزيد والمزيد من القوانين المقيدة.

ويبدو أن كل قانون يصدر.. يكون المقصود به حماية حق الفرد من ناحية، وحماية حق المجتمع من ناحية أخرى، من العدوان بغير وجه حق على سلطان كل من الطرفين، وعلى حقوقه الخاصة به. ولكن بكل أسف، بسبب الفساد في مجتمع الإنسان، نجد أن واضعي القوانين لا يستطيعون أن يستمروا على ولائهم لمبدأ العدالة المطلقة. إذ كثيرا ما يحدث أثناء وضع التشريع بصورة جماعية.. أن يُحرَم الفرد من حقوقه الأساسية، على أيدي نفس المؤسسات التي خلقها للدفاع عن هذه الحقوق.

ولا نريد هنا أن نتعرض لموضوع المجتمعات الدينية بالتفصيل. ولكن من وجهة النظر العلمانية للفلسفة الاجتماعية، نرى أنه لا بد من ذكر الدين باختصار. فإن علماء الاجتماع عموما لا يعتبرون أن الدين ظاهرة مقدسة نشأت من عند الله تعالى. وعلى هذا، فليس الدين من منظورهم سوى تعبير آخر للسلوك الاجتماعي للإنسان.

وإذا افترضنا أن نظرتهم لنشوء الأديان نظرة صحيحة، فإنه يترتب على ذلك أن كل المجتمعات الدينية يجب أن تُعتبر كما لو كانت تشغل موقعا فريدا بين الأنظمة الاجتماعية للإنسان. إذ يجب أن يُنظر إلى هذه المجتمعات كلها على أنها رمز مجسم للخداع الذي وقع ضد المجتمع وضد

الفرد. ولا مناص، في هذه الحالة، من اعتبار أن جميع مؤسسي الأديان كانوا محتالين مُحَنَّكين، استطاعوا عن قصد أن يخدعوا عامة الناس باسم آلهة من نسج خيالهم، كما تقضي بذلك النظرية التي يقول بها عالم الاجتماع. وإذا كان يُقال عن هؤلاء إنهم محتالون.. فأنْعِمْ بهم حقا مِن محتالين!

إنهم، حسب منظور عالم الاجتماع، اختلسوا لأنفسهم صبغة قانونية نيابة عن الله تعالى، ليجعلوا البسطاء السذج من عامة الناس يرزحون تحت أغلال ما يسمى بالقوانين الإلهية. وعلى هذا فهي سلسلة كهنوتية دينية فاسدة تحكم باسم الله بما فيه مصلحتها. هذا هو منظور عالم الاجتماع للمجتمع الديني. ويبدو أن كارل ماركس أيضا كان على اتفاق كامل مع هذه النظرة للدين، معتبرا إياه أفيونا غايته أن يُبقي القوى العاملة في الشعوب مقيدة بأغلال الإدمان إلى الأبد، حتى لا يفيقوا بتاتا.. ولا يدركوا بشاعة الاستغلال الذي وقعوا فيه بلا رحمة على يد البرجوازية. ومحتوَى هذا الأفيون القوي، الذي يجعل البروليتاريا في حالة من التخدير واللاوعي، هو قائمة الأخلاقيات التي تقوم عليها جميع الأديان. وعلى هذا فإن فكرة الإله ارتبطت دائما ارتباطا وثيقا بالأخلاقيات التي تكبح جماح الإنسان، وتهذب سلوكه باسمه تعالى.

الفصل الثالث
مدارس الفكر الإسلامي

إن المنظور الإسلامي يمكن تحصيله من مصدرين اثنين. الأول: من خلال أعمال ونتاج مختلف المفكرين المسلمين، والثاني هو محاولة الفهم العقلي المباشر للقرآن الكريم، في ضوء السُنة التي تتضمن كلا من التوجيه القولي والفعلي للرسول ﷺ. غير أن مدى أصالة وصحة المصدر الأول لفهم الإسلام، قد صار بمرور الزمن أكثر ريبا وسببا للالتباس، لأن العلماء والمفكرين المسلمين كانوا يميلون باطراد إلى أن يكونوا أكثر تزمتا في قياساتهم وآرائهم، التي قد لا تكون دائما بالضرورة منطقية ومعقولة. وبالإضافة.. فإن ما يعتبرونه "إسلاميا"، كان يعتمد أولا بطبيعة الحال على دراساتهم ومفهومهم للأصول الإسلامية. أما من يبنون فهمهم وقياسهم على القرآن والسُنة فيمكن اعتبارهم ضمن فئة خاصة، إذا التزموا بالقواعد العقلانية بدقة. وسوف نقدم في نهاية هذا الكتاب دراسة تحليلية من هذا القبيل لمبادئ الإسلام الأساسية. أما الآن فإننا نركز اهتمامنا على المفكرين المسلمين، ونبحث القضايا الفكرية للسابقين من العلماء والحكماء والفلاسفة المسلمين، في المرحلة التي أدت إلى تكوين مدارس عديدة للفكر الإسلامي.

وقد كان هناك عاملان لهما تأثير خاص خلال الحقبة الأولى من التاريخ الإسلامي:

١) كان أثر القرآن والسُنة هو الأكثر قوة والأشد تأثيرا، الأمر الذي أدى إلى ثورة في مفاهيم المعرفة، ووسّع آفاق الدراسة والبحث والتقصي بشكل لم يسبق له مثيل.

٢) لقد لعب الاهتمام المتنامي بالفلسفة والعلوم اليونانية، ودراسة

الفلسفات الكلاسيكية القديمة للهند وفارس والصين أيضا دورا في صياغة الفكر الإسلامي. وهذا مهّد الطريق لبعض الفلاسفة الأجانب لأن يصيروا محل اهتمام المسلمين، إما بشكل مستقل أو بشكل يرتبط بالتعاليم الإسلامية.

وبسبب هذا الاهتمام بالفلسفات الدخيلة، والرغبة في ربطها بالوحي القرآني، نشأت مدارس فكرية جديدة. وسُمِّيَت هذه المدارس الفكرية مدارس إسلامية، لأنه ببساطة.. في أول الأمر.. كان الفكر الإسلامي، والتعليم الإسلامي، والعقائد الإسلامية، هي المهد الذي نشأت فيه تلك المدارس الفكرية. وعلى ذلك، فإن هذه الفلسفات الأجنبية على الإسلام، التي ترابطت وتداخلت فيها أفكارها القديمة، قد تأسست كلية على قاعدة من الدراسات القرآنية. ورغم أن البعض من العلماء ذوي الأفق الضيق كانوا يدمغون تلك الفلسفات بأنها غير إسلامية، لأنها كانت تتميز بالمرونة والتفهم، إلا أنه ليس هناك بادرة من شك في أن هؤلاء العلماء الفلاسفة العظام ظلوا دائما وأبدا مسلمين، ونادرا ما كان ارتباطهم بالفروع المدنية للمعرفة.. على حساب عقيدتهم وإيمانهم. وبهذا الخصوص، كان لكل فرد الحق أن يقرر لنفسه، بعد الدراسة المناسبة للقرآن والسُنة، ما إذا كان أي منظور فلسفي لأحد هؤلاء المفكرين يمكن قبوله على أنه إسلامي أم لا. ومع هذا، فإن النتائج التي كانوا يتوَصلون إليها، كانت دائما مطروحة وقابلة للبحث والتمحيص. وقد يجدها البعض تتفق مع التعاليم الإسلامية وقد لا يجدها البعض كذلك، ومع هذا فليس من حق أحد أن يشك في نياتهم. إن من حق كل من يبحث عن الحقيقة بإخلاص أن يكون له رأيه الخاص، بعد قيامه بمحاولة صادقة ومخلصة لفهم القرآن والسُنة بعمق. ومن حق الآخرين أن لا يوافقوا على آرائه، ولكن ليس لأحد السُلطة أن يمنع الآخر من حقه المشروع في أن يعتقد ما يشاء، وأن يعتقد أيضا أنه على صواب.

وسوف نُقدم الآن باختصار بعضا من المدارس الفكرية في الإسلام التي نشأت بسبب اختلاف النتائج التي خرجوا بها بعد دراسة مستفيضة لنفس المصادر. غير أنه يجب التنويه بأن كل مدرسة فكرية تقول إنها تقوم على القرآن الكريم والسُنة الشريفة، فلا بد من تقييمها بحرص شديد، وبشكل مباشر، على الأدلة التي تستند عليها من القرآن والسُنة. فليست كل الأفكار والآراء التي راجت في الحقبة التي علا وازدهر فيها الإسلام، يمكن أن توصف بأنها إسلامية في خصائصها. فالبعض منها كان يتعارض جزئيا، وأحيانا يتعارض تماما، مع بعضها الآخر. غير أن هذا لا يسلب منها الحق أن تُعتبر أنها إسلامية في فحواها.

الأشعريـــــــــة

تَدين المدرسة الفكرية الأشعرية للإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (٢٦٠-٣٣٠هـ) بإعطائه إياها السمت المتميز بين المدارس الفكرية الأخرى السائدة آنذاك. وكان ذلك في حقبة تَزايدَ فيها سريعا اتجاه بعض العلماء المسلمين نحو العقلانية، مما تسبب في حدوث رد فعل مضاد لهذا الاتجاه. وعلى رأس حركة رد الفعل هذه كان الإمام المشهور إسماعيل الأشعري. ومن الطريف أن أستاذ الأشعري نفسه، (الجبائي الذي توفي عام ٣٠٣هـ)، كان أحد أعلام العقلانيين في زمنه. ولم يفصح الإمام الأشعري عن معارضته للعقلانيين فحسب، بل إنه كشف بقوة عن مواطن الضعف في أي فكر يجعل الاعتماد كله على العقلانية كوسيلة وحيدة لمعرفة الحقيقة.

ويرى الأشعرية أن العقلانية لا تؤدي إلى الحصول على أية معارف، ولا إلى معرفة الحقيقة الأزلية، بل اعتبروا أن العقلانية تؤدي إلى الشك والتناقض الكثير. فالأشعرية يؤكدون على أن المعرفة الحقيقية هي التي تقوم وتتأسس على الاعتراف بالوحي وقبوله، باعتباره الوسيلة الوحيدة

التي يمكن بها الوصول إلى الحقائق الأزلية، لأن المرجع الأخير للحقيقة هو الله تعالى نفسه. وعلى هذا، فإن السبيل الوحيد للوصول إلى الحقيقة هو الوحي الإلهي.

وبسبب ردود الفعل لدى الأشعريين تجاه العقلانيين، فإن بعضًا منهم تطرف إلى درجة بعيدة، بلغت إلى حد رفض أي تفسير للآيات القرآنية يؤيده المنطق البشري. بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من هذا، حتى أنكروا تماما أي تفسير مجازي للقرآن الكريم. وقد كان الإمام الأشعري نفسه عالما منطقيا بارعا، ولعله من الطريف أن الأدلة التي قدمها ضد العقلانية كانت بنفسها مبنيّة على العقل والمنطق. وفي المقطع التالي يتضح موقفه من خلال إحدى مناظراته الشهيرة مع أستاذه العلامة الجبائي:

سأل الأشعريُ.. الجبائيَ: "ما رأيك في المصير الأخروي لثلاثة من الإخوة: أحدهم مؤمن، والثاني غير مؤمن، والثالث طفل؟

فأجاب الجبائي: "المؤمن سيذهب إلى الجنة، وغير المؤمن سيذهب إلى جهنم، ولكن الطفل لن يذهب إلى الجنة ولا إلى النار، لأن ليس من أعماله ما يستحق به الثواب أو العقاب".

فقال الأشعري: "إن الطفل قد يحاجّ الله تعالى قائلا: إذا أخرتني بعض الوقت، كنت أستطيع أن أقوم بفعل بعض الحسنات من الأعمال، فلماذا إذن أُحرَم من دخول الجنة؟"

فأجاب الجبائي: "يمكن لله أن يجيبه قائلا: "كنت أعلم أنك إذا كبرت في العمر فإنك كنت سترتكب السيئات، وعلى هذا فإن موتك في هذا العمر هو فضل عليك، فإنك بذلك قد نجوت من عذاب جهنم".

فقال الأشعري: "إن الأخ غير المؤمن في ذلك الوقت سوف يتدخل في المناقشة ويلقي باللائمة على الله، لأنه لم يتوفه في نفس عمر أخيه الطفل، فينجو بذلك من ارتكاب السيئات".

ومن الواضح أن الأشعري، رغم أنه كان يُناظر ضد العقلانية، فإنه

نفسه كان يستعمل كل أسلحة العقلانيين. ولذلك فمن الخطأ القول بأنه كان كلية ضد العقلانية. وعلماء هذه المدرسة الفكرية، من أمثال الإمام الغزالي والإمام الرازي، كانوا يعتمدون كثيرا على الأدلة العقلانية لحل المشكلات وتوضيح معتقداتهم. ولعل رد الفعل العنيف ضد الاعتماد على العقل وحده، كان بسبب الخوف من أن الفلسفات الجديدة.. التي بدأت تغزو الساحة الدينية.. قد تتسبب في الانحراف عن الأفكار الإسلامية. فقد ساد الظن بأن استعمال العقل يمكن أن يؤدي إلى حركات تحيد في النهاية عن الإسلام الصحيح. وعلى هذا، فإن جميع تلك الحركات التي كان لها اتجاه عقلاني، كانت تُدمغ بأنها إلحادية أو مُبتدعة، وهو وصف ازدرائي.. لأنه يعني الانحراف عن الطريق المستقيم. وكان الخوف من التقليد المتشدد ينعكس في الألفاظ والأوصاف التي استعملوها لوصف أصحاب الحركات العقلانية، فقد كانوا يصفونهم بأنهم "معتزلة"، أي أولئك الذين حادوا بعيدا عن الصراط المستقيم وصاروا ملحدين.

ومجموعة أخرى كانت تُعرف باسم الماتريدية (Maturidiyya) (أتباع أبو منصور الماتريدي) كانت تؤمن بأن الوحي يجب أن يُقبل أولا على أنه وحي سماوي، ثم بعد ذلك يمكن البحث عن التفسيرات المنطقية التي تؤيده. كانوا يؤمنون بأن الوحي يُقوي الإيمان، بينما تضفي التفسيرات المنطقية المزيد من الاطمئنان إلى ذلك الإيمان. ولم ترفض الأشعرية التفسيرات المنطقية كلية، ولكنها اعتبرتها حشوا لا طائل منه؛ فإذا ما توافرت تلك التفسيرات فبها ونعم، وإلا فإن ما تلقاه الإنسان من الوحي فيه الكفاية، حتى ولو كان بغير سند من المنطق والعقلانية.

وعلى الجناح اليميني من الحركة الأشعرية نشأت فرقة أخرى تُعرف بالسلفية، (وهم الذين يتبعون اتباعًا أعمى عقائد أهل السلف). وعند هؤلاء يجب أن يُقبل الوحي بغير أي نقاش أو سؤال. فلم يسمحوا بأي تفسير فلسفي ولا توضيح منطقي، حيث كانوا يخشون أن تؤدي هذه

الأمور إلى الانحراف عن الطريق الصحيح.

المعتزلـــــــة

وأما المعتزلة، فهم لم يرفضوا فكرة أن يكون الوحي أكثر الوسائل تأثيرا في هداية المرء إلى الحقيقة، ولكنهم كانوا يؤكدون أن المعنى الحقيقي للوحي ورسالته، لا يمكن أن يُفهم فهما صحيحا بغير استعمال العقل. وعلى هذا فقد أعطوا للعقل أهمية تفوق الوحي في الأحوال التي يبدو فيها فقط أن الاثنين يتعارضان معا، ففي هذه الحالة كانوا يرون أنه يجب أن تكون الأولوية للتفسيرات العقلانية، ليس كبديل للوحي، ولكن كتبيان واضح للرسالة الموحاة. وكانوا يعتقدون بأنه من المتعسر جدا الوصول إلى حقيقة معاني القرآن الكريم والسُنة بغير العقل، الذي يفسر الأمثال العديدة والكنايات الكثيرة والرموز المتعددة الموجودة هناك. فمثلا يذكرون أن التعبيرات الكثيرة مثل "يد الله ووجه الله" يجب أن تُفسر على أنها تعني قدرة الله وفضل الله، وهلم جرًّا. بينما يؤكد الأشعري بدوره على أن هذه التعبيرات القرآنية هي صفات حقيقية لله تعالى الذي لا تُعرف طبيعة ذاته، غير أنه يوافق على أن هذه التعبيرات لا تعني أبدا أوصافا لأعضاء مادية.

ورغم أن حركة المعتزلة تبدو وكأنها تتشابه في سماتها مع المدارس الفكرية الأوربية، في الفترة ما بين القرن التاسع إلى القرن السابع عشر الميلادي، إلا أنها لم تنتهج المنهج الإلحادي الذي سلكه الأوربيون العقلانيون، خلال مراحل الانحطاط المطرد. لقد ظل المعتزلة ينهلون دائما من المصادر الإسلامية الأصلية.. في القرآن الكريم والسُنة الشريفة.. لتأييد وجهات نظرهم، مستظلين دائما بقربها، ولم يسمحوا لأنفسهم أبدا أن يتباعدوا أو ينحرفوا عنها.

واليوم.. لم يعد هناك من فرق واضح بين وجهات النظر عند المعتزلة

والأشعرية. ورغم أن المنظور التاريخي الذي قدمناه عاليه، قد ترك بصماته على الدراسات العلمية لعلماء المسلمين في الجيل المعاصر، إلا أن الاختلافات الحادة في الماضي لم تعد ظاهرة بكل وضوح. إذ يبدو أن علماء اليوم يُبرزون أفكارهم الشخصية أكثر من أفكار أي من المدارس الفكرية الطائفية السابقة. ورغم ذلك، فإن بقايا أفكار الماضي القديم ما زال يُلمَح أثرها. وهي نتاج تقارب تدريجي كان يتزايد باطراد بين مختلف المدارس على مر العصور. وبين هؤلاء من يصرون على البقاء في مسلكهم بعقلية العصور الوسطى، ولكنهم لا يستشهدون بأقوال أو آراء أي من المدارس السابقة لتأييد وجهة نظرهم. إنهم يقفزون من أقوال عالم إلى آخر، بحثا عن واحد من العلماء ينتمي إلى أية مدرسة من المدارس، يمكن لهم الاستشهاد بأقواله ليثبتوا به صحة آراءهم. وقد اختفت بالنسبة لهم الاختلافات التي كانت بين العديد من المدارس الفكرية في العصور الوسطى، إلا أن روح العصور الوسطى ومفاهيمها نفسها.. لا تزال موجودة.. تقود خطاهم. ونفس الشيء.. تقريبا.. يُعتبر صحيحا بالنسبة لما يُسمى بعلماء التحديث أو التجديد. فحيثما يتفق الأمر مع أهوائهم وأغراضهم، فإنهم لن يترددوا في الاستشهاد بأقوال أي من العلماء القدامى، ولكنهم يشعرون بأن لهم حرية الابتداع في الأمور الأخرى، التي تعبر عن وجهات نظرهم الشخصية.

المتصَوّفــــــة

لقيَت الصوفية قبولا واسعا في تركيا وإيران، وفي بلاد شرق عموداريا (Amu Darya)، وهي منطقة تُذكر تاريخيا باسم ترانس – أوكساس (Trans-Oxus). والكثير من المسلمين في الاتحاد السوفيتي السابق كانوا من أتباع الصوفية، التي لعبت دورا هاما في إبقاء الإسلام حيًّا في بلادهم، خلال الحقبة القيصرية والشيوعية.

والنقطة التي يركز عليها الصوفية بقوة، هي أن روح الوحي تعمل تحت الشكل الخارجي للدين، ويجب أن تُعطى لهذه الروح الأفضلية فوق الشكل. وما يفهمه المتصوّفون على أنه روح الدين الأساسية، هو ببساطة الهدف الأسمى الذي تسعى الأديان جميعها لتحقيقه. وهذا الهدف الأسمى هو حب الله تعالى ووصاله. وعلى هذا، في رأي هؤلاء، إذا بلغ الإنسان هذا الهدف الأسمى، عن طريق الالتزام بالشكل أو بغير الالتزام به، يكون قد حقق الغرض، وهذا هو كل المطلوب. ولكن لم يتخل جميع المتصوفين كلية عن الشكل، بل استمروا في إخضاع حياتهم لقوانين الشريعة الإسلامية كما فهموها. ومع ذلك فإنهم لم يكونوا يبذلون معظم جهودهم في تأدية العبادات الظاهرية، وإنما في ترديد بعض الصفات الإلهية ليل نهار، حتى يتمكنوا من تركيز انتباههم كلية على ذكر الله. وأحيانا.. كانت بعض هذه الممارسات تميل إلى مشابهة تمارين اليوجا التي سوف نتحدث عنها في الفصل الخاص بالهندوسية. وأحيانا كان بعض الصوفية يبتدعون أساليب وأشكالا للذكر، صارت في نهاية الأمر منفصلة تماما، وبعيدة كل البعد عن السُنة المعروفة للنبي ﷺ. ومع هذا فإن أتباع تلك الطرق الصوفية تمسكوا والتزموا بتلك الأشكال بقوة ووَله، وبشدة تفُوق التزامهم بالتعاليم القرآنية نفسها. وبهذا نبتت مدارس فكرية جديدة بين المتصوفين في أزمنة مختلفة وفي بلاد متعددة من العالم الإسلامي.

وليس من غرضنا هنا الدخول في تفاصيل الفكر الصوفي.. ولا تلك الفرق والطرق التي تشعبت فيما بعد عن الفكر الصوفي. غير أن هناك أمرا معينا ينفرد فيه الفكر الصوفي في الإسلام ويتميز به في وضوح تام من بين جميع الممارسات المشابهة، وهو الاعتقاد الذي لا تشوبه شائبة من الشك والريبة باستمرار الوحي وإمكان الاتصال بالله تعالى. ونجد في الواقع أن جميع المتصوفين البارزين قد أعلنوا أنهم في وصال مستمر مع الله تعالى، والكثير من الوحي الذي تلقوه قد دُوّن في العديد من الكتب الموثوق بها.

ومع هذا.. فإن هناك بعضًا من المتصوفة الذين قطعوا تماما كل العلائق مع أصول الإسلام. وعند هؤلاء.. كان الغرض من الدين هو أن يوصل الإنسان إلى الله تعالى، وعلى هذا فإن جميع العبادات بأشكالها المتعددة تصير بغير طائل بالنسبة لهؤلاء الذين حققوا هذا الغرض. وقد ابتدع هؤلاء وأدخلوا بعض التمارين الذهنية والروحية، مدّعين أنها تكفي لتحقيق نوع من الوصال بين الإنسان وبين الله تعالى، يُعَبر عنه أحيانا بأنه إدراك بالتوحد معه ﷻ. ولم يطل الأمر إلا ووجدت الموسيقى والمخدرات طريقها إلى هذه النوعيات من الطرق الصوفية، لتنفصل بها تماما عن الواقع والحقيقة، وتهوي بها بغير هدى في عالم من الخيال. ومع هذا.. فإن جميع الفرق الصوفية لم تبدأ رحلتها بالابتداع، وإنما تردت في هذه البدع بعد أن تطاول عليها الزمن، وأصابها التدهور والانحطاط.

وهناك أربع فرق كبرى لها وزنها وثقلها بين الفرق الصوفية، غير أنها حادت هي الأخرى بمرور الزمن عن صراط الشريعة، مع أن ولاء والتزام مؤسسيها بالقرآن الكريم والسُنة الشريفة، كان دائما أمرا فوق كل شبهة وبلا أية شائبة. وهذه الفرق الكبرى هي الجشتية والسهروردية والقادرية والنقشبندية، وهي فرق انقسمت بدورها إلى فرق أخرى متعددة. وكلها تؤكد على أهمية التقشف والبساطة البالغة لتسهيل مهمة الوصول إلى الحقيقة. وفي أول الأمر لم تكن تُعتبر هذه الممارسات بديلا عن العبادات الإسلامية المعتادة، وإنما كانت ممارسة الزهد والتقشف إضافة إلى هذه العبادات.

وبالتدريج.. بدأ مفهوم العلاقة بين الخالق والمخلوق يتأثر بالفلسفات التي كانت غريبة عن الإسلام. فمثلا.. يمكن تقصي آثار الفلسفة اليونانية القديمة لدى بعض الطرق الصوفية، التي تبنّت نظرية وحدة الوجود اليونانية مع بعض التعديل، رغم المعارضة الشديدة لهذه النظرية من الفرق الأخرى. ويؤكد معارضو نظرية وحدة الوجود على أن هناك خطًا

واضحًا وفاصلا بين الله تعالى وخلقه. ويرى هؤلاء أنه رغم أن الخلق يحمل سمة الخالق ويُبرز صفاته، إلا أن الخلق ليس مضمرا في ذاته تعالى. وفي المقابل نجد أن بعض الفرق الصوفية الأخرى تعتقد أنه حيث إن الكون هو مظهر لله تعالى، فلا يمكن التمييز بين الخلق والخالق. ويرى هؤلاء أنه لا يمكن فصل المخلوق عن الخالق، لأن صفاته تعالى غير منفصلة عن طبيعة كل ما خلق، فلا يمكن أن يكون هناك خط فاصل، وبالتالي فإن الله هو الكون والكون هو الله، ومع ذلك فإن لله إرادة مستقلة، تعمل كعمل الصفات الطبيعية للمادة.

وقد تبدو هذه الفكرة في أول الأمر متطابقة تماما مع فكرة وحدة الوجود التي تقول بأن الله هو كل شيء وكل شيء هو الله، ولكن لا بد من ملاحظة اختلاف هام مع نظرية وحدة الوجود. إن فكرة وحدة الوجود لا تعترف بوجود مستقل لخالق مدرك، أيْ ذات تتصل بالإنسان عن طريق الوحي، وتهتم بما يصيب الإنسان من ابتلاءات ومحن وأفراح، وتقدم له طريق الهداية. إن المتصوفة المسلمين.. بعكس فكرة وحدة الوجود القديمة.. استمروا في الإيمان بذات مستقلة لله تعالى، الذي رغم تجليه في المخلوق، فإنه كان الخالق أيضا.

وفيما يتعلق بطبيعة أهل التصوف ومزاجهم الخاص.. فهم قوم من النادر أن ينخرطوا في المناظرات الكلامية الحادة. وفي أغلب الأحيان نجد أنهم يميلون إلى الاعتدال في عقائدهم ويُبدون الاحترام والتسامح تجاه وجهات النظر المخالفة لهم.. الأمر الذي لا يتّصف به المتزمتون الذين كانت تستعر غيرتهم باطراد من أهل التصوف. وعلى هذا فقد عانَت معظم الفرق الصوفية من العداء الشديد على أيدي رجال الدين المتزمتين، وكثيرا ما قامت حركات مقاومة للصوفية بين هؤلاء المتزمتين. وقد عانت كل فرقة من الفرق الصوفية الكثير من المتاعب المماثلة من وقت لآخر. وتعرّض الصوفيون.. وبالذات الذين كانوا يؤمنون بنظرية وحدة

الوجود.. لأن يكونوا هدفا لحنق رجال الدين ممن ينتمون للاتجاه السائد، وأحيانا كانوا يتعرضون لأحكام القتل، بل وكثيرا ما قُتلوا غيلة دون هوادة. ولم تُجْدِ كل تأكيداتهم بأن فلسفتهم عن وحدة الوجود لا تمس بحال من الأحوال وحدانية خالقٍ أعظم مستقل في وجوده، بل كانوا يُتّهَمون دائما بأنهم يدّعون مشاركتهم الله في ألوهيته. ومن هنا كان المتزمتون على الدوام ينْزعون إلى ارتكاب الكثير من الجرائم لاضطهادهم.

ولعل أبلغ مثال على هذا الاضطهاد هو واقعة اضطهاد العالم الصوفي المعروف منصور الحلاّج، مما يُبين كيف أن هؤلاء الصوفيين كانوا يُتّهمون بأنهم يدّعون الألوهية. فقد حُكم عليه بالموت شنقا لأنه صاح مرة في نشوة روحية قائلا: "أنا الحق.. أنا الحق". وقد فهم المتزمتون قولته هذه بأنه كان يدّعي بأنه هو الله نفسه، بينما كان يتحدث وهو في ذروة انجذابه الروحاني نحو الله تعالى عن انمحاء ذاته كلية. وما كان يَعنيه هو أن شخصه وذاته لم تعد لها أية أهمية على الإطلاق، وإنما الأهمية والفضل كله لله. لقد صعد منصور الحلاج إلى منصة حبل المشنقة رافعا رأسه عاليا، ولم يُرهبه بتاتا الموتُ المحتم الذي كان ينتظره، ولم تختف صيحاته في صخب السباب واللعنات التي كانت تُصَب عليه، بل ارتفع صوته عاليا واضحا جليلا: "أنا الحق.. أنا الحق"، إلى أن تحررت روحه منطلقة إلى ينبوع الحياة في علّيين.

وقد نشأت فرقة أخرى من فرق الصوفية، حول قضية ما إذا كان العالم الخارجي هو حقيقة واقعة أم هو مجرد تصَوُّر في العقل. وقد كان هذا السؤال محل نقاش لزمن طويل، حتى لقد تناوله أرسطو وأفلاطون. ولم يمكن التوصل إلى نتيجة آنذاك، ولم يستطع الصوفية أيضا تقديم إجابة شافية له. ولا يزال حتى اليوم موضوعا حيا للمناقشة بين الفلاسفة. ولا يستطيع أيٌّ من الفلاسفة المعاصرين تجاهله، لأن المكان والزمان لا يمكن أن يُتَصَوَّر بغير استعمال العقل. إن خيال الشخص المجنون يبدو بالنسبة له

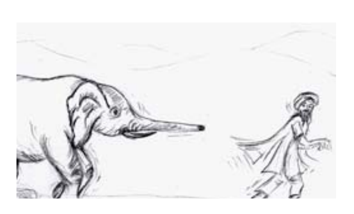
حقيقيا، تماما كما تبدو قوانين الطبيعة للعالم حقيقية أثناء عملها. وحين النظر إلى هذه المسائل من هذه الزوايا يبدو أَنها لا يمكن أن تُحَل.

إن انطباع كل إنسان عن العالم الذي يحيط به يختلف عن انطباع الآخرين. ومع هذا فإن البعض غالبا ما يشتركون في نظرتهم وفهمهم لعناصر العالم المحيط بنا. فمثلا.. معظم الناس قد يوافقون على تعريف شيء بسيط مثل الكرسي أو المنضدة، ولكنهم قد لا يتفقون بالضرورة على العديد من الأشياء الأخرى. فألوان الأشياء مثلا قد تبدو مختلفة لدى الأشخاص من ذوي القدرات البصرية المختلفة. وأيضا.. لا نشترك جميعا بالتساوي في حظنا من الملكات والقدرات المختلفة. إن حاسة الشم تختلف، والإحساس بالحرارة أو البرودة أيضا يختلف من شخص لآخر. وبالإضافة.. فإن اختلاف زاوية النظر يجعل الشيء المنظور يبدو لنفس الناظر بشكل مختلف، وعلى ذلك فإن إدراك شيء ما قد يختلف لدى نفس الشخص حين تختلف زاوية النظر. وحينما نضيف إلى هذا اختلاف الأمزجة وتباين الأحوال الصحية، نجد أن المشكلة تزداد تعقيدا. ولن تبدو أية حقيقة موضوعية أنها تتفق تماما مع ما يفهمه الناس عنها. وباختصار.. فإن المدركات التي يسبرها العقل لا تكون دائما في تطابق تام مع عناصر العالم المنظورة. وهذا، في رأي بعض الفلاسفة، يجرد الناظر من إمكانية الوصول إلى اليقين التام فيما يتعلق بما يراه ويدركه.

وموضوع عدم اليقين وعدم التمكن من الاعتماد على حقيقة المدركات كما سبق بيانه، نشأت عنه فرقة صوفية أخرى تُنكر تماما وجود أي شيء بحسب شكله الخارجي، وتدّعي أن الحقيقة الأزلية ليست سوى انطباع واهم. وقد أنكر المغالون من هؤلاء وجود أي شيء مادي مهما كان شكله الخارجي، بما فيه إنكار وجود ذواتهم أنفسهم. وبذلك، فإن حركة ذهنية عقلانية.. بدأت بمحاولة لحسن التمييز الدقيق لمظهر الحقيقة الخارجية.. انتهت بالجنون التام. ومع هذا.. كان هناك سحر

غريب في هذا الجنون، إذ كان يصيب أحكم علماء المنطق والمثقفين في زمانهم.

وهناك حادثة طريفة تتعلق بزعيم صوفي لهذه الفرقة، استُدعي إلى بلاط الملك لعقد مناظرة مع بعض البارزين من علماء عصره. ولكن لشديد دهشة الجميع وبالغ استيائهم.. تطورت المناظرة إلى العكس تماما عما كان الجميع يتوقع لها، إذ لم يتبادل المتناظرون سوى بعض الدلائل والحجج والردود إلا وتبيّنتْ ضحالة آراء العلماء البارزين في البلاط، فراحوا يلهثون لالتقاط أنفاسهم وهم يبحثون عن كلمات يستطيعون بها الرد، ولم يتمكن أحد من مقارعة تعقيدات المنطق الأثيري للصوفي. عند ذلك.. خطرت للملك فكرة رائعة، فأمر حارس بيت الفيلة أن يحضر إلى فناء القصر أكثر



الفيلة وحشية وضراوة. فأحضر الحارس فيلا كان قد أصابه جنون لا يقل عن الجنون الذي أصاب الصوفي، ولم يكن من اختلاف بينهما سوى أن لا شيء يبدو له وجود في عقل الصوفي، بينما كان الفيل في هيجانه وضراوته يريد أن يحطم كل شيء له وجود من حوله. وزُج بالصوفي من أحد جوانب فناء القصر بينما أُطلق الفيل من جانب آخر، وإذا بالصوفي يركض هاربا بغير أي تردد لينجو بحياته.

وصاح الملك من شرفة قصره وهو يشاهد ما يجري فقال: "لا تفر ولا تجرِ أيها الصوفي من هذا الفيل الذي لا وجود له في الحقيقة سوى في الخيال، فهو ليس إلا صورة مختلقة في مخيلتك".

فرد الصوفي صائحا: "ومن ذا الذي يفر ويجري؟ إنها صورة مختلقة في مخيلتك".

وهكذا انتهى مأزق الصوفي، ولكن لم تنته المناظرة نفسها.. فهي لا تزال مستمرة.

المدرسة الأسبانية للفكر الإسلامي

لقد ناقشنا من قبل القضية الخلافية عن سمو منْزلة الحقائق الموحى بها بالنسبة للحقائق المشاهدة، ويعطي بعض المفكرين أفضلية للوحي على المنطق، بينما البعض يفعل العكس. وكان من رأي ابن رشد (المعروف في الغرب باسم أفيروس Averroes)، وهو أحد المفكرين المسلمين العظام على مدى الأزمان.. أن الرأيين السابقين يُعبران عن حقائق متوازية، ويجب أن يُنظر إليهما بمنظار مختلف. فالحقائق التي يأتي بها الوحي يجب أن تُقبَل بهذه الصفة، والحقائق المكتسبة من المشاهدة والتجربة يجب أن تُقبَل على حالها. ولم يكن من الضروري في رأيه أن يكون هناك ارتباط بين الاثنين، وليس هناك ما يدعو للبحث في وجود تناقضات بينهما أو محاولة حلها.

ذلك هو الزمن الذي كان العلماء المسلمون في أسبانيا يحققون فيه تقدما علميا واسعا في الكثير من المجالات العلمية، ولم يفت في عضد هؤلاء أن بعض العلماء من المدارس الفكرية القديمة أصدروا ضدهم فتاوى الإلحاد. ولعل ابن رشد رأى أنه من الأفضل ألا يتورط في هذه الخلافات، حتى لا يتسبب في إعاقة تقدم العلوم.

ولكن من الواضح أنه تجنّب خطر اكتشاف وجود تناقض بين العلم والدين، وبالنسبة لشخص مثله.. يؤمن إيمانا صادقا بالإسلام، وكونه عالما كرّس نفسه للعلوم التجريبية بغير تعصب، فإن هذه السياسة أثبتت حسن جدواها في خدمة أغراض كل من الدين والعلم لزمن طويل في أسبانيا. ولم يواجه أحد خطر التناقض أو التضارب بين الحقيقة الموحى بها وبين الحقيقة التجريبية، وعلى هذا فإن موضوع أفضلية رأي على آخر لم يُبحث بشكل فعال. وقد ظلت سياسة "عدم المواجهة" هذه سائدة في أسبانيا لعدة قرون، ويرجع الفضل في ذلك بشكل خاص لحصافة وحكمة ابن رشد.

وحينما نعيد النظر في القضايا الخلافية في ضوء ما تمخضت عنه الأحداث فيما بعد، نستطيع أن نقول بيقين إن الوقت لم يكن مناسبا بعد للخوض في هذه القضايا. إذ كان من غير المستبعد أن يحدث فهم ناقص أو جزئي، أو حتى سوء فهم تام للحقائق التجريبية.

فعلى سبيل المثال.. في العصور الوسطى لم تكن أفكار العلماء المسلمين عن الكون مبنية على القرآن الكريم أو الحديث الشريف، ولكنها كانت في أغلبها متأثرة بالجهل السائد في ذلك الحين. وكان علماء الدين، كما هو الحال دائما، يعتبرون أن رأيهم هو رأي الإسلام، وعلى هذا يكون هو الرأي النهائي، بينما لم يكن بوسعهم فهم الحقائق القرآنية فهما صحيحا في ضوء المعارف السائدة آنذاك.

أما في أسبانيا.. فلم يجر على ما يبدو نقاش حول هذه القضايا بين العلماء التجريبيين وعلماء الدين. ولم يكن هناك من مقتضيات لانتقال المعلومات بين المجموعتين، ولا مناظرات أو مساجلات عن أهلية وموضوعية آراء كل منهما. وعلى هذا.. لم يكن في أسبانيا رجال مثل "جاليليو" الذي أُرغم على الاختيار بين الحياة والحقيقة. ولم يشعر العلماء التجريبيّون بأي التزام تجاه علماء الدين لشرح أو تبرير أية دوافع تجعلهم يسمون الأشياء بمسمّياتها، ويصفون الحقائق كما هي حين يكتشفونها، ولم يشعروا بأن من واجبهم أن يبرهنوا لعلماء الدين على أن تفسيراتهم للقرآن المجيد ليست صحيحة لأنها تتناقض مع الحقائق العلمية المعاصرة.

وكان من نتيجة ذلك أن نشأت حركتان متوازيتان، وبالتدريج ازدادت الفُرجة بينهما اتساعا بمرور الزمن. وبهذا فقد اتخذت المعرفة الإسلامية طريقا يختلف تماما عن قنوات الفكر العلمي والفلسفي دون أن يصطدم بها، إذ كانا كما لو أنهما نهران يجريان في تواز بغير أن يعوق أحدهما تدفق الآخر.

وعلى هذا فقد تفوقت الأمة الإسلامية في الأندلس على الدول الإسلامية الأخرى في أغلب مجالات البحث العلمي. وبالإضافة إلى تميزها.. كانت أسبانيا تتمتع بعهد طويل من السلام النسبي نادرا ما يتعكر صفوه، وكانت في أمان من هجمات الغزاة من أمثال جنكيز خان وهولاكو خان. وكانت هذه الفترة من التاريخ الإسلامي في الأندلس تُعتبر بحق العصر الذهبي للعقلانية. وبطرد المسلمين من أسبانيا، بلغ ذلك العهد العظيم للسيادة الإسلامية إلى نهايته، وانقطعت كل الروابط بين الإسلام والشعب الأسباني. وإذا كانت قد حدثت ردّة للتقدم العلمي والثقافي في أي مكان في العالم، فقد حدثت في الأندلس، ويا لها من ردّة مفجعة! فحيثما فُتحت الأبواب في الطرف الجنوبي للأندلس لخروج الإسلام.. خرجت معه الحكمة، والمعرفة، والإنصاف، والحق، والنور بكل أطيافه، ربما لعدة قرون، لم ترجع أبدا خلالها. غير أن النور المفقود لم يشع في الاتجاه الذي رحل إليه المسلمون المطرودون من أسبانيا، فقد غاصت أسبانيا مرة أخرى في الظلام الحالك الذي كان يغمرها قبل العهد الإسلامي. ولم ينل العالم الإسلامي نجاحا أو تقدما هو الآخر، حيث ساد فيه ظلام انتشر من الداخل. فهناك.. ساد ظلام العصبيات الدينية، والتعصب الأعمى، وضيق الأفق، والكبر والغطرسة، والأنانية وحب الذات، والغيرة والحسد المتبادل، وراح يضرب بأطنابه الحالكة، وينتشر انتشار النار في الهشيم. وقد بدا كعمود من الدخان.. يرتفع عاليا ثم ينتشر في كل جانب، وسرعان ما حَجب ضوءَ السماء، وسادَ الأرضَ من الأسفل ظلالٌ تحولت إلى ظلام ازداد حُلكة وسوادًا بمرور السنين.

أما بالنسبة لأهل أوربا الشمالية فقد اختلفت القصة تماما. إذ أن ما خسره الناس في أسبانيا كان هو ما اكتسبه أهل الشمال، وأعْظِمْ به مِن مكسب! إن نفس الملكة إيزابيلا والملك فرديناند اللذيْن طردا المسلمين من البلاد، لم يلبثا طويلا حتى أخذا يصبان جام غضبهما على اليهود تحت

تأثير طغيان متزايد ومتنامٍ لتعصب الكهنوت المسيحي. وكما فُتِحت البوابات الجنوبية في الأندلس لطرد المسلمين، انفتحت البوابات الشمالية على أوسع ما تكون لطرد اليهود. وكان من بينهم أفراد على جانب كبير من العلم والمعرفة، فكان منهم العلماء والباحثون والمثقفون، الذين تفوّقوا في الكثير من المهن والوظائف. وكان هؤلاء قد اكتسبوا مهارات فائقة خلال القرون السبعة التي امتد فيها الحكم الإسلامي الْخَيِّر. وقد تميز اليهود في جميع مجالات المهن الإنسانية، من صناعة وتجارة، وبحث علمي، وهندسة البناء، وفن النحت، والجراحات الطبية، وغير ذلك من المجالات المشابهة. وكان من جراء التدبير المنظم والمتواصل لاضطهاد اليهود أن طُرِح بهم خارج البلاد، بعد أن جُرِّدوا من كل ممتلكاتهم. وكان هؤلاء هم الذين حملوا مشاعل المعرفة على طول الطريق من الأندلس الإسلامية إلى جنوب فرنسا وما وراءها. وكانت فلسفات أرسطو وأفلاطون تصل إلى أوربا من خلال الفلاسفة المسلمين في أسبانيا. كذلك فقد بدأت تظهر على الأفق الأوربي العبقرية الطبية لابن سينا، أعظم طبيب عرفه العالم حتى ذلك الوقت، وراحت حكمة ابن رشد.. الذي جمع بين العلوم التجريبية والفلسفات الدينية.. تُلقي بأضوائها على الأفق الأوربي. وبسبب هجرة اليهود من أسبانيا انتقلت معهم منجزات المسلمين العظيمة، وتم ترجمتها إلى مختلف اللغات الأوربية. وكانوا هم في الواقع الذين أرسوا قواعد عهد جديد من الفكر والتنوير في أوربا، عُرِف فيما بعد باسم "عصر النهضة".

مأزق العالم الإسلامي

حين نتحول بأنظارنا الفاحصة إلى ما بعد العهد الأسباني، فإنا نلحظ نفس الصورة القاتمة المفعمة بالمآسي تخيم بظلالها وتسدل أستارها على كل العالم الإسلامي. فمنذ ذلك الوقت، فقدت الدول الإسلامية، عدا أسبانيا (التي لم تعد إسلامية)، الاهتمام بالعلوم الأكاديمية وأمور البحث

والاستقصاء، بعد أن كان المسلمون أنفسهم هم حملة ألويتها، وكانوا هم الذين قادوا ثورة التقدم في جميع المجالات، إلى أن وصلت العلوم والبحوث في عهدهم إلى ذروة التقدم.

وقد أثبت هذا الاتجاه المؤسف والهدّام أنه ليس ضد مصلحة وفائدة العلوم الأكاديمية فحسب، بل كان ضد مصلحة الدين أيضا. فقد ازداد انقسام الأمة الإسلامية وتفرّقت في طوائف ومذاهب متعددة. وكان أعظم ضحايا هذا الاتجاه التخريبي والانتحاري هو عقيدة التوحيد، إذ بدأت تظهر شروخ في هذه العقيدة التي تباينت واختلفت تفسيراتها وتأويلاتها، حتى لكأن القوم قد صاروا يتحدثون عن آلهة مختلفة.. وليس عن إله واحد. ويبدو أن جذوة البحث عندهم لم تنطفئ، ولكنها اتخذت شكلا مختلفا، فصارت تحرق وتدمر بدلا من أن تضيء وتُنَور.

لقد استمروا يتجادلون في أمور الخطأ والصواب.. بنفس القوة والحماسة.. كما كان عليه الحال فيما سبق، غير أن موضوع المناقشات والجدال اختلف، فظلوا مستغرقين في معالجة الأمور القديمة التي أقلقت بالهم لعديد من القرون. وبدلا من بحث الأمور الجادة والهامة في الحياة، أشغل فقهاؤهم أنفسهم بتوافه الأمور.. مثل حل أو حُرمة أكل لحم الغربان. ويُقال إن حوادث شغب صاخبة قد تفجرت حول هذه المشكلة بين المعارضين والمؤيدين. وأخذت المناقشات العنيفة التي نتجت عن هذا الموضوع تزداد حدة وعنفا وتعقيدا وانتشارا. ولعله من واجب التقدير لذكائهم الاعتراف بقدرتهم على أن يجعلوا من الحبة قبة، وهو اعتراف يعكس في نفس الوقت الغياب الكامل للحصافة والفطرة السليمة، فلا يمكن تسمية ما كانوا يفعلونه سوى أنه كان مهاترات فارغة.

والبعض الآخر.. مما كان يُطلق عليه القضايا "الأكثر أهمية".. ظلت هي الأخرى تؤرق عقولهم وتثير حميّتهم بشكل يجعل الدماء تغلي في عروقهم. وكان من بينها أمور على جانب من التفاهة بمكان. وكانت

إحدى تلك القضايا "الأكثر أهمية"، والتي صارت الشغل الشاغل للعلماء الكبار في ذلك الوقت، هي مشكلة الكلب الذي قد يسقط في بئر.. فكم يكون عدد دلاء الماء التي يجب أن تُنْزح من البئر قبل أن يصير ماء البئر صالحا للوضوء. وناهيك عن الكلب ومشكلته.. فإذا اتُّهِم أحد المشايخ بالهرطقة من جانب رجال الدين في فرقة مخالفة، ثم حدث أن سقط هذا المهرطق في أحد آبار الفرقة المخالفة، فحينئذ تأخذ القضية أبعادا واسعة.. أشد خطرا وأكثر أهمية. وهنا تتحول المشكلة إلى عملية حسابية معقدة، لحساب عدد الدلاء التي يجب نزحها من البئر، وقد يُفضل البعض أن يُملأ البئر بالتراب ويُردَم ليكون قبرا لذلك المهرطق. كان ذلك هو الزمن الذي تردّى فيه المسلمون، وكانت هذه هي الأقاصيص التي انتشرت حول تعصبهم المجنون والمحموم.

ورغم أن هذه المهاترات كانت تتناول أمورا أكثرها نظرية وخيالية، إلا إنها لم تكن كلها مقصورة على القضايا الخيالية. ولا بد أن فقهاء ذلك الزمن قد فقدوا عقولهم حين شغلوا أنفسهم بالجدل العقيم حول قضية جعلت من أحد أركان الدين، وهو الصلاة، أمرا مثيرا للألم.. ومثيرا للسخرية في نفس الوقت.

فكما هو معروف.. يتلو المصلي التشهد في صلاته أثناء الجلوس (القعدة) بعد الركعة الثانية والركعة الأخيرة. وفي التشهد يرفع البعض السبابة حين النطق بكلمة الشهادة، بينما لا يفعل ذلك البعض الآخر. ولكن فقهاء ذلك العهد كانوا في خلاف شديد على هذا الأمر. إذ أنهم صبّوا جام غضبهم على تلك الإصبع التي أثارت حساسياتهم. وكانت فتاواهم التي أجمعوا عليها هي سواء رُفعت تلك الإصبع أم لم تُرفَع.. فإن هذه الإصبع البائسة يجب أن تُبتر. لقد اختلفوا على كل شيء آخر، ولكنهم

اجتمعوا على هذا الحكم. وكانت مخاطرة أليمة حقا إن أخطأ المرء فذهب إلى المسجد الذي لا يتبع طائفته. وبالطبع لم يكن دخول المسجد يثير أية مشكلة، ولكن الخروج منه هو الذي كان يسبب كل المشاكل، إذ كان على المرء أن يغادر المسجد وقد فقدت يده إصبعا من الأصابع الخمس التي أنعم الله بها عليه.

وقضية أخرى من تلك القضايا التافهة.. كانت تتعلق بكلمة "آمين" التي يقولها المصلون بعد أن يقرأ الإمام سورة الفاتحة جهرا. وكان محْوَر البحث والنقاش الذي تفجّر هو ما إذا كانت كلمة "آمين" يجب أن تُقال بصوت مرتفع أو منخفض. وكان من المحتمل أن ينهال المصلون ضربا على من يجهر بالآمين في مسجد يعتبر أصحابه أن الجهر بها جريمة. ونفس العقوبة تكون من نصيب المنخفضين بها إذا ما قادهم حظهم العاثر إلى مسجد يرى أصحابه ضرورة الجهر بها.

ولعل أبرز القضايا الخلافية التي تسببت في إراقة الكثير من الدماء.. هي قضية ما إذا كان القرآن مخلوقا أو قديما. ولم يكن لدى الطرفين المتنازعين على هذه المشكلة أدنى شك في أن الموت هو العقاب الواجب على المخالفة في الرأي حول هذه القضية، التي يعتبرونها حيوية وهامة. ولكن تنفيذ الحكم كان يتوقف على أكبر عامل لتحقيق العدالة في ذلك الوقت، وهو عامل الصدفة البحتة. فإذا حدث أن كان الحاكم في جانب القائلين بالقدم، فإن أصحاب الرأي المعارض لم يُقَتَّلوا شر قتلة فحسب، بل كانوا يُحرَقون أحياء وهم في بيوتهم. أما إذا انتقلت الصُدفة بأصحاب الرأي المخالف إلى سدة الحكم، صار الضحايا هم اليد الباطشة القاتلة. وكثيرا ما كان يحدث أن لا تنجو جثث الموتى من العقوبة، فقد كانوا ينبشون قبور المخالفين، ويستخرجون جثثهم ليعلقوها أمام العامة، حتى يعتبر بهم الأحياء. ولكن.. أي درس يمكن أن يستفيد منه المرء على أية حال؟ لقد ظل السؤال الحائر الذي لا يجد جوابًا هو: أي جانب من

الأرجوحة كان هو الجانب الأكثر أمنا وسلاما؟ إن حياة أولئك الذين انغمسوا في تلك التفاهات والمساجلات الساخنة قد تحولت إلى جحيم مستعرة على هذه الأرض، وكأن الجحيم التي كان يتوعد بها المخالفون معارضيهم بعد الموت.. لا تستطيع الانتظار لما بعد الموت حتى تتلقفهم.

لقد بدأت قرون ظلام العصور الوسطى تنشر ظلالها القاتلة في كل مكان، وتردّى العالم الإسلامي مرة أخرى في غياهب الجهل، بعد أن كان قد خرج من ظلمات الجهل إلى النور عندما سطعت شمس الإسلام على الصحراء العربية. فقد بدأت تضطرب البصيرة الإسلامية، وراحت تتغير ألوان أطيافها كما تتغير أطياف بعض النجوم في الأغوار السحيقة، حين ينظر إليها المرء في ليلة حالكة السواد، أو حين تتغير زاوية النظر، فقد فقدت الصورة الإسلامية بهاءها، وانطفأ بريقها، وضاع استقرارها.

إن الدعامتين اللتين كانتا تستطيعان تحويل ظلام الجهل إلى نور المعرفة.. بدا أنهما قد تحطمتا إلى الأبد. فلم يكن هناك من وضوح ولا استقامة في الرؤية، ولا كان هناك أمل يُنتَظر في وحي يأتي من السماء. إذ كانتا هاتان النافذتان بالنسبة لهم قد أُحكِم إغلاقهما. فما أشدَّ قسوةً تلك المأساةَ التي حلت بالعالم الإسلامي!

ومع ذلك.. وبعد بضعة قرون.. بدأت شمس العلوم والمعارف تشرق مرة أخرى، ولكنها كانت تشرق هذه المرة من الغرب. وكان على الشرق أن يتحول بناظريه إلى الغرب، ليلتقط لمحة من ذلك النور الذي كان لهم أنفسهم الفضل في تنوير الغرب به، منذ قرون بدت بعيدة.. بعيدة.. في غياهب الماضي السحيق.

الفصل الرابع
الفلسفة الأوربية

عندما غربت أخيرا شمس التنوير الثقافي عن الأندلس، أشرق وجهها الوضاء من أفق فرنسا ليتبسم على ما يليها من أوربا، إلى أن أضاءت القارة بأكملها من جنوبها إلى شمالها، ومن شرقها إلى غربها. لقد انبلج بحق فجر يوم عظيم للمعارف، كان من المقدّر له أن ينير أوربا لعدة قرون في المستقبل، فها قد بدأ عصر النهضة الأوربية.

ولكن قليلا من الناس في أوربا اليوم من يدركون مدى ما يدينون به لأسبانيا الإسلامية التي انبثق منها فجر التنوير العظيم الذي يُسمى عصر النهضة. فإن الكثيرين من الفلاسفة البارزين، وأعلام الرياضيات، والعلماء، والفلكيين، والأطباء، من الأندلس، قد طُمسوا من ذاكرة أوربا، ودُفنت ذكراهم في زوايا النسيان.

ومع فجر عصر النهضة.. وبينما كان سواد الظلام يتبدد، بدأ المنطق والعقلانية يزيلان آثار الإيمان الأعمى الذي سيطر طويلا وبإحكام على تلك الأنحاء، ولم يكن من السهلِ الإبقاءُ على التوازنِ بين الفلسفات الثقافية من جهة، وبين الدين والعقيدة من جهة أخرىَ. ولمجتمع ذلك الزمن.. الذي جثمت عليه القساوسة.. لم يكن التحدي بسيطا حتى يدافع الناس في ذاك الحين عن الدين بالعقل والمنطق أمام الغزو الفلسفي الجديد، فقد ورثوا صيغة من المسيحية كانت من نتاج التأثير الكبير لبولس، الذي جعل منها مجموعة من العقائد الخرافية، فلم تعد هي نفس النور الرباني الذي أضاء بمعارفه قلب المسيح عليه السلام.

وحتى قبل عصر النهضة الأوربية، حاول بعض المثقفين الأوربيين الإبقاء على التوازن بين العقل والدين. ففي القرن التاسع الميلادي قدم

إ.ج.سكوتاس (E. J. Scotus) المثال الطيب بتحقيق نوع من الهدنة بين الدين والعقل. إذ كان يقول إنه لا يمكن الوصول إلى الحقيقة عن طريق العقل وحده، ولكن العقل والدين سويا لهما دور يؤديانه. وذكر أن العقائد الدينية كانت تقوم في بداية الأمر على أساس عقلاني، لأن الاقتناع لا يمكن أن يتولد من مجرد تخمينات، بل لا بد وأن يكون هناك بعض الأساس من المنطق لحدوث الاقتناع. وسواء حدث هذا عن قصد أو بغير قصد، إلا أنه لا بد أن يقوم كل اقتناع على بعض الأساس من المنطق. وباختصار، فقد كان سكوتاس يؤمن بأن الدين الحقيقي يجب ألا يُعتبر كالأسطورة، لأنه لا بد وأن يكون قد تأسس على ركيزة عقلانية متينة. فعند البداية.. لم يكن الدين ليمد جذوره في تربة عقل الإنسان بغير شيء من المنطق يؤيده، ولكن مع مرور الزمن.. لا بد أن هذا التلازم بين الدين والمنطق قد بدأ يضمحل إلى أن لم يعد ملحوظا، حتى إن الدين من بعد ذلك كان يبدو وكأنه معلق في الهواء، دون دعم من أعمدة المنطق التي كان يرتكز عليها. غير أن رسوخه واستمرار التمسك به على مدى الأزمان، يدل على أنه لم يكن ليصل إلى هذا المستوى الواسع من الإقناع بغير منطق أو عقل كلية.

وباختصار.. ينصح سكوتاس أن يختبر المرء.. من وقت لآخر.. صحة وسلامة عقيدته حسب ما يحكم به العقل. فإذا ظهر أن هناك تناقضا بين الاثنين، فعلى المرء أن يتبع العقل. وعلى هذا فإن العقل له الأولوية دائما على الدين.



NEWTON
نيوتن

ولعل أبلغ تعبير لهذا المنهج كان في معالجة نيوتن (Newton ١٧٢٧ - ١٦٤٢) لموضوع التثليث. فما لم يفكر عقليا وعلميا في عقائده الدينية، ظل تابعا مخلصا لعقيدة التثليث المتوارثة. ولكن.. حين قرر فيما بعد

أن يضع الدين موضع الاختبار تحت مجهر المنطق والعقل، لم يجد مناصا من نبذ عقيدة التثليث، التي لم تنجح في رأيه في اجتياز اختبار العقل.

وبهذا فقد صار نيوتن على طول الخط، أعظم الضحايا التي قُدمت على مذبح الصليب، وذلك بسبب تعصب الكنيسة المسيحية. وكان قد تم انتخاب نيوتن لزمالة "كلية الثالوث المقدس غير المجزأ" في جامعة كمبردج، وذلك تقديرا لعبقريته. وظل يشغل منصبه هذا لسنين عديدة. غير أنه في عام ١٦٧٥ عُرض عليه أن يختار بين التخلي عن كرسيه في الجامعة والإبقاء على معتقداته، أو أن يتنازل عن معتقداته ويؤكد بحلف اليمين على تمسكه بالعقيدة التقليدية، وبأن يُرسَم كهنوتيا مرة أخرى.. تكون هي الأخيرة.

ولكن "الثالوث المقدس غير المجزأ" نفسه وقف حائلا في طريقه. ولم يكلفه رفضه العنيد لعقيدة التثليث فقدانه لمنصب الزمالة فحسب، بل أفقده أيضا راتبا محترما قدره ستين جنيها في العام. ولم يكن هذا بالمبلغ القليل، بالحكم على قيمة النقود في تلك الأيام. لقد جردوه من منصب الزمالة، ومن كرسيه في الجامعة، بسبب تهمة الهرطقة. ولمجرد أن عبادة المسيح في نظر نيوتن كانت تعتبر وثنية، وهذا إثم كبير في رأيه، غير أنه اتُّهم بالهرطقة. ويكتب ر. س. وستفال (R.S. Westfall) عن نيوتن فيقول:

> "إنه يعترف بالمسيح كوسيط بين الرب والجنس الإنساني، غير أنه يعتبر المسيح في مرتبة أدنى من الأب الذي خلقه".[١]

> "لقد بدأت تستولي عليه قناعة بأن احتيالا خطيرا قد بدأ في القرن الرابع أو الخامس.. أفسد الميراث الذي خلفته الكنيسة الأولى. وكانت الكتب المقدسة.. التي بدأ نيوتن يؤمن بأنها قد حُرفت لتُعضد التثليث.. عاملا أساسيا في وقوع هذا الاحتيال. ومن المستحيل القول بالتحديد متى حلت عليه هذه القناعة، فإن المذكرات الأصلية نفسها تشير إلى وجود شكوك مبكرة، وبدلا من أن يكبت تلك الشكوك، إذا به يتركها تسيطر عليه".[٢]

وعلى هذا.. كان إيمان نيوتن بوحدانية الله تعالى، ورفضه التثليث، مبنيا على بحثه الأمين غير المتعصب في حقيقة العقائد المسيحية. وهناك الكثير من التعليقات التي كتبها بخط يده على هامش الكتاب المقدس الخاص به، يقول في أحدها:

"ويترتب على هذا أن يكون الأب إله الابن (عندما يُعتبر الابن) كإله".[٣]

وبهذا يخلص وستفال إلى القول:

"... تكاد أن تكون الثمرة الأولى لأبحاث نيوتن في اللاهوت، هي الشك في مقام المسيح وعقيدة التثليث".[٣]

خلال عصر النهضة الأوربية.. حين تجدد الاهتمام على نطاق واسع بالسؤال القديم عن العقيدة مقابل العقل، كان من نصيب رينيه ديكارت (Rene Descartes ١٥٩٦-١٦٥٠) أن يُبقي لواء الإيمان مرفوعًا عاليًا. فالقضية لديه لم تكن هي المسيحية مقابل العقل، وإنما كانت القضية بشكل مباشر.. هي الإيمان بالله تعالى في عصر تملأ العقول فيه الأفكار الفلسفية.

كان ديكارت رجلا فريدًا في رجاحة عقله، وكان أحد رجالات المنطق الأفذاذ. وهو لم يؤمن بالله تعالى فحسب، بل كان الأول من بين الفلاسفة الذين تبنوا قضية أن العقل يقود مباشرة إلى الله تعالى. ومن حسن حظه أنه رفض أن ينخرط في الجدل حول معقولية التثليث. وكان ما أثبته ببساطة هو وجود كائن أعظم واحد. ولعل هذا الرفض من جانبه للعقائد المسيحية السائدة في زمنه، هو ما جعله يخسر مكانا مرموقا بين رجال الفكر، من أصحاب الإيمان التقليدي في ذلك العصر. ويشرح ج. غوتمان (J. Gutman) هذا الوضع في كتابه: "الفلسفة"[٤]. ولا يُذكَر فيه ديكارت على أنه مؤمن بالله، كما كان هو في الواقع، وإنما يُذكر على أنه رجل يزعم أنه يؤمن بالله. وقد عومل ديكارت بهذه المعاملة، لا لشيء سوى تجاهله.. بسبب عقلانيته.. للتثليث الذي تنفرد به المسيحية.

ومما يؤسف له أن ما اعتبروه تمردا على الله تعالى، لم يجرح مشاعر القساوسة المسيحيين كما كان يجرحها الانتقاد العلني للمسيحية. إنها حقا مأساة كبرى.. أن فيلسوفا عظيما وعالم رياضيات فريدا في سمو شأنه مثل ديكارت.. لم يلق التكريم الوافي الذي يستحقه. ولا ننسي أنه لم يكن مجرد فيلسوف متميز فحسب، بل كان أيضا عالما بارزا في العلوم الهندسية.. أضاف الكثير إلى أعمال فيثاغورث (حول ٥٨٠ - ٥٠٠ ق.م) مما رفع شأن العلوم الهندسية إلى آفاق لم تبلغها قط من قبل. فقد تضمنت إضافاته الواسعة في مجالات الهندسة الكثير من البحوث الرائدة التي سوف تُذكر دائما بإعزاز يجعل الرؤوس تنحني له إجلالا واحتراما.

وسمة أخرى من سمات تميزه وعظمته.. هي أنه كان أول من أدخل إلى الفلسفة النّزوع إلى الجدل الرياضي. فقد بدأ مفهومه للحقيقة والحقيقة المطلقة برحلة قام بها داخل ذاته، وكان معياره للحقيقة يتعلق بالانطباع الأول الذي يشعر به المرء بعد سماعه أو ملاحظته لأمر ما. وكان على قناعة شديدة بأن الأمر الذي لا يجتاز اختبار الحقيقة في التو لهو أولى بالشك فيه. وبمعنى آخر.. إن أي أمر يقبله المرء على أنه حقيقة، بغير حاجة إلى نقاش جدلي حوله، فذلك الذي يتعين قبوله على أنه بالفعل حقيقة واضحة. وعند تطبيق هذا المنطق على نفسه، فإن ما يلي يمكن أن يكون إعادة صياغة لمنطقه، وكأنه يقول: لأني أفكر.. فأنا موجود، وأنا أقبل هذه المقولة البسيطة بغير حاجة إلى إثباتها بأية استدلالات منطقية.. إذن فبلا ريب، ومن المحتم، أن أكون موجودا.

وعلى ذلك تكون هذه هي الحقيقة الواضحة الأولى الرئيسية. لقد كانت جملة بسيطة وساحرة تلك التي صاغها في هذا الشأن: (*Cogito, ergo sum*) أي "أنا أفكر.. إذن أنا موجود".[٥] وكانت الحقيقة الثانية التي توَصل إليها بعد الحقيقة الأولى، هي حقيقة وجود الله تعالى. فقد برهن رياضيا على أن نفس فكرة هذا الوجود، لهي الدليل الكافي على وجوده

عز وجل، تماما كما أن مجموع الزوايا الثلاث للمثلث، هي بكل تأكيد تساوي مجموع الزاويتين القائمتين.

وسواء كان برهانه الفلسفي على وجود الله تعالى مقبولا أو غير مقبول من أجيال الفلاسفة الذين تلوه، فإنهم على الأقل تأثروا به تأثرا بالغا. وعلى ذلك، فقد استُخدم المنطق على نطاق واسع بين أجيال المفكرين التابعين لإثبات صحة الإيمان بوجود الله تعالى أو عدم صحته. وفيما بعد نشأت أيضا المادية الجدلية كنتاج لنفس هذا الاتجاه.

وقد استمرت هذه الآلية الفكرية حتى القرن السابع عشر، إلى أن جاء جون لوك (John Locke)، وبركلي (Berkeley)، وهيوم (Hume)، الذين اعتبروا أنه لا توجد علاقة بين المدركات الحسية والعقل من جهة، وبين الإيمان والمعتقد من جهة أخرى. ومع إقرار لوك بهذه الفلسفة، فإنه لم ينف بالتحديد فاعلية صحة الإيمان والمعتقد، وإنما فوّض أمرها للمؤمنين لكي يعتقدوا ما يشاءون بأية طريقة ما. وكان من نصيب جيل متأخر من الفلاسفة الأوربيين أن ينكروا وجود الله تعالى على أساس من المنطق، وكان من أبرزهم روسو (Rousseau)، ونيتشة (Nietzche).

أعلن نيتشه بأسلوبه المثير أن الرب قد مات، بينما نادى روسو من جانبه باصطناع دين جديد، يحل محل الأديان السماوية. وقد أكد على الحاجة إلى دين يقوم على دراسة الطبيعة الإنسانية، والتجارب الإنسانية. واقترح أن يقوم العقل البشري نفسه بخلق مجموعة من القوانين المدنية للحياة. ويبدو أن روسو كان أول الفلاسفة الأوربيين الذين تمردوا بشكل علني على الفلسفة التي لها أي تعلق بالإيمان بالله تعالى. لقد كان ذلك هو العهد الذي تأثر فيه الدين تأثرا بالغا، وبشكل ملحوظ، بالحركة العقلانية.

وبعد هذا الجيل من الفلاسفة.. جاء أصحاب مذهب المنفعة* مثل ميل (Mill)، وسادجويك (Sadgwick). وكانوا يؤمنون باختيار المصلحة..

---

* وهو مذهب يقول إن الأعمال تكون صالحة إذا كانت نافعة. (المترجم)

أي أن يكون للمرء حرية الوصول إلى كل شيء فيه مصلحته، مهما كان، وبغير أية قيود. ولكن حينما تتناقض المصلحة الذاتية مع مصلحة الغير، فإنهم ينصحون بالاستعانة بالعقل للتحكيم بينهما.

وهذا يعني أنه أثناء الانغماس في اللذة.. حين يقتضي الأمر الاختيار بين الأنانية المفرطة والتضحية بالمصلحة الشخصية من أجل الغير، فإن العقل يجب أن يحكم بين الاختيارين. ويالها من فلسفة بغيضة حقا، إذ أنها لا تفيد بشيء ولا تعني شيئا في واقع الأمر. فإن أولئك الذين يستغرقون في النهل من اللذة، لن يحتاجوا إلى نصيحة من بنتهام (Bentham) وميل وسيدجويك وغيرهم، حتى يتوقفوا عند حد الاعتدال، ويمتنعوا عن الوثوب في بحر الأنانية البالغة. فالاختيار هنا.. بين الذاتية والغيرية.. لن يكون له محل على الإطلاق. ومن منهم يكون في حاجة إلى تحكيم العقل في مجال رغباته الشهوانية؟ إن الذي يغرق في لذائذ الجسد وشهواته الجنسية.. ليس في حاجة إلى مشورة، فهو يسلك هذا السبيل، وهو يعلم جيدا ما له وما عليه.

تلا أصحابَ مذهب المنفعة جيلٌ من الفلاسفة.. كان لهم أثر عميق على الفلسفة الأوربية. وكان لوك وبركلي وهيوم على رأس هذه الحركة، وهم الذين عُرفوا بالتجريبين، وتأثرت بهم أجيال عدة من الفلاسفة. ويمكن تلخيص فلسفتهم في جملة بسيطة: على المرء أن يؤمن فقط بالأمور التي يمكن استخلاصها من المشاهدات التجريبية التي يمكن إثباتها. وكانوا يؤمنون بأن الأمور التي تقوم على العقل المحض وعلى الدلائل، هي وحدها الجديرة بالقبول.. وهي الأمور التي يمكن إعادة اختبارها باستمرار خلال التجارب العلمية، فتؤدي بالدوام إلى نفس النتائج. ولا يمكن تصور تعريف للعلم أفضل من هذا.

وجاء عمانوئيل كانط (١٧٢٤ – ١٨٠٤ Immanuel Kant) بعد هيوم، الذي حرك فكر "كانط"، فتأثر بفلسفته الواقعية تأثرا عميقا. ومن

هنا كانت واقعية "كانط" تدين بالكثير لتجريبية هيوم. وحيث إن "كانط" كان "لا أدريا"✸، إلا أنه كان من الحكمة ليدرك أنه لا غنى عن الفضيلة والأخلاقيات. ولعله كان أول الرواد الذين اعتبروا أن الفضيلة يجب أن تنشأ عن العقل وحده. وقد قسم الواقعية إلى واقعية مُدركة✪ (Phenomenal reality) ، وواقعية ذاتية◎ (Noumenal reality). وكان يؤمن بأن البحوث العلمية لا يمكن أن تتعدى الظواهر المدركة، وعلى هذا فقد اعتبر أنه لا مجال لإثبات وجود الله من خلال آليات استقصاء المدركات. وفي العادة يُطلق على منهجه المثالية المتعالية✪ (Transcendental idealism).

أدى هذا بالتالي إلى ظهور المثالية المطلقة عند هيجل (Hegel)، وقد ظهرت الكثير من التعبيرات الجديدة خلال تلك الحقبة الخصيبة لنمو فلسفته، مثل تعبير: المنطق الوضعي❖ (Logical positivism)، والوجودية◆ (Existentialism)، والموضوعانية⊠ (Objectivism)، ومع ذلك فلم تتم إضافة جديدة ذات شأن إلى فلسفات أرسطو وأفلاطون، اللذيْن تقلدا الزعامة المطلقة بغير منازع على طول الزمان. وحتى الصيغ الذكية مثل "المادية الجدلية" و "الاشتراكية العلمية"، لم تكن سوى أسماء أخرى لما

✸ يتبع مذهب اللاأدريين الذين يؤمنون بأن وجود الله وطبيعته وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها. (المترجم)

✪ ذات علاقة بالظواهر لا بالفرضيات. (المترجم)

◎ مفهوم الشيء كما هو في ذات نفسه أو كما يبدو للعقل المحض. (المترجم)

✪ الفلسفة المتعالية هي كل فلسفة تقول بأن اكتشاف الحقيقة يتم بدراسة عمليات الفكر لا من طريق الخبرة أو التجربة. (المترجم)

❖ منطق الفلسفة الوضعية التي تُعنى بالظواهر والوقائع اليقينية فحسب، مُهملة كل تفكير تجريدي في الأسباب المطلقة. (المترجم)

◆ فلسفة تؤكد على حرية الفرد ومسؤوليته. (المترجم)

⊠ إحدى النظريات التي تؤكد الحقيقة الموضوعية وبخاصة بوصفها متميزة عن الخبرة الذاتية. (المترجم)

نجده قد نوقش بغير تحفظ في أعمال أرسطو. غير أنه يجب ألا يغيب عن البال أن الفلاسفة الأوربيين كانوا يدينون لمن سبقهم من فلاسفة المسلمين في الأندلس وبغداد بأكثر مما كانوا يدينون به لفلاسفة اليونان. لقد كان ذلك هو العهد الذي تربعت فيه على العرش المثالية المطلقة لهيجل، ومع هذا فإن القليل من الأوربيين يدركون أنها لم تكن سوى استمرار لمثالية أفلاطون. وإذا فهمنا هيجل جيدا لأدركنا أنه كان يعتبر الذاتانية* (Subjectivism)، ترتبط ارتباطا متلازما مع الحقائق الخارجية، وهذا يعني أنه لم ينكر الحقائق الموضوعية كلية، ولكنه جعل أهمية عظمى للأفكار.

في مدرسة الفكر الإسلامي كان الصوفيون الموضوعانيون أمرا مختلفا كلية، إذ أنهم بلغوا بذاتانيتهم إلى مستويات شاهقة.. لم يكن يحلم بها الفلاسفة الأوربيون، حتى إنه بالمقارنة يمكن اعتبارهم فنانين.

لا توجد في أعمال أي جيل من أجيال الفلاسفة الأوربيين دراسة لما يتعلق بقضية الوحي وما يؤدي إليه من المعرفة. ومن بين الفلاسفة الذين كانوا يؤمنون بوجود الله تعالى.. استمر "ديكارت" متمسكا باقتناعه أن العقل يجب أن يأتي قبل الإيمان. وكان يؤمن بالله لأن عقله كان يؤيد إيمانه، وبالتالي لم تكن لديه مشكلة التناقض بين العقل والإيمان. وكان من رأي "فولتير" (Voltaire)، و"توماس باين" (Thomas Paine)، أن العقل لعب دورا أكثر أهمية من العقيدة خلال تطور الحضارة الإنسانية. وكان وجود بعض الأشكال التجريدية لوجود ما فيما وراء عالم المادة، هو الموضوع الذي دارت حوله بعض البحوث في الفلسفات الميتافيزيقية، وأما موضوع الوحي.. فلم يتطرق البحث إليه بتاتا بأية جدية.

ورغم الاهتمام بالفلسفة في ذلك العهد، فعند الحكم على قيمة الإيمان بالمقارنة مع العقلانية، نجد أن الفلاسفة كانوا صامتين إلى حد ما عن موضوع ما إذا كان الوحي قد لعب أي دور في هداية الإنسان إلى

* مذهب فلسفي يقيم المعرفة كلها على أساس من الخبرة الذاتية. (المترجم)

الحقيقة والمعرفة. وعلى أحسن تقدير.. فقد ظلت اهتماماتهم تدور حول وجود الله تعالى، ولكن من الناحية الفلسفية فقط. ولم تُبذل أبدًا أية محاولة للعثور على أي أثر في الكون يُثبت وجود الله عز وجل. ولم تُبحث أبدا بجدية أهمية الوحي السماوي. وبالمقارنة.. نجد أن المحاولات التي تُبذل في العصر الحديث لالتقاط رسائل من العالم الخارجي تبدو أعظم وأكثر جدية، حتى إن هذه المحاولات قد صارت بالفعل منظمة على المستوى الرسمي، وتمولها القوى العظمى في العالم.

وكلما اقتربنا من العصر الحديث.. منذ "بنتهام" و"ميل" و"سيدجويك"، نجد أن هناك نزوعا متزايدا للاعتماد على العقلانية، بينما راح الإيمان يُطرح جانبا بالتدريج ليأخذ مكانا أقل أهمية وأدنى معنى، وكان الإيمان بالله هو آخر ضحايا هذا التعويل على العقلانية. وهكذا اكتسبت العقلانية السيطرة بالتدريج وبتمهل، مثل بزوغ فجر طويل في المناطق الشمالية، لا يعترض ظهوره من حين لآخر سوى انبثاق حزمة من الهالات القطبية.

لقد جعل العقلانيون الأفضلية للعقل على كل الوسائل الأخرى للوصول إلى المعرفة والحقيقة، ومع ذلك فإننا نجد بين العقلانيين أيضا من يؤمن بالمسيحية ومن لا يؤمن بها، إلا أن غير المؤمنين هم الذين صارت لهم اليد العليا. وفي عصر العقلانية.. كان على الكنيسة أن تدافع عن المسيحية على نحو ما باستخدام ما يمكن لها أن تجمعه من أدلة منطقية، غير أنه كان خطأ استراتيجيا من جانب الكنيسة أن تُستدرج في الدخول إلى ميدان الصراع مع الفكر والعقلانية.

في هذه المرحلة كان كيركغارد (Kierkegaard)، وجاسبرز (Jaspers)، ومارسل (Marcel)، أكثر البارزين من بين المؤمنين بالله. وكان كيركغارد هو الأول من بينهم الذي دق ناقوس الخطر محذرا الكنيسة ألا تقدم على الانتحار.. بالدخول إلى حلبة المناظرات المنطقية بين العقل والإيمان. وقد

كتب كوبلستون (Coppleston)، في (الفلسفة المعاصرة – Contemporary Philosophy) مشيرا إلى جهود كيركغارد لإنقاذ الإيمان من هجمة العقل فقال:

"بالنسبة لكيركغارد.. كان هذا المسلك يعتبر ببساطة غدرا وخيانة للمسيحية. إن جدليات هيجل تعتبر عدوا من الداخل، وليس من شأن أحد أن يخفف من عقائد المسيحية حتى تروق لعامة الجمهور المثقف. إن عقيدة اتحاد اللاهوت والناسوت في المسيح كانت تعتبر حجر عثرة لليهود، وحماقة لليونانيين، وهي ستكون كذلك على الدوام. فإن هذه العقيدة لا تسمو فوق العقل فحسب، بل إنها تتعارض معه. وهذا هو التناقض المتفوق.. حيث لا يمكن إثباتها إلا بالإيمان والرغبة والاستغراق الروحي العميق. واستبدال الإيمان بالعقل يعني موت المسيحية".[٦]

إن ما لم يوضحه كيركغارد هو أن العكس أيضا كان صحيحا، فهو يكاد يقول إن الديانة المسيحية خالية تماما من المنطق والعقلانية، ولا يمكن الالتزام والتمسك بها إلا إذا اختبأ المرء كالسلحفاة داخل ترس من التجاهل العنيد للعقل.. وفي اللحظة التي تتجرأ السلحفاة على إخراج عنقها خارج الترس، فإن العقلانية المتربصة لمثل هذه اللحظة سوف تقتلع رأسها. ومع ذلك، فإن كيركغارد ظن أنه يستطيع أن يُبقي على عقله وعلى مسيحيته في آن واحد. ولعله عرف كيف يأكل كعكته ويحتفظ بها في نفس الوقت!

لقد ظل بركلي وهيجل على تمسك متصلب بمبدأ أن العقل يجب أن تكون له الأفضلية على التجارب الحسية. ولم يكن الرب بالنسبة لهما سوى وصف تم اختراعه لملء الفراغ في ثغرة منطقية. وهكذا استمر الجدال مُستعرًا بين فلاسفة أوربا المؤمنين وغير المؤمنين. وظل مستعرا إلى أن انطفأت ناره بعد أن أكلت النيران نفسها، ولم يبق منها سوى رماد الإيمان الذي ملأ توابيت اللاأدرية والملاحدة.

أما فيما يتعلق بالمؤمنين من الفلاسفة اليهود، فكانت استراتيجيتهم

أقل عرضة للانتقاد. فقد كانوا يؤمنون بتاريخية ديانتهم، وبالماضي الظافر لليهودية على خصومهم وأعدائهم من الأقوام الأخرى، وكان هذا كافيا بالنسبة لهم كي يجعل جذوة الإيمان مشتعلة لديهم. كما أن مناقشة قضية العقل في مقابل الإيمان.. لم تكن لها أهمية لديهم.

ومن بين الملاحدة.. فإن نيتشه، وسارتر (Sartre)، ومارلو بونتي (Merleau-Ponty)، وكاموس (Camus)، وماركس (Marx)، كانوا فئة خاصة بحد ذاتهم. ولم يؤمن أحدهم بتعميم أحكامهم، وعلى ذلك لم يكن من الممكن لهم تعميم المذهب الذاتي*، فإن الخبرة الذاتية لكل شخص تتميز بالتفرد، بحيث لا يمكن أن يتشارك فيها الآخرون على وجه كامل.

ونحن نعتقد أنه من الضروري هنا أن نخصص جانبا للحديث عن الماركسية. ومهما اختلفنا مع هذه الفلسفة، فلا يمكن إنكار أنها اكتسبت مكانا سوف يظل دائما محل احترام عدد كبير من الناس في أنحاء العالم.

إن من حق ماركس (١٨١٨-١٨٨٣) أن يُفرَد له جانب من الحديث بصفة خاصة كواحد من بين الفلاسفة الملحدين في القرن التاسع عشر. ولم يكن إنكار وجود الله بالنسبة له موضوعا عارضا، وإنما كان محصلة متكاملة لفلسفته التي لا تتوافق مطلقا مع الدين. وهو يعتبر أن الناس مثل العناصر التي تتفاعل مع بعضها بعض، بتأثير قوانين اجتماعية واقتصادية تحكمهم، ولذلك فمن الواجب أن يتحرّروا من سلطان تدخل الدين، الذي يعرقل المسيرة الطبيعية للتقدم. وبالنسبة لماركس.. لا يوجد للوحي والإلهام مكان في معجم ألفاظ فلسفته.



MARX
ماركس

يليه نيتشه بشخصيته الخاصة المهيمنة.. الذي سخّر قلمه كالسيف الحاد في هجوم شرس على الإله.. إلى أن أعلن وفاته، أو لعله هكذا ظن.

* الذي يقَيّم المعتقدات الدينية على أساس من الخبرة الذاتية. (المترجم)

وهو في الواقع لم يعرف أي إله سوى إله العقيدة المسيحية، وذلك هو الإله الذي اغتاله بسيفه العقلاني. وأثبت هذا صحة تحذير كيركغارد للقساوسة بالتزام الصمت المطبق فيما يتعلق بالسر المقدس لعقيدة التثليث، بدلا من خلق المتاعب بمحاولة الدفاع عنها باستخدام الآليات العقلانية.

والواقع.. إن الكنيسة المسيحية التي جعلت من مفهوم الإله لغزا سخيفا منافيا للعقل.. هي التي دفعت معظم فلاسفة أوربا الملحدين في هذه المرحلة إلى الإلحاد. ولعل سارتر (١٩٠٥-١٩٨٠) كان أكثر فلاسفة الإلحاد المتأخرين إثارة وسخرية. فقد كان يعرف كيف يصوغ عبارة بسيطة لتحوي أفكارا عميقة. فقال تعبيرا عن عجز الإنسان.. رغم حُريته.. عن أن يتدبر أمره بنفسه في عالم يخلو من وجود الله:

... man is condemned to be free.

"... إن الإنسان محكوم عليه أن يكون حُرا. " [٧]

وكان يعني بهذا أن مسؤولية الاختيار الملقاة على عاتق كل إنسان هي تحد بالغ الصعوبة، ولا يوجد من يقود خطوات الإنسان في هذا الوجود المقفر الموحش سوى الإنسان نفسه. وفي تعليق له على واقعة حضور الملائكة إلى إبراهيم عليه السلام.. قال إنها لم تكن سوى ظاهرة حسية، إذ كان يرى أن الوحي الإلهي الذي جاءت به الملائكة إلى إبراهيم عليه السلام، لم يكن سوى انعكاسات لروحه المكروبة. وإن كنا نرى خطأ سارتر في اعتباراته.. فإننا نفهم مدى حقده وانطلاقاته الملتهبة اليائسة. إن انعكاسات "الروح المكروبة" تعبير أكثر ملائمة لسارتر نفسه، الذي ربما يكون قد عانى من ويلات الكرب والسخط في فلسفته الإلحادية، التي تخلو تماما من وجود الإله. فاعتبار الوحي انعكاسا لكرب الروح يكشف بوضوح عن وجهة نظر الملحد.. هذا إذا كان الملحدون يعترفون أصلا بأن لهم أرواحا. لقد كان تعريف برنارد شو (Bernard Shaw) للوحي يقترب من تعريف سارتر ولكن بغير أن يطابقه، فهو يُعرّف الوحي بأنه "أصوات من داخل النفس"،

وهذا التعريف، على أحسن تقدير، يتلاءم مع روائي يفتقد عمق وقوة تفكير سارتر! وعلى أية حال.. لقد فشل سارتر في التمييز بين الوحي السماوي وإلهام النفس، وهي ألفاظ لم تجد لها مكانا في فلسفته. أما الذي وجد له مكانا فيها فهو كُرْب الروح، ولسان ملتهب.. ينطلق من حين لآخر في ثورات من اليأس.. فلا وحي يتنَزل من أعلى، وما ينشأ ويحدث إنما ينشأ من أعماق اليأس الإنساني.

وكان هيجل (١٧٧٠-١٨٣١) لأدريا آخر.. غير أن إنكاره لم يكن في قوة وشراسة سارتر، فلم تكن فلسفته متعلقة تعلقا مباشرا بالأمور الدينية. وكان من بين أعماله البارزة.. محاولته خلق جسر بين الذاتية والموضوعية.

لقد كان هو أول مَن أبرزَ التناقضَ الجدلي بين أفكار جيل والجيل الذي يليه. وهذه هي نظرية هيجل المعروفة للصراع الجدلي بين المؤمنين بوجود الله والمعارضين لهم. لقد كان ببساطة يؤمن بالتناقض في الأفكار. وهذا يعني أن الأفكار التي يتناقض بعضها مع بعض، بغير أن تكون متضادة، إنما تكون متشابكة في صراع دائم من أجل التفوق.

وقد أدى هذا في أطروحته، إلى أن الأفكار العالية هي نتاج حتمي للعمليات الجدلية المتقدمة. وهذا بالتالي أدى إلى مولد نقيضة* أخرى تولدت بدورها من أطروحات متقدمة، وهكذا دواليك حتى الوصول أخيرا إلى أطروحة متوازنة توضح فهما إيجابيا ثابتا لطبيعة الحقيقة الموضوعية.

وقد استعمل هذه الطريقة لإثبات دور المنطق في الوصول إلى المعرفة. غير أن هذه الطريقة الجدلية للوصول إلى الحقيقة، ليست ممكنة إلا من خلال أنظمة واقعية وليست تجريدية. والمحصلة النهائية لهذا الصراع بين الأفكار هو ما سماه الحقيقة المطلقة (Absolute idea). كان هذا هو مفهوم

* المرحلة الثانية من مراحل العملية الجدلية. (المترجم)

هيجل عن الواقعية المطلقة للحقيقة الكونية. فالتاريخ عنده ليس سوى حركة الفكر، ودمج الأطروحات والنقيضات في جميعيات✪. وفي كلمات لينين.. كان هيجل يؤمن بأن:

"الحياة تبعث على وجود المخ، والطبيعة منطبعة في المخ الإنساني، ويستطيع الإنسان أن يصل إلى الحقيقة الموضوعية من خلال ممارساته وبراعته في اختبار وتطبيق صحة هذه الانطباعات".[٨]

وفي رأيه أن أية نظرية أيديولوجية لا تتعلق بمجال التجارب المادية لا تستحق أي اهتمام جدي، وبالتالي فإن مناقشة أهميتها تكون فقط من الناحية الأكاديمية البحتة.

وعند تطبيق فلسفة هيجل.. كان ماركس هو الذي جرّب إعطاء الإنسان حياة جديدة تقوم فقط على قدرة التفكير لديه. ومع أن هذا كان مسلكا علمانيا خالصا في أول الأمر، إلا أنه ما لبث أن استحوذ على تقدير من المجتمع، فقد وُلد نوع من الديانة السياسية والاقتصادية كانت من خلق الإنسان.. قامت على إنكار وجود الله. وكان المفكرون الماركسيون في اتفاق مع وجهة نظر هيجل، فاستبعدوا فكرة الحقيقة الأبدية، ولم يقبلوا الحقيقة الموضوعية على أنها الحقيقة المطلقة، فقد كانوا يرون أن الحقيقة ترتبط دائما بزمن محدد أو بظرف معين.



ENGELS
إنجلز

ومن بين المفكرين الاشتراكيين.. كان إنجلز (Engels) قد قَبِل فكرة الحقيقة المطلقة، ولهذا فقد واجه استنكارا من بوغدانوف (Bogdanov). وعلى العموم.. فإن الحقيقة عند الفلاسفة الشيوعيين، هي مُسمًّى للمعرفة التي تُكتسب عن طريق الدراسة الموضوعية، التي تخضع لمرحلة معينة ولظروف محددة. وانحصارا في هذه المرحلة والظروف المعينة.. تكون

✪ نتيجة الجمع بين الأطروحة والنقيضة في الجدل الهيجلي. (المترجم)

الحقيقة هي المعرفة، وتكون المعرفة هي الحقيقة. وعلى هذا يمكن تعريف المعرفة بأنها الحقيقة الموضوعية دائبة التغير، مقابل التغير المستمر في البيئة.

ولم يستغرق الأمر طويلا إلا وقد تحولت هذه الفلسفة المادية إلى مذهب حياتيّ، وصار ماركس هو الرسول الأعظم لهذه الديانة اللاإلهية وكان وسيطها أيضا. إذ يجب أن نلجأ إليه الآن عند الدراسة المتعمقة لهذه الفلسفة، فقد كان من المقدر أن يتغير وجه هذا العالم بسبب القوة المذهلة لفكرته هذه، وليس لمجرد آليات المادية الجدلية.

وعلى مقياس الصراع بين الأفكار والمعتقدات الإنسانية، نجد أن الدين.. بما يؤكده على دور الوحي باعتباره أكثر الوسائل فعالية في الهداية.. يقف على الطرف الأقصى للمقياس، بينما تقف الماركسية.. بإنكارها التام للحقيقة الموحى بها.. على أقصى الطرف الآخر. وبين هذين الطرفين تقع مختلف الفلسفات التي يقترب بعضها من أحد الطرفين، بينما يقترب البعض من الطرف الآخر. ولكن نفي جميع ما يمثله الدين نفيا تاما ومطلقا لم يوجد في أية فلسفة من الفلسفات كما هو موجود في فلسفة المادية الجدلية والاشتراكية العلمية.

ويبدو أن من بين جميع فلاسفة أوربا.. كان ماركس هو الأكثر ذكاء وواقعية، ومع ذلك فقد كان مثاليا بغير أن يعترف بمثاليته، شديد المكر في استراتيجية فلسفته ضد الله تعالى وضد الدين. وعنده لا يعني الله ولا الوحي شيئا، وكذلك أيضا لا مكان للإلهام في فلسفته. وهو لا يتفق مع مثالية هيجل التي تسبق الحقائق الموضوعية وتساهم في فعالياتها.

ففي فلسفة هيجل.. تولد الفكرة أولا، ثم تتحقق التغييرات المادية فيما بعد تحت تأثيرها. وعلى ذلك.. حين تنمو الفكرة إلى مرحلة معينة من النضج، وتصير حبلى بأفكار جديدة، تخضع هذه الأفكار بدورها لاختبارات التحقيق. وهكذا تنتقل موجات هذه الأفكار، موجة إثر أخرى، وهي تُحَوّل الوقائع غير الموضوعية إلى حقائق موضوعية مشهودة

يمكن إثباتها.

لقد كان ماركس من الذكاء بمكان حيث إنه استطاع أن يتوقع البلاء قبل وقوعه. فإذا كانت الأفكار غير الموضوعية تتحول إلى وقائع موضوعية، كما تقضي بذلك الفلسفة الهيجلية، فينبغي أن تكون الأفكار غير الموضوعية قد سبقت في وجودها الحقائق الموضوعية، مما يخلق سلسلة خطيرة من الأسباب والمسببات. إذ أن وجود الأفكار يقتضي أن يسبقه وجود الوعي الذي لا يمكن تَصَوّر وجوده بغير وجود الحياة، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى الله تعالى.. باعتباره المؤثر والمحرك الأعظم، الذي يمكن أن يحقق التغييرات الموضوعية بواسطة آليات الفكرة. وربما لهذا السبب لم يؤيد ماركس علنا المثالية الهيجلية، بينما من خلال تحريف دقيق في تتابع الأسباب والمسببات.. جعل ماركس من الفلسفة الهيجلية فلسفة خاصة به، إذ أنه وضع المادة قبل الفكرة. وعلى ذلك لم يبدأ الصراع الجدلي عنده بالأفكار، وإنما يبدأ بالمادة المحكومة بالقوانين الطبيعية التلقائية. وعلى هذا فلا بد للمادية الجدلية أن تصل إلى نتيجتها المنطقية، بمساعدة من الأفكار أو بغير مساعدتها، إذ أن المادة المجردة سوف تشق طريقها الخاص بالتأثير على الحياة وتشكيل مصيرها. إن هذه الفلسفة تتصور سلفا عدم وجود الله تعالى، الذي كان من المحتم إزاحته عن كرسي قيادة شؤون الإنسان، لأن الإنسان وحده هو الذي من حقه أن يتولى زمام أمور نفسه بمسؤولية كاملة.

وعلى هذا.. كان اعتماد ماركس على العقل والمنطق اعتمادا كاملا، مثلما كان رفضه لله تعالى والوحي الإلهي رفضا كاملا أيضا. فإن مسألة المثالية المطلقة في مقابل المادية الجدلية ليست سوى مسألة ترتيب، وقضية أي منهما سبق الآخر.. ليست سوى قضية تنتظر البت فيها.

وهذا يؤدي بنا إلى سؤال هام آخر، وحين تُحل مشكلته.. سوف يتيسر لنا فهمٌ أفضل لنوايا ماركس الخفية. كيف استطاع ماركس أن

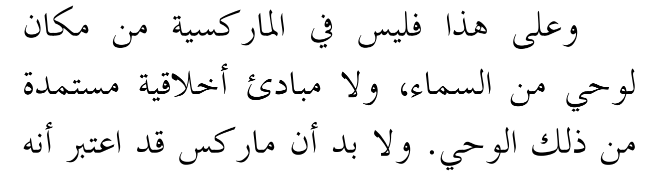
يتخَيل سلامة وفعالية أي نظام، يمكن أن يستمر بغير خلل، مع غياب الأخلاقيات؟ لقد كان من الذكاء بمكان حتى إنه من المستحيل أن تكون هذه النقطة قد غابت عنه، بل لقد كان لديه من الذكاء ما جعله يدرك حلقة الاتصال بين الأخلاقيات وبين الله تعالى. إن الإنسان بطبيعته ليس حيوانا أخلاقيا، بل على النقيض.. إنه الحيوان الأكثر فسادا تحت قبة السماء، وكل المحاولات لجعل الإنسان أخلاقيا، انبثقت جميعها من الإيمان بالله تعالى. ولكن ماركس كان يعلم جيدا أن الإيمان بالله لم يكن متوافقا مع فلسفته، وكل ما يقود إلى الله تعالى.. أو ما يمكن أن يقود إليه.. فهو محظور تماما. وكان عليه الاختيار بين أحد أمرين: إما أن يشجع الأخلاقيات في نطاق الشيوعية.. حماية لمصالحها، وبذلك يتعرض لخطر إعادة العالم الشيوعي إلى الله تعالى، أو يتجنب المخاطرة.. ويقبل بدلا عنها إمكانية وقوع ما يهدد النظام نفسه. ولعله كان يأمل أن يكون رعب العقوبة المتوقعة، كافيا لتعويض غياب التربية الأخلاقية لدى القائمين على شؤون الحكم الشيوعي.

ولكن.. لقد ثبت خطؤه في هذا. فالإنسان حيوان فاسد.. فسادًا يتجاوز بطش العقوبة القاسية لنظام شمولي يعمل على تقويمه.

إن الفلسفة الماركسية للمادية الجدلية لا تترك مكانا لله تعالى، ولأجل نفس هذا السبب.. شن "لينين" حملة شرسة على أولئك الذين بلغت بهم الجرأة أن يكونوا دعاة للفضيلة، حتى وإن كان ذلك ضمن نطاق الإطار الشيوعي.



LENIN
لينين



وعلى هذا فليس في الماركسية من مكان لوحي من السماء، ولا مبادئ أخلاقية مستمدة من ذلك الوحي. ولا بد أن ماركس قد اعتبر أنه من الضروري إبعاد الأخلاقيات عن مجال الشؤون الإنسانية، بسبب أنها

تتضمن الاحتمال بأن تُفضي إلى الله تعالى.

وهناك سبب قوي آخر يتعلق بالغرض الذي ربما من أجله نبذ ماركس الأخلاقيات، وهو الخوف من أن تقف الأخلاقيات في الطريق لتكبح من جماح ثورة البروليتاريا. فقد كانت البروليتاريا مرتبطة بالسادة من البرجوازية باسم الالتزام الأخلاقي، وكان من الضروري تحطيم تلك الروابط، وإطلاق الحرية للجماهير لتفعل كل ما تراه ممكنا للثورة ضد طغيان واستبداد الطبقة المغتصبة. وعلى ذلك.. كان من الواجب عدم السماح بأي التزام أخلاقي أن يقف في الطريق، بل كان من الضروري أن تكون لهم الحرية الكاملة في القتل والاغتيال والنهب والحرق والتدمير، حتى يمكن إبادة النظام الاقتصادي والسياسي البرجوازي. ولهذا فقد رأى ماركس في الأخلاقيات العدو اللدود لنظامه اللاإلهي.

ورغم واقعية وذكاء ماركس، إلا أنه ظل مليئا بالتناقضات. لقد وضع لأفكاره المقترحة أساسا سليما راسخا يقوم على تفكير طويل وتحليل عميق، الأمر الذي يصعب معه تصور اتصافه بالتناقضات المتأصلة في شخصيته. ومع هذا.. فإن التناقضات كانت متفشية بعمق في الفكر الماركسي. وكانت إحدى هذه التناقضات هي النبذ الكامل للأخلاقيات من ناحية، وتنظيم حركة ثورية.. تقوم أساسا على ظاهرة أخلاقية هي التعاطف مع المظلومين.. من ناحية أخرى.

غير أن هذا لم يكن كل التناقض. إن التعاطف مع قضية البؤساء، إذا تُرك له الحبل على الغارب، بغير أية ضوابط من العدل والإنصاف، فإنه يؤدي إلى اقتراف أعمال وحشية ضد الآخرين، وهنا يبدو التناقض أشد سطوعا ووضوحا. فإن لم تكن هناك عدالة في الشؤون الإنسانية، ثم قمتَ بحركة باسم العدالة من أجل إعادة توطيدها، فإنك لا تستطيع أن تنتهك حرمة نفس المبادئ التي تؤسس عليها الحركة التي تقوم بها. إذ أنك بهذا تقطع نفس فرع الشجرة الذي تتعلق به للنجاة من السقوط.

وأيضا.. إن الذي ينشئ نظاما لا يعترف بأية قيم أو اعتبارات أخلاقية، يكون في تناقض مع نفسه حين يتوقع طاعة وولاء كاملين لنظام.. هو في جوهره لاأخلاقي. كذلك.. هناك تناقض آخر في ماركس يتعلق ببرنامجه الذي خطط له أحسن تخطيط، وحسب له ألف حساب، لكي يتمكن من مساعدة البروليتريا على الإطاحة بطغيان البرجوازية المستبدة. إذ مهما كان اسم هذه الفلسفة.. سواء كانت تُسمى الاشتراكية العلمية أو المادية الجدلية.. إذا كانت هذه الفلسفة صحيحة بالفعل، فإنها ليست بحاجة إلى مساعدة خارجية من أناس يعالجونها ويقودون خطواتها.

والأمر الآخر الذي يستحق الملاحظة.. هو أن المادية الجدلية لماركس كانت متأثرة تأثرا شـــديدا بالمؤَلَّف الضخم لداروين: أصل الأجناس (The Origin of Species). وفي الواقع.. إن الدراسة العميقة تكشف أن المادية الجدلية ليست مجرد اسم آخر لنظرية داروين: صراع البقاء، بعد أن تم توسيعها لتشمل الشؤون الإنسانية.

إن عوامل البقاء من حصول على الطعام، وتوفير وسائل المعيشة، هي الشغل الشاغل في حياة الإنسان، تماما كما كانت هي نفسها العوامل المتسلطة على الأنواع الحيوانية الأولى، من قبل أن يوجد الإنسان. وقانون "البقاء للأصلح" لا يزال يعمل ويؤثر الآن تماما كما كان يعمل في السابق.. بلا أي اختيار للحياة في أن تنتهج نهجا يختلف عما يقضي به هذا القانون. وهذه حقيقة علمية. فإذا كانت الفلسفة الماركسية لا تتسم بهذه الغائية والدقة والحتمية، فلا يمكن لعقيدة ماركس أن تُوصف بأنها علمية. وبالتالي فإن المادية الجدلية تفقد قيمتها كظاهرة طبيعية حتمية.

ولنبحث الآن كيف يختلف التطور والارتقاء عند داروين عن المادية الجدلية. إن النظرية الداروينية تسود وتهيمن على كل ما عداها في صياغة شكل الحياة وشق طريقها. وهي ليست في حاجة إلى برنامج أيديولوجي

للدفاع عنها، ولا تفتقد المساعدة الخارجية لتوطيد أركانها. بل على العكس من هذا.. إن لها القدرة على تدمير وإحباط أية محاولة خارجية تعترض مسيرتها. وإن لم يكن داروين قد وُلد، وإن لم يكن أحد قد كشف أسرار الارتقاء والتطور، لظلت حقيقة التطور بلا أي تغيير، ولما تسبب غياب داروين في حدوث نتفة من تغيير في حتمية هذه الحقيقة.

إن قوانين الطبيعة لا تعتمد في عملها على الفهم الإنساني، وليس لإدراك الإنسان أي دور في حقيقة وجود هذه القوانين. وسوف تظل عجلة القوانين الطبيعية تدور، سواء فهمها الإنسان أم لم يفهمها.

ويختلف الأمر تماما في حالة المادية الجدلية. فلو لم يولد ماركس ولينين.. لما كان من الممكن أن تقع ثورة شيوعية.. لا في روسيا ولا في أي مكان آخر من العالم. لقد كانت روسيا في تلك المرحلة في حالة استعداد تام للثورة.. بقيادة لينين أو بغيره. وكان الفرق الوحيد هو أن لينين استطاع أن يركب موجة الثورة، حين تعالت تلك الموجة، فاستغلها لمصلحة الاشتراكية العلمية. وأما في حالة المنظور الدارويني للارتقاء.. لم تكن هناك حاجة بتاتا إلى مُدافع لحماية مصالح القوانين الطبيعية، ولا منظم يساعد في تنظيم عمليات التاريخ الطبيعي.

وعندما نقارن فلسفة هيجل مع فلسفة ماركس.. نجد أن السؤال الهام الذي يقفز إلى الأذهان هو: هل الأفكار تسبق التغييرات الموضوعية في العالم المادي، أم أن التغييرات الموضوعية نفسها هي التي أوجدت الأفكار عند تواردها؟ فإذا كان ماركس على حق.. لم تكن به حاجة إلى القيام بحملة فكرية ومثالية حتى يحقق ثورة شيوعية، إذ ما كان ليحدث أي شيء يعارض حتمية النتيجة العلمية.

ولو كانت الشيوعية بالفعل قانونا في ذاتها كمثل قانون الارتقاء، لكان من المستحيل لأية أفكار معارضة.. مهما كان من قوة تأثيرها.. أن تعوق توطيد وتقدم الشيوعية، حتى ولو اتفقت وتواطأت تلك الأفكار على

ذلك. وهذا مثال آخر على وجود التناقض في ماركس. فمن الواضح أنه يرى أن المادية الجدلية كانت تسبق الفكرة، ولكنه كان يستند تماما إلى قوة الفكرة لتحقيق ماديته الجدلية.

ولو كانت أحلامه تقوم على أسس علمية سليمة، لكان من المنطقي أن يتحقق ما يبتغيه من نقل القوة الاقتصادية والسياسية من أيدي القلة إلى أيدي الكثرة، ولكن لم تكن هناك حتمية في حدوث الظروف التي خلقت ماركس والتي خلقت لينين. إن مجرد مولد ماركس بمواهب معينة، وكسبه لتأييد صديق ذي فكر متّقد وتأثير واسع وثروة كبيرة مثل إنجلز، لم يكن أبدا نتاجا طبيعيا للمادية الجدلية.

وأيضا.. كان فشل ماركس في تحقيق هذه الثورة في ألمانيا، التي كانت.. حسب فلسفته.. حلبة صراع مثالي بكل العوامل الموجودة فيها لتحقيق ثورة بروليتارية، إنما هو برهان شاف على أن المادية الجدلية في حد ذاتها، لم تكن كافية لتحقيق تغيير وجه العاًلم السياسي والاقتصادي.

ومن ناحية أخرى، فإن نجاح لينين في روسيا، وهي بلد يقل كثيرا في قاعدته الصناعية عن ألمانيا، إنما هو برهان آخر يؤيد المقولة التي تؤكد على أن الثورة الروسية كانت مجرد مصادفة و لم تكن نتيجة مباشرة للماركسية. لقد كان من سوء حظ روسيا وتاريخها أن لينين كان موجودا في تلك المرحلة الحرجة، التي أتاحت اللحظة المواتية للينين للانقضاض، نتيجة لرد الفعل ضد طغيان وفساد وأنانية حكم القيصر المستبد، مقرونا بشعور الإحباط والخيبة بعد الهزيمة في الحرب العالمية الأولى.

على أية حال.. كانت روسيا مستعدة تماما للثورة. وفي الواقع.. كانت روسيا مستعدة تماما لأية ثورة. ولو لم تكن الثورة الشيوعية قد اندلعت، لاشتعلت ثورة أخرى. فكل ما كان مطلوبا هو وجود قائد في منْزلة لينين، وكان من الصدفة البحتة أن روسيا وجدت في لينين القائد الذي تصادف أن يكون تلميذا لماركس في الاشتراكية العلمية. وذلك الذي

كان يُدين الاستغلال بأقوى عبارات الاستهجان وأشد لهجات الاستنكار.. صار هو نفسه أسوأ المستغلين في تاريخ روسيا. فلم تكن الاشتراكية العلمية إذًا.. بل كان لينين هو الذي فرض التاريخ على روسيا.

وبعيدا عن التناقضات، يمكن إلقاء اللوم على ماركس لإهماله أمرا في غاية الأهمية، إذ أن اشتراكيته العلمية تجاهلت من حساباتها عامل العقل.

إن العقل هو مركز الأفكار، ويتميز العقل بشخصيته الخاصة منفردا عن هوية الْمُخ، فالمخ هو المقر المادي للعقل، ولكن العقل الذي يشغل المخ ويسكن فيه ليس ماديا. وإذا استطعنا تشبيه المخ بالحاسوب فيمكن تصور أن العقل هو المشغل لهذا الحاسوب. وتتوَلد الفكرة الذكية حين يتعامل العقل مع المخ الحاسوبي. وحتى لو افترضنا وجود تشابه وتطابق تام وكامل بين مخين، فإن الأفكار الناتجة عن كل منهما لن تكون متطابقة إذا تعامل معها عقلان مختلفان.

إن التقدم الإنساني كله.. العلمي، والاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي.. إنما يحدث تحت تأثير العقل. وتمارس دول العالم القوية سلطتها وسلطانها على الأمم الضعيفة بواسطة الخبرة المتراكمة لقوة العقل المتفوقة. وهذه هي نفس القوة المتفوقة لدى البرجوازية التي تجعل منها قوة هائلة في تملكها المطلق للسُلطة. غير أن المادية الجدلية لم تأخذ هذه القوة العظمى للعقل في الحسبان.

لقد أخطأ ماركس خطأ فاحشا حينما تصور أن الثروة المتراكمة في النظام الرأسمالي، هي المجموع الكلي لفائض قيمة العمل، الذي يستغله الرأسماليون. فقد اعتقد أن قيمة طاقة هذا العمل تنتج عن المال غير المدفوع لقيمة العمل المستَغَّل، مضافا إلى ذلك قيمة الفوائد المتراكمة عن الأموال المعطلة والمودعة في البنوك. وبهذا تكون الغالبية البروليتارية تُنتهب بواسطة الأقلية البرجوازية. ولكن مجرد العمل في ذاته لا يستطيع أن يتسبب في تراكم الثروة بغير أن يتزاوج العمل مع القوة المتفوقة للعقل،

وهذا ببساطة ما تجاهله ماركس. فالاختراعات العلمية المتقدمة هي من نتاج العقل، وهي وحدها التي أحدثت ثورة في النسبة بين المنصرف والعائد في قيمة العمل تجاه الإنتاج.

إن العمال في العديد من دول العالم الثالث لا يزالون يكدحون ويعرقون، ولكن نتاج عملهم لا يُعتبر شيئا بالمقارنة مع نتاج العمل في الدول المتقدمة صناعيًا. فالآلات المتفوقة، والوحدات الإنتاجية الْمُمَيْكنة بدرجة عالية، والتقنية الحديثة.. حينما تتزاوج كلها مع العمل يكون لها كل الأثر الهام الذي يُعَول عليه. وهذه القدرات المتفوقة كلها تحققت بواسطة العقل، الذي يرجع إليه الفضل في تحسين الإنتاج، وإلا.. فإن العمل هو العمل، سواء كان في بريطانيا أو في بنغلادش، في جزر الباسيفيك أو في الأدغال الأفريقية؛ فلماذا إذن يكون عائد العمل في مكان ما أعلى منه في مكان آخر؟ من الواضح أنه العقل الذي يلعب الدور الحاسم في الناتج غير العادل للعمل. غير أنه يجب أن يؤخذ في الاعتبار هنا أن قوة العقل هي عامل طبيعي يمكن أن يُستخدم للخير أو للشر، اعتمادا على من يستعمله.

وحيث إن العمل حين يجد العون من العقل يصير أكثر إنتاجا، فكذلك الحال أيضا مع الرأسمالية التي حين تجد العون السليم من العقل المتفوق تصير قوة هائلة. ولا تنطلق قوة الرأسمالية هذه آليا من تراكم الثروة في أيد قليلة. إن الثروة لا يمكن أن تتراكم في أيد قليلة إلا إذا كانت قوة العقل تقف في جانبها. وإذا كانت قوة العقل آثمة فاسدة فإنها سوف تخلق مافيا، ولن تستطيع قوة كل البروليتاريا أن تنجح في الوقوف ضد هذه المافيا.

ومتى بدأ وجود هذه المافيات.. فإن عددها يظل يتضاعف لتمد سطوتها على كل مجال له علاقة بأية مصالح إنسانية. ومع مرور الوقت، تزداد قوتها وتفرض نفوذها على الكبير والصغير. وسواء كان الأمر في المجال المالي، في التجارة، في السياسة، في إدارة الأعمال، في الصناعات

الترفيهية، في مجال الصحة والمرض، في صناعة السياحة والسفر التي تتنامى باستمرار، وفي مجالات استعمال الحاسوب وصناعة الإلكترونيات.. في كل مكان وفي كل مجال.. فإن هذه المافيات تُلقي بظلالها المشؤومة، التي تتزايد حجما وعمقا وأثرا.

وبالتالي.. فإن قوة العقل، حميدة كانت أو خبيثة، هي التي في النهاية تتحكم في عالم المادة، وليس لآلية المادية الجدلية دور مسيطر في صياغة قدر الإنسان. ويا للأسف! إن النتيجة الحتمية لرفض وجود الله تعالى هي.. فساد العقل الذي كان من المقدر له أن يحكم وينظم أمور العالم.

وليست الماركسية وحدها هي التي تنفرد بإنكار قيام الأخلاقيات بأي دور في الأمور الإنسانية، فإن ما يقوم به الشيوعيون جهرة يقوم به أيضا الرأسماليون، ولكن بأسلوب بارع من الخبث والنفاق. إن سياستهم واقتصادهم وتجارتهم تخلو أيضا من الأخلاقيات بشكل لا يقل عن نظرائهم في العالم الشيوعي، الأمر الذي يجعلهم جميعا شركاء في نفس الإثم. وإن قلة فرصة بروليتاريا الدول الشيوعية في الوقوف ضد من يقومون باستغلالهم، تماثل أيضا قلة فرصة الجماهير في العالم الرأسمالي.

والمافيات التي تخلقها قوة العقول الخبيثة الفاسدة في الرأسمالية، لا تقل في فظاعتها عن مثيلاتها التي تعمل في العالم الشيوعي، عندما تتعارض مصلحة الضعفاء والمحرومين مع مصالح الطبقة الحاكمة. وهذا هو العامل الذي يجب أن نركز عليه الآن. فما الذي يجعل المحرومين السابقين في القيادة الشيوعية ينسون فجأة كل آلامهم وتعاساتهم في الماضي، ويبدأون في التحكم في أقدار الجماهير بقلوب من حجر وبراثن من حديد؟ وأية أخلاقيات تلك التي تحكمهم؟ وأي وخز من ضمير يؤنبهم؟ فحيث لا توجد أخلاقيات لا يوجد أيضا وخز لضمير. إن هذه الآلية التي لا قلب لها، والتي تختص بنظام معدوم الرحمة، هي المسؤولة في نهاية الأمر عن فشل الشيوعية.

ويكشف الفحص العميق والدقيق لكل النظم الاستبدادية عن تناقض غريب متأصل. إذ لا فرق بتاتا بين ما إذا كانت تلك النظم تقوم على فلسفة شمولية، من شيوعية أو فاشية، أو كانت تنبثق عن صياغة دكتاتورية للقوة من حاكم مطلق رأسمالي. هناك عامل واحد مشترك بينهم جميعا.. وهو أنهم لا يتحملون أن يكونوا أخلاقيين، لأنهم لا يستطيعون البقاء بغير الاستبداد والاضطهاد، والأخلاقيات لا يمكن أن تتعايش جنبا إلى جنب مع قسوة الاستبداد. وعلى هذا لا يمكن لهم أن ينجحوا ويزدهروا إلا في غياب الأخلاقيات، ومع ذلك.. فإن نفس هذا الغياب الأخلاقي، هو الذي يؤدي في النهاية إلى سقوطهم.

إن مجرد القسوة والاستبداد، لا تكفي لحماية أي نظام شمولي أو استبدادي. فإن قوة العقول الماكرة.. التي تخطط المكائد وتدبر المؤامرات.. لا تقل في أهميتها عن أهمية ممارسة الاستبداد من أجل استمرار وجود تلك النظم. إن الرباط غير المقدس الذي يربط بين العقول الفاسدة والقلوب عديمة الرحمة، هو ذلك الذي تتولد منه كل النظم الدكتاتورية. وهذا الزواج غير الشرعي هو الذي يساعد هذه النظم على البقاء لفترة قد تطول أو تقصر، ولكنه دائما ينفصم في نهاية الأمر. ونفس عوامل التآمر والفقر الأخلاقي تصير في النهاية سبب سقوطهم من علٍ. وفي الواقع.. لا شيء، سواء كان صالحا أو طالحا، يمكن أن يحدث في شؤون الإنسان كنتيجة حتمية تتولد من داخله. إن العامليْن الأكثر أهمية هما اللذان يشكلان قدر الإنسان.. وهما عامل العقل وعامل الأخلاقيات. فإن قوتهما أو ضعفهما، صلاحهما أو طلاحهما، هو ما يقرر مصير كل ما يخطط له الإنسان. وعلى ذلك فقد كان ماركس مخطئا في الحالتين. وعندما نزيل عاملَي العقل والأخلاقيات من الاشتراكية العلمية، فإن ما يتبقى ليس هو بعلمي ولا باشتراكي. إن جماهير البروليتاريا.. مهما تضاخم حجمها وازداد عددها، فإنها ليست كفوا أبدا لمواجهة جبروت قوة العقول الخبيثة.

والويل لذلك الزمن الذي تتواطأ فيه القوة الغاشمة للعقل الخبيث مع غرور الذات لحكم العالم. وعلى هذا.. فلن يكون هناك من فرق يُذكر بين ما إذا كان العالم يُحكم بواسطة آلية مادية خالية من العقل وعارية عن الأخلاق، أو يُحكم بواسطة مافيا رأسمالية لها عقل خبيث وتفتقر للأخلاقيات. ومع ذلك هناك فرق، بل وفرق كبير في هذا الشأن الذي يكشف العيوب المتأصلة في الماركسية. ففي الرأسمالية يوجد دائما قدر من الحرية يتمتع به كل فرد في المجتمع، وهذه الحرية هي التي تعزز أهداف المجتمع. أما في الشيوعية فلا توجد حرية، بل ظلام من فتور متزايد، يُلقي بكآبته ويتخلل كل نسيج في المجتمع الشيوعي. وهو يوهن كل الجهود فيما عدا المجالات التي تجد الدولة نفسها مضطرة لتشجيعها.

المأزق الآخر الذي تواجهه الماركسية هو أنه لا يمكن تعريف الأخلاقيات بأنها مصطلحات حزبية، فإن مجتمعا تعلم وتدرب على أن يرفض كل الالتزامات الأخلاقية تجاه الآخرين.. لا يُتوقع منه أن يفي بحق هذه الالتزامات تجاه نفسه. فإن السلوك الإنساني عامة يشير إلى أنه إذا تعَوّد المرء على اللاأخلاقيات، فإنه يظل دائما بلا أخلاقيات. ونفس هذا المبدأ ينطبق على النظام القيادي الشيوعي، إذ يبدو أن اللاأخلاقيات تُقَوّي من قبضة الفساد على النظام الذي تتولاه هذه القيادة، وكلما ازداد فسادها كلما ازدادت هي غلظة وقسوة، حتى تظل لها السيطرة الدائمة.

لا يمكن للأخلاقيات واللاأخلاقيات أن تتوجه حصرا في اتجاه واحد معين، فمن المستحيل أن تعامل القيادة الشيوعية العالم الشيوعي بالأخلاقيات، حتى ولو قرروا وأرادوا ذلك، بينما هم مدربون على التعامل مع العالم غير الشيوعي والمصالح غير الشيوعية بدون أدنى الالتزامات الأخلاقية. وقد كان هذا العامل وحده قويًّا وكافيا ليحقق سقوط الدكتاتورية الشيوعية على المدى الطويل.

إن الجملة المشهورة التي تقول: "السُلطة مَفسدة، والسُلطة المطلقة

مفسدة مطلقة" تنطبق تماما على القيادة الشيوعية. واللاأخلاقي لا يمكن أن يبقى طويلا بغير اللجوء إلى القسوة والاضطهاد والتغاضي التام عن مقتضيات العدالة. وكما أن الكراهية تُوَلّد الكراهية، كذلك لا تؤدي اللاأخلاقيات إلا إلى المزيد من الاأخلاقيات. وهذه الحالة المتواصلة من التغاضي عن القيم الأخلاقية عند أعلى مستوى من هرمية القيادة الشيوعية لهي كفيلة أن تؤدي حتما إلى دكتاتورية مطلقة لاأخلاقية. ولا يمكن لهذه الدكتاتورية المطلقة اللاأخلاقية أن تبقى لزمن طويل محصورة فقط في دائرة معينة صغيرة من القيادة، فمن أجل الحفاظ على استمرار بقائهم الجماعي يكون من المحتم أن يسود الفساد أيضا على جميع المستويات المجاورة والقريبة لدائرة اتخاذ القرار، وهكذا تبدأ هذه الرقعة البغيضة من اللاأخلاقيات تتزايد وتتسع أكثر فأكثر، إلى أن تنتشر في جميع المستويات.

أما السُلطة المطلقة لنبي مرسل من عند الله تعالى، فهي تختلف اختلافا جوهريا عن السلطة الدنيوية. إن سُلطة النبي محكومة بمجموعة كاملة من القوانين الدينية الأخلاقية التي لا يستطيع أن ينتهك حرمتها، وإلا ينهار نفس الصرح الذي يستمد منه هذه السُلطة. ولا يغيب عن البال هنا أن القوانين الأخلاقية التي تتنَزل بوحي من الله تعالى تتميز دائما بالاستقامة، كما أن لها أيضا تأثيرا يجعل من يتبعها مستقيما في سلوكه. وعلى هذا فإن الحقيقة اللدنية التي من وحي الله تعالى، هي وحدها التي لها القدرة على علاج الإنسان من أسقامه الجوهرية وعلله الحقيقية. ولا يستطيع أي قانون للسلوك.. يكون من خلق العقل الإنساني المحض.. أن يحقق هذه المعجزة، حتى ولو استعان بالإجبار والقسر بغير رحمة ولا هوادة. إن الفرق الرئيسي بين دكتاتور الدنيا وبين السُلطة المطلقة للنبي، هو أنه بينما لا يخضع الدكتاتور الدنيوي لأية تشريعات قانونية، فإن الأنبياء يخضعون كلية وبشكل كامل وتام للقانون الأخلاقي في كتاب الله، الذي في نفس الوقت يحكم أيضا جميع أتباعهم في مساواة كاملة. وهذا الفرق الحيوي..

هو الذي يخلق البون الشاسع بين النبي والدكتاتور، عند المقارنة بين السُلطة المطلقة لكل منهما.

إن أية حكومة شيوعية تأتي إلى السُلطة، لا يمكن أن تُزاح بواسطة ثورة البروليتاريا. فإن السُلطة والقوة التي تملكها هذه الحكومة هي قوة شمولية وبلا أية رحمة. وكلمة الرحمة، أو حتى مجرد بعض الألفاظ عن الأخلاقيات، لا مكان لها في قاموس الماركسية. لقد كان "ستالين" نموذجًا لقانون السلوك الماركسي اللاأخلاقي. إذ أن جرائم القتل الجماعية التي ارتُكبت ضد أفراد البروليتاريا أنفسهم.. على مذبح الماركسية.. خلال الحكم الدكتاتوري لنظام ستالين، لهي أكبر شاهد على "روعة إنجازاته"، من وجهة نظر الفلسفة الشيوعية بالطبع.

واحسرتاه! لقد فشلت عبقرية ماركس في اكتشاف الضعف المتأصل في ماديته الجدلية. فإن قبضة الشيوعية.. حتى ولو كانت أقوى من أعاصير الصحراء.. فإنها ما كانت لتنجح في تسوية العالي بالداني في المجتمع الإنساني.

إن البحر العاصف بأمواجه الهادرة يعود إلى الهدوء، بعد أن تكون كل عوامل الطبيعة من ثَوَران واضطراب قد بلغت ذروتها، ثم يبدو من بعدها في صورة من الاستقرار والسكون. وبالمثل فإن الصحراء المنبسطة المترامية بلا تلال أو هضاب، تعطي الانطباع الخادع بوجود السكون والهدوء الشامل. وهذا الهدوء المؤقت للبحر، والسكون الخادع في الصحراء، هو الأقرب إلى واقع الأمر بالنسبة لمفهوم الماركسيين للاستقرار والسلام في المجتمع الإنساني. ولكن قليلا ما يعلم الماركسيون أن صورة الهدوء والسكينة هذه التي تقدمها لنا الطبيعة، ليست في الحقيقة سوى صورة للموت. فحيثما يوجد التساوي المطلق ينعدم التفاعل بين قوى الطبيعة. ولكن ما نسيَه الماركسيون أيضا، هو أن الهدوء التام للبحر، أو السكون الميت للصحراء، لا يشارك الإنسان حرية اختيار الغش أو

الاحتيال، وخلق أعالي وأداني زائفة، بعدما لم يعد هناك أعال وأدان في الواقع. وبالإضافة.. من المستحيل للإنسان أن يخترع نظاماً يزيل كل عناصر العلو والتدني من المجتمع الإنساني. فإن قطرات الماء قد تبدو متشابهة، وذرات الرمال قد تكون كل منها صورة طبق الأصل من الأخرى، ولكن البشر لم يخلقوا ليكونوا كذلك.

إن الأفراد في الفلسفة الماركسية هم الذين يخلقون المجتمع المثالي الذي تسوده السكينة والدعة الشيوعية. فإذا كان لكل مواطن في الدولة الشيوعية فُرصا اقتصادية متساوية، وكل منهم يتناول نفس الكمية من الخبز والزبد واللحم؛ إذا كان كل ما يحيا الإنسان من أجله أو يتمنى تحقيقه قد وُضع في متناول يده، في تطابق تام مع كل متطلباته، فلا يمكن أبدا أن تنمو الرذائل الإنسانية التي تتولد من الجشع. ففي مثل هذا المجتمع الذي يتساوى كل أفراده اقتصاديا، يبدو أنه لا حاجة فيه لأحد أن يسرق أو يسلب أو يغش أو حتى يحاول أن يجمع ثروة، حيث لن تستطيع الثروة أن تأتي إليه بشيء أكثر مما توفره له الدولة. ولا بد أن مثل هذا المجتمع سيتخلص في النهاية من كل الجرائم، لأن الجشع، الذي هو أقوى العوامل المسببة لارتكاب الجريمة، يكون قد اجتُث تماما من المجتمع.

عند ضمان تحقيق هذه الحالة من الفرص المتساوية، والحاجات المتساوية، والتلبية المتساوية لهذه الحاجات، بشرط أن يقوم بالطبع كل فرد في المجتمع بالمشاركة في العمل حسب جهده، فعندئذ فقط يمكن أن يتحقق الحلم الشيوعي بتوفير الاستقرار التام، ومثل هذا المجتمع لن يحتاج إلى دولة لحكمه أو لتنظيم أموره. وهذا باختصار هو المجتمع المثالي للمادية الماركسية.

إن اتجاهات التطورات السياسية والاقتصادية الأخيرة في العالم، قد أبطلت هذه الأسطورة المادية، ولكن جنة عدن الماركسية ليست في حاجة إلى قوى خارجية لتحطيمها، فإن التخلي عن الأخلاقيات في حد ذاته

كان هو العامل الكافي لضمان هلاكها في نهاية الأمر.

وهناك صدوع أخرى متأصلة في فلسفة ماركس الصارمة. فبصرف النظر عن أنها لا تُقدم أية قواعد أخلاقية تحث أفرادها على القيام بمسؤولياتهم بأمانة وإخلاص، فإن الإنكار القاطع لوجود الله تعالى، والتأكيد على أنه لن تكون هناك حياة بعد الموت، وبالتالي فلا حساب ولا عقاب.. كل هذا يشجع موظفي الحزب على عدم الانضباط، وعدم الخضوع للقواعد والقوانين، وللنُّزوع إلى الأنانية والمصلحة الذاتية، وهذا يؤدي إلى أن تجتاح الجميع حالة كاملة شاملة من الأنانية، التي لا يكبح جماحها قيود أو حواجز تمنع من تحقيق الرغبات الخاصة والطموحات الذاتية. ويشعر المرء أنه في حِلٍّ من أي قيد ليفعل كل ما يروق له، لكي يُشبع ما يعتمل في نفسه من مشاعر الجشع والطمع. وكما يحدث دائما.. تتضافر أعمدة الفساد مع بعضهم البعض للدفاع عن مصالحهم الطبقية، وهم دائما يستطيعون أن يجدوا الوسائل التي تضمن عدم انكشافهم.. وبالتالي عدم تعرضهم للعقوبة. وهكذا تقع الطيور على أشكالها، ويتعاون الجميع لحماية مصالحهم. ولعل هذا النُّزوع الفطري تجاه السلوك الأناني لدى الإنسان هو الذي جعل ماركس يقرر أن الإنسان حيوان لاأخلاقي، ولكن قليلا ما كان يدرك حينذاك أن نفس هذا النُّزوع الفطري هو الذي سوف يحقق في النهاية انهيار الإمبراطورية الشيوعية.

إن التخلي عن الأخلاقيات ليس هو العائق الوحيد الذي يمنع تحقق حلم ماركس في تكوين مجتمع بغير دولة. ولا يكفي التكافؤ وحده في إتاحة الفرص لتحقيق هدف إيجاد مجتمع بغير دولة، كما لا تكفي لذلك الأطماع المنحصرة فقط في إنجاز المتطلبات الاقتصادية. فأين الحل لمشكلة الطمع في الحصول على مقاليد السُلطة المتفشي في كل نظام دكتاتوري؟ وأيضا.. أين الضمان العلمي في أي نظام لسد منافذ الغيرة والحقد والانتقام فيما يتعلق بالاستيلاء على السُلطة؟ إن فلسفة ماركس العلمية لم

تستطع حتى أن تقترب من هذه القضية.

ولكي يصل المرء إلى المجتمع المثالي المأمول.. عليه أن يعيش في ظل مخاطر المجتمع الذي لا يعرف الرحمة ولا الأخلاقيات. ولكن طويلا.. من قبل الوصول إلى مرحلة تحقيق قيام هذا المجتمع المثالي حيث المساواة التامة.. سياسيا واقتصاديا.. يكون الفساد المتأصل في الإنسان قد هدم نفس الصرح الذي شُيد عليه المنظور الشيوعي للحياة.

وفي ضوء هذا.. عند إعادة النظر في بحث المشاكل التي تؤدي إلى انهيار الإمبراطورية الشيوعية.. نجد أنه ليس من المتعذر معرفة السبب الرئيسي للانهيار، وهو فساد الأخلاق لدى الموظفين العموميين. لقد كان الفساد في العالم الشيوعي هو المسؤول الأول عن انهيار الإمبراطورية الشيوعية المتمثلة في الاتحاد السوفياتي. وعلى هذا.. كان فشل النظام مكتوبا ومسجلا في قدَر الشريعة الشيوعية، حين تم إبعاد الأخلاقيات منها.

من جانب.. هناك الحقيقة المستمدة من وحي الله تعالى، ومن جانب آخر.. هناك ما يُسمى بالحقيقة المستمدة كلية عن طريق الفكر الإنساني، وليس من الصعب أبدا اختبار فضائل كل من الفلسفتين. إن الوحي الإلهي يُعلن بكل قوة ووضوح أن تحقيق العدالة والإنصاف في شؤون الإنسان، لا يمكن أن يتحقق بغير أن يكون تطبيقا كاملا، فإن الفساد الأخلاقي والمبادئ الأخلاقية المبنية على العدالة المطلقة لا يمكن أن يجتمعا سويا. إن الحق المطلق هو جوهر جميع الأخلاقيات، والأخلاقيات الكاملة هي جوهر كل حق. وعلى هذا.. بغير إعادة زرع القيم الأخلاقية الكاملة في الإنسان، لا يمكن أن يُتَصَور تحقيق حلم إقامة الجنة على الأرض. وكان هذا دائما هو الحكم العام الشامل خلال جميع العصور.

لقد قام ماركس ليتحدى هذه الفلسفة القديمة قدم الزمن، التي تقوم على الوحي السماوي. وقد رفض ماركس هذه الفلسفة رفضا باتا،

وتقدم بدعوى مضادة مؤداها أن الإنسان ليس في حاجة إلى الهداية الربانية، بل كان من رأيه أنه لا وجود لأي إله. وعلى هذا يكون على الإنسان أن يشق طريقه بيده حتى يحقق أحلامه بخلق جنة على الأرض، ولذا فقد قام هو بشق الطريق معتمدا كلية على ذكائه وألمعيته، فكان طريقا يخلو تماما من الهدي الإلهي.

وعند إعادة النظر مرة أخرى في الرؤية الماركسية لمجتمع بلا دولة، يتضح لنا عيب آخر سبق الإشارة إليه. فقد افترض ماركس.. دون أساس يُذكر.. أن التكافؤ الاقتصادي حين يسود المجتمع، سوف يُزيل تماما أصل كل أسباب الجريمة، وعلى هذا فلن تكون هناك حاجة لقوة الدولة وسلطانها لمحاربة الجريمة. ولكنه نسي أن الطمع والجشع عند الإنسان ليس وقفا فقط على الأنشطة الاقتصادية وحدها. فحتى لو تحققت كل الأهداف والأحلام الماركسية.. يظل هناك الكثير والكثير مما يطمع فيه الإنسان ويشتهي الحصول عليه، مما لم تلحظه عين الماركسيين.

إن الكثير والعديد من الشهوات والطموحات متأصلة في الطبيعة الإنسانية. وأية اقتراحات بتقديم حلول لا تأخذ هذه الطبيعة في الاعتبار لا يمكن أن يكون لها تأثير فعال. وعدم التكافؤ في الإنسان ليس منحصرا فقط في النواحي الاقتصادية، إذ يمكن أن يوجد عدم التكافؤ في القوى الجسدية أو المواهب الذهنية، وفي غير ذلك من قدرات العقل والوجدان. كذلك فإن رغبة الإنسان الفطرية في أن يحكم، وأن يسود، وأن يسيطر، وأن ينتصر على العقبات.. والرغبة في أن يحب وأن يكون محبوبا.. كلها تهيئ التربة الملائمة والمناخ المناسب لبذرة الطمع أن تضرب جذورها وتنمو.

والجمال هو أحد الأمور التي لا يمكن أن يشترك فيها الجميع بالتساوي.. رجالا ونساء، ولا يمكن توزيع الصحة والقدرات البدنية على الناس بمقاييس متكافئة. وقدرات السمع والبصر.. اللمس والذوق.. ما

يحب المرء وما يكره.. ما تشتهيه النفس وما تأباه.. المواهب الفنية.. التذوق الموسيقي.. الولع بالفن.. الإبداع الأدبي أو انعدام الاهتمام بما تهواه وتلتهمه بشراهة ديدان الكتب.. كلها مجرد أمثلة لعدم التكافؤ الذي خلقته الطبيعة نفسها خلال المراحل الطويلة للتطور، ولن يستطيع أحد من المدافعين عن الاشتراكية العلمية أن يلغي وجودها، فلا بد من قبولها كأمر واقع. والمشكلة هي أن هذه الاختلافات في ذاتها هي أصل سبب كل الفساد في المجتمع الإنساني، وتنشأ عنها كل الأمراض الاجتماعية. والحل الوحيد الصحيح لتنظيم وتهذيب هذه الميول الإنسانية يكمن في القوانين الأخلاقية المَنزلة من لدن الله تعالى، وهي بدورها لا قيمة لها بغير الإيمان بوجوده ﷻ. فإذا غاب الله من أمور الإنسان، وغابت الحقيقة اللدنّية الموحَى بها من التأثير على هذا الإنسان، فلن يبق هناك أي سلام في أي مكان.

إن هذه المقارنة المفصلة بين فلسفة ماركس اللاإلهية.. وبين الإيمان بالحقيقة الموحى بها.. تشرح موضوع البحث بوضوح. فمن ناحية.. هناك الفكر الإنساني بمفرده، بغير عون من الهدي الرباني، يناضل وحده من أجل العثور على حلول للمشاكل الإنسانية. ومن ناحية أخرى.. هناك الحقيقة اللدنية، من عند الله تعالى، تؤكد على أهمية دور الموازين الأخلاقية الكاملة لمقاومة الآفات اللاأخلاقية في الإنسان.

والدراسة المتأنية والناقدة لكل ما سبق.. تقود المرء إلى استخلاص نتيجة منطقية، وهي أن الفكر المجرد وحده غير كاف أبدا لهداية الخطى الإنسانية إلى السكينة والسلام.

وتكشف دراسة تاريخ الأديان أن السلام والسكينة لم يتحققا إلا بعد أن خاض مبعوثو السماء معارك بطولية لمقاومة اللاأخلاقيات في الإنسان. ومن خلال الكد والعرق والدم نشأت جزر من المجتمعات الإنسانية، تنعم بسلام يَقرُب من الكمال، وسط خضم بحار عاصفة من الجريمة والرذيلة.

وصحيح أن تلك البحار كانت تعود فتغمر هذه الجزر بمياه المغريات، ولكن برغم هذا.. كان مستوى الأخلاقيات الإنسانية يعلو دائما درجة أو درجتين. ولو لم يكن الأمر كذلك، ولو لم يكن هناك تدخل إلهي بإقامة حركات لإعادة تسليح الإنسان أخلاقيا.. لكان المجتمع الإنساني في حالة أسوأ مئات المرات مما هو عليه الآن. وعلى هذا فليس هناك من شك في ضرورة الوحي والحقيقة الموحى بها.

المراجـــــــع

1. WESTFALL, R.C. (1993) *The Life of Isaac Newton.* Cambridge University Press, Cambridge, p. 124
2. WESTFALL, R.C. (1993) *The Life of Isaac Newton.* Cambridge University Press, Cambridge, p. 122
3. WESTFALL, R.C. (1993) *The Life of Isaac Newton.* Cambridge University Press, Cambridge, p. 121
4. GUTMAN, J. (1963) *Philosophy A to Z.* Grosset & Dunlap Inc. New York.
5. KIERNAN, T. (1966) *Who's Who in The History of Philosophy.* Vision Press, New York, p. 54
6. COPLESTON, F. (1956) *Contemporary Philosophy*. Studies of Logical Positivism and Existentialism. Burns, Gates and Washbourne Ltd., London, pp. 154-155
7. SARTRE, J. (1975) *Existentialism and Humanism.* Eyre Methuen Ltd., London, p.34
8. LENIN, V, I. (1963) *Collected Works.* Vol.38, Philosophical Notebooks. Foreign Languages Publishing House, Moscow, p.201

الفصل الخامس

الفلسفة اليونانية

حـــين التحدث عن الأمور التي تتعلق بالوحي والعقلانية في الفلسفة اليونانية، نرى أنه من الصعب أن نجد بين فلاسفة اليونان من ينطبق عليهم بحـــق وصـــف الـــنبي، الـــذي يجمع في نفسه ميزانا متعادلا من الوحي والعقلانية. ولكن سقراط يمكن أن يُستثنى من هذا.

لقد كان سقراط Socrates (٤٧٠-٣٩٩ ق م) طرازا فريدا في ذاته، شـــغل مكانا متفردا في تاريخ الفلسفة اليونانية، التي لم تذكر أحدا سواه يســـتحق أن ينـــتمي إلى ذلك الطراز. ولا بد بطبيعة الحال أن يكون قد ســـبقه وأتى بعده الكثير من الأنبياء، ولكننا لا نعلم عنهم شيئا سوى ما يمكـــن اســـتنتاجه من بعض الأقوال المنسوبة لسقراط نفسه. فمثلا.. من المعروف قوله إنه ليس الوحيد الذي تلقى الوحي من الله تعالى، فقد سبقه في ذلك العظام من الرجال الذين كانوا يسعون مثله من أجل الحق. وأيضا ورد عـــنه أنه حذر أهل أثينا من أن يقتلوه، وإلا فلن يروا رجلا مثله مرة أخـــرى، إلا إذا شاء الله تعالى أن يهدي أهل أثينا إلى طريق الحق بإرسال من يماثله.

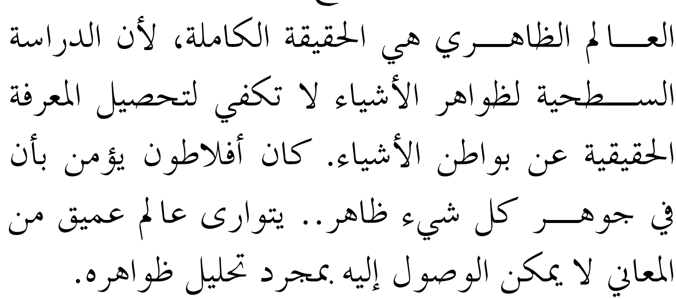
وســـوف نخصـــص معظم هذا الفصل للحديث عن سقراط.. وعما كـــرّس نفســـه للدفـــاع عـــنه، لأنه كان مثالا للتوازن التام بين الوحي والعقلانـــية، غير أنه من المستحيل أن نغفل ذكر أفلاطون وأرسطو عندما نـــتحدث عن الفلسفة اليونانية. لقد كانوا جميعا بحق أول من استحدث صـــيغة جديدة في الفلسفة صارت صيغة مستديمة، غير أنه من المؤكد أن كـــلا مـــن أفلاطون وأرسطو يدين بالكثير من العظمة التي نالها لأستاذه

الفاضل.. سقراط.

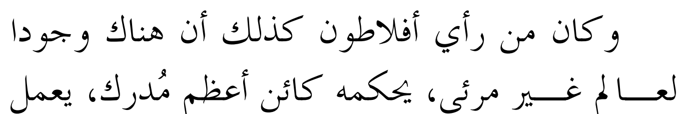
لقـــد كان سقراط هو الذي أدخل عناصر المعرفة والحقيقة والعقلانية إلى المناقشات الفلسفية الجارية في ذلك الوقت. وهو حتما ويقينا قد فعل ذلك.. حتى إن بعض من كتبوا عن تاريخ حياته، وأسهبوا في تحليل سيرته الذاتــية، وصفوه بأنه أتى إلى الأرض من السماء بفلسفات سامية رفيعة. ونحن نرى أن هذا الوصف صحيح، فإن الثرثرات الفلسفية للسفسطائيين مـــن قـــبله كانـــت بالتأكيد من لدن رجال الدنيا. لقد كانت المعرفة، والحقـــيقة، والعقلانـــية، هي التي رفعت الفكر الإنساني إلى أسمى المراتب الجلـــيلة، وإلى أعـــلى الدرجـــات الرفيعة. ولذلك.. ورغم أن أرسطو وأفلاطـــون قـــد تركا لنا ميراثا جليلا غنيا من البحوث الفلسفية القيمة، فليس هناك ما يماثل التأثير النبيل الدائم لسقراط وكماله، الذي شارك في خلـــق أفلاطون وأرسطو. ولن يكون تناولنا لفلسفات أرسطو وأفلاطون سوى أن نقدم لمحة لمجرد التعريف بها فقط.

إن كـــلا مـــن أفلاطون وأرسطو جعل الأولوية للعقل في فهم أمور ونظـــام العـــالم. مـــا هي العلاقة بين العقل والعالم المادي؟ ما هي كيفية الوصـــول إلى المعرفة؟ وما هي الحقيقة الأبدية؟ لقد قدم هذان الفيلسوفان العظيمان آراءً متباينة في الإجابة على هذه الأسئلة.

فعند أفلاطون.. لا يصح اعتبار المدركات أو المفاهيم المستخلصة من


العـــالم الظاهـــري هي الحقيقة الكاملة، لأن الدراسة الســـطحية لظواهر الأشياء لا تكفي لتحصيل المعرفة الحقيقية عن بواطن الأشياء. كان أفلاطون يؤمن بأن في جوهـــر كل شيء ظاهر.. يتوارى عالم عميق من المعاني لا يمكن الوصول إليه بمجرد تحليل ظواهره.


PLATO
أفلاطون


وكان من رأي أفلاطون كذلك أن هناك وجودا لعـــالم غـــير مرئي، يحكمه كائن أعظم مُدرك، يعمل

تحـــت إمرته العديد من القوى للحفاظ على نظام الخلق كله. ومع ذلك يـــبدو أن أفلاطون لم يكن يؤمن بأن الوحي يؤدي دورا في توفير المعرفة عـــن المجهول. فهو يرى أنه من الممكن الحصول على المعرفة الحقيقية من خلال التفاعل بين العقل والفكر المتأمل. ويرى أن هذا التفاعل بين العقل والفكـــر يمكن أن يؤدي أحيانا إلى نتائج رائعة.. عجيبة وغريبة في بعض الأحـــيان. وقد ينتج عن حصيلة هذه العملية قفزات واسعة للمعرفة بدلا من التقدم البطيء خطوة فخطوة. وبهذا تظهر إلى الوجود أفكار جديدة، غـــير أنها ترتبط دائما بعمليات التفكير لدى الإنسان. وتتوقف قيمة تلك الأفكار، حسب رأي أفلاطون، على نوعية ومستوى فكر العقل المتأمل.

ويرى أفلاطون أن العقلانية تقتضي إجراء بحوث عميقة لسبر أعماق جميع طبقات الظواهر الطبيعية. وبترتيب البيانات التي يتم الحصول عليها مـــن هـــذه البحوث بشكل عقلاني منظم.. يمكن للإنسان الوصول إلى الحقيقة. وفي رأيه:

> "حيـــث إنـــه يوجـــد في الإنســـان ما يشبه الجذوة الربانية، فإنه.. بعد الاستعدادت اللازمة.. يستطيع أن يسلط أنظار عقلانيته على حقائق العالم غـــير المرئي، وفي ضوء هذه الحقائق يتعرف على ما هو حق، كما يعرف أيضا كيفية السلوك الصحيح. وهو لن يصل إلى هذه النتيجة بسهولة، إذ أن الحصول عليها لا يقتضي جهدا فكريا عظيما فحسب، بما في ذلك من تحديات متواصلة لكل المفترضات، بل يقتضي الانصراف تماما عن كل ما في الحياة من أمور حسية أو حيوانية. وبالرغم من ذلك.. فإن الإنسان لا يبلغ هدفه إلا شكليا من حيث المبدأ، ومن يصل إليه يستطيع أن يستعمل أهم عضو من ذاته بأفضل الوسائل المتاحة لـــه"[١].

وعـــلى هـــذا كان من رأي أفلاطون أنه من الممكن الحصول على المعرفة باستعمال موهبة دقة الملاحظة والعقلانية فقط، بالإضافة أحيانا إلى مســـاعدة من قوة الحدس والتأمل. والحقيقة هي معرفة يتم التوصل إليها

نتـــيجة لهـــذه الممارســـة. وباختصار.. فإن أفلاطون كان يرى أن العالم الظاهـــري لـــيس إلا واجهـــة، بينما الحقيقة التي تبقى مختفية وراء تلك الواجهة يمكن أن تكون مختلفة تماما عما هو منظور. وهذا يعني أنه مهما بذلـــنا مـــن جهد فإننا لن نستطيع أن ندرك تماما طبيعة أي من الحقائق الظاهـــرة، لأن ظواهر جميع الحقائق والأشياء دائمة التغير، وعلى هذا فإن مـــا يلحظه المرء لشيء من الأشياء في وقت من الأوقات قد يختلف عما يلحظه لنفس الشيء في وقت مختلف.

"كان أفلاطون يرى أن المثال هو الغاية المتوخاة.. إنه هدف غير محسوس يقاربـــه المحســـوس، فإن المثلث التام المتكامل بالنسبة للمختص في علم الهندسة 'لم يكن أبدا على البحر أو على الأرض'، رغم أن جميع المثلثات تحتويه بشكل أو بآخر. فقد كان يعتبر أن متخيلات الأشياء أكثر مماثلة للحقيقة من محسوسات الأشياء.. التي هي ظلال لها. وكان يرى أن على الفيلسوف أن ينفذ إلى تلك الأعماق الخفية لكي يرى بعيون عقله كيف تتشـــابك وترتبط بعضها مع بعض. فعند أفلاطون كانت هذه الأعماق وجوهـــرها هـــي التي تُشكل وتخلق كَوْنا منظما، وهو في نفس الوقت كون أزلي كامل، ولا يُدرك إلا بالعقل".[٢]


ARISTOTLE
أرسطو

على العكس من أفلاطون.. كان أرسطو يعطي أولوية للحقيقة الظاهرة. فمن رأيه أن أي فهم يكتسبه الإنسان في أي لحظة، أو مرحلة معينة، يجب أن يُعتبر هـــو الحقيقة. ويبدو أن العالم الظاهري كان بالنسبة لأرســـطو هو الحقيقة الأزلية. وقد اقتنع أرسطو أيضا بوجـــود مثالـــيات تـــتجه إليها "الأشكال الطبيعية المختلفة". وعلى النقيض تماما من أفلاطون.. كان أرسطو يرى أن المادة هي حقـــيقة أزلـــية مســـتقلة، كما كان من وجهة نظره أنه ليس لكائن مدرك خـــارجي أي دور في حـــركة الارتقاء المستمر، بل كان يعتبر أن هذا النمو

يعتمد فقط على الفطرة الطبيعية الكامنة في المادة نفسها.

غـــير أن هذا لا يعني أن أرسطو لم يكن يؤمن بالله، الخالق، بل على العكـــس.. كـــان يؤمن بكائن أعظم مسؤول عن كل سلسلة الأسباب والمسببات، ويمكن اعتبار أنه هو الأصل الأول لكل سبب. وعندما نتتبع فكرة الإله عند كل من أرسطو وأفلاطون وسقراط.. سوف نلحظ تغييرا تدريجيا في مفهوم كل منهم.

يـــبدو أن ســـقراط كان على صلة شخصية قويمة بالكائن الأعظم، وكانـــت شخصيته تتسم بنفس الصفات التي يتحلى بها أنبياء ورسل الله تعـــالى. كان أفلاطون يمثل الجيل الأول من تلاميذه الذين كانت تملؤهم الـــروح الســـقراطية. وكان الطابع الروحاني يبدو بوضوح في مناقشاتهم الفلســـفية والعلمية. ولكن في المرحلة الانتقالية بين أفلاطون إلى أرسطو، فإننا نشهد انحطاطا وضعفا تدريجيا في فكرة أن الله تعالى يقوم بدور حي وفعال في ظواهر الطبيعة. إذ لا نرى في أرسطو أي أثر يدل على أنه كان يؤمن بوجود أي شكل من أشكال الاتصال بين الله والإنسان.

ورغم أن فكرة الحقيقة الأزلية ليست مذكورة بشكل جلي في فلسفة أرســـطو، غير أن التحليل الدقيق لأعماله تشير إلى وجود انطباع غامض لديـــه عـــن الحقيقة الأزلية. هذا الانطباع يتصل بالحركة الدائمة للمادة ونـــزوعها الطبـــيعي للـــتطور والارتقاء نحو الحالة المثالية. وحسب هذه الفلسفة.. فإن المادة تأخذ شكلا مثاليا كانت دائما ترتقي نحوه.

لقـــد صار واضحا لأرسطو أن ما يراه المرء في لحظة من اللحظات، يمكن أن يُعتبر واقعا في تلك اللحظة. والنتيجة التي تُستخلص من الحقائق الـــتي يجمعهـــا العقل تُسمى معرفة، والمعرفة حين تثبت صحتها من زوايا متعددة ووجهات نظر متباينة هي التي يمكن أن تُعتبر حقيقة.

ويقـــف أرسطو في موقف خاص بين الفلاسفة الأولين، بسبب تأثيره الدائـــم غير المنقطع على كثير من مراحل الفكر الفلسفي. وحتى اليوم لا

يوجد فرع من فروع الفلسفة يخلو من أثر هيمنة فكر أرسطو.

ويمكن أن نختم بالقول إن بين فلاسفة اليونان، حتى عندما كانوا يؤمنون بالله تعالى، لم يكن الوحي يُذكر بالذات باعتباره الوسيلة الجوهرية لانتقال المعرفة من لدن الله تعالى إلى الإنسان، وإنما كانت العقلانية.. في تزاوج مع التأمل والملاحظة في الدراسة الإنسانية.. هي كل ما كان يُعتبر أكثر الوسائل فاعلية للحصول على المعرفة، والوصول إلى الحقيقة.

ولا تُغطي هذه العجالة المختصرة عن الفلسفة اليونانية جميع كبار الفلاسفة اليونانيين، الذين تركوا بصمات لا تُمحى على تاريخ الفكر الإنساني. فإن الغرض الرئيسي من هذه الصفحات هو تقديم عرض مختصر لموضوع العقلانية، والوحي، والحقيقة، كما هي موجودة في أعمال فلاسفة اليونان، التي باتت كلماتهم وشهرتهم أبدية، وهنا يجب أن نقدم سقراط في صورته الكاملة.

إن سقراط، الأعظم والأنبل بين جميع فلاسفة اليونان، الذي لم يُعرف عنه أي تناقض بين أفكاره وبين أفعاله الطيبة الصالحة.. يُصوره بعض كُتّاب العصر الحديث في ظلال قاتمة من التناقض. سقراط، الذي كان أستاذًا متميزا للسلوك الأخلاقي، يُنظَر إليه اليوم بشكل عام من خلال مرآة أفلاطون، وزينيفون، وبعض الآخرين من معاصريهم. إن سقراط لم ينل بعد المقام الجدير به، ولم يُوضع في المكان الذي يستحقه. ويجب أن يُذكر عن زينيفون (Xenephon) أنه كان يؤمن بتعدد الآلهة كما كانت في ميثولوجيا أهل أثينا، ومن هنا كان هو المسؤول عن عزو الإيمان بتعدد الآلهة إلى سقراط. ولهذا كثيرا ما يجد المرء في كل ما كُتب عن سقراط اليوم أقوالا متناقضة، تذكر أنه كان يؤمن بآلهة متعددة كما كان يؤمن كذلك بإله واحد، الذي هو خالق الكون. ولكن إيمانه بإله واحد كان يبدو واضحا في كل عرق ينبض فيه بالتوحيد، ويفيض بروح العابد المخلص لله الواحد الأحد.

لقد كان إيمانه بالله تعالى ثابتا لا يهتز، وتحديه المعارض للتعدد الميثولوجي اليوناني كان صلبا لا يعرف المهادنة. وقد كرّس نفسه وحياته كلها للأمور المتعلقة بالفضيلة، والمعرفة، والحقيقة، وإزالة جميع التناقضات الموجودة في الإنسان. إن حياته كلها كانت حربا مقدسة ضد الإثم، والشر، والجهل، والكبر، والعجرفة، والازدواج المتناقض في شخصية الإنسان. وكان يؤمن بالعدل المطلق، ومسؤولية الإنسان عن عمله، كما كان يؤمن بالحياة بعد الموت، وما يتبع ذلك من ثواب وعقاب. لقد ضحّى بحياته راضيا، وقدم روحه.. بكل سلام العقل وطمأنينة القلب.. على مذبح عقيدته وإيمانه بوحدانية الله تعالى، تماما كما يليق بنبي عظيم من أنبياء الله جل جلاله.

ولكن لم يكن هذا هو كل ما يتعلق بتضحيته العظيمة. إن المهادنة مع الكذب أو البهتان، أو حتى مع أقل ظلال الكذب والبهتان، لم يكن لها مكان بتاتا في طبع سقراط. إنه كان ليعطي حياته بوجه باسم بشوش، رافضا أي ضغط عليه من المجتمع لكي يغير أدنى أمر من معتقداته، حتى ولو كان ذلك الضغط هو التهديد بالموت. لقد كان هو ذلك الفيلسوف النبي اليوناني العظيم، الذي يوصف.. في تناقض عظيم.. بأنه "أبو الفلسفة الغربية".

إن كل ما هو مشترك بينه وبين فلسفات الفلاسفة الغربيين، هو في الواقع الغياب الكامل لأي شيء مشترك بين الطرفين. فإن فلسفته تتلخص في الطهارة، والفضيلة، والتواضع، والعدالة المطلقة، والإيمان الراسخ بتوحيد الله تعالى، ومسؤولية الإنسان في هذا العالم وفي العالم الآخر. فهل يمكن أن يكون سقراط أبا لفلسفات ديكارت وهيجل وإنجلز وماركس؟ إن كان ذلك صحيحا.. فلا بد أن جميع جينات أبوته قد أزيلت تماما بفعل عوامل الزمن. فهل يمكن اقتفاء آثار فلسفاتهم التي تمحو وجود الأخلاقيات لتقودنا.. بشيء من الواقع والعدل.. إلى فلسفة سقراط التي قوامها الأخلاق؟ كلا، وكلا بكل يقين!

لقد كان بذاته عالَما يختلف عن كل العوالم، إذ كان ينتمي إلى عالم الأنبـــياء. فكان يؤمن بالرؤى المنبثقة من الله تعالى، وكان يؤمن بالوحي، وكـــان يؤمن بأنه لا توجد معرفة جديرة بالثقة إلا تلك التي ينعم بها الله تعالى نفسه على الإنسان.

لقد أُسندت إليه مهمة إبلاغ الرسالة الإلهية إلى أهل اليونان. وعنده.. لم تكـــن هذه الحياة سوى مرحلة تحضيرية للحياة التالية، وكانت النفس الإنسانية هي التي تحظى لديه بالاهتمام، إذ كانت هذه النفس هي التي من المقدر لها أن تتحرر وتنتقل إلى العالم الآخر. كانت هذه هي فلسفته، وإن شـــئت.. تستطيع أن تسميها حكمة إلهية، ولكنها حتما لم تكن فلسفة دنيوية علمانية كما يُصورها المثقفون في العصر الحديث.

وكـــم بُذلت من محاولات متكررة لانتزاعه من بين كوكبة الأنبياء، واعتـــباره مجرد فيلسوف من الفلاسفة. إن الكثير من الكُتّاب في العصر الحديـــث.. ربما يكونون قد بلغوا من العلم والثقافة شأنا كبيرا.. ولكنهم في تشويش واضطراب بائس فيما يتعلق بحقيقة شخصيته، إذ أنهم سَوّدوا وجوه صفحات لا عدد لها من كتب كثيرة في محاولة وضعه في مكان لا ينتمي إليه.

وبعـــض مـــن مشاهير العلماء ذائعي الصيت، حاولوا بجهد كبير أن يُـــزيلوا عـــنه تناقضا تصوروه، ولم يكن لـــه وجود في الحقيقة والواقع. وكـــان التناقض في رأيهم هو إيمانه بالوحي الإلهي، واقتناعه بالعقلانية في نفـــس الوقت. ولو كانت العقلانية ووحي الله يُشكلان أي تناقض، فقد اشترك في هذا التناقض جميع أنبياء الله عز وجل، ولم يكن سقراط استثناء من ذلك. فكل نبي، وكل رسول، وجميع مؤسسي الأديان العظام، كانوا يؤمنون بالعقلانية وبالوحي الإلهي في نفس الوقت. وكانوا يتمسكون بهذا الإيمان بكل قوة وثبات، ولم يروا أي تناقض بتاتا بين الاثنين. ولو كانوا قد رأوا أي تناقض بين العقلانية ووحي الله.. فإن أمانتهم المتأصلة فيهم..

كانت تحتم عليهم أن ينبذوا فكرة الإله أو فكرة العقلانية، أو ربما كلتيهما معـــا.. ولكن لم يكن هناك أي تناقض لديهم على الإطلاق بين العقلانية وبـــين الإله. وعلى ذلك.. فلا بد أن هؤلاء الذين رأوا تناقضا في أفكار ســـقراط وفي قناعاته.. لا بد أنهم هم أنفسهم كانوا يُعانون من ازدواجية الرؤية، وعليهم أن يُعيدوا قراءة سقراط ودراسة ما كُتب عنه في المصادر الأصيلة مرة أخرى، وسوف يكتشفون في شخصه إنسانا جديدا، لا يمكن نزعه أو فصله عن تمسكه الشديد بالله تعالى وفلسفته العقلانية. ولا بد لهم مـــن تبين أن جُل ما كُتب عنه، يدور حول شغله الشاغل بأن الناس لا يلقـــون بـــالا ولا اهتماما بأهمية التمسك بالفضيلة، ولا يفهمون حقيقة معناها.

إن التـــناقض لـــيس في معتقدات سقراط، ولكنه بين صورة سقراط الحقيقـــية.. والصورة الباطلة التي أُقحمت عليه، والتي كانت هي المسؤولة إلى حـــد كبير عن تشويه بعض النصوص والتعبيرات الهامة الواردة عنه في الكـــثير من المصادر الأصلية. ولا بد من العثور على إجابة للسؤال عما إذا كـــان أحـــد هـــذه التعبيرات: (*arete*) يعني فعلا: "الفضيلة"، أو إذا كان يتضمن معنى دنيويا آخر. وفي رأي و.ك.س. غوثري (W.K.C. Guthrie):

"إننا نعلم الآن أن كلمة "الفضيلة" تضفي مفهوما باطلا للكلمة اليونانية (*arete*)، التي تعني في المقام الأول المهارة في القيام بعمل معين".[٣]

هـــذا في رأي غوثري هو ما هز مشاعر أهل أثينا "العمليين". وكلمة "العمليين" تكشف تناقضا فاضحا في مفهوم غوثري لكلمة (*arete*)، إذ لو كان تعريفه للكلمة صحيحا.. لكان سقراط هو الأحق بأن يوصف بأنه أكثر الناس عملية في أثينا كلها، وليس منتقدوه الذين لم يهتموا سوى بـــ "المقدرة السياسية" و "الالتزامات الأخلاقية".

"أحـــد الأمـــور عن سقراط.. التي كانت تثير سخط مشاعر أهل أثينا العملـــيين وذوي الجاه.. هو أنه كان يصر على أن يتحول بالحديث إلى بعـــض الـــناس البســـطاء والمتواضعين ممن لا قيمة لهم، كأمثال صانعي

الأحذيـــة والنجّارين، كلما كان ما يريدون أن يعرفوه، يتعلق بما يُكَوّن القدرة السياسية، أو ما إذا كان هناك ما يسمى بالالتزام الأخلاقي".[٣]

والواضـــح من هذه العبارة أن سقراط في نظر غوثري لم يكن يهتم بتاتا "بالفضيلة" باعتبار أنها أمر يختص بالأخلاقيات، إذ كل ما كان يهتم به في الواقع هو إتقان الصانع لأداء مهنته، وفهمه للغرض الذي يعمل من أجله. فالصانع لا بد له أن يفهم مثلا ما هو السلّم النقال، وما هو الغرض الذي من أجله يُصنع هذا السلّم. هذه هي الفلسفة العلمانية لسقراط كما يـــراها غوثـــري، الذي لم ير فيه سوى الانشغال بغرض ومهنة الصانع. وهكذا كان تصوره لسقراط وهو يجول في شوارع أثينا وطرقاتها، موجها كلامـــه للعوام من الناس، ليعلمهم كيف يبلغون ذروة الكمال في الفنون والمصـــنوعات. وبذلـــك فقـــد أغفل غوثري كلية القوة الدافعة الحقيقية لفلسفة سقراط، فلم يعترف له بأي اهتمام بالفضيلة والتقوى والورع.

إن هـــناك أمرا مؤكدا عن سقراط، وهو أيما كان العمل الذي انخرط فـــيه وانشغل به.. فقد كان هو (*arete*)، أي الفضيلة. وإذا اتهمه البعض بأنه لم يكن يهتم بالفضيلة، فهذا يعني أن كلمة (*arete*) لديهم لم تكن لها أيـــة علاقة بالمفاهيم الأخلاقية. وإننا لنعترض بشدة على هذا الاتهام الذي يوجهه من يكتب عن سقراط، ونعتبر أنه خطأ فاحش، فإن مجتمع أثينا لم يلق باللائمة إطلاقا على سقراط لأنه لم يتحدث عن الأخلاقيات، بل على العكـــس من ذلك تماما.. كان أهل أثينا يلومون سقراط بسبب انخراطه وتمسكه الزائد بما كان يعتبره هو من الأخلاقيات التي غابت عن مجتمعه، حتى إن الناس كانوا يعتبرونها إفسادا لأخلاق شباب ذلك المجتمع في أثينا. وهكـــذا.. فقـــد جرد غوثري سقراط من كل مقوماته كمعلم أخلاقي بـــتجريد كـــلمة (*arete*) مـــن كـــل مضمون أخلاقي. وبهذا الأسلوب المنحرف.. حاول غوثري أن يغير حقائق التاريخ، ولكن كل ما نجح فيه هـــو خلـــق منظور مختلف بين شخصية خيالية لسقراط، وهي تلك التي

فرضها غوثري عليه، وبين الشخصية الحقيقية التي كان يتمتع بها سقراط. فإن أي إنسان يعرف سقراط، كما قدمته كتابات أفلاطون وبعض الأفراد الآخرين في زمانه، لا يمكن أن يقبل هذه الصورة التي تخيلها غوثري. فمن الحقائق المعروفة أن ما أسخط أهل مجتمع أثينا على سقراط لم يكن هو ما ادعاه غوثري، إذ كان سقراط يدعو لتوحيد الله تعالى، وخاض حربا مقدسة ضد اللاأخلاقيات. لقد كانت هذه هي مهمة سقراط، وكان ذلك هو كل ما تعنيه لديه كلمة (*arete*). هذه هي الحقائق التي لا بد من فهمها فيما يتعلق بكلمة (*arete*).

وعلى العكس من غوثري.. فقد أصاب الكثير من العلماء في صحة ترجمة كلمة (*arete*) لتعني الفضيلة، بكل ما تتضمنه كلمة الفضيلة من معان. وحينما كان سقراط يتحدث عن بعض الأمور البسيطة، مثل الصناعات والفنون أو طبيعة الآلات وكيفية عملها، ثم يتكلم أيضا عن الغرض الذي من أجله تُصنع كل آلة، أو حينما يشرح كيفية تحقيق الغرض من كل فن، فإنه بكل تأكيد كان يتحدث بأسلوب رمزي ذي مغزى، يشير دائما إلى الإنسان وإلى الناس. وإلا.. فإنه ما كان لينكر على أصحاب الحِرف معرفتهم بفنون حِرفهم، وما كان ليدينهم بجهالة وبغير سبب. إن ما كان يتحدث عنه هو جهل الإنسان في إدراك طبيعة العلم الإلهي، الذي يكمن في الأعماق تحت سطح كل وظيفة يقوم بها الإنسان، ومع ذلك يظل الناس يجهلونه ولا ينتبهون إليه. وبسبب هذا الجهل.. لا يستحق الإنسان أن يُعتبر إنسانا، تماما كما لا يستحق الصانع أن يُعتبر صانعا.. إن لم تكن لديه المعرفة الكاملة بكيفية الصنع والغرض الذي يُستعمل فيه هذا المصنوع. ذلك هو الجهل الإنساني الذي جاهد سقراط لكي يلفت نظر الناس إليه.

لقد كان سقراط يؤمن بأن الناس لا يستطيعون أن يصلوا إلى حقيقة الغرض الإلهي من الخلق بالاعتماد المجرد على مجهوداتهم الخاصة، فهم لا

يعـــلمون كيف يشكلون حياتهم لتتفق مع الغرض الذي خُلقوا من أجله. إنهـــم لا يعلمون عن ذلك شيئا، رغم أنهم يدّعون دائما أنهم يعلمون كل شـــيء، وهذا هو ما كان يعتبره جهلا مطبقا. إن عملية اكتشاف وتحقيق الغـــرض الذي من أجله وُجد الإنسان، هو ما كانت تمثله كلمة (*arete*). ولكن هذا لا يمكن التوصل إليه إلا بعد التواضع الكامل من قِبَل الإنسان واعـــترافه التام بجهله. وحينذاك فقط يكون الإنسان على استعداد لتلقي العون من الله تعالى، وأن يرشده خطوة بخطوة لينقله من الجهل إلى المعرفة. فالمعـــرفة الحقيقية.. والوحيدة.. لدى سقراط هي ما كانت من وحي الله عز وجل، وكل ما عدا ذلك فهو جهل وجهالة.

وهذه بالضبط هي أيضا رسالة القرآن الكريم، التي تُرجِع المعرفة كلها إلى الله ﷻ، حتى إن الملائكة الكرام يُقرّون بجهلهم أمامه حيث يقولون:

﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾ (٢ البقرة:٣٣)

ويكرر القرآن المجيد تذكير الناس بأن الإنسان لا يمكن أن ينال معرفة حقيقـــية بالصـــراط المســـتقيم.. إلا بالاعتماد التام والكامل عليه ﷻ، والاستعانة به دائما لهداية خطواته على ذلك الصراط:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة:٥-٦)

وهذا هو نفس الدرس في التواضع الذي قدمه سقراط بكل قوة، مُبينا أن الإنسان لا يستطيع أن يحصل على المعرفة بدون أن يعترف بجهله، وبغير أن يدرك أنه في حاجة إلى العون الإلهي لكي يهديه الطريق المستقيم.

وهكذا.. وبأسلوب رمزي ذي مغزى.. كان سقراط يشير دوما إلى الإنسان وهو يتحدث عما يبدو في الظاهر أنه يتحدث عن صاحب صنعة

افــترض وجوده. فقد كان يرى أن الإنسان يعاني من غرور أوهامه بأنه على علم ومعرفة، وما دام الإنسان يعتبر نفسه أنه على علم ومعرفة، فلا يمكــن لــه أن يدرك مدى حاجته إلى العلم والمعرفة. وهذه الرمزية التي اســتعملها سقراط هي التي ساعدته على تحقيق مهمته النبوية، التي كان غرضها إيقاظ بني قومه لإدراك الغرض الأخلاقي والروحاني والرباني من خلق الإنسان.. ذلك الغرض الذي لا يمكن فهمه، ولا الوصول إليه، بغير مدد وعون من الله تعالى.

إن معظــم الــناس يــتحركون مثل قطع الشطرنج، التي لا تدرك لماذا تتحرك، ولا تعلم متى تتحرك، ولا تدري شيئا عن العقل المدبر وراء اليد التي تحركها. وهؤلاء الغافلون لا يستطيعون أن يدركوا واجباتهم تجاه الخالق ولا تجــاه المخلوق. ولتبيان خطورة تلك الحال التي تردّى فيها الإنسان.. كان سقراط يُذَكّر الإنسان بالحياة بعد الموت، حيث يحاسَب في النهاية على كل أعمالــه أثناء حياته على هذه الأرض. وهذه الحياة بعد الموت، التي تحدث عــنها سقراط، ليست بكل تأكيد هي ما يتحدث عنه الفلاسفة العلمانيون. إنهــا المهمة الرئيسية والشغل الشاغل لأنبياء الله تعالى. إننا نتمنى فقط لو أن غوثــري كــان قد تذكر ما كتبه هو بنفسه عن شخصية سقراط في نفس الكــتاب. والكــلمات التالية لها مدلول خاص.. وهي الكلمات التي ذكر غوثري أن سقراط قد نطق بها في اللحظات الأخيرة قبل موته:

> "إنه من المحتمل أن يكون الكثيرون.. إن لم تكن الكثرة من الناس الذين لم يتقبلوا سقراط.. لم يكونوا يريدون أن يروه يموت، وكانوا يتمنون لو كان قد أمكن إقناعه بمغادرة أثينا...".[٤]

ولقد رفض سقراط هذا الاقتراح بشدة وقال ردًا عليه:

> "... إنه عاش كل حياته متمتعا بالمزايا التي تكفلها قوانين أثينا لرعاياها، والآن.. حيث إن نفس هذه القوانين قد قضت عليه بالموت، يكون من قبــيل نكران الجميل ومن غير العدل من جانبه أن يتجنب ما قضت به هــذه القوانين. وبالإضافة.. من يستطيع القول إنه لن يذهب إلى وجود

أفضل كثيرا من ذلك الذي عرفه من قبل".[٤]

إن الكثير من العلماء المشهود لهم قد بحثوا أيضا المعنى الحقيقي والترجمة الكاملة لكلمة (*arete*). وأحد هؤلاء البارزين من مشاهير العلماء هو جريجوري فلاستوس (Gregory Vlastos)، الذي رفض بشدة محاولات اعتبارها مجرد تعبير يختص بالصناع. وبعد أن شرح باستفاضة الكلمة اليونانية في مختلف معانيها المحتملة، راح يؤكد على أن معنى الكلمة (*arete*) في الاستعمال السقراطي يجب أن يتواءم مع كلمة الورع والفضيلة في كل صورة من صور الخير التي يمكن أن تحملها هذه الكلمة، فيقول:

"إن أي شك لا يزال قابعا في أذهان القراء، فيما يتعلق بهذه النقطة، سوف يتبدد تماما بتوجيه أنظارهم إلى حقيقة أنه كلما جعل سقراط الفكرة العامة تحت البحث الدقيق – كما فعل حين ناقش موضوع إمكانية تعليم (*arete*) في الـ (*Protagoras*) والـ (*Meno*) – فقد ذكر بغير أي تردد أو تحفظ أن مكوناتها أو أجزائها (μρια, μερη) هي خمس صفات، وهي باتفاق الآراء: اللفظ اليوناني الذي يدل على أفضل الأخلاق الحميدة: (*andreia*) أي (الرجولة، والشجاعة)، و (*sophrosyne*) أي (ضبط النفس، والاعتدال)، و (*dikaiosyne*) أي (العدالة، والتقوى)، و (*hosiotes*) أي (الورع، والقدسية)، و (*sophia*) أي (الحكمة)".[٥]

وهكذا كان فلاستوس عقلانيا ومنطقيا جدا في موقفه أنه من الضرورة بمكان بحث المعنى الأساسي المقصود لكلمة (*arete*) الذي بينه سقراط بنفسه وبإصرار دائم.

وقد أشار كريستوفر جاناواي (*Christopher Janaway*)، وهو أحد العلماء الكبار، إلى هذا المعنى المقصود لكلمة (*arete*) حين ذكر أن سقراط:

"...كان مهتما بموضوع علم الأخلاق، وخاصة بتعريف الفضائل: (العدالة، الحكمة، الشجاعة، الورع، وضبط النفس). وهذا هو سقراط الذي قدمه أفلاطون في المحاورات القديمة، وهو ما جعل سقراط يصف به نفسه في دفاعه عن نفسه المعروف باسم الأبولوجي Apology".[٦]

"إن بيـــت القصيد الأساسي في المبادئ الأخلاقية لدى سقراط هو اعتباره أن الفضـــيلة هـــي المعرفة؛ وكل الفضائل تتلخص في فضيلة واحدة هي: فضيلة السعادة...

ويؤمن سقراط أيضا أن أي إنسان يتحلى بمعرفة الخير والشر.. لا يمكن أن يفـــتقر إلى أي من الفضائل، إذ أنه بهذه المعرفة لا بد أن يكون أيضا شـــجاعا، وقدوســـا، وعادلا، وضابطا لنفسه. وأخيرا.. فقد كان على قناعة بأن الإنسان الفاضل لا بد وأن يكون أكثر سعادة وأعظم خيرا ممن يفتقر إلى الفضيلة".[٧]

ونحن نتفق تماما مع مفهوم جاناواي للمبادئ الأخلاقية لدى سقراط.

إن مـــا يصفه سقراط هو قانون يتعلق تعلقا شديدا بالطبيعة الإنسانية، وعـــلى ذلـــك يجب أن يكون مقبولا جملة وموضوعا. والمعرفة بأن بعض الشجيرات والحشائش الشائكة هي المخبأ والملاذ الوحيد للاختفاء من خطر افتراس حيوان متوحش.. هذه المعرفة سوف تجعل.. بكل تأكيد.. أي إنسان سليم الفكر يفضل اختيار الأذى الأقل تأثيرا الذي ينتج عن جروح الأشواك. وما دام في مأمن من أذى الوحش المفترس، فإن الإحساس بالمعاناة التي يشعر بهـــا مـــن جـــراء جروح الأشواك، سوف يبدو لـــه.. بالمقارنة.. إحساسا بالســـعادة والســـلامة. وبينما لا ينكر سقراط أن المرء الذي يتحلى بالمعرفة الحقيقية يمكن أن يعاني من الآلام الجسدية، فإن ما يؤكد عليه هو أنه أيا كان العمـــل الذي يعتبره الإنسان العالم مناسبا.. لهو العمل الوحيد الذي يجد فيه الطمأنينة والسلام. وهذا صحيح اليوم أيضا كما كان صحيحا آنذاك. وهذا ما يُفسر تفضيل الأناس الربانيين لخيار المعاناة الذي يجدون فيه السعادة، فعند هؤلاء يكون فقدان فضل الله وخسران نعيم قربه.. أمرا شديد الإيلام بشكل لا يُحتمل. وكذلك.. فإن الأفاضل من الناس الذين يحرصون على كرامتهم، يفضـــلون المـــوت في "ألم".. عـــن الحياة في "نعيم" يقتضي منهم التضحية والتـــنازل عـــن مبادئهم، وهم بلا شك يموتون في "سعادة".. لأنهم يحققون انتصـــارا أخلاقـــيا. إنهـــم يتقبلون المعاناة والآلام الجسدية.. وتتراقص على

شـــفاههم بسمة الرضا.. مفضلين ذلك على الخزي الروحاني، الذي يكون بالنسبة لهم أكثر معاناة وأشد إيلاما.

لقـــد خصص "فلاستوس" فصلا طويلا بعنوان: "الورع السقراطي" لإزالة التناقض المظنون في أفكار سقراط وتجاربه. إنه فصلٌ مكتوب بحنكة العـــالم، غـــير أن أسلوبه تبريري.. حاول فيه أن يبرهن على عدم وجود التـــناقض. لقـــد كانت فلسفة سقراط تتميز بالعقلانية دائما، كما رآها فلاســـتوس، ولكن تجربة الوحي لديه وإيمانه بوجود كائن أعظم.. يهديه ويرشـــده ويقـــود خطواته.. هو التناقض الذي كان ينبغي إزالته في رأي فلاستوس. ومن أجل تحقيق ذلك.. يذكر قول سقراط نفسه لتوضيح هذه النقطة. ومن المعروف أن سقراط قد قال العبارة التالية انبثاقا من سلوكه وأسلوبه العقلاني الكامل:

"لـــيس الآن ولا للمرة الأولى، ولكنني على الدوام إنسان لا أقتنع بشيء في شخصي سوى ما يبدو لي الأفضل عندما أتعقله (λoγιξoμεμφ)".[8]

ورغـــم تأكـــيد سقراط على أهمية العقلانية.. فقد بدا لفلاستوس أنه يعتقد في الخرافات حين يتعلق الأمر بتجاربه الشخصية، لذلك كتب قائلا:

"ومـــع ذلك فهو يلتزم بشدة بطاعة الأوامر التي تصله عبر قنوات خارقة للطبيعة".[8]

ولكي يؤيد فلاستوس وجهة نظره نراه يذكر ما قاله سقراط خلال محاكمته:

"لقـــد فعلت هذا لأني أُمرت به، كما ذكرت، من قِبَل الإله عن طريق الوحـــي، وعـــن طريق الرؤى، وعن طريق جميع الوسائل الأخرى التي بواسطتها كانت الأوامر الإلهية تُكلف أحدا أن يفعل شيئا".[8]

وبعـــد التسليم بهذا.. كتب فلاستوس مقالا طويلا لتبرئة سقراط مما اعـــترف بـــه بنفســـه عن تجاربه الروحية التي مر بها. ومن خلال منطق متشابك، تَوَصل أخيرا إلى أن سقراط لم يكن يؤمن بالفعل بما اعترف به شخصـــيا. ومع ذلك.. وبالرغم من مجهوده العلمي، فقد فشل فلاستوس في تحقيق هدفه. وإذا أعَدنا قراءة ما ذكره فلاستوس في الاقتباس المذكور

عاليه والذي يبدأ بالجملة:

"لقد فعلت هذا لأني أُمرت به...".[٨]

نلاحـــظ أن لفظ "الله" قد ذكره سقراط في صيغة المفرد *(وهــو يُترجم إلى God بحرف G كبير في اللغة الإنجليزية)*، ومع ذلك فقد كتبه فلاستوس على أنه "إله" *(الذي يُترجم إلى god بحرف g صغير في اللغة الإنجليزية)*.

إن هـــذه العبارة التي ذكرها سقراط، والتي تتعلق بتجاربه الخاصة التي تمـــتع فـــيها بالرؤى والوحي الرباني، وبعض الوصايا والأوامر التي تلقاها بوســـائل أخـــرى.. لهـــي عبارة قوية وواضحة تمام الوضوح، وتتفق كل الاتفـــاق مع تجارب الأنبياء عامة، حتى إنها لا تترك أي مجال للشك في أنها تعـــني تمامـــا ما قصده بها سقراط. وهناك عدد كبير من الآيات القرآنية الكـــريمة تؤيـــد سقراط كل التأييد، حيث تتحدث عن جميع الأنبياء قبل رسول الله ﷺ الذين شاركوه جميع وسائل وأشكال الوحي الإلهي.

وبالإضافة.. فإن فلاستوس يبني نظريته في التناقض بإثارة التساؤل التالي:

> "هـــل يحـــدو بـــنا هذا إلى اعتبار أن سقراط كان يعتمد على وسيلتين متفاوتـــتين للمعرفة فيما يختص بالآلهة، إحداهما عقلانية والأخرى فوق العقلانية، مما ينتج عنه أسلوبان متباينان للاقتناع.. أحدهما يمكن الوصول إلـــيه عن طريق البرهان الانتقائي* eclectic argument، والآخر عن طـــريق الوحـــي الإلهي بواسطة كلام الآلهة والأحلام النبوية وما شابه ذلك؟" [٩]

إن الإنســـان ليعجـــب حقا كيف يمكن أن يبني الخيال صورة من التـــناقض بين ما آمن به سقراط وبين ما مرَّ به من تجارب. ومن المعروف عنه، دون أدنى شك، أنه كان ينتقد ما يُسمى بالآلهة اليونانية، وكان يحط مـــن شأن ما يوصف بأنه وحي من كلام الآلهة، ولكنه حينما تكلم عن

---

* الانتقائي هو من لا يتبع نظاما واحدا في الفلسفة، بل ينتقي كل ما يعتبره الأفضل في جميع الأنظمة. (المترجم)

تجربـــته الشخصية، لم يحدث أبدا، ولو مرة واحدة، أن سخر من الوحي الإلهـــي الذي كان يتلقاه، أو الرؤى الربانية التي كان يراها. إن فلاستوس لم يكـــن منصفا حين ذكر تعبير "كلام الآلهة" بعد أن ذكر تعبير "الوحي الإلهـــي"، إذ لا علاقـــة بين الاثنين. فإن الوحي الإلهي الذي تحدث عنه ســـقراط في الاقتباس السابق، لم يذكر ما يسمى بكلام الآلهة. لقد كان دائما وأبدا.. حين يتحدث عن تجربته الشخصية.. كان يذكر الله بصيغة المفـــرد *(God بحرف G الكبير وليس بصيغة الجمع gods)*. وحينما كان يـــتحدث عن إلهام الشعراء، باعتباره هبة من عند الإله (أي god-given) فإنـــه كان يستعمل الأسلوب المجازي، و لم يقصد أبدا أن هذه الرؤى هي بالفعل من لدن الله تعالى (أي God-given)، وذلك كما قال:

"نعم.. إن ما يضعه الشاعر الملهَم في شعره هو شيء بديع، من عند الإله (أي god-given)، ولكنه ليس هو المعرفة – ولا يمكن أن يكون معرفة، لأنه عديم العقل".[١٠]

إن انـــتقاده للشعر، وقوله إنه "ليس هو المعرفة – ولا يمكن أن يكون معرفة، لأنه عديم العقل" يتفق تماما مع أسلوب التعابير الشعرية. ولا شك أن هناك نوعا من السحر في بعض الشعر، كما لو كان الله تعالى يتحدث على لسان الشاعر، ولكن الإنسان العاقل لا يفهم هذه المقولة حرفيا، ولا يأخذها مأخذ الجد. وحينما يصف سقراطُ الشاعرَ بأن به مسًّا إلهيًّا، فقد يكون في ذلك إشارة إلى الخرافات التي يؤمن بها أهل أثينا.. إذ يعتبرون أن بعـــض الناس بهم مس من الآلهة. ومثل هذه التعابير بعيدة كل البعد عن الأسلوب الذي يستعمله سقراط عن نفسه، فلم يكن به أبدا مس من الله تعالى، وإنما كان الله ﷻ يخاطبه كما يخاطب عباده المخلصين.

وهـــو يوضح بكل جلاء أن تجارب الشعراء ليست بالتأكيد من عند الله تعـــالى، رغـــم أنها قد تبدو كذلك. ومهما كانت كفاءة وحذق الشـــعراء، فإن تجاربهم يمكن أن توصف على أحسن تقدير بأنها نوع من

إلهام النفس، ولكنها حتما ليست وحيا إلهيا. يقول سقراط:

"لقـــد أدركـــت عـــلى الفور أن الشعراء لا يتغنون بأشعارهم بسبب "المعرفة"، وإنما بسبب موهبة فطرية وفي حالة من إلهام النفس...".[١١]

وعلى أية حال.. إن الاستنتاج الذي توصل إليه فلاستوس من نفس هـــذا المقطـــع يؤدي بالقارئ إلى أن يطير صوابه، بدلا من الشاعر الذي وصفه بأنه طار صوابه حيث يقول:

"...حينما يكون الإله (god) قد تلبس فيه، يكون الشاعر قد طار صوابه (εκφρων...)".[١١]

ثم هو يُبرئ سقراط من اللاعقلانية حيث يقول:

"إن سقراط سلب أسلحة اللاعقلانيين التي تمكنهم من الاعتقاد بآلهة فيما وراء الطبيعة تتصل مع البشر بوسائل وعلامات فوق الطبيعة".[١٢]

ونحـــن بكل احترام نختلف معه بشدة، حين يفترض أن نفس المقولة تنطـــبق على التجارب الخاصة بسقراط. فبعد صفحتين فقط من استنتاجه الذي خرج به، يعترف فلاستوس بأن إله (God) سقراط يختلف عن بقية الآلهة، فيقول:

"وبســـبب ما رأيناه سابقا، وخلاف الآلهة الأخرى، فإن إله سقراط إله طيـــب على الدوام، لا يمكن أن يسبب أي شر لأي شخص بأية وسيلة في أي وقت. وحيث إن خداع الإنسان هو نوع من الشر الذي يصيبه، فإن إله سقراط لا يمكن أن يكون كاذبا".[١٣]

وبالإضـــافة، نراه في نفس الفصل، ينسب بحق إلى سقراط نوعا من العبادة، يختلف تماما عما يسمى بعبادة أهل أثينا، التي يصفها بقوله:

"... إنها نوع من فن التبادل التجاري بين الآلهة والناس".[١٤]

كـــان من المحتم أن تُرفض عبادة أهل أثينا، لأنهم يجعلون الآلهة تعتمد علـــيهم بما يقدمونه إليها من هبات على مذابحها، ولكن "إلـــه (God)" سقراط، الذي يشير إليه فلاستوس بطريق الخطأ بصيغة الجمع (gods):

"... لـــيس بحاجـــة إلى هباتنا، بينما نحن الذين نعتمد كليا على هباتهم

لنا..."[١٤]

ومن الواضح أن معاملة سقراط لعبادة أهل أثينا كان بسبب أنها موجهة لآلهة متعددة يستخدم لها لفظ الجمع، ولكن يجب أن نتذكر هنا أن كلمة إله (god) حين يستعملها سقراط في صيغة الجمع، لا تعني دائما آلهة أهل أثينا، التي هي من نتاج خيالاتهم. فالدراسة المستفيضة لسقراط تُبين أنه حين كان يستعمل لفظ آلهة (gods) فإنه كان يعني بها أحيانا الملائكة، أو أي شكل من أشكال الحياة الروحانية التي فوق الإنسان، ولكنها دون الله تعالى.

ومع ذلك.. فهو حين يتحدث عن تجربته الخاصة، فإنه ينبذ كلية استخدام صيغة الجمع، ويبدأ في الكلام عن إله واحد (One God).

"إنني أعتقد أنه ليس من خير جاء إليكم في هذه المدينة أعظم من هذه الخدمة التي أقوم بها لله" [١٥]

(لاحظ صيغة المفرد التي يستعملها لله تعالى فيما يتعلق بالمهمة التي كُلّف بها).

إن فلسفته الدينية والسياسية كانت دائما في اتفاق مع الاتجاه العام للتعاليم السماوية، و لم يسجل التاريخ أن نبيا من أنبياء الله تعالى قد تمرد على قوانين البلد التي يعيش فيها، ولكن حين تتدخل الدولة في شؤون طاعة لله تعالى، فإن الأنبياء لا يترددون أبدا في مواجهة قوة الدولة دون أي خوف أو وجل، ويتبعون دائما أوامر الله ﷻ.

وهذه نفسها هي فلسفة سقراط. لقد كان لديه ولاء تام للدولة، ولكن حينما تعارض ولاؤه للدولة مع طاعته لله تعالى، كان القرار الوحيد الذي اتخذه هو التضحية بالولاء الأدنى من أجل الولاء الأعلى، الذي لا يكون إلا للخالق وحده. ولذلك فقد وجه كلامه إلى مجلس الشيوخ، الذي كان على وشك أن يدينه ويحكم عليه بالموت، وقال بكل عزة ووقار، وبصوت لا يشوبه أي خوف أو اضطراب:

"... يا أهل أثينا، إنني أحترمكم وأحبكم، ولكني أفضل طاعة الله (God) على طاعتكم، وما دامت بي قوة، وكان فيّ عِرْقٌ ينبض بالحياة، فإني لن أتوقف عن ممارسة وتعليم الفلسفة..." [١٦]

(لاحظ أن جويت (Jowett) يكتب دائما لفظ الإله God بالحرف G الكبير حيثما يربط بين الله تعالى وبين سقراط).

وحيـــنما عرض أهل أثينا على سقراط أن يرفعوا عنه حكم الموت، بشـــرط أن يـــتوقف عـــن "إفساد" شباب أثينا، بتحريضهم على عدم الاعتراف بآلهة أثينا وطاعة إلهه، رفض سقراط على الفور وبشدة. وهناك حوار طويل عن هذا الموضوع بينه وبين ميليتوس (Meletus) المدّعي العام الذي كان يحاكمه. فقد أصر ميليتوس على أن عدم اعتراف سقراط بآلهة أثيـــنا يعني الإلحاد التام.. الأمر الذي يستوجب الحكم عليه بالموت، رغم تأكيده على أنه يؤمن بالله الواحد. وهكذا كانت طاعة سقراط لله تعالى أعـــلى وأعظم من طاعته لقوانين أثينا. وقد تمسك سقراط بإيمانه، ولقي مصـــرعه مـــن أجلـــه، ولكن قبل موته أنذر أهل أثينا كما ينذر الأنبياء أقوامهم، وذلك من خلال الكلمات التالية:

"... لعلكـــم تظنون أنكم لا تخطئون في حق الله، وتستهينون بإنكاركم لفضله وذلك بإدانتي والحكم عليّ بالموت، فإنكم إذا قتلتموني فلن تجدوا مثيلا لي بسهولة..." [١٧]

وبعـــد أن قـــال هذا راح يدلل على براءته بمنطق لا يقبل الجدال، ثم أحكـــم في الـــنهاية منطقه بأسلوب سوف يظل دائما شاهدا على مدى عظمته. ويذكر جويت بعضا من عباراته فيقول:

"... ومهمـــا بلغـــت وقاحة أولئك الذين يوجهون لي الاتهام، فإنهم لن يجـــرأوا عـــلى القول بأني في أي وقت من الأوقات قد ابتززت مالا من أحد، أو حتى طلبت من أحد أن يدفع لي أجرا؛ فليس لديهم من يشهد عـــليّ بذلك.. بينما لدي أنا شاهد على صدق قولي.. فإن فقري يكفي أن يكون شاهدا على هذا". [١٧]

كذلـــك فقـــد استدل بمسلكه طوال حياته السابقة ليؤيد به أقواله، وليكون شاهدا أمينا على حقيقة موقفه الحالي.

وفي إشــارة إلى واقعة سابقة، تثبت أنه كان الشخص الوحيد الذي كانت لديه الجرأة على التصدي لجبروت مجلس الشيوخ، أعلن قائلا:

"... إنني لم تهتز لي شعرة خوفا من حكم الموت، بل إن خوفي كله هو أن أرتكب إثما، أو أن أقوم بعمل شيء غير طاهر أو غير مقدس. إن هذه اليد الباطشة الظالمة لم ترهبني لتدفعني إلى الوقوع في خطأ ما..." [١٨]

وهكذا نرى أن سقراط لم يحط من قدر نفسه، كما كان من الممكن أن يفعـــل الكـــثيرون غيره ممن يُسمون بالنبلاء، حين يجدون أنفسهم في مكانه وفي ظروفه. ولهذا فقد استمر يقول:

"لقـــد رأيت رجالا من ذوي الشهرة والعظمة، يتصرفون بأسلوب غريب حـــين يصـــدر عليهم الحكم بالموت: إذ يبدو أنهم يتخيلون أنهم سوف يعـــانون من أمور بشعة عند الموت، وأنهم سوف ينالون الحياة الأبدية إذا أعطيتموهم حق الحياة..." [١٩]

"لا تطلـــبوا مـــني الآن أن أفعل ما أعتبره أمرا مشينا للشرف.. عاريا عن التقوى.. ومجانبا للصواب.. خاصة الآن، بعد أن حوكمت بتهمة الإلحاد على يد ميليتوس". [١٩]

وفيما يلي ما يدل على إيمان سقراط بوحدانية الله تعالى، ذلك الإيمان الذي لم يهتز أبدا، إلا أنه كان يؤمن أيضا ببعض الشخصيات الربانية، التي كان يُضفي عليها بعض الصفات النبيلة، التي لا تنطبق على ما كان يُسمى بآلهـــة أهـــل أثينا. وقد كان يذكر هذه الشخصيات بنفس الأسلوب تماما الـــذي تُذكر به "الملائكة" في الأديان السماوية الأخرى. وعلى ذلك فإن إيمانه بالربانيين.. بما يعني الملائكة.. لم يكن يتناقض مع إيمانه بالله الواحد. لذلك حينما أراد في النهاية أن ينهي مسعاه، لم يستودعه أيدي آلهة أثينا.. ولكنه استودع مسعاه في أيدي أهل أثينا وفي يد الله تعالى، حيث قال:

"... وإليكم وإلى الله تعالى أستودع مسعاي..." [٢٠]

وحتى في أدق التفاصيل.. كان سقراط مماثلا لأي نبي آخر ذكره القرآن المجيد والكتب السماوية الأخرى. لقد أدان الانتحار، معتبرا إياه تطاولا على الله تعالى وذنبا جسيما، لأنه كان يعتبر أن الحياة هبة من الله ﷻ، وأنه سبحانه هو مالكها الوحيد. وقد تحدث في فايدو (Phaedo) طويلا وبإسهاب ضد تشريع حق الانتحار، مستخدما في ذلك أقوى الدلائل، لأنه كان يعتبر الانتحار إثما لا يُغتفر. وفيما يلي يعلن سقراط حكمه في موضوع الانتحار:

"... قد تكون هناك حكمة في أن يُقال إن على الإنسان أن ينتظر، ولا يضع نهاية لحياته بنفسه إلى أن يدعوه الله إليه، كما يدعوني إليه الآن".[٢١]

لقد استمر خطابه إلى أن قوطع من كريتو (Crito)، فقد فهم سقراط من إشاراته أنه يريد أن يقول شيئا، ولكنه تجاهله. كما تجاهل أيضا كل ما كان يريد أن يقوله عن لسان الشخص المكلف بإعطاء السم لسقراط، فقد ذكر ذلك الشخص أنه إذا استمر سقراط في الكلام طويلا، فسوف يُضعف هذا من قوة تأثير السم عليه، وقد يقتضي الأمر من سقراط أن يشرب السم مرتين أو ثلاث. غير أن سقراط لم يلق بالا لذلك، ولم يهتم بالمعاناة التي يكلفه إياها خطابه الطويل، وقال:

"فليقم بواجبه كما ينبغي، وليعطني السم مرتين أو ثلاث".

"والآن سوف أرد عليكم يا قضاتي (وهنا كان يستعمل لفظ القضاة مخاطبا أولئك الذين كانوا من المعجبين به، وكانوا يلتفون حوله خلال لحظاته الأخيرة) وسوف أبين لكم أن الذي يعيش حياته كلها فيلسوفا حقيقيا مخلصا، يكون من حقه أن يبتهج حينما يكون على وشك الموت، فإنه يأمل بعد الموت أن يتلقى أعظم الخير في العالم الآخر".[٢٢]

وعلى هذا فقد استمر سقراط يُعَلم شعب أثينا الفلسفة الإلهية إلى أن وضع كأس السم على شفتيه. وحتى حينما كانت الحياة تنسل ببطء من بين ضلوعه، فقد ظل مستمرا في تأدية مهمته الربانية، طالما كانت لديه القدرة على الكلام، ولم يتوقف عن ذلك إلى أن أسكته الموت.

وهكـــذا جاءت النهاية لحياة واحد من عظماء أنبياء الله تعالى، عاش في القرن الخامس قبل الميلاد (حيث كان معاصرا لبوذا). وكمثل بوذا.. لم يُدَوِّن سقراط أبدا صحائفه، ولكن قام معاصروه بتسجيلها، ثم تم تدوينها فيما بعد في شكل محاورات سقراط. وقد اتُّهم بوذا أيضا بالإلحاد، وذلك لأنه أنكر آلهة البراهمة.

لقـــد لخصـــت دائرة معارف تشامبرز (Chambers Encyclopaedia) أعظم خدمة قدمها سقراط للفلسفة في الكلمات التالية:

"بإنزال الفلسفة من السماء إلى حياة العامة من الناس (كما سبق أن قال سيســـرو ذلـــك)، فإن سقراط كان يقوم بنشر اتجاه جديد من أحدث الاتجاهات الفكرية في عصره، وذلك بأسلوب واضح وبنية صادقة".[٢٣]

"لم يكن سقراط يكترث للترف والنعيم، ولا حتى للأمور المريحة العادية، ولكنه لم يكن من النساك بحال من الأحوال".[٢٣]

وعن طبيعة الوحي الإلهي لسقراط.. يقول مؤلف المقالة التي اقتبسنا منها العبارات السابقة:

"هـــناك الكثير من النقاش حول "الإيماء الإلهي" (δαιμνιον) الذي كان ســـقراط كـــثيرا ما يتحدث عنه، على أنه صوت كان يصله من وراء الطبيعة، ويمنحه الهداية. وحسب ما قالـــه زينوفون (Xenophon).. كان الصوت يقول لـــه أن يفعل أو أن لا يفعل. وحسب ما قاله أفلاطون.. كـــان الصوت يضبط أفعاله فقط ولكنه لم يكن محرّضا قط. أما الكُتّاب المـــتأخرون، وخاصة في العهود المسيحية، فقد تكلموا عن ذلك الصوت على أنه روح شيطان، أو روح عبقرية، أو روح حارسة. ولا يوجد عن هذا الرأي أية مصداقية لدى أفلاطون أو زينوفون".[٢٣]

"... يـــبدو أنـــه كانـــت لديه بعض الإحساسات الحية، والتي اعتبرها تحذيرات سماوية، ومن الجائز كما يقول البعض أنه كان يعاني أحيانا من الهلوسة في أسماعه، كما يمكن أن يحدث أحيانا مع الشخص العاقل الذي يتمتع بصحة جيدة".[٢٣]

وهكذا حوّلوا الوحي الإلهي لسقراط ليكون مجرد هلوسة!

وفي الواقــع لم يكـــن هناك أي تناقض في سقراط، وإذا كان هناك تناقض فلا بد أنه كان في عقل الكاتب، الذي يبدو أنه أراد أن يدافع عن سقراط، فقال إن هلوساته لم تكن كلها سيئة مثل أولئك المختلين نفسيا الذيـــن يعانون من خلل عقلي. فقد اعتبر الكاتب أن مثل هذه الهلوسات يمكن أن تصيب أحيانا الأشخاص العقلاء ذوي الصحة الجيدة أيضا، كما ظن أنها الحال مع سقراط.

يا لها من رحمة.. ويا له من تعاطف وشفقة بسقراط من بعض الكُتاب المـــتأخرين، الذين كانوا يثقون في سقراط.. ولكن لم تكن لديهم ثقة في إيمانه بالله تعالى. ومهما كانت تلك الملاحظة متعاطفة مع سقراط.. فإنها لا تضـــيف شرفا إلى عظمته، فهو لم يكن أبدا في حاجة إلى أية تبريرات. ألم يكـــن سوء الفهم هذا هو نفسه الذي لازم جميع الأنبياء من قبل ومن بعد ســـقراط؟ إن كـــلا منهم اتهمه قومه بالهلوسة، ولكن ربما ليس بالصورة المهذبـــة التي اتبعها كاتب المقالة المذكورة في حق سقراط. إن جميع أولئك الذين اتهموا الأنبياءَ كانوا يعلمون جيدا أن من يتهمونهم بالهلوسة والجنون لم يكونـــوا يعـــانون أبدا من سقم في العقل أو ضعف في الأخلاق.. فقد كـــانوا أكثر الناس حكمة في زمانهم، سليمي العقل أذكياء القلوب، ينظر إليهم مجتمعهم الذي نشأوا فيه باحترام وتبجيل منذ طفولتهم إلى أن بلغوا مبلغ الرجولة. و لم يحدث أبدا أن اتهمهم أحد.. قبل إعلانهم دعوى النبوة.. بالتصرفات التي يتبعها العرافون والمنجمون، ولا بأنهم يعانون من الهلوسة. إن الهلوســـات دائما ما تكون عشوائية، مفككة، متنافرة، ولا رابط بينها. والأصوات التي قد يسمعها البعض ممن يعانون من الهلوسة، قد تبدو لهم أنها مـــن الله تعالى، ولكن تلك الأصوات لا توحي إليهم أبدا بأية فلسفة، ولا بمنهج حياة يمكن أن يتبعه الآخرون ويسعدوا به. فلا منطق في ما يسمعون ولا في ما يقولون. فالهلوسات لا تثمر أية عقلانية!

إن الخلط بين النبوة والهلوسة ليس إلا محاولة مريضة ورخيصة للحط

من شأن الوحي الإلهي، فإن تجربة أنبياء الله ﷻ تختلف اختلافا جذريا. إذ تتميز تجارب الأنبياء بالحق والحكمة والعقلانية، بينما يمثل المجتمع المعادي الـــذي يواجهونه الخرافة والكذب والعقائد الباطلة. والرسالة التي يأتي بها الأنبياء تقوم دائما على أساس فاضل من الأخلاق. إنهم يتنفسون الحكمة، وزفـــراتهم الـــتَّقْوَى والـــورع. وهم يدافعون عن العقلانية، ويدعون إلى الفضيلة، والعدل، والاعتدال في كل أمر، والتسامح المتبادل، والإحسان، والصـــبر، والخدمة، والتضحية. فهل هذه هي الرسالة النبوية التي يتلقونها خلال أشد لحظات حياتهم جنونا وهلوسة؟ إن كانت هذه حقا هلوسة.. فأعظم بها من هلوسة!! إن المرء يتمنى لو أن أولئك الذين يتهمون الأنبياء بالهلوســـة تذكـــروا تجاربهم هم الخاصة التي يعانون فيها من الهلوسة أثناء تعرضـــهم مـــثلا لحالة شديدة من الحمّى العَفَنية Septic Fever أو حُمى التـــيفود. فهـــل يذكرون أنهم تلقوا أثناء تلك الهلوسات مناهج حكيمة للحـــياة، حيـــنما كانوا في غيبوبة مؤقتة عن عقولهم، وهل استطاعوا أن ينقلوا إلى الإنسانية رسالة ظلت محل اهتمام الناس لآجال طويلة؟

إن العقلانية والهلوسة لا تجتمعان في العقول السليمة. لكَم كنا نتمنى لو أن من يتَّهِم سقراط بالهلوسة قد قدم لنا شرحا وافيا من واقع تجربته هو الشخصية، فهل حدث لأحد من الحكماء أن تعلم فلسفة صحيحة متميزة خـــلال الفترات التي يكون قد تعرض فيها لنوبات من الهلوسة؟ وكم كنا نـــتمنى لـــو أن المؤلـــف قد تذكر أن كل الحكمة، وكل الفضيلة، وكل العقلانية، وكل الإيمان.. الذي أبداه سقراط، كل ذلك قد تعلمه سقراط مـــن تلـــك الأصوات التي يسمونها "هلوسة"! فإذا رفضنا إيمانه بالوحي الإلهي باعتبار أنه قائم على الهلوسة.. فلا بد أن نرفض كل فلسفاته وكل حكمـــته في الحـــياة عـــلى نفس الاعتبار، فإنه لا يمكن أن ينفصل عن عقلانيته.

إنـــنا نقبل سقراط بكليته.. بجميع نبل شخصيته، ونبل رؤيته، ونبل

حـــياته الـــتي عاشها. فإن الهلوسة لا يمكن أن تخلق مثل أولئك الرجال. فالســـلام عليه يوم وُلد، والسلام عليه في حياته، والسلام عليه يوم مات راضيا مبتسما، بينما الحشد من المعجبين به كانوا ينتحبون بمرارة ويبكون حوـــله في نشيج أليم. إن أثينا لم تر بتاتا روحا تصعد إلى بارئها أنبل من تلك التي كانت لسقراط.

رضي الله عنه، وأمطره بوابل من أخص رحماته وبركاته. ولكن الويل كل الويل لقتلته، فإن أثينا لن ترى أبدا من يماثله مرة أخرى!

المراجـــــــع

1. *The New Encyclopaedia Britannica.* Vol. 24, 15th ed.
2. *The New Encyclopaedia Britannica.* Vol. 25, 15th ed.
3. GUTHRIE, W.K.C. (1950) *The Greek Philosophers.* Methuen & Co, p.72
4. GUTHRIE, W.K.C. (1950) *The Greek Philosophers.* Methuen & Co, p.79
5. VLASTOS, G. (1991) *Socrates, Ironist and Moral Philosopher.* Cambridge University Press, Cambridge, p.200
6. GRAYLING, A.C. (1995) *Philosophy - A Guide Through The Subject.* Oxford University Press, Oxford, p.360
7. GRAYLING, A.C. (1995) *Philosophy - A Guide Through The Subject.* Oxford University Press, Oxford, p.364
8. VLASTOS, G. (1991) *Socrates, Ironist and Moral Philosopher.* Cambridge University Press, Cambridge, p.157
9. VLASTOS, G. (1991) *Socrates, Ironist and Moral Philosopher.* Cambridge University Press, Cambridge, p.167
10. VLASTOS, G. (1991) *Socrates, Ironist and Moral Philosopher.* Cambridge University Press, Cambridge, p.168
11. VLASTOS, G. (1991) *Socrates, Ironist and Moral Philosopher.* Cambridge University Press, Cambridge, p.169
12. VLASTOS, G. (1991) *Socrates, Ironist and Moral Philosopher.* Cambridge University Press, Cambridge, pp.170-171
13. VLASTOS, G. (1991) *Socrates, Ironist and Moral Philosopher.* Cambridge University Press, Cambridge, p.173
14. VLASTOS, G. (1991) *Socrates, Ironist and Moral Philosopher.*

Cambridge University Press, Cambridge, p.174
15. VLASTOS, G. (1991) *Socrates, Ironist and Moral Philosopher.* Cambridge University Press, Cambridge, p.175
16. JOWETT, B. (1989) *Plato, The Republic And Other Works.* Anchor Press, New York p. 459
17. JOWETT, B. (1989) *Plato, The Republic And Other Works.* Anchor Press, New York pp. 460-461
18. JOWETT, B. (1989) *Plato, The Republic And Other Works.* Anchor Press, New York p. 462
19. JOWETT, B. (1989) *Plato, The Republic And Other Works.* Anchor Press, New York p. 464
20. JOWETT, B. (1989) *Plato, The Republic And Other Works.* Anchor Press, New York pp. 464-465
21. JOWETT, B. (1989) *Plato, The Republic And Other Works.* Anchor Press, New York pp. 493-494
22. JOWETT, B. (1989) *Plato, The Republic And Other Works.* Anchor Press, New York p. 495
23. *Chambers Encyclopaedia* (1970) New Revised Edition Volume XII Roskilde-Spahi, International Learning Systems Corporation Limited, London, p.673

الباب الثاني

نتحدث في الباب الثاني عن بعض الأديان الهامة في العالم التي يُساء فهمها عادة وتُعتبر مجرد فلسفات لاإلهية أو أديان وثنية، ويلي ذلك حديث عن "مسألة المعاناة". إن الكثير من أتباع هذه الأديان أنفسهم ليسوا على بينة تامة من طبيعتها. وهي كما يلي:

- **الهندوسية**
- **البوذية**
- **الكونفوشيوسية**
- **الطاوية**
- **الزرادشتية**
- **مسألة المعاناة**

الفصل الأول

الهندوسيـــــة

الهندوسية ديانة فريدة بين مجموعة الأديان. وإنه لمن الصعب أن نجد في الأدب الهندوسي ما يدل على وجود الوحي كما يُفهم الوحي في الأديان السماوية التقليدية. فمن ناحية.. تقتصر فكرة الوحي كلية على تعاليم "الفيدا"، الكتاب المقدس لدى الهندوس، بينما من ناحية أخرى.. يُقال إن الله تعالى قد تجلى بنفسه في صورة آدمية لتعليم بني البشر.

ورغم أن المسيح عليه السلام يُعتبر في المسيحية بشكل يشابه ذلك الذي يشغله كرشنا عليه السلام في الهندوسية، إلا أن المماثلة بينهما في الواقع سطحية. ففي موضوع تجسد المسيح.. نجد أن الرب الأب يظل هو المهيمن على الكون، وتجلي الابن يظهر بصورة ما في الشكل الآدمي ليسوع. كذلك نجد في المسيحية أقنوما ثالثا يسمى الروح القدس، وهو ليس يسوع (الابن) ولا هو الإله الأب، ولكنه جزء لا يتجزأ من الثالوث المقدس.

أما الهندوسية فليست على وضوح فيما يتعلق بتجلي براهما في شخص كرشنا.. هل كان براهما يحكم السماوات والأرض من كرسيه السماوي حتى حينما كان كرشنا على الأرض، أم كان كرشنا.. كإله متجسد.. هو الذي يحكم الكون خلال طوره الإنساني؟ وهل كان كرشنا مجرد ظهور أو صورة بينما ظل الله مهيمنا على السماوات كما كان دائما؟ إن هذه الأسئلة وما شابهها تظل بغير جواب.

وأيضا.. فيما يتعلق بالوحي.. نجد أن المسيحية تتفق تماما مع ما تؤمن به الأديان التقليدية عن طبيعة الوحي من السماء. أما في الهندوسية.. فإن شكل الوحي يختلف عما تقول به الأديان التقليدية. فلكي يحقق الله هدف

وجود إنسان كامل يكون أسوة للناس، تجلى الله بنفسه في صورة إنسان، و لم يجد ضرورة لاستخدام واحد من البشر لهذه المهمة.

أما موضوع "الريشي القدماء" الذين يُقال إنهم كانوا يتلقون تعليم "الفيدا" فهو يختلف عن ذلك. فإن كلمة "ريشي" هي كلمة هندوسية تعني رجل الدين الذي قطع كل العلائق مع العالم المادي وأسلم نفسه تماما لإرادة الله تعالى. ورغم أن "الفيدا" يُعتبر كتابا يحتوي التعاليم السماوية، فليس هناك تعليم واضح يبين أن "الريشي" قد تلقوا وحيا في صورة رسالة كلامية محددة. وربما يظل الأمر مبهما إلى الأبد فلا نعرف ما إذا كانت إلهامات أو خواطر "الريشي" يمكن أن تُسمى وحيا.. بكل ما تحمله كلمة الوحي من معنى، فإن ما نعلمه عن المصادر الهندوسية مستقى كلية مما يؤمن به الهندوس. ورغم أن مختلف العلماء يتحدثون عن عصور مختلفة فإن العلماء جميعا متفقون على أن "الريشي" هم الأقدم من بين البشر على الإطلاق.

إن هذا الوصف للهندوسية يمكن أن لا يكون سوى نتاج الخيال الإنساني. فالإنسان دائما يحرِّف ويسيء التفسير، بل ويسيء استعمال التعاليم السماوية بعدما يأتي الأنبياء ويذهبون، فلا عجب أن تكون رسالات الأنبياء الهندوس قد حُرّفت شكلا ومعنى مِن قِبَل أجيال الذين جاءوا فيما بعد. وحينما نقول إن "الفيدا" قد حُرِّف فإننا لا نعني أن أيدي البشر قد عبثت بجميع تعاليم "الفيدا" وغيرها تماما، فإن الله تعالى لا يسمح أبدا بهذا التحريف الكامل والتغيير الشامل للتعاليم السماوية، بل دائما يتبقى شيئا من الحقيقة الأصلية، لا تمسها يد ولا ينالها تحريف. وفي ضوء هذه الحقيقة نجد أن الدراسة المتأنية لكل دين من الأديان في مصادره الأولى تكون دائما مجزية ومُرْضية. وبإمعان النظر المتفحص للمصادر الهندوسية يتبين أنها لا تختلف عن الأديان السماوية الأخرى فيما يختص بالأمور الأساسية التي تشترك فيها جميع الأديان.

وحينما نحرك المنظار الذي نتفحص به الديانة الهندوسية حركة بسيطة نجد أن المنظر الذي نراه يتغير تماما. ويمكن تقديم ما يكفي من الأدلة من خلال الكتابين "مهابهارات *Mahabharat*" و"الباغفاد جيتا *Bhagavad Gita*" أن كرشنا لم يدّع الألوهية أبدا لنفسه، ولا حتى ادعى الخلود والبقاء الأزلي. فيمكن بسهولة اعتبار كرشنا كواحد من أنبياء الله تعالى، لا يختلف عن هؤلاء الذين ظهروا من قبله أو جاءوا من بعده خلال ما سُجل ودُوّن من تاريخ الأديان.

وحسب ما دَوّنه كُتاب سيرته الذاتية الموثوق بهم.. فإن كرشنا قد وُلد على هذه الأرض حوالي عام ١٤٥٨ قبل الميلاد كأي طفل بشري آخر لوالديه "باسيوديبا *Basudeba*" وزوجته "ديبوكي *Deboki*"، وقد سمياه: "كيناي *Kinai*". وقد سُمي "كرشنا *Krishna*" فيما بعد، ويعني الاسم: الشخص المستنير. ويُذكر عنه أنه عاش طفولة عادية تتخللها ومضات متوهجة من الأمور الخارقة للطبيعة (تماما كما ينسب الأتباع هذه الخوارق إلى الكثير من الأنبياء). وقد عاش كما يعيش البشر، وكان يتصرف كغيره من البشر، وكان يلبي نداء الطبيعة ككل البشر. وأثناء طفولته كان في بعض الأحيان يقترف من الأعمال ما يصدر عادة عن بعض الصغار في البيئة التي كان يعيش فيها، كسرقة كيلو أو اثنين من الزبد، أو على الأقل هذا ما ينسبه إليه الكاتب الهندوسي في تحليله. غير أننا لا نعتبر أنه ارتكب جريمة، فإن الأطفال من ذوي القلب الطيب قد يُقدمون على ارتكاب مثل هذه الأعمال بقصد مساعدة زملائهم الفقراء، وفي هذه الظروف تكون أفعال مثل هؤلاء الأطفال مدعاة لإثارة العطف والحب بدلا من إثارة السخط والغضب. وهذه كلها أمور من طبيعة الإنسان، ولا يختلف الطفل فيها.. سواء في مولده أو في نمط حياته.. عن بقية أنبياء الله. وقد شب كرشنا ليكون شابا فتيا قويا، واكتسب وأظهر صفات قيادية فذة. وفي ساحات القتال كان يقود الجيوش ليحقق

انتصارات باهرة. وفي شؤون الحياة العادية برز ليكون قدوة حسنة، وقام بواجبه كمصلح عظيم، ندر أن يُرى مثله في تاريخ الهند. كان يحث الناس على أن يتمسكوا بالتقوى والصلاح، ويتجنبوا الشرور والآثام. وكان يرى ضرورة القضاء على الأشرار الذين يريدون أن يمحوا الدين وينشروا الكفر والإلحاد.

وأما فيما يتعلق بشكله الجسماني فإننا نجد بعض الأشياء الغريبة. إذ أن صـــورة "لورد كرشنا" كما يصورها الفنانون الهندوس تجعل له أربع أذرع بـــدلا من اثنتين، كما تجعل له أجنحة أيضا. وعادة ما تُرسم صورته واقفا وعـــلى فمه ناي، وتحيط به مجموعة من الفتيات الحسان يرتدين ثيابا زاهية الألوان، وهؤلاء هن "الجوبي Gopis". والجوبي لفظ يُطلق على الصنف من النساء اللاتي يرعين البقر.. أي الراعيات، وهو اللفظ المرادف للفظ راعية الأغنام. ويجب أن نذكر هنا أن لقب كرشنا نفسه كان "جاوبال *Gao'pal* " الـــذي يعني: "راعي الأبقار". وحين نقرأ هذه الأمور في ضوء الكتاب المقـــدس الذي يذكر أن أنبياء بني إسرائيل كانوا رعاة يرعون خراف بني إســـرائيل، فـــإن المماثلة بين الاثنين تبدو واضحة الملامح. وحيث إن الهند كانـــت بلادا تنتشر فيها الأبقار بدلا من الخراف والأغنام، فإن العامة من الناس يُطلق عليهم لفظ الأبقار بدلا من الخراف، وبالتالي حين يُطلق على كرشنا وصف "راعي الأبقار" يكون الأمر مفهوما تماما. وأيضا يكون من المفهوم تماما أن يُطلق على تلاميذه أو حوارييه لفظ "جوبي".

والكثير من الأوصاف الأخرى التي صيغت حول صورة كرشنا، يمكن أيضا اعتبارها من الأمثال والكنايات والقصص الرمزية، بدلا من اعتبارها حقائق حَرْفية. فمثلا.. ما يتعلق بصورة كرشنا التي لها أجنحة وأربعة أذرع، فيمكن تفسيرها رمزيا لتعني أن الله تعالى يُنعم على عباده الصالحين بقوَى وملكات خاصة. وفي القرآن الكريم نجد ذكر الجناح في حق رسول الله ﷺ، فقد أمره الله تعالى أن يخفض للمؤمنين جناح الرحمة.

وكذلك جاء ذكر الملائكة ولهم أعداد مختلفة من الأجنحة، وهذه هي الصفات المختلفة لهؤلاء الملائكة، وليست بالطبع أجنحة مادية من الريش.

ولكن يحدث أن أتباع الأديان يأخذون عادةً الكنايات والاستعارات والأمثال الدينية بمعناها الحرفي ولا يلتفتون إلى المعاني المجازية وهكذا يفقدون معانيها الحقيقية نهائيا. وصورة اللورد كرشنا وما يظهر حوله ليست استثناء من هذا.

ويُطلق على كرشنا أيضا لفظ "مُرْلي دَهْر *Murli Dhar*" الذي يعني "عازف الناي". ومن الواضح أن الناي هنا يرمز للوحي، لأن النغمة التي تخرج من الناي ليست من صنع الناي نفسه، وإنما هو يُخرج الأنغام التي تُنفخ فيه. والناي هنا يرمز للورد كرشنا نفسه والذي ينفخ فيه هو الله، ومهما كانت "الأنغام" أو الكلمات التي ينفخها الله فيه فإنه.. كالناي.. ينقلها بذاتها وبكل أمانة إلى العالم. وهكذا لا تختلف حقيقة كرشنا عن حقيقة أي نبي آخر يكون حارسا أمينا على رسالة الله تعالى، فيبلغها بنصها وفصها إلى الناس دون أدنى تغيير. ويكون الناي في هذه الحالة مجرد رمز لأمانة النبي، يؤكد للناس على أنه لا يقول شيئا من عند نفسه سوى ما أُوحي إليه من السماء.

ولنلتفت الآن إلى سمة أخرى من السمات الأساسية للهندوسية، التي لا يشاركها فيها سوى القلة من الأديان الأخرى.. أشهرها البوذية، ونحن نقصد بالطبع عقيدة تناسخ الأرواح. فإن هذه العقيدة متوائمة مع العقائد الهندوسية الأخرى التي تتعلق بأزلية الروح والمادة من ناحية، وأزلية الإله الأعظم والآلهة الأخرى الأقل منه شأنا من ناحية أخرى. وحسب هذه الفلسفة.. فإن الحياة على هذه الأرض لم تنشأ كخلق جديد تماما. فكل كائن حي يتكون من مكونات أزلية.. رغم أنه هو نفسه ليس أزليا. وتكون الأرض هي الأم بالنسبة لهم كمثل المعمل الذي تختلط فيه المكونات، حيث تختلط الروح ببعض الأجزاء المادية، وتتشكل معا لإنتاج جم غفير من

الأشكال الحية. وهكذا فإنهم يؤمنون بأن القوى الخالقة عند الله تعالى هي قوى مَزْجٍ وخلط فقط، مثل تلك التي للصيدلي الذي يُحضّر الدواء، أي أنه لا يملك قوة الخالقٍ الذي يستطيع أن يخلق شيئا من لا شيء.

ومفهومهم للكون يشمل ثلاث مستويات للوجود.. المستوى الأول والأعلى يشغله "براهما Brahmâ"، الإله الرئيس، ومعه الكثير ممن هم أقل منه درجة، يقومون بأعمال معينة في الكون وهم منهمكون فيها تماما. فالبعض منهم مسؤول عن رفع السحب أو خلق الصواعق، والبعض الآخر مسؤول عن شؤون الإدارة وإبقاء فعالية الظواهر الطبيعية. وهم يتمتعون بقدر من الحرية في حدود مقامات كل منهم، ومن النادر أن يقع صدام فيما بينهم، ولكن إذا وقع.. فالويل للكون من ذلك، إذ تهب العواصف العاتية في السماء، وتنصب جامات الغضب على الأرض. ومن المفيد دائما أن يكون المرء في الجانب الصحيح لهؤلاء الآلهة أو الآلهات، وإلا فإن غضبهم يمكن أن يكلف المخلوقات الفانية الشيء الكثير. وهناك آلهة ذكور وإناث للثروة، وهناك آلهة ذكور وإناث للخصوبة والإنجاب، وهناك آلهة ذكور وإناث للصحة والعمر الطويل وما إلى ذلك. والآلهة الخرافية التي تشغل هذا المستوى تتمتع بالخلود الأبدي.

المستوى الثاني.. أي المستوى المتوسط للوجود يشمل الروح والمادة. والروح والمادة حين تجتمعان يتكون منهما المستوى الثالث الأدنى للوجود المرتبط بالحياة على الأرض. وحسب هذه الفلسفة الهندوسية فإن "براهما"، الإله الرئيس بين بقية الآلهة، هو وحده الذي له القدرة على أن يربط الروح بالمادة لكي يخلق الحياة على الأرض.

كيف ومتى بدأ هذا الإجراء ولأي غرض.. هذا ما يبحثه بالتفصيل الأدب الفلسفي الهندوسي المتعلق بتعاليم الفيدا. ولا يؤمن الهندوس بأن الحياة بدأت على الأرض بالأسلوب الذي يقول به العلماء المعاصرون. فلم تظهر الحياة بظهور الكائنات البدائية الأولى والخلايا الحية في حساء

المحيطات أو على سطوح الصخور منذ آلاف الملايين من السنين. وقد كتب "البروفيسور ج. فيرمان Professor J. Verman" في كتابه: "الفيدا The Vedas" فقال:

"... إن العلماء الذين غُذِّيَت عقولهم بأكاذيب نظرية دارون في التطور.. يجدون أنه من الصعب عليهم أن يفهموا أسرار الوحي. ومع ذلك.. فإن لدينا من الدلائل الدامغة ما يُبين أن المرحلة الأولى للإنسان كانت أفضل، ولا أساس للاعتقاد بأن إنسان ما قبل التاريخ كان بالضرورة إنسانا بدائيا. إن رجال "الريشي" الذين تذكرهم الفيدا لم يكونوا أناسا بسطاء، بل كانوا شعراء، ذوي بصيرة، وروحانيين في نفس الوقت. وكان تلاميذهم وهم أيضا من الريشي كما يحق لهم أن يكونوا.. كانت لهم القدرة على فهم أهمية "المانترا Mantras" (أي المزامير أو الأغاني الروحانية) في اللحظة التي يسمعونها فيها... وقد أُخبرنا أيضا أنه قد حدث تدهور تدريجي في القوى النفسية والذهنية للناس، وبدأت أجيال الكُهَّان تتلاشى أيضا".[١]

وهكذا.. حسب مفهومه لتدبير الله في الخلق.. خُلقت الأرض أزلية وظلت مستمرة ومستمرة ومستمرة، وهكذا أيضا كانت الحياة على الأرض. فعند مولد كل أرض جديدة يولد أيضا عالم جديد. وعند بدء خلق العالم يوحي براهما إلى الريشي بالفيدا، وهي دستور الكون، ومنها يسنّون القوانين التي يحكمون بها أعمال الناس الآخرين على الأرض. وعلى ذلك فإن الحياة بدأت على الأرض بالإنسان، ولم تسبقه في الوجود الكائنات الأخرى.

ويشرح مقطع آخر من نفس الكتاب بشكل أوضح دور "الريشي" الأربعة الجالسين على سطح العالم وما يمكن أن يورثوه للأجيال المستقبلة من البشر، فيقول:

"... أربعة من الكهان هم أجني Agni، وفايو Vaayu، وسوريا Soorya، وأنجيرا Angiraa، الذين كانوا في الحقيقة رجالا ذوي براعة

ذهنية فائقة ودرجة روحية عالية، تحركهم مشاعر الجمال وسحر مناظر الخلق البهية وهم يُطلون من فوق سطح العالم من المنطقة المقدسة في البحيرة المشهورة "ناناساروفارا Naanasarovara" في "تريفيشتابا Trivishtapa" (وهي تقع في التبت الحديثة) التي تعتبر أرض الآلهة، في المقابل من جبال الهملايا، منبع الأنهار العظمى مثل نهر "الجانجا Ganga" ونهر "السندهو Sindhu" ونهر "شاتادرو Shatadru" ونهر "براهمابوترا Brahmaputra"، والتي تحيط بها القمم العالية التي تغطيها الثلوج البيضاء، والظواهر الطبيعية الخلابة، فتمتلئ قلوبهم بالنشوة والطرب، وتتسامى حواسهم، وتحلق أرواحهم وترتفع، وتمتلئ عقولهم بالرغبة في اكتساب المعرفة، وهم في حالة واعية مدركة، فينتقلون إلى حالة تأملية عميقة باذلين أقصى جهدهم. وحينئذ ينظرون في دوائر الحقيقة التي تختلف عن العالم المادي ويستمعون إلى الصوت المقدس الأزلي، الصوت المتكلم من داخل النفس، وفي نفس اللحظة يرون الحقيقة..." [٢]

وعلى ذلك فإن تعاليم الفيدا كما يفهمها الBانديت.. أي الفلاسفة الهندوس.. تريدنا أن نعتقد بأن الحياة لم تتطور بل تردت من حال إلى حال. فإن الأجيال الإنسانية.. التي من المفروض أن تولد في المستقبل البعيد منذ زمن "الريشي" الأربعة العظماء الأوائل.. كان من المقدر لهم أن تتدهور جميع مواهبهم وقدراتهم بالمقارنة مع الرجال الأوائل. وهذا التدهور في المواهب والقدرات يشمل أيضا سلوكهم الأخلاقي. إن الفلسفة الهندوسية للكارما "Karama" (أي الأعمال) وتناسخ الأرواح تحوي نذير شؤم للجنس البشري. فحسبما يقوله البروفسور فيرمان:

"تدمير الحياة المستقبلة يعني أن يكون المرء مستعدا لكي يولد بين أنواع من الكائنات الحية أقل شأنا من البشر، فهذه هي ثمرة الأعمال، وهذه هي عقوبة الأعمال السيئة. وتأتي العقوبة في صورة حرمان من المواهب والأعضاء الإنسانية من إحساس وقدرة على أداء الأعمال. هذه هي عقيدة الكارما، وهذه هي الكيفية التي يعمل فيها التشريع الإلهي، وهو يسمى حكم قانون الطبيعة". [٣]

ونحن نرى أنه بنسبة هذه العقيدة إلى تعاليم الفيدا.. فإن الهندوس لم يصيبوا عدلا في الحفاظ على شرف الفيدا. فإذا أُخذت مثل هذه العبارات حرفيا.. لاستوجب الأمر أن يُعاد كتابة أصل الحياة كلية. وفي الصيغة الجديدة للحياة سوف تلعب "كارما" بالتأكيد دورا رئيسا، وتكون معركة البقاء وبقاء الأصلح والطفرات في الجينات التي يتحدث عنها أصحاب مبدأ النشوء بحماس شديد، يكون من المحتم رفضها تماما واعتبارها مجرد خيالات علمية، كما لو أنه لا توجد حبة من خردل من دليل على صحتها. وعلى ذلك يكون المفتاح الوحيد المتبقي لحل لغز الحياة هو الكارما.

وباتباع هذا الخط في التفكير يمكن لنا استنتاج أن الحياة قد بدأت رحلتها بخلق رجال مقدسين على أعلى درجة من القدسية والصلاح، ولكن بعد أن وُلدت الأجيال المستقبلة بدأ الناس يتدهورون ذهنيا وجسديا وروحيا، ولم يستغرق الأمر طويلا حتى ملؤوا الأرض بالخطايا والآثام. ومع الخطيئة أتى العقاب الإلهي الذي سرعان ما جعلهم يفقدون الحالة الإنسانية. ولا بد أن الناس قد أصيبوا بصدمة شديدة وكآبة بالغة وهم يرون أن البشر يتحولون إلى حيوانات في درجة أقل، ولكن لم يكن لهم سوى أن يلقوا باللائمة على ذنوبهم التي كانوا يرتكبونها. فإن قانون الكارما يجب أن يَنفذ، والخطيئة يجب أن تحقق أثرها. وعلى هذا لم يكن من الغريب على أولئك الناس أن يروا خلال مراحل الولادة.. مولد العديد والكثير من أنواع الحيوانات بدلا من الأطفال الطبيعيين.

وربما لا تكون هذه هي الصورة التي تخيلها علماء الدين الهندوس لنشأة أنواع الحياة وكيفية عمل قوانين الكارما. ففي غياب نص صريح واضح عن هذا الموضوع.. يمكن التكهن ببعض التفسيرات التي تكون في إطار المعتقدات التي يؤمنون بها. وربما تصوروا أن مغاليق أسرار الحياة على الأرض قد تفتحت بشكل مختلف. فبعد أن بدأ الإنسان يتدهور في رحلته

الدنيوية.. كلما ابتعد عن زمن الريشيي الأربعة الأُوَل، فإن قدرته على الإنجاب بدأت تضمحل، ثم انتشر وباء من العقم على نطاق واسع، مما أدى إلى نقص كبير في أعداد البشر بسرعة، بينما.. ويا للدهشة!!.. بدأت تنشأ آلاف مؤلفة من الأنواع الحيوانية من سطح الأرض. فانفرجت الأرض هنا وهناك وخرج منها الفيلة والأسود، وكذلك ظهرت القطط والكلاب والضباع والذئاب. ومن المياه انبثقت الأسماك بكل حجم ولون وشكل، وسرعان ما لحقت بهم الزواحف والسلاحف. ثم فجأة بدأت الحشرات تغزو المملكة الحيوانية كما لو أنها كانت أفواجًا من الجراد التي ظهرت فجأة وبغير مقدمات. وتحت هذه الأشكال المرئية من الحياة تأتي المملكة غير المرئية من البكتريا والفيروسات التي تكون قد تكاثرت بشكل أسرع وأوسع. ولكن.. ويا للأسف الشديد.. فرغم كل محاولات وإنذارات الريشي الأربعة فإن الإنسان رفض أن يخضع، واستمر في تمرده على تعاليم الفيدا. وكنتيجة طبيعية للآثام والخطايا التي ارتكبها البشر.. فإن عملية تناسخ أرواحهم وعودتها إلى الحياة مرة أخرى في صورة حيوانية أقل شأنا من الإنسان.. لا بد أن تكون قد تمت بروح انتقام شديدة.

ولما لم يعد هناك مكان على سطح كوكب الأرض أو في أعماق المحيطات، بدأ الإنسان يتولد داخل أمعاء البشر أيضا. فماذا عن الديدان المستديرة، والديدان المبططة، والديدان الشريطية، والديدان الخيطية – التي لا يمنعها خُلق من شفقة من الفتك بالأطفال – ثم هناك أعداد لا حصر لها من الأشكال الفيروسية والبكتيرية التي تناسخت فيها أرواح البشر السابقين، وغزَتْ أجسام البشر اللاحقين من خلال مجاري الدماء، أو في الأوعية الشعرية، أو خلايا أنسجة الجسم، أو الأعضاء الحيوية الهامة، ولن تنجو من هذا الغزو الأنسجة الليمفاوية ولا حتى النخاع العظمي. فما أشدَّها سذاجةً هذه النظريةَ التي تجعل عقاب الإنسان بيده هو نفسه، ومع ذلك فإنه لا يعتبر ولا يتعظ!

لا شك أن هذا نظام عجيب وتقدير غريب!! وهذا هو النظام الذي يؤيده البروفيسور فيرمان ويدّعي أن هناك من "الدلائل الدامغة" ما يؤيد صحته! والغريب في هذا النظام أن البشر مع مرور الوقت قد استمروا في ارتكاب الذنوب أكثر فأكثر، ومع ذلك لم تقلِّ أعدادهم، بل على العكس نرى أن أعدادهم تزداد كثرة باطراد كبير.

ويأخذنا هذا الخط من التفكير إلى العهود القديمة.. حينما بدأت الحياة بخلق أربعة من الريشي.. وأعداد كبيرة من البشر العاديين. فإذا ظل الإنسان في أحسن حالات سلوكه الروحاني والاجتماعي، فإنه ما كان ليتناسخ في أشكال متدنية من الحياة بعد أن تموت تلك الأجيال. فإن نظام الكارما يضمن أنه طالما ظل الإنسان محافظا على حالة الفضيلة هذه.. لكان من المستحيل أن يأتي إلى الوجود أي نوع من أنواع الحيوانات، فإن الحيوانات لا تأتي إلى الوجود إلا نتيجة عقاب الأجيال العاصية من البشر.

ويبدو أن البروفيسور فيرمان لديه بعض الردود على هذه المعضلة. فالأجيال الإنسانية حين ابتعدت زمنيا عن الأجيال الصالحة التي كان يعيش فيها الريشي.. بدأت تلك الأجيال الإنسانية في التدهور أخلاقيا. ومن الواضح حينئذ أنه في اللحظة التي صار الإنسان فيها آثما، فإن أبواب خلق الكائنات الحيوانية الأخرى انفرجت مفتوحة على مصراعيها، ومنذ تلك اللحظة وما تلاها.. لم يكن هناك نقص في الأرواح الخاطئة التي يُحكم عليها بأن تتحول إلى كائنات متدنية أحط من الإنسان في مراحل تناسخ الأرواح التي كُتب عليها أن تمر بها.

ولكن هذا النظام لا يمكن أن يعمل إلا إذا بلغ عدد البشر في ذلك الوقت آلاف الملايين من المرات أكبر مما هو عليه اليوم. فإن مجموع أرقام الحيوانات في كل الأنواع الحيوانية تبلغ تريليونات التريليونات. وبالتالي فإنه من الممكن استنتاج أن كل هذه الكائنات الحية.. بدءا من البكتريا إلى أعلى فالأعلى.. كانت كلها في يوم من الأيام من البشر. وعلى هذا..

فلا بد أن يكون عدد البشر في زمن وجود الريشي الصالحين قد بلغ أرقاما فلكية، ضاربا بكل الحسابات عرض الحائط، وبالتالي فلا بد أن يكون حجم هذه الأرض أضخم من حجمها الحالي بمليارات المرات، حتى يمكن أن تستوعب أعداد البشر الصالحين القدماء الذين كانوا من أتباع تعاليم الفيدا.

وبالمناسبة.. فإن العلماء يخبروننا أيضا أن أرض التبت.. حيث يُقال إن الريشي الأربعة كانوا يجلسون عند بدء الزمن.. لم تكن قد خُلقت بعد، بل إنها جاءت إلى عالم الوجود فيما بعد.. في وقت متأخر منذ ما يقرب من مليار عام، وتكونت نتيجة لحركة القارات ثم الاصطدام الذي وقع بينها. إن هذا التناقض بين التصريحات المختلفة التي يدلي بها الجيولوجيون وتلك التي يخبرنا بها علماء الفيدا.. تلقي ظلالا من الشك على منظر الريشي الأربعة وهم يراقبون العالم يمر أمامهم وهم في موقعهم العالي فوق سهول التبت العالية. ولكن بطبيعة الحال من حق علماء الهندوسية، مثل البروفيسور فيرمان، أن يستبعدوا هذه الحكايات التي يختلقها الجيولوجيون باعتبارها هراءً خاويًا من كل عقل تماما مثل نظرية النشوء والارتقاء التي يجب أن تُلقى هي الأخرى في سلال المهملات باعتبارها هلوسة علمية!!

وعند الرجوع مرة أخرى إلى موضوع الوجود البشري الذي انبثق من الصلب المقدس للريشي العظام الأربعة.. فلا بد أن هذا الصلب المقدس يكون قد تضخم إلى أحجام هائلة لأنه من المفترض أن يكونوا هم آباء جميع أنواع الحيوانات التي سوف تأتي من بعدهم. فإن الأرواح الخاطئة لهؤلاء هي التي سوف تنحط من مقامها ودركتها لتتحول إلى حيوانات في المملكة الحيوانية. وعدد الناس الذين كانوا يعيشون في ذلك الوقت لا بد أن يشمل جميع أعداد الحيوانات والكائنات الحية التي سوف توجد فيما بعد. وإن المرء ليشعر بالحيرة والارتباك إذا حاول أن يتخيل منظر تلك الجحافل البشرية

الهائلة تتلوى وتضطرب كأنها جبال من الديدان على سطح هذا الكوكب الصغير الذي يسمى الأرض. وكل هذا يمكن متابعته من سطح أي مكان، سواء كان اسمه التبت أو الهملايا، فسوف يبصر الرائي بشرا من وراء بشر في كل مكان، ولكن.. ليس هناك من لقمة واحدة لتؤكل!

وعند إعادة بحث موضوع الكارما.. علينا أن نعود إلى مناقشة الموضوع بطريقة علمية. فإن مصير كل جيل من الأجيال البشرية يتوقف كلية على الأعمال التي قام بها الجيل الذي يسبقه. فالروح ذاتها كيان محايد، وكذلك المادة التي ترتبط بها الروح. وعلى هذا يكون السؤال الذي يحاول الحكماء الهندوس أن يجدوا له جوابا يتعلق بالحكمة وراء سياسة الخلق عند الله تعالى. فإذا كان هو إلها عادلا، كما يقولون، فلماذا يُبدي محاباة للبعض على حساب الآخرين؟ ولكي يجيبوا على هذا السؤال، الذي يبدو أنه لا إجابة له، نراهم يقدمون فلسفة الدائرة اللانهائية الأزلية للأعمال والمجازاة والعقوبات على الأعمال. وتناسخ الأرواح هو المبدأ الذي يعمل كدائرة مستديمة للعلل والمعلولات، للجريمة والعقاب، للخير والجزاء. وعلى عكس وجهة النظر هذه.. فإن صورة الإله التي تقدمها الأديان الكبرى الأخرى في العالم هي صورة الكائن الكامل القدرة والكامل العظمة، الذي يستطيع أن يخلق ما يشاء حين يشاء. وبهذا يكون هو المالك الأعظم لكل الخلق، وله الحق المطلق في أن يقضي على خلقه إذا شاء. إن يديه ليستا مغلولتين، وهو القادر على أن يفعل ما يشاء. ولذلك لا يقوم مبدأ العدل على ما يتعلق بخيار خلقه. ومع ذلك.. فلأنه هو الحكيم الأعظم، والمقسط الأعظم، والقدير الأعظم، فإنه يُوَفر بدرجة الكمال كل ما يحتاجه كل كائن حي داخليا وخارجيا. وهكذا يمكن للأميبا أن تشعر بسعادة في محيطها الخاص.. تماما كما يشعر الملك العظيم وهو جالس على كرسي عرشه.

غير أن هذه الحرية لا يمكن بحق أن يتمتع بها إله الميثولوجيا الهندوسي، فكونه ليس خالق الروح والمادة، لا يكون له حق التدخل في

حرية الروح والمادة، وليس له أن يفرض عليهما العبودية له. كذلك هناك أيضا مسألة حرية الاختيار عند كل مرحلة من مراحل الخلق. لماذا يكون واحد من أصناف الخلق أفضل من غيره، أو أن يوضع في مقام أعلى من غيره؟ ولماذا يولد واحد في قصر الملك أو يولد آخر في الفراغ القاتم الذي يملأ كوخ متسول؟

إن هذه المعضلة هي التي تقضي بضرورة تقديم بعض الإيضاحات عن الله فيما يتعلق بنظم خلقه المتعددة. والفلسفة الهندوسية تحل هذه المسألة بالقول إن الله لم يتخذ أبدا أي قرار تعسفي فيما يختص بكونه الخالق. وعلى عكس الأديان الأخرى في العالم، يعتبر الهندوس أن الأرض هي مكان العقاب والجزاء. وحسب هذه الفلسفة فإن أسلوب الحياة على الأرض هو الذي يحدد شكل مستقبل الحياة التي تُمنح للروح في تناسخها التالي. والإله الأعظم براهما هو الذي يحكم على كل عمل تقوم به الحياة خلال رحلتها على الأرض. فالمستقبل يتوقف على الكارما (أي الأعمال) الخاصة بها.

إن الحياة والموت منسوجان سويا كجزئين لا ينفصلان في النظام الأزلي للخير والجزاء، والجريمة والعقاب. ولكن المشكلة هي أنه عندما يختار الإله الروح من مقرها في الفضاء الذي تهيم فيه، ويأتي بها إلى أسفل.. إلى الأرض.. لكي يربطها بالمادة في شكل من أشكال الكائنات الحية، في هذه اللحظة.. يقضى فيها الإله على الروح بالسجن في نطاق ربطها بالمادة بدون أن يكون لها كارما سابقة، أي بدون أن يسبق للروح اقتراف إثم تستحق عليه هذا السجن. وهذا السجن الذي يُفرض على الروح هو الذي يُشكل انتهاكا حادا لمبدأ العدل من جانب ذلك الإله، الأمر الذي يجعله هو نفسه.. حسب قانون الكارما.. يستحق أن يُنتسخ إلى أدنى درجات أشكال الكائنات الحيوانية.

وعودة مرة أخرى إلى بحث موضوع الكارما وكيفية عملها.. إذ يجب أن نفهم أن هذا نظام في غاية الدقة، وهو يأخذ في الاعتبار حتى أدق

التباينات في أمور السلوك الطيب والفاسد في الحياة على الأرض. وهذه التباينات والاختلافات هي التي تعين الإله لكي يُصدر حكمه بعقاب يكون شديدا أو بسيطا، أو بجزاء يكون كبيرا أو صغيرا.

وكل جريمة لا تكون لها بالضرورة عقوبة تقتضي أن يُنتسخ كل إنسان مخطئ فيتحول إلى حيوان آخر. فمثلا الإنسان الذي كان ملكا في الحياة السابقة يمكن أن يتحول إلى متسول فقير في الحياة التالية. وأيضا.. من كان متسولا في الحياة السابقة يمكن أن يتحول إلى حضرة صاحب الجلالة المعظم في حياته التالية، وكل هذا يتوقف على أعمال كل منهما في الحياة السابقة على الأرض، سيئة كانت أو طيبة في نظر الإله.

وكما سبق إيضاحه.. تتوقف عملية تناسخ كل كائن على مدى ما يأتية من أعمال.. صالحة كانت أم طالحة، فيمكن مثلا لإنسان أن يتحول إلى دودة في الحياة التالية، مما يكون مفاجأة غير سارة له بالتأكيد، ولكن ليس له سوى أن يلوم أعماله السيئة التي اقترفها في حياته السابقة.

ولكن.. أين تبدأ هذه السلسلة؟ هذا هو السؤال الحقيقي، وهو لغز أزلي لم يُحَل بعد. فإذا كان كل تناسخ يتطلب وجود حياة سابقة، فكيف بدأت السلسلة؟ بالطبع لا يمكن تجاهل هذا السؤال بدفع سلسلة الأسباب والمسببات إلى الوراء أكثر وأكثر في الزمن السحيق، فإن هذا يتطلب أن تكون كل أشكال الحياة أزلية، هي وما يخص كلا منها من كارما. وهذا افتراض لا يمكن أن يقبله حتى أكثر البانديت الهندوس واقعية في التفكير، لأن الأزلية في العالم الحيواني تجعل عملية الخلق (أي ربط الروح بالمادة) عملا غير ذي مغزى ومعنى. وعلى هذا فإن البديل الوحيد هو أن تكون الكارما.. أي الأعمال وما يترتب عليها من نتائج مرتبطة بعضها ببعض في شكل دائرة. ولكن هذا غير ممكن أيضا، لأن هذه الدائرة اللانهائية من الكارما ونتائجها من سوء الجزاء أو حُسنه لا يمكن أن تكون بغير بداية وبغير نهاية. إذ أنه لا يمكن عقليا ومنطقيا تصور دائرة أزلية من الأسباب

والمسببات إلا إذا كانت جميع حلقات هذه السلسلة متشابهة في تطابق تام. أما إذا كان هناك أدنى تغيير في طبيعة إحدى الحلقات، فإن البداية والنهاية تتحدد على الفور. إن الحلقات التي تبين مثلا اتجاها دونيًا أو فوقيا، بناء على وقوع تدهور أو تحسن، لا يمكن أن تكون حلقات في دائرة أزلية.

ولنعد بنظرتنا الفاحصة مرة أخرى إلى المشهد الذي يُصَوره الفيدا عن كيفية بداية الحياة وأصل الأنواع. إذا كانت هي سلسلة دائرية، كما يصر على ذلك كهنوت الهندوس، فإنه بعد أن يصل التدهور إلى أدنى مستوياته، فإن حلقات السلسلة لا بد وأن تكون قد تغيرت تماما و لم يعد هناك وجه شبه بينها وبين الحلقات التي كانت في بدايتها. وبعد أن تكون الحياة الإنسانية للبشر قد انمحت تماما من على وجه الأرض و لم يبق غير الحياة الحيوانية في دركات متدنية، وهي تنْزلق دوما إلى الاتجاه الأسفل بسبب إصرارها المستمر على اقتراف الإثم، فلا يبقى سوى ربطها مرة أخرى ببداية جديدة حتى تكتمل الدائرة. والحياة على الأرض.. كما رأينا حسبما يقول الفيدا.. تبدأ دائما بالريشي الأربعة وهم جالسون فوق سطح العالم على إحدى قمم الهملايا. فكيف بالله يمكن لحشرات الهوام، وحشرة أم أربعة وأربعين، والجرذان، والظِربَّان الأمريكي (Skunk وهو حيوان كريه الرائحة بفظاعة شديدة)، وهذه الأشكال من الحياة تُعتبر الأدنى والأحط بالنسبة للبشر الخاطئ، فكيف يمكن لهؤلاء أن يتصلوا بحلقة البداية العظيمة العالية الصالحة والطاهرة في شكل الشخصيات الأربع من الريشي حتى تكتمل الدائرة؟ إن دائرة التناسخ هذه التي وصفناها لا يمكن أبدا أن تتصل ببدايتها أبدا، فلا يمكن بالتالي أن توصف بأنها أزلية، لأن الأزلية تقتضي أن تكون هناك استمرارية غير منقطعة.

أما إذا حاولنا غصبًا أن نوصل نهاية هذه السلسلة ببدايتها، فإن النتائج المترتبة على ذلك سوف تكون بشعة لمن أراد أن يتصورها. وتخيل

مثلا حية جالسة وهي متكورة على نفسها وقد وضعت ذيلها في فمها، هل يمكن لعاقل أن يقول إنها دائرة أزلية بغير بداية ولا نهاية؟ إن الذيل هو الذيل حتى ولو كان مضغوطا بقوة بين فكي الأفعى. إن هذه الدائرة سوف يكون لها رأس وسوف يكون لها ذيل؛ أي سيكون لها بداية وتكون لها نهاية. ولن يمكن لأي شخص في قلبه مثقال حبة من احترام للريشي، وهم أربعة، سوف يعزو مولدهم مرة أخرى في تناسخ من ذيل يتكون من أدنى وأحط أنواع الوجود الحيواني.

ونحن نأمل ألا يكون أحد من الهندوس، سواء المتعلمين منهم أو الجاهلين، من المؤمنين بهذا الخيال الشاذ الغريب للدائرة الأزلية. إن الطبيعة نفسها تفضح زيف هذا التصور كلية، ولا يوجد من دليل على صحته مطلقا.

وموضوع الكارما يجب أن يُختبر أيضا من زاوية أخرى. فإن لفظ الكارما ينطبق على كل الأعمال التي يكون الفاعل مسؤولا عنها.. أي أنه سوف يكافأ إذا كانت أعماله طيبة، وسوف يعاقب إذا كانت أعماله سيئة. وهذا يقتضي أن تكون الإرادة الإلهية في تعريف الخير والشر واضحة تمام الوضوح بتحديد الأعمال الصالحة والطالحة، وإلا فلا يستطيع أحد أن يعرف ما الذي يوافق عليه الله وما الذي يستنكره. ومن أجل نفس هذا السبب.. أي من أجل بيان ما يَرضى عنه الله وما لا يرضى عنه.. وُجد الأربعة العظماء من الريشي في بداية زمن الجنس البشري. فإن لم تكن تعاليم الفيدا قد أوحيت إليهم، لما عرف الناس ما هو الخير المطلوب منهم، ولا الشر الذي عليهم أن يتجنبوه.. وبالتالي لم يكن عليهم من حساب ولا كانوا مسؤولين عن أعمالهم. وعلى ذلك فإن قانون الكارما ينطبق على البشر فقط الذين أُعطوا قائمة واضحة — من قِبَل الريشي الأربعة الأولين– من الأوامر والنواهي.

وأما حينما نأتي إلى الكائنات الحية عدا الإنسان، فإن المشكلة تكون أكثر تعقيدا. فهل كل هذه الكائنات لها كُتبها الواضحة المحددة

المستخلصة من القانون الإلهي؟ فإن لم تكن هذه هي الحال.. فكيف تحكم هذه الكائنات سلوكها، وكيف يُحكم عليها حسب قوانين الكارما؟ هل تحل الغريزة الحيوانية لديها محل القوانين الإلهية لدى الإنسان؟ وإذا كانت الغرائز عند الحيوانات هي التي تملأ فراغ التعاليم الإلهية فكيف تمارس هذه الكائنات حقها في الاختيار؟

وأيضا.. عند البشر.. نجد أن التعاليم الإلهية تصل إلى البشر عن طريق البشر (فلا شك أن الريشي الأربعة كانوا من البشر). ولكنه من الصعب تصور تأدية وظيفة النبوة بواسطة الكائنات الحيوانية. فكل نوعية من الحيوانات لها دائرتها المحدودة من الإدراك، الخاصة التي تحكمها، ولها غرائزها الخاصة التي ترسم لها طريقة معيشتها. وإذا كان لا بد من إرسال أنبياء فلا مناص من إرسال أنبياء في كل نوعية من النوعيات الحيوانية. وإذا كان من المحتم أن يولد ريشي من الحيوانات فلا بد أن يولدوا بين السباع وبين الضباع، وبين الدببة السوداء وبين الدببة البيضاء، وبين الزواحف وبين جميع الأنواع المتباينة من الأسماك والأشكال المختلفة من الطيور. فهل يمكن لأحد أن يتصور مثلا وجود نبي من الغربان أو ريشي من الذئاب؟

ولكن ليس هذا كل ما في الأمر.. فإذا كانت الغرائز عند الحيوانات تعتبر البديل للتعاليم الإلهية عند البشر، يظل السؤال عن حق الاختيار في ضوء وجود الغرائز عند الحيوان يحتاج إلى إجابة. فهل يمكن للحيوان أن يقبل أو يرفض النوازع الغريزية لديه؟ إنه من النوازع الغريزية عند الحصان أن يأكل العشب أو الحبوب، فهل يمكن للحصان أن يرفض الانصياع لهذا الأمر الإلهي؟ وإذا اختار الحصان أن يكون شريرا، فهل يمكن له أن يغير غذائه من الخضراوات إلى اللحوم، وبذلك يخالف القانون الإلهي الغريزي مخالفة صارخة؟ نعم.. في هذه الحالة يحق للإله أن يعاقب هذا الحصان باعتباره حصانا شريرا عاصيا، وربما تكون العقوبة المناسبة لهذا الحصان هي أن يتحول في الحياة التالية إلى حمار أو إلى كلب. فماذا لو أن هذا

الحمار أصر أيضا على المعصية وسوء السلوك الذي تسبب في ولادته كحمار، فاستمر في أكل اللحوم مفضلا طعم لحم الكلاب على طعم العشب الأخضر. إن المرء ليعجب.. إلى ماذا يمكن أن يتحول هذا الحمار في التناسخ التالي – ربما يتحول إلى كلب يُترك تحت رحمة الحمير العاصية الشريرة الأخرى لتنهش لحمه – يعلم الله!

إننا نقدم هذه المشاهد الافتراضية لنكشف ونوضح الخزعبيلات الموجودة في فلسفة تناسخ الأرواح، وهي الفلسفة المبنية على الفهم الهندوسي الحالي لتعاليم الفيدا. ولكن ليس في مقصودنا بتاتا أن نجرح مشاعر أحد.

إن نفس هذا الإيضاح الافتراضي ينطبق على كل المملكة الحيوانية. فإذا كان الأسد مثلا يُعتبر أسدا طيبا صالحا إذا ظل مطيعا لغرائزه الحيوانية التي وضعها الإله فيه، فإن عدم احترامه لحق الآخرين في الحياة سوف يكون دلالة واضحة على عظيم نبله وكريم خلقه. ولكن.. من ناحية أخرى.. إذا توقف الأسد عن أكل اللحوم، ضاربا بخلقه الكريم ونبله العظيم عرض الحائط، فإن مثل هذا الأسد "الخضراوي" آكل الخضراوات.. لا بد له أن يُعاقب عندما تتناسخ روحه في الحياة التالية، وربما تهبط مكانته إلى نسر من سباع الطير يأكل الجيفة. وهكذا فإن الإله سوف يحكم على الوحوش والكواسر التي تعيش في الغابة بأنها نبيلة الأخلاق.. إذا استمرت فقط في اتباع غرائزها غير النبيلة.

لا بد أن يكون قد اتضح الآن أنه لا يمكن بتاتا اعتبار السلوك الحيواني القائم على غرائز الحيوانات هو القانون الرباني في الحياة، ما دام الحيوان غير مخيَّر في اتباع هذه الغرائز أو عدم اتباعها. فإذا أصر المدافعون عن تعاليم الفيدا على أن السلوك الغريزي للحيوان هو البديل للتعاليم الإلهية، فإنه يترتب على ذلك أن جميع الحيوانات يجب أن تترقى إلى مرتبة البشر في التناسخ التالي لهم، لأنهم يتبعون غرائزهم بدقة شديدة – بل

بشكل أحسن وأفضل مما يتبع البشر القوانين الإلهية. إن هذا الافتراض في غاية الخطورة، فهو يؤدي بالضرورة إلى انقراض كل أنواع الحياة غير البشر، مما سوف يؤدي إلى انفجار سكاني مهول، مما يدفع البشر إلى زمن بداية الدهر. فهل يكون هناك طعام يكفي لكل هذه الأعداد التي لا تُحصى أم أنهم سوف يتحولون إلى آكلي لحوم البشر كحل بديل لمواصلة الحياة؟ الله وحده أعلم!

ولكن لحسن حظ الجنس البشري.. لا يمكن تصور وجود قانون للكارما يعمل بين غير البشر من الكائنات الحيوانية. فإن الأرواح الخاطئة إذا حُكم عليها مرة أن تتناسخ في صورة حيوانية.. تظل دائما وأبدا في صورة حيوانية، ولا يمكن لها بتاتا أن تتخلص من إسار وقيود الجسد الحيواني، ولا أن تعود مرة أخرى إلى مقامها العالي المتمثل في الجسد الإنساني المفقود. وهكذا يأخذ نظام الكارما بالإنسان من أقصى طرف إلى أقصى الطرف الآخر. فأي طرف يُفضله الإنسان إذا كان له حق الاختيار؟ بالطبع لا هذا ولا ذاك.. طبعا إذا كان لديه ذرة من عقل أو حكمة. أو.. لعل الاختيار الوحيد والحكيم هو.. أن لا يكون.

ونرى أنه من المناسب هنا أن نشير إلى أن النظام الهندوسي لعقيدة تناسخ الأرواح يعطي أيضا خيارا ثالثا، ولكن للقلة النادرة التي لا قيمة عددية لها.. كالقلة من البشر الذين يعيشون حياتهم في كمال تام، كما يفعل الريشي الأربعة القدماء مثلا، فإن أرواحهم لا تتناسخ على الفور، وإنما هناك فترة طويلة من الراحة لأرواحهم. وهذا هو المنظور الهندوسي للنيرفانا، ولكن هذه المرحلة من الراحة.. حتى ولو استمرت لملايين السنين.. فلا بد لها أن تنتهي، وفي النهاية.. بعد ما تتمتع هذه الأرواح بفردوسها خلال مرحلة النيرفانا، لا بد لها من الرجوع مرة أخرى إلى الأرض للاشتراك في عملية تناسخ الأرواح.

ولكن.. لعل هذه الدراسة للميثولوجيا الهندوسية قد تشعبت إلى حد

كبير، ولعل من حق علماء الدين الهندوس أن يفصلوا بين ديانتهم وبين متطلبات العقل، كما فعل الكثير من أتباع بعض الديانات الأخرى. وفي هذه الحالة، وبالرغم من كل ما تم برهنته تبيانا لعكس ذلك، فإن هؤلاء العلماء لا يزالون يصرون على أنه.. بشكل ما.. هناك ميزان يزن الله به أعمال الأنواع المختلفة من الحيوانات، وأنهم جميعا يخضعون لنظام غير مرئي من الكارما.

فهم يرون أن كل فرد حي من بين جميع الأحياء سوف يُحاسب حسب نوع الكارما الخاص به، فإذا أساء السلوك واحد من البشر أثناء حياته، فإنه سوف يتناسخ في زيارته التالية للأرض إلى واحد من الحيوانات، التي هي أقل درجة من البشر. وبالمثل.. فإن الحيوان الذي يحسن السلوك يمكن أن يترقى إلى بشر في التناسخ التالي لروحه. فالكلب مثلا الذي يحسن السلوك.. قد يولد في بيت سيده السابق بل وفي شخص سيده أيضا، بينما يمكن لسيده الذي كان سيئ السلوك أن يولد مرة أخرى في صورة كلب للسيد الجديد من البشر (أي الكلب سابقا).

ويبدو أن هذه الفلسفة لها جانبها المنطقي. وبالرغم أن الإله يبدو فيها كالدكتاتور المطلق، فليس من حقه أن يُخضع الروح الحرة التي لم يخلقها من العدم، ويُخضع كذلك المادة الحرة التي لم يخلقها أيضا من العدم، فيجعلهما في سلسلة مستديمة لا نهائية من العبودية، ومع هذا فإنه يفعل ذلك على أساس نظام من العدل! فإنه يجمع بين الروح والمادة دائما، كحسن جزاء أو سوء عقاب، حسب الكارما التي تخص الشخص في سياحته السابقة على الأرض. وأيضا.. كما سبق ذكره.. هناك فرصة، مهما كانت صغيرة، أن تصل روحه إلى حالة النيرفانا، التي تُعتبر خلاصا مؤقتا من السجن المادي. وعلى ذلك فإن ما نبغضه باعتباره الموت.. قد يكون في حقيقة الأمر نعمة عظيمة تحرر الروح من ربقة الجسد.. شريكها المادي. وكم من الزمن يتمتع الشريكان المنفصلان بحريتهما وخلاصهما

من هذه الشراكة المفروضة عليهما، هو سؤال سوف تتقرر إجابته حسب سلوكهما أثناء علاقة التزاوج التي كانت تربط بينهما على الأرض. فإذا أحسنا السلوك، وكان الجسد المادي يعتني بمتطلبات الروح.. بينما تهتم الروح بمقتضيات الجسد المادي، فسوف تطول الفترة التي ينفصلان فيها بعضهما عن بعض، وينعم كل منهما بحريته. وهما لا يختلفان في هذا عن علاقة الزوج وزوجته. فإن أكثر الأزواج نبلا هما اللذان يقضيان حياتهما في مودة ورحمة، وتربط بينهما المحبة والوفاء، ولهذا فإنهما ينالان أعلى درجات النيرفانا. وهذا يعني أن أرواحهما لن تنفصلا فقط عن جسديهما.. بل إنهما سوف يفترقان لمدة تتطاول لتقترب من الأزلية. وأما الزوجان الخاطئان اللذان يرتكبان الفواحش، فهما قد يعودان إلى الأرض سريعا مرة أخرى وفي فترة قصيرة بعد أن يموت كل منهما، فيعودان لكي يشتركا مرة أخرى في صحبة تحكمها الفواحش والمتع الجنسية. فيا للهول! أي جحيم هذه التي تكون على الأرض وأي فردوس هذا الذي يكون في السماء!

قد تبدو الفلسفة الهندوسية للحياة والموت والخلود خالية من أي عقل أو منطق في نظر العالِم الأكاديمي، ومع ذلك فلا يمكن إنكار أن هذه الفلسفة لها سحر خاص يجعل الكثيرين من الناس.. رجالا ونساء.. يعتنقونها، حتى في هذا العصر الحديث، بغير أن يعطوا أية أهمية لما يشوبها من نقص في المعقولية والمنطقية. ولعل أشد عوامل الجذب إلى هذه العقيدة هو الأمل في العودة مرة أخرى إلى هذه الحياة التعيسة وإلى هذا العالم البائس. إن الإنسان هو أكثر الألغاز غرابة.. إنه يشتكي مر الشكوى طوال عمره من ويلات الحياة، آملا أن يضع الموت نهاية لها، ومع ذلك فإنه يشتاق أن يعود مرة أخرى إلى نفس الزنزانة التي كان يرجو الخروج منها.

إن سجن الحياة وقيود الألم هما في الحقيقة مسميان لشيء واحد، فكيف يمكن النجاة من قيود الألم بغير الموت؟ ومع هذا فإن الإنسان

يشتاق دائما إلى القيام بعدد غير محدود من الزيارات لهذا المقام التعيس. ومن الواضح أن سحر هذه الفلسفة يكمن في حب الحياة المطبوع في نسيج كل كائن حي.

ومع هذا فإن أولئك الذين شغفهم الوعد بغد آخر.. عليهم أن لا ينسوا أن المجتمع الإنساني ككل قد تدهور بدرجة كبيرة في المجال الأخلاقي والسلوك الديني. وبالتالي فإن أولئك الذين يحلمون بالعودة إلى الحياة الإنسانية ليولدوا بشرا مرة أخرى، فسوف تظل أحلامهم مجرد أحلام من المستبعد أن تتحقق. فإذا كانت فلسفة الكارما، حسب ما يقوله الفيدا فلسفة صحيحة، يكون من الأكثر احتمالا أن الغالبية العظمى من البشر اليوم سوف تُعاد ولادهم غدا كقرود وخنازير برية وتماسيح أو دود. فأن يعود المرء مرة أخرى إلى الحياة قد يكون أمرا جيدا، ولكن هل تستحق هذه المخاطرة دفع مثل هذا الثمن الفادح؟

وعودة مرة أخرى إلى موضوع الريشي الأربعة، الذين تلقوا الفيدا.. فإذا قبل الإنسانُ الإطارَ الزمني الذي يُقال إنهم جاءوا فيه، فلا بد أنهم قد ولدوا منذ دهور بعيدة قبل أن تبدأ الحياة على الأرض، في عصر كان الغلاف الجوي للأرض خاليا من الأكسجين. ويظل السؤال الحائر هو: أي كارما سبقت ترقي هؤلاء الأربعة إلى مقام الريشي؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يعيش في جو خال من الأكسجين جيلا بعد جيل، وما الذي كان يتغذى عليه هؤلاء.. هو أيضا من الأسئلة الحائرة التي تستلزم الإجابة. إن كل ما كان يعكر صفو الهواء والمحيطات في ذلك الوقت هو أشكال فطرية من الفيروسات والبكتريا. فإما أن ذلك الجيل الأول من أولئك الرجال الصالحين كان يعيش على هذا الطعام، أو أن الحياة الإنسانية لم تبدأ على الأرض بالرجال الصالحين وإنما بدأت بالفيروسات الصالحة والبكتريا الفاضلة. وإذا كانت حسابات الزمن المتعلقة بظهور الريشي الأربعة أو أي رجال صالحين على الأرض ليست صحيحة، إن لم يكن ظهورهم في وقت

مبكر كما يظن بعض البانديت الهندوس، فإن بداية الحياة على الأرض وبداية الفيدا لا بد وأن تكون قد حدثت في وقت متأخر جدا. وبالطبع فإن ظهور الحياة لا يمكن أن يكون قد تم قبل أن تتكون مجموعة جزر التبت. وفي الواقع.. إن شبه القارة الهندية كلها قد تكونت في الشكل الذي نراه اليوم منذ حوالي ما يقرب من عشرين إلى أربعين مليون عام. ورغم أن الهند قد تكونت في شكل شبه قارة منذ ما يقرب من مائة وستين مليون عام إلا أنه كان عليها أن تبدأ عملية الاندماج مع القارة الآسيوية. وهذا الاندماج في الواقع هو المسؤول عن تكون وظهور جبال الهملايا والجبال العظمى الأخرى بما فيها جزر التبت. ولا يهم كثيرا متى.. على وجه الدقة.. بدأ تكوين التبت في إطار هذا السلّم الزمني، فإن دليل الحفريات يؤكد بما لا يدع أي مجال للشك في أن الحياة قد بدأت منذ حوالي ثمان مائة مليون عام قبل تكوين شبه القارة الهندية. وأيا كانت هوية أولئك الذين جلسوا على قمة هضبة التبت، فهم حتما لم يكونوا من الجنس البشري، لأن البشر بدأ ظهورهم على وجه الأرض في وقت أكثر تأخرا من ذلك. وفي ذاك الوقت كانت الديناصورات هي أكثر أشكال الحياة تقدما. وبالطبع لا يمكن للمرء أن يتصور ريشي من الديناصورات مهما بلغت درجة خياله. وبالتالي إذا أخذنا بحرفية تعاليم الفيدا بما أصابها من تحريف كما نجدها اليوم، فإن الريشي وأصحابهم الصالحين لا بد أن يكونوا قد هبطوا على الأرض من بعض الكواكب الغريبة. ولكن هذا الحل، إذا جاز أن يُسمى حلا، سوف يخلق مشكلة أخرى أشد تعقيدا وأكثر سخافة، إذ من المحتم أن لا تكون قصة الكارما قد بدأت بالريشي الأربعة وإنما بأشكال غريبة سحرية متباينة من الحياة انبثقت وتطورت عن الخلايا الحية الأولى على الأرض منذ ألف مليون عام.

إن التقييم العادل يُبين بوضوح أن عقائد الكارما وتناسخ الأرواح هي من نتاج عصور الانحطاط والتدهور التي ألمت بالفلسفة الهندوسية.

ولا بد أن هذا التدهور قد حدث عندما حاول الكهنوت الهندوسي إيجاد حلول فلسفية لمشكلة الحياة والموت، والثواب والعقاب، معتمدين في ذلك على أفكارهم واستنتاجاتهم، بغير أن تكون لديهم هداية سماوية. ومع هذا فإن الإنسان لا يزال يلمح آثارا من الوحي الإلهي في الفيدا. أما الجهالات التي نجدها اليوم في الفيدا فلا بد أن تكون نتيجة الإضافات التي أدخلتها اليد الإنسانية على الفيدا.

وقبل أن ننتهي من هذا البحث.. نود أن نبحث طبيعة اليوجا، ونتفهم مكانها في الإطار المعقد للفلسفة الهندوسية. واليوجا على درجة من الأهمية بالنسبة للموضوع الرئيسي. فقد انتشر بين الناس أنه من خلال التأمل والتفكير العميق.. يستطيع اليوجي (الذي يمارس اليوجا) أن يصل إلى ينبوع المعرفة والحقيقة الموجود داخل كيانه. غير إنه من الصعب تحديد ما إذا كان نظام اليوجا في الأصل هندوسيا أو بوذيا. إن اليوجا لا تعدو سوى أن تكون وسيلة للمعرفة.. ولكن لم يحدث بتاتا للورد كرشنا أن استعملها.

غير أن هذا ليس كل ما يختص باليوجا.. إذ بالإضافة إلى قيمتها كوسيلة تأملية، فإن اليوجا تُعتبر أيضا علما متطورا من علوم الطبيعة التي تحاول استثمار القوى الكامنة في الجسد الإنساني إلى أقصى درجة. وقد أمكن القيام بأعمال تُعتبر من المعجزات بواسطة استخدام اليوجا. ويُقال إنه يمكن للمرء من خلال ممارسة اليوجا أن يصل إلى حالة من شبه توقف للحياة، كما يحدث لبعض الحيوانات في بياتها الشتوي حين تكاد تتوقف فيها كل عمليات التمثيل الحية، وتبقى الحياة معلقة بخيط رفيع. ويُقال إن بعض ممارسي اليوجا الذين برعوا في هذا الفن استطاعوا أن يعيشوا لأيام وهم مغمورون تحت سطح المياه. وتحكي بعض الحكايات أنه أمكن للبعض أن يحلل جسمه إلى جزئيات في مكان ما ثم يعود إلى التكون مرة أخرى في مكان آخر، ويا لها من مبالغات!

غير أن بعض القوى التي أمكن بالفعل تنميتها بواسطة تمارين اليوجا

لا يمكن إنكارها أو اعتبارها مجرد مبالغات. فمثلا.. بعض ممارسي اليوجا استطاع أن يحبس أنفاسه لمدة طويلة، حتى إن الإنسان العادي يتعرض للموت عدة مرات خلالها. فاليوجا هي نوع من التدريب الذي يساعد على تحسين وتطوير القوى الجسدية لتصل إلى أقصى طاقاتها. وتُعتبر اليوجا أيضا علاجا ممتازا لتخفيف التوترات العصبية والنفسية.

لقد بحثنا باختصار قدرات اليوجا على تحسين الإمكانات الموجودة في الجسد البشري، وتطوير القوى الكامنة فيه والتي قد تظل خاملة بغيرها. ونفس هذه الأمور يمكن أيضا تحقيقها روحيا بإخضاع الحياة لأسلوب معيشي منظم وسلوك حياتي متوافق مع المبادئ الأخلاقية. والآن نحن نبحث هذه الإمكانات التي يُقال أن نظام اليوجا يحققها لأن ممارسي اليوجا يدّعون بأنه يمكن لهم الوصول إلى ينبوع الحقيقة الكامن في نفوسهم، من خلال عملية التأمل والتدريبات الجسدية والروحية التي يقومون بها. فما هو مبلغ نصيبهم من الخطأ أو الصواب؟ إنها مسألة رأي. فإن لم تُكتَشف تلك الحقيقة الكامنة باستعمال تدريبات اليوجا، وتُقدم إلى العالم ليجد فيها الحل لمشاكل الإنسانية، فلا يحق لأحد أن يقبل أو يرفض ما يدعيه ممارسو اليوجا. ويكون أقصى ما يمكن الإقرار به في الموضوع هو أن اليوجا وسيلة ممتازة للتدريب.. وحسب.

المراجـــــع

1. VERMAN, J. (1992) *The Vedas.* Oxford & IBH Publishing Co. PVT. LTD. New Delhi, p. 6
2. VERMAN, J. (1992) *The Vedas.* Oxford & IBH Publishing Co. PVT. LTD. New Delhi, p. 4
3. VERMAN, J. (1992) *The Vedas.* Oxford & IBH Publishing Co. PVT. LTD. New Delhi, p. 24

الفصل الثاني

البــــــوذية

إن الانطباع السائد في العالم عن البوذية هو أنها فلسفة في الحياة، ورغم كونها معدودة بين الأديان الكبرى، إلا أنها لا تقول بوجود الله تعالى. وهذا الانطباع ليس بصحيح تماما، فإنه من الخطأ القول بأنه لا يوجد من بين البوذيين، حتى من بين البوذيين المعاصرين، من يؤمن بالله أو يؤمن بآلهة. ورغم أن الفِرَق البوذية المشهورة اليوم مثل الماهايان (*Mahayans*) والثرافادين (*Theravadins*) تؤمن فقط بالحكمة العظمى الكامنة في الإنسان، والتي صقلها بوذا عليه السلام وبلغ بها حد الكمال، إلا أنهم يؤمنون أيضا بخرافات كثيرة، وببعض الأرواح التي صار الإيمان بها بديلا عن الإيمان بالله. والانطباع الشائع بأن البوذيين يلغون وجود الله ليس بصحيح من زاوية أخرى أيضا. فإن بحث المصادر البوذية الأولى تكشف، كما سوف نُبين، الكثير من الأدلة على أن البوذية بدأت كأية ديانة سماوية تؤكد على أهمية الإيمان بوحدانية الله تعالى.



بوذا.. كما تقدمه البوذية

أما عن مكانة بوذا (٥٦٣-٤٨٣ قبل الميلاد) بين البوذيين، فبالرغم من أنه لا يُعبد مباشرة كإله، فإنه ليس من فرق كبير بين التوقير والتقديس الذي يقوم به البوذيين تجاه بوذا وأسلوب عبادة الله الموجود في الأديان الأخرى. إنهم يوقرونه ويبدون له آيات الطاعة والولاء، وينحنون

أمام صوره وتماثيله، ويسجدون أمامها تماما كما يفعل أتباع الأديان الوثنية في العالم.

وفي الواقع.. رغم إنكار الله من جانب الكثير من البوذيين، فإنه يبدو أنهم في أعماق قلوبهم تكمن رغبة في عبادة شيء ما، وهذه الرغبة الكامنة هي التي تظهر في أسلوب تقديسهم لبوذا. ونفس ذلك الشعور المنغرس في فطرة الإنسان لعبادة الله هو الذي يدفع البوذيين إلى عبادة بوذا، أو عبادة شيء ما، إن لم يكن هو الله تعالى. ولذلك فإن البوذيين في الواقع يعبدون بوذا.. ولكن بغير أن يعترفوا بألوهيته.

ولا بد أن نذكر هنا أنه في صيغة البوذية المنتشرة في التبت.. لا يُعتبر الإيمان بوجود آلهة علوية أو أرواح فوق الطبيعة البشرية.. جزءا لا يتجزأ من الإيمان لديهم فحسب، بل إنهم يؤمنون أيضا بإمكانية الاتصال بتلك الأرواح والتخاطب معها. فإن عملية اختيار بانتشن لاما (Panchen Lama) مثلا تتطلب القيام بالعديد من الطقوس والشعائر لتلقّي الهداية من الآلهة عمّن يكون هو بانتشن لاما في المستقبل من بين المواليد الجدد في التبت.

وكثيرا ما يُزعم أن بوذا نفسه كان ينكر وجود الله، كما يعتقد أصحاب المذاهب البوذية الملحدة. وهم يؤيدون ادعاءهم بالإشارة إلى العداء الذي يُظهره البانديت الهندوس المعاصرون تجاه بوذا، ويقولون إن هذا العداء بسبب الاحتقار الذي كان بوذا يُبديه لآلهتهم. ولا يهتم البوذيون كثيرا بتحليل الأسباب ولا العوامل التي أدت إلى سوء الفهم الذي أدّى إلى اضطهاد بوذا، بل يكتفون بالظن أن بوذا لا بد أن يكون قد رفض فكرة وجود الله كلية.

ولكن.. كما سوف نبين ونثبت بإعادة فحص بعض الحقائق من التاريخ، وبعض الأجزاء الهامة من الكتابات البوذية المقدسة، كان بوذا عليه السلام بريئا تماما من مثل هذه التهم. إلا أننا قبل كل شيء لا بد أن نقول

أيضا إن الدلائل التاريخية التي يقبلها أصحاب كل من الرأيين قليلة للغاية. غير أن هذه الصعوبة يمكن مجابهتها إلى حد كبير بالاعتماد على الأدلة الاستنتاجية.

إن الفلسفة البوذية وتعاليمها وشعائرها ظلت تنتقل مشافهة من جيل إلى جيل لمدة خمسمائة عام من بعد بوذا، سوى ما تم تسجيله على الصخور والبنايات الدينية المقببة التي صُنعت خلال فترة الحكم العظيمة التي حكم فيها آشوكا (Ashoka) بين ٢٧٣-٢٣٢ ق.م. ويجب أن نتذكر أن آشوكا قد ظهر بعد سيده الروحي بوذا بما يقرب من ثلاثمائة عام. وهذه الحقيقة في حد ذاتها على جانب كبير من الأهمية، لأن هذه الكتابات يمكن يقينا أن تكفي للحكم على فلسفة بوذا وأسلوب الحياة من وجهة نظر آشوكا. وبالإضافة.. ففي الوقت الذي لم يوجد فيه أي شيء مكتوب عن البوذية، كان آشوكا وحده هو الذي ترك وراءه قدرا من الكتابات عما ظنه من تعاليم بوذا. وأيضا يجب أن نأخذ في الاعتبار أن أحدا لم يشك بتاتا في مصداقيته، ولم ينازعه فيها أحد. وعلى ذلك.. يكون ما يتبقى بعد هذا لهو بكل بساطة مجرد تفاسير مختلفة.

وفيما يتعلق بقصة بوذا.. فرغم أنها أيضا لم تُسجل كتابة إلا بعد مرور عدة قرون بعد وفاته، إلا أن جميع الباحثين يُجمعون على قبولها بغير خلاف يُذكر، إذ يبدو أن هذه المعلومات قد انتقلت من جيل إلى جيل. وعلى ذلك فإن شخصية بوذا وأسلوب حياته يبدو أن لها استمرارية.. بدأت ببوذا نفسه واستمرت حتى زمننا الحالي.

ومن هذا يكون من المنطقي استنتاج أن فهم بوذا والبوذية الذي يتفق مع هذين المصدرين.. أي حياة بوذا والكتابات على البنايات المقدسة البوذية.. هو الفهم الذي يكون أكثر قبولا. وفي المقابل من هذا.. يمكن القول برفض وجهات النظر التي تتناقض مع هذين المصدرين. غير أنه إذا تبين وجود بعض التناقضات في المصادر القديمة، فيجب أن نكون على

حذر شديد عند قبول وجهة نظر معينة ورفض أخرى.

وعند البحث الدقيق في الحياة الذاتية لبوذا يتبين أنه لم يكن يختلف عن أنبياء الله الآخرين الذين ظهروا في أماكن متفرقة من العالم. فهناك نوع من التجانس والتماثل بين شخصية وصفات الأنبياء وأسلوب حياتهم، ويمكن أن نلمح نفس تلك الصفات أيضا في حياة بوذا.

وحين نأتي إلى موضوع العقائد الأساسية للبوذية تبدأ المشاكل في الظهور بسبب التفسيرات المتباينة لما يُظن أنه قيل أو وقع. ونحن لا نتفق مع الاعتقاد الشائع أن بوذا كان ملحدا. فإننا نعتقد أن البوذية هي دين من وحي الله تعالى، لذلك فإننا نؤكد على أن مؤسس البوذية لم يكن ملحدا على الإطلاق، ولكنه كان رجلا اختاره الله تعالى بنفسه لتبليغ رسالته سبحانه إلى الناس، وأن الله تعالى اختاره بنفس الأسلوب الذي اختار به ﷻ الأنبياء الآخرين.

وقد جانب التوفيق معظم العلماء الذين كتبوا عن البوذية حين تجنبوا البحث العميق عند محاولتهم لتبرير وضع البوذية بين الأديان العظمى في العالم، إذ أنهم اضطروا إلى تغيير القاعدة العامة المتفق عليها لتعريف الدين حتى يمكن لهم أن يُدرجوا تحت هذا التعريف الأديانَ والفلسفات التي لا تؤمن بوجود الله. ويكون السؤال الملح هو: لو كانت البوذية بالفعل تنكر وجود الله وهي ليست سوى أسلوب معين في الحياة، فلماذا يوضع هذا الأسلوب الحياتي الذي يبدأ بإنكار الله ضمن مجموعة الأديان التي تؤمن بوجود الله؟ أما فيما يتعلق برأينا في الموضوع فإن مثل هذا التساؤل ليس له مكان على الإطلاق، فإننا نرفض أن تكون البوذية مجرد فلسفة وألا تكون من الله تعالى. ولتأييد ما نقول.. فإننا سوف نعتمد على نفس المصادر المعتمدة لدى البوذيين أنفسهم، والمقبولة لديهم، وسوف نبرهن على أن التفسير الذي نأخذ به هو الأولى بالقبول، لأنه يقوم على أساس صحيح ومتين. ونحن نكرر بأن البوذية ليست نشازا بين الأديان، بل على

العكس.. إن الملامح الأساسية التي تتصف بها.. على اتفاق تام مع بقية الأديان السماوية.

أما الاعتقاد الخاطئ باعتبار البوذية فلسفة إلحادية في أصولها، فيرجع إلى علماء الغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وهم الذين استقوا معلوماتهم عن البوذية عن طريق الترجمات للكتابات البوذية من لغة بالي (Pali) التي قام بها علماء بوذيون سمحوا لأفكارهم الفلسفية الملحدة وتعصباتهم الخاصة أن تؤثر على ترجماتهم. والقليل منهم كان يعرف لغة بالي، وهي لغة المواد الأصلية التي ترجموها. وبالإضافة.. بدلا من أن يستخلص العلماء الغربيون استنتاجاتهم مباشرة من دراسة المصادر البوذية المعتمدة، اعتمدوا على المعتقدات البوذية المنتشرة بين المذاهب البوذية الكبرى.

وعلى عكس هذا الاتجاه السائد بين العلماء الغربيين، انطلق صوت منفرد في الهند كان صوت حضرة مرزا غلام أحمد من قاديان (١٨٣٥-١٩٠٨)، الذي قدم وجهة نظر مخالفة على طول الخط. فقد كان يرى أن بوذا ﵇ كان يؤمن إيمانا راسخا بوجود الله تعالى، وأنه سبحانه هو بنفسه الذي أقامه رسولا له برسالة معينة ليؤديها. وقد أوضح أن بوذا، كغيره من الأنبياء، كان يؤمن بوجود الشيطان وكان يؤمن أيضا بالجنة وبجهنم وبالملائكة وبيوم البعث. وعلى ذلك فإن الادعاء بأن بوذا لم يكن يؤمن بوجود الله ليس إلا من نسج الخيال. لقد رفض بوذا أن يقبل عقائد الفيدانتا *Vedanta* (أي العقائد والتعاليم الموجودة في الكتب المقدسة الهندوسية، الفيدا) ورفض التجلي الجسدي للآلهة كما في الهندوسية. وكان ينتقد براهما بشدة، ويعتبر أنهم هم الذين أفسدوا تعاليمهم السماوية من خلال تفسيراتهم الفاسدة.

وكان من المقدر لصوت حضرة مرزا غلام أحمد ألا يبقى وحيدا لزمن طويل، إذ لم يلبث أن تبعته أصوات عديدة من بين الجيل الثاني

للعلماء الغربيين، والباحثين الذين تخصصوا في دراسة البوذية. وكان أكثر هؤلاء شهرة هو العالم الفرنسي الكبير الدكتور غوستاف لو بون (Dr. Gustav Le Bon 1841-1931) الذي كتب قائلا:

"مما يؤسف له أن العلماء الأوربيين قد أهملوا تماما دراسة الآثار الهندية. إن المتخصصين في الدراسات الهندية الذين علمنا منهم عن البوذية، لم يحدث لهم أبدا أن زاروا الهند. إنهم درسوا هذه الديانة من الكتب فقط، ومن سوء الحظ أن ألقت الصدف إليهم ببعض الكتب الخاصة ببعض المذاهب الفلسفية، تم تدوينها بعد خمسة أو ستة قرون من بعد وفاة بوذا، وكانت تلك الكتب غريبة تماما عن الديانة المتبعة في الواقع. إن التأملات الفكرية الميتافيزيقية التي أدهشت الأوربيين بمدى عمقها لم تكن في الواقع شيئا جديدا. فمنذ أن تم دراسة كتب الهند بشكل أفضل، تبين أنها موجودة في كتابات الفرق الفلسفية التي تكونت خلال العهد البراهمي". [١]

ويبدو أن الدكتور لو بون كان على حق تماما في نقده حتى الآن، ولكن كما يبدو من المقطع التالي، فإنه نفسه ارتكب نفس الخطأ ولم يستق عقائد البوذية الحقيقية كما هي موجودة ومدونة في الرقائق – وهي التي لم تذكر بتاتا أن البوذية كانت وثنية. يقول الدكتور لو بون:

"إنه ليس في الكتب، ولكن في الآثار التي يجب أن يدرسها المرء ليعرف كيف كانت البوذية. فمن الغريب حقا أن ما تقوله الآثار يختلف تماما عما تخبرنا به بعض الكتب. إن الآثار تبرهن على أن هذه الديانة التي يريد علماء العصر الحديث تصويرها على أنها طقوس إلحادية.. كانت على النقيض من ذلك ديانة من أكثر الديانات إيمانا بتعدد الآلهة" *. [٢]

إن الجملة الأخيرة في هذا المقطع هي التي جانبت الصواب كما سوف نبين حاليا.

---

* كل من هذين الاقتباسين من الكتاب الأصلي للدكتور لو بون قد تمت ترجمته بأمانة من اللغة الفرنسية. منه

بعد الدكتور لو بون جاء عالم مشهور آخر اسمه آرثر للي Arthur) (Lillie استطاع أن يخرج باستنتاج مختلف تماما، نتيجة للدراسة المتفحصة التي قام بها للمخطوطات على رقائق آشوكا. وقد استشهد بالكثير منها في كتابه: *India in Primitive Christianity*. ولا يغيبن عن البال أن هذه المخطوطات لم تكن مطبوعة فقط على الرقائق التي جُهزت خصيصا لهذا الغرض، وإنما تم اكتشاف هذه المخطوطات محفورة على صخور ضخمة أيضا، موجودة على الطرق الرئيسة، وأيضا على الطرق التي يسلكها التجار. ونقدم فيما يلي مثالين من هذه المخطوطات، من الترجمة التي قام بها الدكتور للي.

على الضفة الشرقية من نهر كاتاك Katak وعلى مسافة عشرين ميلا من جَغَنْ ناث Jagan Nath توجد صخرة ضخمة تُسمى باردولي Pardohli كُتب عليها:

"إن الرغبة الشديدة في نوال أمور الدنيا معصية. وأعلن مرة أخرى أن الطموح الدؤوب لأمير في فرض سيطرته لا يقل معصية، وهو موضع سخط السماء مهما سعى لاسترضاء السماء. اعترِفْ وآمنْ بالله (إسعانا Is'ana) الذي يستحق أن يُطاع. وإني أعلن لكم أنكم لن تجدوا وسيلة أخرى تساوي هذا (المعتقد) لاسترضاء السماء. جاهدوا لتحصلوا على هذا الكنْز الذي لا يمكن تقدير قيمته".[٣]

إن لفظ "إسعانا" المذكور في هذا المخطوط هو اسم شيفدفتا ShivDevta أي الله تعالى (انظر القاموس السينسكريتي/الإنجليزي لشيفرام آبت Shivram Apte).

وعلى الرقيقة السابعة يقول نفس الكاتب:

"هكذا تحدث دفانامبيا بياداسي Devanampia Piyadasi: ''ومن ثم ابتداء من هذه الساعة قمت بتبليغ ونشر أحاديث دينية كثيرة، وعينت ملاحظين في أمور الدين الذين إذا استمع لهم الناس فإنهم يهتدون إلى

الطريق الصحيح ويقدسون الإله* إسعانا‘‘".[٤]

ويتضح بجلاء من هذه المقتبسات أن المصادر القديمة تُصَور بوذا على أنه إنسان مؤمن أوقف نفسه لتقديس الله تعالى (رحمه الله ورضي عنه).

المصدر الثاني في درجة المصداقية هو الكتابات البوذية التي تم تدوينها بعد مرور خمسمائة عام بعد بوذا. وهذا أيضا يحتوي على الكثير من الأدلة على أن بوذا لم يكن ملحدا ولا زنديقا، ولكنه كان في الحقيقة مؤمنا مخلصا بالله تعالى. ونحن نشير بالتحديد إلى مخطوطات ثرافادا *Theravada* المعروفة باسم تريبيتاكا *Tripitaka* (أي السلال الثلاث)، التي.. كما يشير الاسم.. تنقسم إلى ثلاثة أجزاء، اسم الجزء الأول منها: فينايا- بيتاكا *Vinaya-Pitaka* (أي قواعد السلوك)، ويسمى الجزء الثاني سوتا-بيتاكا *Sutta-Pitaka* (أي محاورات عن الحقيقة)، والجزء الثالث يسمى أبهيضاما-بيتاكا *Abhidhamma-Pitaka* (أي تحليل الدين).

وفي "سوتا نيبتا" يوجد فصل يسمى: الفصل عن الذهاب إلى الشاطئ البعيدْ، وفيه شرح عن هدف التغلب على الموت. ويقول بوذا إن المولد والممات لا يعنيان شيئا لهؤلاء الذين استطاعوا أن يتغلبوا على أنفسهم وذواتهم، وبذلك يكونون في وحدة مع الله. ومن الممكن إساءة فهم هذه العبارات ويختلط فيها الفهم بالعقيدة البراهمية "موكتي *Mukti*" أي الخلاص، ولكن هذا غير صحيح.. فإن بوذا يتحدث هنا بوضوح عن هؤلاء فقط الذين تم لهم العبور إلى الجانب الآخر من الحاجز، هنا على الأرض.. وفي هذه الحياة.. قبل موتهم. وهذا يعني ببساطة أن رأيه هو أن أحدا لا يستطيع أن ينال الحياة الأخرى ما لم يختبرها ويجربها أثناء حياته هنا على الأرض، وهذا تعليم يشابه التعليم القرآني. وهكذا كان بوذا يعظ الناس بأن من تتوحد إرادته مع إرادة الله تعالى، فإنه يسمو فوق الحياة، وفوق الموت، وينال الأبدية.

---

* إن استعمال كلمة الإله في صيغة المفرد له دلالة هامة. منه

وفي نهاية الفصل يتحدث بينجيا Pingiya وهو أحد أتباع بوذا، واصفا عظمة سيده الذي كان وسيلة وسببا لاعتناقه البوذية. وذلك بعد أن شرح كيف أنه قد بلغ به العمر عتيا.. وصار على عتبات الموت. ختم بينجيبا حديثه بالعبارة التالية:

"وبكل تأكيد فإني سوف أذهب إلى من لا يتزعزع ولا يهتز، من لا كُفُوَ له في أي مكان. إنني على يقين من هذا حتى ولو اعتبرتموني رجلا فقد عقله".[٦]

وهذا يوضح الأمل والتوقع لدى أحد تلاميذ بوذا، أنه بعد موته سوف يلاقي ربه، الذي وصفه بأنه صمد لا يتزعزع ولا يهتز وليس له من كفو أحدٌ. ومن الواضح أن هذا الوصف يتفق أيضا مع وصف الله الذي جاء في الكتب المقدسة الأخرى.

وهناك أمر آخر مثير للاهتمام، ويلقي ضوءا أكثر وضوحا على معتقدات بوذا، وهو موجود في سوتا-بيتاكا، وهو الجزء الثاني من مخطوطات تريبيكاتا المقسمة في خمسة كتب تحتوي على الكثير من محاورات بوذا. والسيدة ت.و. رايز دافيدس ***Mrs. T.W. Rhys Davids*** رئيس جمعية مخطوطات لغة البالي قامت بترجمة بعض هذه المحاورات إلى اللغة الإنجليزية، وهناك سلسلة من الكتب تحتوي على هذه الترجمات تسمى: كتب البوذيين المقدسة ***Sacred Books of the Buddhists***. وفي المحاورة رقم ١٣ من الجزء الثاني بعنوان تيفيجا سوتا ***Tevigga Sutta*** ما يتعلق على وجه الخصوص بموضوع كيف يمكن للإنسان أن يهتدي إلى الله.

وعند الإجابة على هذا السؤال نجد أن بوذا قد استبعد أولا أن أحدا من رجال الدين الهندوسي في زمنه كان يصلح لهداية الإنسان إلى الله تعالى، ثم بدأ يجيب على السؤال كما يفهمه هو. وإنه من المثير حقا معرفة خلفية الزمان والمكان اللّذين حدثت فيهما هذه المحاورة. إذ يُقال إنه

كانت هناك في الأزمنة الغابرة قرية للبراهمة تسمى ماناساكاتا *Manasâkata*. وكانت هذه القرية تقع في أجمل منطقة في البلاد بجوار نهر جميل. وقد ذاع صيت هذه القرية في كل مكان لأنها كانت مركزا للمذاهب المختلفة في الديانة البراهمانية. وكان خمسة من هؤلاء البراهمة بالذات على جانب كبير من العلم، وكانوا قادة للمدارس الفكرية التي تتبعهم. وقد حدث أن نزل بوذا أيضا عند ذلك النهر، وكان في معيّته بعض تلاميذه المقربين. وبدأت الأنباء تنتشر عن وصول بوذا، وبدأ الناس يأتون لزيارته حتى يستنيروا بأفكاره ويسمعوا عن البوذية من شفتيه.

ومرة كان اثنان من رجال القرية يتجولان بعد أن قاما بالاستحمام في النهر، وكان اسم أحدهما فاسيتها *Vâsettha* والآخر يسمى بارادفاغا *Bharadvaga*. وقد راحا يناقشان معا إحدى العقائد الدينية. ولم يستطع أي منهما أن يقنع الآخر بصحة وجهة نظر الجورو.. أي المعلم.. الذي يتبعه. واقترح فاسيتها.. وهو البراهمان الشاب.. أن يرفعا الأمر إلى ساحة بوذا. ولما اتفقا على هذا توجها لعرض الأمر على بوذا طلبا لرأيه الحكيم. وخلال الاجتماع.. ظل بارادفاغا البراهمان الشاب صامتا، بينما راح فاسيتها يوجه الأسئلة. وقبل أن يجيب بوذا على الأسئلة، وجه هو الآخر في المقابل بعض الأسئلة.

وسأل بوذا أولا: هل حدث أن أحدا من البراهمة المتمرسين في معرفة علوم الفيدا الثلاثة رأى "براهما" وجها لوجه؟ وكانت الإجابة: "لا". وحينئذ سأل بوذا فاسيتها: هل كان أحد من البراهمة أو تلاميذهم في الأجيال السبعة السابقة قد رأى براهما، وكانت الإجابة مرة أخرى: "لا". ثم سألهم بوذا: هل ادّعوا بأنفسهم أنهم رأوا براهما؟ فكانت الإجابة مرة أخرى: "لا". وحينئذ سأل بوذا فاسيتها: إذا كان رجل قد نشأ وتربى وعاش في قرية ماناساكاتا، ثم سُئل عن الطريق إلى ماناساكاتا، فهل يكون ذلك الرجل في شك أو يجد أية صعوبة في الإجابة على هذا السؤال؟

فأجاب فاسيتها:

"كلا بالتأكيد يا جوتاما. لماذا؟ إذا كان رجل قد وُلد ونشأ وعاش في ماناساكاتا، فلا بد أن كل طريق يؤدي إليها يكون معروفا تماما لديه".

وعند تلك النقطة استرسل بوذا قائلا:

"يا فاسيتها.. إن ذلك الرجل الذي وُلد وعاش في ماناساكاتا قد يصيبه الشك أو قد يجد صعوبة في الإجابة إذا سئل عن الطريق إليها، ولكن التثاجاتا *Tathâgata* (أي الشخص المستنير، يقصد نفسه) حينما يُسأل عن الطريق الذي يؤدي إلى عالم براهما فإنه لا ينتابه شك ولا يلقى أية صعوبة. يا فاسيتها.. إنني أعرف براهما جيدا وأعرف عالم براهما والطريق الذي يؤدي إليه. نعم.. إنني أعرفه تماما كمن دخل عالم براهما بل وولد في داخله".[٧]

كانت حجة بوذا أن القاطنين في قرية ماناساكاتا لا بد لهم من معرفة جميع الطرق المؤدية إليها، وكل من يدعي أنه من الله لا بد له من معرفة الطريق الذي يؤدي إليه سبحانه وتعالى، إذا كان بالفعل قد جاء من عند الله وكان يعرفه تمام المعرفة. ولكن الإجابات على الأسئلة المقابلة لبوذا تُبين بوضوح أن أحدا من الجورو لم يكن قد رأى الله ولا كانت له بالله صلة ولا أية معرفة خاصة، وبالتالي فإن هوية الله كانت بالكلية خارج نطاق مفاهيمهم. وحتى هذه النقطة من المحاورة.. فقد يُسيء البعض فهم وجهة نظر بوذا لتعني أن بوذا كان يعلن عدم وجود الله.. لأن أحدا لم يقابله ولم يره. وفي الواقع فإن المترجمة في مقدمتها قد ذكرت أن ما جاء بعد هذه المحاورة هو ما يلي:

"... إنها كانت محاورة افتراضية. إذا أردت أن تتحد مع براهما – الأمر الذي من الأفضل ألا تتمناه – فإن هذا هو الطريق الذي يوصلك إليه".[٨]

ولكن هذا التحليل للمحاورة يثبت الفشل الكامل من جانب المؤلفة لفهم ما كان يريد بوذا إثباته بكل يقين. وهذا يوضح كيف تأثر بعض الباحثين بمعتقدات الرهبان البوذيين الذين أساءوا دراسة الحملة البطولية

التي خاض بوذا غمارها ضد البراهمة من معاصريه. إن الذي كان يرفضه بوذا بكل شدة هو تفسيراتهم الخرافية ومعتقداتهم عن تعدد الآلهة الذين لم يروهم و لم يسمعوا شيئا منهم. غير أن إجابة بوذا لم تنته عند هذا الحد، بل راح يقول إنه بالنسبة لتثاجاتا (أي الشخص المستنير) لا توجد أية صعوبة في توضيح طريق الهداية الموصل إلى الله. ثم استمر في الحديث ليعلن أنه هو نفسه كان ذلك الشخص الذي يستطيع أن يهدي الإنسان إلى طريق الله، لأنه كان على صلة به عز وجل، وأنه جاء من لدنه.

ولا بد أنه قد صار من الواضح حتى الآن أن بوذا كان على إيمان بوجود الإله الأعظم، وأنه قد جاء من عنده. وكان يعرفه ﷻ أفضل مما كان يعرف سكان ماناساكاتا قريتهم التي عاشوا فيها والطرق المؤدية إليها. وهنا يؤكد بوذا لنفسه على حياة من الوصال الدائم بالله، وهي حالة أسمى في مقام القرب من الله عن مجرد تلقي الوحي منه. وقد أعلن الكثير من الأنبياء العظام أنهم بلغوا مثل هذا المقام، ونالوا الحياة الأبدية في جنب الله هنا على هذه الأرض، حتى من قبل أن ينقلهم الموت إلى حياة العالم الآخر. إنهم وجميع رسل الله تعالى يشتركون في هذا الوصال الأبدي بالله تعالى، و لم يكن بوذا استثناء من ذلك. وقد كان بوذا يستخدم لفظ براهما في الحديث عن الله تعالى، لأن هذا اللفظ هو الذي كان شائعا بين الهندوس، وهو الذي كانوا يستخدمونه في الحديث عن الإله الأعظم بين آلهتهم الأخرى. ومع استمرار المحاورة يصبح الموقف أكثر وضوحا:

"وعندما قال هذا، قال فاسيتها، البراهمان الشاب، للسيد المبارك:

هكذا قيل لي يا جوتاما أن سامانا جوتاما يعرف كيفية تحقيق الوصال ببراهما. حسنا! فليتفضل جوتاما المحترم ويبين لي كيفية تحقيق الوصال ببراهما، وليتفضل جوتاما المكرم بإنقاذ الجنس البراهماني".[٩]

حينما استمع بوذا إلى فاسيتها لم يستنكر دعوته ولا تمنياته بالنسبة لبراهما، و لم يعتبرها غير حقيقية وبلا معنى، مما يدل بجلاء على موافقته عما

قيل عن تحقيق التواصل ببراهما وصلته بمن يختارهم الله ﷻ.

وبالنسبة لمن يستجيب لدعوة الله تعالى، بصرف النظر عن جنسه، فإن الطريق إلى الله يُجعل سهلا له. وبالنسبة لمن يخشى الله، فإن جميع الأهواء الإنسانية من غضب وغيرة وتعصب وما إلى ذلك، لا تتمكن من الاستيلاء عليه. وحينما يتجاوزها المرء فإنه يستطيع أن يتخلق بالصفات الربانية ويكتسبها. إن هذه المحاورة بأكملها تستحق اهتماما خاصا من هؤلاء الذين يريدون أن يفهموا سلوك بوذا نحو الله تعالى.

وعلى هذا.. لماذا أساء أتباع بوذا فهمه؟ قد توجد الإجابة على هذا السؤال في تاريخ البوذية القديم، والنـــزاع الذي نشب بين الدين الجديد الذي أتى به بوذا، والدين القديم الذي كان يتبعه البراهمة الذين نسبوا إلى بوذا عقائدهم التي كانوا يؤمنون بها، وهو سلوك ليس بمستبعد من رجال الدين، أو لعلهم أساءوا فهمه ولكن ليس بنيّة سيئة. ومن الممكن أيضا أن تكون الحرب التي شنها بوذا على الوثنية التي كانت شائعة في ذلك الوقت بين البراهمة، قد أثارت غضبهم وعداوقم فاتهموه بإنكار وجود الله. ولا بد أن هذه الدعاية قامت بها الطبقة القوية من البراهمة ذوي النفوذ، فكانت أصواتهم من الشدة والقوة بحيث أغرقت في غمار تشويشها وعداوتها أصوات بوذا.

وعند الأخذ في الاعتبار ظروف الزمن من صعوبة الاتصال، وندرة إمكانات الكتابة والتدوين، فليس من المستبعد أبدا أن تكون هذه الدعاية قد وجدت آذانا صاغية.. ليس بين الهندوس فحسب، بل إنها أثرت أيضا على أتباع بوذا، إلى أن صار هؤلاء يعتقدون أيضا أن رفض بوذا واستنكاره للآلهة المتعددة لدى الهندوس.. هو رفض كامل لكل الآلهة بما فيهم الإله الأعظم. وهكذا جُعل استنكار جوتاما بوذا لآلهة البراهمة عاما وشاملا، مما جعل الكثيرين يقولون إنه لم يكن يؤمن بأي إله على الإطلاق.

أما فيما يتعلق بولاء هؤلاء الأتباع لبوذا، فقد استمر هذا الولاء بغير أن يتأثر. لقد قبل هؤلاء الأتباع معلمهم بوذا باعتباره أحكم حكماء زمانه، العطوف.. المحب.. الكريم. ونحن نتحدث هنا عن زمن كان التعليم فيه في أدنى وأحط دركاته، وكان عامة الناس يكتسبون معلوماتهم، ويتخذون قراراتهم، معتمدين على سماع الأقاويل والإشاعات والحكايات، فمن الممكن جدا أن يكون أتباع بوذا أنفسهم قد تأثروا بالدعايات التي رَوّجها البراهمة، ولكنها لم تؤثر كثيرا على مدى ولائهم له. إذ كان من الكافي لهم أن يكون بوذا هو المصدر الكامل للحكمة والمعرفة. ولهذا فقد كانوا يحترمونه ويبجلونه، واستمروا في اتّباعه من صميم قلوبهم، واعتباره معلمهم الحكيم المحبوب. ومع مرور الوقت.. وشيئا فشيئا وبلا شعور.. إذا بهذا الذي كان يُعتبر المعلم الملحد، ينال التوقير والتبجيل والإجلال كالإله نفسه.

إن هذا لم يحدث للمرة الأولى في تاريخ الأديان. فكم حدث للأنبياء والرسل أن اتخذهم الناس آلهة من دون الله، وكم من البشر نال من التبجيل والتعظيم ما لا يجوز إلا لله تعالى. وفي حالة بوذا أيضا.. ظل هو البؤرة التي تَرَكَّزَ فيها حبُّ الناس.. باعتباره المثال الإنساني الكامل، ولذلك لم يوضع في مقام آلهة الميثولوجيا. وكان مما يكفي الناس أن يضعوا البراهمة جميعا على جانب، ويضعوا بوذا على الجانب الآخر. فالبراهمة كانوا يعنون بالنسبة لهم آلهة الأساطير وقصص القدماء، بينما كان بوذا تجسيدا للحق والحكمة والعقل. وبالتدريج.. ومع مرور الوقت.. استخلصت البوذية لنفسها طابعا لا دور فيه للآلهة الأسطورية. ولإشباع الدافع الفطري في الإنسان للإيمان بالله، تَحَول التبجيل والتعظيم لبوذا إلى نوع من العبادة لصُوَره وتماثيله. وهكذا تحول بوذا.. الذي كان في أعين أتباعه في القرن الرابع قبل الميلاد.. مجرد ينبوع للحكمة، إلى مكانة أكبر مما يمكن أن يحتلها الفلاسفة العلمانيون. فعند هؤلاء.. لم يعد بوذا مجرد

رمز للحق والحكمة لأمد طويل، بل بدأ ينال من الإجلال والتعظيم والتوقير ما هو من حق الله وحده، أو الآلهة التي تعظمها بعض الأديان.

ونحن لا نتحدث هنا عن فترة قصيرة من سنوات قليلة لهذا التحول، بل لعل الأمر استغرق قرونا طويلة حتى أخذ الإلحاد يلقي بظلاله المشؤومة على جانب كبير من عالم البوذية، ولعل الأمر استغرق أيضا قرونا طويلة للبوذيين لكي يجعلوا من بوذا إلها، بغير أن يعترفوا رسميا بألوهيته. إن الأسلوب الذي نقول إنه قد تم ليتحول أتباع البوذية من الإيمان بالله إلى ملاحدة.. ليس مجرد حدس ولا تخمين، فإن دراسة المصادر البوذية كما أوضحنا، تؤيد يقينا أن بوذا عليه السلام كان يؤمن بخالق واحد أعظم، وأن ما رفض الإيمان به هو تعدد الآلهة. هذه هي الصورة الحقيقية لبوذا، التي عاشت دون أن تتلطخ خلال القرون الثلاثة الأولى رغم الجهود الكثيرة التي بذلها أعداؤه. وهنا نلفت أنظار القارئ مرة أخرى إلى عصر الملك البوذي العظيم آشوكا، الذي حكم إمبراطورية بوذية كبرى امتدت إلى ما وراء حدود الهند، وشملت أفغانستان بأكملها. إن هذا الملك هو الذي يملك المصداقية، والحقيقة التي تخلو من كل شك، عن تعاليم وأساليب حياة بوذا. وليس هناك أية ظلال من شك في أن الصورة التي قدمها آشوكا لبوذا، كانت هي صورة نبي من أنبياء الله، الذي كان يقيم عناصر دينه على الوحي الإلهي، وأن ما قدمه بوذا للناس كان هو ما أُمِر به من الخالق الأعظم. إن هذا الحكم الذي قضى به آشوكا.. هو الذي بقي خالدا.. محفورا على صخور التاريخ.

زهد أم هروب

إن نبذ الدنيا، وقطع العلاقات الدنيوية، تعتبر في البوذية هي أعظم الوسائل لإطلاق حرية النفس من الكرب والبؤس. والناسك الزاهد وحده.. هو الذي يستطيع أن يفهم المشاكل التي تتعلق بالصراعات بين الروح والإغراءات الدنيوية في الحياة. وما لم يكن الإنسان يتمتع بصفات

فريدة من الصبر والتصميم، فإن هذا التحدي يبدو من المستحيل التغلب عليه. ولكن الأمل الوحيد للنجاة الذي تقدمه البوذية هو فقط النجاح في هذا التحدي. فالتخلي الكامل عن كل ما تقدمه الحياة، والانعزال التام عن جميع مُتع الحياة، هو الطريق الوحيد للوصول إلى نيرفانا، أي السلام الأبدي. ولذلك فإن إنكار جميع المشاعر والعواطف يعتبر عند البوذيين هو الحقيقة المطلقة. إن الطمع في الحصول على الثروة المادية، أو الرغبة في الحصول على السُلطة، أو حتى الحصول على حب الآخرين، عندما لا يتحقق، فإنه لا يُنتج سوى الألم والإحباط لدى الشخص المحروم. كذلك فإن الكراهية أيضا تدمر سلام النفس. وكل هذه القوى تضعف القوى الروحية في الإنسان. ولأنه لا يمكن تغيير طبيعة الإنسان الغريزية، ولا يمكن التخفيف من رغبته في امتلاك المزيد والمزيد، فإن الرضا الكامل، والقناعة التامة، لا يمكن تحقيقها إلا بقطع كل العلائق مع المادة.

هذه بالنسبة للبوذيين هي نقطة البداية في رحلة طويلة للتخلص من متطلبات الذات، والوصول إلى الهدف النهائي وهو النجاة. وعلى المرء أن يمسك عن كل ما تقتضيه الحياة لتحقيق راحتها من النواحي المادية. إنه صراع من الحرمان يتعلق بالحواس الخمس. حرمان لما تريد العين أن تراه، وما تشتاق الأذن سماعه، حرمان من اللمس، من الشم، حرمان من كل ما يحرك قلوب البشر. إنهم يسعون لاجتناب جميع أخطار الإدمان بالابتعاد عن كافة الظروف التي يمكن أن تُشكل تهديدا يجعل الإنسان مكبلا بحبال العبودية للمؤثرات المادية. وباختصار، فإن فكرة البوذية عن تحقيق سلام النفس من خلال الحرمان، هو مسمى آخر للهروب من الحياة. فالحياة هي المشكلة، والموت هو الحل.

وبدلا من محاولة الكفاح من أجل التغلب على الدوافع الرخيصة، وإخضاع شهوات النفس لسُلطة الروح، فإن الروح هي التي تؤمر بالتقهقر والانسحاب من ساحة الحياة على الأرض. إذ أنهم يظنون أن كل

ما ينتج عن رغبات الذات هو منحط، ومادي، وخسيس، ويجب التضحية به من أجل خير الذات. إن سلام النفس الذي يتحقق بهذا الأسلوب الهروبي لا يختلف كثيرا عن الموت، أي إلغاء الحياة.

إن السلام يمكن أن يكون ذا نوعين. والموت أيضا يمكن أن يُعتبر نوعا من السلام؛ حتى إن تحديد الخط الفاصل بين الموت والسلام.. أمر صعب. فمثلا يمكن توضيح الأمر بالمقارنة بين الرضا بالهزيمة والإذعان لوضعٍ مخزٍ والرضا بالانتصار. إن الرضا بالنصر وسكون الاستسلام.. رغم تشابههما إلا أنهما في الواقع على طرفي نقيض، فإن أحدهما حياة والآخر موات. وفي بعض الأحيان، تكون تعاريف وتصانيف الأديان من الصعوبة بمكان، بسبب عوامل الغموض المصاحبة. وكل ديانة فيما يبدو تدعو لنفس الهدف من تحقيق السلام وطمأنينة القلب، غير أن البعض يُفضل الاستسلام للموت بهدوء، على الموت في سبيل هدف سام ونبيل. وهناك أولئك الذين يرفعون شعار الحرب المقدسة ضد الشر مهما كان الثمن، وبشجاعة كاملة يُواجهون كل ما يمس الفضائل ويهزمونه هزيمة نكراء، ويكون السكون والهدوء الذي يتبع ذلك هو النيرفانا الحقيقية.

وبعض الأديان.. مثل البوذية التي أصابها الانتكاس.. تدعو أتباعها إلى تحقيق السلام في مرفأ الهروب. إنها تُعَلم الهروب من كل أنواع المغريات التي يمكن أن تجذب أولئك الأتباع إلى رغباتهم الطبيعية ونوازعهم الفطرية ودوافعهم الإنسانية. فالبوذي ينسحب إلى الأمان الذي يجده داخل نفسه – وهي حالة يصفها البعض بأنها نوع من الخواء – بينما يصفها البعض الآخر بأنها خلود يمكن أن يكون بلا معنى. فهل يتحدثون عن الله؟ إن الإنسان ليعجب! ولكن الآراء تختلف. الأغلبية تظن أن هذه الحالة يمكن أن يفهمها ويشاركها هؤلاء الذين وصلوا إليها فقط. فإذا لم تكن هي الوصول النهائي إلى عتبات الله تعالى، ومعظم علماء البوذية سوف يمتنعون عن الإقرار بوجود الله بأي شكل من الأشكال، فحينئذ يكون التعريف

المعقول لهذه الحالة من الخواء والفراغ التي يصل إليها البوذي.. هي حالة من الفناء المطلق والموت الكامل.

وباختصار.. إن حرمان النفس المطلق من كل الدوافع المتعلقة بالحواس الخمس التي هي الحياة.. يتم من أجل اكتساب سلام النفس أو النيرفانا. وبطبيعة الحال.. فإن جميع الأتباع لا يستطيعون الوصول إلى هذا الهدف في وقت واحد، ولكن عليهم أن يستمروا في سعيهم للوصول إليه خطوة فخطوة، تماما كما يكون الاقتراب من هاوية الهلاك.

ولزيادة إيضاح هذه النقطة دعونا نذكر قصة نرى أنها تصلح لمساعدة القارئ في فهم ما نشير إليه. إذ يُحكى أن متسولا في كشمير.. كان نصف ناسك ونصف متسول، فقد كان يتسول أقل ما يكفي من ضرورات الحياة ولا أكثر. وكان كثيرا ما يُرى جالسا وهو مستغرق في تأملاته وشارد في هواجسه، وقد راح يغوص في أعماق نفسه باحثا عن شيء ما. وفي ذات يوم.. مر به أحد الحكماء، وفجأة لاحظ أن المتسول لم يعد هو نفس الشخص الذي كان يعرفه، فقد كان منتشيا من السعادة وهو يرقص طربا. وتساءل الحكيم:

"بابا.. لماذا هذا التحول الكبير؟ يبدو أنك لم تعد نفس المعوز الذي كنته من قبل، فما الذي حققته حتى تكون سعيدا بهذا الشكل؟ هل عثرت على كنـــز؟"

فأجاب المتسول: "نعم.. عثرت على كنـــز لا مثيل له ولا يمكن تقدير قيمته، فلماذا لا يبتهج الإنسان ويسعد بتحقق كل أمنياته؟"

ولما سمع الحكيم هذه الإجابة راح يستفسر:

"إنك ترتدي نفس الأسمال والخرق البالية، وتكسوك الأتربة من أعلى رأسك إلى أخمص قدميك كما كان حالك دائما، فكيف تدعي بأن كل أمنياتك قد تحققت؟"

ولكن المتسول أسكته بإشارة من يده وهو يتفرس في وجهه بنظرة

تفيض حكمة وقال:

"لا تنس يا سيدي أن الإنسان يستطيع أن يحقق كل أمنياته.. حينما لا تكون له أية أمنيات على الإطلاق. وهذه هي اللحظة العظيمة التي حررت فيها نفسي. فاذهب عني واتركني لأرقص سعادة وطربا".

كانت هذه هي الإجابة الجميلة التي تركت الحكيم في حيرة وارتباك لا يعرف معه كيف يرد. ولكن.. حينما نعيد النظر في هذه الإجابة.. نكتشف أن جمال هذه العبارة هو بقدر خوائها من كل مضمون. إذ لم يحدث أي تغيير خارج نطاق العالم المحدود لنفس هذا المتسول. أما العالم الخارجي الذي يعيش فيه، فقد ظل هو نفسه عالم البؤس والمعاناة والألم. إن العالم من حوله ظل هو نفسه عالم الظلم والاستبداد والاضطهاد والطغيان. وبالإضافة.. فهو لا يزال في احتياج إلى ما يقيم أوده ويُبقي على حياته، فالطعام والماء والهواء لا تزال أمورا ضرورية بالنسبة له، ولا يمكن الاستغناء عنها تماما كما كانت الحال من قبل. نعم.. إن الإنسان قد يستغني عن الأمنيات التي يرغبها، ولكنه لا يستغني عن الضرورات التي يحتاج إليها. ومهما كان التغيير الذي تم تحقيقه.. فقد تحقق داخل نفسه، ولكن من يدري أن هذا التغيير سوف يبقى إلى الأبد. لعلها كانت لحظة قصيرة من الانتصار على النفس. ولكن إذا هبت عليه رياح باردة في ليلة يتخللها الصقيع المتجمد، فلعله يتمنى شيئا من الدفء حوله، أو شيئا من الملابس الدافئة، أو مكانا يحتمي به من لسع الصقيع، أو مدفأة يدفع بها شدة البرد عن عظامه وأوصاله. ربما إذا داهمه المرض فقد يتمنى وجود من يُبرئه من مرضه، ويصف له الدواء الناجع. فبأي عزم وتصميم يمكن له التغلب على تحديات الحياة الصعبة؟ لعل الحكيم البوذي هو وحده الذي يعرف الإجابة على هذا السؤال. لقد كانت حالة من الشعور العارض.. تحققت داخل النفس.. ولا أكثر من هذا. وفي الحقيقة.. لقد كانت حالة من الاستسلام المطلق للعجز، سَمِّها سلاما أو سَمِّها موتا، فمهما كان

الاسم الذي تطلقه عليها، فهي لا تستحق أن تكون نيرفانا حقيقية.

ويبدو أن البحث عن السلام من خلال الحرمان من كل ما يتعلق بالحياة، ومن جميع ما يلزم لاستمرارها، قد صار من الأمور الراسخة في كل من الديانتين الهنديتين الرئيستين: الهندوسية والبوذية، وهذا يضارع إنكار الكفاح من أجل البقاء، وبقاء الأفضل. وعند المقارنة بين هذا وسعي الإنسان من أجل تحقيق السلام، فإن هذا يعني فقط الاستسلام وتقبل الهزيمة.

ونحن هنا لا نتحدث عن التعاليم التي أتى بها كل من مؤسسي الديانتين الهندوسية والبوذية، وإنما نحن نبحث مدى صحة الفلسفات التي تطورت عن هاتين الديانتين، بعد مرور آلاف من سنين التدهور والانحطاط، إذ أن كلتيهما قد انحرفت بعيدا عن مصدرها الإلهي. وفي الواقع إنهما اتبعتا نفس السبيل التي اتبعها الزهاد والمتصوفون في بعض الديانات الكبرى في العالم. غير أن هؤلاء لم يفصموا علاقتهم بمبدأ الإيمان بالله تعالى، ولكنهم.. من داخل نطاق الدين الذي يتبعونه.. حفروا لأنفسهم طريقهم الخاصة، التي يمارسون فيها تجاربهم الروحية الذاتية، الناتجة من إلهامات النفس، وليس من الوحي الإلهي.

وفي حالة فلسفة اليوجا في الهندوسية والبوذية، فإنهما قطعتا تماما جميع الروابط، وانفصلتا عن تعاليمهما التقليدية، بغير أن نجد في هذه الفلسفة أي أثر من الأصل. وفي مقابل الوحي الإلهي.. الذي كان هو المصدر الرئيسي للمعرفة والحكمة لبوذا، ظل التركيز خلال العصور المتأخرة يتحول من الاهتمام بالوحي إلى الاهتمام بالتأملات وإلهامات النفس وخلجاتها. ورغم أن البوذية قد بدأت في تعارض تام مع الهندوسية، إلا أنهما.. بطريقة غامضة.. قد اشتركتا سويا فيما بعد في فلسفة وممارسات اليوجا.

ومن المدهش حقا أن نجد ذكر اليوجا لأول مرة في التانتراز *Tantras*

وهي ما يسمى الوثائق الدينية التي تم تدوينها بعد مرور خمسمائة عام من بعد بوذا ﷺ. ولم يطلع على تلك الوثائق سوى عيون قليلة لأولئك الذين كانوا يقفون على قمة هرمية رجال الدين الهندوسي، بينما ظلت تلك الوثائق في سرية وفي عزلة عن عيون عامة الناس. وللتأكيد على استمرار سريتها.. فقد كُتبت تلك الوثائق بأسلوب رمزي، وبتعبيرات خاصة، بحيث يستحيل على الشخص العادي أن يفهمها. وبعد مرور الكثير من القرون، صارت محتويات هذه التانتراز تحت تصرف الباحثين.. الذين أصابهم الذعر لما وجدوه مدونا على صفحات هذه الوثائق التي تُعتبر كتابات مقدسة، فقد وجدوا أنها تحتوي على أمور في غاية الفحش والدناسة. كما يوجد فيها ذكر المردة والشياطين وصور لأشباح مخيفة. وهي أيضا تطفح بالألفاظ البذيئة التي تتحدث عن الرغبات الجنسية الفاحشة، بشكل تنفر منه المشاعر الإنسانية. وبهذا يتبين أن تعاليم اليوجا المحفوظة في التانتراز لا علاقة بها بتاتا بالكلمات القدسية لبوذا.

وربما يعتبر البعض أن كل هذه الكلمات عن المردة والأشباح الخرافية، وأيضا كل هذه العبارات الجنسية الفاحشة، ليست سوى رموز وكنايات. وربما لا يوجد من بين الرهبان البوذيين الأحياء اليوم من يعرف أسرار هذه اللغة الرمزية. ولعل من كانوا على قمة الهرمية البوذية منذ ألفين من القرون هم وحدهم الذين اخترعوا هذه اللغة، وهم الذين كانوا يفهمون معناها. ولكنهم ماتوا وانتهوا منذ وقت طويل، ولعل زمن التانتراز قد انتهى أيضا معهم. غير أن رياضة اليوجا قد عاشت بعد التانتراز، إذ لا يزال هناك بين الباحثين من يستطيع استخدام علوم اليوجا الغامضة الموجودة في التانتراز.

إنه من الصعب بمكان تحديد الخط الفاصل بين اليوجا.. كما تُفهم وتُمارس في الهندوسية.. واليوجا كما تُفهم وتُمارس في البوذية. وإذا كان هناك بعض الفوارق.. فهي فوارق في المسميات. ومن الممكن تسمية

ممارسي اليوجا نُسّاكًا هندوسًا أو زُهّادًا بوذيين، ولكن حقيقة انعزالهم عن العالم من أجل الله لن تتغير. يمكن إطلاق أي اسم عليهم بنفس المعنى، ولكنه لن يغير شيئا من طبيعتهم الطيبة. ومهما كان ما حققه هؤلاء الممارسون من الديانتين، ومهما كان ما يعتبرونه حكمة واستنارة، فلم يتمكن أحد الأطراف من تغيير وجه العالم من خلال تجاربه الذاتية. وإنه لإهانة لبوذا وكرشنا عليهما السلام أن يُنسبا إلى هذه الفئة. لقد كانا ثوريين يبتغيان إحداث تغيير في الأرض، تماما مثل بقية أنبياء الله تعالى الذين كانت فلسفتهم الهادفة للتغيير الروحاني والأخلاقي.. تنبثق من ينبوع الوحي الإلهي. لقد أعلنوا دعوة نبيلة للكفاح المجيد ضد المفاسد والشرور والضلال، ونفخوا نفير القيام بكفاح بطولي في الحياة.. لم ينحصر في نطاق ذواتهم فقط. لقد شنوا حربا مقدسة في صدام مباشر مع قُوَى الظلام، ظلت مستعرة ومستمرة في العالم الخارجي.. وليس داخل النفس فحسب، وتبع ذلك معركة مريعة من أجل تحقيق البقاء للأصلح. إن تاريخ حياة كل من كرشنا وبوذا عليهما السلام.. تبين بجلاء أنهما كانا ينتميان إلى هذه الفئة. لقد كانا قائدين محاربين ولم يكونا انهزاميين أو من الهاربين المنتحرين. فقد كان الدين الذي يدعو إليه كل منهما هو من وحي الله، ولم تكن تعاليمهم المقدسة من همزات وخطرات النفس، بل أدت تلك التعاليم إلى تشرّف المخلصين من أتباعهم بالإلهام الرباني.

إن ما يفهمه معظم البوذيين المعاصرين عن ديانتهم هو أنها مجرد حكمة، أي بودهي *Budhi*، اكتشفها بوذا خلال تأملاته. وكل ما يعلمونه عن مصدر ديانتهم هو أنها كانت من إلهامات النفس لدى بوذا.

ومن وجهة نظر هؤلاء الذين يؤمنون بالله تعالى، فإن الإلهام النفساني لا يعدو سوى أن يكون تجربة روحانية كثيرا ما يشعر المرء خلالها بالسمو الروحي. وأثناء هذا السمو.. يتملك الإنسان إحساس بالسلام يبدو أنه أقصى درجات الطمأنينة. وعند العودة من هذه الحالة المدهشة إلى الحياة

العادية، يشعر المرء بانطباع عميق بأنه قد اكتسب شيئا.. قد يكون هو الهدف الأسمى من الحياة.. الهدف الذي يبتغي الجنس البشري بأكمله أن يصل إليه.

هذه التجربة النفسية والروحية هي كل ما يمكن لهم أن يفخروا بالوصول إليه من تنوير روحاني وتحرر من ربقة المادة. غير أنها لا تستطيع.. حتى في أسمى درجاتها.. أن تُحدث أي تغيير في حقائق الحياة الواقعية، ولا تستطيع أن تقوم بإصلاح أو تقويم الأشرار والفاسدين. إنها لا تستطيع أن تحول حتى ذرة من دنيا المجهول إلى عالم المعلوم. ولا يمكن لها أن تحول الظلام إلى نور. ولم يحدث أبدا لإلهام الذات وخواطر النفس أن استعادت أسرار الحقائق المجهولة التي دفنت في قبور التاريخ، ولا كانت لها القدرة على أن تثب إلى المستقبل لإلقاء نظرة على ما سوف يقع من أحداث.

إذا حدث أن طُبقت هذه الفلسفة.. الخاصة بالإلغاء الكامل للنفس إلى أن تصل إلى نهايتها المنطقية.. فإنها من المحتم سوف تؤدي إلى انقراض الجنس البشري. ولا شك أن نسبة هذا الهراء من أحاديث النفس وإلهاماتها إلى الحكمة المستنيرة لبوذا عليه السلام والمستقاه من الوحي الإلهي لا يضفي عليه أي شرف، فليست أحاديث النفس هي كأس الحكمة التي شرب منها بوذا وملأ بها باطنه حتى صار من الخالدين.

المراجـــــــع

1. LE BON, G., GUIMET, E. (1992) *Mirages Indiens:de Ceylon au Népal, 1876-1886.* Chantal Edel et R. Sctrick, Paris, p.241
2. LE BON, G., GUIMET, E. (1992) *Mirages Indiens:de Ceylon au Népal, 1876-1886.* Chantal Edel et R. Sctrick, Paris, p.240
3. LILLIE, A. (1909) *India in Primitive Christianity*. Kegan Paul, Trench, Trübner & Co, London, p.85
4. LILLIE, A. (1909) *India in Primitive Christianity*. Kegan Paul, Trench, Trübner & Co, London, p.86
5. NORMAN, K.R., (1992) *The group of discourses* (Sutta-Nipata) Vol II. The Pali Text Society, Oxford, pp. 112-129
6. NORMAN, K.R., (1992) *The group of discourses* (Sutta-Nipata) Vol II. The Pali Text Society, Oxford, p. 129
7. MAX MÜLLER, F. (1881) *The Sacred Books of the East.* Vol XI, Clarendon Press, Oxford, p.186
8. MAX MÜLLER, F. (1992) *Dialogues of the Buddha I.* The Pali Text Society, Oxford, p.299
9. MAX MÜLLER, F. (1881) *The Sacred Books of the East.* Vol XI, Clarendon Press, Oxford, p.186

الفصل الثالث

الكونفوشيوسية

الكونفوشيوسية هي في الواقع دار كنْز من الحكمة العميقة. وتكشف هذه الديانة عن أن العقلانية، والوحي، والمعرفة، تتوافق تماما بعضها مع بعض لتقود الإنسان إلى الحقيقة.

ورغم أن الكثير من الصينيين يعتبرونها ديانة تقوم على الوحي الإلهي كمثيلاتها، فهناك أيضا من يرى أنها مجرد فلسفة. وفي اليابان مثلا، لا توجد للكونفوشيوسية جغرافية ومعالم خاصة بها، فإن أتباع الطاوية والشنتووية والبوذية يؤمنون أيضا بالكونفوشيوسية، باعتبارها فلسفة تتوافق مع ما يؤمنون به. وبالتالي.. فكل هذه المعتقدات تنتشر وتتداخل بعضها مع بعض بشكل لم يُسمع عنه في حالة أي دين آخر.

وحينما نتحدث عن الكونفوشيوسية على أنها تُعتبر مجرد فلسفة، فإنه يجول بخاطرنا سؤال عن وجود الله تعالى. إذ أن القليل من أتباع كونفوشيوس Confucius (٥٥٠-٤٧٨ قبل الميلاد) يؤمن اليوم بوجود الله بشكل واضح. ومع ذلك فإنهم يؤمنون بعالم الأرواح والأشباح، بل إن البعض يمارس عبادة الأجداد والأسلاف. ومع ذلك فإننّا نرى أنه من الضروري إعادة فحص وتقييم الفهم المنتشر للكونفوشيوسية اليوم.

وعند فحص النصوص القديمة التي بُنيت عليها الكونفوشيوسية، لا يبقى هناك أي شك في أن هذه الديانة أيضا قد تأسست على اعتقاد راسخ بوجود الله. وهي تدين بالكثير من فلسفاتها إلى الوحي الإلهي، وليس إلى تأملات وخواطر الحكماء من الرجال. ويمكن قياس القدر الذي انحرفت به هذه الديانة عن مسارها الأصلي بمقدار انتشار عبادة الأرواح المنتشرة اليوم بين أتباع كونفوشيوس. غير أننا لا نجد في المصادر الأولى

لكونفوشيوس أية إشارة على الإطلاق إلى مثل هذه الخرافات في المعتقدات أو في الممارسات. وعلى ذلك.. فلا بد أن تكون الكونفوشيوسية قد انحرفت عن مسارها الأصلي بمرور الزمن، تماما كما حدث مع الأديان الأخرى. فأخذت الخرافات والممارسات الخاطئة تغزوها على حساب الإيمان بالله الأعظم، ويالها من مأساة تدعو للأسى، رغم أنها كثيرا ما تتكرر في عالم الأديان.

وبالنسبة لعبادة أرواح الأسلاف.. فهم لا يعتبرونهم آلهة ولا قديسين، ومع ذلك فإنهم يطلبون منهم بعض المنن والكرامات. ولكن في اليابان لا تأخذ هذه العبادة نفس المعنى الذي تُفهم به في أماكن أخرى، فهي لا تعدو أن تكون تعبيرا عن الاحترام والولاء لذكرى الأموات. وليس الكل يطلب أشياء من الأموات أو يعتبرونهم آلهة مستقلة.

إن التناسق والتوافق الكامل بين قوانين الطبيعة يبرهن بغير أدنى شك على أنه إذا كان هذا الكون قد خُلق، فلا بد أن يكون خالقه هو الكائن الأوحد الأعظم، إذ لا توجد مثقال ذرة من أثر يدل على اشتراك يَدَين اثنتين أو ثلاث في عملية الخلق. وعلى ذلك.. فمن المنطقي استنتاج أن الرغبة الكامنة في النفس للإيمان بشيء ما، لا بد أن تكون قد خُلقت لتكون جسرا بين الخالق وخلقه. فإن لم يتم هذا الاتصال بين الرب وبين عباده، وتوقف الوحي طويلا، فإن هذا يخلق فراغا بسبب هذا الدافع الداخلي في نفس الإنسان. وهذا الدافع هو الذي يخلق الآلهة التي تُعبد من دون الله، سواء كانت أرواحا أو أشباحا أو أية كائنات أثيرية، وعلى هذا فإن الإيمان بالخرافات ليس عفويا.

إن الآلهة التي يتخذها الناس الذين يؤمنون بالخرافات، تتشابه دائما مع صور الأشباح التي يعتقد الناس وجودها حينما ينطفئ نور العلم، وتغيب شمس المنطق.

هذا الاتجاه إلى التدهور أخذ يدفع بالتدريج الإيمانَ بالله إلى خارج ساحة

العقائد الدينية. فإن الإيمان بالله يتطلب من المرء تهذيب سلوكه وتعرضه للمحاسبة، بينما الأشباح والأرواح والكائنات الأثيرية لا تتطلب الالتزام بأي قانون أخلاقي.

من الدراسة العميقة للكتب الكونفوشيوسية القديمة، نتبين أنه ليس من الصعب أبدا إثبات أن الديانة الكونفوشيوسية لم تكن في مصدرها فلسفة من صنع الإنسان. فقد اعتنقَت منذ البدء فكرة وجود إله واحد أزلي، انبثقت منه تعاليمها، وهو الذي يحكم الكون كله. و"السماء" (Heaven) هي مظهر لله، أي أن وجوده سبحانه يتجلى من خلالها، ولذلك كثيرا ما تُستعمل هذه الكلمة للتعبير عنه ﷻ. وتعتبر الكونفوشيوسية أن المعرفة الحقيقية تتوقف على معرفة صفات الله، وعلى التمسك بها عند السلوك. وهذا ما يُقرّب الإنسان إلى الحق الأزلي الذي هو مصدر المعرفة ويعمل لصالحه.

ويصل تاريخ الكونفوشيوسية والطاوية في أعماق التاريخ إلى زمن فو شي (Fu Hsi) فيما يقرب من عام ٣٣٢٢ قبل الميلاد، وقد كان ملكا عظيما، كما كان قديسا صالحا أيضا. وحدث مرة خلال تلقيه وحيا عن طريق الرؤيا أن رأى حصانا تنينا يخرج من النهر الأصفر، وكان على ظهر الحصان شكلا مرسوما. وليست هذه هي الواقعة الوحيدة في تاريخ الصين التي يكتسب فيها نبي علما عن طريق الرؤيا. فمن المدون في التاريخ أن النبي يو (Yu) في حوالي عام ٢١٤٠ق.م. قد استفاد أيضا من الوحي الإلهي. وفي رؤيا فو شي كانت له فرصة أن يدرس هذا الشكل المرسوم الذي كان يتكون من ثمان مجموعات من ثلاث سلالات من الذكور والإناث. وتُكَون هذه المجموعة من الأشكال الثلاثية أزواجا في أعلاها وأسفلها يبلغ مجموعها أربعة وستين شكلا سداسيا. وترجع أهمية كل شكل من الأشكال السداسية إلى اسمه المكتوب والذي يتعلق أيضا بالترتيبات المعينة لخطوط الذكور والإناث. وقد جاء عن أحد الصلحاء

واسمه كينج وان (King Wan) فيما يقرب من ١١٤٣ق.م. أنه كان أول من دَوّن تفسيرا لهذه الأشكال السداسية. وأضاف ابنه تشو كونج (Cheu Kung) حوالي ١١٢٠ق.م. إلى هذه التفاسير، وفيما بعد أضاف كونفوشيوس تفسيراته في شكل ملاحق. هذا ما تطورت عنه الحكمة التي استقاها فو شي من رؤياه، وقد جُمع كل ذلك في "كتاب التغييرات" (*Book of Changes*) المعروف باسم آي تشينج (*Yi King*). وقد أثر فهم هذه النظرية (أي نظرية الأشكال الثلاثية الثمانية) على نمو الكثير من العلوم والفنون التي تتعلق بكل المجالات في الحياة الصينية. ويُقال إن هذه الفلسفة لعبت دورا حيويا في تطوير الزراعة والصناعة والدواء والاقتصاد والعديد الآخر من مجالات المعرفة. ويكتب أحد علماء الصين.. تشو تشيه هوا (*Chou Chih Hua*) في كتابه العلم والعلاج بالإبر[١] (*Acupuncture and Science*) أن نظرية الأشكال الثلاثية الثمانية لها نفس العلاقة بالطب الصيني، تماما كعلاقة العلوم الرياضية بالعلوم الأوربية.

ويذكر كتاب "تاريخ الطب الصيني" (*History of Medicine of China*) أن النبي "فو شي" الذي استنبط نظرية الأشكال الثلاثية الثمانية من خلال الوحي الإلهي الذي تلقاه، قد اكتشف أيضا علم الطب والعلاج بالإبر. رغم أن البعض يعتقد أن هذه المعرفة قد تطورت في وقت لاحق بواسطة الحكيم "كينج هوانج تي" (King Huang Ti) الذي استقى معارفه بدوره من "آي تشينج".

والكتاب الشهير للمعلم "صن" المسمى "فن الحرب" (*Art of War*) الذي استقى أيضا من "آي تشينج" لقي شهرة واسعة في المجال العسكري. وقد اهتم العسكريون على مر العصور بهذا الكتاب الذي تمت ترجمته إلى ست لغات مختلفة.

كذلك فإن رجال المنطق الصينيين، ومدارس الفكر الصيني القديمة أيضا، بنوا الكثير من نظرياتهم على المبادئ المذكورة في "كتاب التغييرات" الذي

أثر أيضا.. ولو بشكل أقل.. على العالم الغربي، حيث نال "آي تشينج" شهرته الواسعة، ولو أن البعض يستعمل هذا الكتاب فقط كنوع من الوسائل للإنباء بالغيب.

وحسب ما تقول به الكونفوشيوسية فإن الدراسة الأكاديمية ليست جوهرية للوصول إلى الحقيقة. فإن الله نفسه هو الحق، وبالتالي فإن كل ما خُلق فإنه يُباركه بهذه الخاصية التي هي أساسية بالنسبة لشخصه تعالى، وبالتالي فإن الفطرة الإنسانية، والحقيقة الأزلية، صارتا في الكونفوشيوسية مسميان لشيء واحد.

كان "منشياس"(Mencius ٣٧٢-٢٨٩ ق.م) فيلسوفا صينيا، كما كان مبتدعا للكثير من النظريات، وأيضا كان تربويا. وكان أيضا رجلا شديد التمسك بالدين، ومن الأتباع البارزين لكونفوشيوس. وقد ترك أثرا عظيما على الفلسفة الصينية حتى إن البعض يعتبره من الأنبياء. وقد ذُكِرَ أنه عند شرح الطريق للوصول إلى الحقيقة الأزلية كتب يقول:

"إن الإحسان والصلاح والأدب والمعرفة لا تدخل فينا من الخارج، بل إننا بكل تأكيد مزودين بها. والنظرة المخالفة لهذا الرأي إنما هي بسبب نقص التأمل العميق. لذلك فقد قيل: ''فتش عنهم وسوف تجدهم. أهملهم وسوف تفقدهم''".[٣]

إن المصدر الخارجي الذي ينكره منشياس ليس هو الوحي، إذ أنه يشير إلى أن سجايانا الخُلقية التي تعتبر جزءا لا يتجزأ من كينونتنا لا تأتي إلينا من الخارج. فمن رأيه أن التجربة الحسية في حد ذاتها لا تعطينا رسالة جديدة، ففي مرآة التجربة الحسية يستطيع العقل البشري أن يرى الصور الخارجية لطبيعته الباطنية. وعلى هذا فهو لا ينكر أهمية المحسوسات، وإنما ينكر قوتها المستقلة في إيصال الإنسان إلى الحقيقة. بل إنه يعترف تماما بأن التجربة الحسية يمكن أن تساعد إلى حد كبير في هدايتنا إلى الينبوع الفطري للحقيقة الأزلية. ويضيف منشياس لشرح هذه الطبيعة التي يعني بها الكون بأكمله، التي في حد ذاتها ليست أزلية، ولكنها خُلقت لنا

بواسطة "السماء"، وأن "السماء" خالق مُدرك. وفي شرح هذا يقول منشياس:

"إنه مذكور في كتاب الشعر:
''إن السماء حين أنتجت الجنس البشري
أعطتهم سجاياهم *المختلفة* وعلاقاهم بقوانينها *المعينة*
هذه هي قوانين الطبيعة الثابتة وهي متاحة للجميع للتمسك بها
والجميع يحبون هذا الفضل''".[٤]

وتعبير "السماء" هنا كما كان يفهمه منشياس هو اسم لكائن عاقل مُدرك، وهو المقابل لما نعتبر أنه الله تعالى. فالسماء يمكن أن تُرى على أنها رمز للقوى الفعالة الخلاقة الواعية لله تعالى، إذ يقول:

"هذا يتضح بما قيل في كتاب الشعر:
''كن دائما مهتما بالدرس والمطالعة حتى تكون على توافق مع فروض الله
وبهذا فإنك بكل تأكيد سوف تكتسب لنفسك الكثير من السعادة''".[٥]

إن الكونفوشيوسية القديمة.. بغير شك.. تبرز الإنسان على أنه مِن خلق الله تعالى، وليس مجرد نتاج للطبيعة غير الواعية.

والهدف الأسمى لدى كونفوشيوس.. للوصول إلى معرفة طبيعة النفس الإنسانية.. هو أن يكون الإنسان في توافق مع الله جل وعلا، وهذا هو أساس رؤية الإنسان للسماء. وهذا المعتقد يشابه إلى حد كبير التعليم القرآني الذي يُبين أن الإنسان قد خُلق على نسق الصفات الإلهية، إذ يقول تعالى:

﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (٣٠ الروم:٣١)

ويزيد كونفوشيوس الأمر إيضاحا.. فيقول بأنه على الإنسان أن يبذل جهدا واعيا لاكتساب المعرفة أولا عن صورة الله هذه الكامنة في طبيعته،

ثم ينمي في نفسه من الصفات ما يتوافق مع هذه الصورة. وإن لم يبذل الإنسان هذا الجهد الواعي، فليس هناك أي ضمان لأن يكون النمو الأخلاقي للإنسان على صورة الله. وحسب مفهوم كونفوشيوس، فإن المعرفة ككيان لا يوجد بمعزل عن أعمال الإنسان وسجاياه (صلاحه وشرفه وأدبه). إن الاثنين متصلان اتصالا وثيقا كما يكشف ذلك النص التالي:

"قال المعلم (كونفوشيوس):

''حينما يكتسب الإنسان ما يكفي من المعرفة، ولا يكون لديه من الفضيلة ما يكفي للتمسك بها، فإن كل ما اكتسبه يمكن أن يفقده. وحينما يكتسب الإنسان ما يكفي من المعرفة، ولديه من الفضيلة ما يكفي للتمسك بها، فإن لم يحكم بشرف.. فإن الناس لن يحترموه . وحينما يكتسب الإنسان ما يكفي من المعرفة، ولديه من الفضيلة ما يكفي للتمسك بها، وحين يحكم أيضا بشرف، ومع ذلك إذا حاول أن يسير بالناس ضد قواعد الأدب واللياقة، فإنه لا يكون قد حظي بالكمال التام''".[٦]

ومن الواضح أيضا أن كونفوشيوس كان على قناعة بأن لخالق الإنسان أثر كبير عليه، وأنه هو وحده الذي يستحق العبادة من الإنسان. ويتبين هذا من الحديث التالي:

"يقول وانج صن تشيا (Wang-sun-Chiâ) سائلا المعلم كونفوشيوس:

''ما معنى الجملة التي تقول: إنه من الأفضل التودد إلى التنور من ركن الجنوب الغربي؟'' فقال المعلم: ''ليس هذا. إن من يتمرد على السماء (الله) فليس له من أحد يتوسل إليه.''[٧]

إن التمرد على قوانين الله تعالى المتعلقة بالخلق يعني التصرف ضد الطبيعة الباطنية للإنسان التي جعلها الله مرآة تتجلى فيها صفاته الربانية. ومن يُعرض عن الله تعالى.. فليس له من يلجأ إليه.

وتُبين الاقتباسات المذكورة عاليه أنه لا يمكن أن تكون الكونفوشيوسية في

مصدرها فلسفة من وضع الإنسان، لأنها في حقيقتها تحتوي على الإيمان بالمعتقد الأساسي بوجود خالق قائم بذاته، تستحق طُرُقُه أن تُوَقر وتُبجل، وأن تحتذى وتُتبع. كذلك فإن هذه الاقتباسات تُبين أن مجرد المعرفة، الخالية من عناصرها الأساسية في البحث عن الله تعالى وممارسة أوامره بشكل فعلي، تُعتبر معرفة خاوية وبلا قيمة. كما سوف يتبين أيضا من الاقتباسات التي سوف نذكرها فيما بعد، فإن الكونفوشيوسية تُقدم الله تعالى (أو السماء) على أنه كائن، يقوم بدور هام وفَعّال في تقدم ورفاهية الجنس البشري. وضرورة المحافظة على قيمة "الحق" هي ضرورة يحددها الله تعالى من خلال اختياره لبعض الأشخاص الذين يراهم مناسبين لهداية الناس.

إن حكماء الصين يمكن أن يُعتبروا مثل الأنبياء الذين جاء ذكرهم في القرآن أو في الكتاب المقدس، أي أنهم كانوا رجالا خلفاء لله أو رسلا له تعالى. وتظهر هذه المماثلة في عبارة منسوبة إلى كونفوشيوس.

> "كان المعلم في خطر من أهل كوانج. فقال: ''بعد وفاة كينج وان، ألم يكن غرض الحق قد أُودع هنا في شخصي (كونفوشيوس)؟ فلو أن السماء كانت تريد لغرض الحق هذا أن يهلك، لما كان لي أنا.. وأنا البشر الهالك مستقبلا.. أية علاقة بهذا الغرض. وحيث إن السماء لا تريد لهذا الغرض أن يهلك، فما الذي يستطيع أهل كوانج أن يفعلوه لمقاومتي؟'' "[٨]

وهنا يُعبر كونفوشيوس عن اقتناعه التام بأن ما قُدّر من حتمية ظهور الحق وانتصاره هو أمر أكد عليه قدر الله الذي لا يتغير، الله الذي كان (كونفوشيوس) مجرد وسيلة في يده ﷻ. فإن الله لا يسمح بهلاك أولئك الذين اصطفاهم وهداهم مباشرة، من غير أن يحققوا مهمة إقامة الحق في الأرض، حتى ولو كانوا يقفون وحدهم في مواجهة كل القوى المعارضة. وهذه بالضبط هي صورة الأنبياء كما جاءت في الكتاب المقدس وفي القرآن.

إن هؤلاء الذين يتشرفون بأن يختارهم المولى لمثل هذه المهام العظمى هم

رجال تفوقوا في التخلق بأخلاق الله.

"وقال كونفوشيوس: ''لقد كان 'ياعو' سلطانا عظيما بحق. إن السماء وحدها هي العظيمة، وياعو كان يشابهها، فما أعظم فضيلته. لم يستطع الناس أن يجدوا لها اسما.'' "[٩]

وبمعنى آخر.. لأنه تخلق بأخلاق الله، فإن صفاته صارت من العظمة بمكان، حتى إن الناس لم يجدوا من الكلمات ما يستطيعون وصفه بها:

"وقال تشانج: ''إنني أريد أن أسأل.. كيف حدث أن ياعو قدم 'شون' للسماء، وأن السماء قبلته؛ وأنه بيّن السماء للناس، وأن الناس قبلوها'' "[١٠]

ومرة أخرى تبين هذه الفقرات بجلاء أن السماء لا يُقصد بها أديم الكون، وليس هو العالم الداخلي الصغير في نفس الإنسان، وإنما هو كائن مدرك فعال، وأن لفظ السماء مطابق لاسم الله. وكما تختار السماء الحكماء حسب معايير معينة، فكذلك يختار الله الأنبياء.

إن هذه الفقرات التي اقتبسناها آنفا تؤيد ما سبق أن قلناه من أن الحكماء الصينيين يتصفون بنفس صفات الأنبياء التي ذُكرت في الكتاب المقدس وفي القرآن المجيد.

وتوضح الدراسة المستفيضة للكتابات الكونفوشيوسية أن الوحي لم يكن هو الوسيلة الوحيدة لتقرير الفلسفة الحقيقية للحياة فحسب، بل كان أيضا الوسيلة العملية في هداية أعمال الإنسان في جميع نواحي الحياة. وقد ذكرنا فيما سبق الرؤيا التي رآها "فو شي" وتطبيقها بصورة عملية في النواحي المختلفة من الحضارة الصينية، وكان لها من التأثير ما استمر لعدة آلاف من السنين. ونقدم فيما يلي بعض الأمثلة الأخرى التي تبين كيف لعب الوحي دورا للتأثير في الرفاهية المادية لأمة من الأمم:

" ''... حين يتكلم الملك، فإن *كلماته* تنظم أحكامه ووصاياه *لهم*؛ وإن لم يتكلم لا يستطيع الوزراء معرفة الأوامر التي يجب أن ينفذوها.'' عندئذ رتب الملك كتابه، وأبلغهم قائلا: ''حيث إنه من

حقي أن أكفل ما هو حق في الأركان الأربعة *للإمبراطورية*، فإني خشيت أن لا تكون فضيلتي مساوية *لفضيلة أولئك الذين سبقوني*، ولذلك لم أتكلم. *ولكن*، بينما كنت بكل احترام وصمت أفكر في الطريق الصحيحة، رأيت في الحلم أن الله أعطاني عونا طيبا، وهو الذي سوف يتكلم نيابة عني.'' وبعد ذلك أخذ يصف بتفصيل دقيق ظهور ذلك الشخص، وأمر بأن يتم البحث عنه في جميع أنحاء الإمبراطورية. وقد تم العثور عليه، وكان هو أحد البنائين في بلدة 'فو ين' واسمه 'يووي'. وعند ذلك أكرمه الملك وجعله رئيس وزرائه، وأبقاه أيضا إلى جواره. ثم أمره قائلا: ''في الصباح وفي المساء عليك أن تصدر تعليماتك لكي تحافظ على فضيلتي ...''[١١]

وهنا يتبين أن الملك لم يكن يعرف كيف.. ولا عن طريق من.. يمكن تذليل الصعوبات التي تعترضه في الحكم، ولكنه وجد إجابة لما كان يبحث عنه عن طريق حلم رآه.

وأيضا جاء عن الحكيم العظيم الملك 'وان' أنه قال:

" قال الله للملك وان:

''لا تكن مثل هؤلاء الذين يرفضون هذا ويتمسكون بذلك،

لا تكن مثل هؤلاء الذين تحكمهم شهواتهم ورغباتهم''.

لذلك فإن الملك سما وارتفع عاليا قبل الآخرين إلى المقام السامي [للفضيلة].

إن أهل 'مايه' كانوا عصاة ...

فقال الله للملك وان:

''إنني مسرور بفضائلك الذكية التي لم توصف ولم يُعلن عنها عاليا بغير إفراط ولا تلون وبغير جهد مقصود منك في توافق مع النموذج الإلهي''.

قال الله للملك وان:

''اتخذ الإجراءات اللازمة ضد بلاد أعدائك أنت ومعك جميع إخوانك أعدوا السلالم المتنقلة وآلات الحرب والهجوم للهجوم على

أسوار مدينة تسونج'' "[١٢]
ويبين هذا المقطع الأسلوب الذي يختار الله به عباده الذين يُكلفون بإبلاغ أغراضه عز وجل للناس. فأولا.. هدى الله الملك 'وان' وعلمه من لدنه علما، وهو بدوره استجاب له، ووضع وصاياه موضع التطبيق والتنفيذ، وبذلك فقد ارتفع مقامه عند الله تعالى.
أما الفقرات الأخيرة في هذا المقطع، فتُذكرنا بما جاء في الكتب المقدسة عن داود عليه السلام الذي كان نبيا وكان ملكا أيضا. وكما سمح الله لداود أن يدفع أعداءه بالهجوم عليهم، حيث إنهم أرادوا أن يطمسوا وجه الحق، كذلك سمح الله للملك وان.
والدراسة المقارنة لتاريخ الأديان تكشف الكثير من التشابه بين الملك وان والنبي الملك داود، ولكننا لن ندخل هنا في هذا البحث الطويل.
وهكذا.. بمساعدة المقاطع التي اقتبسناها وقدمناها آنفا.. يتبين بجلاء أن للوحي مكانا هاما في الديانات والفلسفات الصينية، كما أنه يُعتبر وسيلة ذات شأن عظيم في الوصول إلى الحق. وهناك الكثير من الأدب الصيني القديم يُثبت أيضا أن الكونفوشيوسية لا يمكن أن تكون مجرد فلسفة للحياة من وضع الإنسان، ولا تؤمن بوجود إله قائم بذاته. بل على العكس.. إن وجود الله تعالى يُشكل ركنا أساسيا في هذا الدين، وأن ما كان يتلقاه المتلقي من خلال الرؤى والأحلام، كان يتم بكل تأكيد عن طريق الاتصال بالله عز وجل.

المراجـــــــع

1. CHOU, C.H. [year unknown] *Acupuncture and Science.* 1st ed. Shi Wei Typographic Co., Ltd., Taiwan
2. ZHENG, M.Q., LIN, P.S. [year unknown] *History of Medicine of China.* Shang Wu Printing and Publishing House, Taiwan, pp. 2-3
3. LEGGE, J. (1985) *The Four Books.* The Great Learning, The Doctrine of the Mean, Confucian Analects and the Works of Mencius. 2nd ed, Culture Book Co., Taiwan, p.862
4. LEGGE, J. (1985) *The Four Books.* The Great Learning, The Doctrine of the Mean, Confucian Analects and the Works of Mencius. 2nd ed, Culture Book Co., Taiwan, p.863
5. LEGGE, J. (1985) *The Four Books.* The Great Learning, The Doctrine of the Mean, Confucian Analects and the Works of Mencius. 2nd ed, Culture Book Co., Taiwan, p.544
6. LEGGE, J. (1985) *The Four Books.* The Great Learning, The Doctrine of the Mean, Confucian Analects and the Works of Mencius. 2nd ed, Culture Book Co., Taiwan, pp.354-355
7. LEGGE, J. (1985) *The Four Books.* The Great Learning, The Doctrine of the Mean, Confucian Analects and the Works of Mencius. 2nd ed, Culture Book Co., Taiwan, pp.152-153
8. LEGGE, J. (1985) *The Four Books.* The Great Learning, The Doctrine of the Mean, Confucian Analects and the Works of Mencius. 2nd ed, Culture Book Co., Taiwan, pp. 231-232
9. LEGGE, J. (1985) *The Four Books.* The Great Learning, The Doctrine of the Mean, Confucian Analects and the Works of Mencius. 2nd ed, Culture Book Co., Taiwan, p.632
10. LEGGE, J. (1985) *The Four Books.* The Great Learning, The Doctrine of the Mean, Confucian Analects and the Works of Mencius. 2nd ed, Culture Book Co., Taiwan, p.793
11. LEGGE, J. (1965) *The Chinese Classics.* Vol. III, Part I, The Shoo King, Trübner and Co., London. pp.248-252
12. LEGGE, J. (1971) *The Chinese Classics.* The She King, Part III, Decade of King Wan Book I, Vol. IV, Part II, Trübner and Co., London. pp. 452-454

الفصل الرابع
الطاويـــــة

إن الديانـــات الصـــينية جميعا مستقاة من نفس المصدر القديم للخبرات الروحية والدينية للحكيم الكبير والنبي العظيم "فو شي"، الذي قام الكثير مـــن حكمـــاء الصين ومفكريها بدراسة عميقة لأعماله خلال العصور التالـــية، فاســـتطاعوا بذلك أن يُقدموا لأهل الصين الجديد والعديد من الفلســـفات والعلـــوم والأديان والتعاليم الأخلاقية. وكان من بين أولئك الحكمـــاء الملك "وان" وابنه "تشيو كونج" (Cheu Kung) و "لاو- تزو" (Lao-tzu)، وجمـــيعهم يحظـــون باحترام بالغ من أهل الصين على مختلف أعمارهم.

إن أســـلوب الحياة والمبادئ التي قدمها "لاو- تزو" في القرن السادس قبل الميلاد والذي كان معاصرا لكونفوشيوس.. تُعرف باسم "الطاوية".

وفي الطاويـــة تتركز الحقيقة الأزلية في كائن يُعرف باسم "طاو" (Tao) الذي كانـــت صـــفاته روحية وليست مادية. ويمكن تعريف "طاو" بأنه التجسيم الكـــامل لجمـــيع الفضائل الأزلية. وهذه الفضائل هي بعينها نفس الصفات الربانـــية المذكـــورة في حـــق الله تعالى في الإسلام، وفي الديانات السماوية الأخرى التي هي من وحي الله عز وجل.

والطاويـــة تُعلم الإنسان أن يُخضِع نفسه تماما للحق (طاو)، وأن يُجاهد ليصـــوغ حـــياته حســـب صفات "طاو". فإن "طاو" هو المثل الأعلى، والطاويـــة هـــي السبيل لإحراز القرب من ذلك المثل الأعلى ونفس هذه الســـبيل هي التي انتهجها القرآن المجيد فيما يتعلق بالعلاقة بين الله تعالى والإنسان. يقول تعالى:

﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾
(٢ البقرة:١٣٩)

إن الله تعالى يُعرَّف في الإسلام من خلال صفاته القدسية، والهدف الذي جُعل أمام المسلمين هو أن يتخلقوا بهذه الصفات، وأن يصوغوا حياتهم على منوالها. والوصف الذي قدمه لاو-تزو لطاو يماثل تماما صفات الله الحسنى المذكورة في القرآن المجيد. إذ كتب لاو-تزو يقول:

"إن طاو الكبير واسع وعظيم. وهو في الشمال وهو في اليمين. وتعتمد عليه جميع المخلوقات، ولا يُتعبه أبدا كفالته لهم. إنه يصل بالخليقة إلى الكمال، ولا يبتغي منها أجرا على ذلك.

إنه يرزق جميع خلائقه، ولا يسألهم أجرا على ذلك حتى لا يُظن أنه صغير وحقير.

إن الخلائق كلها تتجه إليه في جميع ما تحتاجه، ولكنه لا يُبقي لنفسه شيئا، ولهذا فإنه يستحق أن يُسمى "الأعظم". إنه لا يعتبر نفسه عظيما، ولهذا فإنه عظيم بحق".[1]

وأيضا هناك وصف آخر يقول:

"الناس يبحثون عنه ولكنه لا يُرى، ذلك هو الكائن الذي لا لون له.

والناس ينصتون له ولكن ليس له صوت، ذلك هو الكائن الذي يمكن أن يسمى "الساكن".

يمكن للناس أن يحوزوه ولكنهم لا يستطيعون أن يُمسكوه بأيديهم، ولذلك يمكن أن يُسمى "الخفي". ولا يستطيع أحد أن يدرك المصدر الأعظم لهذه الصفات الثلاثة، ولكنها موجودة في كائن واحد. ورغم أنه لا يضيء فلا يوجد ظلام من تحته.

وحيث إنه غير محدود فلا يمكن أن يوصف.

إن جميع أشكاله تستحيل إلى لا شيء، لذلك يمكن أن نقول إنه لا هيئة ولا شكل له؛ فصورته بغير هيئة.

إنه يسمو عن الإدراك (لأنه أندر الأشياء).

ولتحاول أن تصل إلى بدايته، فلا يمكن أن ترى له بداية. وابحث عن

نهايـــته، فلا يمكن أن تتصور لـــه نهاية. لذلك عليك أن تتبع السبل القديمة وأحسن حاضرك". [٢]

وكذلك في مقطع آخر يأتي وصف "طاو" كما يلي:

"إنه لا ينقسم ولا يتجزأ، ولا يمكن إدراك وتصور حقيقة كنهه. كل الخلق بدأ منه. وهو كان موجودا قبل أن تُخلق السماء والأرض. إنه أحد وحيد بلا شكل ولا صوت. وهو كائن مستقل ولا يحتاج لعون مـــن أحد. لا يتغير فيه شيء. إنه في حركة دائبة ولكنه لا يتعب ولا يكل أبدا. ويمكن أن يُعتبر أنه السبب الحقيقي وراء الكون". [٣]

هـــذا الوصـــف المذكور لطاو في المقاطع المذكورة عاليه موجود أيضا في بعض الآيات القرآنية، التي تبرز كل ما أبرزته هذه الاقتباسات حين تُقرأ بعضها مع بعض.

لقـــد لخـــص مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية سيدنا مرزا غلام أحمد القادياني المولود في بلدة قاديان بالهند الصفاتِ الإلهية المذكورة في القرآن المجيد في الكلمات التالية:

"إنه قريب مع أنه بعيد، وهو بعيد مع أنه قريب...

إنه فوق الجميع، ومع ذلك لا يمكن أن يُقال إن أحدا تحتَه.

إنه في السماء ومع ذلك لا يمكن أن يُقال إنه ليس على الأرض.

إنـــه يجمـــع في ذاته كل الصفات الكاملة، وتتجلى فيه جميع الفضائل الحسنى التي تستحق كل حمد وثناء". [٤]

ومن المناسب هنا أن نذكر أن للفلسفة الصينية جذورها في الدين، ولكن بمـــرور الوقت أخذت هذه الجذور الدينية تذبل وتضمحل إلى أن تلاشت واندثـــرت. وقد تمسك الأتباع بالفلسفة نفسها ولكنهم ظنوا أنه من غير الضروري إبقاء الصلة المباشرة مع المصدر الذي كان يُغذيها. وقد ترتب على هذا أن بدأ يخبو الوجود الإلهي في الأذهان، وتوقف أتباع "طاو" عن تنمـــية روابطهـــم معـــه باعتباره الكائن الحي الأعظم. وباختصار، ومثل الكنفوشيوسية، كانت الطاوية أيضا في مصدرها تؤمن بإله حي.. وتعتبر أنه

الحقيقة الأزلية.

وفي المصـــنفات الأصلية للطاوية والكنفوشيوسية.. لم يكن من الكافي مجرد الفهـــم العقـــلي لطاو، ولكن الهدف الكلي للحياة يتحدد في صياغة خُلق الإنسان وأعماله حسب فهم طاو.

ومـــع هـــذا، ففي مصادر الطاوية التي ذُكرت فيما سبق، بدأ الإيمان بطاو.. كخـــالق حكـــيم وأزلي.. يندثر خلال العصور، غير أن فكرة الوحي نفسها ظلـــت حية، ولكن مختفية تحت اسم الإلهام. وكان التحول السافر من الوحي الإلهـــي.. إلى إلهام النفس بغير مصدر إلهي.. هو الاتجاه السائد بين المفكرين الروحيين في العصور اللاحقة، حتى لم يبق أي أثر للربوبية في كتاباتهم. وصار الإلهام بالنسبة لهم مجرد ظاهرة داخلية، حيث يمكن من خلال التأمل والتفكر العمـــيق أن يصـــل المرء إلى ينبوع الحقيقة الكامنة داخل نفسه، ولا شك أن الغوص في أعماق النفس يمكن أن يقود المرء إلى اكتشاف الحقيقة الباطنة، ولكن التجربة الطاوية في الإلهام.. كما جاءت في الأعمال الطاوية الموثوق بها.. لم تكن تتعلق بالباطن كلية.

والإلهام في رأيهم له حدوده الخاصة فهو لا يمكن أن يقود الإنسان إلى الحقيقة الموضوعية التي تقع فيما وراء قدرة الإنسان الذي يخوض تجربة الإلهام.

إن أســـاس الطاويـــة نفسه يقوم على الرؤيا العظيمة التي رآها "فو شي"، والإلهـــام.. مهما كان التوسع في تعريفه.. لا يمكن بأية حال من الأحوال أن ينطـــبق على تلك الرؤيا. فحين تم تفسير تلك الرؤيا، تبين أنها تتضمن ينابـــيع من المعارف، أدت إلى نشأة الكثير من الفلسفات والعلوم الصينية المـــتقدمة، بعد مضي أزمنة طويلة فيما بعد. ويكفي هذا لتوضيح النقطة الـــتي نبتغي توضيحها، وهي أن الإلهامات وأحاديث النفس لا يمكن أن تخلـــق النبوءات، ومن المستحيل أن تكشف عن وقائع المستقبل، التي عند تحققها تقف شاهدا على وجود إله عليم، أعظم من كل ما سواه.

المراجـــــــع

1. DAN, L. (1969) *The Works of Lao Tzyy*. Truth and Nature. The World Book Company, Ltd. Taipei, Taiwan, China. Ch. 34, p.17
2. DAN, L. (1969) *The Works of Lao Tzyy*. Truth and Nature. The World Book Company, Ltd. Taipei, Taiwan, China. Ch. 14, p.6
3. DAN, L. (1969) *The Works of Lao Tzyy*. Truth and Nature. The World Book Company, Ltd. Taipei, Taiwan, China. Ch. 25, p.12
4. *Al-Wasiyyat. Roohani Khazain*, 1984 edition, Vol.20, p.310

الفصل الخامس
الزرادشتية

في التاريخ الفارسي.. كانت أكثر الإسهامات الجديرة بالذكر في مجال الفلسفة الدينية هي الزرادشتية. وفي هذه الفلسفة.. نجد أن صفات الحق والخير ليست وحدها أزلية، وإنما تشترك معها في الأزلية أيضا صفات الشر والضلال. وكل من هذه وتلك لها آلهتها التي لها أوامرها وإدارتها المستقلة. فهناك إله الخير.. أهورا مازدا (Ahura Mazda)، ويُعرف أيضا باسم إله النور، وهناك إله الشر.. أهرمان (Ahraman)، الذي يُعرف أيضا باسم إله الظلام؛ وكل منهما له دوره الخاص المحدد الذي يقوم به. وجميع الأنشطة التي تحدث في الكون إنما تحدث نتيجة للصدام المرير والتفاعل بين هذين الإلهين المقاتليْن، اللذيْن انخرطا في معركة بشعة للبقاء والتفوق.

إن قوى إله الخير تحاول على الدوام أن تسيطر على قوى إله الشر. ومثل الأرجوحة التي يعلو فيها طرف ويهبط فيها الطرف الآخر، فإن نتيجة هذا الصراع تنتقل من جانب إلى آخر، أحيانا لصالح الخير، وأحيانا لصالح الشر. وعلى ذلك فإن الفلسفة الزرادشتية تقدم شرحا بسيطا لوجود الشر والمعاناة ووجود الخير والسعادة في نفس الوقت، وذلك بإرجاع سبب وأصل كل منهما إلى مصدرين مختلفين. وكل الشرور في العالم – مثل الألم، والحزن، والكآبة، والجهل، والمعاناة – تنشأ حينما يكون لإله الشر اليد العليا.

ومن الواجب أن نذكر هنا أن زرادشت* عليه السلام (Zoroaster)، في حوالي

* كان زرادشت نبيا عظيما في بلاد فارس، ويعتقد الكثير من الزرادشتيين أنه كان يؤمن بثَنْوية الإله، أي أنه كان يؤمن بوجود إلهين اثنين، بينما يؤمن الكثيرون بأنه كان مُوَحِّدا. ⮌

القرن السادس قبل الميلاد، كان يُعلِّم بالفعل أن قوى الشر والخير تشترك في الوجود لتُمكِّن الإنسان من استخدام إرادته الحرة. وعلى ذلك فإن الإنسان سوف يحاسب في النهاية وفقا لنواياه وأعماله الطيبة والسيئة. وكان من تعليم زرادشت عليه السلام أيضا أن الكون قد خُلق بواسطة إله النور وأن قوى الخير سوف تنتصر في النهاية.

ومن الدراسة المتفحصة للزرادشتية.. يمكن للمرء أن يستنتج بسهولة أن ما صار فيما بعد يُسمى بإله الظلام، المستقل في وجوده عن إله النور، ليس في الحقيقة سوى ما يُقابل فكرة الشيطان الموجودة في الأديان التقليدية الأخرى، مثل اليهودية والمسيحية والإسلام. ويبدو أنه في بعض المراحل المتأخرة.. بدأ أتباع زرادشت عليه السلام يسيئون فهم فلسفته عن الخير والشر، واعتبروا أنهما مظهران لكائنين أعظمين مستقلين عن بعضهما البعض، ويتمتع كل منهما بالأزلية. هذا هو جوهر الفكرة الزرادشتية لمذهب الثَنْوِية الإلهية. غير أنه حين إلقاء نظرة أخرى على الفلسفة الزرادشتية، فإنه يمكن للدارس المتفحص استنتاج أن الأمر لا يتعدى كونَه اختلافًا في المسميات، وذلك هو الذي خلق انطباعا خاطئا في التطابق بين الاثنين.

إن الدور المنوط بالشيطان في الأديان الأخرى هو نفس الدور الذي يقوم به "أهرمان" في الزرادشتية. ومن المرجح أن الزرادشتيين في العصور المتأخرة قد خلطوا بين تصور فكرة الشيطان وفكرة وجود إله مستقل للشر، وصاروا يعتقدون أنه السيد الأعظم لقوى الظلام. وهكذا يتبين أن سقطة في الفكر أدت بهم إلى سقطة أخرى، وبهذا صار أهرمان.. "إله الشر".. مشاركا في الأزلية مع الإله الخالق الواحد والأعظم.

وإنه لمن الصعب تعيين الزمن على وجه التحديد الذي بدأ فيه هذا الفهم

وهناك اختلاف حول الحروف التي تكون اسمه وكيفية نطقها، وقد اخترنا لفظ زرادشت، وهو الاسم الأكثر شهرة له، غير أن نيتشة قد أطلق عليه اسم زراسوترا، وحيثما ذُكر أي من الاسمين.. فليعلم القارئ أنهما يعودان إلى نفس الشخص. منه

الخاطئ يزحف إلى العقائد الزرادشتية، ولكن هناك أمر واحد يمكن التأكيد عليه، وهو أن الملك "كورش" (Cyrus) الذي عاش حوالي ٥٩٠-٥٢٩ق.م. والذي كان أحد تلامذة زرادشت المثاليين، كان أبعد ما يكون عن عقيدة ثنوية الإله.

إن المقام الأسمى الذي بلغه "كورش" في الزرادشتية.. كان يفوق حتى ذلك المقام الذي بلغه "آشوكا" في البوذية. لذلك فإن الحكم على الزرادشتية من خلال النظر في مرآة "كورش" سيكون أقرب إلى الصحة من الحكم على البوذية من خلال النظر في مرآة "آشوكا". ومن الممكن إثبات أن "كورش" كان يؤمن بعقيدة التوحيد، وذلك من خلال الإشادة التي نالها "كورش" في العهد القديم من الكتاب المقدس، والتي جاءت في سفر أشعياء الإصحاح ٤٥ من الفقرة الأولى إلى الفقرة الخامسة. إذ أنه من المستحيل تصور أن "رب إسرائيل" يمكن أن يُثني على "كورش" هذا الثناء الجليل، لو أنه كان من المؤمنين بعقيدة ثنوية الإله. يقول أشعياء النبي:

> "هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش الذي أمسكتُ بيمينه لأدوس أمامه أمما وأحقاء ملوك، أحلُّ لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تُغلق. أنا أسير قدامك والهضاب أمهد. أكسر مصراعي النحاس ومغاليق الحديد أقصف. وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابئ لكي تعرف أني أنا الرب الذي يدعوك باسمك إله إسرائيل. لأجل عبدي يعقوب وإسرائيل مختاري دعوتك باسمك. لقّبتك وأنت لست تعرفني. أنا الرب وليس آخر. لا إله سواي ..."[١٤]

إن كورش العظيم يُذكر أيضا في القصص المروية عن القدماء، باعتبار أنه الملك المثالي المشهور بالتسامح والكرم، وأن الفُرس القدماء كانوا يلقبونه بلقب "والد الشعب". وقد أثنى عليه الكتاب المقدس، وذكره بالتشريف والتكريم باعتباره محرر اليهود من قيود الأسر في بابل.

وباختصار، فإن صورة الملك "كورش" قد عاشت خلال التاريخ باعتبار

أنه رجل ذو صفات فريدة. وقد أسس إمبراطورية عظيمة واسعة، من النادر أن يستطيع العظماء من الأبطال تأسيس مثيل لها. ومن بين جميع الأباطرة.. كان هو الوحيد الذي أفلت من لوم جميع المؤرخين الذين كتبوا عن عظماء التاريخ، إذ لم يستطع أحد أن يتهمه بذرّة من شائبة تشوب خُلقه كرجل، أو هنّة تعيب سلوكه كملك.

لقد كان يجمع في شخصه كل الصفات الحميدة التي يمكن أن تتوفر في الحاكم. ففي الحروب كان قائدا شجاعا باسلا غير هياب، وعند الانتصار كان شهما كريما، ولا بد أن إيمانه العميق بوحدانية الله الذي غزا كل قلبه كان نابعا من زرادشت عليه السلام نفسه.

إن الزرادشتية في كل سماتها هي الأقرب إلى اليهودية والإسلام. ولهذا فإن جميع عقائدها عن الخير والشر، والنور والظلام، لا بد وأن تكون مطابقة لمثيلاتها في اليهودية والإسلام. ومن المحتمل جدا أن يكون "أهرمان" ليس سوى اسم آخر للشيطان ولا أكثر.

والسؤال الوحيد الذي ينبغي العثور على إجابة له هو لماذا يجد الزرادشتيون أن لفكرة ثنوية الإله سحر خاص، حتى إنها بمجرد أن استحوذت على قلوبهم وترسخت فيها.. استمرت في رسوخها واتخذت لها مستقرا ومكانا ثابتا في العقائد الزرادشتية؟ ولا بد أن يكون هذا قد حدث خلال مرحلة من الأنشطة الفلسفية المركَّزة التي أقلق فيها المفكرين الزرادشتيين مسألة الشر والمعاناة على الخصوص. وهي مشكلة أزعجت الإنسان منذ زمن ساحق. وعلى مر العصور.. قدم الكثيرون من ذوي الرأي بين أصحاب مختلف الأديان آراءً متباينة لتبرير إيمانهم بإله طيب.

وفي أثينا أيضا، خلال نفس المرحلة، فإن نفس السؤال أثار اهتمام الكثير من المفكرين الأخلاقيين والدينيين والعلمانيين. ولم يكن من الصعب عليهم أن يجدوا حلا لهذا السؤال العويص، حيث إن معظم أهل أثينا كانوا يؤمنون بآلهة ميثولوجية متعددة، لم يكن مستبعدا عن بعضها أن

يتورع عن الكذب وارتكاب الحيَل لخداع الإنسان.. وحتى الآلهة الأخرى. وقد جاء ذكر تلك الخدع والحيل واعتبارها أمرا مقبولا من الآلهة في الإلياذة التي كتبها هومر. ومع ذلك، فقد وُلد بين أهل أثينا من كان فيلسوفا موحدا، وهو سقراط الذي ولد في عام ٤٧٠ قبل الميلاد. لقد كان نبيا بين الفلاسفة، وكان فيلسوفا بين الأنبياء، وكان يؤمن إيمانا لا يتزعزع بوحدانية الله تعالى. ولم يخطر بباله أدنى شك في أن الله تعالى هو الخير المطلق. وهذا هو ما تضمنه خطابه الأخير أمام مجلس الشيوخ في أثينا. ولم يكن إيمانه بالله وبأنه هو الخير المطلق نابعا من مجرد تفكيره الحاذق أو تجاربه الميتافيزيقية، وإنما كان يؤمن بذلك لأنه شخصيا كان يعرف الله هكذا منذ الأيام الأولى لطفولته. بل إنه قد تربى في حجر الله وتحت رعايته ومحبته. هذا هو سقراط الذي عالج أيضا السؤال الحالي معالجة منطقية عميقة، ولكنه كان منطقا استُنفذ في إثبات استحالة أن يكون أي شر قد نبع من الله تعالى. فحين تأتي المسألة إلى موضوع الشر والمعاناة في العالم، كان يعتبرهما أخطاء بشرية، من المستحيل منطقيا أن يكونا قد انبثقا من عند الله تعالى. فالله لا بد وأن يكون خيرا، وقد كان خيرا، ولا يمكن أن يكون إلا خيرا. وبالتالي. فإن الشر لا بد وأن يكون قد نتج من أهل الأرض، وليس لله دخل في الأعمال الدنسة التي يرتكبها الناس. وهكذا كان جوابه بسيطا، ولكنه ترك مجالا للآخرين للهجوم عليه فلسفيا حتى انتهى الأمر بمحاصرته في موقف دفاعي. ولم يقتنع المفكرون الزرادشتيون في إيران بهذه الإجابة، فأخذوا يسبرون أغوار المسألة، وراحوا يتساءلون عن أولئك الرجال الأشرار الذين يتسببون في وجود الشر ومن الذي خلقهم. فإذا كان الله هو خالقهم، فلا بد أن يكون هو المسؤول في النهاية. لذا.. ومن أجل قطع كل الروابط بين الخالق والشر كلية، فلا بد أن يكون المفكرون الزرادشتيون قد اخترعوا وجود خالق آخر معه. وكان أحدهما يوصف بأنه إله الخير والآخر بأنه إله الشر،

وكان كل منهما يباشر ألوهيته في مجاله الخاص به من نور أو ظلام.
وبالمناسبة، فإنه من الضروري أن نذكر هنا أنه ليس جميع الزرادشتيين يؤمنون بالضرورة بما يسمى عقيدة ثنوية الإله. فلا يزال هناك أولئك الذين يدافعون بقوة عن وحدانية الله في الزرادشتية، رغم أن أعدادهم اليوم تعتبر ضئيلة. ولا بد أن معظم هؤلاء الموحدين قد انجذبوا بشدة نحو الإسلام حين دخل إلى إيران. ومن الضروري أن نتذكر أنه باستثناء ثنوية الإله هذه وما أدت إليه من عبادة النار، فإن الزرادشتية تقترب كثيرا من الإسلام أكثر من قربها لأي دين آخر.
إن الله في الزرادشتية، الذي يسمى "أهورا مازدا"، يُذكر بنفس التعبيرات وله نفس الصفات التي تُستخدم في جميع الأديان العظمى. إلا أن المفكرين الزرادشتيين ظنوا أنهم قد حلوا معضلة الشر والمعاناة بإلقاء كل اللوم على الضحية أهرمان. ولكن الأمر ليس بهذه السهولة. إن سُقراط أيضا الذي كان معاصرا لهم لا بد وأن يكون قد سمع بالمعضلة، أو لعله أمعن الفكر فيها بنفسه، غير أنه رفض هذه الفكرة تماما، وتمسك بوحدانية الله بكل إخلاص. أما التبرير الزرادشتي.. فبالرغم أنه يبدو كأنه أوجد حلا للمعضلة، إلا أنه خلق مشكلة أخرى أكبر وأعصى حلا. وسوف نعالج هذا الأمر فيما بعد، أما الآن فيجب أن نضع في الاعتبار أن الشر في ذاته ليس له وجود مستقل.. حتى يستدعي الأمر أن يكون له خالق يخلقه. وفي الواقع.. إن الشر هو مجرد اسم آخر لغياب الخير. وغياب الخير يبدو واضحا فقط حين يلعب النور والظل لعبة الغَمْضيّة (لعبة الأطفال التي يغمض فيها أحدهم عينيه فيختبئ الآخرون ثم يبحث عنهم). غير أن الظل ليس شيئا أساسيا. إن ما يهم هو وجود النور الذي يبدو أنه يخلق الظلال. ولكن الحق أن النور لم يخلق الظلال، فليست الظلال في الحقيقة إلا غياب النور، وتتولد الظلال حينما يحجز النورَ شيءٌ ما. ولذلك لم يكن هناك ما يدعو الزرادشتيين الذين جاءوا في العصور اللاحقة.. إلى أن يخلقوا شيطانا

من اختراعهم ويسموه "أهرمان". والخير مثل النور.. هو الذي في حاجة إلى أن يُخلق، وأما الشر في حد ذاته فلن يظهر إلا إذا غاب الخير. وعلى ذلك.. إذا كان "أهرمان" هو إله الظلام، فلا بد أن يكون هو نفسه نتاج غياب النور والفضيلة، فلا يكون هو خالقهما.

وفي ضوء ما ذكرناه حتى الآن يمكن أن نقرر باطمئنان أن زرادشت عليه السلام كان يؤمن فقط بإله الخير وليس بإله آخر، فقد كان يتلقى الوحي منه. والمعرفة بالنسبة لزرادشت والحقيقة الأزلية كانت تُستقى من الوحي الإلهي مباشرة ولا تُستمد من المنطق أو الإلهام وأحاديث النفس.

وعودة مرة أخرى إلى الحل الزرادشتي لمعضلة وجود المعاناة والشر، ولنحاول أن نبحث هذه الفلسفة مرة أخرى وبعمق. كيف جاءت المعاناة إلى الوجود؟ وما هو معنى المعاناة؟ إذا كان هناك إله قائم بذاته يدبر أمور الشر وآخر يخلق الخير، فماذا عساه يكون النتاج النهائي للنّزاع بينهما ومحاولة كل منهما للانتصار على الآخر؟ من الذي يكسب المعركة ولماذا؟ ورغم أن الزرادشتيين يأملون أن يكون الانتصار النهائي في جانب الخير، إلا أن فلسفتهم لا تُزودنا بأسباب هذا الانتصار، ولا لماذا من المحتم أن يظهر الخير على الشر. فإذا كان الإلهان مستقلَّين في وجودهما، ولكن أحدهما أضعف من الآخر، فلا بد للإله الأقوى أن يكون قد أباد وأفنى الأضعف منذ وقت سحيق. وهكذا.. فلا بد بمرور الزمن أن يكون الخير قد ساد وظهر على جميع قوى الشر. وحيث إن هذا ليس هو الحال، فينبغي أن يكون كل من الإلهين متوازنين ومتساويين في قوتهما، ويكونان بذلك في صراع أزلي بعضها مع بعض مثل الأرجوحة التي يعلو جانب منها وينخفض آخر، وفي هذه الحالة.. لا أمل في انتصار الخير على الشر.

والأمر الهام الآخر الذي نرى ضرورة الرجوع إليه هو مسألة المعاناة. فكما سبق تبيانه.. رغم أن لفلسفة ثنوية الإله في الديانة الزرادشتية بعض التفوّق الواضح، إلا أنها فشلت في حل المعضلة. فإن ثنوية الإله هذه حين

تُبحث بعمق نجد أنها لا تصلح بتاتا في حل سر المعاناة في نظام الخلق الذي يكون الخالق فيه حميد الخصال وكريم السجايا. وسوف نعالج هذا الموضوع معالجة خاصة ومستقلة لما يستحقه من اهتمام.

المراجـــــــع

1. *The Holy Bible.* (1982) The New King James Version. Thomas Nelson Publishers, Nashville. Isaiah 45:1-5

الفصل السادس
مسألة المعاناة

حينما نتمعن في تاريخ النشوء والارتقاء بحثا عن العوامل المسببة لظهور أعضاء الإحساس مع ارتقاء الحياة، نستطيع بكل اطمئنان أن نستنتج أنه منذ البدء كانت تلك الأعضاء سببا للشعور بالكسب والخسارة. وقد كانت رحلة الارتقاء عملية طويلة لاستيعاب غامض للكثير من المكاسب والخسائر، أدت بالتدريج إلى ارتقاء أعضاء الحواس لتسجيل وجود البهجة والألم، والراحة والمعاناة.

وإذا نظرنا إلى ما سبق من الأشكال الدنيا في الحياة، عند الدرجات الأولى من سلم الارتقاء، ثم أخذنا نقارنها بأشكال الحياة العليا قرب قمة السلم، فلا يكون من الصعب ملاحظة أن الارتقاء في حقيقة الأمر هو ارتقاء الإدراك. فالحياة تتحرك تصاعديا في حركة لولبية مستمرة.. من حالة دنيا للإدراك إلى حالة أعلى، مع الصقل المستمر لقدرات الوعي والإدراك.

إن الوعي بالمكسب والخسارة يكون خاملا وخفيا عند البداية، ولا نستطيع أن نحدد مركزا أو مكانا معينا لهذا الوعي والإدراك في تشريح الكائنات العضوية الأولية. ولكننا نعلم من ردود فعلها للعناصر والظروف المحيطة بها أن لها نوعا من الوعي الخفي. وهذا الوعي الخفي.. الذي لا يمكن شرحه.. هو الذي يستخدمه الخالق تعالى لإيجاد نوع من الإدراك في الحياة. وقد تطور هذا النوع من الإدراك، وصارت له مراكز خاصة في الكائنات الحية. وهذه المراكز هي التي ترسبت فيما نعلم عنه الآن أنه مراكز الحواس. وخَلْق المخ لم يكن واقعة منفصلة أو غير مرتبطة بهذا التطور. فلن يكون لتطوير أعضاء الإحساس معنى بغير تطوير مقابل لجهاز

عصبي مركزي، ونشوء المخ في نفس الوقت ليترجم الإشارات التي ترسلها الأعضاء الحسية. وعلى هذا، يكون من الواضح أن المخ قد تطور في تناظر هام لنظام الإحساس الأساسي. وكلما تطور الوجدان والشعور.. كلما زادت حدة الشعور بالمكسب والخسارة التي تشعر بها المراكز العصبية المعينة، فتترجم الإحساس بالخسارة إلى معاناة وألم، وتترجم الإحساس بالكسب إلى بهجة وسعادة، وتنتقل هذه المشاعر إلى العقل عن طريق المخ. وكلما قل الإدراك والشعور.. كلما قل أيضا الشعور بالمعاناة والألم. وينطبق نفس الأمر على الشعور بالسعادة. وعلى هذا فإن الأجهزة الحسية التي تزود الكائن بشعور البهجة والألم.. لا يمكن الاستغناء عنها. ومن الملاحظ أنه إذا قلت القدرة على الإحساس بالألم والمعاناة لدى أي كائن، تقل أيضا القدرة على الإحساس بالبهجة والسعادة بنفس القدر عند نفس الكائن. ويبدو أن القدرتين متساويتان تماما في دفع عجلة التطور؛ وكلاهما على نفس القدر من الأهمية، إذ لا يمكن إلغاء إحدى القدرتين دون الأخرى، الأمر الذي يخل تماما بفاعلية النظام الخلاق الذي يعمل على التطور والتقدم.

ونحن نفهم من القرآن الكريم أن الله تعالى لم يخلق المعاناة كشخصية مستقلة قائمة بذاها، ولكن كمقابل لا يمكن الاستغناء عنه للراحة والبهجة. فغياب البهجة هو معاناة، وهي بمثابة الظل للبهجة، تماما كما أن الظلام هو الظل الذي يسببه غياب النور. إذا كانت هناك حياة.. فلا بد أن يكون هناك موت، يقف كل منهما على أقصى طرفي القطبين لمستوى واحد، وفيما بينهما ظلال ودرجات لا حصر لها. وكلما ابتعدنا عن طرف الموت.. فإننا نقترب بالتدريج من طرف الحياة، الذي يمثل الشعور بالسعادة؛ وكلما ابتعدنا عن طرف الحياة، فإننا نقترب نحو الموت بإحساس من الألم والمعاناة. إن هذا هو المفتاح اللازم لفهم الصراع من أجل البقاء، الذي يؤدي بدوره إلى التحسين المستمر في نوعية الحياة،

ويساعدها على تحقيق الهدف الأسمى للتطور.

إن مبدأ "البقاء للأصلح" يلعب دورا هاما متمما لنظام الحياة العظيم وارتقائها. وقد ذكر القرآن المجيد هذه الظاهرة في الآيات التالية من سورة الْمُلك:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (٦٧ الْمُلك:٢-٣)

إن إجابة السؤال: "لماذا توجد المعاناة؟" قد جاءت بوضوح في هذه الآية وفي أوسع تطبيقاها.

والفلسفة العميقة للحياة والموت، ودرجات الظلال العديدة بينهما، والدور الذي تلعبه في صياغة شكل الحياة وتحسين نوعيتها، كل ذلك تشمله وتغطيه الآية المذكورة، فهي تحتوي على الغرض من الخلق والحياة والموت كما يُبينه الله تعالى. فنحن نعلم أن الحياة هي فقط قيمة إيجابية، وأن الموت ليس إلا غياب هذه الحياة، ولا يوجد بينهما حد معين يفصل أحدهما عن الآخر، وإنما هي عملية تدريجية.. تتدرج فيها الحياة في اتجاهها نحو الموت حتى تختفي. وفي الاتجاه الآخر أيضا حين لا يكون للحياة وجود، أي في حالة موت، ثم تتجه الحياة من حالة العدم إلى حالة الوجود، فتكتسب القوة والطاقة والإدراك.. وهي تسير في طريقها نحو الموت. هذا هو المقصد الأعظم في خطة الخلق. ولكن.. لماذا خلق الله هذا النظام للحياة؟

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾

هي الإجابة التي يُزودنا بها القرآن المجيد. فالصراع المستمر بين الموت والحياة، هو الذي يُخضع الأحياء إلى حالة مستمرة من المحن والابتلاءات، حتى إن كل من يسلك في الحياة مسلكا رشيدا، تكون له فرصة أكبر في

الحياة، وينتقل إلى درجة أعلى من الوجود. وهنا تكمن فلسفة وميكانيكية التطور كما هي مذكورة في الآية المشار إليها أعلاه. وهذا الصراع المستمر بين قُوى الحياة وقُوى الموت هو الذي يزود الأحياء بالقوة الدافعة التي تجعلهم يتحركون باستمرار بعيدا عن الموت أو في الاتجاه إليه. وقد تؤدي هذه الحركة المستمرة إلى التقدم أو إلى التدهور في نوعية الوجود، حسب النطاق الواسع لمتغيرات التطور. وهذا هو جوهر التطور وروحه.

إن المعاناة تكون محل اعتراض فقط لو كانت قد خُلقت كذات قائمة بنفسها، دون أن يكون لها دور معنوي تؤديه في تدبير الأمور الدنيوية. فبغير الإحساس بالمعاناة.. أو بغير الإدراك لما تعنيه، سوف يختفي أيضا الشعور بالراحة والفَرَح. وبدون مواجهة الألم وتجربة البؤس، لا بد أن يفقد الفرح والسعادة كل معنى. بل في الواقع.. إن الحياة نفسها سوف تفقد كل معنى.. ولا يكون لها هدف، وسوف تتوقف عجلة التطور.. وتجمد خامدة في مكانها. وعلى هذا.. خلال تطور حواسنا الخمسة، لعب الإحساس بالكسب والخسارة دوره الهام في الحياة.. تماما مثل عجلتي العربة التي تتحرك عليهما. انزعْ إحدى العجلتين وسوف تفقد الأخرى أيضا معناها، وبالتالي تتوقف العربة على الفور.

إن الصراع بين الحياة والموت الذي ينتج عنه الألم والمعاناة، يخلق أيضا البهجة والسعادة. وهو العامل الأول في قوة الدفع التي تزود عربة التطور بالطاقة اللازمة للتقدم إلى الأمام دائما.

وخلال التاريخ الطويل للتطور.. كانت الأمراض تتسبب دائما عن عوامل عديدة ترتبط بطريق مباشر أو غير مباشر بالتغيرات التطورية. فالتغييرات البيئية، والصراع من أجل البقاء، والطفرات، والحوادث، كلها مجتمعة.. أو كل منها على حدة، قد لعب دوره الخاص. فالأمراض والعيوب والقصور، كلها لها دور هام تلعبه لتحقيق الإصلاح والتقدم. وهكذا راحت أنواع الحياة المختلفة ترتقي وتتطور بغير وعي من جانبها كما

يبدو، ولكن بالتأكيد في اتجاه معين، يبدو أنه اتجاه في طريق مهّده الإدراك ليصل إلى إدراك أعظم.

ولنحاول الآن أن نتصور نظاما آخر تحتجب فيه عوامل المعاناة، حسب قاعدة افتراضية تقول: إن جميع أشكال الحياة يجب أن تتمتع بجزء متساوي من البهجة والسعادة، بغير أي شعور بالمعاناة على الإطلاق. فربما عندئذ يمكن إلغاء المعاناة تماما من الحياة. وسوف تكون هناك مساواة مطلقة، يتمتع بها كل فرد، ويقف على نفس المستوى. ولكن.. كيف وأين يمكن لنا تنفيذ هذا النظام الجديد؟ وا أسفاه! حيثما نحاول إدخال هذا النظام في أية حلقة من حلقات التطور الطويل، فإننا نواجه من المشاكل ما لا يمكن التغلب عليه. فإن هذه القاعدة الافتراضية لا بد أن تُطبق إما عند البدء في أول بداية الخلق، أو لا تُطبق على الإطلاق، لأن تطبيق التساوي المطلق في أية مرحلة تابعة بعد البداية، سوف يكون مستحيلا بدون خلق متناقضات لا يمكن حلها. ولذا فإننا سوف نضطر إلى العودة إلى نقطة البداية من حيث بدأت الحياة.

ولا بد لنا أن نعود القهقرى طوال تاريخ الحياة؛ نرتد على الطريق إلى نقطة البداية لنبني سلما جديدا للتطور، درجة بعد درجة. ولكن فلنحاول ما استطعنا.. وسوف نجد أننا توقفنا عند أول درجة.. التي هي نقطة بداية الحياة نفسها. ولن نستطيع أن نتقدم بعدها خطوة واحدة إلى الأمام، لأن التوزيع المتساوي تماما للسعادة، والغياب الكامل للمعاناة، سوف يزيل تماما أية قوة دافعة للارتقاء. فلن يكون هناك صراع للبقاء، ولن يكون هناك اختيار طبيعي للأنواع، ولا بقاء للأصلح. ولن تتمكن الأشكال الأولية للكائنات الحية أن تأخذ أية خطوة للتطور إلى الأمام.

ولنتصور المرحلة الأولى للحياة التي كانت تمثلها ثلاثة أشكال من وحدات الحياة المعروفة لدى الإنسان، أي البكتريا ذات الأنوية، والبكتريا بدون أنوية، والبكتريا النارية (التي تتوالد من الطاقة النارية). وفي هذا النظام

الذي افترضناه.. لن يكون هناك تنافس من أجل الغذاء، ولا صراع من أجل البقاء، لأن الجميع يحصلون على نصيب متساوي من حاجياتهم، ولن يكون هناك أية معاناة أيضا. ويترتب على هذا النظام الافتراضي الذي أعدنا تصميمه للخلق، أن تستمر الحياة على ما كانت عليه، وتظل بكل تأكيد ساكنة وخامدة إلى الأبد، ثابتة على أولى درجاتها غير المتطورة. الأمر الذي يجعل خَلق الإنسان أمرا بعيد المنال عند بداية الخلق. وعلى هذا يكون السؤال الحقيقي هو ما إذا كان من الأفضل اختيار نظام تكون المعاناة فيه جزءا لا يتجزأ منه، ويستمر فيه الارتقاء يتحرك إلى أعلى بحركة لولبية لتحقيق المصلحة العليا للحياة، أو التخلي كلية عن خطة الحياة خوفا من عدم القدرة على تجنب المعاناة. وفي هذه الحالة من التحليل النهائي يكون السؤال المتبقي وعلينا إجابته هو: "أن نكون أو أن لا نكون"؟.

فالأشكال الأولية للحياة، لو كان لها مخ تفكر به، فلعلها كانت تختار "أن لا نكون" عن "أن نكون" في وجود فيه كدح وعناء لا معنى له.

كذلك فإن المعاناة ترتبط أيضا بفكرةٍ الجزاء والعقاب. ومن الممكن مشاهدة ومضات من الجزاء والعقاب في المملكة الحيوانية، ولكن في نطاق ضيق وتطبيق محدود. ويمكن ملاحظة ذلك في سلوك الكثير من الحيوانات في البر والبحر وفي طيور السماء. فالأفيال والثيران معروفة بنَزعتها الشديدة إلى الانتقام. هذه الخاصية التي تكونت تدريجيا لا بد أنها ترتبط بحلقة أعلى في التكوين التدريجي للاختيار. فإن اختيار أن تفعل شيئا أو لا تفعل شيئا، يمكن أن يكون إما فطريا غريزيا، أو بقرار محسوب للعقل. ونحن لسنا على يقين بعد بمدى الدور الذي يلعبه عنصر الاختيار في السلوك الحيواني، ولكننا نعلم أن عنصر الاختيار يلعب دورا حيويا في عملية اتخاذ القرار لدى الإنسان. وما إذا كان الإنسان يتحرك نحو النور أو الظلام، نحو الموت أو الحياة، هو في أغلب الأحيان قرار يقوم على العقل من جانب الإنسان.

وعلى هذا.. إذا ترتب على الاختيار الإرادي للإنسان، وكناتج طبيعي لهذا الاختيار الإرادي، أن أصاب الإنسان كسبا أو ألمت به عقوبة، فلن يقع اللوم على أحد سوى الإنسان نفسه.

وفي بعض الأحيان يتعرض الناس للمعاناة بغير أن يُدركوا أنهم هم أنفسهم محط اللوم – فهناك مبدأ عام للمجازاة يعمل في الطبيعة، ويُعرف باسم الانتقام الإلهي. ومن الجائز أن يكون المرء، بقصد أو بغير قصد، قد استحق بعمله أن ينال نوعا من المعاناة، بغير معرفة وبدون تحديد السبب. وذلك لأن ليس كل خطأ يؤدي إلى نتائج عقابية فورية. ولكن كثيرا ما يحدث أن تنفذ الطبيعة عدالتها ضد المذنب بغير أن يدرك هو ذلك. غير أن هذه ليست المشكلة كلها، فهي أكثر تعقيدا وأوسع تشابكا، وتحتاج إلى المزيد من الشرح والتوضيح بمساعدة بعض الأمثلة العلمية المعينة، سواء كانت حقيقية أو افتراضية.

وهناك بعض الحالات شديدة الصعوبة ويتعذر شرحها، مثل أولئك الأطفال الذين يولدون بتشوهات خلقية. لماذا كُتبت عليهم المعاناة؟ إذ لا يمكن أن يُقال إنه بسبب خطأ من جانبهم. وإذا كان هناك أي خطأ فلا بد أن يكون من جانب والديهم، رغم أن هذا الخطأ قد يكون وقع بغير قصد منهما. وفي هذا السياق فإن لفظ "الخطأ" يجب أن يُفهم حسب أوسع معانيه، ليشمل حتى الوقوع العارض لأمراض الولادة. فإن مثل هذه الأخطاء أبعد من أن تكون جرائم مقصودة. ومهما كانت طبيعة أي من الأسباب المؤدية لهذه التشوهات، فهناك أمر واحد مؤكد.. هو أن الطفل البريء المسكين الذي وُلد بأية إعاقة، ليس مسؤولا بحال من الأحوال عن هذه المعاناة.

إن مفتاح فهم هذه المشكلة يكمن في إدراك أنه ليست كل أشكال المعاناة يمكن أن تُصنف على أنها عقاب، كما أن كل أشكال الفرح ليست مكافأة وجزاء. فهناك دائما نسبة صغيرة من الأفراد الذين يبدو أنهم

يعانون.. كما لو كان ذلك بغير مبرر. ومع ذلك.. فعند التحقيق المتفحص والحريص لمثل هذه الحالات، سوف يتكشف أنه ليس هناك مجال لظلم متعمد. إنها مجرد نتاج ثانوي لخطة أوسع للخلق، ولكنها أيضا تلعب دورا مفيدا في التقدم العام للمجتمع الإنساني.

ويجب ألا ننسى أن "العلل والمعلولات" شيء، وأن "الجريمة والعقاب" شيء آخر، مهما بدا أنهما يتماثلان. فمن الصحيح أن يُقال إن الجريمة يمكن أن تعمل كما تعمل العلل، وكل عقوبة تنتج عن الجريمة هي من المعلولات، ولكن ليس من الصحيح أن يُقال إن كل معاناة هي عقوبة على جريمة ارتُكبت من قبل. وليس من الصحيح أيضا أن يُقال إن جميع الأطفال الذين وُلدوا بصحة جيدة، قد وُلدوا هكذا مكافأة لوالديهم على أعمالهم الطيبة. ولا أن يقال كذلك إن الأطفال الذين وُلدوا بأي نوع من التشوهات أو الإعاقة، قد وُلدوا هكذا عقابا على جرائم آبائهم أو أجدادهم. فالصحة والمرض، المهارة والإعاقة، السعادة والتعاسة، المزايا والأضرار التي ينالها المرء عند ولادته، كلها أمور لا غنى عنها في النظام العام للخليقة، حيث إنها جميعها تلعب أدوارها كعلل، وهي منفصلة انفصالا تاما عن ظاهرة الجريمة والعقاب، أو الخير والجزاء. وكما سبق أن ذكرنا فيما مضى.. إن المعاناة مثلها مثل البهجة.. كلاهما ضرورة جوهرية لتطور الحياة، وخلال تطورها لا ترتبط هذه الضرورات بتاتا بظاهرة الجريمة والعقاب.

إن المعاناة في دورها كعلة من العلل.. تنتج كمًّا واسعا من المعلولات التي لا غنى عنها وعن فوائدها، الأمر الذي يقتضي ضرورة وجودها.

لقد ظلت المعاناة معلما عظيما، تصقل وتهذب سلوكنا، تُطور وتنقح المشاعر، تُعلم التواضع والوداعة، وبأكثر من وسيلة.. تُعد البشر للالتجاء إلى الله تعالى. إنها توقظ الحاجة إلى البحث والاكتشاف، وتخلق الحاجة التي هي أم الاختراع.

أزِل المعاناة كعلة مُسببة لتفجير القوى الكامنة في نفس الإنسان.. وإذا بعجلة التقدم تدور إلى الوراء مائة ألف مرة.

قد يحاول الإنسان ما شاء له جهده أن يُغير من نظام الكون، ولكنه لن يجني سوى الخيبة والفشل. وعلى ذلك.. يكون موضوع إلقاء اللوم على الخالق عز وجل بسبب المعاناة لا أساس له على الإطلاق، لأن المعاناة، بدورها الخلاق المتواري الذي تلعبه، إنما هي في الحقيقة نعمة مخفية.

إن سر جميع البحوث والاكتشافات العلمية تعود إلى البحث الدائب عن وسائل لتخفيف الآلام، وتوفير أسباب الراحة. فمن النادر أن تقوم الدوافع وراء البحوث والاكتشافات العلمية على رغبة في الرفاهية، بينما تقوم معظمها على الحاجة إلى تجنب الألم. وعلى أية حال، فإن الرفاهية نفسها ليست سوى امتداد لنفس الرغبة، وإلى الميل للابتعاد عن حالة من التعب والضيق إلى حالة أخرى، تُعتبر بالمقارنة راحة وسلوى.

ولنبحث مرة أخرى موضوع "الأبرياء" الذين يُعانون دون ذنب أو جريرة.. الأطفال الذين يولدون بتشوه أو بإعاقة، أو أولئك الذين يقعون فريسة للأمراض فيما بعد، مثل التيفود وغيره من الأمراض التي تسبب الإعاقة، فلا تتركهم إلا عميا أو صما أو بكما، وربما تسبب لهم شللا جزئيا أو كليا يعانون منه طوال حياتهم. والأسوأ من ذلك.. هي حالة أولئك الأطفال الذين تتعرض أجهزتهم العصبية للتلف، نتيجة لوقوع حادث أو مصيبة أثناء الولادة، مما ينتج عنه إعاقة ذهنية وتخلف عقلي. فهل يكون من الصواب أن نسأل: لماذا يُصاب بالذات هذا الطفل "أ" أو ذاك الطفل "ب"؟ ولماذا لا يصاب طفل آخر وليكن "ج" مثلا أو "د"؟

ألا يتكرر السؤال مرة بعد مرة؟ لماذا "ج" أو "د" وليس "هـ" أو "و"، وهكذا؟

إن السؤال الوحيد الذي قد يبدو معقولا هو: لماذا يُصاب أي واحد من الأطفال على الإطلاق؟ وعلى هذا يكون الخيار الوحيد أمام الخالق هو أن

يخلق جميع الأطفال سالمين بصحة جيدة حتى يكونوا في ذلك سواء، أو يخلقهم جميعا مرضى فيكونوا أيضا سواء. وهذا يقودنا إلى إدراك أن صحة الطفل في حد ذاتها ليست سوى مجرد أمر نسبي. ولعله من الصعوبة بمكان العثور على طفلين اثنين متشابهين تمام المشابهة في كل شيء، حتى في التمتع بصحة العقل والقلب وجميع الأعضاء الجسدية.

ولعل البعض يرى أنه لا بد أن يكون هناك سؤال آخر ضد الخالق: فإن كان أحد الأطفال يولد بعينين ضيقتين، وأنف أفطس كريه المنظر، وأعضاء أخرى غير متناسقة الشكل، ألن يقاسي هو ويعاني طوال حياته حين مقارنة سوء منظره بغيره من المحظوظين من أقرانه؟

إن عدم المساواة في الصحة أو في الشكل تسبب الضيق والمعاناة المستمرة لدى معظم الأفراد، والبعض يُقاسي الأمَرّين عندما يجدون أنفسهم أقل حظا من غيرهم. ألا يستدعي هذا، باسم العدالة المطلقة، أن يخلق الله تعالى كل فرد من البشر ليكون متماثلا تمام التماثل في الصحة وفي الشكل مع باقي الأفراد؟

وحين توسيع مجال المقارنة بإدخال المواهب العقلية والقلبية والجسدية، والتناقضات بين المتميزين والمحرومين، يصير التشابه الكامل بين جميع الأفراد ضرورة أكثر أهمية وأشد تأكيدا. حتى وإن أمكن التخلص من الفروق الكبيرة الواسعة بين الأفراد، فسوف تظل الفروق القليلة البسيطة بينهم تبدو مزعجة، ومعارضة لمبدأ العدالة.

إن التنوع، والتغاير، والتعدد، لا بد أن يبدأ في مكان ما لكسر حدة التماثل الممل، ولكن حيثما وُجد التنوع والتغاير.. فلا بد من تَوَلد نوع من المعاناة أو الــبهجة. وهكذا يتبين لنا أن الاعتراض على نظام الدنيا باسم الشفقة على الأطفال المعاقين شيء.. واستبدال هذا النظام بآخر أكثر شفقة ونافعا بــلا عيوب.. شيء آخر تماما. وليحاول المرء أن يغير هذا النظام، ولكنه حتى ولو حاول لدهور طويلة، فلن يستطيع أن يستبدل النظام الذي وضعه

الله تعالى للخلق بنظام آخر أفضل منه. وهذا يأخذنا مرة أخرى إلى السؤال الـــذي أجبـــنا عليه في هذا السياق وهو: لماذا لا يمكن التخلص كليا عن المعاناة بجميع أشكالها، ولماذا هي أمر محتم؟

ولنبحث السؤال نفسه من زاوية أخرى.. من وجهة نظر الملحد، ومن وجهة نظر المؤمن أيضا.

أما إذا أخذنا وجهة نظر الملحد.. فمن الناحية المنطقية البحتة.. لا توجد هنا مشكلة تبتغي الحل، ولا سؤال يبحث عن جواب. فالملحد لا يؤمن بأن وجوده يعود إلى أي خالق، وبالتالي.. فليس هناك من خالق يكون مسؤولا لديه إذا وجد أي انحراف أو اعوجاج في الخلق.. الذي حدث عشوائيا، وبدون أي تخطيط. فكل معاناة، وكل شقاء، وكل توزيع غير متساوي للبهجة والسعادة، ليس من أحد يتحمل اللوم عليه.. سوى الصدفة وحدها، وبذلك ينتهي هنا بحث الموضوع. فالصدفة وحدها هي الخالق، أو الطبيعة، مهما كان المسمى، فهو شيء غير عاقل، أخرس وأصم، أعمى ومشوّش، لا يمكن أن يُلام على أي قصور في وجودٍ نشأ من الفوضى. إن ناتج الصدفة، بغير الخالق، لا بد أن يكون أعمى ومختلا ومشوّشا، بغير عقل، وبلا نظام، وبدون اتجاه.

أما بالنسبة لأولئك الذين يؤمنون بالله الخالق ﷻ، فلا توجد بالنسبة لهم أية مشكلة كذلك. لأنهم يرون في الخلق نظاما وتوازنا واتجاها، وهم يقبلون حكمة الصانع في جميع ما صنع. ولا يرون في الشوكة الناتئة من هنا وهناك في باقة من الزهور.. زاهية الألوان.. رائعة الجمال.. بديعة التنسيق.. عطرة الرائحة.. جميلة التكوين.. سببا كافيا يجعلهم يحجمون عن قبول الباقة، أم أن عليهم يا تُرى أن يرفضوها؟

إذا كان ظن الملحد وارتيابه في محله، يكون الموت هو المخرج الوحيد من بؤس وشقاء الأبرياء الذين يقاسون مرارة المعاناة دون ذنب أو جريرة. وإذا صح اعتقاد المؤمن في سلامة تصوره لنظام الخلق وغايته، فإن الموت

أيضا هو المخرج، ولكن لغاية تختلف تماما عن غاية الملحد. فبالنسبة لهم.. ليس الموت إلا منفذا إلى الحياة الأخرى، التي تقود الأبرياء الذين يعانون العذاب في الدنيا إلى عهد لا نهاية فيه للأجر والثواب والمكافأة والتعويضات. إذ لو أنهم استطاعوا أن يتصوروا ما أخفي لهم من قرة أعين في الحياة الأخرى من تعويض على البؤس العابر والمؤقت على الأرض، لاندفعوا جريا على الطريق.. تغمرهم الفرحة، رغم الآلام والمعاناة، كما لو أنها كانت كلها مجرد شكة إبرة، أو مجرد شوكة على طريق حياة أبدية من الراحة والبهجة والسعادة.

وقد لا يقبل البعض هذا، ويظل مُصرا على أنه لا يوجد خالق ولا توجد حياة أخرى للثواب والعقاب بعد الموت. والجواب السابق لمثل هؤلاء لا قيمة له. وإذا كان الأمر كذلك، فلا داعي لمناقشة السؤال أصلا. فعليهم أن يتذكروا أن السؤال يمكن أن يُناقش فقط من زاوية علاقة الله تعالى بالخلق ودوره سبحانه كخالق. فإن موضوع الأخلاقيات، وصحة أو خطأ شيء ما، تنشأ فقط من الإيمان بوجود الله. فإذا كان الله موجودا بالفعل، فلا يكون من المستبعد حينئذ أن يحدث ما ذكرناه من تعويض عن المعاناة في الدنيا. وإن لم يكن هناك إله فلا يمكن أن نلومه، هو أو غيره، على أية معاناة وقعت بمجرد الصدفة. إذ أننا يجب أن نأخذ الحياة الدنيا وكل ما يتعلق بها باعتبارها مجرد حادثة وقعت مصادفة بدون أي معنى، وبلا أي اتجاه، وبغير أي هدف. وعلى هذا.. يكون من الواجب قبول المعاناة على أنها جزء من طبيعة الأشياء، وكما لو كانت شيئا لا يمكن التخلص منه ولا الهروب منه. وفي أي الأحوال على الإنسان أن يتعلم كيف يعيش مع المعاناة. إن المعاناة بالطبع هي مُكَوّن جوهري لقُوَى الدفع اللازمة للتطور. غير أن موضوع التوازن بين المعاناة والسعادة المستقاة من الشعور بالوجود..لا يزال أمرا ينتظر أن يتقرر ويُبَت فيه. ففي هذه المعادلة البسيطة.. نجد أنه إذا كان الإحساس بالمعاناة يفوق الشعور المتأصل في

النفس بالرضى الناتج عن الإحساس الذاتي بالوجود، فحينئذ سوف تُفضل الغالبية العظمى من الناس الموت على الاستمرار في الحياة مع المعاناة. أي إذا كان معظم أولئك الذين يُقاسون من الألم والمعاناة.. يفضلون أن يفقدوا الإحساس بالوجود على التعايش مع الشقاء، فحينذاك تكون الحكمة وراء منهج الحياة بمعاناتها هي محل اعتراض. ولكن الواقع الفعلي الذي نراه هو عكس هذا الافتراض المذكور.

إن الحياة غالية ولا يُفرط فيها، وأحيانا يكون هذا برغم معاناة الكثير من البؤس والمزيد من الشقاء. والْمُشاهَد في الحياة أن هذه هي القاعدة العامة الحاكمة، مع الاستثناءات النادرة التي هي أقل من أن تُذكر لدى المقارنة.

كذلك يجب أن نتذكر أن منظور المعاناة منظور متغير، وهو دائب التغير كلما تغيرت زاويا النظر إلى المعاناة. فإن أولئك الذين يتمتعون بصحة جيدة.. يعتبرون أن الأطفال الذين هم في المستوى دون العادي.. يقاسون الكثير من المعاناة، بينما هؤلاء الذين هم في حالة شديدة من الحرمان والعوز.. سوف ينظرون إلى الأطفال فوقهم – رغم كونهم في المستوى غير العادي – نظرة غبطة وحسد.

وعلى مجال أوسع رحابة.. نلاحظ أن كل شكل من أشكال الحياة إما أن يكـــون أسمَى أو أدنى من أشكال الحياة الأخرى.. الأعلى أو الأدنى منها. وخـــلال مرحلة التطور.. كان إدراكنا بقيمة الأشياء يتغير ويتطور.. من الطبقة الأدنى إلى الأعلى. وخلال مراحل الارتقاء التي تتحرك بحركة لولبية في الاتجـــاه الأعلى، حين يُنظر إلى أسفل من مستوى عال، فإن الأسفل يظهـــر في موقـــف متخلف. وتتمسك أشكال الحياة العليا بهذا الإدراك الأعـــلى بقيمة الأشياء، الذي اكتسبته خلال ملايين السنين من التطور. وأي انـــتكاس أو فقدان لهذه القيم أو القدرات، سوف يتسبب حتما في الإحســـاس بالمعانـــاة، التي كانت هي نفسها ضرورية للوصول إلى القيم العلـــيا. ولنتصـــور مثلا حالة الديدان.. بالمقارنة مع بعض أشكال الحياة

الأعــلى منها، ونقارنْ مرة أخرى حالة هذه الأشكال العليا مع الأنواع الحيوانية الأكثر تقدما في الدرجات الأعلى من سلم التطور. إنها جميعا بلا شك غير متساوية في المواهب والقدرات. فالديدان التي تنمو وتتكاثر على المخلفــات العضوية والقاذورات، لا يمكن بحال من الأحوال أن تتصور نفســها على قدم المساواة مع الأفراس البرية، التي تجول حرة في البراري وتــتغذى عــلى الحشائش الخضراء. ومع ذلك فهي لا تستطيع أيضا أن تتصــور نفسها في منْزلة أقل من تلك الأفراس. إن لكل من النوعين عالمه الخــاص بــه الذي يختلف عن الآخر، ولكل قدراته المختلفة، ومتطلباته المخــتلفة، وتطلعاتــه المختلفة.. إذا كان من الممكن أن يكون للديدان تطلعات أصلا.

وعلى ذلك.. إن عدم التكافؤ هذا لا يعني أنهما كانا هدفا لأي ظلم وقع علــيهما. ولنتصــور مثلا حالة بعض الديدان السعيدة التي تتمتع بصحة جــيدة، فمن الواضح أنها جميعها قد تأقلمت مع محيطها الذي تعيش فيه، وهي راضية تماما بكل القدْرات التي زودتها بها يد الخالق، ولا تستطيع أن تــتطلع إلى أي شيء فيما وراء المجال الذي تعمل فيه حواسها. ومع ذلك إذا عُرِض على أي طفل بشري أن يستبدل حالة المعاناة التي يُقاسي منها بأن ينقلب إلى دودة سعيدة راضية، فإنه يُفضل الموت عن خيار الحياة في المستوى المتدني لوجود الديدان.

إن الإدراك نفسه لنوعية الحياة التي يحياها الإنسان في مستوى أعلى من مستويات الحياة، إنما يكفي في معظم الأحوال لتعويض أي ضرر يعاني منه الإنسان.

ومن هذا يتضح أن المعاناة حالة نسبية.

ويكمن مصدر المعاناة في الإحساس بالحرمان. فالإدراك بنقص أشياء معينة، أو فقدان أمور عزيزة على الإنسان، تَعَوَّد الإنسان على حوزتها أو امتلاكها.. هو الذي يثير الإحساس بالألم. ولا يحدث هذا إلا إذا كان

الإنسان قد ذاق الإحساس بالسعادة من قبل عندما كان يتمتع بتلك الأمور والقيم، أو إذا رأى الآخرين يتمتعون بها.

إن فقدان الإنسان تلك القيم بعد التمتع بها، أو رؤية الآخرين يتمتعون بها بينما لا يستطيع هو تحقيق هذه المتعة، هما العاملان القويان اللذان يسببان الألم. ولكن نقص الأمور التي لا يستطيع الإنسان أن يُدرك قيمتها أو كنهها، لا يسبب لديه أية معاناة على الإطلاق. وما هو الألم على أية حال إن لم يكن مجموعة من الأحاسيس بفقد أمور متنوعة؟

ورغم أننا لا نستطيع دائما أن نُرجع كل أحاسيسنا بالألم إلى مسببات معينة، فإن الدراسة العميقة سوف تكشف لنا دائما أن كل إحساس بألم..يتعلق ويرتبط ارتباطا متلازما مع الإحساس في المقابل بفقدان شيء ما.

إن خلق الأجهزة الحسية وتطورها، يرجع إلى مواجهات طويلة لا حصر لها مع الإحساس بالكسب والخسارة، فهذان العاملان لهما قدرة فائقة خلاقة خلقها الله تعالى. وجميع الحواس الخمس التي نتمتع بها إنما هي كنتاج لإدراكنا بها كما ذكرنا من قبل، قد ارتقت عبر ملايين السنين من التطور، حتى صارت نظاما آليا للإحساس. فالألم والبهجة لا يستطيعان بذاتهما أن يخلقا نظاما آليا من الإدراك. وسوف ينعدم الألم وتموت البهجة إذا انعدم الإدراك بهما، فكيف يمكن للعدم أن يخلق شيئا؟

إن عدم الإدراك لا يمكن أن يُصمم ويخلق إدراكا، حتى ولا في خلال تريليون من السنين. فلا بد أن يكون الخالق خالقا مُدركا، ذلك الذي يهب الموت إدراكا ويخلق منه الحياة. ويبدو أن الخلاق بديع الصنع والقدير قد استعمل الألم والبهجة في نسق لا يزال غير معروف، وبأسلوب لا يزال خفيا، ليخلق نفس الأعضاء التي تشعر وتحس بهما. وإذا أزلنا الألم كوسيلة في خلق هذه التحفة من الإعجاز الخلاق.. فسوف تتحول الحياة إلى رُكام من حياة خاملة لا حس فيها، ولا تدرك حتى

وجودها. فهل بعض الحالات الشاذة من البؤس والحرمان، تُعتبر ثمنا كبيرا فادحا لوجود هذا الإدراك الرائع العظيم؟

ودعونا نُذَكر القارئ بأن الإسلام يعتبر أن الشر هو مجرد ظل يحدث بسبب غياب النور. فالشر ليس له وجود إيجابي بذاته.

إننا نستطيع أن نتصور أي مصدر من مصادر النور، مثل الشمس أو المصباح وغيرهما، ولكننا لا نعرف ولا نستطيع أن نتصور أي مصدر للظلام. فالطريقة الوحيدة التي يمكن بها لشيء ما أن يكون سببا للظلام هو قدرته على حجز النور ومنعه من النفاذ. وبالمثل، فإن غياب الخير فقط هو الذي يسبب الشر. ودرجات الشر إنما تتقرر بدرجة التعتيم التي يسببها عامل يعترض الخير.

كذلك فإن الإدراك بتملُّك شيء ما، هو الذي يثير البهجة في النفس. وأي نقص، أو تهديد بنقص، أو فقدان شيء مما يملكه الإنسان، هو الذي يسبب له الألم والمعاناة. ولكن كلا من البهجة والمعاناة يجب أن يتواجدا في معادلة لقطبين أحدهما سالب والآخر موجب، إذا أزلنا أحدهما.. اختفى الآخر. ولذلك لا يستطيع أحد أن يتدخل في التصميم الخلاق للألم، أو البهجة، أو الشر، أو الخير، وينجح في تغيير هذا النظام.

فليس في قدرة شفقة الإنسان أن تمحو المعاناة.. بغير أن تمحو الحياة نفسها.

الباب الثالث

- وجهات النظر العلمانية تحت المجهر
- مفهوم الإله بين السكان الأصليين في أستراليا

الفصل الأول

وجهات النظر العلمانية تحت المجهر

إن تاريخ التطور الديني كما يُقدمه لنا علماء الاجتماع، ومفهومهم عن كيفية تطور الإيمان بالله، يقوم في الأساس على فهمهم للنفسية الاجتماعية. فبعد أن لاحظوا الميول السائدة بين الناس عامة في سلوكهم الاجتماعي، يبدو أنهم قد خرجوا بنتيجة مفادها أن الإنسان بطبعه يُقدس الأشياء التي يخشاها، كما أنه ينتهج نهجا منظما ويسلك سلوكا يتميز بالاحترام تجاه ما يستحسنه أو ما يكون في حاجة إليه. وفهمهم لدوافع "هاتِ وخُذْ" في النظام الاجتماعي يمتد أيضا إلى فهمهم للدين، وذلك بإدماجِ دوافع الخوف والطمع فيه.

فهم يعتقدون أن البشر القديم بسذاجته المعهودة، حينما كان يقف على عتبة الخط الفاصل بين التأنس والإنسان، وهو في حالة من الذهول والاضطراب بسبب كل ما رآه من حوله، لم يستطع أن يُدرك حقيقة طبيعة الأشياء عندما تجرأ على البحث عن إجابات للأسئلة المحيرة التي راودته. وفي بصيص الضوء الخافت عند بداية انبلاج فجر العقل الإنساني، كانت قوى الطبيعة العجيبة قد أثرت عليه بشدة حتى ظن أن الظواهر الطبيعية ليست سوى مظاهر لقوًى عُليا تفوق إدراكه، ولها القدرة على التأثير في حياته.

وبناء على ذلك.. راح ينسب إلى هذه القُوى مقامات الآلهة. وبعد رؤية الآثار المدمرة للعواصف والأعاصير، راح يركع لها في خوف حتى لا تصيبه بشر مرة أخرى. ولكنه أيضا لما رأى نور النهار، وجرّب القوى الخلاقةَ للشمس، راح يُكَوّن انطباعا طيبا عن آلهة كانت من نسج

خيالاته. وبمشاهدة هذه المظاهر من خلال مرآة الظواهر الطبيعية، راح يتصور أن تلك الظواهر الطبيعية إما أن تكون مخيفة مرعبة، أو مفيدة طيبة. وهكذا صارت القوى المظلمة في الطبيعة تبدو عدوانية ومزعجة، مثل الأمواج العاتية والزوابع الثائرة والعواصف الممطرة، التي تأتي في إثْرها بالبروق والرعود والفيضانات المدمرة. ولم تتخلف الحيوانات الكاسرة كثيرا عن هذه الظواهر الطبيعية، إذ بدأت وحوش الغابة، والقطط البرية، والحيّات والعقارب، تأخذ أيضا نصيبها بين مجموعة الآلهة الخيالية ذات القوى الشريرة.

أما مظاهر الطبيعة الطيبة.. مثل النسمة اللطيفة الباردة، والهواء الذي يحمل الندى ويأتي ببهجة الأمطار التي تقيم أود الحياة، فكانت كلها تبدو كأنها تحت سلطان آلهة وديعة طيبة.

وبالنسبة للذكاء البدائي للإنسان، كانت كل هذه الظواهر تبدو كأنها آلهة، أو توابع للآلهة، لها أمزجة وأحوال وخصائص مختلفة. وكل هذه الآلهة التي كانت بنت خيال الإنسان، كانت تستحق الولاء والطاعة حتى لا يحل عليه غضبها، أو يفقد فضلها عليه. أما الروائع الكونية، والشمس البهية، والقمر الجميل، والنجوم المتلألئة في أبراجها السماوية بأسرارها وغموضها الساحر، فقد استطاعت أن تؤثر عليه تأثيرا عميقا، حتى إنها نالت لديه احتراما تعاظم مع مرور الوقت. وهكذا راحت أفكاره الأولية عن الآلهة تتطور، وأخذت الآلهة تُصَنف وتُرتب ترتيبا تصاعديا أو تنازليا.

ورغم أن المرء اليوم يمكن أن ينتقد الإنسان الأول، وينعته بأنه كان غريرا شديد السذاجة، فإن علماء الاجتماع يُصرون على أن سذاجته هذه كانت النتاج الطبيعي لضبابية قدراته الذهنية التي لم تكن قد اكتملت بعد. هذا باختصار هو الرأي الشائع لدى أغلب البارزين من علماء الاجتماع عن نشأة الدين وتطوره.

ويُقال أيضا إن هذه الحالة البدائية من التفكير قد تطورت وآلت إلى فكرة الإله الواحد المنفرد. وهم يُصرّون على أن فكرة وحدانية الإله قد نشأت وتطورت بالتدريج عن فكرة الآلهة المتعددة، ولكن ليس على حساب وجود تلك الآلهة. إذ أن الفكرتين تلازمتا في توازن لم يكن سهلا، تتصارع فيه الآلهة جميعا في معركة بشعة مستمرة من أجل الحصول على السُلطة والتفَوق. وبالتدريج.. وكلما كانت تدق ساعة الزمن الكونية.. أخذت الكثير من الأديان تتشكل وتظهر إلى الوجود، وقد تطورت حول فكرة أو أخرى لعبادة إله واحد أو عدة آلهة. وقليلا ما كان الناس يُدركون في جهالتهم أنهم كانوا يعبدون الظنون والخيالات فقط.. فقد كانوا هم الذين خلقوا الإله، أما هم فلم يخلقهم الإله. وهكذا تطورت عملية التفكير البسيطة الأولية، وتنامت، وتكاثرت، حتى صارت تركيبة متشابكة تثير الكثير من الحيرة والارتباك حول جم غفير من الصور لهذه الآلهة التي كانت فوق مستوى البشر.

وقد ذهبت هذه النظرة الإلحادية للدين خطوة أخرى، حتى إنها نسبت إلى مؤسسي الأديان تهمة الكذب والخداع المتعمد. فقد ادعى أولئك العلماء أن الدين بعد وصوله إلى مرحلة متأخرة، لم يَعُدْ مجموعة من خرافات العوام من الناس، إذ بدأت تنشأ مجموعة منظمة من رجال الدين. وفي هذه المرحلة تم بطريق الخداع إدخال نظرية الوحي كحيلة اخترعتها طبقة الكهنوت، فإن هذه المجموعة المتميزة التي كونت لنفسها هيكلا هرميا، راحت تدّعي لنفسها مقاما خاصا باعتبار أنهم المختارون الذين يتلقون الوحي من السماء، وجعلوا لأنفسهم حق الامتياز في أن يكونوا قناة الاتصال بين الإله أو الآلهة والإنسان. ومع مرور الوقت ظهر الكثير من هؤلاء المدّعين، كل منهم يدّعي أنه على علاقة خاصة مع قوًى فوق الطبيعة.. تعمل على تشكيل وصياغة مصير الإنسان.

هذا هو ما رآه علماء الاجتماع متجليا في ميثولوجيا اليونان، وفي

عقائد وشعائر الكثير من الديانات البدائية. وهكذا تحوّلت محاولة مخلصة من جانب الإنسان البدائي للبحث عن حلول للأسرار المعقدة للطبيعة المحيطة به، إلى محاولة متعمّدة من جانب التنظيم الديني لخداع وغش الناس باسم الإله أو الآلهة.

كذلك فإن الإدراك المتطور للإنسان اتخذ في نفس الوقت طريقا موازيا، فحسب رأي علماء الاجتماع.. كلما تقدم فهم الإنسان للبيئة المادية المحيطة به، صار تعامله مع صور الإله يأخذ شكلا متطورا ومنضبطا. فالجمادات، مثل التماثيل والأصنام، التي كانت تُعتبر آلهة من قبل، صارت بعد ذلك تُعتبر قنوات تقود الإنسان إلى الآلهة التي تسكن في السماوات. وبذلك تحولت بالتدريج لتكون وسائل تُعبر من خلالها الآلهة التي في السماوات عن أمزجتها المختلفة مِن رضىً أو غضب. وأخذت فكرة "الآلهة" تختفي شيئا فشيئا ككيان مادي وتتحول إلى فكرةٍ تجريدية. ونفس العملية تطورت أكثر إلى نظام أشد تعقيدا من هرمية إلهية نال فيه كل إله مكانا معينا بالنسبة للآخرين، وصار له دور يؤديه في الكون. وكان هذا التصنيف والترتيب للآلهة هو الذي أدى في النهاية إلى خلق إله واحد متميز، له مكانة أعلى فوق الجميع. هذا هو التصور الذي رآه علماء الاجتماع للكيفية التي خلق العقل الإنساني بها الإله. وبمعنى آخر.. لو أُسندت إليهم مهمة صناعة إله، لكانت هذه هي الطريقة التي اتبعوها لتحقيق ذلك، مع إعطائهم بالطبع الزمن الكافي لذلك.

لقد بنوا نظريتهم هذه على افتراض عدم وجود إله في الأصل، وبالتالي فإن جميع هذه الآراء لا تخرج عن كونها تخمينات لا تقوم على أية بحوث حقيقية، وإنما هي تعبير طبيعي لفكر الشخص الملحد. وحكمهم المسبق هذا هو الذي يدّعون أنه استقصاء عقلاني محايد. ولكنهم لسبب أو لآخر لم يلحظوا الخلل والتناقضات في الأسلوب الذي استخدموه لتنظير وربط ما تصوروا أنه حقائق التاريخ. فإن تاريخ الفكر الإنساني في

المراحل الأولى من التطور الإنساني لم يُدَون، وهو غامض، وفي الواقع.. لا وجود له. فليس من حقنا أن نقول عن شيء إنه 'تاريخ' إلا ما نجد عليه دليلا في مخلفات أثرية من الماضي، تدل على أسلوب الحياة في ذلك العصر. أما هذا التاريخ الذي يتحدث عنه علماء الاجتماع، فقد بدأ منذ ما يقرب من مائتي ألف عام مضت أو تزيد، بينما بداية الوجود الفعلي للأديان وتطورها لم يزد عن بضع ألوف من السنين. وبالتالي فإن كل ما أمكنهم أن يبنوا عليه نظرياتهم لم يكن سوى مجرد تخمينات وافتراضات. ولم تكن محاولاتهم للنفاذ إلى عقول القدماء في العهود السحيقة سوى ضرب من الخيال، يقفز على جناحين من الوهم. وكان اتجاه هذه القفزة محددا من قبل ليكون في الاتجاه الإلحادي. فجميع استنتاجاتهم تفتقر إلى دليل يؤيدها من الطبيعة البشرية – الوسيلة الوحيدة التي يمكن الاعتماد عليها في تقييم العملية الفكرية.

هل نحن بالفعل نعبد ما نخافه ونخشاه؟ وهل يحملنا الطمع على أن نخر دائما ساجدين عابدين أمام الأشياء التي نطمع فيها؟ إن مثل هذا الخوف والطمع لا يصلح أن يبني أشد الأديان بدائية، فإن الخوف يجعل المرء يجري ويفر هاربا من كل ما يسبب له الخوف والفزع. ويستطيع الإنسان بالطبع أن يتصور أحوال أولئك الذين يقعون فرسى للتعذيب الشديد ولا يستطيعون الهروب أو الفرار منه، فنجد أنهم يلتمسون الرحمة ممن يقومون بتعذيبهم، ولكنهم لا يعبدونهم. وإذا أتيحت النجاة لضحايا التعذيب هؤلاء، فإنهم سوف يسبّون من كانوا يُعذبونهم بأقذع الألفاظ، ويصفونهم بأبشع الكلمات. وأما فكرة العبادة فلن يمر طيفها على خيالهم. ولعلنا لذلك لم نقرأ أبدا عن جاسوس أمريكي دفعته مشاعر الفزع بعد أن وقع في أيدي الـــ ك.ج.ب. (K.G.B) فراح يعبد أولئك الذين يتولون تعذيبه. ولا يخفى بالطبع أن الخوف من الله تعالى المذكور في الأديان السماوية، لا علاقة له بفكرة الخوف من الوحوش والأشياء المفزعة الأخرى. فإن

التهديد الإلهي بالعقاب لا يهدف إلا لردع الإنسان من ارتكاب الجرائم ضد ما يسيء إلى نفسه أو إلى غيره، ولمنع الناس من الإضرار بالآخرين. ولكن من المستحيل في مجتمع الإنسان البدائي أن يتولد مثل هذا التهديد بالعقاب من الخوف من الحيوانات وكواسر الغابة أو من العواصف الرعدية. ولم يحدث أبدا أن الخوف من الحيوانات المتوحشة، أو أن التهديد بالعقاب من جانب قوى الطبيعة الثائرة، قد منع يد الإنسان البدائي من ارتكاب العدوان. إن بعض الناس قد يخشون رجال الشرطة أو رجال المرور أو وكلاء النيابة، بل يكرهونهم أيضا، ولكنهم لا يعبدونهم. وكذلك الحال في العهود القديمة.. إن الخوف من الأسد المفترس كان يدفع الإنسان البدائي إلى الفرار والهروب لكي ينجو بحياته، ولكن لم يجعله يخر ساجدا أمامه، معظما إياه، وممجدا قوته، وطالبا منه الرحمة. كذلك كانت صواعق البرق، أو سيول الأمطار، أو حرارة الشمس المحرقة في الصيف، تدفع الإنسان لكي يبحث عن مأوى، أو يتخذ من الوسائل ما يقيه شر تلك العوامل الطبيعية. هل يصدق فعلا أحد علماء الاجتماع أنه حين تهب عاصفة هوجاء، تنفتح خلالها عيون السماء بأمطار رعدية غزيرة، فإن الإنسان البدائي، بدلا من أن يتخذ مأوى يقيه، كان يقفز خارجا من كهفه ويخر ساجدا أمام فيضان من مياه الأمطار وهو يُسَبّح بحمد الرياح المدمرة؟ أما ما ذُكر عن عبادة النجوم أو عبادة الشمس، فليس له علاقة بأية حال من الأحوال بالتطور التدريجي لفكرة العبادة بسبب الخوف أو الطمع. ولا يوجد أي أثر يدل على وجود طريق للتطور، سار فيها الإنسان منتقلا تدريجيا من عبادة الأشياء الأرضية الصغيرة، إلى عبادة الكائنات الخيالية الأشد قوة أو الأكثر علوا.



إن علماء الاجتماع يتحدثون عن التطور، بغير اتباع أية أساليب علمية لإثبات افتراضاهم. ولكن حينما يتحدث العلماء التجريبيون عن التطور، فإنهم يتتبعون أثرا طويلا يمتد إلى ماض سحيق يبلغ المليون من السنين، وهم يعبرون طورا بعد طور في طريق تطور الحياة الطويل. فهل توجد ذرة من دليل أو برهان على حدوث تطور مماثل فيما يتعلق بتصور الإله؟ أين هي تلك المجتمعات التي كانت تعتقد بالخرافات وتعبد الأصنام، ثم تطورت إلى أديان تؤمن بوحدانية الله؟ ليس لها أي وجود بتاتا.

ومع ذلك فإن علماء الاجتماع يُصرون على أن القدرة البدائية للإدراك لدى الإنسان هي المسؤولة عن خلق الإله. وكما ذُكر من قبل.. إنهم يتمسكون، وبعناد شرس، بأن الخوف من المجهول قد لعب دورا في بناء وخلق تصورات الإله؛ فالظلام قد أثّر بخداعه، والأخطار المترصدة تحت غطاء الجهل بدأت تستحوذ على الاحترام والتبجيل. وبدأ القدماء يعبدون الحيّات والعقارب والنمور وسباع الجبال وأسود الغاب. وراحت الزلازل تهز الأرض، والصواعق تحرق الأشجار، والعواصف المدمرة تهب بشراسة وبغير رحمة، فبدأت فكرة الإله تنشأ في ذهن الإنسان. فقد نشأت من عبادة الظواهر الطبيعية، وتطورت إلى عبادة الأشياء المادية التي كانت تنشر الفزع في قلوب البشر. ثم تطورت من عبادة الجمادات إلى عبادة الحيوانات، ومن عبادة الحيات والعقارب إلى عبادة القطط ووحوش الغاب، وحتى القرودُ أيضا تحولت إلى آلهة. فإن البشر لم يستطيعوا أن يصلوا إلى علاء البرق، ولم يستطيعوا فهم طبيعة القوى التي خلقت تلك البروق، ولكنهم كانوا في فزع من تلك القوى كلها بنفس المقدار.

ولا بد أنهم تصوروا أن كل ظاهرة مفزعة هي تعبير عن غضب إله من آلهة الفزع، جالسٍ خلف ستار من السحب. وهكذا بدأت عقولهم، على بساطتها، تنسج غزل الخرافات. فقد اخترعوا تعاليم وقواعد للسلوك لكي يُرضوا بعض الآلهة المستبدة، أو على الأقل لكي ينجوا من غضبها.

وبُنيت المعابد، وقُدّمت القرابين، وبدأت تُصاغ الأفكار عما هو صحيح وما هو خطأ، ثم ظهرت مجموعة من الشعائر، وأخيرا تم تدوين الكتب المقدسة. فيا له من خيال يستحق الإشادة ذلك الذي جادت به تلك العقول البدائية والأفهام الساذجة! أو لعله من الأنسب تقديم الإشادة لعقول علماء الاجتماع الذين بنوا تلك القصور الدينية في الهواء، نيابة عن تلك العقول البدائية والأفهام الساذجة.

لقد فشل هؤلاء العلماء في أن يلحظوا الفارق بين العقائد الوثنية والأديان السماوية في العالم. كما أنهم فشلوا في ملاحظة أن الكهنة والمذاهب الأسطورية القديمة، لم تدّع أبدا أنها تلقت من الله نظاما جديدا للحياة عن طريق الوحي. كذلك لم يسأل أحد هؤلاء عن دعواهم بالوساطة بين الناس والآلهة، لأن سُلطتهم كانت تنتقل إليهم ممن سبقوهم وكان المجتمع يتقبلها، فلم يطالبهم أحد أن يُقدموا دليلا سماويا على ادعاءاتهم، بل كانت لهم الحرية في تلفيق الخدع والحيل لتأييد دعاواهم. وهكذا كان يتم خداع السذج لتصديق أن لهؤلاء صلة بالآلهة، بينما لم تكن تلك الصلة سوى خدعة. وهكذا كانت الدعاوي الكاذبة تؤيد الآلهة الباطلة.

ويحسن أن نتتبع النقاط التالية عن طبقة الكهنة والعرافين المذكورة فيما سبق، التي تتباين وتختلف تماما مع من يختارهم الله لتأسيس الديانات العظمى في العالم. ويمكن تلخيص السمات الخاصة بهم فيما يلي:

١) إن الكهنة الذين يعبدون الأصنام كانوا يُعرفون من خلال معابد سبق إنشاؤها.

٢) إنهم لا يُقدمون عقائد دينية جديدة تكون مثار اعتراض لما تعَوّد عليه عامة الناس، ولا تطعن في الأفكار الدينية المنتشرة بينهم. ولم يكن هؤلاء الكهنة يعملون على تغيير قيم المجتمع ولا سلوكه، بل كانوا دائما يؤيدون العقائد والممارسات في النظام القديم القائم، ولم يعارضوا أبدا الأساطير

والخرافات الشائعة مسبقا والخزعبيلات التي تنتشر بين العامة.

٣) في أغلب الأحيان يكون هؤلاء الكهنة جزءا مقبولا من النظام السياسي السائد، ولا يعترضون على الأفكار العقائدية لدى الحكام. ومع ذلك فقد يجد المرء أحيانا بعض حالات التمرد الاستثنائية التي قادها الكهان ضد ملوك زمانهم. وفي تلك الحالات.. غالبا ما كان السبب هو الرغبة في الانتقام نتيجة للتدخل الزائد في شؤونهم الخاصة من جانب الملوك. وقد يكون الدافع في بعض الأحيان هو الرغبة في اكتساب المزيد من السُلطة السياسية. ومع ذلك فتلك الوقائع لم تكن مجرد استثناء. أما القاعدة فهي أن الكهنة الفاسدين الذين يعبدون الأصنام كانوا في الغالب يؤيدون الخرافات السائدة، أو الفلسفات المتأصلة في التراث المنتشر بين الناس.

أما حالات الأنبياء الذين تختارهم السماء، فكانت تختلف عن حالة أولئك الكهنة أشد الاختلاف. فإن هؤلاء الأنبياء الذين كانوا بداية لوجود الأديان العظيمة في العالم، مثل اليهودية، والمسيحية، والإسلام، والزرادشتية، وغيرها، كانوا جميعا معظمين لوحدانية الله تعالى. وعند دراسة أحوال حياة موسى وعيسى ومحمد عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام، وحياة غيرهم من الأنبياء الذين أعلنوا أنهم جاءوا من عند الله تعالى، نجد دائما أنه لم يكن من بينهم أحد يمثل النظام الديني الذي ساد وترسخ في زمنه، وصار شائعا بين الناس. فكان صوتهم هو الصوت الوحيد الذي ارتفع بالثورة على القديم الفاسد. وكانوا دائما يبنون دعواهم على أساس من الوحي، ويقدمون للناس فلسفة جديدة تستلزم نهجا جديدا تماما في الحياة. وكانوا يدْعون إلى قيم جديدة، تتناقض مع العادات السائدة والتقاليد المتبعة في المجتمع. لقد كانوا دعاة إلى نظام جديد، وكانت لديهم الشجاعة والجرأة على تحدي السُلطات الدينية في زمنهم. لقد ظهروا في الوقت الذي انقسمت فيه الأديان السائدة في

مجتمعاتهم إلى فرق وشيع ومذاهب، تتقاتل جميعها فيما بينها للحصول على اليد العليا بين الجهلة من العوام. في ذلك العصر الذي يظهر فيه نبي مبعوث من لدن الله تعالى.. يكون هو الزمن الذي تتحد فيه تلك الفرق والشيع والمذاهب في العداء للنبي المبعوث، ويتناسون جميع اختلافاتهم لكي يُوَحدوا قواهم وجهودهم، حتى يقيموا سدا منيعا ومعارضة جبارة ضد النظام الجديد الذي يأتي به. إنهم ينظمون فيما بينهم جبهة للمعارضة تقف في وجهه، مستخدمين في ذلك وسائل القوة والعدوان. أما المبعوث السماوي فلا يجد له من معين بين البشر، وليس له من يؤيده ويمده بالقوة بين الجموع الشعبية، ولا من أية قوة فعالة في المجتمع، ولا يمد له يد المعونة أي حزب سياسي أو قوى حاكمة، وإنما يبدو أنه وحيد، مخذول ومنبوذ.

هؤلاء هم الرجال الذين يقيمهم الله تعالى ليواجهوا المجتمعات الوثنية، التي دائما تنبثق من تكاثر الخرافات وانتشارها، بينما يركز المبعوثون من الله على الإيمان بوحدانية الله تعالى، ويبذلون قصارى جهدهم لقطع دابر الوثنية في كل شكل من أشكالها، وفي كل هيئة تتخفى فيها. وأما الوحدة الزائفة التي تبدو بين جميع معارضيهم ومخالفيهم، فإنها تكون في الواقع وحدة ظاهرية ضد الأنبياء، بينما تظل جمرات الخلاف والنـــزاع مشتعلة بينهم كما كانت الحال دائما. فإن كان دعاة وحدانية الله مجرد أدعياء كذبة، لكانت مهمتهم مستحيلة التحقيق تحت هذه الظروف، إذ لا يستطيع الكذاب أن يظل في تصميمه وعزيمته على الوصول إلى أهدافه وغاياته التي تبدو بوضوح أنها بعيدة المنال. إن إيمانهم المتأصل في قلوبهم لا بد أن يكون قائما ومؤسسا على الحقيقة الإلهية، وإلا لكان من المحتم أن يهلكوا ويختفوا من الوجود، ولقُضي عليهم قضاء مبرما. ولو لم يكن هناك إله لاعتبر المجتمع مثل هؤلاء الرجال مجرد مجانين وفي عقولهم خبل، وليس هناك من احتمال ثالث. وإن لم يكن بهم مس من الجنون..فكيف يتمسكون بأفكارهم وعقائدهم بهذا الإصرار العجيب، حتى إنهم يضحّون

بكل ما لديهم من أجل غرض لا وجود له، ويقدمون كل شيء من أجل هدف لا طائل من ورائه. ولكن من المستحيل اعتبارهم مجرّد مجانين فقدوا عقولهم، فالمجانين لا يثبتون على فكرة بعينها، بل يظلون في التحَول من موقف إلى آخر في هذيانهم. أما الأنبياء.. فالمجتمع يتعامل معهم بعنف وقسوة، حتى لكأن الأرض قد انفجرت من تحت أقدامهم في صورة بركان من الغضب والسخط، ولا يلقون تأييدا من أحد من البشر.. لا من الأغنياء ولا من الفقراء، و لم يحدث أن أتى أحد لنجدتهم.. سواء كان من ذوي القوة والنفوذ أو كان من الضعفاء والمساكين.. ليقف في مواجهة عواصف العداء والمعارضة الشاملة التي تعم المجتمع. غير أن عظمة الرسالة التي يأتون بها، وسمو الأخلاق التي يتصفون بها، ونبل المسلك الذي يسلكونه، وإيمانهم الذي لا يهتز ولا يتزعزع بحتمية تحقيق انتصارهم النهائي.. في الوقت الذي يبدون فيه في عجز كامل وبؤس شامل، لتشهد كلها بصدقهم وأصالتهم.

إنهم قوم لا يعرفون حدودا لتقديم التضحيات، ولا يصيبهم أثر من طمع ولا جشع. وكل ما يملكون أو يكون تحت تصرفهم يقدمونه بنفس راضية لتحقيق أغراضهم النبيلة. ولا يكونون وحدهم على هذا المنهج، بل أيضا أولئك الذين ينضمون إليهم ويتبعونهم باطراد، متخطين في ذلك جميع العقبات، سائرين على نفس درب التضحيات، وملتزمين بنهج البذل والعطاء. ولا تستطيع أصابع الاتهام أن تثبط من همة هؤلاء.

إن نظرية إسناد خلق آلهة خيالية إلى جهل الإنسان قد يكون لها بعض الصحة في بعض المراحل من تاريخ البشرية التي كان يعاني فيها الإنسان من الجهل وعدم النضج، ولكن لا يمكن إنكار دور الكهنة كلية في استغلال جهل العوام من الناس؛ ولكن الادعاء بأن هذه العملية هي التي ولدت تيارا متصلا من الأفكار التي أدت في النهاية إلى الإيمان بإله واحد هو ما ننفيه ونستنكره بشدة، فإن الحقائق التاريخية لا تؤيد موضوع نشوء

فكرة التوحيد من نمو وتراكم الخرافات الوثنية. فهذه ليست سوى خيالات وأوهام علماء الاجتماع.

إن التاريخ لا يقدم أي دليل يؤيد نظرية التحول التدريجي المطرد من تعدد الآلهة إلى التوحيد. فليست هناك مراحل انتقالية مشهودة تحولت فيها المجتمعات من عبادة آلهة متعددة إلى عبادة إله واحد. بل على العكس.. هناك تحول مفاجئ غير متوقع لظهور رجل واحد عظيم، يكون فاتحة لتحريك سلسلة من الأحداث والوقائع التي تثير جيشانا ومحنا جساما، تتطلب تقديم أعظم التضحيات من جميع أولئك الذين يختارون أن يتبعوا ذلك الإنسان.

ويرفض القرآن المجيد هذا الافتراض النظري لعلماء الاجتماع، ويعلن بشكل قاطع أن العكس هو الصحيح، وهو أن جميع الأديان العظمى في العالم قد بدأت رحلتها بالإيمان بوحدانية الله. وأما فكرة التطور التدريجي للتوحيد، فلا يمكن إثبات صحتها.. لا من خلال أحداث التاريخ، ولا من خلال فعل الطبيعة النفسية للإنسان.

إن أخلاق الأنبياء والشمائل التي يتحلون بها كانت معروفة لمجتمعاتهم كالكتاب المفتوح، الأمر الذي يُبطل جميع الاتهامات عن وجود نوايا خفية وأغراض سرية. وليس في حياتهم قبل إعلان دعوى النبوة أية شائبة يمكن أن تكون سببا لتبرير اتهامهم بأنهم قد خططوا ودبروا لادعاء النبوة في مرحلة لاحقة. وليس هناك من دليل واحد على مثل هذا الإعداد يمكن العثور عليه في حياة هؤلاء المدافعين العظماء عن وحدانية الله تعالى.. من أمثال إبراهيم وموسى ومحمد.. عليهم جميعا أفضل الصلاة والتسليم.

ففي زمن إبراهيم عليه السلام.. كان الإيمان العظيم بالتوحيد الذي وطد نوح عليه السلام أركانه قد فسد وتحلل في زمن الأجيال البعيدة من ذريته، فتحول إلى أساطير لآلهة متعددة. ومرة أخرى قاد إبراهيم عليه السلام حملة عظيمة من أجل إعادة التوحيد. وقد نجحت الحملة في نهاية الأمر وارتفع

مشعل التوحيد عاليا بواسطة ذريته من الآخرين والذين اتبعوه لأجيال عديدة من بعده.

غير أن الظاهرة القديمة والمشؤومة للنّزوع إلى التحلل والفساد ضربت بأطنابها مرة أخرى بنفس النتائج الكارثية. وخلال بضع مئات من السنين بعد إبراهيم عليه السلام، عاد بيت إسرائيل إلى مفسدة عبادة الأصنام. واستمرت هذه الحال إلى زمن موسى عليه السلام. ورغم أن موسى كان من أبطال التوحيد بين الأنبياء، إلا أن عبادة الأصنام ظلت تتسلل إلى دين أتباعه وتفسده خلال القرون التالية. وهذا يدل دلالة واضحة كرابعة النهار على أن البعد عن التوحيد يؤدي إلى السقوط في الحضيض. وإذا تُرك الإنسان وشأنه فإنه ينْزلق من علاء قمة التوحيد ليهبط إلى أرض الشرك، الأرض التي لا تنبت إلا الخرافات وتعدد الآلهة.

والمثال الآخر الذي يذكره القرآن المجيد هو عن بيت الله الحرام في مكة المشرفة، والذي أقام قواعده إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وكان هو أول بيت وُضع لعبادة الله تعالى وحده. ولكن مما يؤسف له أنه لم يمر زمان طويل حتى بدأت الأصنام تجد سبيلها إلى داخل هذا الحرم القدسي العظيم الذي يُسمى بيت الله. وفيما عدا هذا الاسم، فإن كل شيء فيه قد تغير. فقد شغله ما لا يقل عن ثلاثمائة وستين صنما يمثل كل منها يوما من أيام السنة القمرية، حتى ملأت الأصنام جميع جنبات البيت العتيق، وكان هناك مكان يتسع لاحتواء جميع هذه الأصنام، ولكن لم يعد فيه مكان لله تعالى.

فهل هذه هي عملية الارتقاء المتواصلة التي يتكلم عنها علماء الاجتماع كثيرا؟ هل هذا هو الأسلوب الذي يعتقدون أنه تطور فنتجت عنه فكرة الإله الواحد الأعظم؟ هل هذه هي الكيفية التي تمخضت عنها فكرة الإله بعد أن خلقها الإنسان خلال تطوره من حالته العقلية البدائية إلى أخرى أكثر تقدما؟ كلا بكل يقين! إن تاريخ الأديان كلها بالإجماع

يرفض هذا الاستنتاج الاعتباطي لعلماء الاجتماع، ويكشف هذا التاريخ بوضوح أن الإيمان بوحدانية الله كان دائما يتنَزل من لدنه ﷻ، و لم يحدث أبدا أن تصاعد إليه من خلال ظاهرة التطور التدريجي لعبادة الأصنام.

وإن كان بالفعل قد حدث انتقال مرحلي من عبادة آلهة متعددة إلى عبادة إله واحد، فلا بد أن يكون تاريخ الأديان شاهدا على ذلك، ولكن ليس هناك من أثر لذلك في التاريخ الموثوق به لعالم الأديان. فالمجتمعات الموَحِّدة كانت دائما تنحدر وتنحط بالتدريج عبر السنين الطوال إلى مجتمعات مشركة. و لم يحدث العكس أبدا.

إنه من الصعب العسير أن يتمكن الصلحاء من الناس توريث الأجيال التالية هذا الصلاح لفترة طويلة. ومن النادر أن يظل صلاح الآباء مؤثرا ومتأصلا في الأجيال اللاحقة. صحيح أن الأغلبية العظمى من الجيل الأول الذي عاصر عهد انبثاق النور على يد النبي الذي بُعث فيه.. لا يعود أبدا إلى الحال السابقة من ظلام وضلال، ولكن الإيمان يضعف بالتدريج مع مرور العديد من الأجيال. ولا يحدث هذا التدهور بين عشية وضحاها، بل هو تطور بطيء يستمر لزمن طويل، يبدأ بعد أن يغادر النبي المبعوث هذه الدار، وفي النهاية.. يضيع الإيمان القوي بوحدانية الله تعالى. وكلما يتضاءل الإيمان ويبدأ في الذبول.. تبدأ الخرافات في غزو العقول وتستولي على أفكار الناس، ويتمزق الإيمان القوي بإله واحد قدير إلى صورة مبعثرة مشتتة للألوهية. ومن معبد إلى آخر.. يبدأ كهنة الدين الفاسدون في افتراء الأقاويل وهم يشعرون بكامل الحرية في خداع العامة من الناس.

إن الأديان جميعها.. بغير استثناء.. تؤكد على أهمية الدور الذي تقوم به فضائل الأخلاق في العلاقات والشؤون الإنسانية.. وقد تختلف هذه الأديان بعضها عن بعض في بعض السمات الأخرى، ولكنها لا تختلف في تركيزها على أهمية المبادئ الأخلاقية، فهذه ظاهرة عامة موجودة في كل مكان وفي كل زمان. واتهام الدين بمحاباة الأغنياء أو أصحاب القوة

والسلطان.. قد يكون له بعض الحق في عهود الاضمحلال والانحطاط فقط، ولكن مثل هذه الاتهامات لا تخطر على فكر أحد في ضوء تاريخ بداية الدين عند بعثة نبي. والأخلاق التي يقوم الأنبياء بترسيخها في مجتمعاتهم.. تعمل دائما في جانب العدالة والإنصاف، وبذلك فهم يخوضون معركة نبيلة، ويقودون ثورة بناءة ضد اللاأخلاقيات واستغلال الضعفاء والمحرومين، وهذه المبادئ تشد دائما من عزم المظلومين ضد الظالمين، وتمدّ الضعفاء بالقوة ضد المستغلين.

أين حدث– على وجه البسيطة– أن قامت الأخلاقيات الدينية بتأييد الظالمين ضد المظلومين؟ إننا إذا بحثنا في التاريخ منذ فجر الأديان فلن نجد ولو مثالا واحدا على ذلك، بل كانت المبادئ الأخلاقية تُشَرع دائما وأبدا في جانب الفقراء والضعفاء. والضمان الحقيقي لتطبيق هذه الشرائع يكمن في الإيمان بوجود الله العليم بكل شيء. والشخص المؤمن بهذا الإله.. يعلم تماما أنه من المستحيل عليه أن يهرب خارج نطاق علمه تعالى، أو يتجنب المشيئة الإلهية، فهو لا يستطيع أن يخفي عن الله تعالى شيئا من عمله، سواء قام به في الماضي أو يريد القيام به في المستقبل. ولا يوجد أي تشريع بشري يمكن أن يكون له هذا التميز فيما يختص بتطبيقه. فالتشريع البشري يفشل دوما ويحتاج إلى تعديل، وذلك لأن المجرم الذي ينتهك حرمة القانون يفتقد الإحساس بأنه مراقَب دائما من جانب السُلطة التشريعية. والتشريع وحده.. مهما كان مؤيدا بتهديد العقوبة.. لا يستطيع أن يمنع يد المجرم من اقتراف الجرم. فإن أثر القوانين التشريعية لا يصل إلى الأرض التي تنمو فيها جذور الجريمة.. وهي التربة الخفية للنوايا السرية. ويظل المجرم دائما يحدوه الأمل بأنه سوف يتمكن من إخفاء جريمته عن عيون القانون.. كما استطاع إخفاء أفكاره ونواياه لارتكابها. ومما يُشجع أيضا على ارتكاب الجريمة هو أن المجرم يتحرى الحماية تحت مظلة الكذب. فميول الإنسان ونزوعه الطائش لارتكاب الجرم يتناسب

طرديًا مع أمله في أن يفلت من انكشاف أمره. ومن هنا لا تنجح القوانين والتشريعات وحدها في إزالة الفساد الاجتماعي، لأنها تفتقد المطلب الحيوي في الوصول إلى غور أعماق ظلام النفس الإنسانية.. حيث تتولد وتتغذى أفكار ارتكاب الجريمة. وتُرتكب معظم المفاسد والشرور خلف ساتر من دخان وهمي يتصور المجرم أن أحدا لن يستطيع أن يراه من خلاله، وعلى ذلك فلن تقع عليه أية مسؤولية. ومهما تقدمت أساليب كشف الجريمة.. فإنها لا تستطيع أن تهز ثقة المجرم في أمله المحسوب في تجنب اكتشاف جريمته، لأن التخطيط والتدبير يتم بأمان بعيدا عن أعين القانون.. في المكامن السرية داخل أعطاف قلبه.

إن الإيمان الراسخ بوجود الله تعالى، واليقين بالمساءلة والحساب، هو وحده الذي يمكن أن يحبط ويهزم جميع الجرائم وهي في مستهل أمرها. فهذا.. وهذا فقط.. هو الغرض من التشريع الأخلاقي في الدين. فالأخلاق ضرورة جوهرية وحيوية لبقاء الدين نفسه. وحين يتدهور المستوى الأخلاقي يكون الدين هو أول الضحايا. فالكذب والفسوق يُتلف ويُفسد حتى أكثر الصروح قوة من القوانين والدساتير. كذلك فإن الصروح الروحية التي يقيمها الدين تَفْسُد هي الأخرى وتتحول إلى رماد نتيجة للعفن الذي يسببه فساد الأخلاق. وكما يأكل السوس البيوت الخشبية فتنهار.. كذلك فإن فساد الأخلاق يهدم القصور العملاقة التي شيدتها الأخلاق في الأديان الكبرى ويسويها تماما بالأرض.

هذا هو المفتاح الذي يمكننا من فهم أسباب الاضمحلال والتدهور في جميع مستويات العقائد والممارسات الدينية. إن الإيمان بوحدانية الله تصيبه الشروخ التي تتحول إلى انشقاقات وفُرقة بسبب تدني المستوى الأخلاقي. ثم يبدأ الشرك والتعددية الإلهية في الحلول محل الوحدانية، وتشغل الأصنام بيوت الله لتجعل منها معابدَ للأصنام. ويستطيع المرء دائما أن يرى سوس الكذب والخداع والخيانة وفقدان الشرف والأمانة، يقوم بعمله في أعماق

هذه الظاهرة المدمرة. وحين يصل فقدان الشرف والأمانة إلى مستوى القيادة، فإنه يتحول إلى سم قاتل، ولكن ليس من سم أشد وأفظع من سم الخداع والكذب وفقدان الشرف والأمانة حين يصيب القيادة الدينية، فهي تدمر سلام وأمن خلق الله باسم الله. وعندها يتوقف الله تعالى عن القيام بأي دور في شؤون الناس، ويُنَصِّب هؤلاء القادة من أنفسهم آلهة، ويعطون لأنفسهم حق الجلوس على عرش الله.

لذلك.. من مقتضيات الحكمة أن يكون الحكمُ على الأديان في مرحلة مولدها وفي مهدها وليس في مراحلها المتأخرة.. حين تتحول الأديان بسبب عبث أيدي الإنسان بها إلى مجرد أنقاض.. هي كل ما يتبقى من بداياتها النبيلة. وكما تكون هذه البدايات نبيلة فإنها تكون متواضعة أيضا، ويكون سلوك المجتمع تجاهها عند تأسيسها بنقائها وطهارتها الأصيلة والأصلية سلوكا يتسم بالعنف الشديد والرفض القاطع. ويقدم الأنبياء أعظم وأنبل الأمثلة الحية التي تُجسد تعاليمهم. وهؤلاء هم الذين ترفضهم المجتمعات وتسخر منهم وتجعلهم هدفا لعداوة لا تقبل المهادنة، وعدوان لا يعرف الرحمة.

وما يصيب الأنبياء على يد أقوامهم يصيب أيضا المؤمنين الأولين الذين لا يوجد لهم مثيل في المراحل المتأخرة سواء في نبلهم وإخلاصهم أو في الرغبة والاستعداد لبذل التضحيات من أجل الحق. ومن سخرية الأقدار أن رجالا كهؤلاء الأنبياء وصحابتهم يظلون مرفوضين ومضطهدين من مجتمعاتهم طوال حياتهم، حتى إذا ما غادروا مسرح الحياة في هذه الدنيا، يتحول الرفض إلى قبول، وتتحول السخرية إلى احترام، ثم يتطور الأمر إلى مبالغة في التقديس يتعدى مقامهم ويزيد عن مكانتهم التي كانوا يشغلونها في حياتهم، فترفعهم أقوامهم إلى مصاف الآلهة، وتتحول قبورهم إلى مزارات ومعابد تعبد من دون الله. وهؤلاء الذين يرثون الدين بغير أن يشربوا من كأس التضحيات وبذل الغالي والرخيص في سبيله..

هم أولئك الذين ينمو في مجتمعاقم هذا التناقض الغريب. وبذلك فإنهم يُتلفون القيم النبيلة في الدين، ولكن بأسلوب غير مكشوف، إذ يعملون تحت السطح مثل ديدان الأرض.

إن وحدانية الله تعالى تقوم دائما على مستويين، فعلى المستوى الأول يقف المؤمنون بالتوحيد في رابطة قوية بالله لا تنفصم، كما أنهم يكونون فيما بينهم أيضا في رابطة قوية لا تنفطر. وعلى المستوى الثاني يظل التوحيد قائما وموجودا بين الخالق وخلقه.

وفي التاريخ الثابت المعروف للأنبياء لا نجد أبدا أن نبيا قد رفض أو أهان نبيا من الأنبياء الذين سبقوه. ونفس هذا الموقف الوحدوي يشمل أنبياء المستقبل أيضا. نعم.. هناك بالطبع التحذيرات التي تحذر من الأدعياء الكذبة الذين يمكن التعرف عليهم بسهولة بسبب فساد أعمالهم وسوء أخلاقهم. ولكن مجيء الأنبياء الحقيقيين يُذْكر دائما بكل محبة واحترام. وينطبق هذا أيضا على جميع المتمسكين بالتوحيد في جميع الأزمان، إذ يجمع التوحيد بينهم في وحدة ورابطة أخوية قوية. وأما كهنة الدين الذين غلبهم الفساد.. هم وأتباعهم.. فإنهم يفتقدون فيما بينهم هذه السمة المميزة. وهم ينشرون الفُرقة بينما يقرعون طبول التوحيد. إن حب وحدانية الله يربط بين الأنبياء جميعا برباط قوي.. حتى إن الإساءة إلى أحدهم تعتبر إساءة إليهم جميعا. وتظل هذه الرابطة بمثابة رمز للتوحيد بين الله تعالى ومن يختارهم من عباده من جانب، وبين عباده المختارين من جانب آخر.

وتتجلى وحدانية الله تعالى أيضا كرابطة عامة تربط بينه وبين كل ما هو موجود. فإن وحدانية الخالق ﷻ تربط بينه وبين مخلوقاته وتُوَحد بينهم بطرق قد تبدو واضحة وقد تكون خفية. ولكن فيما يتعلق بهاتين الدعامتين للتوحيد.. نجد للأسف أنه بمرور الوقت وانقضاء الزمن.. يبدأ التحلل والفساد بضرب أطنابه، مما يؤدي في نهاية الأمر لإعداد التربة التي

تنمو فيها شجرة الفساد.

وتظهر أولى علامات التدهور حين يبدأ كهنة الدين خلال الأزمنة المتأخرة في رفع مقام أنبيائهم إلى الحد الذي ينتهك حرمة وحدانية الله تعالى، وينسبون إلى هؤلاء الأنبياء بعض الصفات الإلهية التنْزيهية الخاصة بالله تعالى، التي لم يدّع بها هؤلاء الأنبياء إطلاقا. وهكذا يتحول الحب المبالغ فيه للأنبياء السابقين إلى دين جديد لهذا المجتمع المتردي دينيا، فتنهال على الأنبياء قصائد التبجيل والتأبين التي تشيد بالصفات التي خلعوها عليهم ونسبوها إليهم. وتبدأ عملية تأليه الإنسان، وتخليد الأموات، ورفع البشر إلى السماء، ولا يدركون أنهم وجميع أفراد المجتمع الذين يتبعونهم سوف يدفعون ثمنا باهظا لهذا التناقض الصارخ. فإن الحب الأعمى للأنبياء السابقين يصير هو الروح والجوهر للدين الذي استنسخوه لأنفسهم بعد أن دمروا جوهر وروح الدين الذي أتى به النبي الذي بُعث فيهم. إن الأنبياء يأتون دائما للقضاء على الإثم وتدمير الباطل، ولكن الحب المبالغ فيه الذي يضفيه الناس عليهم يُستغل لخلق الإثم والباطل. ويظنون بهذه الإطراءات والمبالغات عن الأنبياء السابقين أنهم يستطيعون أن يخلّصوا أنفسهم من الذنوب والآثام التي ارتكبوها، مع أن هذا التبجيل المبالغ فيه والإطراء الذي يتعدى الحدود لنبي من الأموات ينتهي بهم إلى حياة تكون أسوأ من الموت. وهم يزعمون أنهم في أمان مع الله ﷻ، رغم أنهم ينتهكون حرمة وحدانيته.. ما داموا يطأطئون رؤوسهم للآلهة البشرية التي أشركوها في صفاته ﷻ. وهذا يفتح أبواب الفساد الأخلاقي على مصراعيها، وإذا فُتحت مرة فلا يمكن أن تُغلق بواسطة الجهود البشرية وحدها، فإن ارتكاب الذنوب يتعاظم من طريق تأليه الأنبياء المعصومين من ارتكاب الذنوب.

ويقوم نفس الكهنة الفاسدين، بغير إحساس من خجل أو تأنيب من ضمير، بنشر الكراهية ضد من يختلف معهم، والتحريض على سفك

الدماء، وتشجيع أعمال الإرهاب، والقضاء على الحقوق الإنسانية الأساسية، وهم يفعلون كل هذا باسم حبهم لله تعالى. إنهم يخلقون فجوة كبيرة بين الخالق وخلقه، وهم بذلك يضمنون لأنفسهم مكانا للحكم في معزل عن الله ﷻ. فهم الذين يصدرون الفتاوى، ويصيغون قرارات ما أنزل الله بها من سلطان. وبذلك فهم في واقع الأمر ينازعون الله تبارك وتعالى حق الألوهية، ولكن بغير الاعتراف بذلك في كلمات مفصلة، حتى إن الله عز وعلا لا يعود مثار اهتمامهم، فكل ما يهتمون له هو أنفسهم وحسب. وعلى المجتمع أن يخشى سخطهم وأن يطلب رضاهم. ويصير المعيار للثواب والعقاب هو أن من يجرؤ على الاختلاف مع هؤلاء الآلهة المزيفة يكون جزاؤه منهم الحكم عليه بالخلود في جهنم وعذاب السعير، ومن يكيل بمكيالهم وينسج على منوالهم فله منهم جنات الخلود والحور العين، وكأن على الله أن ينفذ ما يقررونه هم وما يقضون به. وهم لا يهتمون كثيرا بالفساد الأخلاقي الذي يعم الناس، فاهتمامهم ينحصر في ذاتهم وسُلطاتهم التي يتحكمون بها في العامة. وعلى مذبح الأنانية وعقائدهم المتزمتة يُقتل الفكر والثقافة والعدالة والإنصاف واحترام الرأي الآخر. وهذا هو الثمن الذي لا بد أن يدفعه المجتمع دائما حينما تُنتهك حرمة وحدانية الله بشكل أو بآخر.

وكالحية السامة يرفعون رؤوسهم الحاقدة ضد أي تدخل إلهي، وبالطبع فإن كل التبجيل والتقديس الذي يصل إلى حد عبادة الأنبياء السابقين ليس في واقعه سوى خداع وتضليل، ونواياهم الحقيقية المتخفية وراء مظهرهم الكاذب هذا إنما تروم عبادة ذاتهم وأنانيتهم. وفي مثل هذا المجتمع الذي يبتعد عن الله تعالى.. يكثر وجود الآلهة المزيفة من أمثالهم، ولكن المعضلة هي أن هذا المجتمع لا تجمعه وحدة أبدا ما دام بعيدا عن وحدانية الله الأحد. ولذا تسوده الخصومات التافهة.. حتى في الطبقة الكهنوتية نفسها، فينقسمون إلى فرق جديدة ومذاهب وطوائف يباعد

بينها الاختلاف الفكري والعقائدي.

وهنا يبدأ بينهم تنافس محموم للهيمنة على الجماهير، وكل ما يهمهم في الأمر هو عدد الأتباع. أما أخلاق أولئك الأتباع فهي لا تهم، وليس للقادة من أي تأثير إيجابي على التصرفات الحياتية، وأعمال أتباعهم اليومية، ولا على القيام بمسؤولياتهم الأخلاقية تجاه المجتمع. وأما الفن الذي يبرعون فيه فهو كيف يثيرون حمية هؤلاء الأتباع ويلهبون مشاعرهم حتى ينفجروا في بركان من الغضب والكراهية ضد الطوائف والأحزاب المنافسة لهم، ولا يعرفون أبدا كيف يزرعون بذور المحبة والتضحية في تربة قلوبهم. ولا شك أن مجتمعا كهذا يوفر المناخ المناسب الذي تنمو فيه عبادة الأصنام. وإن اختلفت الأصنام فلم تعد أحجارا، وإنما صارت زعماء وقادة ورؤساء ومشايخ وكهنة الدين الذين لا يرضون بغير الرضوخ التام لسلطانهم وسلطاتهم في كل ما يتعلق بالعقائد الدينية. أما الرضوخ لطاعة الله تعالى والانصياع لأوامره في شؤون الحياة التي يحيونها، فلا يكون في المقام الأول من الأهمية. فقد يرتكب الناس الموبقات والمعاصي من كذب وسرقة واختلاس وقتل واغتيال، وقد يجمعون الثروات الطائلة من دماء الشعوب، وقد يبنون القصور الفارهة من استغلال الجماهير المطحونة، بأساليب الكذب والغش والخداع والاحتيال. قد يفعل الناس ما يحلو لهم ما لم يُغيروا من ولائهم للقادة الدينين أو للزعماء السياسيين، ولا يخضعون للفرق المغايرة أو للأحزاب المنافسة، أما كل شيء آخر.. فهو على ما يرام ويكون مقبولا لديهم. وهكذا تتحول العبادة شيئا فشيئا من الله وحده إلى الأنبياء السابقين، ثم تتحول بعدها من الأنبياء إلى عبادة الذات، وهكذا يتحول القادة والزعماء الذين غمرهم الفساد إلى أشباه الآلهة.

أما حالة الجهّال من الجماهير التي تتبعهم فهي ليست أقل مدعاة للحزن والأسى، فكل ما يعرفونه هو أن الزعيم الديني قد حل محل الإله

وأن الإله عندهم قد صار هو الزعيم الديني. فيُفَوضون إليه أمر التفكير في أمور الدين، ولا يجرؤون على تحدي سلطاته ونفوذه عليهم في الأمور الدينية. وبذلك يحدث تغيير جذري في العبادة فتتحول إلى سادتهم وكبرائهم، متمثلة في الطاعة العمياء لكل ما يقولونه وما يأمرون به، بينما تظل عبادتهم لله تعالى عبادة شكلية، تتمثل في التمسك بالشكل والمظهر دون اللب والجوهر، إلى أن يستحيل عليهم التمييز بين المظهر والجوهر، وتصير إرادة كهنة الدين بالنسبة لهم هي إرادة الله. غير أنها تظل كذلك ما لم يتعد هؤلاء الكهنة الخط الأحمر الذي يمثل مصالح هؤلاء العامة. ففي اللحظة التي يجرؤ فيها الكاهن أو الزعيم الديني على فعل ذلك.. ينقلب الحال على الفور، فلا يلقى منهم أي احترام على الإطلاق، ولا تعود طاعته أمرا واجبا عليهم. فليس هناك من فرد في مثل هذا المجتمع اللاأخلاقي يعرف إلها غير نفسه ومصالحه. إن الاحترام والتبجيل الذي يضفيه عامة الناس على أشباه الآلهة من الكهنة يستمر ويدوم ما دام هؤلاء القادة لا يمسون مصالح من يقودونهم. وهكذا يتم التحَول الكامل من التوحيد إلى الشرك، وتصبح الأنانية وعبادة الذات هي السمة المميزة للمجتمع الديني الذي يعمه الفساد.

وفي جميع المجتمعات التي يعمها الفساد يثير الظهور المفاجئ لمبعوث من السماء إحساسا ثقيلا بالضيق والامتعاض، وهذا بالضبط كان هو الأسلوب الذي عومل به عيسى عليه السلام حين ظهر بين خراف بيت إسرائيل، ولكن أسلوبهم في التعامل معه جعل منهم ذئابا لا خرافا. ومع ذلك فإن تعامله معهم كان تعامل الراعي الصالح الذي يرعى ويحافظ على كل فرد في رعيته.

ويمكن للمرء أن يتصور بسهولة.. كيف تصيب العماية بصيرتهم وتحجبها إلى الأبد، فإن التعظيم المفرط المبالغ فيه لأعمال الأنبياء السابقين مما أدى إلى تأليههم.. يقف حجر عثرة كبرى أمام الأنبياء الذين يأتون

فيما بعد، والذين يظهرون دائما مثل بقية البشر. غير أن الصورة التي خلقها كهنة الدين في ذهن العامة من الناس عن الأنبياء وعن أعمالهم ومعجزاتهم، تكفي لكي يرفض الناس الأنبياء الذين لا يأتون في تلك الصورة الخيالية.. وهكذا تظل صعوبة التعرف على النبي الذي يبعثه الله تعالى إليهم الحائل المنيع الذي يسد أمامهم طريق الإيمان.

وبغير مجيء الأنبياء من لدن الله تعالى فإن الإيمان بالله يتحول ليكون نوعا من الإلحاد، إذ يتجلى كل شيء ويُشاهد في أعمال الناس وفي تعاملاتهم وفي حياتهم اليومية إلا الله تعالى، حتى إن الله تعالى نفسه يبدو وكأنه قد تخلى عنهم وهجرهم كما يهجر الطائر عشه فلا يعود إليه أبدا بعد ذلك.

وقد كانت هذه هي التحديات التي واجهها عيسى ؑ. فإن المجتمع اليهودي في زمنه كان يمر بأزمة روحية وأخلاقية مماثلة. وصار زعماء الفرق الدينية جميعا أربابا من دون الله، حتى لم يعد لله تعالى مكان في ذلك المجتمع. وهذه هي في الحقيقة المعجزة الكبرى للمسيح ؑ وغيره من الأنبياء أن الصوت الوحيد المتصاعد من قلب عيسى ؑ باسمه عز وجل لم يذهب سدى ولم يتلاش مع زمجرة أصواتهم ولم يضعف مع علو صخب رفضهم وضجيج تكفيرهم ودوي اعتراضاتهم. هذه باختصار الحكاية عن الكيفية التي تبدأ بها الأديان، وكيف تقوى وتعلو، ثم كيف في النهاية تضمحل ويصيبها الفساد فتترنح وتسقط. ولكن بعد كل سقوط وانتكاس.. تكون هناك بداية لحياة جديدة وصحوة قويمة لإحياء الإيمان بوحدانية الله تعالى مرة أخرى. وتأتي هذه الحياة الجديدة من لدن خالق الحياة نفسه، فهي تبدأ في السماء وتتنَزّل وحيا إلى الأرض على من يختاره سبحانه لإحياء دعوة التوحيد. ولم يحدث أبدا أن خرجت هذه الدعوة من الأرض كما تخرج الحمم من البراكين فتنشر الخراب والدمار، وإنما تتنَزّل وحدانية الله من السماء كما ينْزل الغيث على الأرض العطشى

فيرويها بماء الحياة، وإذا بالأرض تهتز وتربو وتنبت من أشجار صالحة تعطي ثمرا طيبا. إن جميع الدعوات التي لا تتنَزّل من السماء بل تخرج من الأرض، تكون مثل أعمدة الدخان التي تتصاعد وتعلو في السماء لبرهة، ولكنها سرعان ما تتبدد وتضيع وتتلاشى. إن الدعوة الصحيحة للتوحيد الحق تتنَزّل من السماء، لترفع الإنسان الذي سقط في حضيض الشرك والوثنية، وتصل به إلى الأعالي قربا من الله تبارك وتعالى.

*****

الفصل الثاني
مفهـــوم الإلـــه
بين السكان الأصليين في أستراليا

لقد حاولنا حتى الآن أن نثبت خطأ النظريات الحديثة الشائعة بين علماء الاجتماع الغربيين، الذين يستخدمون منطقا غريبا من صنع عقولهم، لإثبات أن فكرة وجود الله هي من خلق الإنسان، بدلا من أن يكون الإنسان هو من خلق الله تعالى. وما يُسمى بالدليل الذي يقدمونه على صحة نظرياتهم، ليس سوى مجرد وهم وخيال. فإلى أي مدى ستؤيِّد دراسةُ نشوء العقل.. عبر مليار من السنين بعد نشوء الحياة نفسها.. هذه الافتراضاتِ العجيبةَ، لهو في حد ذاته موضوع يخضع للبحث والتحقيق، ويحتاج إلى دراسة عميقة ومستفيضة. ومن ناحية أخرى.. نجد أن الدراسة غير المتحيزة لتاريخ الأديان، تكشف لنا أن الإيمان بالله تعالى لم يكن من نتاج الوهم الإنساني. وكان السؤال الهام والحيوي الذي بحثناه في ضوء تاريخ بعض أديان التوحيد في العالم هو: هل الله هو الذي خلق الإنسان.. أم أن الإنسان هو الذي خلق الإله؟

وننتقل الآن إلى تحليل نظرية علماء الاجتماع عن التطور التدريجي لفكرة الإله، فيما يتعلق بديانات السكان الأصليين في أستراليا. وسوف تكشف هذه الدراسة عن الخلل والخطل المتأصل في أسلوب البحث الذي اتبعه علماء الاجتماع، فإن بحثهم كان يبدأ دائما بالاعتراض المسبق بأن الله ليس له وجود. ولا يستطيع منصف أن يحكم بأن هذا الأسلوب يُعد أسلوبا علميا، حيث يصدر الحكم قبل أن يبدأ البحث. وهذا هو التناقض المتأصل الذي تكَشَّف وصار واضحا عندما واجه العلماء حقيقة الدليل

الأسترالي الذي لا يمكن نقضه. فقبل القيام بأي بحث ينبغي تحديد منهج البحث تحديدا واضحا، ولكن علماء الاجتماع لم يقوموا أبدا بتحديد هذا المنهج، ولا وضعوا أهداف البحث. إن المبدأ الوحيد الذي عرفوه هو اقتناعهم بفكرة عدم وجود الله، وكأن هدف البحث عندهم هو ببساطة معرفة السبب الذي يجعل الناس يعبدون الله أو الشخصيات الربانية التي ليس لها وجود، وعلى ذلك فهم يرون أن نمو الخرافة يصل إلى ذروته في خلق الآلهة، وهذا هو مدار بحثهم.

بعد هذا نلفت أنظار القارئ إلى تاريخ الدين في أستراليا. وهي قارة يمكن تتبع آثار حضارتها وتاريخها الديني والاجتماعي إلى ما لا يقل عن خمسة وعشرين ألف سنة. ويُعيد بعض العلماء هذا التاريخ إلى أربعين ألف سنة أو أكثر، بل يرى بعض الباحثين أن هذا التاريخ يمكن أن يعود إلى أغوار الماضي ليصل إلى مائة وثلاثين ألف سنة من تاريخ متصل لنمو الدين.. تاريخ متصل بغير انقطاع وبلا زيف.

إن القارة الأسترالية ليست فريدة لكونها منفصلة تماما عن بقية قارات العالم فقط، بل هي فريدة أيضا لكونها تحوي في رحابها مئات من الجزر الاجتماعية، تحتوي كل منها على قبائل ظلت منعزلة تماما بعضها عن بعض. ومن المعلوم أن هناك ما بين خمسمائة إلى ستمائة من هذه الوحدات القبلية، لكل منها تاريخها المستقل عن تطورها الاجتماعي والديني، خلال زمن يمتد من خمسة وعشرين إلى أربعين ألف سنة، في عزلة تامة بعضها عن بعض، فيما عدا الاتصالات العفوية عند الحدود التي تفصل بينهم.

لم تكن هذه الاتصالات قليلة وموجزة فحسب، بل كانت غير ذات قيمة أيضًا في نقل أفكارهم وعقائدهم وأساطيرهم وخرافاتهم فيما بينهم. ولم تكن اللغة هي الحائل الوحيد الذي سد هذا الطريق، وإنما أُغلق أيضا بسبب كراهتهم الشديدة المتوارثة للاتصال بالغرباء والتعايش معهم، الأمر

الذي خلق حاجزا في طريق انتقال المعلومات من قبيلة إلى أخرى.

وإذا كانت نظرة علماء الاجتماع التي تقوم على انتفاء وجود الله بها شيء من الحقيقة.. لكان من المحتم لنا أن نرى في كل من هذه القبائل نفس الظاهرة العامة في عبادة الأشياء في الطبيعة.. تتطور بالتدريج إلى الإيمان بإله واحد. غير أن ما نكتشفه هو واقع مغاير تماما لهذا السناريو، الأمر الذي يجلب الهم والغم والكدر لعالم الاجتماع.

فهناك إيمان بوجود قوة عظمى في الكون لدى جميع القبائل الأسترالية بغير استثناء. وهم جميعا يؤمنون بأن هذه القوة العظمى هي السبب الأول لوجود كل المخلوقات. وقد تختلف أوصافهم لهذه القوة في بعض الأمور التي لا شأن لها، كما أن مسمياهم قد تتباين قليلا، ولكن حسب إجماع رأي علماء الاجتماع وعلماء الأجناس.. فإن جميع القبائل الأسترالية تؤمن بوجود مسبب الأسباب، أو ذلك السبب الأول الذي يسمى "الآلهة العليا"، وهو الاسم المرادف لكلمة "الله" في اللغة العربية أو God أو براهما أو بارماتاما في اللغات والديانات الأخرى.

وتظل الفكرة المركزية للخالق الأزلي الأعظم فكرة نقية، لا تعكرها أية خرافات أخرى منتشرة بين تراث تلك القبائل. وتختلف هذه الخرافات من قبيلة إلى أخرى، ولكنها لا تؤثر في إيمانها بالإله الواحد. ولا يستطيع أحد من علماء الاجتماع أن يجد في أستراليا أي دليل على النمو التدريجي لفكرة وجود الله تعالى، فالأفكار السائدة بين مختلف القبائل لا تختلف إلا في الصفات الإلهية، ولكنها لا تختلف في وحدانيته. فمثلا تؤمن قبيلة ويمبايو (Wiimbaio) بأن الله حين كان يخلق الأرض ظل قريبا منها، ولكن بعد أن انتهى من عمله صعد إلى الأعالي. كذلك فإن قبيلة وُتجوبالوك (Wotjobaluk) تؤمن بأن الكائن الأعظم بانجيل (Bunjil) كان يعيش على الأرض كرجل عظيم، ولكن فيما بعد صعد إلى السماوات.[١]

وحين يتحدث علماء الاجتماع عن هذه العقائد، فإنهم في كثير من

الأحيان يغفلون أن يذكروا للقارئ أن هاتين القبيلتين، وجميع القبائل الأخرى التي يبلغ عددها خمسمائة أو يزيد.. كلها تؤمن بأزلية الخالق، سواء اتخذ صورة آدمية أم لا، فليس هذا هو بيت القصيد.. لأن المهم في الأمر هو أنهم جميعا يؤمنون بأن الأرض وما فيها ليست موجودة أزليا مع أزلية الخالق الأعظم.

غير أن الكثير من علماء الأجناس يتشككون في أصل وغرض العقيدة الإلهية لدى السكان الأصليين في أستراليا، ويساورهم الشك في أن ما يُعرف باسم "الآلهة العليا"* هو المرادف للكائن الأعظم المعروف في الأديان التقليدية الأخرى في كل مكان، وذلك لأنه من الصعب لدى هؤلاء العلماء أن يؤمنوا بأنه من الممكن أن يكون لدى مثل هذه القبائل البدائية والمتخلفة مثل هذه العقائد المتقدمة.

ولعل سخافة هذا الموقف المنافي للعقل تماما لا يحتاج لأي تعليق، لأن حجتهم تقوم على أنه لمجرد أنهم لا يستطيعون أن يؤمنوا بحدوث شيء ما.. فهذا يعني أن ذلك الشيء لا يمكن أن يحدث – الأمر الذي يكشف بوضوح مدى تحيزهم لآراء مسبقة، وافتقاد الأمانة العلمية. فإن كان مجتمع بدائي مثل مجتمع الوطنيين الأستراليين يؤمن بإله واحد منذ بداية تاريخهم، فلن يبقى أمام علماء الاجتماع سوى الاعتراف بأن فكرة وجود الله لم تتطور عن خرافات أسطورية بدائية. ولكن كل ما نسمعه منهم هو تفسير صبياني وإجابة ساذجة: نحن لا نؤمن بهذا لأنه لا يمكن أن يكون قد حدث!

وفي محاولة لتجنب هذا الموقف المخجل والمضطرب، اكتشف ي.ب.تايلور (E.B.Tylor) أسلوبا آخر يحتج به في رفض الدليل الأسترالي.

---

* وأما تعبير "الآلهة العليا" فهو لا يدل عندهم على تعدد الآلهة، وإنما هو تعبير عن الجلالة والعظمة، كما هو الحال في استخدام صيغة الجمع في القرآن مثلا، تعبيرا عن الله تعالى الواحد الأحد. منه

ففي مقال له بعنوان "حدود الديانة لدى البدائيين" *Limits of Savage Religion* الذي نشره في جورنال معهد دراسات الأجناس *Journal of Anthropological Institute* عام ١٨٩١ زعم فيه أن فكرة "الآلهة العليا" هي من نتاج تأثير المبشرين المسيحيين على الديانة الأسترالية. غير أن حقائق التاريخ تكذب بشدة مثل هذه الدعوى السخيفة وتنقضها.

ويدحض أ.و.هويت (A.W. Howitt).. وهو عالم آخر ممن يؤمنون بالتطور.. دعوى تايلور مشيرا إلى أن الإيمان بإله واحد أزلي قد سبق حتما وصول أي من المبشرين المسيحيين، بل أيٍّ من المستوطنين الغربيين إلى مكان بعض القبائل الموجودة في جنوب شرق أستراليا.

ومن الغريب أنه هو نفسه لم يلحظ أنه كان من الواجب عليه أن يرفض ويستبعد فكرة أن المبشرين المسيحيين هم الذين بشروا بعقيدة التوحيد لدى القبائل الأسترالية، لأنه لا يوجد، في أي مكان من القارة الأسترالية بأسرها، أي أثر بالمرة لفكرة التثليث.. يمسّ من قريب أو بعيد فكرةَ الإله الذي يقدسه عامة السكان الأستراليين الأصليين.

ومع ذلك.. وبالرغم من المدى الواسع للبحوث التي قام بها هويت.. فإنه يبدو مترددا في أن يصل ببحثه إلى نتيجته المنطقية، بينما يعترف صراحة في كتابه الذي نُشر عام ١٩٠٤ أن أهالي أستراليا الوطنيين يؤمنون بالأب العام الذي يصفه بقوله:

> "... كان من الواضح أنه أزلي، لأنه كان موجودا منذ بداية جميع الأشياء وهو لا يزال حيا. غير أن أهالي أستراليا هؤلاء يؤمنون بأن كل إنسان سيكون في نفس هذه الحالة إن لم يُقتل قبل الأوان بواسطة السحر."[٢]

وهكذا يحاول هويت أن يتهرب من الدليل الذي لا مهرب منه، وهو إيمانهم بالله، ولذلك فهو يحاول أن يخلط الأمور في ذهن القارئ، إذ يقول:

> "من غير الممكن القول بأن أهالي أستراليا هؤلاء يؤمنون بدين عن وعي".[٣]

وهنا نرى مثالا آخر لمحاولة يائسة من جانب علماء التطور لتجنب ما

لا يمكن تجنبه. فالأمور التي يثيرها هويت لا تفتقر إلى الدليل الحاسم فحسب، بل إنها لا تتعلق أيضا بالموضوع الذي نناقشه. إن السؤال البسيط الذي كان من واجب أي عالم من علماء الاجتماع مواجهته هو: كيف أمكن لمجتمع بدائي.. مثل مجتمع أهالي أستراليا.. الذي كان منقسما إلى المئات من المجتمعات القبلية، التي لا يوجد بينها وسائل للاتصال وتبادل المعلومات، أن تؤمن كل قبيلة فيه على حدة بوجود كائن أوحد أزلي، وأعظم من كل كائن آخر؟ وأيضا كان عليهم إجابة السؤال الهام الآخر وهو: بأي وجه حق يتمسكون بنظرياتهم عن نشوء وتطور فكرة الإله في ضوء هذه النتائج؟

أما عن هويت.. فحتى إذا قبلنا ادعاءه الذي لا يقوم على أساس، بأن جميع أهالي أستراليا كانوا يؤمنون بأنهم إن لم يُقتَلوا بواسطة السحر، فإنهم من الممكن أن يصلوا إلى حالة يتماثلون فيها مع الخالق نفسه، فإن هذا لا يُشكل ملجأ له يهرب إليه، كما أنه لا يؤيد مطلقا أسطورة علماء الاجتماع عن تطور ونشوء فكرة وجود الله. وإن المرء ليدهش حقا كيف أن عالما في شهرة هويت يمكن أن يخلط بين أمرين مختلفين لا علاقة لأحدهما بالآخر. إن نظرية تطور فكرة الإيمان بإله واحد ونموها التدريجي من خرافات بدائية كانت تؤمن بآلهة متعددة.. لا علاقة لها مطلقا بالافتراض الذي يقول بإمكان تحول الناس إلى آلهة إن لم يضع الموت نهاية لفترة حياتهم. إذ على الأقل يمكن مقارنة هذه الفكرة بأخرى مشابهة مذكورة في الكتاب المقدس الذي يؤمن به اليهود والنصارى على السواء. ففي العهد القديم توجد قصة عن آدم وحواء والحية. وقد قالت الحية إن الله منع آدم وحواء من أن يأكلا من الشجرة المحرمة لكي لا يكونا مثل الخالق نفسه فيشاركانه في الحياة الأبدية. وهذه المشابهة الموجودة بين أفكار الوطنيين في أستراليا وتلك التي يؤمن بها اليهود والنصارى، تجعل من دين أهالي أستراليا أقرب إلى مجموعة الأديان التقليدية. وإن المرء

ليعجب حقا كيف غاب عن هويت أن يسجل هذا التماثل البيّن.

ومن الواضح أن الوطنيين الأستراليين يضعون خطا فاصلا بين الخالق والمخلوق. والرسالة البسيطة التي تعبر عنها أفكارهم هي أن الخالق ليس أزَليًا فقط فيما يتعلق بالماضي فحسب، بل إنه أبدي أيضا فيما يتعلق بالمستقبل، فهو الوحيد الذي يملك هذه الصفات، ولا يمكن لإنسان أن ينال الأبدية فيما يتعلق بالمستقبل، فكل إنسان مآله الموت. وهذا الاعتقاد لدى أهل أستراليا يضعهم في مصاف الأديان التوحيدية التي تشترك في نفس الاعتقاد بأن الله وحده هو الأزلي والأبدي.

وفي غمرة حماسه لتكذيب أن يكون لأهل أستراليا أي دين على الإطلاق.. فإنه يزعم بأنه لم يكن هناك ما يدل على قيامهم بأية شعائر أو تقديم القرابين. وهذه الملاحظة من هويت ليس لها علاقة أيضا بالموضوع قيْد المناقشة، سواء أطلق على عقائدهم اسم الدين أم لا. فحيث إنه قد اعترف بأنهم يؤمنون بخالق أعظم أزلي الوجود، فإنه نجح في كشف زيف نظرية علماء الاجتماع عن النمو التدريجي لفكرة الإله.

أما عن صحة ادعائه بعدم وجود دليل على قيام سكان أستراليا بشعائر تعبدية أو تقديم ضحايا وقرابين بأي شكل من الأشكال للآلهة العليا الذي يؤمنون به، فهي دعوى لا تؤخذ كما هي على ظاهرها، إذ يجب أن نضع في الاعتبار أن معظم العلماء الغربيين أساءوا فهم بعض ممارساتهم الدينية. فإن ما يذكرونه على أنه عادة رؤية الأحلام لدى الأستراليين لا يتفق مع اعتقاد الأستراليين عنه.

وقد كان للمؤلف فرصة لقاء أحد كبار قادتهم للتحقق منهم عن حقيقة دلالة وقيمة هذه الأحلام، وهو أمر بالغ الأهمية.. لأن المرء يجد ذكر الأحلام في جميع ما كُتب تقريبا في الغرب عن أهالي أستراليا. وقد احتاج الأمر إلى بذل مجهود كبير من جانب المؤلف ليتمكن من إقناع ذلك الزعيم بالموافقة على بحث الموضوعات التي تتعلق بالدين، وكان من

الواضح أنه متردد في بحثها مع شخص ليس من أهل أستراليا الوطنيين. وقد تبين فيما بعد أن هذا التردد كان سببه الأكبر سوء الفهم، وسوء شرح وتعبير معتقداتهم على يد الكثيرين من الغرباء الذين بحثوا هذه الأمور من حياة وتاريخ سكان أستراليا. وهذا ما فهمه المؤلف من محادثاته معه بعد أن أمكن خلق جو من الثقة والألفة.

إن الأحلام بالنسبة لهم هي وسيلة للاتصال بالله تعالى، وبواسطة الأحلام يُخبَرون مُسبقا بالكثير من الأحداث الهامة في حياتهم. ولديهم نظام ديني هرمي يشمل الزعماء الذين هم على معرفة وثيقة بعلم تفسير الأحلام. ولا يوجد لهؤلاء الزعماء أي اتصال خارجي، ولا يُسمح لأحد من غير أهالي أستراليا الوطنيين بالتحادث أو التعامل معهم. وحين يتم عرض الأحلام عليهم.. لا يكون لدى الشخص نفسه الذي تلقى الحلم أية فكرة عن الرسالة التي يحملها ذلك الحلم، غير أن الشخص المنوط به تفسير هذه الأحلام يستطيع أن يقرأ ما تحمله من رسائل، وفي معظم الأحيان يتبين أنه على حق وصواب، فإن الأحداث التي تقع بعد ذلك تثبت صدقه وصحة تأويله، كما تبين أيضا أهمية وشرعية موضوع الأحلام.

وعلى هذا فلا بد أن يكون هناك خط فاصل بين معتقداتهم وممارساتهم الدينية من ناحية، وبين شعائرهم وخرافاتهم من ناحية أخرى، وهي غير ذات قيمة على أية حال. فإن الخرافات، والممارسات الخرافية، تختلف من قبيلة إلى أخرى، وليس هناك من تراث واحد مشترك بين جميع السكان سوى الإيمان بإله واحد، وأيضا اعتبارهم أن الأحلام وسيلة لتلقي التعاليم من الله تعالى. وفي الكثير من الأحيان تأتي الأحلام على إثر انهماكهم في تدبر أمر من الأمور على جانب كبير من الأهمية. وعلى هذا.. فمن الممكن اعتبار أن هذا التدبر العميق هو في الحقيقة اسم آخر للصلاة. ولا بد أن يكون الأمر كذلك.. لأن هذا التدبر العميق يعقبه

تلقي هذه الأحلام التي تُعتبر إجابة لهم، على العكس من ذلك التدبر الذي ينهمك فيه البوذيون. كذلك فإن الأحلام لدى أهالي أستراليا لها نظام قوي وقواعد محكمة ومحددة، وهناك عقاب صارم لمن يخالف أو ينتهك حرمته.

وعلى هذا فإن وصم هؤلاء السكان بأنهم غير متدينين، أو بأنه لا دين لهم، هو أمر غير صحيح وليس له ما يبرره. وفيما يتعلق بالموت 'عن طريق السحر' فهو أمر ليس له لديهم نفس المدلول الذي يحمله أو يعنيه في سائر أنحاء العالم. فلا يوجد بينهم سحرة مسرحيون يقدمون فنهم أمام الجمهور كما هو الحال في بقية العالم. وهم حتما لا يؤمنون بأن كل من يموت فإنه يموت نتيجة تأثره بعمل من أعمال السحر، يقوم به أحد الأشرار من خلال التمتمة ببعض الطلاسم السحرية. فالسحر لدى القبائل الأسترالية مرادف للتأثيرات الشيطانية التي ترمز للظلام مقابل النور في التعبيرات والمجالات الروحية. فمن الواضح تماما أن السحر في مفردات القبائل الأسترالية يعني الإثم والخطيئة، حتى إن المرء يجد أنه من الغرابة بمكان ألا يستطيع علماء الأجناس وعلماء الاجتماع أن يفهموا هذا المعنى. فالموت هو نتيجة السحر الذي يحدث في حالة كل كائن يتعرض للموت بغير استثناء إلا "الآلهة العليا"، وهو الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة، ولا يشاركه أحد في هذه الأبدية. ولا يعني هذا أبدا أن الموت في كل حالة يتم بسبب بعض السحرة الذين يطرحون سحرهم على الأحياء، فالموت ظاهرة عامة تتأثر بها جميع أشكال الحياة على السواء، في كل مكان في العالم، وليست أستراليا استثناء من ذلك. والقبائل الأسترالية تعلم هذا جيدا، ومهما كانوا من السذاجة التي يود بعضهم أن يلصقها بهم، فمن المستحيل أن ينسبوا إليهم غباوة اعتبار أن كل حالة من حالات الموت هي نتيجة لأعمال الشعوذة.

وعلى هذا فإن معنى السحر يمكن فقط أن يُفهم بمعنيين اثنين. الأول

هو أنه قد يعني الإثم والمعصية، الأمر الذي يسبب الموت الروحي، كما هو المفهوم في الأديان الأخرى في العالم. وإذا كانت هذه هي الحال، فلا بد أنهم تلقوا هذه الفكرة من نفس المصدر الذي تلقى منه أهل الكتاب فكرة وجود الإله الأبدي.

أما المعنى الثاني للسحر الذي يمكن أن يُنسب إليهم ببساطة.. فهو أن كل شيء يجدونه غير قابل للفهم وليس لديهم سبب لتبريره، فإنهم يُدخلونه في مجال السحر، أي أنه يعني ببساطة أنه من الأسرار. ومن هنا تكون ظاهرة الموت الحتمية والعامة، والتي تمثل الخط الفاصل بين المحدود وغير المحدود، بين الخالق والمخلوق، سرًّا يُعبر عنه أهالي أستراليا باسم السحر. غير أنه لا يختص بظاهرة الموت وحدها، وإنما ينطبق أيضا على كل شيء لا يجدون له تفسيرا في حياتهم اليومية.

إن الصراع الأبدي بين النور والظلام، الذي تعبر عنه الديانة الزرادشتية بألفاظ مادية إلى حد ما يمكن أن يمثل فلسفة ما يسمى بالممارسات الخرافية لقبائل أستراليا. فمثلا.. إن التقليد الذي يتبعونه في محاولة الابتعاد وتجنب ظل الأشياء المتحركة.. له نفس دلالة الظلام الذي يمثل الشيطان.

ولكن الأحلام وما يفهمونه منها، فليس من علاقة بينها وبين خرافاتهم؛ فهما ظاهرتان لا علاقة بينهما. فالأحلام جزء لا يتجزأ من صلب عقيدتهم للإيمان بالله، ووسيلة لتلقي الرسائل منه. ومنذ زمان بعيد لا يعرفون له بداية.. كانت الأحلام دائما بمنْزلة آيات دالة على وجود كائن عليم قدير يهتم اهتماما مباشرا بشؤون خلقه. ومن هنا نرى أن للوطنيين الأستراليين كل الحق في الغضب من الباحثين الغربيين الذين يرون أن العقائد والممارسات الدينية التي يؤمن بها ويمارسها أهالي أستراليا لا تستحق أن توصف بأنها دينية، لمجرد أنهم يعتبرونها شديدة البدائية والجهل. ولعل مجهودات العلماء الغربيين في تشويه صورة الدين لدى

القبائل الأسترالية، قد نشأت من خشية أولئك العلماء من ثبوت عدم صحة نظرياتهم التي كانوا على قناعة مسبقة بها.

وكان من بين هؤلاء الوطنيين رجل تأثر المؤلف بمعرفته تأثرا بالغا، حيث كان هذا الرجل قد نال قسطا عاليا من التعليم الجامعي، وكان مهندسا. وكان قد تحول إلى الديانة المسيحية، أو هكذا كان يبدو الأمر، قبل أن تتاح له فرصة الحصول على التعليم العالي. وعند بداية الحديث معه كان مترددا في الكلام عن العقائد الدينية وممارسات القبائل الوطنية. وما أثار الدهشة أنه رغم تحوله إلى المسيحية، فقد ظل في أعماق قلبه على ما كان عليه. وبعد أن بذل المؤلف جهدا شاقا طويلا في إقناعه بالكلام، وبعد أن أدرك ذلك السيد مدى إخلاص المؤلف واهتمامه الصادق العميق بديانة الوطنيين الأستراليين، بدأت الثلوج في الذوبان شيئا فشيئا. وكان الحزن والأسى الذي بدا واضحا في عينيه عميقا عمق الحضارة الوطنية في أستراليا. وقد أخبر المؤلفَ بأنه من النادر أن يتمكن الأجانب من الوصول إلى الصفوة في القمة الهرمية لدى الوطنيين، لذلك فإن المعلومات التي اكتسبوها أغلبها هامشية. وأبدى امتعاضا شديدا بل واشمئزازا من الأسلوب الذي ينظر به الباحثون الغربيون إلى ظاهرة الأحلام.

ومن المناسب هنا أن نشير إلى الحديث النبوي الشريف الذي يذكر أن الرؤيا الصالحة جزء من أربعين جزءًا من النبوة.[٤] ورغم أن هذا التعريف للأحلام يبين أن النبوة بوجه عام تبدأ بالأحلام والرؤى الصادقة، فإنها أيضا في النهاية تمهد السبيل لنُزول الوحي الكلامي من الله تعالى، ذلك الوحي الذي.. إذا شاء الله سبحانه وتعالى.. يصطفي متلقيه ليكون رسول الله.

وعودة إلى موضوع ما يستخلصه الباحثون الغربيون.. نرى أن الأمر يقتضي الاعتراف بأنهم ليسوا جميعا سواء في مسلكهم السلبي تجاه التجارب الروحية للقبائل الوطنية في أستراليا. فمن بينهم علماء يتمتعون بالرؤية الواضحة، والشجاعة التي تجعلهم يعترفون بأن الوطنيين يؤمنون

إيمانا راسخا بإله أوحد أعظم. ويقول آندرو لانج (Andrew Lang) في كتابه *The Making of Religion* : إن "الآلهة العليا" هو أمر أصيل للوطنيين الأستراليين. ولأنه لا يوجد سوى القلة النادرة من الأساطير حول 'جميع الآباء'، فإن لانج كان محقا في استنتاجه بأن هذه الأساطير قد نشأت بعد وجود "الآلهة العليا".

كذلك فإن بيتر ولهلم شميدت (Peter Wilhelm Schmidt)، وهو قس ألماني من طائفة الروم الكاثوليك، كتب في بحثه المكون من اثني عشر جزءا بعنوان *Ursprung der Gottesidee* والذي نشره فيما بين عامي ١٩١٢ – ١٩٢٥، فأيد أيضا لانج.. وأكد على أن الأسطورة جاءت بعد فكرة "الآلهة العليا". وكان شميدت قد نشر مؤلفه باللغة الفرنسية بين عامي ١٩٠٨ – ١٩١٠ في مجلة دورية باسم *Anthropos* أسسها شميدت نفسه. ثم أعيد الطبع والنشر مرة أخرى تحت العنوان:

L'origine de Dieu. Etude Historico. Critique et Positive. Premiere Partie. Historico Critique (Vienna 1910)

ثم ظهرت طبعة ثانية ألمانية مُوَسّعة في عام ١٩٢٦، وشرح فيها شميدت وجود الأسطورة والدين في فكرة "الآلهة العليا"، فذكر أن الفكرة الأصلية للآلهة العليا، قد اختلطت فيما بعد بالخرافات الغامضة.

ومع ذلك فإن بعض علماء الأجناس لا يزال يُصر على أن فكرة "الآلهة العليا" كانت من نتاج الأساطير، ومن بين هؤلاء أحد الشخصيات المشهورة وهو رفائيل بتاتسيوني (Raffaele Pettazzioni) في كتابه بعنوان *Dio* عام ١٩٢٢، ولكن مما يثير الدهشة أنه لم يؤيد استنتاجاته بالأدلة الموجودة والمنتشرة في جميع قبائل الوطنيين الرئيسة. وكونه يعمم استنتاجاته التي استخلصها من الحكايات الأسطورية المتوارثة في قبيلة واحدة معينة.. على جميع قبائل سكان أستراليا.. لا يُعد عملا أمينا ولا منطقيا.[٦]

إن معظم القبائل الوطنية لا تشترك في نفس الأساطير التي ذكرها.

ولكن بالنسبة لإيمانهم بالله.. فهم جميعا يشتركون في فكرة السبب الأعظم الأزلي لوجود المخلوقات. وبالرغم من شهرة اسم بتاتسيوني كعالم من علماء الأجناس، فإن إصراره على الوجود المشترك بين الأساطير وفكرة الخالق الواحد الأعظم لا بد أن يعني أن الخرافات قد سبقت فكرة الإله باعتبارها فكرة متطورة.. نقول إن هذا الرأي لا يمكن قبوله بغير أي دليل يؤيده. وهو لم يحاول حتى أن يربط بين تكوين أساطيرهم وفكرة الإله الأعظم، أو يثبت أنها تمت خلال عملية النشوء والتطور.

إن نظرية النمو المتطور لفكرة الإله من الأساطير والخرافات، هي ببساطة فكرة تفتقد الدليل في أستراليا. وليس هناك أي دليل على الإطلاق يبين حدوث عبادة للطبيعة تحت تأثير الرهبة من الطبيعة أو الإعجاب بها. وليس هناك أي أثر يمكن تقصيه لإثبات وجود ممارسات تعبدية.. تطورت خطوة بعد أخرى لتقود في النهاية إلى إيمان أكثر تطورا بإله واحد. وعلى ذلك فلا يسع المرء سوى أن يتفق مع آندرو لانج على أنه من المحتم أن تكون الأساطير قد تلت الإيمان بإله واحد، و لم تأت قبله.

إن الأساطير بين الوطنيين الأستراليين هي أشكال متفرقة من الخرافات، وليس من علاقة ولا رابط بينها، الأمر الذي يدل على أنها ليست إلا نتاجًا لتجَول العقل وانحرافه عن سواء السبيل.. لدى أقوام بدائية أمية أثناء محاولاتها لاكتشاف بعض المعنى لما يلاحظونه من حولهم. وهذا الاتجاه من جانبهم لا يختلف عن الطبيعة العامة للإنسان.

لقد كان العجب والدهشة دائما تأخذ الإنسان عما يراه في الطبيعة والسماء والشمس والقمر والمجرات. وكثيرا ما حدث نتيجة لهذه الدهشة التي استولت على تفكير الإنسان أن تكونت الأساطير. وقد اكتست الآلهة التي توهم الوثنيون وجودها رداء من الأساطير. ولكن لم يكن هذا هو الواقع مع الوطنيين في أستراليا. فإن أساطيرهم لا تتعلق بأمور عباداتهم، ولا تدور حول شخصيات إلهية، كما هو الحال في أماكن

أخرى من العالم. فإن فكرة الإله لدى الوطنيين منفصلة تماما ومستقلة، فأشكال الوجود التي يعتقدون أنها تشغل الأفلاك والأجرام السماوية لا يعتبرونها آلهة. وعلى هذا يكون من الصعب بمكان الاتفاق مع باتاتسيوني حينما يزعم أن "الآلهة العليا" هو من نتاج الخيال الأسطوري.

إن مشكلة العقلانيين من علماء الأجناس وعلماء الاجتماع هي ذاتها التي يشترك معهم فيها جميع العلماء العلمانيين. فهم يرون أنهم إذا أقروا بقبول الدليل الأسترالي، فإن عليهم في النهاية أن يعترفوا بأن فكرة الإله الأعظم الأزلي لم تأت نتيجة للتطور الفكري، وبالتالي فلا بد أن تكون قد نزلت بشكلها الكامل هذا من عند الله تعالى نفسه، فإنه من المستحيل على أفراد القبائل البدائية البسيطة من سكان أستراليا الأصليين.. اختراع هذه الفكرة بمثل هذا الإجماع، وبغير أن يكون هناك اتصالات متبادلة بينهم. وعلى هذا، فإن إنكار علماء الأجناس وعلماء الاجتماع هذا الدليل لمجرد أنه لا يتفق مع أفكارهم، هو أمر لا يتفق مع صورتهم العلمية، ولا يُضفي الصدق على نتائج بحوثهم. غير أنه مما يثلج الفؤاد أن نعلم أنه يوجد من بين هؤلاء الكثير من الاستثناءات الطيبة. بالطبع هناك بعض الناس الذين لديهم من النضوج والأمانة الموضوعية ما يجعلهم يقبلون الدليل باعتباره حقيقة، غير أنه حتى هؤلاء يستمرون في البحث عن سبل للهروب والاختباء خلف ضباب الغموض والشروح المبهمة.

وهذه هي حالة ف. جربنر (F.Graebner)، فإنه بينما يقبل فكرة أن "الإله الأعلى" هو بالفعل الخالق لدى الوطنيين، وأنه:

> "... السبب الأول، على الأقل، لكل ما هو ضروري وهام بالنسبة لهم..."

فإنه يستمر في حديثه قائلا:

> "ولكن لعل بروس يكون مصيبا في شكوكه بأن مثل هذه الفكرة التجريدية عن السبب الأول، يمكن أن يكون لها القدرة، بين هؤلاء البشر البدائيين، على إبراز كائن يمتلئ دائما بالحياة".[٧]

وهكذا.. فإن جربنر، مثل هويت، يتردد في الاعتراف باستطاعة الوطنيين البدائيين أن يدركوا بأنفسهم صفات كائن أعظم، ومع ذلك فإنه يفتقد القدرة على استخلاص الاستنتاج الذي لا مناص منه، وهو أنهم تلقوا هذا من الله تعالى، ولا شك أن التحيز والتعصب الإلحادي واضح تمام الوضوح.

وفي بعض القبائل نجد أن فكرة "الآلهة العليا" تختلط ببعض الأشكال الأسطورية من حوله مثل الزوجات والأبناء إلى غير ذلك. غير أن هذا لا يلقي بأية شكوك على صحة وحقيقة ما ذكرناه، فإن مفهوم "الآلهة العليا" لدى الوطنيين الأستراليين، لا يختلف عن مفهوم الله تعالى في الأديان التوحيدية الأخرى.. إذ أن العلماء الذين اكتشفوا تفشي مثل هذه الأساطير، أبرزوا بعض سماتها الخاصة المميزة، وهي تساعد القارئ على أن يضع الخط الفاصل بينها وبين الله الذي يقولون إنها تتعلق به. ومن الخطأ مساواة نفس المفاهيم لما يسمونه بأساطير الوطنيين الأستراليين بالمفاهيم التي ترتبط عادة بكلمة "الأساطير" في كل مكان آخر من العالم. فإن الأساطير في كل مكان آخر في العالم تنشأ حول الآلهة في الديانات الوثنية، بينما لا يوجد بين أهالي أستراليا 'آلهة' تُعبد أو تُقدس. وكل ما يشير إليه علماء الاجتماع من أساطير فهي يقينا لا تدور حول شخصية "الآلهة العليا". ووجود عدد ضئيل من القبائل التي تؤمن بمثل هذه الأساطير، هو في ذاته دليل على أن هذه الأساطير لا تدل على وجود إيمان عام بها بين تلك القبائل. ولم يحدث أبدا أن نسبت إلى تلك الشخصيات الأسطورية أية قدرة على الخلق، ولا اعتقد أحد أنها تتمتع بالأزلية مع الله، فكلها مخلوقة، وليس من بينها ما خلق شيئا. ولا بد أن تكون كلها مخلوقة لأنها ليست أزلية. ومن المحتمل أن تكون هذه الأساطير قد اختُلقت بطريق الصدفة عن طريق بعض كهنة الدين في عصور متأخرة.

وعند الحديث عن نفس الموضوع نجد أن إلياد (Eliade) وهو يعيد صياغة ما قاله ت.ج.هـ. سترهلو (T.G.H. Strehlow)، فإنه يَشرع في معالجة حالة قبيلة أخرى في أرنادا الغربية ويبين أنهم يعتقدون بأن:

"... الأرض والسماء كانت موجودة دائما وكانت دائما مسكنا لكائنات خارقة. وتؤمن أرنادا الغربية بأن الأب الأعظم (knaritja) يسكن في السماء، وله أقدام مثل أقدام طائر الأمو الأسترالي، وهو أيضا الشاب الأزلي (altjira nditja) وله زوجات ذوات أقدام مثل أقدام الكلب، وله الكثير من الأبناء والبنات. "إنهم يعيشون على طعام يتكون من الفاكهة والخضراوات في أرض دائمة الخضرة، لا تتأثر بنوبات الجفاف، ويجري خلالها نهر كبير يتدفق من مجرة درب اللبانة (Milky Way) ..."."[8]

لقد كان لهم مكان يشابه جنة عدن حيث تنمو وتزدهر الأشجار والثمار والزهور، وكل هؤلاء الذين يسكنون السماء، يُنظر إليهم على أن عمرهم غير محدود وأنهم فوق الموت.

وبالرغم من أن هذه الكائنات السماوية تتمتع بصفتين خارقتين، وهما عدم التعرض للموت والسبق في الوجود (أي أنهم جاءوا قبل أبطال الطوطم) فإن سترهلو محق في رفضه الاعتراف بأهميتهم في تكوين الديانة الأسترالية. وهو لا يستطيع أن يقبل هذه الكائنات السماوية باعتبارها كائنات عظمى، لأنها لم تتكون بنفسها و لم تخلق الحياة.[9]

ولا يمكن دحض رأي سترهلو، لأن هذه الكائنات الأسطورية توصف بأنها غير خاضعة للموت، ولكنها ليست أزلية في علاقتها بالماضي، بينما "الآلهة العليا" وحده هو الذي يجمع بين الصفتين، أي أنه أزلي، وأنه لا يخضع للموت. وبالإضافة.. لم يُنسب إلى هذه الكائنات الأسطورية أية قدرة مطلقا على الخلق، وبالتالي فلا يمكن اعتبارهم مشاركين في الألوهية مع "الآلهة العليا"، الذي يُعتبر الخالق الوحيد. كذلك فإنه من المحتمل أيضا أن تكون تلك المعتقدات قد صنفت بطريق

الخطأ واعتبرت أساطير، إذ من المحتمل أن تكون هذه روايات أصابها شيء من التغيير عن فكرة الجنة في بداية الحياة المعروفة والشائقة في الكثير من الأديان السماوية. أما وصف الساكن الأعظم في تلك الجنة بأن له أقدامًا مثل طائر الأمو، وأن زوجاته وأولاده لهم أقدام تشابه أقدام الكلب، فهي العناصر الغريبة الدخيلة على فكرة الجنة الموجودة في الأديان الأخرى، وإلا فإن جنات عدن دائمة الخضرة والممتلئة بالفواكه والخضراوات بدون أي خوف من جفاف، الخ.. قريبة الشبه بالوصف المجازي للجنة في القرآن الكريم.

كذلك فإن الغياب الكامل لذكر الحيوانات، فيما عدا "أبناء الله" له أيضا مدلوله الهام، فإن صورة الجنة المذكورة في الأديان الكبرى تخلو أيضا من ذكر الحياة الحيوانية، فالسكان هم فقط الأناس الصالحون الذين يُطلق عليهم أيضا اسم "أبناء الله". ولو كان الأمر كله هو مجرد أسطورة من اختراع العقل الساذج البسيط للوطنيين الأستراليين، لما كان لهم أن يستبعدوا على الإطلاق الحياة الحيوانية من تخيلاتهم عن الجنة. وقد يوجد ذكر بعض الحيوانات في الأفكار الأسطورية في أماكن أخرى، ولكن الصورة المشتركة بين الأديان العظمى عن الجنة تتميز بغياب الحيوانات بوجه خاص وبشكل واضح.

إن تاريخ تطور المجتمعات والأفكار الدينية لم يتشكل بأي عامل أو مؤثر واحد، بل هو شديد التعقيد. والانتقالُ المتبادل للأفكار بين منطقة وأخرى هو أمر كثير الحدوث، حتى إنه أصبح من الصعب فصل هذا الخليط من الأفكار بعضها عن بعض، وتقرير الاتجاه الذي انتقلت منه أو إليه، ومدى النفوذ الذي تأثرت به بأي درجة من درجات اليقين. ومحاولة تتبع خيط واحد من خيوط الفكر منذ بدايته إلى نهايته بترتيب متوال، هو في الواقع عمل يتضمن الكثير من التحديات.

ويستمر الجدل بغير انقطاع.. عن من الذي أثر وفي من؟ وما الذي

أثر على ماذا؟ فمثلا.. أحد الأسئلة التي تبقى بغير إجابة شافية هو هل البوذية هي التي أثرت على المسيحية، أم أن المسيحية هي التي كان لها نفوذ مؤثر على البوذية؟ غير أن ما نجده في أستراليا يختلف تماما في كونه أمرا وحيدا وفريدا في ذاته. وإن المرء ليعجب حقا عما عساه يمكن أن يكون مسلك علماء الاجتماع، لو أن الدليل الذي استخلصوه من دراسة الدين في أستراليا.. كان مؤيدا لوجهة نظرهم، أمَا كانوا يثيرون عاصفة هوجاء من الفرح والصخب، ويهتفون بأعلى أصواقم في نشوة وانتصار: وجدناها.. وجدناها! ولكن مع تكشف الحقائق الصعبة لتاريخ الدين الذي لم يُصِبْه التغيير والتشويه في أستراليا، والذي يقف عقبة كؤودا في وجه علماء الاجتماع، فإنه مما يبعث على الأسى أن نرى كيف أنهم لا يزالون في صراع من أجل أن يتفادوا ما لا مناص منه، وأن يتهربوا مما لا بد منه. ونحن نتحدث هنا عن أولئك العلماء الذين لا يؤمنون إلا بالطبيعة، وهم يعانون الآن من صدمة قاسية لأنهم لا يؤمنون بالله الخالق. وقد كانوا على ثقة مطلقة بأن تاريخ الوطنيين الأستراليين سوف يؤيد قناعاقم، ويشهد بصحة نظرياقم، بأن فكرة الإله قد نشأت وتطورت بالتدريج على مدى آلاف السنين. غير أن ما اكتشفوه مختلف تماما ومثير للسخط. وقد يسأل البعض لماذا يكون مثيرا للسخط لدى هؤلاء العلماء، رغم أنه من المفترض أن يبحثوا عن الحقيقة؟ لم هذا الإحساس العميق لديهم بخيبة الأمل حين تكون الحقيقة مغايرة لآرائهم التي يؤمنون بها مسبقا؟ والإجابة بالطبع هي أنهم يعتبرون أن رفض كل دليل يمكن أن يؤدي إلى الله تعالى هو أمر سبق تقريره، وكل اكتشاف يناقض نظرياقم وقناعاقم لا بد من رفضه أو إساءة تفسيره. فإن العلمانية أو الإلحادية بالنسبة لهم مرادفة لإلغاء وجود الله. ومهما قدّموا من معاذير ومبررات للحفاظ على ماء وجه نظرياقم العلمانية، فإنها لا تفعل شيئا سوى أنها تفضح بشكل أقوى أسلوبهم غير العلمي. ويبدو أن التعصب الأعمى

والانحياز الأحمق ليس من صناعة كهنة الدين وحدهم، فإن المفكرين من غير المتدينين ومن الفلاسفة يمكن أن يغترفوا من بحر التعصب المقيت حسبما يشاءون، ما دام كان ذلك في خدمة أغراضهم. ويبدو أن هناك بحرا عميقا يعج بأمواج التعصب والانحياز الأحمق، يثور ويطغى فيغرق في طياته ما لديهم من فكر ومنطق، ويمحو أي أثر للعدالة والإنصاف. وحينما يكونون في هذه الحالة فإنهم يتصرفون كما يتصرف المتدينون المتعصبون، لا كما يتصرف المفكرون المتفتحون فكريا، كما يعتبرون أنفسهم.

ولكن مهما كانت حججهم التي يحشدونها من أجل تأييد آرائهم المسبقة، فلن تستطيع أن تبعث فيها الحياة، أو تقيمها من بين الأنقاض التي انهارت عليها. فإن جميع نظرياتهم عن التطور التدريجي لفكرة الإله التي خلقتها أوهامهم البشرية، قد انهارت وسقطت على سطح القارة الأسترالية. وهم في فزع واضطراب بعد أن أصابتهم لعنة السقوط، ولا يمكن أن يعينهم أمير أو خفير على إعادة صياغة أفكارهم مرة أخرى. ويذكرنا وضعهم بقصة "الفردوس المفقود" من تأليف ميلتون. غير أنه ليس لهم معين من عقل أو منطق لإنقاذ الحطام، وإعادة اكتساب ما فقدوه إلى الأبد. وقليل ما كان ميلتون يعلم أنه في يوم ما سيقوم رجال حقيقيون بتمثيل قصته في الحياة الواقعية. إن فردوسهم المفقود لن يكون هو الله تعالى، ولكنه إله من خلق أنفسهم، فماذا يهمهم إن فقدوه إلى الأبد، وماذا يهمهم إن كان الله تعالى لا يكترث بهم بتاتا.

المـــــــــراجع

1. ELIADE, M. (1973) *Australian Religions. An Introduction.* Pcornell Uni Press, Ithack, p.4
2. ELIADE, M. (1973) *Australian Religions. An Introduction.* Pcornell Uni Press, Ithack, p.13
3. ELIADE, M. (1973) *Australian Religions. An Introduction.* Pcornell Uni Press, Ithack.
4. Musnad Al-Imam Ahmad Bin Hanbal (1983) Vol.4. Al-Maktab-Al-Islami. Beirut, p.10
5. LANG, A. (1898) *The Making of Religion.* Longmans, Green & Co., London
6. ELIADE, M. (1973) *Australian Religions. An Introduction.* Pcornell Uni Press, Ithack.
7. ELIADE, M. (1973) *Australian Religions. An Introduction.* Pcornell Uni Press, Ithack, p.24
8. ELIADE, M. (1973) *Australian Religions. An Introduction.* Pcornell Uni Press, Ithack, p.30
9. ELIADE, M. (1973) *Australian Religions. An Introduction.* Pcornell Uni Press, Ithack, pp.32-33

الباب الرابع

- طبيعة الوحي
- الوحي الإلهي والعقلانية
- الإيمان بالغيب
- البيّنة – الحقيقة الواضحة، القيّمة – التعاليم الدائمة
- القرآن وعلوم الكونيات
- الإنتروبيا والكون المتناهي
- القرآن والحياة في الكون

الفصل الأول
طبيعة الوحي

ما هو الوحي؟ هل الوحي مجرد كلمة تستخدم للتعبير عن الاستقصاء الواعي أو غير الواعي لوجدان الإنسان الداخلي، أم أن مصدر الوحي كائن خارج الوجدان الإنساني، يتجاوز علمه جميع علوم البشر، وتتفوق معرفته على كل معارف الإنسان؟

وحتى الناس الذين يؤمنون بالوحي.. نراهم يختلفون أيضا في فهمهم لطبيعته. فمثلا.. إن الغالبية العظمى من بين أتباع بوذا وكونفوشيوس وطاو المعاصرين يعتبرون أن التجارب الروحانية التي مر بها مؤسسو هذه الأديان قد نبعت كلية من وجدانهم الداخلي، أو نبتت من العقل الباطن لديهم. وكما سبق ذكره في الفصول السابقة.. إن أتباع هذه الأديان يؤمنون بأن الحقيقة كامنة داخل كل نفس كجزء من غريزتها، والوحي لدى هؤلاء ليس سوى أداة الاتصال مع ينبوع هذه الحقيقة الأزلية. أما بعض الأديان الأخرى فتعتبر أن الوحي تجربة تنتج عن مصدر خارجي، وهو الله العليم الحكيم.

وإذا أردنا توسيع نطاق هذا البحث، فإننا نلحظ أن هناك حالات حقيقية من الوحي حدثت خارج نطاق الأديان. فمثلا.. هناك تجارب كثيرة ومثيرة لحالات من الوحي لبعض علماء العلوم التجريبية تلقوا خلالها الكثير من العلوم المعقدة.

ففي عام ١٨٦٥ كان فريدريك أوغست كيكول (Fredrich August Kekule)، وهو عالم ألماني في علوم الكيمياء، يحاول جاهدا أن يجد حلا لمشكلة عويصة في الكيمياء حيرت جميع الباحثين. وأثناء نومه في إحدى الليالي رأى كيكول رؤيا.. رأى فيها حية وقد استدارت حول نفسها في

شـــكل حلقـــة، وذلك بأن وضعت طرف ذيلها في فمها. وقد حل هذا الحـــلم لكـــيكول المشـــكلة الـــتي كانت تؤرقه، وأَمَدّته الرؤيا بالإجابة الصحيحة للسؤال الذي أعيا وأذهل العلماء. وهكذا تم الكشف عن سر الســـلوك الجزئي لبعض المركبات العضوية، وقد أحدث هذا الاكتشاف ثـــورة في مفاهيم الكيمياء العضوية. فقد قال كيكول إن هذه الرؤيا تعني أن ذرات الكـــربون في جـــزيء البـــنْزين ترتبط بعضها ببعض في شكل حلقـــي. وقد أدت هذه المعلومة إلى كشف آفاق واسعة ومجالات عديدة للكيمياء العضوية التخليقية، وترتب على ذلك إنتاج ما لا حصر لـــه من المـــواد المخلقة. وقد ازداد بشكل كبير الاعتماد على الأدوية المخلقة في صـــناعة الأدوية الحديثة. ولا شك أن البشرية بأسرها مدينة بالكثير لهذه الرؤيا الفريدة التي وجد فيها كيكول حلا لتلك المشكلة المستعصية.

كذلـــك كـــان إلـــياس هاو (Ilias Howe) أول من مَيْكَنَ عمليات الحـــياكة. وقـــد تلقى هو الآخر حلا لمشكلة حيرته وأقلقته لزمن طويل، وكـــان ذلك أيضا خلال رؤيا رآها في نومه. فقد رأى نفسه محاطا بأفراد من بعض القبائل المتوحشة، وكانوا يهددونه بالقتل ما لم يخترع لهم ماكينة للحياكة. ولما لم يستطع تحقيق مطلبهم ربطوه في شجرة وأخذوا يلقونه بالسهام والرماح. وقد أدهشه كثيرا أن يرى ثقبًا كبيرا في أسنة رماحهم. وحـــين اســـتيقظ من نومه أدرك على الفور أنه قد عثر أخيرا على الحل للمشكلة العويصة التي عاقته طويلا عن ميكنة عملية الحياكة، فتمكن من اخـــتراع نموذج لماكينة حياكة كان لها الفضل في إحداث ثورة في ميكنة صـــناعة الحـــياكة. وكان ذلك بفضل الحلم الذي رآه وفهم منه أن عين المخيط يجب أن تكون في مقدمته وليس في المؤخرة. وكانت تلك الفكرة هـــي التي حلت لـــه مشكلة كانت تبدو لـــه عويصة وبغير حل. ومن الصعب، بطبيعة الحال، تصور صناعة الثياب اليوم لو لم تحظ بهذه الرؤيا. فمـــا أعظمها حقا من ثورة في عالم صناعة الملابس تلك التي أوحت بها

هذه الرؤيا!

وفي ضوء العديد من هذه التجارب.. يمكن أن يكون أحد التبريرات التي تخطر ببال المرء هو أن الوحي ليس سوى ظاهرة تنبع من العقل الباطن، وعندما يتعب العقل الواعي من البحث عن حلول للمشاكل العويصة التي تؤرقه قبل أن يستسلم للنوم، فإنه ينقل هذه المشكلة إلى العقل الباطن، وفي أثناء النوم.. يقوم العقل الباطن بالبحث عن حلول لتلك المشاكل التي نُقلت إليه. وأحيانا تُشاهَد هذه الحلول في صورة رؤى، وأحيانا تُسمع في شكل أصوات ورسائل لفظية. وإذا كان الأمر كذلك.. فهل يعني هذا أن جميع أنواع الوحي.. في أية صورة كان.. هو في الحقيقة ليس سوى رسائل من العقل الباطن، بغير أي استثناء؟

لعله يمكن القول بأنه في الحالات التي ذكرناها كانت جميع المعلومات اللازمة لحل تلك المشاكل موجودة بالفعل في العقل الواعي، ولم يكن العقل الباطن سوى وسيلة أكثر قوة، تعمل بشكل غامض على تخليق وتوضيح هذه المعلومات. فإذا كان الأمر كذلك.. فهل يكون هذا هو الناتج العام لكل التجارب الإنسانية في تلقي الوحي والإلهام، أم أن هناك أشكالا أخرى خارج نطاق العمليات الذهنية وحدها؟

إن أتباع الأديان العظمى في العالم يؤمنون بأن الأنبياء والرسل والكثير من القديسين في تلك الأديان، قد تلقوا وحيا من مصدر خارجي هو الله تعالى. وبينما يعتقد البعض أن هذا الإيمان قائم على قياس خاطئ، إلا أنهم لا يرمون الذين يتلقون الوحي بالمخادعة والتدليس عن قصد، بل يعتبرون أن خطأهم هذا قد نتج عن سوء فهمهم لتجربة نفسيه نبعت من داخلهم، فظنوا أنها رسالة من مصدر خارجي. ولو كان الأمر حقا كذلك، فهذا يعني أن الأساس الذي تقوم عليه جميع ما يُسمى بالديانات السماوية هو أساس واه لا يقف على أرض صلبة. وعلى ذلك فإن دعاوي أتباع الأديان تحتاج إلى أدلة قوية لإثبات صحتها وحقيقتها.

ولمــا كان الأمر يحتاج إلى جهد عميق وشرح طويل لإثبات صحة دعــوى كل من هذه الأديان على حدة، فإننا سوف نكتفي فقط بتحقيق دعــوى القرآن المجيد بأن مصدره كان من خارج النفس البشرية، وكان ذلك المصدر هو الله ﷻ، و لم يكن القرآن أبدا من مصدر داخلي ينبع من نفس محمد ﷺ ولا من نتاج عقله الباطن.

إن معظــم الأديــان العظمى تقوم على أساس دعوى الإيمان بوجود خــالق أعظم، هو الذي خلق الإنسان. و لم يكتف الخالق بخلق الإنسان فحســب، بــل ظل يرعاه ويواليه ويهتم بجميع شؤونه. وهو الذي يجود بهدايــته للإنسان حين يشاء سبحانه بواسطة أنبيائه ورسله الذين يختارهم كمــا يشــاء.. ومن بين من يشاء. وهو سبحانه ينبئ عن وجوده وعن مشــيئته للجــنس البشري، حتى يصوغ حياة الناس حسب تعاليمه. فإذا كان هذا حقا وصدقا، فلا بد أن يكون الوحي مصدرا مستقلا للمعرفة، منفصلا ومغايرا تماما عن الهواجس النفسية المجردة، وفي هذه الحالة يشغل العقل مكانا ثانويا بالنسبة للوحي.

ومــن وجهــة النظر البشرية، قد يبدو الوحي كأنه ينبثق من أعماق الــنفس الإنســانية، وبسبب هذا يختلط أمر الوحي الإلهي في مظهره مع التجارب المشابهة للعقل الباطن. ويكاد لا يخلو أحد تقريبا، في مرحلة من مراحل حياته، من التعرض لتجربة روحية. والنفس الإنسانية مزودة بآلية خاصــة تعمــل على خلق تصورات وخيالات ورؤى، تكون في بعض الأحيان من الوضوح بمكان.. حتى إنها تبدو للشخص الذي يُجرِّبها وكأنها حقيقة واقعة.

وتــندرج مــثل هــذه التجارب تحت قائمة طويلة يمكن تلخيصها باختصــار في أحلام أو رسائل صوتية، أو أصوات موسيقية، أو خيالات وانطباعات. فبالنسبة للمختل عقليا، أو أولئك الذين يكون المخ لديهم في حالة شديدة من الاستثارة بسبب المخدرات أو غيرها، نجد أنهم يتعرضون

لحـــالات شـــديدة من الهلوسة الفظيعة لدرجة قد تدفع بهم إلى الجنون. كذلـــك فإن الحمّى الشديدة قد تؤدي أيضا إلى مثل تلك الهلوسات وإلى حـــالات مـــن الإثارة العصبية والنفسية. ومن جانب آخر نجد أن هناك أحـــوالا أخـــرى، لها طبيعة تختلف تمام الاختلاف عما سبق، وينتج عنها أحـــلام ورؤى ذات نسق منتظم، وتأثير ذي سكينة، وإحساس بالراحة والســـلوى، مما يؤدي إلى هدوء العقل وتخليصه من الكثير من المخاوف وأحاســـيس القلـــق الـــتي يعاني منها بعض الناس بغير تحديد سبب لها. وبالإضـــافة.. هـــناك أيضـــا رسائل يتلقاها بعض الناس تأتيهم بأصوات واضـــحة مميزة. وأحيانا يتم تبليغ هذه الرسائل بواسطة ظهور إنساني أو ملائكي. وأحيانا يتم تبليغ هذه الرسائل عن طريق أصوات لأشخاص غير مـــنظورين. وإذا جاز تفسير هذه الظواهر أيضا على أنها من نتاج العقل الإنســـاني، وعلى أنها ليست سوى همسات من داخل النفس، فإن جميع الظواهر الروحانية لن تخرج عن نطاق كونها مجرد ظاهرة نفسية!

أين هو إذن مكان الوحي والرؤى التي هي من عند الله تعالى؟ هذا هو السؤال الذي يجب توجيهه وينبغي إجابته بالطبع. ومن الواضح أن العقل الإنساني مزود بالآلية اللازمة التي تجعله يستقبل أمرا ما يخلق لديه انطباعا معينا. والله تعالى أيضا.. حين يشاء.. يستطيع أن يؤثر كذلك على هذه الحالة النفسية. ولكي يمكن الإجابة على هذا السؤال الهام الذي طرحناه، فإننا بحاجة إلى بحثه بعمق أكثر، وقد تكون الإجابة أكثر سهولة إذا قسمناها إلى أجزاء صغيرة.

الإلهام من الباطن

كما أن العقل الباطن يمكن أن يكون سببا للهلوسة والهذيان، فإن له القـــدرة أيضا على خلق رؤى ورسائل متناسقة وذات معنى. فالعقل حين يـــنْزوي في باطـــنه قد ينشغل بالتفكير في موضوع معين، بغير أن يكون مدركا لهذا التفكير، ومع الوقت.. يتمكن العقل من حل مشكلة ما.. لم

تكـــن معـــروفة من قبل للعقل الواعي. وهو يستمر في العمل على حل المشـــكلة حـــتى يجـــد لها حلا، ثم ينقل هذا الحل إلى مستوى أعلى من الإدراك، وذلك من خلال الأحلام والرؤى وغيرها. والنتائج التي تتحصل عن طريق هذه العملية تكون دائما في نطاق البيانات والمعلومات الموجودة والمـــتاحة التي يتم تزويد العقل بها. وقد لا تتطلب هذه العملية بالضرورة أن يتدخل أي عامل خارجي لإتمامها. إذ يمكن لأي مجرم عتيد في الإجرام أن يبـــتدع خطة بارعة لارتكاب جريمة خطيرة، وذلك عن طريق الإلهام من العقل الباطن. ولكن يجب ألا ننسى أن نتائج هذا الإلهام ترتبط دائما بالمعلومـــات المتاحة والموجودة بالفعل في العقل البشري، ولا يمكن لها أن تخطو خطوة واحدة أبعد من هذا النطاق.

التجارب النفسية (السَيْكية) عدا الهلوسات

إن الهلوســـة الـــناتجة عن الجنون أو عن استعمال المخدرات سببها حـــدوث إثـــارة شديدة للعقل الإنساني، وبالتالي تؤدي هذه الإثارة إلى نشاط وفاعلية العقل الباطن. وفي هذه الأحوال تكون النتائج غير مترابطة وغير منتظمة. وفي كثير من الأحيان يمكن للمراقب أن يلاحظ بسهولة أن الـــرؤى الـــناتجة عـــن الهلوسة ليست سوى أجزاء متناثرة من خيالات الشخص المهلوس. وهي تظهر في شكل مشاهد مخيفة (تعكس مخاوف أو رغـــبات مشوشـــة). كذلك يمكن أيضا للمراقب أن يلاحظ بسهولة من التشويش الكامل ويأس حاد يصاحب عادة هذه الاضطرابات. ولكن فيما عدا هذا يمكن للعقل الباطن أيضا أن ينسج بعض الصور المنتظمة لها معنى ومصحوبة برسالة معينة. وكذلك يمكن للعقل الباطن أن يتبادل المعلومات مع العقل الواعي كما لو كان بشكل مقصود ولتحقيق غرض معين.

وما يبقى بعد ذلك هو تحديد إمكانية وجود عامل خارجي يؤثر على العقل البشري باستخدام آلياته الكامنة داخله. والأبحاث التي أجريت على نطـــاق واســـع، والتجارب التي قام بها علماء البراسيكولوجيا على أسس

علمية.. قد أثبتت كلها أن هذا ممكن. إذ ثبت أنه من الممكن لعقل إنسان أن يؤثـــر على عقل إنسان آخر ويوجهه لكي يفكر حسب ما يمليه العقل المؤثر. وتجري حاليا مثل هذه الأبحاث في كثير من الجامعات، وحسب ما توصلت إليه نتائج هذه الأبحاث اتضح أنه ليس فقط من الممكن لعقل أن يؤثـــر عـــلى عقل آخر، بل إن هذا التأثير يحدث أحيانا بطريقة تلقائية، وأحـــيانا أخـــرى تنـــتقل أفكار شخص ما إلى عقل شخص آخر بغير استخدام أي وسيط مادي.

التنويم المغنطيسي

إن محـــترف التنويم المغنطيسي يستطيع أن يؤثر على عقول الآخرين، ويســـتطيع أن يخلق فيها انطباعات معينة. وكما هو ملاحظ في حالات الشفاء عن طريق التأثير النفسي أو العلاج السيْكي (Psychic healing) يكون الهدف من التنويم المغنطيسي هو استحضار الأسرار الخفية في عقل المريض الذي يقع عليه التأثير إلى السطح، أو تنشيط القوة الكامنة في عقله لكي تعمل على شفائه.

وكـــثيرا ما يحدث لمريض مختل العقل أن يفقد الشجاعة على مواجهة أفكاره الخاصة التي تؤرقه وتقلقه، فيدفنها في أعماقه، ولكن ليس في عمق كـــاف يؤدي إلى نسيانها، إذ تظل تلك الأفكار في حالة عدم استقرار في مـــنطقةً مـــا بين العقل الواعي والعقل الباطن، وبقليل من المساعدة من الخـــارج يتمكن المريض في النهاية من تجميع ما يلزمه من القوة لكي يأتي إلى الســـطح بهذه الأفكار التي تؤرقه، ثم يتخلص منها. ويمكن تشبيه هذه الظاهـــرة بجسم صغير مغروس تحت الجلد، مما يسبب ضيقًا وبعض الآلام غـــير المبرحة. ويظل هذا الإحساس بالضيق مستمرا إلى أن تتم إزالة ذلك الجســـم. والوظـــيفة التي يقوم بها مبضع الجراح هي نفسها التي تقوم بها توجيهات المنوم المغنطيسي في حالة المريض المصاب باختلال نفسي.

التخاطر (Telepathy) **أو الاستشعار عن بعد**

إن التخاطر شكل آخر من أشكال الاتصال غير العادي الذي يتم بين عقلين وبدون استخدام أية توجيهات مباشرة. فبدون الاستعانة بأي وسيط مادي يمكن لأفكار شخص أن تنتقل إلى شخص آخر، بغير أي اتصال مباشر بينهما، سواء كان اتصالا صوتيا أو مرئيا، وكأنما شوكتان رنانتان تشتركان في نفس التردد.. إذا رنت إحداهما بدأت الأخرى ترنّ أيضا.

وإذا كان التنويم المغنطيسي والتخاطر حقيقة واقعة ولها تأثير بالفعل، وهناك الكثير من الدلائل على أنهما بالفعل حقيقة مؤثرة، فلماذا لا يستطيع الله تعالى أن يستخدم نفس الآلية والخاصية الموجودة في الإنسان لكي ينقل تعاليمه وأوامره إلى الناس؟ لم لا تكون لديه سبحانه القدرة على استخدام الإمكانات التي خلقها هو في الإنسان لينقل إليه مشيئته وإرادته؟

حالات أخرى للعقل الباطن

إن الأحلام في الحقيقة هي ظاهرة عامة يشترك فيها جميع الناس، من مختلف الأقطار وفي مختلف الأزمنة، ومع ذلك فإن الأحلام لا تقع كلها تحت نوعية واحدة. والأحلام.. في معظم الأحوال.. تكون من نتاج النفس الإنسانية. فالعقل الباطن في أسلوب تعامله مع الانسياب اليومي للمعلومات، يعكس الاهتمامات والمشاكل التي يجابهها شخص معين. وقد تقدمت اليوم الدراسات التي تُجرى على الأحلام تقدما كبيرا عما كانت عليه في عصر نظريات فرويد. ويقوم الباحثون اليوم بالكثير من البحوث مستعينين بالأجهزة الإلكترونية المتقدمة.

ومع كل هذا.. فمن وجهة نظر الدين.. هناك نوعان من الأحلام يحملان ثقلا خاصا وأهمية معينة، الأحلام التي تنتج عن عوامل نفسية، والأحلام التي هي من مصدر إلهي، والتي قد تحمل في طياتها نذيرا لنكبات

مستقبلية، أو قد تكون مخبرة ببشائر مفرحة. كما أنها قد تكشف عن علوم ومعارف لم يكن يعرف الرائي شيئا عنها قبل أن يرى ذلك الحلم المعين. ومثل هذه الأحلام تبين إمكانية وجود كائن عاقل متعال، لا يُرى بالعين، ولكنه يستطيع أن يتصل بالبشر حين يشاء، وأن يُبلغهم أيضا ما يشاء.

إن هـــناك دلائل كثيرة من الوقائع الدينية يمكن ذكرها للتدليل على صـــحة هذا الرأي. ولكن أولئك الذين لا يؤمنون بالأديان لن يقبلوا هذه الدلائل على أنها حقائق. ويعود هذا بالطبع إلى أنهم لو قبلوا وجود كائن عـــاقل تفوق قدرته قدرة البشر ويستطيع أن يؤثر في عقل الإنسان، فإن هـــذا يعـــني قبولهم وإيمانهم بوجود الله، وهذه الحقيقة تصيب الكثير من المفكرين العلمانيين بالحساسية الشديدة المفرطة.

والمشـــكلة الثانـــية هي أن هذه الظاهرة.. أي ظاهرة الوحي.. يأتي ذكـــرها في معظم الأديان بأسلوب يجعل منها أمرا خارقا للعادة، وكأنها شـــيء شاذ من نسج الخيال، حتى إنه من الصعب على العلماء التجريبيين أن يقـــبلوها كحقيقة واقعة. والتصورات الخاطئة، والأوصاف الدرامية، والأقاصـــيص الروائية عن التجارب الروحانية السابقة للقديسين والأنبياء التي يُرَوّجها أتباعهم، لا تساعد أبدا على تحقيق أغراضهم ولا على إحقاق الحـــق. فهي لا تنجح سوى في أنها تجعل حقيقة الاتصال الإلهي بالإنسان تبدو باهتة يصعب رؤيتها، وتغلفها بضباب قاتم مما يجعل أمر كشفها شاقا وصـــعبا، حتى إنه قد صار من العسير وجود خط واضح يفصل بين نسج الخيال الإنساني وبين الحقيقة النبيلة لهذه التجارب الروحانية.

والقـــرآن المجيد.. من بين الكتب المقدسة.. يتحدث عن هذه الأمور الروحانية بشكل طبيعي، وبأسلوب تلقائي وعقلاني، وذلك لكونه خاليا مـــن الإضافات البشرية. وهو يرفض ما يطلبه المعارضون من غير المؤمنين حـــين يصـــرون عـــلى تحقيق أمور وراء الطبيعة البشرية. وعند دراسة المعجـــزات والآيات في ضوء ما قاله القرآن المجيد، نجد أنها لا تتناقض أبدا

مع القوانين الطبيعية التي لا تتغير ولا تتبدل.

فمـــثلا معجزة موسى عليه السلام المعروفة جيدا، والتي يعتقد أهل الكتاب أنهـــا تتميز بكونها خارقة للقوانين الطبيعية، نرى أن القرآن الكريم يقدمها بأسلوب بسيط، عقلاني، ومنطقي. ومع ذلك فإن الموضوع يحتاج لأكثر مـــن نظرة عابرة حتى يمكن لنا أن نسبر أغواره ونحيط بجوانبه. وليس في الأمـــر ألغاز ولا أسرار خفية، ومع ذلك.. فإن من يقرأ القرآن وهو تحت تأثير أفكار مسبقة، غُرست في ذهنه من قبل عن معجزات منافية للطبيعة، قد يخطئ في فهم المعاني الحقيقية التي تبينها كلمات التنـــزيل، فلا يميز بين مـــا هـــو خارق للعادة وما هو خارق للقوانين الطبيعية. وفيما يلي مثال يوضـــح كـــيف قدم القرآن الكريم هذه المعجزة التي نحن بصددها. يقول تعالى في الكتاب العزيز:

﴿قَـــالَ أَلْقُـــــوا فَلَمَّـــا أَلْقَـــوْا سَـــحَرُوا أَعْـــيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۞ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٧ الأعراف:١١٧-١١٩)

أي أن موسى عليه السلام قال لسحرة فرعون: ألقوا حبالكم وعصيكم. فلما ألقوا هذه الأشياء أثروا على أعين الناس بوسائل خفية (فالسحر هو العمل أو التأثير الخفي)، وألقوا في قلوبهم خوفا ورهبة، وكان لعملهم الخفي هذا تأثير عظيم. فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن ألق عصاك. فإذا هي قد ابتلعت كل الإفك الذي قام به السحرة، وهكذا تبين الحق وبطل العمل الذي قاموا به.

ومن الواضح أن القرآن الكريم يتحدث هنا عن سحرة فرعون الذين أثّروا بتأثير خفي.. ليس على الحبال والعصي، وإنما على عيون الحاضرين. وهذا وصف واضح كل الوضوح لعملية التأثير المغنطيسي، فلم يحدث هنا

بـــتاتا أي خـــرق أو تعطيل للقوانين الطبيعية. ولإبطال تأثير هذا الوهم المغنطيسي الذي تخيله الناس تدخل الله تعالى بقدرته العليا وإرادته العظمى عـــن طـــريق موسى ﷺ، فأبطل التأثير المغنطيسي للسحرة على أعين الـــناس. وعـــلى هذا فإن القرآن المجيد لا يدّعي أبدا أن عصا موسى قد ابتلعـــت بالفعل الحبال والعصي التي ألقاها السحرة أمام الناس، وإنما يقرر الكـــتاب العزيـــز أن عصـــا موسى قد ابتلعت العمل الخفي الذي قام به السحرة حيث تحوّلت الحبال والعصي إلى حيات تسعى.

ويعالج القرآن المجيد نفس هذه الواقعة في سورة أخرى بشكل يلقي المزيد من الضوء على حقيقة ما حدث. يقول تعالى:

﴿قَـــالَ بَـــلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ۞ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ۞ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾ (٢٠ طه:٦٧-٦٩)

في هذه الآية الكريمة يخبرنا القرآن المجيد أن موسى ﷺ نفسه قد تأثر بسطوة القوى النفسية المؤثرة للسحرة، مما يبين أن موسى ﷺ لم يكن يستطيع أن يبطل التأثير المغنطيسي للسحرة بقوة تأثير نفسه حينما ألقى بعصاه. ومن الناحية السيكلوجية.. نجد أنه من المستحيل على العقل أن يبطل تأثير قوة عقل المنوم المغنطيسي بعد أن ينجح الأخير في فرض تأثيره المغنطيسي، وبالتالي فلم يكن في استطاعة موسى ﷺ أن يزيل فعل التأثير المغنطيسي للسحرة بإرادته الذاتية.

إن هـــذا الجانـــب من الواقعة هو الذي جعلها تتحول بأكملها إلى معجزة خارقة، وإلا لكان في استطاعة أي شخص أن يُبطل تأثير السحرة إذا كان أشدَّ منهم قوةً. ولا يستطيع أحد أن يحكم على هذا الأمر بصورة أفضـــل من السحرة أنفسهم، فقد أدركوا بخبرتهم أنها لا بد أن يد العَلي القدير هي التي كانت تعمل في جانب موسى ﷺ. فقد رأوا موسى وقد

وقـــع فريســـة لتأثيراتهم تماما كما حدث لبقية الحاضرين من المشاهدين. فكـــيف اســـتطاع عقله أن يحرر نفسه ويحرر عقول جميع الحاضرين من تـــأثيراتهم المغنطيسية؟ وبالمناسبة.. إن هذه الآية تكشف الستار أيضا عما يسمى بأسرار السحر وغموضه، إذ أن ما نجح السحرة في تحقيقه ليس هو تحويـــل الحبال والعصي إلى حيات حقيقية، ولكن فقط في خلق وهم في عقول الحاضرين بتأثير قوتهم السيكية.

وليس الوحي سوى اسم آخر للتأثير على النفس البشرية حينما يكون المؤثر هو الله تعالى نفسه. ومن هنا نستطيع أن نستدل ونستنتج منطقيا أنه لا بـــد أن يكون الله تعالى بجليل قدرته قد خلق في العقل البشري جهازا دقـــيقا فعالا بغرض الاتصال به، وعلى هذا فإن الوحي الإلهي ليس بأمر غريب ولا شاذ أو مناقض للطبيعة.

إن كـــل عقل بشري يستطيع الاتصال بغيره من البشر عن طريق قوة الاستشعار عن بعد هذه. غير أنه من الضروري أن نلفت أنظار القارئ هنا إلى أن جهـــاز الاستقبال الدقيق الفعال الذي خلقه الله تعالى في كل عقل بشـــري، لتحقيق الاتصال به يعمل بكفاءة ومقدرة بشكل يتناسب طرديًا مـــع حســـن نوعية ومدى صدق سجايا الشخص صاحب الجهاز. فإن خيالات الشخص الأفاك تكون مجرد خيالات طائشة عقيمة، أو تصورات زائفـــة ســـقيمة، لأمور تنافي الواقع وتجافي الحقيقة. ويمكن أن تريه أهواؤه النفســـية رؤى زائفـــة من صنع نفسه فحسب. وأما الشخص الذي تعَوّد الاســـتقامة، وازدان بالشرف، وتطبّع بالحق، فمن غير المتوقع منه أن يدع خيالاته تجمح به لتخلق لـــه صورا زائفة، أو أضغاث رؤى، أو أصواتا لا معنى لها. لذلك فإن النبي الذي يختاره الله تبارك وتعالى لتبليغ رسالته للناس لا بـــد أن يكـــون مثالا للاستقامة التامة، ورمزا للصدق المطلق، وتجسيما للحق والأمانة. إن نزاهته وطهارته هي التي تشهد بصدق وطهارة الرسالة التي يحملها. ولهذا فإن الصدق المطلق الذي يتحلى به مَن يتلقى رسالة من

الله تعالى، يلعب دورا هاما وحاسما في ضمان حماية الوحي الذي يتلقاه من كـــل زيغ أو تحريف. ولا عجب أن يوصف الأنبياء جميعا في كل الكتب المقدســـة بـــأنهم كانوا مثالا للحق ورمزا للصدق، ومن هنا كان الصدق أعظم دليل على حقيقة دعواهم وصدق الرسالة التي يبلغونها.

وقـــد يحدث أحيانا.. في الحالات الوجدانية التي يمر بها المرء.. أن لا يصحب هذه الحالة سماع صوت أو مشاهدة رؤيا، غير أنها تكون في واقع الأمر صورة من صور الوحي السماوي. وقد وصف الكثير من القديسين والأولياء هذه الأحوال الوجدانية التي يفقد فيها المرء إحساسه بالعالم الذي يحيط به، ويشعر كأنه يغوص داخل وجدانه الواعي، ثم يعود في النهاية إلى ســـطح العالم المادي وقد حمل معه رسالة قدسية، تماما كما يفعل الباحث عـــن اللؤلـــؤ حين يغوص في قاع البحر العميق ثم يطفو مرة أخرى إلى الســـطح وقد أمسك في يديه مجموعة من حبات اللؤلؤ المتألقة. وقد يبدو أن المـــرء في مثل هذه الأحوال يخوض تجربة داخل النفس والوجدان، لا يصاحبها صوت أو رؤيا، إلا أنها في الواقع تكون حالة حسية قوية تنفعل فيها النفس انفعالا شديدا مذهلا، وسرعان ما تكتسي بثوب من الكلمات الجلـــيلة. ويكـــون لهذه التجربة وقع شديد على المرء، تماما كأنه قد سمع بـــالفعل أحـــدا يـــتحدث إليه مباشرة وبوضوح تام، أثناء يقظته الكاملة الواعـــية. غير أن هذا الوحي الذي يكون من خارج النفس لا يتحدد ولا يصـــح تعـــريفه بمجـــرد الـــتأثير الذي يطبعه على إحساس المتلقي، ولا بالأســـلوب الـــذي يصف به المتلقي حالته خلال التجربة. فبالإضافة إلى ثـــبوت ووضوح صدق الشخص المتلقي، لا بد أن يكون المعيار الصحيح لمعرفة حقيقة الوحي الإلهي هو طبيعة المحتوى الذي تحمله الرسالة المتلقاة. إذ لا يكفـــي أن يكـــون المتلقي صادقا فقط، بل يجب أن يكون محتوى الوحي نفسه يحمل شهادة من مضمونه على صدقه وحقيقته.

إن التـــباين المذكـــور فـــيما سبق بين تجارب كوامن النفس الذاتية،

والوحي الإلهي الحقيقي الذي يتنَزل من السماء، قد لا يكون مفهوما بوضوح كاف لشخص لم يجرب هذه الأمور، وأما من تمرس واعتاد التعرض لهذه الأحوال.. فإنه يستطيع أن يتعرّف على رسالة الوحي الإلهي، لأن طبيعة الرسالة لا ترتبط بمعارفه الذاتية بأية صلة، ولا تخضع لتأثيرات كوامن نفسه وتجاربه النفسية.

أما الآخرون.. فإنهم يستطيعون التعرف على حقيقة وأصالة الوحي الإلهي بأسلوب آخر يمكنهم من تصديقه والوثوق بحقيقته، وذلك باستخدام البرهان الخارجي الذي يحمله الوحي نفسه. وقد يكون هذا البرهان الخارجي مُتاحا لمعاصري صاحب تجربة الوحي.. وقد لا يكون، لأنه من المقدر أن يتبين هذا البرهان ويتضح بعد مرور زمن، حين تتحقق الأمور التي تنبأ بها الوحي، أو بعد أن يتبين صدق الحقائق التي ذكرها، إذ لا يمكن أن تخطر هذه الحقائق على بال أحد، ومن المستحيل أن يتصورها أحد لأنها تخص مرحلة مستقبلة من المعارف أو الاكتشافات. ويكون القصد من هذا الوحي هو إقناع الأجيال القادمة في العصور المستقبلة الذين تكشف علومُهم المتقدمة صدقَ هذا الوحي الإلهي. وعلى ذلك، فليس من الصعب على الآخرين أيضا التمييز بين التجارب الوجدانية النابعة من كوامن النفس من ناحية ، وبين الوحي الذي يتنَزل من عند الله تعالى من ناحية أخرى.

والآن.. نذكر نبوءة من نبوءات الوحي الإلهي، ورغم أنها كانت مُوَجهة للجيل المعاصر لنُزول الوحي، إلا أنها كانت تحتوي أيضا على عنصر مفاجأة للناس في الأجيال المقبلة كذلك.

إن الواقعة التي نتحدث عنها تتعلق بالحلم المشهور الذي رآه ملك مصر، وقد فسره النبي يوسف عليه السلام فيما بعد. وحسب ما جاء في القرآن المجيد.. فإن هذا الحلم قد رُوِي ليوسف عليه السلام أثناء قضائه عقوبة في السجن لتهمة كانت قد وُجهت له. لقد كان ذلك الحلم فريدا بشكل

أعيا وحير جميع حكماء البلاط وعرّافي الملك، ولكنه لم يُشكل أية صعوبة ليوسف عليه السلام، الذي فطن بدقة إلى حقيقة معنى الرسالة التي يحملها. وقد كان ذلك التفسير الحكيم، والتأويل الحاذق السليم ليوسف عليه السلام هو الذي شهدت الحوادث على صحته، وأيدت حقيقته وقائع السنين التي تلت ذلك الحدث العجيب.

وقد رأى الملك سبع سنبلات خضراء من الذرة وسبع سنبلات جافة تكاد تخلو من الحبوب. ورأى أيضا سبع بقرات نحيلة نحيفة وهن يأكلن سبع بقرات سمان قوية. ولما رَوَى الملك هذا الحلم لحكماء قصره طالبا تفسيرا له.. استبعدوا أن يكون له معنى، واعتبروه مجرد أضغاث أحلام مما ينتج عن كوامن النفس.

وقد حدث أن أحد خدام الملك كان موجودا في ذلك الوقت، وكان هذا الخادم قد قضى فترة عقوبة في نفس السجن مع يوسف عليه السلام. وكان هو الآخر قد رأى حلما غريبا وفسره له يوسف تفسيرا صحيحا أنه سوف يُفرج عنه قريبا، ثم لم يلبث أن رأى بنفسه صحة تفسيره، إذ سرعان ما تم الإفراج عنه فاستعاد حريته، بل وعاد مرة أخرى ليكون في خدمة مولاه الملك. واقترح الخادم أن يُسمح له بالذهاب إلى السجن لمقابلة يوسف عليه السلام عسى أن يتمكن يوسف من تفسير حلم الملك. ولما حصل على الإذن بالذهاب إلى السجن، زار يوسف عليه السلام وقص عليه رؤيا الملك. واستطاع يوسف على الفور أن يفهم مغزى الحلم، وشرح معناه بطريقة منطقية.. لم تدع حوله أي إبهام أو غموض على الإطلاق.

وحين عاد الخادم إلى القصر روَى تفسيرَ يوسف عليه السلام لرؤيا الملك، وكان كما يلي:

في السنوات السبع التي تلي رؤيا الملك سوف يسكب الله سبحانه وتعالى بركاته على مصر بصورة مطر غزير ينتج عنه محصول وافر من الحبوب والفواكه. وبعد هذه السنوات السبع من المحاصيل الغنية المباركة، سوف تتوالى سبع

سنوات أخرى تأتي بجفاف شديد، مما يترتب عليه حدوث مجاعة شديدة، ما لم يتم الاقتصاد في استهلاك محاصيل السنوات السبع الخصبة والاحتفاظ بها، وذلك لتعويض النقص الناتج عن سنوات الجفاف.

وقد أثر هذا التفسير على الملك تأثيرا شديدا، حتى إنه أصدر أوامره بالإفراج فورا عن يوسف ﷺ، ولكنه اختار أن يظل في السجن إلى أن يُنظر في حقيقة أمر التهم الزائفة التي وُجهت إليه وتتم براءته. وبعد أن ثبتت براءته، واعترفت المذنبة الحقيقية بجرمها، وافق يوسف على أن يُخلى سبيله ويُطلق سراحه. وقد استقبله الملك بحفاوة كبيرة، وأضفى عليه شرفا عظيما، وعيّنه في حكومته وزيرا للأمور الاقتصادية والمالية.

ولدهشة الجميع.. بدأت الحوادث تتوالى تماما كما جاء في رؤيا الملك، حسب التفسير الذي قال به يوسف ﷺ، مما لم يحفظ شعب مصر من كارثة المجاعة و لم ينفعه وحده فحسب، بل نفع القبائل والشعوب القاطنة في البلاد المجاورة كذلك. وأيضا كانت هذه الأحداث نفسها سببا في التئام شمل يوسف ﷺ مع أسرته.

إن حلمًا كهذا.. بما تبعه من تحقق لما جاء فيه من وقائع.. لا يمكن أن يُسقط من الحسبان، ولا أن يُستبعد من الاعتبار على أنه مجرد نتاج وجبة دسمة التهمها أكول بنهم شديد قبل النوم. ولكنها رؤيا حقة، تطلبت أن يكون هناك "يوسف" لكي يسرد حقائقها ويشرح وقائعها. ويكفي هذا المثال لكي يبين كيف يؤثر الله تعالى على الجهاز المكنون في النفس لتحقيق غرض معين، وبذلك يبلغ سبحانه وتعالى رسالة ذات معنى هام، ويتحوّل قسم من عالم الغيب إلى العالم المشهود. غير أنه يجب أن نذكر هنا أن آليات مكنون النفس التي نحن بصددها لا تُوَظف فقط بواسطة الله تعالى وحده، أو بواسطة العقل الباطن بمفرده. إذ أن هناك عاملا ثالثا قد ذكره أيضا القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿هَل أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ

أَثِيمٍ ۞ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ (٢٦ الشعراء:٢٢٢-٢٢٤)

وحسب هذه الآيات الكريمة يتبين أن الأفاكين من بين الناس، والكذابين الذين اعتادوا الكذب، قد يؤثرون على مكنونات نفوسهم بحسب ميولهم الشيطانية، ومن هنا فإن أكاذيبهم التي يمكن أن تتنكر في شكل إلهامات تضلهم وتضل أيضا أولئك الذين يتبعونهم. هذه هي الحالة الثالثة التي تنشط فيها أجهزة مكنونات النفس. ويكون العامل الحاسم دائما في كل حالة هو ما عُرف من صدق صاحب التجربة وما اشتهر عنه من التزام بالحق، أو ما عُرف عنه من الكذب وما اشتهر عنه من الزور، فإن الكاذبين يجترُّون دائما الإلهامات الكاذبة. وبهذا يتبين في النهاية أن وحي الكاذبين يمكن أن يُعرف دائما باحتوائه على عناصر شيطانية، ومبادئ إبليسية، ووعود كاذبة.

****

الفصل الثاني

الوحي الإلهي والعقلانية

ذكـــرنا باختصـــار في أحـــد الفصول مدى تقدم الفكر الإسلامي، والاتجاهـــات الثقافـــية التي أنارت آفاقا كثيرة من الاهتمامات الإنسانية. ورغم أن البحوث الإسلامية خلال تلك المرحلة كانت تخضع بشكل عام لتأثير تعاليم القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ، إلا أن تلك البحوث لم تكـــن كـــلها دينـــية. لقد كان هناك ازدهار ونمو سريع للعلوم في جميع المجالات، وتم اكتساب فلسفات جديدة، وتُرجمت علوم ومعارف علمية وعلمانـــية وأكاديمـــية من الأزمنة السابقة. وأيضا كان لبعض المفكرين المســـلمين البارزين سبق الريادة في اكتشاف الكثير من الفروع الجديدة لـــلمعارف الدينية والعلمانية. وهكذا كان الدين يمشي قدما في توافق مع العقلانـــية، وإلى حد كبير كان كل منهما يستمد قوته الدافعة لاكتساب المعـــرفة ممـــا جاء في القرآن الكريم وتعاليم النبي ﷺ. وقد تميز بذلك دور العقلانية تميزا عظيما، حتى صار مصطلح العقلانية مرادفا لمصطلح المعتقد الديـــني. وكان إعلان القرآن المجيد أن محمدا ﷺ رسول للعالم أجمع، وأن رســـالته رســـالة عالمية، يعني أن الدين الإسلامي دين قام وتأسس على العقلانـــية، فمـــن المستحيل أن يكون الدين مناقضا للعقلانية ومع ذلك يكون مقبولا لدى الضمير الإنساني في العالم كله. يقول تعالى:

﴿وَمَـــا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٤ سبأ:٢٩)

ويبرهن القرآن أيضا على عالمية تعاليمه بمعالجة جميع أحوال الإنسان ومشكلاته، أخلاقية كانت أم اجتماعية أم دينية، دون أي اعتبار للجنس

أو اللـــون أو الموطن أو المعتقد. لذا كان من الضروري أن تكون التعاليم الإســـلامية قابلـــة للتطبيق في جميع أنحاء العالم، وفي توافق تام مع الطبيعة العامة للإنسان.

غـــير أن هـــذا لـــيس هو السبب الوحيد الذي من أجله نخرج بهذه النتيجة. فإن القرآن الحكيم يقرر بوضوح أهمية دور العقلانية في الوصول إلى الحق.. مع عدم الفصل بين الحقائق الدينية والدنيوية. إن الحق هو دين الإسلام، والإسلام هو دين الحق. والحق ليس في حاجة إلى الإكراه لنشر رســـالته، فالوسيلة الوحيدة لنشر الحق هي العقل والعقلانية. لذلك فإن الإسلام يدعو العقل الإنساني لأن يستقصي حقيقة تعاليم القرآن في ضوء الطبيعة الإنسانية، والتاريخ الإنساني، وفي ضوء العقلانية بالطبع. ويستثير الإســـلام الملكـــات الإنسانية من تفكير واستنباط، ليس فقط لاستقصاء الحقـــائق الدينية، وإنما للوصول أيضا إلى المعارف الدنيوية. وهذا التأكيد الشديد للقرآن على أهمية التقصي والبحث ونشد المعرفة.. كان هو الدافع وراء اهتمام العالم المشهور البروفيسور الدكتور عبد السلام*، الذي حصل عـــلى جائزة نوبل في علوم الطبيعة، فأراد أن يتقصى أثر تعاليم الإسلام عـــلى تقدم العلوم في المرحلة الأولى من تاريخ المسلمين. وفي أحد بحوثه عن هذا الموضوع كتب يقول:

" ليس هناك ما يؤكد أهمية دراسة العلوم الطبيعية والكونية أكثر من قول الدكـــتور محمد إعجاز الخطيب من جامعة دمشق إذ يقول: "في مقابل ٢٥٠ آية تشريعية من آيات القرآن الحكيم نجد أن هناك ٧٥٠ آية.. أي مـــا يقـــرب من ثُمن آيات الكتاب الحميد.. تحث المؤمنين على دراسة الطبـــيعة، وعلى التفكر في ملكوت الخالق، واستخدام العقل استخداما صحيحا لجعل البحث العلمي جزءا لا ينفصم عن حياة المجتمع". كذلك فقد عُرف عن الرسول ﷺ أنه قال: "طلب العلم فريضة على كل مسلم

* للأسف.. انتقل البروفسور عبد السلام إلى رحمة الله قبل أن يتم طبع هذا الكتاب. منه

ومسلمة."[1]

غـــير أن القـــرآن المجيد يحذر من أن البحث وحده لا يكفي، بل إن صدق ضمير الباحث يعتبر شرطا من الشروط الواجب توافرها في الباحث أولا.. حتى يمكن لـــه استنباط الحقائق الصحيحة من نتائج بحثه. لقد ذُكر هـــذا المبدأ ذو الأهمية الأساسية في بداية سورة البقرة. ويجب أن نُنَوّه هنا بأنه رغم أن ترتيب سورة البقرة في المصحف هو السورة الثانية بعد سورة الفاتحـــة، إلا أن سورة الفاتحة تحتوي على ملخص عام للقرآن بأكمله مما يجعـــل مـــنها مقدمة للقرآن، ولذا يمكن اعتبار سورة البقرة هي السورة الأولى الـــتي يبدأ بها السياق القرآني المفصَّل. وتبدأ سورة البقرة بالآيات التالية:

﴿بِسْـــمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ الـــم ۞ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٢ البقرة:١-٣)

إن هـــذا الإعـــلان العظيم.. رغم بساطته كما يبدو.. يتطلب عناية خاصـــة لإدراك مغزى الرسالة التي يحتويها. فمن المعلوم أن التعاليم الإلهية إنمـــا تكون لهداية غير المتقين إلى الطريق المستقيم. فماذا يعني إذن الإعلان هـــنا بأن هذا الكتاب يهدي فقط أولئك الذين هم متقون بالفعل؟ إن ما يعنـــيه القرآن ببساطة هو أن من يبحث عن الحقيقة يجب عليه أن يكون صادقا مع نفسه، وإلا فلن تكون هناك أية جدوى من بحثه، فإن اكتشاف الحقيقة.. حسب هذا التصريح.. يتوقف في أساسه على مقدار صدق نية الباحـــث. فمـــا أعظمها من حكمة تلك التي تتجلى في هاتين الكلمتين الوجيزتين:

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٢ البقرة:٣)

وغالـــبا ما ينطبق نفس المبدأ على البحث في المجال الدنيوي كذلك.

فكـــل بحـــث يتم بعقل غير متحرر من ربقة أفكار أو عقائد مسبقة، فإنه غالـــبا مـــا يفقد كل مصداقيته. ولا بد من الأخذ في الاعتبار أن وجود العقـــل الصحيح الأمين هو أمر من المحتم توافره في كل بحث ذي شأن أو يُرجى أن تكون له قيمة ذات فائدة. فإن العقل الحبيس في دائرة الأحكام والقـــرارات المســـبقة لا يستطيع أن يصل إلى نتائج متحررة من التعصب والانحـــياز، ومـــن كان في عينه حَوَل لا يمكن أن يكون نظره مستقيما. وعـــلى هذا فإن الهداية وحدها لا تكفي لبلوغ الحق، وإنما يتطلب الأمر وجـــود العقـــل الســـليم، الصحيح، الأمين، الخالي من التعصب لأفكار مســـبقة، حـــتى يمكن الاستفادة من الحقيقة. وهنا يكمن الحل لإحدى مشاكل البحث.. بينما تظهر لدينا مشكلة أخرى.

فعـــلى عكس ما يتوقعه المرء في الخلافات الدينية.. نجد أن القليل من الأمانـــة الموضـــوعية هـــو ما يبدو لدى أغلب الأحزاب والفرق الدينية المتناحرة اليوم. ورغم أن المرء يتوقع عادة أن يكون المتدينون أكثر تمسكا بـــالحق مـــن الدنيويين والعلمانيين، إلا أننا في الواقع نجد أن العكس هو الصـــحيح في المـــراحل المتأخرة من كل دين. أما في المراحل الأولى من الأديـــان.. فـــإن المتدينين هم الذين يكونون بعيدين بغير منازع عن كل تعصـــب، كما يكونون شديدي التمسك برباط الحق في تميز تام عن بقية أفـــراد المجـــتمع.. ســـواء كان مجتمعا علمانيا دنيويا أو مجتمعا يزعم أنه يتمسك بالدين والتقاليد. وفي الزمن الذي يكون فيه مؤسسو الأديان على قيد الحياة.. نجد أن منحنى العقلانية والفكر والالتزام بالحق قد وصل إلى أعلى قمته.

وحـــين نعود إلى الآيات القرآنية نجد فيها ذكر الله تعالى باعتبار أنه ســـبحانه هـــو العلـــيم بكل شيء علما يصل إلى حد الكمال والإحكام المطلق. وعلى هذا فإن العلم الذي يأتي من لدنه لا بد أن يكون صحيحا وجديـــرا بالـــثقة أيضـــا. ومع ذلك.. فإن من تصله هذه المعارف قد لا

يستفيد بها إذا كان يفتقد فضيلة صدق الضمير.

وإذا افترضنا استبدال فكرة الله بالعقلانية، لمجرد إرضاء غير المؤمنين، فإنه يمكن قراءة العبارة كما يلي:

إن ما هو عقلاني بشكل مطلق لا يمكن أن يقود أحدا إلى الحق سوى أولئك الذين يتصفون بالإخلاص وصدق الطوية، فهذا هو المطلب اللازم للوصـــول إلى المعرفة الموثوق بها، سواء كانت دينية أو دنيوية. فلا بد من صدق مصدر المعرفة، وصدق متلقيها على السواء.

إلى هنا وكل شيء على ما يرام، ولكن ليس هذا هو نهاية الطريق.. بـــل إن صعوبة الطريق تبدأ من هنا. فمن ذا الذي يستطيع أن يحكم على نوعية ضمير إنسان أو صدق طوية شخص آخر؟ إن من حق كل إنسان أن يدّعـــي بأنه ذو ضمير صادق وطوية سليمة، ثم يبني على ذلك أن كل مـــا يؤمن بصحته لا بد أن يكون صحيحا. فكيف يحل القرآن المجيد هذه المشـــكلة؟ هـــذا هو السؤال الذي تلزم إجابته. ومجرد التفَوّه بعبارة "الله أعـــلم" لا يمكن أن يحل المشكلة على المستوى الإنساني. وليس هذا أيضا هو الحل الذي يقدمه القرآن. إذ يرى القرآن أن مقياس الحكم على صدق طوية أي إنسان هو ما يُرى من ظاهر سلوكياته المشهودة في كل يوم من أيام حياته. فإذا كان المرء معتادا على الصدق في أقواله وتعاملاته اليومية، فإنه يمكن الحكم بالصدق أيضا على ضميره غير المشهود وطويته المستترة. وبنفس هذا المعيار يمكن الحكم أيضا على صدق الأنبياء. ورغم أنه ليس مـــن المستحيل لمن اعتاد الكذب أن يصدق أحيانا، في كلامه البيِّن أو في نيـــته الكامـــنة، فإنـــه من المستحيل لمثل هذا الشخص أن يكون ثابت الاستقامة على الدوام. وعلى هذا.. يكون من المنطقي للأنبياء أن يحاجّوا أقوامهـــم بـــأنهم لا يســـتطيعون أبدا أن يلقوا عليهم بأية لائمة تشوب مســـلكهم قبل الإعلان عن دعواهم، حتى ولو كانت مجرد كُذيبة عفوية. وبالـــتالي فلـــيس من حق هؤلاء أن يتهموا الأنبياء بالافتراء على الله أو

الادعاء الكاذب بأنهم يتلقون وحيا منه.

إن هذه الطريقة لقياس حقيقة الباطن قد تنجح بكل ثقة في حالة الأنبياء الذين يُشهد لهم دائما بالمسلك المثالي في كل مناحي حياتهم. ولكنها لا تصلح للتطبيق بنفس اليقين على الأشخاص الآخرين من دون الأنبياء. فإن أحوال الناس تختلف من فرد إلى آخر، وتختلف أيضا وجهات النظر، ولا يشترك الجميع في القدرة على الفهم، ولا في المقدرة على استنباط النتائج واستخلاص الحقائق، ولا يمتلك كل شخص ملكات التأمل ولا القدرة النادرة على الغوص وراء المعاني الظاهرة للألفاظ أو كشف الزيف وراء الصور المزينة. كذلك فإن التعامل بين الشاهد والمشاهد يمكن أن يؤدي إلى احتمالات لا حصر لها. إذ يتمكن بعض الناس من إخفاء بواطن أنفسهم إلى درجة عالية، بينما هناك من هم أقل قدرة على الخداع.. فأي معيار يمكن الاعتماد عليه حتى يستطيع أي إنسان أن يحكم على حقيقة شخص أو زيف طوية شخص آخر؟ وتزداد المشكلة عمقا حينما نأتي إلى أمور العقيدة والإيمان. فحتى لو كان هناك من يؤمن بأكثر العقائد أو المذاهب جنونا.. وليس هناك من نقص لهؤلاء في عالم الدين اليوم.. فلا يمكن إلقاء اللوم عليهم أو اتهامهم بالكذب المتعمد. نعم.. قد يكونون شديدي السذاجة، وقد يكونون شديدي الغباء.. لا يدركون مدى حماقتهم التي قد تبدو واضحة للآخرين، ومع ذلك.. فإن لهم كل الحق في اعتقاد ما يشاءون والإعلان أنهم على حق وصواب. ولهم كل الحق كذلك لأن يعترضوا على معتقدات غيرهم وأن يقولوا إنها تجافي الحق، مهما كانت تلك المعتقدات تبدو صحيحة ومنطقية في نظر أصحابها.

والحل الصائب الوحيد لهذه المعضلة هو ما يقدمه القرآن الحكيم. فقد أعطى الحق لكل إنسان أيًّا كان أن يؤمن بما يشاء أن يؤمن به، وأن يقول أيضا بأن ما يؤمن به هو الحق. غير أنه لا يسمح بتاتا لأي إنسان أن

يفرض معتقداته الشخصية على الآخرين، كما أنه لا يعطي لأحد الحق في أن يعاقب الآخرين على معتقداتهم الخاطئة (التي يظنها هو كذلك). إن الإنسان مسؤول فقط أمام الله تعالى، وهو وحده سبحانه الذي يعلم ما يخفى من دقائق الأمور في عقل وقلب كل إنسان. كذلك فإن الإنسان لا يحاسب على عدم قدرته على معرفة الحق، وإنما يحاسب حين يكذب على نفسه فيرفض الحق وهو يعلم جيدا في أعماق نفسه أنه على خطأ. ومن الواضح أن الكشف عن هذه الجريرة المستترة وراء ثنايا القلب وبين كوامن النفس ليس من اختصاص الإنسان وليس في مقدوره الكشف عنها. وعلى هذا.. يكون العامل الحاسم في هذه القضية ليس هو عدم قبول الحق في حد ذاته، ولكن عدم قبول الحق حينما يكون عدم القبول هذا قائما على الكذب. والْحَكَمُ الوحيد ذو النظرة الصائبة في هذا الأمر هو الله العليم الحكيم الذي لا يعزُب عن علمه شيء، الموجود في كل حين وفي كل حال. هذا هو العامل الوحيد والحاسم الذي يؤكد عليه القرآن الكريم، ويردده مرارا وتكرارا لكي يذكر به القارئ. ففي مجال المعتقدات والشعائر الدينية.. يجب ألا يغيب عن الإنسان دائما ألا يجعل من نفسه قاضيا وجلادا في نفس الوقت. وقد جاء في القرآن الكريم تذكير لرسول الإسلام نفسه ﷺ يقول:

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ (٨٨ الغاشية:٢٢-٢٣)

بل إنه من غير المسموح أيضا التطاول بالسب أو بالإساءة إلى الآلهة التي يدعوها الناس من دون الله، رغم كونها من نسج خيالهم ومن بنت تصوراتهم. يقول تعالى:

﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم

مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٦ الأنعام:١٠٩)

غـــير أن هذا لا ينفي أبدا أهمية معرفة الحق وضرورة قبوله، قبل أن يلفـــظ الإنسان أنفاسه الأخيرة. فأن يكون للإنسان الحق في أن يؤمن بما يشـــاء.. هذا أمر، ولكن أن يهرب الإنسان من النتائج المترتبة على هذا الإيمـــان.. فهـــذا أمـــر آخر تماما. إن الحق الأساسي الذي يضمن حرية الإنســـان في الإيمان بأي معتقد ليس رخصة تعطيه الحق في انتهاك قدسية الحقـــيقة. فهـــذا الحـــق مُتاح فقط لحماية حرية الضمير الإنساني في أن يتصـــرف حسبما يراه مناسبا. ولو لم تتوفر هذه الحرية في أمور العقيدة لشعر كل إنسان أن من حقه أن يغير معتقدات الآخرين بالقوة، وأن يفعل ذلك باسم الحق. وقد يُصَور لـــه منطقه الفاسد أنه ليس من حق أحد أن تكون لـــه معتقدات خاطئة، وحيث إنه يظن أن معتقداته هو صحيحة، فـــإن لـــــه سُلطة تغيير معتقدات الآخرين بالقوة لكي يجعلها تتفق مع معتقداته. ومرة أخرى نقول إن حرية الإنسان في اعتقاد ما يشاء لا تنفي أبدا مبدأ المساءلة. فإن الحرية حق.. ولكن هذا الحق يصير بلا معنى إن لم يرتبط بمبدأ المساءلة. فمثلا.. إذا قيل لمجموعة من هواة تسلق الجبال إن من حقهـــم اختـــيار مـــا يشاءون من المسالك في أي اتجاه يريدونه للتسلق والوصـــول إلى القمة، وأيضا إذا تلقوا تحذيرات بأن بعض المسالك المعينة قـــد تـــؤدي بهم إلى هاوية سحيقة يلقون فيها حتفهم، فإنهم يقينا سوف يكونـــون عـــلى حذر شديد في اختيار الموضع الصحيح لكل خطوة من خطواتهـــم. غـــير أن هؤلاء النفر من متسلقي الجبال قد يتجاهلون ما فيه مصلحتهم ويستعملون حقهم في الاختيار مما يؤدي بهم إلى هاوية السقوط والدمار. هذا هو معنى حق الاختيار وحرية الضمير كما يبينه القرآن المجيد الذي يُدين الإكراه كما يقول:

﴿لا إِكْـــرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ

بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢ البقرة:٢٥٧)

غير أن التشديد على منع تغيير عقائد الآخرين بالقوة.. لا يحرم أحدا من حقه في تغيير عقائد الآخرين عن طريق الدلائل المقنعة، والبراهين التي تخاطب العقل، والمحاورات التي تزينها الحكمة، ما دام لا تشوبها شائبة من إكراه، ولا حتى همسة من تهديد. إن هذا ليس مجرد حق فحسب، بل هو واجب على كل مؤمن.. أن يدعو البشر إلى طريق الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة. يقول تعالى:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالتي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (١٦ النحل:١٢٦)

هذا هو الأسلوب الإلهي الشامل لتحقيق غلبة الإسلام على الآراء والأفكار البشرية. فهل يمكن لأحد أن يجد فيه ولو ذرة واحدة من اللامعقولية؟ إن صيحات الحرب التي يصرخ بها الأصولي المتعصب وهو يرغي ويُزبد لإثارة عواطف جموع المسلمين لكي يحثهم على شن الحروب الدموية ضد الكافرين.. لم يكن لها أبدا من أثر أو وجود في سلوك الأنبياء وأتباعهم. إن المتعصب البغيض يستمد سُلطته كلها من رؤيته الفاسدة ورأيه المعوج. ومسلكه هذا جد غريب، وهو مناقض كلية لتعاليم القرآن الكريم، تماما كما أن المرض مناقض للدواء، وكما أن السم مناقض للترياق. إن عدد الآيات التي تحث المسلمين على استعمال الفكر والعقل والبحث العلمي.. كما ذكرها الدكتور محمد إعجاز الخطيب من دمشق تبلغ حوالي ٧٥٠ آية، ومقابل ذلك.. لا توجد ولا آية واحدة.. في الكتاب العزيز كله.. تحبذ أو تدعو إلى غزو عالم الفكر والرأي عن طريق القوة الغاشمة أو الغطرسة العارية من العقلانية.

وفي النهاية.. نقتطف باقة من الآيات الكريمة التي تبين للقارئ الكريم

مـــدى تأكـــيد القرآن المجيد أهمية استعمال الفكر والعقل والبراهين البيّنة الصحيحة في مجال الآراء والمعتقدات. يقول تعالى:

﴿أَتَأْمُـــرُونَ الـــنَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَۚ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (٢ البقرة:٤٥)

﴿وَإِذَا لَقُـــوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْۚ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (٢ البقرة:٧٧)

﴿وَقَـــالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢ البقرة:١١٢)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (٤ النساء:١٧٥)

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَعِبٌ وَلَهْوٌۖ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (٦ الأنعام:٣٣)

﴿قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُـــولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُۚ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٦ الأنعام:٥١)

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ (٦ الأنعام:٦٦)

﴿قُلْ لَّوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (١٠ يونس:١٧)

﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللهِ الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (١١هود:٥٢)

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ۖ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَّعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٢١ الأنبياء:٢٥)

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلاَفُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (٢٣ المؤمنون:٨١)

﴿وَمَنْ يَّدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لا لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ لا فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۚ إِنَّه لا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ﴾ (٢٣ المؤمنون:١١٨)

﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ ۖ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٧ النمل:٦٥)

﴿وَمَــا أُوتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (٢٨ القصص:٦١)

﴿وَنَزَعْــنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ للهِ وَضَــلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٢٨ القصص:٧٦)

﴿وَلَقَــدْ أَضَــلَّ مِنْكُمْ جِبِلا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ (٣٦ يس:٦٣)

﴿لَــوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّــنْ خَشْــيَةِ اللهِ وَتِلْــكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٥٩ الحشر:٢٢)

المــــــراجع

1. LAI, C.H. KIDAWI, A (1989) *Ideals and Realities. Selected Essays of Abdus Salam.* 3rd ed. World Scientific Publishing Co. London, pp.343-344

الفصل الثالث
الإيمان بالغيب

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ...﴾ (٢ البقرة:٣-٤)

الإيمان بالغيب دعامة أساسية من دعائم الإيمان في دين الإسلام، كما تبينه هذه الآية الكريمة. ولكن كما أوضحنا جملة وتفصيلا في الفصل السابق.. إن القرآن المجيد كتاب يقوم على العقل والمنطق، وهو يُدين الإكراه بشدة، أو حتى التهديد بأي شكل من الأشكال لتغيير آراء الناس غصبا. وعلى ذلك.. يكون تفسير الإيمان بالغيب ليعني أن الكتاب العزيز يحض على الإيمان الأعمى.. لأنه يقتضي من الإنسان أن يؤمن بأمور "غيبية".. أي غير منظورة ولا مشاهدة.. هو تفسير مناقض لما يحض عليه القرآن المجيد من تمسك بالمنطق والعقل. بل إن القرآن يصم غير المؤمنين بأنهم هم الذين يؤمنون بما لا يقوم عليه دليل ولا يؤيده برهان. وهو أيضا يُدين محاولاتهم لتغيير معتقدات المؤمنين بقوة الإكراه الفظ. إذن.. ماذا تعني جملة "الإيمان بالغيب"؟ هذا هو السؤال الهام الذي يقتضي أن نعالجه بإيضاح.

لا بد من دراسة عميقة لهذه الجملة التي يختص بها القرآن المجيد، فإن الخطأ في فهم معناها الصحيح يمكن أن يؤدي إلى عواقب وخيمة، كما حدث في العصور الوسطي خلال المناظرات الفكرية بين مختلف المدارس الفكرية في الإسلام. إن بعض علماء المسلمين المتزمتين الذين لا يقبلون التزحزح قيد أنملة عن آرائهم يرفضون استعمال العقل كلية في الأمور الإيمانية. فهم يدّعون أن الحقيقة التي جاء بها الوحي الإلهي تكفي في حد ذاتها، وعلى ذلك فمن المحتم قبولها بغير أية تحريات عقلانية أو بحوث

فكـــرية. والآخرون الذين يعارضون هذا الرأي يستشهدون بالعديد من آيات القرآن الكريم التي تحض كل إنسان على أن يلتزم بما يمليه عليه العقل في كـــل مرحلة من المراحل التي يقتضي الأمر فيها اتخاذ قرار في أمر هام، وأن يُعطي المرء الأولوية للعقلانية على الإيمان الأعمى.

ولكـــن.. مـــا هو الإيمان؟ كيف يؤمن الإنسان بغير أن يشبع فطرته الطبيعـــية في البحث وتقصي الحقيقة؟ ألا يخبرنا الواقع بأن الغالبية العظمى بين عامة الناس من أتباع جميع الأديان يؤمنون بدون فهم حقيقي لما يؤمنون به؟ إن الناس عامة يؤمنون لمجرد الإيمان، وهذا هو كل ما في الأمر.

هـــذه هـــي المعضلة التي تتطلب منا مواجهة موضوع الإيمان مقابل العقـــل، وتقرير طبيعة العلاقة المتبادلة بينهما. وحيث إن هذا الموضوع قد ســـبق معالجـــته بما يكفي من تفصيل في فصل سابق تحت عنوان *الفلسفة الأوروبـــية*، فسوف نجتهد ألا نكرر هنا بغير ضرورة ما سبق ذكره هناك. وعلى هذا فإن الغرض هو الوصول إلى فهم أوسع لمعنى لفظ "الغيب".

وفي الـــبداية.. دعونـــا أولا نؤكد على حقيقة هامة، وهي إن عدم معـــرفة شـــيء ما.. لا يعني بالضرورة عدم وجود ذلك الشيء.. إذ قد يكـــون موجودا ولكنه يكون مختفيا وراء غلالة من المجهول. وفيما بعد.. إمـــا مـــن خلال البحوث التي يقوم بها الإنسان، وإما عن طريق الوحي الإلهـــي، ينكشـــف المجهـــول.. ويخرج من عالم الغيب إلى عالم الحقيقة والمشاهدة.

إن لفـــظ "الغيب" في معناه الواسع يشمل كل ما هو غير مرئي وغير مســـموع بصـــورة مباشرة، وأيضا كل ما لا يمكن التعرف عليه بواسطة حـــواس الإنســـان. ويمكن أيضا تعريف الغيب بأنه يشمل جميع أشكال الوجـــود التي لا تدركه الحواس الخمسة بصورة مباشرة. وما ينطوي تحت هذه الفئة من أمور أو أشياء لا تظل على الدوام بعيدة المنال بحيث لا يمكن الوصول إليها، بل تظل مجهولة لمدة محدودة فقط.

وكل مغاليق المعرفة للأمور الخاضعة للإدراك التي تنتمي إلى الماضي أو الحاضر أو المستقبل تقع في نطاق هذه المجموعة. وبمعنى آخر.. فإننا مطالبون أن نؤمن بوجود أشياء غير معلومة في مرحلة معينة من الزمن، ولكنها موجودة.. وقد تصبح معلومة في مرحلة أخرى من الزمن. ولا يمكن بطبيعة الحال وصم هذا الإيمان بأنه إيمان أعمى. والقرآن المجيد لا يتطلب من المؤمنين أن يؤمنوا بشيء لا تؤيده البراهين التي لا تُدحَض والأدلة التي تُنقَض. وعلى هذا فإن الغيب يشمل فقط تلك الأمور التي يمكن التعرف عليها باستخدام آليات الفكر والعقل والاستدلال المنطقي. والأمر الذي يجدر ملاحظته هنا هو أن الغيب، كما عرّفناه هنا، رغم أنه لا يمكن إدراكه بالحواس الخمس، فإنه مع ذلك يمكن إثباته والتحقق من صحته. والتجارب الإنسانية تؤيد تماما هذا الرأي القائم على الأساس المنطقي الذي يقول به القرآن المجيد.

من بين الأشكال المادية الموجودة.. هناك كثير من الأشكال والأنواع التي لا تخضع للاختبار المباشر، ولا يمكن معرفة وجودها ولا خصائصها الطبيعية إلا من خلال الاستنتاج المنطقي، أو بواسطة الأجهزة الإلكترونية المتقدمة التي تجعل هذه الأشياء في متناول الحواس بطريق غير مباشر. فمثلا.. ما هو النيوتريون واللانيوتريون؟ ما هي المادة واللامادة؟ ما هو البوزون واللابوزون؟ إن الإجابة على هذه الأسئلة لا يمكن معرفتها عن طريق أي اختبار مباشر. ومع ذلك فإن وجود عالمها الغيبي قد صار حقيقة مقبولة بشكل عام. ويجب أن نتذكر هنا أن العقل هو الكيان الأعلى في الحياة، فهو الذي يحسب ويستقبل كل الرسائل التي تُنقل إليه عن طريق الحواس، وذلك من خلال حاسوب وهو المخ البشري. فالعقل ليس اسما مرادفا للمخ، وإنما هو يعلو ويسمو عن المخ ويدير ويتحكم في عملياته.

إن العقل هو العرش الأسمى للإدراك، والاستنتاج العقلي من أعظم الخواص المدهشة للعقل. وحتى إن لم يُزوَّد العقلُ بأية حقائق.. فإنه يظل

يعمـــل مســـتخدما معلومات وبيانات افتراضية، كما أنه يستطيع العمل باجـــترار وتأمل المعلومات والمعارف المخزونة من قبل. ويتم اتخاذ جميع القـــرارات عـــلى مستوى العقل، بينما لا يزيد المخ عن كونه آلة مادية ومخـــزن للذاكرة. وبالإضافة.. إن العقل له القدرة على التأمل والتفكر في الأمـــور الميتافيزيقية، وهي الأمور العقلية والتي هي وراء المادة والطبيعة. وأيضا يختص العقل بالأمور التصورية مثل اللانهائية والأزلية. ويجتهد العقل لحل لغز ما يبدو أنه سلسلة لا نهاية لها من الأسباب والمسببات.. أين يبدأ شـــيء معين وماذا يوجد وراء كل بداية؟ هل هناك سبب أول قبل جميع الأســـباب؟ وإن كان.. فهل كان سببا حيا مُدركا أم كان ميتا بغير عقل ولا إدراك؟ إن الاســـتنتاج الوحيد المعقول، والذي يمكن للعقل استنباطه، هو أن السبب الأول لا يمكن أن يكون ميتا بغير إدراك.

هناك أيضا السؤال عما إن كان يمكن للموت أن يخلق حياة، أو يمكن لعـــدم الإدراك أن يكـــون الســـبب في وجود الإدراك. فهذه الأمور من الموضـــوعات الـــتي يستطيع العقل فقط أن يستكشفها، وليس كتلة المخ وحدهـــا. وعلى هذا يحدث في بعض الأحيان أن يؤمن العقل بالغيب من خـــلال ممارسة الافتراضات، بينما في أحوال أخرى نجد أنه يختبر ويغربل المعلومـــات المخـــزونة في المـــخ، ثم يستخلص منها النتائج المنطقية. فهو يستطيع أن يتصور جميع أشكال الإشعاعات والموجات التي توجد حولنا، ولكـــن الإنســـان لا يستطيع أن يعلم بوجودها، لا عن طريق البصر ولا السمع ولا الطعم ولا الرائحة ولا اللمس. نعم يمكن أن تُرى وتُسمع عن طـــريق جهـــاز المذياع أو التلفاز، ولكن بعد تحويلها إلى نبضات مرئية ومســـموعة. وحتى حينذاك يكون العقل هو المسؤول في النهاية عن فك رمـــوز هـــذه الذبذبات الكهربية ليجعل منها ظواهر صوتية وصورا شبه حـــية. فإن الصور والمشاهد التي يخلقها العقل ليست هي مجرد تلك التي تراها العين على سطح شاشة التلفاز، فهناك أكثر مما تراه العين، إذ يُضيف

العقل الكثير من المعاني غير المرئية إلى الصور المرئية قبل أن تتحول المشاهد كلها إلى أمور ذات معنى.

غـــير أن المعـــارف الخافية في نطاق عالم الغيب يمكن الوصول إليها، والحصـــول علـــيها أيضـــا، عن طريق الوحي، بالإضافة إلى الآليات التي ذكـــرناها. ولذلـــك فإن ملكة العقل.. الذي هو المتلقي النهائي لجميع المعـــارف والانطـــباعات.. يمكن أن يُزوَّد بها عن طريق كل من ظاهرة الوحي وأجهزة الحواس. وكل منهما يستطيع أن يعمل ويؤثر، سواء كان مســـتقلا عـــن الآخـــر أو مرتبطا به، كما أن كل منهما يساعد الآخر. فمثلا.. يمكن للوحي أن يعطي فهما أفضل للأشياء التي تُشاهد من خلال أجهـــزة الحواس، وذلك بإنارة الملكات الإنسانية وإعلائها إلى آفاق أرفع وإلى مســـتويات أسمـــى للإدراك، تكون أكثر نقاء وأشد صفاء. والوحي يســـاعد العقـــل على حل رموز وفهم رسائل وانطباعات أجهزة الحواس بوضـــوح ودقـــة، بينما لم يكن ذلك ممكنا بغير الوحي. وأجهزة الحواس بدورهـــا تساعد أيضا متلقي الوحي على فهم رسالة الوحي فهما أفضل، وذلك بمساعدة المعارف والمعلومات المخزونة في بنوك الذاكرة بالمخ، والتي لا يمكن بغيرها على أية حال الوصول إلى نتائج ذات معنى. ومع ذلك.. لـــيس مـــن المستحيل، ولا من النادر وقوعا، أن يصل المرء إلى ما وراء حـــدوده المادية.. حتى بغير أية مساعدة مباشرة من الوحي. ولكن ملكة العقـــل لها حدودها أيضا.. إن نطاق علم الله يتجاوز ويسمو على الزمان والمكـــان، ولكـــن العلم الإنساني لا يستطيع ذلك. وعلى هذا فإن كل المعـــارف التي تقع خارج نطاق حدود قدرة الملكات الإنسانية.. لا يمكن الحصـــول عليها إلا بواسطة الوحي الإلهي الذي يؤتيه الله تعالى لمن يشاء سبحانه. يقول القرآن الكريم:

﴿فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۞ إِلا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ (٧٢ الجن:٢٧-٢٨)

ويجب أن نفهم جيدا أن الآية الثانية في هذا المقتطف القرآني لا تنفي إطلاقا إمكانية أن يتلقى غير الأنبياء الغيبَ، كما يحدث عن طريق الأحلام والرؤى، أو حتى سماع وحي صوتي، وإنما النفي هنا هو لإمكانية أن ينال أحد الوحيَ بكثرة في الكم والنوع غير رسل الله، فالآية تؤكد أن الله تعالى "يُظهر رسله على غيبه" وليس "يظهر غيبه لرسله"، وهذا يعني أن المعرفة التي تُعطى لغير الأنبياء، حتى من خلال الوحي، لا يمكن أن تتساوى في الوضوح، واليقين، والكمال، مع المعارف التي تُعطى لرسل الله.

وأيضا.. هذا التفرد في سمو المعارف كمًّا ونوعا، يرتبط في المقام الأول بالمعارف الروحانية ومعارف أمور الحياة بعد الموت. وهناك أيضا الكثير من المعارف الدنيوية التي يشملها ويحتويها كذلك الوحي الإلهي، ولكن هذا يحدث بشكل عرضي، وذلك بقصد تقوية إيمان المؤمنين بصدق أنبيائهم، وفي وجود إله حكيم عليم بكل شيء. وعادة يكون الإنسان حرا في التقصي والبحث بغير مساعدة من الوحي في جميع مجالات البحوث التي تتعلق بالأمور الدنيوية. وما يرفضه القرآن ويستنكره بشدة هو أن يكون للإنسان أية قدرة على الإحاطة.. ولو بجزء صغير من العلم الإلهي.. بغير عونه تعالى أو بغير إذنه. يقول ﷻ:

﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ﴾ (٢ البقرة:٢٥٦)

إن المعنى واضح.. وهو أن الإنسان يستطيع أن يصل إلى معرفة المجهول، ولكن فقط بالقدر الذي يسمح به المولى تبارك وتعالى. وهذا يعني أيضا أن ما يُسمى بالأبحاث والاكتشافات الدنيوية، أي التي تتم بغير طريق الوحي الإلهي، ليست في الحقيقة دنيوية بحتة، فكل مرحلة ينفتح فيها منظور جديد للمعرفة، إنما يتم ذلك حسب التقدير الإلهي العام. وهذا ما تؤيده الآية الكريمة:

﴿وَإِن مِّـــنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَآئِنُهُ وَمَا نُنــَزِّلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (١٥ الحجر:٢٢)

والمعـــنى الأكثر روعة الذي تبينه الآية هو أن عالم المجهول واسع لا حـــدود لــــــه، وعميق لا قرار لـــه، ومع هذا فإن الله تعالى يستمر في السماح للإنسان أن يسبر غوره، ويكشف غموضه، ولكن بالقدر الذي يسمح به سبحانه حسب احتياجات ومتطلبات الزمن. وعلى هذا.. فإن لفظي "المجهول" و"الغيب" لا يعنيان أبدا تشجيع الجهالة والإيمان الأعمى. بـــل على العكس.. إنهما يعنيان التشجيع على البحث المتواصل وتقصي الحقائق، بالتأكيد أن كل ما يعلمه الإنسان كحقيقة واقعة ليس في الواقع ســـوى جزء بسيط، يتناهى في الصغر بالنسبة لما لا يعرفه. وعلى هذا فإن جهـــد الإنســـان لاكتساب المعرفة يجب أن يستمر على الدوام، لأن بحر أسرار الطبيعة واسع فسيح.. لا ينتهي ولا ينفد.

إن الأدوات الوحـــيدة المـــتاحة للعقل الإنساني لاتخاذ قرار منطقي معقول هي انطباعاته الذاتية والموضوعية. وحتى لو كانت نزاهة صاحب القـــرار فوق مستوى كل الشبهات، فإن قراراته قد تكون خاطئة بسبب العوامـــل الـــتي ليست في نطاق قدرته ولا تحت سيطرته. فسوء الفهم، والخطـــأ في نقل المعلومات، وتعرضه للخداع، والقصور في الاستعدادات العقلـــية والملكـــات الذهنية، كلها يمكن أن تؤثر تأثيرا سلبيا على نوعية ســـلامة القرار. وأيضا.. حينما تختلف زوايا النظر لدى مختلف الناظرين، فسوف تختلف أيضا رؤية المنظور لديهم. ورغم هذه النقائص واحتمالات وقوع الخطأ، فلا يمكن إنكار أن الاستعداد العقلي لدى الإنسان كان هو المســـؤول عن توجيه خطوات الإنسان جيلا بعد جيل من عصور الظلام إلى عصور النور النسبي.

هل يمكن يقينا إثبات أن القرآن الكريم كتاب صادق حق في كل ما ذكره من أن الله تعالى يوحي ببعض الغيب لمن يختاره من عباده؟ هل يمكن

التدلـــيل للمتشكك والملحد على أن الإيمان بالغيب ليس مجرد وهم ولا خـــيال ولا أمـــل كاذب، ولكنه ينبني على الحق ويمكن إثبات وإيضاح معقوليته؟ إن الإجابة على هذه الأسئلة يجب أن تؤيدها الحقائق والبراهين العلمـــية. وهذا هو بالضبط الغرض من تدوين هذا المؤلف، وسوف يجد القـــارئ في الفصـــول التالية الأدلة الوافية على مصداقية الوحي كوسيلة يمكن الاعتماد عليها في الوصول إلى المعرفة واكتسابها.

وحســـب ما جاء في الرسالة التي تحتويها آية سورة الحجر المذكورة فيما سبق، فإن أفق الإنسان في اتساع مستمر، إذ لم يزل المجهول يتحول باســـتمرار إلى معلوم. وهذا الإدراك يخلق في النفس عطشا لا يمكن إطفاء غلـــيله، وشـــوقا للمزيد من طلب المعرفة. وهو أيضا رسالة أمل وفخر.. كما أنه درس عظيم للتواضع.

أمـــا درس التواضع فيتعلق بالإدراك المتزايد لدى الإنسان بأن معرفته ليســـت إلا نزر ضئيل بالنسبة لما لا يعلمه، فإن ما يعلمه الإنسان لا يزيد عن كونه مجرد نقطة أو دون ذلك على وجه الخلود. إن ما نعرفه اليوم قد يزيد مليارات المرات عما كنا نعرفه قبل ألف عام. وما سوف نعلمه بعد ألـــف عام قد يزيد مليارات الأضعاف عما نعرفه اليوم. ومع ذلك فحتى ذلك الكم من المعرفة سوف يبدو ضئيلا عديم القدر حين مقارنته بخزائن علم الله تعالى التي لا حدود ولا نهاية لها.

وكـــلما أسرعت قافلة الاكتشافات في خطاها.. كلما بدت القيود التي تحد من فاعلية الحواس الخمس أشد وضوحا. فهناك مجالات كثيرة من الحـــياة والأصوات حولنا هي أبعد من إدراك حواسنا الطبيعية. وإذا كان باســـتطاعتنا تحســـين قدرات تلك الحواس، فسوف نبصر ألوانا جديدة ونســـمع عديدا من الأصوات الغريبة. أضف إلى ذلك أن ما نراه نحن من ألـــوان وأشكال الأشياء.. تراه الحيوانات والحشرات أيضا ولكن بشكل يخـــتلف تمامـــا. إن رؤية العالم المادي، ومنظر الألوان، وإدراك الروائح،

ومذاق الطعم، كلها تختلف كثيرا لدى نوع من الكائنات عنها لدى نوع آخر، حتى إن كل حقيقة تتحول إلى حقيقة نسبية. غير أن هذا لا يترتب عليه انهيار أو اضطراب النظام في المملكة الحيوانية الواسعة.. فإن الفروق بين قُوى الإدراك تؤدي إلى بقاء الحياة واستمرارها على جميع المستويات أكثر مما تعرقلها أو تعوقها. فالقوة البصرية المدركة للأشكال والألوان لدى النسور الجارحة ونحل العسل وسمك الصبيدج (السُبِّيط) تناسب تماما متطلبات كل منها. فأسماك الصبيدج والحشرات ترى الأشياء في هيئات مختلفة تماما بالمقارنة بما يراها فيها الإنسان، لأنه من الضروري لحياتها أن ترى الأشياء إما في هيئة أكبر أو أصغر مما هي عليه في الحقيقة. وهكذا يختلف إدراك البصر في كل نوع من المخلوقات عن غيرها. ولكن عين الإنسان لا تظل حبيسة داخل نطاق قدراتها الطبيعية، إذ يمكن أن تتقدم أيضا قوة الإدراك البصري لدى الإنسان تقدما يُقاس بالمعايير الفلكية، وذلك بمساعدة أكثر المناظير الإلكترونية تقدما.

وعندما نظر جاليليو (حوالي ١٦٠٠م Galileo) من خلال منظاره البدائي.. غمره السرور باكتشافه هذا، حتى إنه أعلن بكل فخر أنه استطاع أن يزيد مدى رؤية الإنسان إلى مائة ضعف. ولكنه ما كان يعلم أنه بعد مرور وقت غير طويل بعد انقضاء زمانه.. سوف ينبلج فجر ذلك اليوم الذي يرى فيه الإنسان الكون من حوله وقد زادت قوة الرؤية لديه مائة ألف.. بل قل مائة مليون مرة.. أكثر وأوسع وأوضح عما رآه هو. نعم.. إنه كان يقارن اكتشافاته واختراعاته بما كان عليه الأمر في الماضي فقط من وجهة نظره، ولكن ما أكثر ما ثبت أن إعجاب المرء بإنجازاته هو أمر قصير المدى، وسرعان ما يذبل ويزول.

إن مأساة الأيام الأخيرة في حياة جاليليو التي انتهت بإصابته بالعمى الكامل هي مأساة حزينة، ولكنها تثبت الأمر الذي نقصده. ففي إحدى رسائله التي كتبها إلى أحد أصدقائه المقربين، راح يشكو إليه أنه – وهو

الـــذي اخترع التلسكوب واستطاع "أن يوسع آفاق الكون" حسب ظنه "مائة مرة" – قد صار حبيسا في حدود جسده.

لقـــد كـــان لهذا العمى الذي أصابه وقعا أليما على نفسه، أصابه في حياته بمرارة شديدة. غير أن هذا التعبير الحزين عن مدى الخيبة والإحباط الـــذي شعر به جاليليو يقودنا إلى وجه آخر لموضوع الغيب. إن لم يكن جاليليو متمتعا بنعمة البصر قبل إصابته بالعمى، لكان من المستحيل عليه أن يتصـــور مـــا هو موجود خارج حدود الأرض التي يمشي عليها، ولا استطاع أبدا أن يميز بين النور والظلام. إن أقصى ما كان ممكنا في قدرته هو أن "يؤمن" بما يسمعه عن حقيقة وجود النور، ولكن بطريقة مبهمة لا يمكن وصفها. ورغم أنه في الأمور المتعلقة بالنور والألوان.. لم يكن لديه مـــن الوسائل أو المعايير ما يمكنه من قياس مدى صحة إيمانه، إلا أن إيمانه هذا لم يكن ليُعتبر غير حقيقي وغير صحيح، لمجرد أنه ليس سوى روايات وتقَولات. إن هذا المثال ينطبق فقط في أحوال معينة، إذ أننا حين نتصور المعضـــلة التي يعيش فيها رجل أعمى يحيط به أولئك الذين يتمتعون بنعمة البصر، نجد أن لديه على الأقل شيء ما ينبني عليه إيمانه. ولكن إذا تصورنا مجـــتمعا جميع أفراده من العميان.. هل يمكن لهم أن يؤمنوا بوجود النور وقدرة الإبصار؟ بالتأكيد لا. إن الأمر يحتاج إلى شخص بصير لكي يحاول مســـاعدة العمـــيان على إدراك وجود الأشياء التي هي بعيدة عن إدراك حواســـهم، ومن هذا المثال يتبين بجلاء مدى أهمية وعظمة الوحي الذي يعلو ويسمو على المعارف المادية الدنيوية.

إن الإنســـان، الـــذي خُلق بعدد محدود من الحواس، مهما بلغ من حكمـــة وثقافة، لا يستطيع أن يخطو خارج حدود حواسه. ومع هذا فلا يمكـــن اســـتبعاد أن يكون له من الحواس أكثر مما يدرك. ولكن الله جل جلالـــه هـــو وحده الذي يستطيع أن يخبر الإنسان بالحقائق والأمور التي تكون خارج نطاق قدراته.

إن طبيعة الحياة بعد الموت.. التي يحاول القرآن الكريم تقريب وصفها.. تتعلق بنفس الغيب المجهول الذي نتحدث عنه، وقد استخدم القرآن الكريم تعبيرا رائعا لبيان صعوبة استيعاب ذلك الغيب. فعندما يذكر القرآن بعضا من هذه الأمور التي لا يمكن للإنسان إدراك حقيقتها في الواقع، فإنه يضيف التعبير التساؤلي: وما أدراك *(أيها الإنسان)* ما هي حقيقة ذلك الذي نذكره لك؟ وفيما يلي بعض الأمثلة لتوضيح ذلك في قوله تعالى:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۞ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾

(٨٢ الانفطار:١٨-١٩)

﴿الْحَاقَّةُ ۞ مَا الْحَاقَّةُ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ (٦٩ الحاقة:٢-٤)

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾ (٧٤ المدّثر:٢٧-٢٨)

ليس الأمر بتاتا هو عدم قدرة الإله الخالق على تفهيم الإنسان، ولكنها عدم قدرة حواس الإنسان بحدودها الضيقة. إن من فقد واحدة أو اثنتين من حواسه الخمس لا يستطيع بطبيعة الحال أن يفهم حقيقة طبيعة الأشياء التي تختص بها الحواس المفقودة. فالأصم لا يستطيع أن يتخيل فكرة الأصوات، والأعمى لا يمكن أن يتصور معنى الرؤية. وعلى ذلك فإن الآخرين الذين يستطيعون السمع والبصر يحاولون مساعدة أولئك ليتلمسوا وسيلة قد تبدو لهم صعبة الإدراك بالفكر. وكذلك فإن القرآن الكريم عندما يتحدث عن أمور الحياة الأخرى، يلفت أنظار الإنسان إلى أنه لا يستطيع في الحقيقة فهم طبيعة ما يصفه سبحانه. إنه التصور البشري العاجز وليس عجز الإله هو ما يُذكر هنا. وما يعنيه ذلك واضح تماما، إذ لا بد من إضافة بعض الحواس الجديدة في الحياة الأخرى إلى الحواس التي نملكها هنا على الأرض. فكل ما نعلمه الآن عن الحياة الآخرة، على أحسن تقدير.. ليس سوى تصور باهت لحقائق غامضة، تماما كما يكون

لـــدى الشـــخص الأعمـــى مـــن تصور لما يمكن أن تكون عليه الألوان والأضـــواء. *وما أدراك (أيها الإنسان) ما هي حقيقة ذلك الذي نذكره لك؟*

إن توســـيع دائـــرة الحواس لدينا.. حينما يتحقق.. ربما يغير تماما من إدراكـــنا وشعورنا بما عرفناه وجربناه بالفعل هنا على هذه الأرض. فمثلا نظن أننا نعرف ماذا يعني الحب، كما نظن أننا نعلم ما هي المعاناة. ولكن.. مـــاذا يمكـــن أن يكون الشعور بالحب في الحياة الأخرى، وماذا يمكن أن يكون الشعور بالألم والمعاناة؟ إن الإنسان ليرتجف حين يحاول تصور ذلك. ولا عجـــب بعد ذلك أن يخبرنا القرآن الحكيم أنه رغم الصورة الحية التي يـــرسمها لنا عن الحياة الأخرى في الجنة، إلا أنها في الحقيقة تظل ما لا عين رأت ولا أذن سمعـــت ولا خطـــر على قلب بشر. وكذلك.. بالرغم من الوصف التفصيلي لعذاب الجحيم، إلا أن القرآن يسرع ليقول لنا محذرا من ســـوء الفهـــم: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ ما سَقَرُ﴾. وكلما ازداد المرء تفكرا وتدبرا في معـــنى الغيب.. كلما تفتحت له آفاق وإمكانات ما كان يحلم بها. ولكن لكي يدرك الإنسان تماما ما هو موجود في طيات المستقبل، وما هو خبيء في شـــعاب الحقـــائق المجهولة.. فإن الإنسان يجد نفسه دائما في حاجة إلى الوحي الإلهي. غير أن الحدود التي تحيط بقوة الإدراك لدينا ليست وحدها العائق الذي يعرقل اكتسابنا للمعرفة، فحتى في نطاق حواسنا.. نجد أن ما هـــو محجوب عنا يفوق بكثير ما نراه ونعلمه بحواسنا. ومهما يكن من أمر الإيمـــان بالغيـــب.. فهو ليس إيمان بلا شيء، فالإيمان بلا شيء هو إنكار للإيمان بالغيب.

إن حكمـــة هـــذه الآيـــة الكريمة تنير الطريق للمؤمنين في سَفْرهم، وتقودهم دوما إلى الأمام في رحلة لا تنتهي من السعي للمعرفة. فبالنسبة لهم لا يوجد فراغ ولا باطل ولا عبث بغير معنى، وإنما توجد فقط أستار مســـدلة في انـــتظار أن ترتفع لتكشف عن خزائن علم الله تعالى الذي لا

نهاية له.

ومهما خالجنا من فخر واعتزاز بالقليل النادر من المعرفة التي نملكها، فإنها بالمقارنة تبدو تافهة لا قيمة لها، كأنها حبة رمل في سلسلة شاهقة من الجبال. غير أن سلاسل الجبال التي نعرفها نحن على الأرض ليست بغير حدود ولا هي بدون نهاية، أما سلاسل جبال المعرفة التي نتحدث عنها فهي تمتد على المدى الواسع الطويل للأزلية بغير بداية وبدون نهاية.

ليس في هذا الحديث أي تثبيط لهمة الباحثين والمكتشفين، فهو يعني أنه أيا كانت المعرفة التي يكتسبها الإنسان، من خلال مجهوداته الخاصة كما يبدو، إلا أنها في الحقيقة قد أتيحت بفضل الإرادة الإلهية. وبغير هذه الإرادة.. وبدون مشيئة الله تعالى، فإن كل بحث وكل عمل يقوم به الإنسان لن يحمل ثمارا. إن سعي الإنسان لكسب المعرفة لن يثمر إلا بالقدر المناسب وفي الوقت المناسب حسب مشيئة الله تعالى في الخلق. ورغم أن ما يحققه الإنسان من معارف في المجالات الدنيوية ليس من خلال وسيلة الوحي الإلهي مباشرة، إلا أنها تحمل طابع موافقة الله تعالى وتقديره. فإن قدرات الحواس الخمس قد منحها الله للإنسان، وأعطاه أيضا القدرة على استخدامها لما فيه فوائده وتحقيق مصالحه، وهذا كله من فضل الله عليه.. أنه سبحانه مكّنه من اكتساب المعرفة.

إنه الخالق القوى العزيز الذي سخر للإنسان كل ما هو معروف أو كامن في الكون. وهو الله أيضا الذي علم بسابق علمه جميع ما يمكن أن يحتاجه الإنسان خلال العصور اللازمة لتقدمه المادي والروحاني والعلمي والاقتصادي والثقافي.. كما في قوله تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤٥ الجاثية:١٤)

إن الإنسان ليعجز أن يجد لمحة أكثر روعة من هذه الآية الكريمة التي

تشجع على البحث والاستقصاء بغير حدود. فهي تقرر أن كل ما يمكن أن يكتشفه الإنسان يكون مسخرا لــه وفي خدمته. ولكن ليس هذا كل مـــا في الأمر، فإن الآية التالية لا تتحدث عن السماوات والأرض المرئية فحســب، بــل تتحدث أيضا عما بينهما، وتقرر أنه أيضا مسخر لخدمة الإنسان. وقد أعلن القرآن هذه الحقيقة المدهشة منذ أربعة عشر قرنا من الزمان. والمعنى واضح.. إن ما يبدو أنه فضاء بين الكواكب ليس فراغا في الحقــيقة، بــل هو مملوء بشيء ما.. لا يعرف الإنسان شيئا عن حقيقة وجوده. يقول تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ﴾

(١٥ الحجر:٨٦)

مـــا هـــو ذاك الـــذي يوجد بينهما وكيف يمكن أن يُسخر لخدمة الإنسان؟ هذه الأسئلة لا تزال تنتظر الإجابة. إن القرآن يتحدث عن مدًى واســـع يفوق خيال الإنسان. ولعلها المادة القاتمة التي يومئ إليها هنا، أو شـــيء آخر لا نفقه عنه شيئا حتى الآن. إن هذا الإعلان القرآني الحكيم يعـــني أنه في يوم ما سوف يتمكن الإنسان من استخدام والاستفادة من هذه الأسرار التي تشير إليها الآية الكريمة.

إن محيط الأرض ليس سوى خمسة وعشرين ألفا من الأميال، ولكن المـــدى الواسع الذي يتحدث عنه القرآن المجيد يمتد إلى ما يقرب من ثماني عشـــرة إلى عشرين مليارا من السنوات الضوئية، من أقصى طرف مرئي لدينا للكون إلى أقصى الطرف الآخر، وهو يتمدد ويزداد اتساعا بسرعة تفوق الخيال. وهذا يعني أنه إذا أمكن لأحد المسافرين في الفضاء أن يبدأ رحلـــته الـــيوم من أحد أطراف الكون.. منطلقا بسرعة الضوء التي تبلغ ١٨٦٠٠٠ مـــيل في الثانية.. فقد يصل إلى الطرف الآخر بعد مرور ثمانية عشـــر أو عشرين مليارا من السنين، بشرط أن يثبت حجم الكون خلال هـــذه المـــدة الزمنية ولا يتمدد خلالها، الأمر الذي يخالف الواقع بطبيعة

الحـــال. والآن.. فليحاول من يشاء أن يدرك المعنى الذي يقصده القرآن المجيد حين يعلن أنه في كل هذا الاتساع المهول لا توجد ولا فقاعة واحدة مـــن فراغ، بل ولا توجد بوصة واحدة، ولا حتى مليمتر واحد، بل ولا حـــتى نانومتر*، ولا مجرد نقطة من أدق النقاط المتناهية في الصغر، خالية تماما من كل شيء.

وللآيـــة التي نحن بصددها أهمية خاصة تستحق الاعتبار. فحتى بغير استخدام وسائل البحث والتقصي الطبيعية، يستطيع الله تعالى العليم بكل شـــيء أن يكشف عن بعض أسراره فيوحي بها إلى من يشاء. ومن هنا.. فـــأي ذكر في الصحف المقدسة لأي من أسرار الطبيعة، قبل أن يكشف البحـــث العـــلمي غطاء الأسرار عنها، إنما يكون في ذاته دليلا قويا يؤيد وجـــود خالق عظيم للكون عليم بكل شيء فيه. إنه هو وحده سبحانه الـــذي يعلم كل شيء.. سواء كان ذلك في عالم الغيب أو العالم المشاهد والمدرك بالحواس، فهو وحده سبحانه ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾.

والمعـــرفة الـــتي تُكتسب عن طريق الوحي الإلهي هي شيء آخر تماما يخـــتلف عـــن المعـــرفة التي تُكتسب عن طريق البحث العلمي الدنيوي. والصحف المقدسة ليست بالطبع مراجع للعلوم الدنيوية، وعلى هذا فإن أية إشـــارة فـــيها إلى الموضوعات العلمية، لا يمكن أن تكون قد جاءت فيها بمحـــض الصـــدفة. إن الغرض الرئيسي هو التأكيد على وحدة المنبع؛ أي إثـــبات أن العـــالم المادي والعالم الروحاني كلاهما من صنع نفس الخالق الواحد. ولنتذكر أن نبي الإسلام ﷺ الذي تلقى الوحي القرآني كان رجلا أميًّا، وُلد في مجتمع أمي. وقد تم مولده ونشأته في بلاد كانت تحيط بها من جانبيها الشرقية والغربية حضارتان عظيمتان في ذاك الوقت.. الإمبراطورية الرومانية والفارسية.

كانـــت الصحراء العربية في ذلك الزمان محصورة في الوسط كأرض

* النانومتر جزء من مليون جزء من السنتيمتر. (المترجم)

قفراء، لا ينبت فيها سوى الظلمة، ولا ينمو بها إلا الجهل. أفلا يكون من الخـــارق لكل مألوف لشخص وُلد في ذلك المكان في القرن السادس بعد المـــيلاد، أن يتحدث بهذا الجلاء والبهاء عن الأديم الواسع للكون وأسراره الرحبة التي يحتويها.. تلك الأسرار التي بدأت الآن فقط تخرج من مكنونها وتبدو كالنجم الباهت الذي لا يكاد يظهر في الأفق لضآلة تألقه، حتى إن العين لتخطئه في وهج انبثاق الفجر. إنه أمر يكاد ألا يُصدق.. أن يستطيع رجـــل مثل ذلك أن يتحدث عن أمور لم يكن يعلم أحد عنها شيئا، ولا حـــتى أكبر وأعظم العلماء في عصره في أي مكان من العالم، ومع ذلك يثبـــت أنه كان على حق بعد أن برهنت على صدقه البحوث العلمية التي أجريت في القرن العشرين. ولا بد أيضا أنه كان على حق حينما أعلن أن كل ما أتى به من علوم لم يكن من بنات أفكاره ولا من هواجس نفسه، وإنمـــا جـــاء من لدن ينبوع كل علم ومصدر كل حكمة.. العليم بكل شيء، العزيز العظيم القدير.

إن الدكـــتور موريس بوكاي (Maurice Bucaille) الكاتب الفرنسي المشـــهور، قد تأثر بهذه الحقيقة فعبر عن اندهاشه بشيء من التفصيل في كـــتابه: الكـــتاب المقدس والقرآن والعلم[1] (The Bible, The Quran And Science) ، فجمـــع موادا كثيرة من الكتاب المقدس، ومن القرآن المجيد، أخضعها للبحث الدقيق بغير أي انحياز، وقارنها بالحقائق العلمية التي ثبتت صـــحتها وتم قـــبولها عالمـــيا. وكان آخر ما يتوقع أن يكشف عنه ذلك التحري الذي أجراه بنفسه أن ينكشف له أن القرآن المجيد كان صحيحا وحقا في كل حالة وفي كل مرة. وقد تم نشر البحث الكامل الذي أجراه في الطـــبعة الفرنسية الأولى عام ١٩٧٦. ولم يكن هناك من شيء ذكره القرآن يتعارض أو يتباين مع المعارف العلمية في القرن العشرين.

وهـــنا يكـــون مـــن المناسب أيضا أن نذكر اسم أستاذ كندي لعلم التشريح هو البروفسور كيث ل. مور (Keith L. Moore) عميد كلية الطب

في جامعـــة تورنتو بكندا، الذي بحث بشكل ناقد ما ذُكر في القرآن المجيد عن موضوع علم الأجنة[٢،٣] وكيفية تكوينها. وبالإضافة إلى القرآن الكريم ذكـــر أيضـــا بعـــض الأحاديث النبوية للرسول ﷺ تتعلق بالموضوع. ولما أعجبته نتيجة البحث وتعجب لها، أدلى بشهادته على صحة وحقيقة الوحي القرآني بشجاعة نادرة ووضوح أمين.

ولكـــن السؤال الذي يجب أن نلتفت إليه هنا هو إلى أي مدى يمكن أن نـــثق بالنـــتائج المستخلصة من هذه المقارنات بين ما تحويه الصحف المقدســـة وبـــين الحقـــائق العلمية. إن الزمن يعمل باستمرار على صقل وتهذيـــب قـــدرة الإنسان على الفهم وتوسيع آفاق معارفه، وبالتالي فإن إدراكـــه لحقائق الأشياء يخضع لتغير مستمر. فكيف يمكن إذن الاعتماد عـــلى حكـــمٍ ما.. في أية مرحلة علمية، وكيف نقبله على أنه هو وحده الحكـــم الفاصل والنهائي؟ خذ مثلا حالة قوانين الطبيعة المقبولة بالإجماع بشـــكل جامع شامل ولا تتغير، ومع ذلك لا يمكن أن يقال أن الفلاسفة والعـــلماء قد فهموا هذه القوانين بشكل واحد في جميع العصور. وعلى ذلـــك ألا تفقـــد الشهادة العلمية التي شهد بها الزمن المعاصر على صدق الوحي القرآني بعض مصداقيتها؟ هل يمكن للمرء أن يعتمد على صحتها ويطمـــئن إلى حقيقتها النهائية بيقين مطلق؟ ألا يكون من المعقول القول بأن الأمور المقبولة اليوم على أنها حقائق صحيحة سوف تخضع للتساؤل والشك في الغد من أصحاب الفكر المتطور والمستنير؟

نعم.. إنه من المعقول أن تُثار هذه الأسئلة، ولكن إلى حد ما. فجميع أفكار الماضي لم تتغير بالضرورة في العصور التالية. هناك ما يفوق الحصر مـــن المفاهيم الإنسانية التي.. بعد أن مرت بفترة من التغير والتطور.. قد ثبتت أخيرا واستقرت في نهاية الأمر. وهناك الكثير من قوانين الطبيعة التي تم قبولها كحقيقة عامة شاملة، وظلت هكذا بدون جدال وبغير اعتراض. قـــد تكون هناك بعض التعديلات الطفيفة في المفهوم العام، ولكنها بقيت

عـــلى حالها بغير تغير. ولا يحتاج الأمر إلى نقاش فلسفي أو بحث علمي لإثـــبات حقيقـــتها وتقرير صحتها. وعلى مستوى العناصر الأولية للماء والـــنار والهـــواء والأرض، فقد استطاع الإنسان فهم خواصها الطبيعية بطريقة أفضل مع مرور الزمن حتى استقر هذا الفهم، و لم يحدث أي تغيير في فهـــم الخواص الأساسية في طبيعتها. فالنار لا تزال تحرق كما كانت تفعل دائما، والماء لا يزال يطفئ النار كعهده دائما. هذه الحقائق أساسية ومســـتمرة ودائمة مهما مر عليها الزمن. وعلى هذا لا يستطيع أحد في كامل قواه العقلية أن يتنبأ بأن الماء سوف يشعل النار ويُغذي اللهب. ومع ذلـــك فـــإن بعض النبوءات التي تكون من وحي الله تعالى لا تقل غرابة، باعتبار أنها تختلف اختلافا تاما عما هو سائد ومعروف ومستقر في أذهان الـــناس. فمثلا.. في العصور السالفة القديمة كان الأمر يقتضي وجود نبي حتى يتنبأ بنبوءة غريبة عجيبة تتعارض مع ما هو معروف ومألوف، فتقول إن يوما سوف ينبلج فجره فيرى الناس فيه الماء يشعل النار، بالإضافة إلى خاصـــيته في إطفـــاء النيران. ولا شك أن هذه النبوءة سوف تبدو نبوءة عجيـــبة، حيث يظهر من معطيات العصر وواقعه أنها لا يمكن أن تتحقق. ولكـــن إذا حـــدث فيما بعد أن تم اكتشاف عنصر الصوديوم، وبدراسة خواصه تبين تحقق النبوءة بتفصيلها، وأن إضافة الماء إلى الصوديوم يتسبب في اشتعاله، فحينئذ لا يحق لأحد أن يستبعد صحة مثل هذه النبوءة ويعتبر أنها مجرد ثرثرة عرّاف أو هذيان متكهن. وستظل خاصية الصوديوم الغريبة هـــذه بعد اكتشافها ضمن الحقائق العامة التي لا تتغير، ولا يتوقع أحد أن يوما سوف تبزغ شمسه حين تتغير خواص الصوديوم فلا يعود الماء ليسبب اشتعاله. وإذا جال الإنسان ببصره فيما حوله بنظرة ثاقبة، فسوف يندهش للكم الغزير من المعلومات التي صارت حقائق لا تتغير ولا تقبل الشك أو الجدل.

وكذلـــك الحال في القوى الحسية لدى الإنسان.. قد يتسع نطاقها،

ولكـــن إدراك ما هو حلو المذاق وما هو مر، وما هو لذيذ الطعم وما هو كـــريه، والإحساس بالحرارة أو بالبرودة، وسماع الضوضاء أو السكون، والإحســـاس بالراحة أو التعب، والشعور بالألم والسعادة، وجم غفير من المؤثرات الحسية الأخرى.. لن يطرأ عليها أي تغيير تحت الظروف العادية. إن استقرار مثل هذه الأمور يمكن تصنيفه على أنه يمثل المرحلة الأولية من مـــراحل الـــيقين. والمرحلة الأعلى نسبيا من اليقين تتعلق بمجال البحث العـــلمي. وهنا أيضا نستطيع أن نجد أمثلة على الاتفاق التام بين العلماء عـــلى العديد من الحقائق التي استقرت وصارت عامة ومقبولة عالميا من الجمـــيع في كـــل مكان. فمثلا.. لقد استقر الأمر فيما يتعلق بالتركيب الكـــيماوي للماء، وليس هناك من رأيين في هذا الموضوع. ولا يستطيع أحد أن يزعم بأنه مع مرور الوقت وكرّ الزمان.. فإن القانون الكيميائي لـــلماء ســـوف يتغير إلى قانون جديد سوف يُكتشف في مستقبل الأيام ليحل محل القانون الحالي، أو أنه سوف يكون يد٣أ٥ بدلا من يد٢أ.

ومـــن الواضـــح أن هـــناك حدودا لإمكانات وقوع التغيير في فهم الإنسان لما حوله من الأشياء. ولكن الكم الأكبر من المعارف العلمية، بعد أن تثبـــت وتســـتقر، تظـــل في جوهرها على نفس الحال إلا من بعض التحسينات البسيطة الهامشية. كيف ترتبط الذرات بالذرات، والجزيئات بالجزيئات، أيٌّ الروابط ضعيفة وأيها قوية نسبيا، وما هي كيفية استخدام هـــذه المعلومات لتخليق مواد كيميائية جديدة.. كل هذه أمور مفهومة جـــيدا. واســـتمرار تدفـــق معلومات جديدة لن يغير من الأنماط الثابتة لسلوكها. إن نمو وتزايد معارف الإنسان في هذا المجال من البحث لا يمثل أي تحـــد للأساسيات المستقرة والمقبولة عالميا. ومن هنا يتضح أن حقيقة أي أمـــر من الأمور التي ذكرَتها الكتب المقدسة يمكن التحقق منها بقدر كـــبير من اليقين حين مقارنتها بالمعلومات المادية التي ثبتت صحتها على طول الزمان.. عصرا بعد عصر.

وأيضا هناك أشياء صارت من اليقينيات.. ليس لأنها اجتازت اختبار الـــزمن لوقت طويل، بل لأن حقيقتها يمكن إثباتها عالميا. وجميع الأفكار والاكتشافات الجديدة التي تتعلق بقوانين الطبيعة وسلوك المادة تأتي كلها تحت هذا النسق، بعد أن تثبت صحتها من خلال إجراء التجارب المعملية علـــيها في أنحاء كثيرة من العالم. إننا نقصد مثل هذه الحقائق الثابتة حين نشـــهد على صحة الدعاوى الروحية بأن نعرضها على محك الاكتشافات العلمية.

وحسب هذا الشرح والبيان، نقول إن الوحي القرآني قد ثبتت صحته على الدوام، وحينما تثبت صحته يظل دائما صحيحا، و لم يحدث أبدا أن ظهر خطؤه. إن الدور الذي يقوم به الوحي القرآني جد عجيب، خاصة فيما يتعلق بنقل المعرفة من نطاق عالم الغيب إلى عالم المشاهدة، وسوف نستفيض في شرح هذا الموضوع تحت أبواب مختلفة في الفصول القادمة إن شـــاء الله. أمـــا الآن.. فنعود إلى النقاش العام الذي يتعلق بتوسيع نطاق المعرفة لدى الإنسان.. والمراحل التي تمر بها الأفكار الجديدة إلى أن تصبح حقـــائق مطلقـــة. فعندما تنبثق فكرة جديدة من نطاق عالم الغيب، فإنها دائمـــا تخضـــع لاختبار الفكر والعقل، وأيضا لاختبارات التجربة العملية كـــلما كان ذلك ممكنا. وبعد أن تنجح هذه الاختبارات، على مر الزمن ومـــع كـــر السنين وإزاء تعاقب العصور، يمكن حينئذ تصنيفها على أنها حقيقة مطلقة.

هـــذه ظاهرة عامة تعمل على الدوام وبغير انقطاع في كل مجال من مجـــالات الحـــياة الإنسانية. فنحن لا نتحدث هنا عن تأكيدات منطقية (theses) أو عـــن منطق مضاد (antitheses)، وهما المصطلحان الفلسفيان اللـــذان استعملهما كانط (Kant) تعبيرا عن الأفكار العظام ذات الأهمية الشاملة؛ وإنما نحن نتحدث عن ظاهرة مستديمة.. رحيبة الإدراك.. شاملة الاستيعاب.. تتعلق بالحنكة الإنسانية، وانطباعاتها، ومدركاتها في كل يوم

مـــن أيام الحياة. إنها عملية شاملة جامعة ومستمرة مثل التطور، تراكمت خلالهـــا طبقة فوق طبقة من الحقائق المستقرة والمشهود لها، واستمرت في رفـــع مســـتوى المعارف الإنسانية التي يمكن الاعتماد عليها، وفي توسيع نطاق الإدراك الإنساني للحقائق المحيطة. إنها هذه الظاهرة الفاعلة الشاملة التي تظل على الدوام تُحَوّل الشكوك إلى مستحسنات، والمستحسنات إلى محتملات، ثم تحول المحتملات إلى حقائق ثابتة ويقينيات. فإذا شهدت هذه المعارف الإنسانية الموثوق بها على صحة الوحي الإلهي بشهادة موضوعية، فلا مبرر حينئذ ولا حجة لجعْل ذلك الوحي عرضة للشك والريبة.

إن الغيب يختص بجميع الأزمنة.. الماضية، والحاضرة، والمستقبلة على السواء. ولا يحصر القرآن نفسه في أي من هذه الأزمنة حين يكشف عن أســـرار الغيب. فهو يغطي جميع الأزمنة بوضوح متكافئ، كما أنه لم يبق عـــلى خط يفصل بين الماضي والحاضر، وبين الحاضر والمستقبل. فبعض الوقـــائع الموغلة في القدم.. والتي تعود إلى ميلاد الكون مثلا، قد أعيدت إليها الحياة لتبدو أمام الرؤية الإنسانية وكأنها أحداث معاصرة، بينما وقائع أخرى في أغوار المستقبل البعيد.. مثل غوص الكون في ثقب أسود، قد تم وصفها وكأنها كانت تحدث أثناء نزول القرآن.

كذلك.. وبنفس الدقة والإحكام.. تنكشف أسرار خلق الحياة ومآلها النهائي. إن القرآن يقص تاريخ الإنسان ويسجل رحلة التقدم والإنجازات الإنســـانية مـــرحلة بعـــد أخرى من البداية إلى النهاية. وهو يفعل ذلك بوضوح كامل، ومهارة فائقة، وكفاءة متميزة. ولا غرو.. فإن القلم الذي دَوَّن القـــرآن كانـــت تمسكه يد العليم البصير الذي كتب ما رآه علمه محفورا على صفحة الأزل الواسعة. وهذا هو كل مضمون ومحتوى كتابنا القرآن.

ولكن قبل أن نتقدم وننتقل إلى الحديث عن كيف أن عصور التقدم العـــلمي والاجتماعي والسياسي للإنسان قد شهدت على حقيقة وصدق

القرآن، نود أن نلفت أنظار القارئ إلى حقيقة هامة.. وهي أن مصداقية الوحـــي الإلهي لا تتوقف بالضرورة على الدلائل الدنيوية وحدها، إذ بين جمـــيع الحقائق التي يأتي بها الوحي الإلهي.. هناك حقيقة تقف متميزة عن جميع الحقائق الأخرى، وتُسمى "***البيّنة***". وللحديث عنها ننتقل إلى الفصل التالي.

المراجـــــــع

1. BAUCAILLE, M. (1979) *The Bible, The Qur'an and Science.* BB Books & Books, Lahore.
2. MOORE, K. L., PERSAUD T.V.N. (1993) *The Developing Human: Clinically Oriented Embryology.* 5th ed., W.B. Saunders Company, Philadelphia
3. MOORE, K. L., (1986) *A Scientists Interpretation of References to Embryology in the Holy Quran.* Journal Islamic Medical Association of the United States and Canada. 19:15-16.

الفصل الرابع

البيّنة - الحقيقة الواضحة
القيّمة - التعاليم الدائمة

البيّـــنة.. مصـــطلح قـــرآني ينطبق على الحقيقة الواضحة التي تتميز بصفاتها المتألقة والمبهرة، وكأن الشمس قد بزغت وبددت الظلمة. وتظهر البيّـــنة مـــع ظهـــور جميع أنبياء الله ورسله، الذين تبدأ بظهورهم مرحلة جديدة من النور والضياء والتنوير. والبيّنة لا تتعلق ببداية الإسلام وحده، وإنمـــا تتعلق ببداية جميع التجليات الربانية والرسالات السماوية. وعندما يـــأتي رسول من عند الله تعالى ليحدث ثورة روحية في المجتمع، فإنه هو نفسه يكون تجسيدا للبيّنة التي يأتي بها.

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ (٩٨ البيّنة:٤)

القيّمة.. مصطلح آخر يُعبر عن ذلك الجزء من تعاليم النبي التي تشكل لب كل دين، والتي تتميز بصفة الدوام وتتحدى كل تغيير. وجميع رسل الله ﷻ.. حســـب مـــنطوق سورة البيّنة (رقم ٩٨) يأتون بنفس الأصول الموجـــودة في كل دين. وهذا يعني أن آدم ؑ، وهو الرسول الأول من الله تعـــالى، لم يكن يختلف في هذا الشأن عن أي رسول آخر ممن جاءوا بعـــده. والقـــيّمة هي الرابطة وحلقة الوصل بين جميع الأديان السماوية. وحسب ما تُبيّنه سورة البيّنة.. فإن دين آدم ؑ، أول الأنبياء، لا بد أن يكـــون في توافق تام من ناحية الأسس والأصول مع دين محمد ﷺ وهو آخـــر النبيين الذين أنزل الله عليهم شريعة من لدنه. ورغم هذا التوافق..

فقـــد تكون هناك فروق واسعة بين تعاليم وشرائع الأديان القديمة وتعاليم الأديـــان المـــتطورة التي تلتها في العصور المتعاقبة. ووجود الاختلاف في التفاصـــيل، رغم وجود اتفاق في الأسس، لهو في الواقع سمة حقيقية من سمـــات التطور. فمثلا.. في عالم الحيوان، ينطبق لفظ الثدييات على جميع الحـــيوانات مـــن ذوات الدم الدافئ، والتي تتشابه جميعا في أن لها عمودا فقـــريا وأطرافا. إلا أنها جميعا لا تتطابق تماما في التشابه، فالأغنام تختلف كـــثيرا عن البشر، وتختلف القطط عن القردة، رغم أنها جميعا تنتمي إلى نفس الفصيلة من الثدييات. وبالمثل.. استمرت الأديان في التطور حسب متطلـــبات الـــزمان ومقتضـــيات المكان وحوائج الأقوام التي نزلت لهم، فاكتسبت ألقابا وأسماء جديدة دون أن تتغير في جوهرها وأسسها. وتظل القيّمة دائما هي حلقة الوصل بينها.

والبيّـــنة كما أوضحنا فيما سلف ليست وصفا فحسب للحق الذي يأتي به النبي، ولكنها أيضا وصفا لصفاته الشخصية وأخلاقه الذاتية. فإن صـــدقه يكون من الوضوح بمكان حتى إنه قبل أن يعلن عن دعواه بكونه مـــبعوث الســـماء فإن المجتمع.. الذي وُلد بين جنباته ونشأ في ربوعه.. يشـــهد بالإجماع على صدقه. ولكن البيّنة لا تقتصر على هذا فقط، فإن صدق النبي المدعّم بالآيات السماوية، يصير من الوضوح بمكان.. حتى لا يـــبقى لـــدى المجتمع سبب معقول لإنكاره. ونفس هذا الصدق الواضح الـــذي لا يمكن إنكاره، والذي يُشكل دليلا بيّنا على كونه بالفعل مبعوثا مـــن عند الله تعالى، فإنه يكون أيضا.. ويا للسخرية ويا للعجب!.. هو سبب العداوة الشديدة والمقاومة الغليظة ضده، وخاصة من سدنة وكهنة النظام القديم في زمنه. وهم يرفضون قبوله لأنهم يرون فيه فجر يوم جديد لظهـــور الحق. وإذا سمحوا لهذا الفجر أن ينبلج، فإنهم سوف يفقدون في نـــوره زعامـــتهم وسيطرتهم على الجماهير، وبذلك ينهار النظام القديم لســـلطتهم الدينـــية. وهـــذا التهديد القوي لوجودهم كطبقة منتفعة من

وظيفـــتها.. هو الذي يدفعهم إلى أن يتناسوا خلافاتهم التي تمزق صفوفهم وأن يقفـــوا جميعا في جبهة واحدة للمقاومة بكل الوسائل، مهما تدنت هـــذه المقاومة واتصفت بالخسة والضعة. وحينما تفشل كل الضوضاء، وصـــيحات التهديد بالويل والثبور وعظائم الأمور، التي يطلقونها لإخافة النبي.. تماما كما تفشل صيحات القردة في إخافة الفهد.. فإنهم لا يجدون في جعبتهم من وسائل سوى اللجوء اليائس إلى العنف والقتل والإرهاب، ولكـــنهم رغم كل قوتهم وجميع جهودهم لا يستطيعون أبدا أن يهزموا البيِّـــنة. فـــإن قدرة البيّنة على الفوز والانتصار ليس في مجرد كونها تتميز بالحق والصدق فحسب، بل الأكثر من ذلك أن الله مالك الملك.. القويّ الأعظـــم تبارك وتعالى.. يؤيدها وينصرها. وهذا التأييد الذي تلقاه البيّنة يسمو عن الزمان، ويعلو عن المكان، ولذا فهي دائما وأبدا تسود وتنتصر في نهاية الأمر، وتصير هي المبدأ الراسخ الذي تدين به الأغلبية من الناس. وكون المرء في جانب البيّنة يعني أنه في جانب الحياة، وكونه على الجانب المعاكس لها يعني الهلاك والدمار.

والبيّـــنة ليست من طراز الحقيقة المطلقة (absolute truth) التي تشكل موضـــوعا للمناقشـــات الفلســـفية، ولا هي تشبه انبثاق الأفكار المحضة (absolute ideas) الـــتي تنضـــج وتتطور تدريجا بعد أن تنجح في مواجهة تحديات العصور المتعاقبة. إن صفة الذكاء والإبهار التي تتمتع بهما البينة إنما تتلقاهما من الوحي الإلهي منذ بدايتها.

كذلـــك فـــإن كلمة البيّنة لها مدلولات أخرى. فهي تعمل كظاهرة دافعة تعمل على زيادة الإيمان والتقدم الروحاني، وهي ليست شيئا خاملا، ولكـــنها مـــتجددة ومـــتطورة.. بل هي عصب التطور والتقدم. وجميع حـــركات الأنبـــياء تنبثق وتنبع من البيّنة. والبينة مشتقة من مصدر يعني "التمييز" أيضا، وهذا المعنى مشترك بينه وبين مصطلح آخر وارد في القرآن الكـــريم وهو "البيان". والبيان هو القدرة على الكلام الذي له قوة التمييز

بين معنيين، ويستطيع التعبير عن الفكر الإنساني بأسلوب واضح. والجدير بالانتباه أيضا أن "البيان" مثل "البينة"، مصدره هو الله ﷻ كما ذكر ذلك القرآن الكريم في الآية التالية:

﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (٥٥ الرحمن:٤-٥)

وعلى هذا يتبين بجلاء أن القدرة على الكلام هبة من عند الله تعالى، أنعم بها سبحانه على الإنسان، الأمر الذي يعني بالضرورة أن اللغة الأولى التي تعلمها الإنسان هي اللغة التي علمه الله بنفسه إياها. وفي ضوء هذه الحقيقة نتبين أن قدرة الإنسان على الكلام ليست مبهمة كما كان من المفروض أن تكون لو لم يعلّمها اللهُ تعالى الإنسانَ. إن القدرة على الكلام هي التي تفصل بين الإنسان والحيوانات الأخرى بفاصل كبير واسع، لم تستطع نظرية التطور توضيحه مهما اتسع نطاقها. وعلى هذا فإن البيان، أي القدرة على الكلام، لا بد وأن يكون هبة الوحي الإلهي.

وهكذا.. إن كلا من البيان والبيّنة له نفس المصدر المشترك، ولكليهما أيضا نفس القدرة على التمييز بين الحق والباطل. ورغم هذا التشابه.. فإن هناك فارقا متميزا بين الاثنين. فبينما يرتبط البيان على الدوام بالتعابير اللفظية، فإن البيّنة ليست محصورة في التعابير اللفظية وحدها. نعم قد يحدث أحيانا أن تحمل البيّنة بعض التعبيرات اللفظية أيضا، ولكن في أحيان أخرى تظهر البيّنة وتتجلى بغير وسيلة الكلام. ويشبه هذا التجلي الصامت للبيّنة تألُّقَ ولمعان شمس الظهيرة التي تستنير بضوئها جميع التعاليم السماوية الأزلية. وبينما هي من ناحية تستمد قوتها من الله تعالى، فإنها من ناحية أخرى تمد العون والتأييد لمن يميل إليها ويستند عليها.

والمصطلح الآخر وهو "القيّمة" ينطبق على جميع التعاليم الأساسية التي تتميز بخاصية الدوام. وعند ذلك يبدو أن المصطلحيْن يندمجان في معنى واحد. والتعبيرات الفلسفية عن المطلق أوالشمولية الجامعة للقيم يمكن

أيضا أن تنطبق تماما على القيم التي عُبّر عنها بالقيّمة في المصطلح الديني. ولكن السؤال الذي يجب أن نبحثه الآن من زاوية دنيوية خالصة هو ما إن كانت هناك أفكار أو قِيَم يمكن في الواقع أن توصف بأنها مطلقة أو أنها شاملة جامعة. إن جميع المفكرين البارزين تقريبا ممن ينتمون إلى مدرسة الاشتراكية العلمية يرفضون الحقيقة المطلقة للأفكار أو القيم كلية. وهم يفعلون هذا فقط لعدم التوافق بين الحقيقة المطلقة ورؤية ماركس للمادية الجدلية. ولكن تعاملهم اليومي مع حقائق العالم المادي المحيط بهم لا يجعل لهم أي تبرير لرفضهم الكامل لفكرة الحقيقة المطلقة.

إن الليل يتبع النهار، والنهار يخلف الليل. النار تحرق.. والماء يطفئ النار. إحساسنا بالبرد والحرارة، بالحزن والفرح، شعورنا بالجوع والشبع، بالعطش والارتواء، ومئات المشاعر والمدركات الأخرى لا تحتاج إلى عالم فطين مكين لإثبات وجودها وحقيقتها. إن هذه الأمور جميعها وببساطة شديدة موجودة بلا تغيير، وبدون اعتراض، وبغير حاجة إلى وسيط يبرهن لنا على كينونتها ويثبت لنا وجودها. وهذا الوجود المطلق متصل اتصالا دائما بقدرة الإنسان على الإدراك. إن فكرة الليل والنهار تتطلب وجود البصر لإدراكها، ولكن ماذا عن هؤلاء الذين سُلبت قدرتُهم على الإبصار؟ إن إدراكهم للأمور لا بد أن يختلف بالنسبة لأولئك الذين ينعمون بقدرة على الإبصار. وهذا قد يثير الشك في أن ما نعتبره من المدركات الأولية البسيطة قد يكون نسبيا في طبيعته. وهناك بون شاسع بين أقصى الطرف الذي يقوم على الشك، والطرف الآخر الذي هو اليقين المطلق. وكل من الشك واليقين قد يتحرك في أي جهة فيقل الشك إلى أن ينعدم ويتحول إلى يقين ثم يكون يقينا مطلقا، أو يشوب اليقين المطلق شائبة فيفقد إطلاقه، ثم يقل اليقين إلى أن ينعدم ويتحول إلى شك، وهكذا. وكل هذا يتوقف على مدى وضوح الرؤية لدى الرائي ومدى الضوء المتاح له. ولكن هذه الشكوك تنبت في بعض الحالات الخاصة

فقط، وعند مقارنتها بالقدرة العامة الشاملة للرؤية لدى جميع الناس، فإنها لا تُشكل سوى نسبة قليلة ضئيلة لا وزن لها، مما لا يغير شيئا من الإدراك العام الْمُجمع عليه.

و لم يصل الإنسان إلى هذه المرحلة من اليقين فيما يتعلق بهذه الأمور الأولية البسيطة فقط، بل هناك الكثير من الأمور الأكثر أهمية والأشد تعقيدا يمكن أن توصف بأنها مطلقة أيضا. فمعظم معلوماتنا المتقدمة في الكيمياء والفيزياء اليوم تنتمي إلى هذه المجموعة. وهي تنمو باضطراد بلا شك، وغالبا ما تكون بغير تناقض مع المفاهيم المعروفة سابقا والقائمة على الحقائق العامة. نعم قد تحدث بعض التعديلات والتغييرات ولكن في القشور فقط وليس في اللب والجوهر. ولا يُلقي الظن أبدا بظلال الشك على مجموعة الحقائق الأساسية التي ثبتت صحتها، وإنما يحدث ذلك فقط في بعض المجالات المحدودة والمحصورة من البحوث المتقدمة. وبالتالي فمن الممكن استنتاج بدون تردد أنه على الأقل في المجال الدنيوي، فإن فكرة المطلق ليست سليمة فحسب، بل هي حقيقية يقينية مضطردة. أما في أمور الإيمان والمعتقد، فلا يمكن ادعاء نفس الشيء. إذ من الصعب العسير، إن لم يكن من المستحيل، للمؤمنين تحديد خط فاصل بين ما هو حق وما هو خيال في معتقداتهم. وفي أغلب الأحيان يشب هؤلاء في مجتمع أو في وسط يؤمن بهذه المعتقدات، وقبل أن تكون لديهم القدرة على الحكم والتمييز بين ما هو صحيح وما هو باطل في معتقداتهم، فإن هذه المعتقدات تصير جزءا متكاملا من الإيمان لديهم. والقلة القليلة التي تستيقظ من سباتها العميق، وتخرج من إسار الغفلة، وتجرؤ على التفكير بعقلانية.. إنما تفعل ذلك على حساب المعتقدات الدينية السائدة والشائعة، غير أنهم نادرًا ما يعترفون بذلك علانية، بل يستمرون في ارتداء نفس الجلباب تحت نفس المسميات، حتى إنه رغم أنهم فقدوا إيمانهم بما هو شائع، فإن دينهم يبقى كرمز للوحدة فحسب. وهذا بكل أسف هو حال

ومـــآل جمـــيع الأديان التي تنكر استعمال العقلانية، أو تستنكر أن يكون للعقلانية أي دور في آليات الحكم على صحة وحقيقة معتقداتهم.

وعودة إلى مناقشة موضوع الانتقال المتزايد والمستمر للمظنونات إلى يقينـــيات، واليقينـــيات إلى حقائق مطلقة.. لا بد أن نعترف بأن نفس الحقيقة العامة.. أي أن كل شيء خاضع للتغيير.. قد أدى ببعض الفلاسفة إلى الندم على فكرة "الحقيقة المطلقة". فليس من استنتاج يمكن أن يكون مطلقـــا وخاليا من تأثير التغيير الناتج عن عامل الزمن والقدرات المتباينة للـــرائي. وإذا جاز قبول هذا المنطق، فلا بد حينئذ من إنكار كل حقيقة، ورفض كل شيء، باعتبار أنه من المحتمل ألا يكون صحيحا. وبالتالي فلا نؤمن بشيء على الإطلاق. إن مثل هذه الفلسفة تؤدي إلى كارثة كاملة في الحـــياة اليومية. فبأي مقياس يُعتمد عليه بشيء من اليقين يمكن الحكم عـــلى أن الهاويـــة الـــتي يراها الإنسان عند طرف جبل شاهق هي فعلا هاويـــة.. يقيـــنا؟ وبأي معيار يمكن للمرء أن يكون على يقين بأن الحية الســـامة الـــتي تعترض طريقه هي في الواقع ما يبدو في الظاهر؟ إن جميع الأحـــوال التي تهدد الحياة وسلامتها.. نجد أنه حتى أكثر المتشككين ريبا سوف يقبل حكم الخبرة الإنسانية العامة. وهذه الخبرة الإنسانية العامة هي الـــتي تتقدم على الدوام والمثابرة في اتجاه المعرفة المطلقة، وعند كل مرحلة زمانـــية لا بد من قبول حكمها. وليكن اسمها احتمالا إن لم يكن مطلقا، ولكـــن لنـــتذكر أن هذا الذي يُسمى احتمالا.. هو الذي يحكم المصير الإنســـاني بصلابة مطلقة. فليس من المعقول أن ينكر الإنسان ما يبدو أنه حقيقة.. خشية أن يثبت زيفه في المستقبل.

ومع كل ذلك، فإن معظم المدركات قد نضجت وتأصلت في عملية الارتقاء المعرفي لدى الإنسان، حتى إن يد التغيير أو الشك لا تستطيع أن تـــنال مـــنها بعد ذلك. كذلك فإن تصرف ومسلك الكثير من القوانين الكيميائـــية والفيزيائـــية، بعد أن تم فهمها، فإنها تظل على ما هي عليه.

وجهلنا لبعض كيفيات عملها لا يُفسد ولا يُغير العلوم التي اكتسبناها في معظـــم مجالات عملها. وبالرغم من حقيقة أن حركة الأجرام السماوية وقوانـــين الجاذبـــية قـــد صارت معروفة إلى أدق تفاصيلها المدركة، فإن مفاهيم نيوتن لقوانين الحركة لا تزال سارية وفعالة في نطاقها. وعلى هذا فـــإن قوانين حركة الأجرام السماوية هي قوانين مطلقة كما كانت دائما في نطـــاق عملها وفاعليتها. وقوانين الحركة في الجزيء الذري هي أيضا مطلقـــة في نطـــاق عالمها المتناهي في الصغر. وعلى ذلك فلا تعارض ولا تـــناقض بين القوانين التي تحكم الكون والقوانين التي تحكم عالم الجزيء والـــذرّة. إن مجالهمـــا مخـــتلف والنطاق الذي تعمل فيه كل منها يختلف أيضـــا.. وما اكتشفه الإنسان ليس سوى أن قوانين نيوتن للحركة تنطبق على الكون فقط. وكلا النوعين من القوانين قوانين مطلقة، وهي موجودة بصـــورة مستقلة بصرف النظر عن قابلية الإنسان أو عدم قابليته لفهمها. وعلى هذا.. فإن الحقائق المطلقة ليست مجرد نتاج للعقل الإنساني أو من صـــنع خياله، بل إنها موجودة بصورة مستقلة بغير أن تعتمد في وجودها على وجود الإنسان نفسه.

وحـــين نعـــود إلى أقوال القرآن المجيد فيما يتعلق بموضوع العقلانية وتأثيرهـــا على الحقائق الدينية، فإننا نلفت أنظار القارئ إلى الآيات التالية من القرآن المجيد التي تنفي تماما كل احتمال لوجود أي تناقض في الكون الذي خلقه الخالق ﷻ:

﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَـــرَى مِنْ فُطُورٍ ۞ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (٦٧ المُلك:٤-٥)

كذلك فإن القرآن المجيد يؤكد على عدم وجود أي تناقض بين كلام الله تعالى، كما يقول ﷻ:

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ (٤ النساء:٨٣)

إن كلام الله الذي هو الحقيقة الموحى بها، وخلْقَ الله الذي هو الكون المادي، يجب أن يكونا في توافق كامل بعضها مع بعض. وعلى ذلك فإن الوحي الإلهي لا يمكن أبدا أن يتناقض مع قوانين الكون الطبيعية، فكلاهما ينبعان من منبع الحكمة الأزلي ﷻ. والاستبعاد التام للتناقض إنما هو طريق آخر للموافقة على حُرمة مبدأ العقلانية وتأييده.

وعلى هذا.. حينما وحيثما كان مجال فهم العلماء التجريبيين للكون المـــادي صحيحا، فإنه من المستحيل لكلام الله تعالى أن يناقضه. والعكس أيضـــا صحيح. وبالتالي عندما نشاهد اتفاقا كاملا تاما بين الاثنين، فإن نوعية حقيقتهما المطلقة تصير مطلقة على أوسع نطاق.

وفي ضـــوء كل ما سبق.. نكون الآن على استعداد لتناول موضوع الوحـــي القـــرآني، واختبار مدى مصداقيته على محك العقلانية والفكر.. موضوعا بعد موضوع.

الفصل الخامس
القرآن وعلم الكونيات

في الزمن الذي أُنزل فيه القرآن.. كان الفهم الإنساني لطبيعة الكون وحــــركة أو سكون الأجرام السماوية.. فهما بدائيا مُبهما إلى حد كبير. غير أن هذه الحال لم تستمر حتى الآن، فقد تقدمت معلوماتنا عن الكون تقدما عظيما، واتسع رحابها اتساعا كبيرا في الزمن المعاصر.

وقـــد ثبتـــت صحة بعض النظريات التي تتعلق بخلق الكون وصارت حقـــائق، بينما لا يزال البعض الآخر قيد البحث والتحقيق. وتنتمي فكرة تمـــدد الكون إلى الصنف الأول، فقد باتت مقبولة عالميا في المجتمع العلمي باعتبارها "حقيقة". وقد تم هذا الاكتشاف لأول مرة في العشرينيات من القرن العشرين بواسطة إدوين هابل (Edwin Hubble). ومع ذلك.. فمنذ مـــا يـــزيد عن ثلاثة عشر قرنا قبل هذا الاكتشاف، جاء في القرآن بكل وضوح قوله تعالى:

﴿وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٥١ الذاريات: ٤٨)

ويجب أن نتذكر أن التصريح بفكرة التمدد الدائم للكون وقْفٌ على القرآن المجيد وحده فقط، إذ أن الصحف المقدسة الأخرى لم تذكره ولا حتى بإشارة عابرة. واكتشاف أن الكون يتمدد بشكل ثابت أمر ذو أهمية بالغة بالنسبة للعلماء، إذ أنه يساعد على فهم أفضل عن كيفية بداية خلق الكـــون. ويشرح القرآن بوضوح عملية الخلق مرحلة بعد أخرى بشكل يـــتفق تماما مع نظرية الانفجار العظيم. بل إن القرآن يذهب إلى أبعد من هذا فيصف الدورة بأكملها.. بداية الكون ثم نهايته، ثم إعادة البداية مرة

أخـــرى. والخطـــوة الأولى في عملية الخلق كما جاءت في القرآن المجيد تصف بكل دقة واقعة الانفجار العظيم في الكلمات التالية:

﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾

(٢١ الأنبياء: ٣١)

ولهـــذه الآية مدلول خاص، إذ أنها تتوجه إلى "الذين كفروا"، وربما يتضـــمن هذا أن كشف النقاب عن السر المذكور سوف يتم على أيدي الذين كفروا، وسيكون آية لهم على صدق القرآن الحكيم.

إن كلمة ﴿رَتْقًا﴾ في الآيـــة الكريمة، أي الكتلة المســـدودة، وكلمة ﴿فَفَتَقْـــنَاهُمَا﴾، أي شـــققناهما شـــطرين، يحملان المعنى الأساسي للآية بأكملها. والمعاجم العربية[١] الموثوق بها تعطي معنيين لكلمة ﴿رَتْقًا﴾ لهما أهمـــية كبرى للموضوع قيد المناقشة. أحد المعنيين هو: "التقاء شيئين ثم اندماجهما فيما بعد في كيان واحد". والمعنى الثاني هو: "الظلام الكلي". وكل من المعنيين ينطبق بشكل عام على الظاهرة الفلكية الفريدة المعروفة بالثقـــب الأســـود، وحينما يجتمعان معا فإنهما يعطيان وصفا دقيقا لتفرد ظاهرة الثقب الأسود.

والثقـــب الأسود عبارة عن كتلة من المادة ذات حجم هائل، وقد انسحقت بعضها على بعض بفعل الجاذبية الشديدة. وهي تبدأ بانسحاق الـــنجوم ضخمة الحجم، التي يزيد حجمها على حجم الشمس* بخمس عشـــرة مـــرة أو مـــا يزيد. وتؤدي شدة الجذب الهائلة إلى داخل الثقب الأســـود إلى أن تنســـحق النجوم إلى أحجام أكثر صغرا. ويسبب تعاظمُ شـــدة الجـــذب المروعة هذه انهيارا متزايدا لكتلة المادة كلها فيما يسمى

* حجم الشمس يزيد على حجم الأرض مليون مرة. (المترجم)

بالـــنجم فوق المستعر# أو السوبر نوفا (Super Nova)، وفي هذه المرحلة تبدأ اللَبِنُ الأساسية للمادة، مثل الجزئيات والذرات وغيرها، في الانسحاق الشـــديد حـــتى تـــتحول إلى كتلة غريبة من الطاقة يصعب وصفها أو تصـــنيفها. وبذلـــك تقع تلك اللحظة في المكان والزمان التي تسمى أفق الحـــدث (event horizon)، وتـــزداد قوة الشد إلى الداخل بسبب القوة الجاذبية الهائلة فتنجذب جميع أنواع الإشعاعات إلى الداخل، وحتى الضوء لا يســـتطيع الإفلات من هذه العملية، مما ينتج عنه ظلام كلي. ومن هنا جـــاءت تسمية الثقب الأسود، مما يُذَكر المرءَ بكلمة ﴿رَتْقًا﴾ التي ذكرها القرآن المجيد، والتي تعني الظلام الكلي. وتُسمى هذه الظاهرة باسم الإفراد (singularity)، وهي حالة تتجاوز أفق الحدث.

وما أن يتكون الثقب الأسود حتى يظل يتنامى سريعا، إذ أن النجوم تنجذب إليه، وحتى تلك البعيدة عنه نسبيا، مما ينتج عنه تزايد تركيز طاقة الجاذبية. ويُقدّر العلماء أن كتلة الثقب الأسود يمكن أن تزداد حتى تصل إلى ما يبلغ مائة مليون مرة قدر كتلة الشمس. وكلما اتسع مجال الجاذبية لديـــه كلما انجذبت إليه كتل أخرى من أديم السماء تصل سرعتها إلى ما يقرب من سرعة الضوء. وفي عام ١٩٩٧ تبين بالملاحظة ما يدل على أن في مجرتنا ثقبا أسود يزيد حجمه على حجم الشمس مليونَي مرة. غير أن الحســـابات الأخرى تبين أنه يمكن أن تكون في هذا الكون ثقوب سوداء تصـــل كتلـــتها إلى ثلاث مليارات مرة قدر كتلة الشمس[٢]. وعند هذا التركـــيز الشديد تزداد قوة الجذب بدرجة مروّعة حتى إن النجوم البعيدة تـــترنح وتفقـــد مسارها حتى يلتهمها هذا العملاق الشره. وبهذا تكتمل عملية ﴿رَتْقًا﴾ وتسفر عن عملية الإفراد، والتي ينتج عنها كل من المعنيين لهـــذه الكلمة، أي التقاء شيئين يندمجان في كيان واحد، وأيضا ينتج عن ذلك ظلام كلي.

النجم المستعر نجم يشتد ضياؤه فجأة بسبب انفجاره ثم يخبو تدريجا. (المترجم)

وأما فيما يتعلق بالإجابة على السؤال عن كيفية الخلق الأول للكون، فــإن أحــدث نظريــتين في هذا الخصوص منبثقتان عن نظرية الانفجار العظــيم. وتقول هاتان النظريتان أن الكون بدأ من حالة إفراد انفجرت فجأة وأطلقت عنان الكتل المنسحقة داخلها فنشأ كون جديد من خلال أفــق الحــدث. وهذا البزوغ للضوء الذي ينبت من أفق الحدث يسمى "الثقب الأبيض"[٣،٤]. وإحدى النظريتين فيما يتعلق بتمدد الكون تقول بأن الكــون المخلوق بهذه الطريقة يظل في تمدده إلى الأبد. والنظرية الأخرى تقــول إن تمدد الكون سوف يصل في وقت من الأوقات إلى نقطة معينة يبدأ عندها في الانكماش مرة أخرى، وذلك لتغلب قوة الجذب على القوة الطاردة الناجمة عن الانفجار. وفي نهاية المطاف سوف تنجذب المادة مرة أخــرى إلى الــوراء ربما لتُكَوِّن ثقبا أسود آخر بالغ الضخامة. ويبدو أن القرآن الحكيم يؤيد هذه النظرية الأخيرة.

فالقــرآن الحكــيم عــندما يتحدث عن الخلق الأول للكون يصف بوضــوح نهايته التي يؤول إليها في جوف ثقب أسود آخر، فيربط بذلك الــنهاية بالبداية. وبذلك تكتمل بالتمام قصة خلق الكون. يقول الكتاب العزيز:

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَآءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ...﴾ (٢١ الأنبياء:١٠٥)

والمعنى الواضح لهذه الآية الكريمة هو أن الكون ليس أزليا. فالآية تتحدث عن مستقبل تُطوَى فيه السماوات بشكل يشابه طي الورق الملفوف. والأوصاف المستخدمة في التعبيرات العلمية عن تكوين الثقب الأسود تشابه إلى حد كبير ما يصفه القرآن المجيد في الآية السالفة (انظر الشكل رقم ١).

إن الكــتل الهائلــة المتراكمة من أديم السماء، والتي تسقط في الثقب الأسود، سوف تنسحق كما ذُكر فيما سبق، حتى تصير في شكل صحيفة

رقـــيقة، وذلـــك بقوة ضغط الجاذبية الهائل والقوى الإلكترومغنطيسية. وحيث إن مركز الثقب الأسود في حالة دوران مستمر حول نفسه، فإن هـــذه الصـــحيفة الرقيقة تبدأ في الالتفاف حوله قبل أن تُبتلع وتختفي في النهاية في نطاق المجهول.

وتستمر الآية الكريمة فتقول:

﴿... كَمَـــا بَدَأْنَـــا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٢١ الأنبياء:١٠٥)

هنا في هذه الآية لدينا الوعد ببداية جديدة بعد الانهيار النهائي للكون في الثقب الأسود، إذ أن الله تعالى سوف يعيد خلق الكون كما خلقه من قبل. والكون الذي انهار سوف يبزغ مرة أخرى من طيات ظلامه الدامس، وتتكرر مرة أخرى عملية الخلق (انظر شكل ٢). إن هذا الطي والاندماج للكون، ثم التفتح والانتشار الذي يتلوه، ظاهرة مستمرة كما يبدو ذلك من آيات القرآن المجيد.

ولا شـــك أن هـــذه الفكرة التي يقدمها القرآن عن بداية ونهاية الكون فكـــرة معجـــزة رائعة. وما كانت لتقل روعة ولا إعجازا لو أوحي بها إلى شخص على جانب كبير من العلم في زمننا المعاصر. ولكن الإنسان ليعجب أشـــد العجـــب، ويندهش دهشة بالغة، أن هذه الأمور العلمية المتقدمة عن التكرار المستمر لظاهرة الخلق، قد أُوحي بها منذ أكثر من أربعة عشر قرنا إلى رجل أمّي من سكان الصحراء العربية.

القرآن والأجرام السماوية

والآن ننتقل إلى وجه آخر من أوجه الكون الذي يتعلق بحركة الأجرام السماوية. إن السمة التي تلفت الانتباه إلى هذا الوجه، تتعلق بالطريقة التي جـــاء بها وصف حركة الأرض، بغير الوقوع في تناقض ظاهر مع المفهوم

العـــام السائد في ذلك العصر. فكل علماء وحكماء ذلك الزمن كانوا في اتفـــاق عـــلى معتقدهم بأن الأرض ثابتة بينما الأجرام السماوية الأخرى كالشمس والقمر هي التي تدور حولها في حركة مستمرة. وفي ضوء هذه المعـــتقدات لم تكن حركة الأرض، كما جاء وصفها في القرآن المجيد، أمر واضـــح للقـــارئ العابر، ولكن بالنسبة للدارس المتفحص.. كانت رسالة القرآن واضحة مدوية. ولو كان القرآن قد وصف الأرض بأنها ثابتة، وأن الأجرام السماوية تدور حولها، فحينئذ.. رغم أن الناس في تلك الآونة لن يجـــدوا أية غضاضة في قبول هذه المعلومة.. إلا أن الناس في العصور التالية ســـوف يعتبرون أن هذه الجملة دليل واضح على جهل مؤلف القرآن، إذ ســـيكون لهـــم كل الحق أن يؤكدوا على أن مثل هذه الجملة لا يمكن أن تصدر عن الخالق الأعظم الذي هو أيضا العليم بكل شيء.

وبـــدلا من القول مباشرة إن الأرض تدور.. مثلها في ذلك مثل بقية الأجرام السماوية الأخرى التي يراها الناس.. الأمر الذي يؤدي حتما إلى صـــدمة معلوماتية للناس في ذلك الوقت، وليس من دليل يمكن استخدامه في ذلـــك الحين لإثبات هذه الحقيقة، فإن القرآن الحكيم استعمل أسلوبا حكيما في ذكر هذه الحقيقة حسب ما جاء في الآية التالية:

﴿وَتَـــرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (٢٧ النمل:٨٩)

فـــإذا كانت الجبال قد وُصفت بأنها في حركة مستمرة لأنها تمر مر السحاب، فإن الاستنتاج المنطقي الوحيد هو أن الأرض أيضا تدور معها. ولكـــن بســـبب الأسلوب القرآني المعجز، فقد مر هذا المعنى من دون أن يفطـــن إلـــيه أحد. لقد كان في اعتقاد الناس في ذلك الوقت أن الأرض ثابـــتة، وكـــان بقية الناس في العالم كله يشتركون في هذا المعتقد، وهو المعـــتقد الخاطئ الذي لم يُطرح على بساط البحث والنقاش، غير أنهم لو

كانوا قد قرأوا الآية إلى نهايتها بتمعن وبتحرر من تأثير مفاهيمهم الخاطئة لاتضحت لهم الحقيقة التي لم يكن لديهم الاستعداد بعد لقبولها، ولا كان لديهـــم الدليل العلمي على إثباتها. وتنتهي الآية بالثناء على قدرة الخالق العظيمة، فهو سبحانه الذي خلق الجبال في ثبات بحيث لا يمكن إزاحتها إطلاقـــا. والشيء الذي لا يُزحزح لا يمكن قلعه من الأرض، وبالتالي لا يمكن أن تطير الجبال وحدها وتترك الأرض ثابتة جامدة.

وبالإضافة.. فقد جاء وصف الجبال بأنها "رواسي" في آيات كثيرة، أي أنها ملتصقة بالأرض التصاقا شديدا، كما في قوله تعالى:

﴿خَلَـــقَ السَّـــمَاوَاتِ بِغَـــيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِـــيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (٣١ لقمان:١١)

وأيضا:

﴿وَجَعَلْـــنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (٢١ الأنبياء:٣٢)

وكذلك:

﴿وَأَلْقَـــى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٦ النحل:١٦)

وعلى هذا.. فإن القرآن الحكيم بأسلوبه الفذ، وبروعة بالغة، نجح في كشـــف هذه المعلومة بشكل لا يتحدى بشكل سافر المفاهيم التي كانت ســـائدة في ذلك الوقت. ولعل الناس قد ظنوا أن الآية رقم ٨٩ من سورة الـــنمل عن حركة الجبال التي تمر مر السحاب.. ترتبط بحدث مستقبلي

يتعلق بيوم القيامة، ولكن كما سبق بيانه، إن هذا التفسير الخاطئ ليس مقبولا وذلك للأسباب التالية:

١) الآية تتحدث بوضوح عن الزمن الحاضر وليس عن زمن المستقبل. وحرف "الواو" في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ قد تكون واو الحال التي تدخل على الجملة الاسمية، فيكون المعنى هو أنك ترى الجبال فتظن أنها ثابتة لا تتحرك بينما هي تتحرك مثل السحاب. وصرف هذا الجزء من الجملة ليدل على المستقبل أمر مستحيل ولا يجوز.

٢) إذا افترضنا جدلا أن المعنى هو أن الجبال سوف تنطلق طائرةً في الفضاء كما يمر السحاب، فكيف يمكن للإنسان.. حتى ولو كان واقفا في مكان أمين على كوكب آخر.. أن ينظر إليها فيظن أنها ثابتة جامدة في مكانها بغير حركة، رغم أنه يراها بعينيه وهي تطير في الفضاء كالسحاب؟ من الواضح إذن أن هذا الافتراض غير صحيح. كذلك من الخطأ افتراض أن المعنى هو أن الناس اليوم ينظرون إلى الجبال فيحسبونها جامدة الآن، ولكنها في المستقبل سوف تطير كما يطير السحاب. فإذا كانت الجبال جامدة اليوم لا تتحرك، فإن الناس سوف يرونها بالفعل جامدة بغير حراك، ويكون من غير الصحيح إذن أن يُقال إن الناس "يحسبونها" جامدة. ولو كان الأمر كذلك لقال القرآن الحكيم: *وتنظر إلى الجبال **فترى** أنها جامدة، وهي كذلك فعلا، ولكنها في المستقبل سوف تمر مر السحاب*. وليس هذا ما يقوله القرآن.

٣) في نهاية الآية ثناء على الله تعالى الذي أتقن كل شيء. والإتقان فيه دلالة على أن الجبال رغم مرورها مر السحاب فإنها راسخة بقوة.

ومما يجدر ملاحظته هو أن المفسرين القدامى قد سكتوا عن المعنى الحقيقي لهذه الآية الكريمة، مما يدل على أنه كان من الصعب عليهم إدراك معناها الصحيح في ذلك الوقت.

ويُقرر القرآن المجيد أيضا أن الأجرام السماوية كلها تَسْبح في حركة

دائبة، وليس من بينها جرم ساكن. يقول تعالى:

﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٢١ الأنبياء:٣٤)

إن هذه الآية الجامعة تشمل الكون بأكمله، ومجموعتنا الشمسية ليست استثناء من هذا الكون.. فهي جزء منه. وبالإضافة إلى هذا، فهناك العديد من الآيات التي تذكر الحركة البيضاوية لمسارات الأجرام السماوية، وهي أيضا تتحدث عن حركة الأجرام نحو الزمن المحدد لنهايتها. وفيما يلي بعض الآيات التي تتحدث عن الموضوعَين:

﴿اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (١٣ الرعد:٣)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٣١ لقمان:٣٠)

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (٣٥ فاطر:١٤)

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ

وَيُكَــوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ (٣٩ الزمر:٦)

والآن ننــتقل إلى كشــف عجيــب آخــر بيّنه القرآن الكريم عن خصوصية حركة الشمس، بشكل لم يسبق ذكره بتاتا من قبل. إذ تقول الآية في سورة يس:

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٣٦ يس:٣٩)

وهـــي تذكر بوضوح عن موضع معين في أديم السماء.. يكون هو المســـتقر الأخير للشمس. ورغم أن الشمس وحدها هي المذكورة، فإن الآيات التالية مباشرة تربط الكون كله بمآل حركة الشمس:

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ وَالْقَمَــرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۞ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ (٣٦ يس:٣٩-٤١)

فلو كانت الشمس وحدها فقط هي التي تسير في اتجاه ثابت إلى مكان تســـتقر فـــيه، لما ذكرت الآية الكريمة التي تليها مباشرة أن الشمس والقمر ملتزمان بدقة بالحفاظ على المسافة التي تفصلهما بحيث إن أحدهما لا يستطيع أن يـــلحق بالآخر، الأمر الذي يدل على ارتباط شديد بينهما، ويترتب على ذلك الارتباط أن يكون مصيرهما واحد لا يتغير في الوقت المعين. ويُبين هذا أن الاتجاه الذي تأخذه الشمس سوف يتبعها فيه القمر أيضا.

ولكـــن الأمر لا يختص بالشمس والقمر وحدهما، فإن القرآن الكريم يذكر أن كل الأجرام السماوية تسبح في فلك معين. وأيضا هناك العديد

من الآيات في القرآن المجيد التي تذكر أن الأجرام السماوية مرتبطة بعضها ببعض برباط غير مرئي. وعلى هذا.. إذا تحرك واحد منها في اتجاه يختلف عن المدار البيضاوي المخصص لـــه، فإن بقية الأجرام السماوية لا بد وأن تتبعه للحفاظ على التوازن بينها جميعا. يقول تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٢١ الأنبياء:٣٤)

﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٣٦ يس:٤١)

إن هذا أسلوب فريد للقرآن المجيد، وهو يشير أيضا إلى حركة الأرض حـــول محورها. غير أن الناس في الزمن الذي أوحيت فيه هذه الآيات لم يكونوا ليستطيعوا إدراك المعاني المتضمنة فيها. فإذا كانت الأرض تتحرك، فلا بد أن تتحرك الجبال أيضا معها. ولكن الناس في ذلك الزمان لم يصلوا إلى هذا الاستنتاج، ولا استطاعوا أن يفهموا أنه إذا كانت الشمس تجري إلى جهـــة معينة فإن الكون بأكمله يتحرك أيضا إلى الجهة نفسها. ولعل العلماء المعاصرين لم يصلوا بعد إلى إقرار فكرة أن الكون كله يتحرك في اتجاه معين، إلى مستقر لـــه. ومع ذلك فإن المرء يستطيع أن يصل إلى هذه الفكـــرة بالدراسة العميقة للقرآن المجيد. وإذا صحت هذه الفكرة فليس أمام المرء سوى أن يتصور أن جميع المائة والثمانين مليارا من المجرات التي يـــتكون منها الكون تسبح إلى جهة محددة لها، تماما مثل المجرة التي تشكل مجموعتنا الشمسية مجرد نقطة صغيرة فيها.

وفي مكـــان آخـــر من هذا الفصل ذكرنا إمكانية وجود ثقب أسود عملاق يبتلع كل شيء في الكون في إفراده.

وبهـــذا نكـــون قد وصلنا إلى نتيجة هامة، وهي أنه حسب القرآن

المجيد.. فإن حالة الكون هي حالة فتح وإغلاق. فعند لحظة الانفجار العظيم بدأ الكون في التمدد في الحال وبسرعة تقرب من سرعة الضوء. وفي النهاية.. فإنه مرة أخرى سوف ينكمش إلى أعماق الهاوية التي نسميها الثقب الأسود.

وأما فيما يختص بفكرة وجود ثقب أسود كوني.. فهي ترتكز على فكرة الانفجار العظيم التي يؤيدها تماما القرآن المجيد. غير أن بعض العلماء يؤيدون فكرة الكون المفتوح، فهم يؤمنون بأن الكون سوف يستمر في التمدد حتى أبد الآبدين.. إلى أن تتباعد المادة وتتشتت وتتجاوز قوة الجذب والشد في مركز الكون. ولكن هذا المنظور لا يترك للكون أية فرصة لكي يعاد جمعه وخلقه من جديد، والقرآن المجيد يرفض هذه الفكرة كلية. فهو واضح كل الوضوح في أن الكون قد انطلق من إفراد، وسوف ينتهي بالتداعي مرة أخرى في إفراد. إن وحدانية الله تعالى، والقدرة على الخلق، وإرجاع الخلق مرة أخرى إلى وحدانية الله تعالى لا تجد تعبيرا يعبر عنها أفضل من قوله تعالى:

﴿إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (٢ البقرة:١٥٧)

*****

المراجـــــع

1. LANE, E.W. (1984) *Arabic – English Lexicon.* Islamic Text Society, William & Norgate, Cambridge.
2. Space Telescope Science Institute. (1997) Press release no. STScI-PR97-01, Baltimore, Maryland, USA.
3. ROMAN, C. A. (1991) *The Natural History of the Universe.* Transworld Publishers Ltd., London.
4. *Reader's Digest Universal Dictionary.* (1987) The Reader's Digest Association Limited. London.

الفصل السادس

الانتروبيا والكون المُتَناهي

لقد تبين بوضوح أن الكون بأكمله سوف ينسحب داخل ثقب أسود، ثم ينفجر ذلك الثقب الأسود في "انفجار عظيم" آخر، تنطلق منه كل الكتل المحبوسة فيه. وقد يدفع هذا القول القارئ إلى الظن بأن الكون يظهر ثم يختفي ثم يعاود الظهور بعد ذلك، وهكذا بغير نهاية. وما سوف نذكره فيما يلي سوف يزيل تماما أية شبهة لسوء الفهم هذه.

لعله من الممكن رياضيا إثبات أن الكون الذي نعيش فيه لا يمكن أن يكون أزليا فيما يتعلق بالماضي، ولا أن يكون أبديا فيما يتعلق بالمستقبل. ولشرح هذه النقطة شرحا أوفى.. لا بد من شرح اللفظ العلمي "الانتروبيا". وببساطة.. تعني "الانتروبيا" أن الكون المادي، أيا كان الشكل أو الصورة لوجوده، يفقد على الدوام جزءاً متناهيا في الصغر من كتلته في شكل طاقة مفقودة لا يمكن استرجاعها مرة أخرى.

إن كل شيء في الوجود يتفاعل بعضه مع بعض تحت ظروف معينة. ومن أبسط الأمثلة على التفاعلات الأولية هو تفاعل الهيدروجين مع الأكسجين لتكوين الماء. فعندما يتكون جزيء من الماء باختلاط عنصريه الهيدروجين والأكسجين، تنطلق بعض الطاقة المستعلمة في تكوينه.

فإذا أُحرِق الهيدروجين في قنينة مملوءة بالأكسجين، فإن الهيدروجين سوف يشتعل إلى أن يُستهلك كل الأكسجين الموجود، وما يتبقى من هذه العملية هو الماء. وحينما يتم هذا التفاعل ينطلق جزء من الطاقة. ولا يمكن تحويل الماء مرة أخرى إلى هيدروجين وأكسجين، إلا بتوفير كمية الطاقة التي تسربت أثناء تكوين الماء، حتى يمكن فصل جزيئات الماء إلى

مكوناتها الأصلية: أي الأكسجين والهيدروجين.

وفي جميع تلك الحالات لا يوجد ضياع دائم للطاقة. ولكن ليس هذا هو المقصود من فقدان الطاقة بواسطة الانتروبيا. وباختصار نقول إن كل تفاعل كيميائي يطلق طاقة أو يكتسبها، ولا ينتج عن جميع هذه العمليات فقدان دائم للطاقة. ولكن هناك فقدان لبعض الطاقة، وهو فقدان مستمر ولا يمكن استرجاعه، ولا علاقة لفقدان الطاقة هذا بالتفاعلات الكيميائية العادية. وبدلا من الدخول في التعقيدات العلمية عن كيفية حدوث هذا، فإننا نسأل القارئ أن يتصور جسمًا ساخنًا وهو يبرد بالتدريج. فإذا برد الجسم إلى درجة حرارة الجو المحيط به، حدثت حالة من التعادل والتوازن. وانــتقال الحرارة من الجسم الساخن إلى الجو البارد المحيط به لا يمكن أن يــنعكس، فالحــرارة تنتقل دائما في اتجاه الجسم أو الوسط البارد. وفي النهاية.. حين يتم استهلاك كل الطاقة التي في الكون، وتصل إلى حالة من التوازن، لا يمكن بعد ذلك تصور حدوث أي تبادل للحرارة أو أي تفاعل كيمــيائي. وهذا الوضع هو ما يُطلق عليه العلماء تعبير "الموت الحراري" للكون.

إن مقــدار الطاقة التي يستهلكها الكون مستمر في الازدياد، وبالتالي فــإن مقدار الطاقة المستهلكة في نقص مستمر. وعلى هذا، فسوف يأتي الوقــت، مهما كان بعيدا، حينما ينغمر الكون كله في حالة من الخمود، ولا يمكــن عودته إلى وجوده المادي كسابق عهده، فلا يمكن أن يتم أي فعــل، ولا أن يحدث أي تفاعل. وهذه الحالة هي حالة الموت المطلق، أو العدم.

ولكــي نــأخذ فكرة عن مدى صغر قدر فقدان الطاقة هذا، فليعلم القراء الكرام أنه لا بد حتى للعلماء أن يقدّروه بواسطة العمليات الحسابية المعقدة.. إذ ظل الكون بالنسبة لهم على ما هو عليه في الوزن والكتلة كما كــان علــيه قبل عشرين مليارا من السنين. ويمكن قياس الطاقة المتسربة

بالنسـبة لدرجة حرارة الكون الشاملة والتي هي ٤°ك حتى هذه اللحظة مـن الـزمن. وهذا يعني أنه لا يوجد في الكون المعروف أي فضاء تقل درجة حرارته عن ٤°ك. وعلى هذا فإن الطاقة التي سوف تسري في اتجاه هـذه الدرجة المنخفضة سوف تصير جزءا منها، ولا يمكن أن ترتفع مرة أخرى إلى درجة حرارة أعلى من درجة حرارة الوجود. وسواء استطاع أحد أن يفهم هذه الرطانة الرياضية أم لا، إلا أن هناك أمرا مؤكدا، وهو أن الكون يفقد على الدوام شيئا لا يمكن استرجاعه، ولا يمكن إعادته مرة أخرى إلى كتلة الكون.

وبعـد شرح ظاهرة الانتروبيا بما يكفي غرض هذا الكتاب، نلفت نظـر القارئ إلى ما ينبني على هذا من استنتاج لا مهرب منه. وقبل أن يفهم العلماء الانتروبيا فهما دقيقا، كان معظم العلماء يعتقدون أنه ليست هـناك من حاجة لوجود خالق، لأن جميع أشكال الوجود ظلت مستمرة في وجودها أزليا. ولكن الآن.. بعد فهم أفضل للانتروبيا حدث انقلاب في ذلك الرأي.. على الأقل لدى البعض من أولئك العلماء الذين يشكلون المجـتمع العـلمي، بينما يتحاشى الباقون.. بطريقة أو بأخرى.. مواجهة المشـكلة. فـالخلود يمكن أن يختبر في علاقته بالماضي وأيضا بالمستقبل. والعلماء الذين يعتقدون بأن المادة أزلية يعتقدون بأزليتها فيما يتعلق بكل مـن ماضيها ومستقبلها. وهذا يعني أننا حين ننظر إلى الوراء لا يمكن أن نتصـور وجود بداية لأي شيء موجود، فإن الأزلية ليس لها بداية كما ليس لها نهاية.

وعـلى ذلك فإن هذه الخرافة العلمية عن أزلية المادة قد نُسفت من الوجـود بعـد اكتشاف مبدأ الانتروبيا. وحتى لو افترضنا جدلا أن هذا الكـون أزلي.. فإنه سوف يستمر في فقدان كتلته بغير انقطاع تحت تأثير الانتروبيا. وهذا يعني منطقيا أن الكون كان لا بد أن ينعدم في زمن يبعد عنا "أزليا". وحين ننظر إلى الوراء.. إلى الماضي.. من أية نقطة زمنية، فإن

الأزلـــية سوف تبدو بلا بداية ولا نهاية لها، تماما كما تظهر من أي نقطة زمنـــية أخرى. وبمعنى آخر، فإن الأزلية لا يمكن تتبعها إلى أية لحظة معينة مـــن الـــزمن يمكن أن يقال بأن الأزلية لم توجد من قبلها. ويستطيع أي إنســـان أن يتصـــور نفسه وهو يتتبع الأزلية محاولا الوصول إلى بدايتها، ولكـــنه حـــتى لو ظل مسافرا في اتجاه الماضي السحيق لمدة تريليون سنة مضروبة في تريليون سنة مضروبة في تريليون سنة وهو جالس على أجنحة الضوء بسرعته المهولة، فإنه لن يصل أبدا إلى أية بداية. وإن فعل.. فليكن عـــلى يقين أنه كان يسافر في الاتجاه الخاطئ، إذ لا يمكن أن تكون هي الأزلية تلك التي كان يتتبعها.

ثم لنتصـــور مرة أخرى أن ذلك الشخص راح يسافر إلى الوراء بحثا عن "كون"، فإذا افترضنا أنه وجد ذلك الكون، فإن الأزلية سوف تنتشله مـــنه وتلقـــي به في جب اللانهائية مرة أخرى. إنه أمر قد يصعب تخيله، ولكـــنه في الحقـــيقة بســـيط وسهل الفهم. فإذا وَجد مثل هذا الشخص الافتراضي أثناء سفره أي أثر للكون، فعليه أن يسأل نفسه.. لو كان هذا الكون أزليا فلماذا لم يتضاءل وينعدم من الوجود منذ زمن طويل قبل أن يصـــل هو إليه؟ فالمسافر يستطيع بعملية حسابية أن يحسب أنه فيما وراء تلك اللحظة الزمنية.. كان للانتروبيا الوقت الكافي من الأزلية لابتلاع ما لا يُحصى من الأكوان كهذا.

وإذا تصـــورنا وجود شكل كبير ضخم هائل الحجم، حتى إنه يغطي أعـــدادا مهولـــة من سُلاميات زمنية لا حصر لها، وقد حاول أن يملأ بها الأزلـــية، فـــإن هـــذا الشكل سوف ينتهي بكل تأكيد، ولكن لن تنتهي الأزلـــية. حتى ولو كانت الانتروبيا تقتضي عددا من السنين يبلغ تريليون مضـــروبة في بعضـــها تريلـــيون مرة لكي تتحقق حالة 'الموت الحراري' للكـــون، فإن هذا الموت الحراري سيكون أمرا حتميا لا بد من حدوثه. ولـــنعد الآن مـــن تلك الرحلة الافتراضية في أعماق الماضي إلى الحاضر،

ولنتساءل: لماذا هذا الكون الذي نعيش فيه موجود في هذه اللحظة من الزمن؟ أليس من المفروض أن تكون الانتروبيا قد دمرته وأتت عليه حتى انعدم وتلاشى بحيث لا يمكن أن يُعثر له على أثر منذ وقت طويل أثناء رحلتنا في الماضي الأزلي؟

ومع ذلك فهناك نقطة أخرى يجب أن تؤخذ في الاعتبار. إن علماء النظريات الذين كانوا في وقت من الأوقات يعتقدون أن البروتونات لا تفنى.. قد اجتمعت آراؤهم اليوم على أن البروتونات أيضا لها عمر محدود لا تستطيع أن تتجاوزه. وسواء كان عمر تلك البروتونات هو 10^{32} من السنين حسب رأي البعض، أو 10^{34} حسب رأي البعض الآخر، فهذا أمر غير ذي شأن؛ حتى ولو كان عمرها مائة ألف مرفوعة إلى أس[*] مائة ألف من السنين، فهي إن كانت قد خُلقت ولها بداية، فلا بد أن تكون لها نهاية. أما إذا لم تكن قد خلقت، وكان وجودها أزليا، فإن يد الانتروبيا لا بد أن تكون قد قضت عليها منذ سنوات لا نهاية لعددها.

إن الأزلية وكل ما يخضع للفناء لا يمكن أن يتفقا على الوجود سويا، فكل ما يخضع للعدم لا بد أن تكون له نهاية. ولكن انظروا! ها نحن هنا.. كاتب هذه الكلمات وقارئُها.. كلٌّ في لحظة وجوده. ولكن.. لو كان هذا الكون أزليا، فليس من حقه أن يكون له وجود.. مع جميع الأنواع الأخرى للحياة.. في هذه اللحظة من الزمن.

قد يجد البعض هذا الأمر معضلا، ولكنه في حقيقته سهل كأية معادلة رياضية. فكل ما هو خاضع للفناء لا يمكن أن يكون أزليا، وإذا كان أزليا فلا يمكن أن يخضع للفناء. وبهذا يكون السبيل الوحيد المتاح أمامنا هو أن نعتقد بوجود خالق أزلي لا تصل إليه يد الانتروبيا ولا يخضع للفناء. ومن العجيب أن هذا كان هو نفس الاستنتاج الذي وصل إليه أرسطو قبل

---

[*] أي مائة ألف مضروبة في نفسها مائة ألف مرة، علما بأن المليون عبارة عن الرقم ١٠ مضروبة في نفسها ٦ مرات. (المترجم)

ألفين وأربعمائة عام، وهو لا يزال صحيحا اليوم كما كان صحيحا آنذاك في زمنه.

ولـــلمزيد مـــن البـــيان نعود إلى مشهـــد توالي حدوث "الانفجار العظـــيم" الذي يؤدي إلى ميلاد كون جديد بشكل مستمر بعد أن يكون قـــد ابـــتلع الكـــونَ القديم ثقبٌ أسود بالغ الضخامة. والنقطة التي نريد التركيز عليها هي بكل بساطة: كل مرة ينجذب فيها الكون إلى الأعماق الســـحيقة لثقب أسود عملاق، فإن هذا العملاق الأسود لا يستطيع أن يجـــذب إلـــيه ذلك القدر من الطاقة الذي انعدم بتأثير فعل الانتروبيا قبل عملـــية الابـــتلاع هذه. كذلك فإنه عندما ينفجر ذلك العملاق فإنه لا يستطيع أن يرد إلى الكون نفس القدر من الكتلة التي ابتلعها، فإن القوى الجـــبارة التي تعمل تتسبب أيضا في زيادة معدل فقدان الطاقة عن طريق الانتروبيا بنفس النسبة. وعلى هذا فإن الكتلة الناتجة في صباح يوم جديد من خلق كون جديد بعد الانفجار العظيم.. سوف تكون بكل تأكيد أقل كـــتلة مـــن الكون السابق الذي ابتلعه ذلك الثقب الأسود. وذلك الجزء الذي أجهزت عليه ظاهرة الانتروبيا قد ضاع وانتهى إلى الأبد. وعلى هذا فعـــند كل انفجار عظيم يتفجر عنه كون جديد يكون هذا الكون أصغر من سابقه. ومن الواضح أنه لا يمكن أن تظل هذه العملية تكرر نفسها إلى مـــا لا نهاية. فمهما طالت المدة، سوف ينتهي الكون إلى حجم لا توجد فيه كتلة كافية لكي تنهار لتكوين ثقب أسود.

هل يستمر ذلك الجزء الصغير الباقي في الوجود أزليا؟ الإجابة الحاسمة هي: بالتأكيد لا. فكل ما يتبقى من أي شيء سوف تجهز عليه في النهاية ظاهـــرة الانتروبـــيا. وهذا يحدث لأنه لو لم يكن هناك خالق، فلا يمكن تصـــور وجـــود أيـــة بداية للكون. وإن لم يكن للكون بداية فلا بد أنه موجود أزليا. غير أن العوامل التي ذكرناها آنفا لا بد أن تكون قد قضت عليه تماما قبل هذه اللحظة من الزمن. فكل ما هو محدود له نهاية، ولا بد

له أن يختفي في قاع العدم الأزلي السحيق. وإذا كان الأمر كذلك.. فليس هـــناك مـــن تفسير لوجود أي شيء موجود اليوم. فكيف استطعنا البقاء عـــلى قيد الحياة متجنبين اليد القاتلة للانتروبيا التي لا تُبقي ولا تذر؟ وإذا كان العدم قد أصابنا من قبل كما أصاب الكون أيضا.. فكيف عدنا إلى الوجـــود وكـــيف عاد الكون أيضا من الخواء اللانهائي للعدم؟ إن الخالق الأزلي وحده هو الذي لا تستطيع يد الانتروبيا أن تصل إليه ولا أن تمسه، ولا بد أن يكون وجوده يختلف تماما عن وجود كل شيء آخر من خلقه أو مـــا سيخلق في المستقبل. إذ في اللحظة التي يمكن أن يُتصور أنه خلق شيئا يماثله، فإن وجوده نفسه لا يمكن أن يعتبر أزليا. وعلى هذا فإننا حين نتكـــلم عـــن الـــثقوب السوداء أو عن ظاهرة الانتروبيا فإننا نتكلم عن مخلوقات ولا نتكلم عن الخالق. وكل ما هو مخلوق لا يمكن أن يكون هو نفســـه الخـــالق، بل إن الخالق ﷻ هو وحده السبب الأول لكل موجود محدود.

إن واقعـــة انفجار الثقب الأسود النهائي.. ليتولد منه كون جديد.. تتطلب أن يكون الكون "مغلقا". وهذا يعني أن الكون يستمر في الامتداد والاتساع ولكن ليس بغير نهاية، بل يمتد إلى أن يصل إلى نقطة من الزمن حيـــث تتعادل فيه القوة الطاردة المركزية المسؤولة عن امتداد الكون، مع القوة الأعظم منها وهي قوة الجذب المركزية، ثم يبدأ في الانكماش بعدها إلى أن ينهار في ثقب أسود.

أمـــا العلماء الذين يرفضون فكرة هذا الكون "المغلق" فهم يعتقدون بكون "مفتوح"، وهذا يعني أن الكون سوف يستمر في التمدد حتى يتبعثر بعيدا.. بعيدا.. في صورة كتلات صغيرة.. بحيث لا تستطيع قوة الجذب المركزية أن تؤثر عليه. وينتج عن هذا تقويض الطاقة في كل وحدة كتلة فضـــائية إلى درجـــة يصير معها من المستحيل تكوين ثقب أسود جديد. وحتى لو كان من الممكن قبول الكون بهذه الصورة "المفتوحة"، فلا يمكن

إغفـــال تأثير ظاهرة الانتروبيا. فمهما كان من تبعثر الكون، ومهما كان من طول المدة، فإن الانتروبيا سوف تلحق به عاجلا أم آجلا، لأنه حيثما وُجدت المادة فهي تظل تحت تأثير الانتروبيا. وعلى ذلك.. أيا كان شكل الكـــون، سواء كان "مغلقا" أو "مفتوحا"، فإنه لا يمكن أن يكون أزليا. ولذا يقول القرآن الكريم:

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (٢ البقرة:١١٨)

أي أن الله تـــبارك وتعالى هو السبب الأول للخلق، وهو الذي خلق الســـماوات والأرض، فكل شيء قد بدأ منه ﷻ، ولا بد أن تكون هناك نهاية لكل شيء، إلا هو جل شأنه.

ويقول سبحانه أيضا:

﴿كُـــلُّ مَـــنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ﴾ (٥٥ الرحمن:٢٧-٢٨)

إن معضـــلة الانتروبـــيا مقابل وجود الكون يمكن أن تُحل فقط من خلال الحل الذي قدمه القرآن المجيد منذ أربعة عشر قرنا من الزمان. فليس الأمر مجرد انبثاق كون جديد من ذلك الذي تبقى من الكون السابق من قـــبل، فكل مرة يُخلق فيها الكون من جديد.. يخلقه نفس الخالق القدير الذي أتى عليه بالفناء بعد أن حقق الغرض الذي خلقه من أجله. ومما يثير الدهشة والعجب أن القرآن المجيد يُعلن هذه الحقيقة في زمن الجهل المطبق. ومـــثل هذه العبارات من الوحي القرآني هي التي تبين كيف ينتقل دوما عالم المجهول إلى عالم المعلوم. وقد ظلت هذه العبارات لأكثر من ألف عام غـــير ملحوظة وبغير تقدير كامل لقيمتها، ولكنها فجأة بدت وقد دبت فـــيها الحياة في عصرنا الحاضر.. عصر الريادة والتنقيب والاستكشاف، كما لو أنها كانت دائما تختص به وتنتمي إليه.

وهـــناك نقطة أخرى أيضا تثير الاهتمام، وهي أنه رغم التقدم الكبير للعـــلم في القرون القليلة الماضية، فقد ظل العلماء إلى ما بعد بداية القرن العشرين يعتقدون أن المادة لا تفنى. واستمر الأمر كذلك إلى أن استطاع العـــلماء تحطيم الذرّة حول منتصف القرن. وبما تلا ذلك من خطر الفناء الـــنووي.. تبخرت في الهواء خرافة عدم فناء الذرّة واختفت بغير رجعة. ولكن حتى بعد ذلك.. بدأت فكرة تحطيم البروتون تبدو مجرد احتمالات رياضية، ثم أخذت الآن بعض الأدلة القليلة تتسرب من أنفاق الاختبارات والتجارب باهظة التكاليف التي تجري تحت الأرض.

هناك الكثير من التجارب ذات التكلفة العالية تُجرى لمراقبة احتمال تحلـــل البروتونات، وليس الأمر سوى مرور بعض الوقت قبل أن يتمكن العـــلماء في النهاية من إثبات إمكانية فناء البروتون وتقدير عمره. في أية صورة من الصور يفنى البروتون؟ وما إذا كان من الممكن عودة تلك المواد الفانية إلى الوجود مرة أخرى أم لا؟ كلها أمور متروكة للأجيال المستقبلة من العلماء لتقريرها والبت فيها. ولكن ما نعلمه الآن هو أن البروتونات ليست فوق الفناء كما كان يُظن سابقا.

أما القرآن المجيد.. فقد قال كلمة الفصل في هذا الموضوع منذ أربعة عشـــر قرنا. فكل ما هو مخلوق له عمر محدود ولا بد أن يأتي عليه الفناء. إنـــه الله تـــبارك وتعالى وحده الذي يخلق، وهو وحده ﷻ الذي يعيد ما يخلقه إلى الفناء إذا يشاء، وعندما يشاء.

إن أحد أساليب القرآن الفريدة.. والعجيبة.. هو أنه يستعمل ألفاظا وتعـــبيرات مـــتقدمة تقدما عظيما عن الزمن الذي نزلت فيه. وفي العصر الحديـــث يعـــرف الجميع الإجراء العلمي بإظهار تاريخ انتهاء الصلاحية بالنســـبة لكثير من الأشياء التي صُنعت أو بُنيتْ أو رُمِّمتْ. فمثلا.. حين تُـــبنى الجسور، وحتى قبل افتتاحها، يقرر عمرها المهندسون الذين بنوها، وفي العـــادة تُحفـــر تلك التواريخ على صفائح معدنية تُعلق على أعمدة

الجسر. ويحدث الأمر نفسه في صناعة السيارات، وقاطرات السكك الحديدية، والقضبان الحديدية، وكل الأجهزة التي تتعلق بها. وفي الواقع.. إن كل شيء يستخدمه الإنسان أو يستهلكه له عمر يمكن تقديره علميا. وفي هذه الأيام نجد أنه حتى الطعام الذي يُباع في علب أو كارتونات أو زجاجات يوجد عليه تاريخ انتهاء صلاحيته.

فلا عجب إذن أن يعلم خالق الكون دقائق الأمور التي تختص بخلقه. إن أسلوب القرآن المجيد واصطلاحاته اللفظية تبدو حديثة ومعاصرة تمامًا. وباختصار.. إن القاعدة التي لا تنفصم والمبدأ الذي لا ينتقض، عن محدودية عمر الكون قد أعلنت على أساس أن كل ما له بداية لا بد أن تكون له نهاية. وكل ما خُلق لا بد وأن يهلك في نهاية المطاف، وقد دُوّنت بالفعل بداية كل شيء ونهايته في كتاب الخلق. يقول تعالى:

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٢١ الأنبياء:١٠٥)

والآن نذكر نخبة من المقتبسات لبعض العلماء البارزين في تأييد ما ذكرناه في الصفحات السابقة. يقول البروفسور بول دافيز (Paul Davies) وهو أستاذ الفلسفة الطبيعية في جامعة آدليد (Adelaide University)، والحائز أيضا على الجائزة القيّمة المعروفة باسم جائزة تمبلتون (Tempelton Prize):

> "هذه المشاكل بدأت تفرض نفسها على العلماء في منتصف القرن التاسع عشر. وحتى ذلك الوقت كان علماء الطبيعة يتعاملون مع قوانين متماثلة بالنسبة للزمن، لا تُفرّق بين الماضي والمستقبل. إلى أن تغير كل هذا إلى الأبد مع تقدم البحث في مجال الديناميكا الحرارية (Thermodynamics). ففي قلب الديناميكا الحرارية يوجد القانون الثاني الذي يمنع سريان الحرارة تلقائيا من الأجسام الباردة إلى الأجسام الساخنة، بينما يسمح للحرارة بأن تسري من الجسم الساخن إلى البارد. فهذا القانون لا

يـــنعكس إذن، وهـــو يطبع على الكون سهما من الزمن يشير إلى اتجاه واحـــد للتغيير. وقد أسرع العلماء في استنتاج أن الكون ينْزلق في اتجاه واحـــد.. إلى حالـــة تـــوازن من الديناميكية الحرارية. هذا النُّزوع تجاه الاتســـاق الحراري حيث تتساوى جميع درجات الحرارة ويستقر الكون في حالة سكون.. قد صارت معروفة باسم "الموت الحراري". وهي تمثل حالة قصوى من الخلل الجزيئي أو الانتروبيا. وتدل حقيقة أن الكون لم يمـــت بعـــد هـــذا الموت الحراري.. أي أنه لا يزال في حالة أقل من الانتروبيا الكاملة.. على أنه لا يمكن أن يكون الكون أزليا'.[1]

وأيضـــا في كتاب: (الله وعلوم الطبيعة الجديدة God and the New Physics) كتب يقول:

' إن عـــلماء الطبيعة قد اخترعوا كمية حسابية جديدة تُسمى الانتروبيا لـــتقدير كمية الخلل، وقد أيد العديد من التجارب الدقيقة أن الانتروبيا الكلية في أي نظام لا تتناقص أبدا'.[2]

' إذا كـــان لـــدى الكون قدر محدود من النظام، وهو يتغير على الدوام وبغـــير أي انعكـــاس نحـــو الخلل، وفي النهاية إلى التوازن الديناميكي الحـــراري، يتـــبع ذلك فورا اثنان من الاستنتاجات الهامة. الأول هو أن الكـــون سوف يموت أخيرا في وقت من الأوقات، غارقا في الانتروبيا. وهـــذا يُعـــرَف بـــين عـــلماء الطبيعة باسم "الموت الحراري" للكون. والاســـتنتاج الثاني هو أن الكون لا يمكن أن يكون موجودا منذ الأزل، وإلا لكـــان قـــد وصـــل إلى حال التوازن النهائي منذ زمن لا نهائي. والنتيجة: إن الكون لم يكن موجودا على الدوام'.[3]

أمـــا البروفســـور إدوارد كِسل (Edward Kessel) مدير جامعة سان فرانسيسكو فكتب يقول:

'... إن الحـــياة لا تزال تنبض، والعمليات الكيميائية والطبيعية لا تزال تـــتفاعل، وهـــذا يدل بوضوح على أن هذا الكون لا يمكن أن يكون موجـــودا منذ الأزل. وإلا لكان قد استنفذ جميع الطاقة منذ زمن طويل ووصـــل إلى حالـــة توقف وخمود. وعلى هذا فإن العلم قد أثبت، بغير

قصد، أن لهذا الكون بداية، وبهذا فقد أثبت أيضا حقيقة وجود الله. فإن ما له بداية لم يبدأ بذاته ولكن يتطلب المحرك الأول، الخالق، الله'.[٤]

مـــن هذه المقتطفات المذكورة آنفا يتضح تماما أن هناك ما يكفي من الأدلـــة العلمية لتأييد الإيمان بموضوع وجود الله. وهذا الموضوع يقوم في الأســـاس عـــلى نفـــس المعلومات التي كشف عنها من خلال الأبحاث المستفيضـــة من يُسمون بالعلماء غير الملتزمين، ويرجع إليهم الأمر في أن يُغلقوا أعينهم بإرادتهم عن النتيجة الوحيدة التي يمكن أن تُستخلص منها:

لا بد أن يكون هناك خالق لهذا الكون، وإلا لما أمكن لشيء ما، بما في ذلك أنفسنا، أن يكون له وجود في أية مرحلة من الزمن.

*****

المراجـــــع

1. DVIES, P. (1992) *The Mind of God: Science and The Search for the Ultimate Meaning.* Penguin Books Ltd., England, p.47
2. DAVIES, P. (1990) *God and the New Physics.* Penguin Books Ltd., England, p.10
3. DAVIES, P. (1990) *God and the New Physics.* Penguin Books Ltd., England, p.11
4. KESSEL, E.L. (1968) *Lets Look at Facts, without Bent or Bias.* In: The Evidence of God in an Expanding Universe by Monsma. J.C. Thomas Samuel Publishers, India, p.51

الفصل السابع
القرآن والحياة في الكون

إن التصــور الذي يُقدمه لنا القرآن المجيد عن الكون، يختلف اختلافا تاما عن ذلك التصور الذي كان في ذهن الفلاسفة والحكماء في العصور الســـابقة. وفي زمن الوحي القرآني كانت الأفكار اليونانية عن الفَلك هي الســـائدة بـــين الناس في كل مكان من العالم المعروف، ويبدو أن جميع الحضـــارات كانـــت قد تأثرت بتلك الأفكار. واستمر هذا التأثير بدون انقطاع حتى زمن كوبرنيكوس (Copernicus). فكان الناس في كل مكان يظـــنون أن الســـماوات تتكون من طبقة فوق طبقة من مادة شفافة مثل البلاســـتيك الموجود اليوم، وهذه السماوات مرصعة بأجرام سماوية لامعة مـــنيرة نطلـــق عليها اسم النجوم. وعلى وجه التحديد إن ملخص العلم الكلي لدى الناس في ذلك الزمن كان كما يلي:

١) إن الأرض تـــتكون من كتلة من التراب والصخور والماء والهواء والمعـــادن. وهـــي كتلة ثابتة لا تتحرك، يكاد سطحها أن يكون مســـطحا، لا تـــدور حـــول نفسها ولا حول أي من الأجرام السماوية.

٢) إن الأرض كانت تشغل موقعا فريدا في هذا الكون، الأمر الذي لم يكن له مثيل في أي مكان آخر في السماء. إذ أنها ظلت ثابتة ساكنة في مرساها، بينما تدور السماوات حولها في حركة مستمرة دائبة.

ومـــن الواضـــح أن هـــذه الفكرة عن الكون قد استبعدت تماما أية إمكانية لوجود حياة في أي مكان آخر غير الأرض. فالناس في ذلك الزمن

لم يكونـــوا يعرفون مكانا للحياة غير هذه الأرض المعلقة في الفضاء كما كـــان الأمر في مخيلتهم. وفي المقابل نجد أن القرآن المجيد لم يعترف بفكرة تفـــرّد الأرض في وضعها في الكون ولا في ثبوتها وسكونها، بل قال عن موضوع عدد الأرضين في الكون:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾

(٦٥ الطلاق:١٣)

ولا بـــد من التبيان هنا أن الرقم "سبعة" له استعمال ومعنى خاص في القـــرآن المجـــيد، سواء كان في هذه الآية الكريمة أو في الكثير من الآيات المماثلـــة الأخرى، إذ إنه يدل على الكثرة غير المحددة بعدد معين. وعلى هـــذا يكـــون معنى الآية هو أن الكون يحتوي على عدد غير محدود من الســـماوات وكل منها ينقسم إلى مجموعات من "سبعة" (العدد الكامل) لكل منها أرض واحدة على الأقل، يدعمها النظام السماوي (المجرة) الذي تنتمي إليه. وفي إشارة إلى هذا التركيب العام تومئ إحدى الآيات الكريمة إلى وجود الحياة في الكون، وهي:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَآبَّةٍ ...﴾ (٤٢ الشورى:٣٠)

إن كـــلمة 'دآبـــة' تشمل كل حيوان يزحف أو يمشي على سطح الأرض، ولا تنطـــبق على الحيوانات التي تطير في الهواء أو التي تسبح في المـــاء، وهي يقينا لا تنطبق على الحياة الروحية. ففي اللغة العربية لا يُطلق لفظ 'دابة' أبدا على الأشباح ولا على الملائكة.

والجزء الثاني من الآية الكريمة لا يتحدث عن إمكانية وجود الحياة في الكـــون فحسب، بل يؤكد على وجودها، وهو تأكيد لا يستطيع معظم الباحـــثين العلمـــيين في عصـــرنا الحديث أن يتحدث عنه بأية درجة من

اليقين. غير أن هذا ليس كل ما تكشف عنه هذه الآية الكريمة والفريدة. بـــل إنـــنا نرى إعجازا فوق إعجاز حين نقرأ في نهاية الآية أن الله تعالى ســـوف يجمع بين الحياة على الأرض والحياة التي في جنبات الكون حينما يشاء ذلك ﷻ، إذ يقول:

﴿... وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ (٤٢ الشورى:٣٠)

وكـــلمة "جمعهم" لفظ عربي يتحدث تحديدا عن اجتماع الحياة على الأرض مع نظيرتها الموجودة في الكون. أما متى يحدث هذا الاجتماع فهو أمر لم يُحدد، وليس مذكورا ما إذا كان هذا الاجتماع سوف يحدث هنا عـــلى الأرض أو في مكان آخر. غير أن أمرا واحدا قد ذُكر بكل تأكيد، وهـــو أن هـــذا الاجتماع سوف يحدث يقينا حين يشاء الله تعالى ذلك. ويجـــب أن يوضع في الاعتبار أن لفظ 'جمع' يمكن أن يعني إما الاجتماع المـــادي أو الاجتماع عن طريق الاتصال. والزمن المستقبل وحده سوف يبين كيف ومتى يحدث هذا الاجتماع، ولكن يظل الإعجاز قائما في هذه الحقـــيقة بذاتهـــا.. وهي أن نبوءة في هذا الشأن قد ذُكرت منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان.

جـــاء هـــذا النبأ الغيبي في القرآن في زمن لم يكن فيه الفَلَك وعلوم الكون قد وُلدت بعد. إذ كانت تسود في تلك الفترة تصورات افتراضية، كان مقدرا لها أن تدوم وتستمر لأزمان طويلة، قبل أن يوجد أي تصور عـــن وجود حياة في أمكنة أخرى من الكون الرحيب. وحتى اليوم.. لا توجد هذه الأفكار عن وجود الحياة في الكون سوى في أقاصيص الخيال العلمي.

أمـــا العلماء فلم يستطيعوا حتى الآن التخلص تماما من الشكوك التي راودتهم عن وجود الحياة في أمكنة أخرى من الكون غير الأرض. ولم يتم

اكتشاف أي دليل مادي يزيل تلك الشكوك، ولا يزال العلماء يتحدثون فقط عن مجرد "احتمالات".

غـــير أن البروفســـور أرشيبولد روي (Archibold Roy) من جامعة جلاسجو، وهو واحد من العديد من العلماء المنشغلين بحماس في البحث عن إمكانيات وجود نوع من الحياة تتسم بالذكاء في الأجرام السماوية، كتب يقول:

"في العديد من المؤتمرات الدولية التي عقدت حول مسألة وجود الحياة في الكون، تم بحث الموضوع، وصار من الواضح أنه ليس هناك احتمال في الـــتعرف على إشارة نابعة من مصدر ذي ذكاء فحسب، بل إنه سوف يكـــون مـــن الممكن إجراء اتصال مع أنواع من الحياة المذكورة وتبادل المعلومات معها".[1]

ولكـــن الجمـــيع لا يشارك البروفسور روي هذا الحماس الشديد. فالدكـــتور فرانك تيبلر من جامعة تولين بنيوأورليانز (Dr. Frank Tipler, Tulane University, New Orleans) يمكـــن أن يُعد من أكثر المتشككين، وهـــو يبني شكوكه على الإحصاءات الحسابية. فبالنسبة لـــه يُعتبر ظهور حياة تتصف بالذكاء في مكان آخر من الكون خلال عملية النشوء المادي العمياء تتعارض مع قانون الأعداد الكبيرة. ونشوء الحياة هنا على الأرض يُشكل معضلة للعلماء لا يجدون لها حلا. وأن تتكرر الظاهرة نفسها من خـــلال تصادم هذا العدد الضخم من الاحتمالات الذي يفوق الحسابات البشرية لهو أمر يُعد استحالة رياضية. يقول الدكتور تيبلر:

"... وجـــود ذكاء في الكون أمر غير وارد، وما علينا إلا أن نفسر هذه الحقيقة. ويتمسك معظم الفلكيين بمعتقد عن وجود حياة ذات ذكاء في الكون بغير دليل وإنما بسبب مبدأ فلسفي: الفكرة الكوبرنيكية *(نسبة إلى كوبرنيكوس)* بأن مركزنا في الكون لا بد أن يكون نموذجيا تماما. ولكننا نعلم أن هذه الفكرة خاطئة. فالكون يتطور، والأشعة الكونية تدلنا على أنـــه كـــان هناك وقت من الأوقات لم توجد فيه حياة، لأن الجو كان

ســـاخنا جـــدا. وعلى هذا فإن مكاننا في الكون كان فريدا من حيث التوقيت. وأيضا لا بد أن تكون هناك الحضارة الأولى، وقد تصادف أن تكون هي حضارتنا الإنسانية".[٢]

والدكتور توني مارتن (Tony Martin) نائب الرئيس السابق للجمعية الـــبريطانية لما بين الكواكب، له أفكار مماثلة في الشك. وبالرغم من كل هـــذه المعارضة.. فإن الحلم العلمي للدكتور روي يبدو أنه قد اقترب من التحقـــيق، جزئـــيا عـــلى الأقل. ففي الولايات المتحدة استطاعت ناسا (NASA) الحصـــول على موافقة حكومية على مشروع بإجراء بحث كبير عـــن وجود حياة ذات ذكاء في الكون. ويؤيد هذا الهدف بعض العلماء من ذوي الشهرة العالمية من أمثال البروفسور ساجان (Professor Sagan)[٣]
.

أليس من الغريب – جد غريب – أن ما أكده القرآن المجيد باعتباره حقـــيقة مـــنذ حوالي أربعة عشر قرنا بدأ الآن يبدو حقيقة ممكنة لعلماء اليوم!! بل إن الأغرب والأعجب هو أن القرآن يذهب إلى الأمام خطوة أبعد حين يتنبأ بأن الإنسان سوف يتمكن يوما ما من الاتصال بهذه الحياة الموجودة في الكون.

ولعل الوقت لم يحن بعد للتحقيق الكامل لهذه النبوءة، ولكن أمارات تحقـــيقها بدأت تلوح في الأفق، الأمر الذي يدل على أن نبوءات القرآن المجيد تسبق التقدم العلمي للإنسان. فكل عصر جديد يشهد تحقيق الكثير من النبوءات التي أتى بها الوحي الإلهي في القرآن المجيد، رغم أن العصور السابقة لم يكن لديها أية وسيلة للتحقق من صحتها. وعلى هذا يجب أن يُفهم بوضوح هنا أن نبوءات القرآن في جوهرها تختلف طبيعتها عن تلك التي تأتي في قصص الخيال العلمي.

لم يكـــن مـــن الغريب أبدا أن يحلق الخيال البشري فينطلق من واقع الحقائق المعروفة في الطبيعة إلى آفاق الخيال لما سوف تأتي به أيام المستقبل،

غــير أنــه من النادر أن يشهد المستقبل تحقيق هذه النبوءات التي تحلق في آفــاق الخــيال. وبالإضافة، فإن كل الأعمال المتعلقة بالخيال تظل دائما محصــورة في الإمكانــيات التي تخلقها المعرفة والمعلومات المتاحة في ذلك العصــر. وكُتّاب الخيال العلمي يستلهمون أفكارهم دائما من المعلومات الموجــودة الــيوم ليستشفّوا منها ما يمكن أن يأتي به الغد. وفي كثير من الأحــيان تكون خيالاتهم جامحة أشد ما يكون الجموح. وحينما يكشف المســتقبل عن خباياه وأسراره، نجد أنه لا يتّبع ما أملته وفرضته خيالاتهم. وهــذا يقودنــا حتما إلى الإقرار بأن تحقق خيالات الإنسان فيما يتعلق بالمجهول لــه حدوده ونطاقه المحصور.

ولتوضيح الحدود التي تفرضها مرحلة معينة فيما يتعلق بمدى ما يمكن أن يصــل إليه الخيال، يمكن أن نذكر العبقري ليوناردو دافنتشي كمثال مناسب. فقد حاول أن يتصور إمكانية طيران الإنسان، ولكنه لم يستطع سوى أن يتخيل تلك الإمكانية في حدود المعلومات المتاحة في زمنه. ولم يكــن العلم ولا التقنية قد تقدَّما، حتى ذلك الزمن، للدرجة التي يستطيع فيها العقل البشري أن يتصور إمكانية الطيران بمساعدة الآلات التي تدفعها قــوة النيران. وعلى هذا فقد كان مما يفوق التصور والخيال عند ليوناردو دافنتشي أن يتخيل ولو فكرة بدائية عن الطائرة.

ويخــتلف الأمر تماما فيما يتعلق بالصحف المقدسة، فإن المعرفة التي تحتويها ليست منحصرة في المعلومات السائدة في عصرها ولا في أية فترة أو مجــال معين. وبالإضافة.. فإن عامل الصدفة ليس له دخل في تحقيقها. ولم تستطع أبدا الاكتشافات العلمية التي يُكشف النقاب عنها في العصور المتعاقبة أن تثبت خطأ أية نبوءة جاءت في القرآن المجيد.

ولذلك يجب أن ننظر دائما بنظرة أمل.. أمل يقوم على أساس قوي.. أن تــتحقق هــذه النبوءات القرآنية حسبما يقرره المستقبل. والنبوءة عن الاجتماع بين الحياة هنا على الأرض والحياة الموجودة في مكان آخر هي

من تلك النبوءات التي لم تتحقق بعد. ولعل العمر يمتد بنا حتى نشهد ذلك اليوم الجليل المجيد الذي تستطيع فيه الحياة على الأرض أن تحقق نوعا من الاتصال بالحياة الموجودة في هذا الكون الواسع الرحيب.

*****

المراجـــــــع

1. ROY, A.E., CLARKE, D. (1989) *Astronomy: Structure of the Universe.* Adam Hilger Ltd., Bristol, p.270
2. TIPLER, F. (November, 1991) *Alien Life.* Nature: 354:334-335
3. McKIE, R. (September, 1985) *Calling Outer Space: Is Anybody There?* Readers Digest: 31-35

الباب الخامس

- الحياة من منظور الوحي القرآني – مقدمة قصيرة
- أصل الحياة – نظريات وافتراضات
- الجـــــــن
- الدور الحيوي للطين والتخليق الضوئي في عملية نشوء الحياة
- البقاء على قيد الحياة.. صدفة أم تدبير؟
- الكيرالتية أو المجانبة في الطبيعة
- الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح
- أهي مباراة في الشطرنج أم هي لعبة حظ!
- مستقبل الحياة على الأرض
- التطور ونظام الأعضاء
- صانع الساعة الأعمى.. الذي هو أيضا أخرس وأبكم

الفصل الأول

الحياة من منظور الوحي القرآني

مقدمة قصيرة

يقدم لنا القرآن المجيد رؤى واسعة المدى، تغطي جميع الأدوار المتعلقة بنشــوء الحياة، والمراحل التحضيرية التي سبقتها. وقد وضعت بعض هذه الرؤى علامات مميزة ذات خصائص فريدة، وهي تلك التي نريد أن نلفت أنظار القارئ إليها.

غــير أنــه يجب أن نضع في الاعتبار أن الفقرات التالية ليست سوى مجــرد مقدمــة مختصــرة لمناقشة بعض الموضوعات التي سوف نتناولها بالتفصيل في الفصول الخاصة بها.

ومن الأهمية بمكان أن نسجل المبدأ الذي نهتدي به، والمذكور في الآيات التالية:

﴿تَــبَارَكَ الَّــذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّــذِي خَلَــقَ الْمَوتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاًۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝ **الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًاۖ مَّا تَــرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ**﴾ (٦٧ الملك:٢-٤)

هذه هي الآية الأساسية التي تتحدث عن خطة الخلق العامة التي تشمل الكون بأكمله. وتتضمن هذه الآيات مبدءين أساسيين، الأول هو

الغياب الكامل لأي تناقض في كل الكون الذي خلقه الله تعالى. والثاني هو التطور التدريجي لجميع المخلوقات. وهذا المبدأ الثاني جاء شرحه ضمنيا في اسم من أسماء الله الحسنى هو (الرب)، وكثيرا ما يأتي ذكر هذا الاسم في القرآن المجيد فيما يتعلق بجميع عمليات الخلق. وكلمة "رب" تعني من يعمل دوما على تنشئة شيء من مرحلة دنيا إلى مرحلة عليا. فمثلا.. حين يعمل إنسان على تنشئة وتربية فُلُوٍّ حتى يصير حصانا كبيرا، مع الاهتمام بتنمية قدراته النوعية، فإن العرب يسمونه: ربُّ الفُلُوّ، أي الشخص الذي رباه وأحسن تدريبه بشكل كامل. كذلك فإن اسم الذات العلية: "الرب"، يعني أيضا المدبر للأمور والمزوِّد، يعني أن الله تعالى.. الخالق.. الذي عندما يخلق شيئا فإنه يُدبر لــه أمره، ويُزَوده بما يحتاجه خلال جميع مراحل وجوده، ليحقق الغرض من خلقه. وهذا لا يدع مجالا للشك في أن القرآن الحكيم يتحدث عن الخلق باعتباره أمرا يتم على مراحل متطورة، مرحلة بعد أخرى، مع تدبير جميع ما يلزم للنمو في كل مرحلة، وعلى هذا فإن القرآن يستنكر فكرة التولد الفوري. والقرآن يرفض هذه الفكرة لأنها تتعارض مع وقار الله تعالى، ولذلك فإن الآيات التالية تسأل الإنسان بأسلوب استنكاري:

﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا ۞ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾

(٧١ نوح:١٤-١٥)

والآية التالية من سورة الانشقاق تخاطب الناس وتعدهم بأن رحلتهم مستمرة في الحركة من مرحلة إلى مرحلة فتقول:

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ (٨٤ الانشقاق:٢٠)

هذا هو التدبير الشامل للخلق. وفي المراحل المختلفة من التطور كانت العمليات التي تُشكل الحياة وتحكمها تختلف وتتباين في نُسُقها، غير أن الاتجاه العام للتطور ظل كما هو عليه، مشيرا دائما إلى الإنسان.

وهذا الموضوع الهام كان مَثارا للجدل بين مختلف العلماء وأيضا بين رجال الدين، وقد حاول كل منهم كشف أسرار أصل الحياة، فخرجوا بالكثير من النظريات والافتراضات، وأجرَوا تجاربَ لمحاولة تكوين الظروف المؤدية لخلق الكائنات العضوية، كما حدثت منذ مليارات من السنين، حيث بدأت الحياة في أرض خالية تماما من الحياة. وسوف نعود لمعالجة هذا الموضوع فيما بعد، أما الآن فنحن نريد أن نقتصر على عرض مختصر لما يقول به القرآن الكريم عن كيفية نشوء الحياة وتطورها على الأرض. وقد جمعنا بعض الرؤى المتعلقة بهذا الموضوع من العديد من آيات القرآن الكريم. وهذا يخدم غرضين في نفس الوقت.. أحدهما يُظهر دور القرآن الكريم في نقل أجزاء من عالم "الغيب" إلى عالم المعرفة، وأيضا مساعدة المتخصصين في هذا المجال على الانتفاع بهدي القرآن الكريم.

وحبذا أن نبدأ بذكر ملحوظة هامة، وهي أنه في العديد من المرات التي يتحدث فيها القرآن الكريم عن بعض الأشكال السابقة من الخلق، فإنه يفعل ذلك باعتبار أن تلك الأشكال مراحل في خلق الإنسان، بينما قد يكون ما خُلق بالفعل في مرحلة من تلك المراحل لا يشابه الإنسان في شيء. وفي الواقع.. إن جميع المراحل الهامة في الخلق قد ذُكرت باعتبار أنها خلق للإنسان، لأن الإنسان منذ البداية كان وحده هو الهدف النهائي للخلق، وهو الغرض الذي من أجله تمت جميع عمليات الخلق.

وعلى سبيل المثال.. عند محاولة بناء طائرة.. فإن عملية البناء تمر بعدة آلاف من المراحل. وحين يضع مصمم الطائرة خطة الصنع فإنه يعتبر أن كل مرحلة هي مرحلة في تصنيع الطائرة نفسها، باعتبار أن الطائرة هي الهدف النهائي من عملية التصنيع، حتى لو كانت تلك المراحل تختص بصنع أشياء تبدو أنها لا تتشابه مع الطائرة في شيء.. مثل الصامولة أو مسمار الرباط أو الكراسي أو الأنابيب وغيرها. صحيح أن الصواميل والمسامير تخدم أغراضا مستقلة، غير أنها تُكَون جزءا من مُكوّنات الطائرة.

وعلى هذا فإن جميع مراحل التصنيع الابتدائية تُعتبر مجرد تحضير لتحقيق الهدف النهائي. إنه من الضرورة بمكان استيعاب هذا المفهوم، لأنه هنا يفترق القرآن عن علماء الأحياء الذين يؤمنون بنشوء وارتقاء عشوائي للحياة بغير تخطيط وبدون تصميم سابق. فإن هؤلاء العلماء يعتبرون أن أصل الحياة ونشوءها وارتقاءها قد حدث عشوائيا، بغير أن يكون هناك هدف أو غرض، وبدون أي تخطيط ولا تصميم، وبغير خطة تنفيذ محكمة لجميع مراحل التنفيذ.

وسوف نقدم الآن.. باختصار.. المراحل المختلفة التي مرت بها عملية خلق الإنسان، مرحلة بعد أخرى، كما ذكرها القرآن المجيد. ولكن مناقشة الموضوع بتفصيل أكبر سوف تأتي في فصول متعلقة بها إن شاء الله.

خلق الكائنات الأولية القديمة

نبدأ بأقدم مراحل الخلق المذكورة في القرآن المجيد، وهي المرحلة التي يستخدم لها القرآن لفظا مُعينا وهو لفظ "الجن". غير أن هذا اللفظ لا يعني أبدا المعنى السائد لدى عامة الناس، والذي قد يتبادر إلى ذهن بعض القراء.

إن المفهوم السائد لكلمة "الجن" ينطبق على الأشباح وهو مفهوم خرافي بحت. وتقول هذه الخرافات إن الجن عبارة عن خليط من صفات الإنسان وصفات الغيلان والمردة. وتزعم الخرافة أن الجن يستطيع أن يتشكل في أشكال وهيئات كثيرة حسب رغبته. وهو يميل إلى أن يسكن في أجساد النساء، كما أنه يتملك الضعفاء من الناس. ولكن المتكهنين يستطيعون أن يسيطروا على الجن باعتبار أنهم على علم ببعض الفقرات من مختلف الكتب المقدسة التي يستطيعون بها أن يفرضوا على الجن أن يخضع لهم ويطيع أوامرهم. وحينما تتم السيطرة على الجن يمكن تسخيرهم للقيام بأعمال تفوق الخيال والتصور، مثل إحضار أي شيء

يطلبونه، فيأتون به في الحال وكأنه جاء من الهواء. ومن خلال الجن يستطيعون أن يتملكوا قلب من يحبونه، أو يستمدون من الجن القوة للقضاء على أعدائهم. والقرآن.. بكل تأكيد ويقين.. حين يتحدث عن الجن في مرحلة ما قبل خلق الحياة، فإنه لا يتحدث أبدا عن هذه الخرافات التي هي من نسج الخيال الإنساني. وسوف يجد القارئ شرحا مفصلا لهذا الموضوع في الفصل المخصص للحديث عن الجن.

دور الطـــــــين

كثيرا ما يذكر القرآن المجيد التراب الجاف، والطين الذي أصابه بلل، على أنهما ضمن المراحل المتعددة التي مرت بها عملية خلق الحياة. ففي سورة آل عمران يقول ﷻ:

﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ (٣آل عمران:٦٠)

ونقرأ أيضا قوله تعالى عن نفس الموضوع:

﴿خَلَقَكُمْ مِّنْ طِينٍ﴾ (٦ الأنعام:٣)

والطين أيضا مذكور في سورة الرحمن، ولكن.. في هذه المرة لم يُذكر الطين على أن به بللا، بل ذُكر بكل وضوح أنه صلصال فقال:

﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّار﴾ (٥٥ الرحمن:١٥)

وهنا جاء وصف نوعية الطين أن لــــه قشرة صلبة بشكل يجعل الطين يُصدر أصواتا كما يفعل الفخار. وأيضا في سورة الحجر جاء ذكر الصلصال ثلاث مرات في الآيات رقم ٢٧، ٢٩، ٣٤؛ بأن الإنسان قد خُلق من صلصال جاف لــــه رنين، تَشَكل من طين أسود مختمر.

والمشهد العام الذي يقدمه القرآن المجيد يُصوّر نشوء الحياة خطوة بعد أخرى من التراب، ومن الماء، ومن الطين، وأيضا من الطين الأسود

المختمر، الذي تحول فيما بعد إلى طين جاف لــه طنين. وهاتان المرحلتان الأخيرتان تسترعيان الانتباه بشكل خاص. فلم يكن بإمكان أي شخص .. من قريب أو بعيد.. يعيش في الفترة التي نزل فيها القرآن أن يربط بين خلق الإنسان وبين الصلصال ذي الطنين من حمإ مسنون.

وسوف نقدم فيما بعد عرضًا مختصرا لما يقوله العلماء بخصوص هذا الموضوع، وللقارئ الحرية الكاملة في استنتاج ما يشاء فيما يختص بتوافق الآيات القرآنية مع نتائج البحوث المعاصرة. وهناك منظوران.. أحدهما يقدمه القرآن المجيد، وهو يقوم كلية على الوحي الإلهي، بينما يقوم المنظور الآخر على مختلف النظريات والدعاوى والتصريحات للعديد من العلماء الذين كرسوا حياتهم لدراسة أصل الحياة، معتمدين في دراستهم اعتمادا كاملا على البحوث العلمية. وفي كل مرة تبدو فيها أن استنتاجات أولئك العلماء تقوم على أساس سليم ومعقول، فإن القارئ سوف يرى أيضا أنها على اتفاق تام مع بيان القرآن المجيد. ويتم هذا رغم أن الأمر الواقع يقول لنا إنه في الوقت الذي نزل فيه القرآن.. لم يكن العلم قد تقدم بشكل يكفي للبحث في أسرار الحياة وأصلها ومنشئها. والغرض من ذكر القرآن لهذه الآيات التي تتحدث عن أصل الحياة هو مخاطبة الإنسان الذي سوف يأتي فيما بعد في عصور ازدهار العلوم، حتى يكون إيمانه بوجود الخالق الأعظم.. الخبير بكل الأسرار، والعليم بكل الأخبار.. مدعوما بتلك العلوم التي توصل إليها.

البقاء على قيد الحياة.. صُدفة أم تدبير؟

يختلف منظور القرآن الحكيم اختلافا بيّنا عن منظور أصحاب مبدأ الطبيعة فيما يتعلق بموضوع البقاء على قيد الحياة. فإن الصدف حسب ما يقول به القرآن الحكيم لا تلعب دورا كبيرا في استمرار بقاء الأنواع أو الأفراد. فليست أنواع الحياة فقط.. بل إن الأفراد أيضا.. تحت حماية معينة من العديد من الأخطار المتحفزة، والتي تحيط بها دائما، وتهدد

بالقضاء عليها، وتسبب انقراضها في كل لحظة من لحظات الحياة. وعلى هذا فإن بقاء تلك الأنواع على قيد الحياة لا يقوم على الصدفة بتاتا، بل إنه عملية منظمة ومرتبة ومخططة تخطيطا دقيقا، وتُستخدم فيها التدابير اللازمة لحفظ الحياة، والتي تظل تعمل على الدوام طوال تاريخ الحياة. وفيما يلي بعض الآيات القرآنية التي اخترناها لعلاقتها بهذا الموضوع:

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ۞ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۞ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ۞ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (١٣ الرعد:٩-١٢)

المجانبة أو الكيرالتية في الطبيعة

ينفرد القرآن المجيد بين جميع الصحف المقدسة بالإشارة إلى موضوع المجانبة فيما يتعلق بالسلوك الاجتماعي والديني. وإن المرء ليعجب حين يقرأ أن هناك أهمية ما تترتب على جانب اليمين أو الشمال، كما يعجب أيضا حين يعلم أن الأمر نفسه يرتبط بسلوك الرسول ﷺ وتعاليمه، حيث يقوم استعمال اليمين والشمال بدور خاص في سلوك الإنسان المسلم. فمثلا.. تُستعمل اليد اليمنى لجميع الأشياء الطيبة والأعمال النظيفة؛ فالإنسان يجب أن يأكل بيده اليمنى، ويبدأ باليمين حين يقوم بخدمة الآخرين، ولا يلمس شيئا قذرا بيده اليمنى، وهلم جرا. وينطبق العكس على اليد اليسرى. وبالمناسبة.. حين يصافح إنسان يد إنسان مسلم فإنه يكون على يقين بأنه يصافح يدا نظيفة. وحينما نتناول موضوع الكيرالتية أو ظاهرة المجانبة بالمناقشة المفصلة فيما بعد فسوف تنكشف للقارئ أمور عجيبة عن ظاهرة المجانبة كما تُشاهد في الطبيعة. وليضع القارئ في

اعتباره أن هذا دليلا قويا على أن صاحب هذا الكتاب الجليل.. القرآن المجيد.. هو نفسه خالق هذا الكون العظيم.

إن تعبير "التحيز – partiality" يُقصد به عادة أن اختيارا ما قد تم لأن هناك أسبابا معينة أدّت إلى هذا الاختيار. ولكن حين يتعلق الأمر بالله ﷻ فإن جهل المرء بالأسباب التي ينحاز الله من أجلها إلى ظاهرة التجانب لا تعني بالضرورة عدم وجود أسباب خفية لوقوع هذا الاختيار المعين منه ﷻ.

وكلما غاص العلم في أغوار عُمق فهم سلسلة الأسباب والنتائج، كلما ازداد فهم السلوك الطبيعي لبعض الأطر.. الأمر الذي لا يمكن شرحه الآن.

الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح

يؤكد القرآن الحكيم مرارًا.. وبغير أي غموض أو خفاء.. على أنه كان لا بد من القيام باختيارات معينة في كل خطوة من مراحل الخلق، وفي كل مرة كان الاختيار يتم عن تبصر وحكمة، ولم يكن أبدا اختيارا أعمى للانتخاب الطبيعي. ودائما كانت يد القدرة لله تعالى، العليم البصير، هي التي تقوم بالانتخاب والاختيار. والقرآن الحكيم يُعلن بكل قوة وبكل تأكيد:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢٨ القصص:٦٩)

ويأتي أيضا نفس هذا التأكيد واليقين في الآيات التالية:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ ۞ أَفَرَءَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ ۞ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ۞ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ

الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۞ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ ۞ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ ۞ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۞ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ۞ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۞ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۞ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۞ أَفَرَءَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۞ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ۞ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ۞ أَفَرَءَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ۞ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَم نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ۞ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾

(٥٦ الواقعة:٥٨-٧٤)

وتلفت هذه الآيات الكريمة نظر الإنسان بقوة وبتأكيد إلى حقيقة أن الله تعالى هو الخالق، وأنه هو وحده الذي ينتخب ويختار. فعملية الانتخاب الطبيعي ليست متروكة للصدف ولا لأشياء أو لعوامل هي ذاتها مخلوقة. بل في كل مرحلة وعند كل خطوة، يكون الله تعالى هو الذي يقرر الاختيار، وهو وحده المنتخِب الأعظم.

فليس هناك من انتخاب يتم اعتباطا، ولا من اختيار أعمى لصفات معينة.. يقع تلقائيا مع ارتقاء الحياة. إنه الله تبارك وتعالى، من خلال عملية الحياة والموت، هو الذي يجعل الحياة تنشأ وتتطور بالشكل الذي يريده لها.. بصفاتها، ومقاصدها، ونسُقها، وطرُزها، وكيفيات بقائها واستمرارها. وليس من أدنى خلل في هذا التدبير العام للكون، لأنه هو سبحانه الذي يحكم بكل شيء من عليائه على عرش الجلالة، ويقضي بما يراه في كل أمر من الأمور بحكمته المطلقة. وليس بمقدور أحد أن يجد في

خلقه أي تناقض أو خلل أو نقص أو عيب. وما تدل عليه الآيات المذكورة أمر جلي لا يحتاج إلى شرح أو بيان.

أما في افتراضات دارون ونظرياته عن "البقاء للأصلح" كما سوف نناقشها فيما بعد، فليس هناك أي ضمان لحدوث تفاعل ينتج على الدوام في بقاء الأصلح بغير أن يصيبه خلل. بل على العكس.. إن بعض هذه الحيوانات التي قد تستمر في البقاء في صراعها مع الحياة.. قد تنجح في تحقيق ذلك في موقف معين. أما فيما يتعلق بتطور المؤهلات العليا والصفات الأسمى للحياة، فإن مجرد بقاء حيوان ما في ظرف معين لا يُشكل بالقطع ضمانا لاستمرار حفظ وبقاء هذه المؤهلات، وذلك لأنه في تلك الافتراضات والنظريات الداروينية.. ليس هناك من مكان لمنتخب عاقل حكيم وراء عملية الانتخاب في الطبيعة، يستطيع بقدرته الدائمة أن يختار الصفات الفُضلى خلال عملية الصراع بين الحياة والموت. إن المنظور القرآني للحياة يتحدث عن نظام كوني يعمل بحكمة وبغير خلل، ويخضع لسيطرة الخالق مع جميع تفاصيله الدقيقة، حتى لا يتسنى لأي نقص أو عيب أن يتسلل خلسة إلى فعاليات هذا النظام، كما يقول سبحانه:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (٦٧ الملك:٢-٥)

أهي مباراة في الشطرنج أم هي لعبة حظ!

إن بعض الآيات المذكورة آنفا المتعلقة بهذا الموضوع ترسم لنا يدا

هادية لصاحب الأمر والتدبير.. الذي يخلق وينفذ كل أمر بأقصى براعة وأكمل حكمة. وكل مخلوق يبدو على لوحة الكون الواسعة وهو يتحرك من موضع لآخر لتحقيق غرضٍ خُلق من أجله، سبق تعيينه وتحديده. هذه الرؤية للخلق لا تترك مكانا ولا مجالا لتطور يحدث بغير تدبير مسبق أو بدون تخطيط محكم. وفي الواقع.. إن تنظيم أمور الكون بأسره من قبل نشوء الحياة، ومن بعدها، قد جاءت الإشارة إليه في القرآن الحكيم باعتباره نظاما متوازنا ومترابطا.. يخلو تماما من أي نقص أو فوضى.

وتحقيقا لوجود النظام في كل ركن من أركان الكون وفي كل جانب من جوانبه، فإن القرآن الحكيم ينبذ تماما.. ويرفض قطعا.. فكرة وجود إله آخر، ينازع الله تعالى في خلقه وتدبيره وتنظيم مُلكه، الأمر الذي يترتب عليه تحول نظام الكون إلى فساد وفوضى.

لقد بحثنا حتى الآن الموضوع بصورة مبدئية مختصرة، وقد حان الوقت لبحث مفصل لجميع هذه الأمور.. الواحد منها تلو الآخر.. في فصل بعد فصل.

الفصل الثاني

أصل الحياة.. نظريات وافتراضات

لدهور طويلة.. ظل الفلاسفة يحاولون حل لغز الوجود وأصل الكون. وفي الحقبة الحالية.. تركز اهتمام العلماء على محاولة معرفة أصل الحياة. والمعضلة التي تواجههم هي ما الذي سبق الآخر.. هل الدجاجة هي التي باضت البيضة، أم أن البيضة هي التي أفرخت الفرخ؟ ولعل أصعب التحديات التي يواجهونها هي عن كيفية خلق المواد العضوية، فإن المواد العضوية هي من نتاج الحياة، والحياة نفسها هي من نتاج المواد العضوية. فكيف تحولت المواد غير العضوية إلى مواد عضوية قبل أن تُخلق الحياة؟

إن المشكلة التي جابهت الباحثين كانت مشكلة متناقضة في طبيعتها. وكل مشكلة تم حلها كانت تؤدي إلى الكثير من المشاكل التي ربما تكون أصعب من سابقاتها، وكل سؤال تمت الإجابة عليه كان يقود إلى سلسلة من الأسئلة مستعصية الإجابة. وكلما تقدم البحث.. مع الزيادة المطردة في عدد العلماء والباحثين.. كان يبدو في بعض الأحيان أن بعض هؤلاء قد عثر أخيرا على الكنْز الخفي. وقد أثارت هذه الاكتشافات اهتماما كبيرا لدى البعض ممن كان يميل إلى إطلاق الدعاوى الكبيرة مع كل كشف يُظَن أنه يخدم ما يعتقدون أنه يتفق مع أفكارهم عن كيفية حدوث أمر من الأمور. بينما كان البعض الآخر من العلماء أكثر حرصا، فظلوا يحذرون زملاءهم من العلماء ألا ينتهجوا نهجا مبالغا فيه عند استخلاص نتائجهم واستنتاجاتهم. وقد تشعبت الدراسات والبحوث في كل اتجاه للوصول إلى نتائج علمية تُشبع عقولهم العلمية. وإلى الآن لم يحظ أيّ من الحلول المفترضة على قبول إجماعي من المنتدى العلمي للعلماء

المتخصصين. فإن مختلف العلماء كان لهم رد فعل مختلف تجاه مختلف النظريات. والبعض رفض جميع النظريات المقدمة كليةً ليطرحوا بدلا منها افتراضاتهم الشخصية.. بينما قَبِل بعضهم الآخر هذه النظريات، ولكن جزئيا وليس كليا. ومع هذا فقد بدأ الاتجاه العام لمجموع هذه الدراسات والبحوث في الاتضاح، ومع مرور الزمن.. صار الأمر يزداد وضوحا. ولا تزال الدلائل تُكتشف لتضيف المزيد من الصحة إلى بعض الافتراضات السائدة والمقبولة في مجتمع العلماء.

إن الغرض من هذه المعالجة ليس هو الإثقال على القارئ بالاستفاضة في استخدام المصطلحات العلمية الغريبة، علما بأن استخدام البعض منها أمر لا يمكن الاستغناء عنه أو اجتنابه، وإلا فلن نتمكن من بيان التوافق والارتباط بين النتائج العلمية والآيات القرآنية، وهو الهدف الذي نسعى لتحقيقه. وقد حرصنا على تبسيط اللغة بالقدر الذي يسمح به الموضوع، حتى يمكن للقارئ العادي.. الذي لم يعتَدْ قراءة الموضوعات العلمية.. أن يتابع الموضوع، بشرط أن يبذل معنا جهدا ليكون يقظا، وهو جهد صعب ولكن نأمل ألا يكون مستحيلا.

وسوف تبين هذه الدراسة للقارئ أنه لم يثبت خطأ أيٍّ من تصريحات القرآن الكريم عن أصل الحياة وما يتبعها من تطور. بل على العكس.. إن الاتجاه العام للبحث العلمي لا يزال يؤيد المنظور المتعلق بخلق الحياة كما يقدمه القرآن. ونحن نعتقد أن هذا سوف يفتح أمام القارئ عالما من العجائب.. أشد إثارة وأكثر غرابة من العالم الذي رأته الطفلة آليس (Alice) في القصة المشهورة: آليس في بلاد العجائب (Alice in Wonderland). إن عجائب آليس كانت كلها محصورة في خيالات وأحلام، وأما الرحلة التي سوف نقوم بها لنسبر أغوار ماضينا السحيق، سوف نقوم بها ونحن نحلق على أجنحة الوحي الإلهي الذي يؤيده الدليل

العلمي. إن هذا ليس خيال.. بل هو عالم حقيقي من العجائب والغرائب وأسرار خلق الله تعالى، الله الأحد الذي ليس له من كفوٍ أحدٌ.

منشأ النظريات عن أصل الحياة

والآن دعونا نتصور.. بمساعدة البحث العلمي.. صورة البيئة الموجودة على الأرض وشكل الغلاف الجوي المحيط بها، كما كان عليه الأمر منذ حوالي ثلاثة مليارات ونصف المليار من السنين قبل أن تظهر الحياة. والمعتقد أن الجو في تلك المرحلة كان خاليا من الأكسجين الحر، رغم وجوده بالطبع حبيسا كعنصر داخل مركبات كثيرة. وفي مثل هذا الجو لا يمكن أن تقوم أي نوع من الحياة التي تعتمد على عملية الأيض لإطلاق الطاقة من خلال الأكسدة. ولكن في الواقع عدم وجود الأكسجين الحر في الجو كان ضرورة جوهرية تقتضيها عملية تخليق المركبات العضوية من المركبات غير العضوية. وعلى هذا.. وبتدبير خاص محكم كما نعتقد، أو بمحض الصدفة كما يظن العالم العلماني، فإن الجو خلال الثلاثة مليارات والنصف المليار من سني عمر الأرض ظل خاليا من الأكسجين. كذلك لم تكن هناك طبقة واقية من الأوزون. وكان لا بد للمواد الكيميائية الأولية اللازمة لوجود أشكال ثابتة من المركبات العضوية.. أن تنشأ بغير وجود الأكسجين.

> "يبدو أن ج. ب. س. هالدين (G. B. S. Haldane) البريطاني المتخصص في الكيمياء الحيوية.. كان أول من أدرك أن وجود جو خال من الأكسجين الْحُر كان ضرورة لنشوء الحياة من المواد العضوية غير الحية".[1]

ولا بد أن عدم وجود طبقة من الأوزون قد سهل وصول لفحات إشعاعات الطاقة القادمة من الكون إلى الأرض وإلى سطح المحيطات بدون عائق يعوقها. وكان هذا القذف المستمر بالطاقة الكونية الشديدة قد صار عاملا هاما في تكوين الكائنات الأولى في عصر ما قبل الحياة، وهي التي

ساعدت في تحويل المواد من مواد غير عضوية إلى مواد عضوية. إن تخليق المواد العضوية الأولية.. مثل الأحماض الأمينية.. في المحيطات، من المركبات الكيميائية غير العضوية، قد سببته الإشعاعات الكونية في جو خال من الأكسجين. وقد بدأ هذا التفاعل الكيميائي من جزيئات بسيطة من مركبات غير عضوية، مثل الماء وثاني أكسيد الكربون والأمونيا. وكلما تقدمت هذه العملية.. كما يقول هالدين.. صارت مياه المحيطات تشبه الحساء الساخن المخفف (الحساء الهيولي)[٢].

وقد نُشرت نتائج أبحاث هالدين عام ١٩٢٩ في دورية الراشيناليست آنيوال (Rationalist Annual)، ولكنها لم تحظ باهتمام يُذكر من الدوائر العلمية. وقبْل هالدين ببضع سنوات.. كان أحد العلماء الروس واسمه أ. ي. أوبارين (A.I. Oparin)، قد نشر رسالة قصيرة في روسيا عام ١٩٢٤ وذكر فيها أفكارا مماثلة عن أصل الحياة. و لم تكن هذه الرسالة أكثر حظا من الأخرى. غير أن الرسالتين معا بحثتا في نفس الوقت وبصورة مستقلة موضوعَ كيفية تخليق المركبات العضوية من المركبات غير العضوية قبل أن تنشأ الحياة.

علامة جديدة على الطريق

بعد أوبارين وهالدين.. صعد علماء آخرون سلم الشهرة بانخراطهم في نفس البحث من جديد. وفي تلك الفترة.. كان بلا شك هارولد س. يوري (Harold C. Urey) من جامعة شيكاغو الأمريكية.. صاحب أعظم أثر نظري في هذا المجال. وقد أعاد صياغة أطروحات أوبارين- هالدين في كتابه: الأجرام *The Planets*[٣] وبعث الحياة في اهتمام العلماء بالبحوث الرائدة فيما يختص بموضوع أصل الحياة. غير أنه في مجال البحوث التجريبية كان ستانلي ل. ميلر (Stanley L. Miller)، وهو تلميذ يوري، هو الذي استطاع أن يخطف الأضواء عام ١٩٥٣. فحسب نظرية يوري.. استطاع ميلر أن يخلق الجو الذي كان مشابها لجو الأرض في

المراحل الأولية، وكان ذلك في جهاز زجاجي محكم الغلق. وملأ الجهاز ببضع لترات من غاز الميثان والأمونيا والإيدروجين، موافقا بذلك الجو الذي كان يظن العلماء أنه الجو الذي كان سائدا على الأرض. وأضاف إلى هذا الخليط قليلا من الماء، واستبدل أثر البرق بجهاز يطلق بعض الشرارات، بينما استعمل لولب كهربي لتسخين الماء وإبقائه في حالة غليان. وفي خلال بضع أيام بدأت تترسب على الزجاج طبقة حمراء، وعند تحليلها، كاد قلب ميلر يرقص فرحا حين وجدها غنية بالأحماض الأمينية[٤].. التي تترابط لتكوين البروتينات التي تشكل المادة اللازمة في تكوين قوالب الحياة.

في ذلك الوقت.. كانت نتائج هذه التجربة تعتبر أكبر دليل دامغ على أن المادة العضوية التي يلزم وجودها لبناء قوالب الحياة، يمكن أن تتكون من التفاعل الطبيعي بين الجو ومياه البحر لتكوين 'الحساء الهيولي'. ولم تلبث أن انتشرت بعد ذلك الخيالات والتصورات حول هذا الكشف. وراح الكثير من العلماء المتحمسين يتنبأون بأنه لن يمضي وقت طويل حتى يتمكن العلماء من تخليق الحياة نفسها في أنبوبة اختبار. غير أنه بعد مرور العديد من السنين، اضطر ميلر نفسه أن يعترف قائلا:

> "لقد تبين أن مشكلة أصل الحياة أصعب كثيرا وأشد تعقيدا عما كنت أتصور أنا ومعظم الناس".[٥]

لقد تمت تجربته التاريخية عام ١٩٥٣ حين لم يزد عمره عن الثالثة والعشرين عاما، وكان لا يزال طالبا في جامعة شيكاغو. وقد تصادف أن تم بنجاح إجراء بحث علمي هام آخر في نفس العام يرتبط أيضا بنفس الموضوع. ولأول مرة تمكن واطسن وكريك (Watson & Crick) من فك رموز حامض Deoxyribonucleic acid المعروف باسم (DNA). والـــ DNA مع الـــ RNA يُكَوّنان القوالب الأساسية للحياة. غير أن هذا أدى إلى تحدّ أكبر في تصوّر كيفية تكوين الحياة من بعض الأشكال البدائية

للمواد العضوية عن طريق الصدفة المحضة، حسبما تصور العلماء، لتتحول إلى مواد مُركبة في غاية التعقيد.

كانت المشاكل ذات جوانب متعددة. وكان من ضمن الأسئلة التي أثيرت سؤالٌ عن كيفية تحويل المادة غير العضوية إلى المادة العضوية الأولية اللازمة لبناء قوالب الحياة، وبأي قدر من الصدفة. وحين العودة إلى التجارب الأولى ليوري.. حدث أن أعاد فريق من العلماء فحص النتائج المعملية الأولى بدقة بالغة، واكتشف بعضهم وجود عيوب كثيرة في تجربة ميلر، الأمر الذي أزال عن التجربة كثيرا من البريق الذي كان يلمع فيها.

كان أحد أهم الاعتراضات ضد تجربة ميلر هو أنها تمت في دورق زجاجي بسيط وأنبوبة اختبار. وأن الماء الذي كان يمثل مياه البحر في الحقيقة.. قد ظل في ذلك الجهاز عند درجة الغليان، بينما في الظروف الطبيعية لم تكن المياه لتصل إلى هذه الدرجة من الحرارة، الأمر الذي كان يستدعي إبقاء مياه البحر في درجة الغليان على مدى المليارات من السنين.

كذلك فإن بعض العلماء كانوا يرون بداية باردة لعملية تخليق الحياة، بدلا من البداية المصابة بالبلل التي طرحها ميلر. فقد كان العلماء يميلون إلى تفضيل تخليق المادة العضوية على أساس من الكيمياء الجافة بدلا من المياه التي تغلي.

وذهب البعض الآخر إلى القول بأن المواد العضوية الأولية اللازمة لتخليق الحياة لم تتكون هنا على الأرض، واستشهدوا ببعض الدراسات التي أجريت على صخور بعض النيازك التي ثبت أن بعضها تحتوي على كثير من الأحماض الأمينية. وفي الواقع.. إن تجربة ميلر التي أجريت تحت ظروف محكومة قد نتج عنها خمسة وثلاثون حمضا أمينيا فقط، بينما أمكن العثور على اثنين وخمسين حمضا أمينيا عند الدراسة التحليلية للمواد القادمة من الفضاء. غير أن أولئك الذين يفضلون "بداية سائلة" تنشأ في

مياه البحر.. أثاروا العديد من الاعتراضات ضد هذا الاقتراح. ويتعلق أحد هذه الاعتراضات بالظاهرة المعروفة بالاحتكاك الجوي التي تتسبب في توليد درجات حرارة عالية حينما تدخل النيازك في الغلاف الجوي. ويمكن لهذا الاحتكاك أن يرفع درجة حرارة صخور النيازك المارقة في جو الأرض حتى تصير شعلة من النيران المتأججة. وبالتالي فلا بد أن تكون كل المواد العضوية التي يحملها الصخر المتقد قد تحللت عن آخرها في الغلاف الجوي، قبل أن تصل إلى سطح الأرض. أما دليل وجود الأحماض الأمينية التي عُثر عليها في صخور النيازك، حسب أقوال أولئك النقاد من العلماء، فإنه يشير فقط إلى التلوث الذي أصاب تلك النيازك بعد أن وصلت إلى الأرض، وبعد أن بردت. وعلى ذلك فإن أولئك الدعاة الذين كانوا يُصرون على وصول المواد العضوية إلى الأرض بسلامة قادمة إليها من الفضاء.. راحوا يطرحون مقترحات أخرى للتغلب على مشكلة حرارة الاحتكاك الجوي.. تتغير فيها وسائل المواصلات.. حتى يمكن التخلص من هذا العيب. وكان الاقتراح هو أن المادة العضوية تكون قد جاءت إلى الأرض وهي مغلفة بطبقات عازلة من غطاء ثلجي مثل تلك الثلوج التي توجد في ذيل النجوم المذنبة. وبذلك تكون تلك المواد العضوية قد استقرت على الأرض بهوادة مثل قطرات الندى.

وحين نعود مرة أخرى إلى التجربة التاريخية التي أجراها ميلر، والعاصفة التي أثارتها، نجد أنه لم يمر وقت طويل حتى هدأ كل الغبار واستقر على الأرض. وأثناء الهدوء الذي تلا العاصفة أعاد بعض العلماء تقييم الأمور في تأن وهدوء.

كان أحد البارزين من هؤلاء العلماء هو ر.ي . ديكرسن (R. E. Dickerson) الذي أعاد بدقة بالغة في مقالته الرائعة: (النشوء الكيميائي وأصل الحياة *Chemical Evolution and the Origin of Life*)، فحصَ جميع النتائج والاستنتاجات المستخلصة من تجربة ميلر، وذلك في دراسة

موضوعية بغير تحيز. والأمر الهام الذي تجلى من خلال فحصه هو أن جميع الحقائق والبيانات التجريبية التي تتعلق بتجربة ميلر لم تحتويها التقارير الأولى. ووجد ديكرسن أنه من المحتم عليه أن يقول:

"رغم أن التجربة أنتجت الكثير من الأحماض الأمينية الموجودة في بروتينات الكائنات الحية، إلا أنها أنتجت أيضا الكثير من الجزيئات التي لا توجد في الأجسام الحية".[٦]

وقد قام العديد من العلماء بإجراء تجارب أخرى على نمط تجربة ميلر الرائدة، فكشفت عن أنه من بين كل ثلاثة من الأشكال الأيزومرية* لكل حمض أميني تم إنتاجه خلال هذه التجارب.. فإن "الفالين فقط هو الذي يوجد في البروتين اليوم". ولم يحدث أن أيًّا من السبعة أحماض الأمينية الأيزومرية التي تكونت بواسطة إطلاق الشرارات الكهربية في هذه التجارب قد "تحددت كمُكَوّن للبروتين" حسب القانون العام للحياة على الأرض. كذلك فقد أضاف قائلا:

"... ما هو سبب اختيار المجموعة الحالية التي تتكون من عشرين حمضا أمينيا؟ هل كانت هناك بدايات فاشلة، لها شفرة وراثية معينة كانت تتكون من مجموعة أخرى من الأحماض الأمينية، ثم انقرضت وماتت بغير أن تترك أثرا، لأنها لم تستطع أن تتعايش مع مجموعات أخرى استطاعت أن تبقى على قيد الحياة؟[٦]

إن مهمة تخليق بروتين يكون على درجة من أكثر درجات التعقيد من التركيب المتتابع الدقيق، وهو المادة الأساسية لبناء لبنات الحياة مثل (DNA/RNA)، من خلال الأحماض الأمينية البسيطة التي أمكن تخليقها في تجربة ميلر.. كانت "مهمة مستحيلة". وحتى لو قبلنا أنه نظرا لتداخل

* المركبات الأيزومرية تتكــون من ذرات متماثلة النــوع والعدد، ولكنها مختلفــة من حيث الترتيب والخصائص. (المترجم)

وتفاعل ما لا يُحصى من الصدف فإن جزيئات (DNA/RNA) قد أمكن تخليقها أخيرا.. فإن المعضلة تظل أبعد ما تكون عن الحل.

ويذكر ديكرسن قـــول العالم البريطاني ج. د. برنال (J. D. Bernal) الذي يؤكد على صعوبة المشكلة، فيتصور مشهدا لاحتمال تكوين جزيء واحد عن طريق الصدفة، فيقول:

"... إن تكوين بقية أنواع الحياة عن طريق الصدفة أقل معقولية عن وجود آدم وحواء في الجنة".[٧]

وعندما قام ديكرسن بتلخيص المشكلة.. أوضح الصعوبات الكامنة في الحلول المطروحة، وذكر أن تلك النظريات تعتمد في الواقع على الغريب الجامح و الخيال السارح من عوامل الصدفة. ولكن.. سوف نعالج هذا الموضوع فيما بعد.

المـــــــــراجع

1. DICKERSON, R.E. (September, 1978) *Chemical Evolution and The Origin of Life*. Scientific American, p.70
2. DICKERSON, R.E. (September, 1978) *Chemical Evolution and The Origin of Life*. Scientific American, p.71
3. UREY, H.C. (1952) *The Planets*. Yale University Press, New Haven.
4. MILLER S.L. (1955) *Production of Some Organic Compounds under Possible Primitive Earth Conditions*. Journal of The American Chemical Society: 77:2351-2361
5. HORGAN, J. (February 1991) *In The Beginning.* Scientific American, p.117
6. DICKERSON, R.E. (September, 1978) *Chemical Evolution and The Origin of Life*. Scientific American, p.75-76
7. DICKERSON, R.E. (September, 1978) *Chemical Evolution and The Origin of Life*. Scientific American, p.73

الفصل الثالث

الجـــــن

فليستعد القارئ الآن لأن يبدأ القيام برحلة إلى الماضي السحيق على أجنحة الخيال العلمي للكشف عن طبيعة وشخصية الجن. وقد سبق أن تطرقنا باختصار إلى موضوع فكرة القرآن عن الجن، وذلك في الفصل الأول من هذا الباب الخامس بعنوان: **الحياة من منظور الوحي القرآني**. وتذكر المعاجم العربية المعاني التالية لكلمة "جن"، وهي تدل حرفيا على كل شيء يتصف بصفة الخفاء أو الاختفاء، أو الانعزال، أو البعد، كما يدل أيضا على الأطياف القاتمة والظلال المعتمة. ولهذا استعمل القرآن لفظ "جنة" التي تعني حديقة كثيفة الأشجار.. للتعبير عن فردوس الآخرة، وذلك لأن كثافة أشجار الحديقة تخفي الأرض وتلقي عليها ظلالا كثيفة. وينطبق أيضا لفظ "الجن" على الحيات والثعابين، لأن من طبيعتها أن تظل في خفاء عن الأنظار، وتعيش حياة منعزلة عن بقية الحيوانات في شقوق الصخور وحُفر الأرض. كذلك فإن نفس اللفظ يُطلق على النساء اللواتي تنعزل في خدورها عن مخالطة الناس، وأيضا تنطبق على القادة وعلْية القوم الذين يُفضلون الانعزال عن عامة الناس. كذلك فإن اللفظ يُطَلق أيضا على سكان الجبال الوعرة التي يصعب الوصول إليها، لانعزالهم عن المجتمع البشري العادي. وعلى هذا.. فإن كل ما يظل بعيدا عن أعين الناس عامة والنطاق المباشر لرؤية العين المجردة يمكن أن يُطلق عليه لفظ الجن.

ويؤيد هذا المعنى أيضا حديث شريف للرسول ﷺ ينصح فيه الناس بعدم الاستنجاء بكتلة من الرَوَث أو بعظام الحيوان الميت حيث إنها طعام الجن. وكما أننا نستخدم الآن 'أوراق التواليت'.. كان الناس في القديم

يستعملون كتلة من الأرض، أو بعض الأحجار، أو أي شيء جاف يكون في متناول اليد لتنظيف أنفسهم. ومن هنا يمكن استنباط أن ما كان يعنيه الرسول ﷺ بلفظ الجن لم يكن سوى الكائنات غير المرئية التي تتغذى على الرَوَث، وعلى العظام العفنة، وما شابه ذلك. ولنتذكر أن فكرة البكتريا والفيروسات وغيرها لم تكن موجودة عندئذ، ولم يكن لدى أحد أدنى تصور عن وجود كائنات متناهية في الصغر لا تستطيع العين المجردة أن تراها. ومما يثير العجب حقا أن الرسول ﷺ كان يعني هذه الكائنات الدقيقة غير المرئية باستخدام لفظ الجن، فليس في اللغة العربية لفظ يصلح لوصف تلك الكائنات أفضل من لفظ الجن.

والقرآن الكريم يشير أيضا إلى أمر هام يتعلق بخلق الجن، فيذكر أن الجن قد خُلق قبل خَلق الإنسان، وأنه خُلق من نار السموم، فقال:

﴿وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ﴾ (١٥ الحجر:٢٨)

وصفة ﴿السَّمُومِ﴾ المذكورة هنا تصف طبيعة تلك النار التي خُلق الجن منها، وتعني النار المتقدة، أو آفة نارية ليس لها دخان[١]. ونجد أيضا في الكتاب العزيز آية أخرى مشابهة تقول:

﴿وَخَلَقَ الْجَآنَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ (٥٥ الرحمن:١٦)

ولنحاول الآن أن نفهم هاتين الآيتين اللتين ذكرتا خلق الجن من النار.. بعد أن نضع في الاعتبار مقصود الرسول ﷺ في استعمال لفظ الجن للتعبير عن الكائنات الدقيقة كالبكتريا والفيروسات وغيرها. وأول ما يخطر على البال هو تلك الكائنات الدقيقة التي تستمد الطاقة اللازمة لاستمرار وجودها مباشرة من سخونة الصواعق البرقية "السموم"، وطاقة الإشعاعات الكونية.

ولا يسع ديكرسن سوى أن يتفق من حيث لا يدري مع ما يذكره

القرآن المجيد حيث يقول عن معظم الكائنات الحية في الأزمنة السحيقة:

"... كانت تعيش على الطاقة المنبعثة من البرق والأشعة فوق البنفسجية".[٢]

إن منظور الإشعاع الكوني هذا لم يذكره أحد من العلماء الذين يبحثون موضوع وجود الكائنات في الأزمنة السحيقة قبل نشوء الحياة المعقدة، غير أنهم أيضا أيدوا فكرة أنه مهما كانت نوعية الكائنات التي كانت موجودة قبل نشوء الحياة المعقدة، فلا بد أنها كانت تستمد الطاقة اللازمة لها من الحرارة مباشرة. وبين جميع مجموعات البكتريا التي صنفها العلماء على أنها أقدم ما وُجد من البكتريا.. لم يذكر علماء الأجيال السابقة سوى نوعين اثنين فقط هما بروكاريوتس وإيوكاريوتس (prokaryotes and eukaryotes). غير أنه قد تبين أن الرأي الذي يقتصر على نوعين فقط من البكتريا كان رأيا متسرعا من وجهة نظر كارل ر. ووز (Karl R. Woese) وزملائه حيث قالوا:

"ببساطة شديدة.. لأن هناك نوعين من الخلايا على المستوى الميكروسكوبي لا يعني هذا أنه يجب أن يكون هناك نوعان فقط على المستوى الجزيئي".[٣]

ولعله من المفيد للقارئ العادي أن نذكر أن التعريف البسيط للفرق بين نوعي البكتريا المعروفين باسم بروكاريوتس وإيوكاريوتس هو وجود أو غياب النواة فيهما. فرغم أن نوع بكتريا البروكاريوتس يتميز بوجود غشاء رقيق ومحدد، إلا أنها لا تحتوي على نواة بشكل واضح. أما بكتريا الإيوكاريوتس فهي تحتوي على نواة محددة وواضحة المعالم ومستقرة في وسط كل خلية.

كان هذان النوعان يُعتبران النوعين الوحيدين من أشكال البكتريا التي كانت موجودة في الأزمنة السحيقة، والتي توَلد منها أنواع أخرى وتطورت في شكل كائنات يمكن أن تعتبر الأسلاف القديمة للحياة. غير أن وُوز نشر نتائج أبحاثه الرائدة في مجلة *Scientific American* الصادرة في

يونيو (حزيران) من عام ١٩٨١ قائلا إن الأركيبكتريا Archaebacteria يمكن أن تعتبر بحق أول أشكال الكائنات. وذكر هو ومؤيدوه للمجتمع العلمي أن هذا النوع هو نوع ثالث متميز، وقد سبق في وجوده جميع الأشكال الأخرى. وعلى هذا فإن هذا النوع هو الذي يجب اعتباره أقدم الأسلاف للحياة. واستمر وُوز ومؤيدوه في تقديم وابل من الدلائل القوية على هذا الكشف حتى بدأت الأغلبية من العلماء تميل إلى رأيه، مما جعل وُوز يكتب قائلا:

"رغم أن القلة من علماء البيولوجيا لا تزال تجادل في تفسيراتنا، فإن فكرة أن الأركيبكتريا تمثل تجمعا متميزا على أعلى مستوى.. قد صارت فكرة مقبولة بشكل عام".[٤]

وكتب أيضا يقول:

"وهذا يعني أن مجموعة المثانوجن methanogens تماثل في القدم، أو هي أقدم من أي مجموعة أخرى من البكتريا".[٤]

وحسب ما جاء في قاموس هتشينسن للعلوم *The Hutchinson Dictionary of Science*:

"... الأركيبكتريا هي أقدم أشكال الحياة التي ظهرت منذ حوالي أربع مليارات من السنين، حين لم يوجد في جو الأرض سوى القدر القليل من الأكسجين".[٥]

ولكن صاحب مؤلف *Genetics A Molecular Approach* يقول:

"منذ عام ١٩٧٧ أمكن اكتشاف الكثير والكثير من الفوارق والاختلافات بين الأركيبكتريا وأنواع البروكاريوتس الأخرى، كانت من الكثرة بمكان حتى إن علماء الميكروبيولوجيا صاروا يفضلون الآن استعمال لفظ أركيا للتأكيد على أن هذه الكائنات هي نوع يختلف عن البكتريا".[٦]

ويبدو أن هذا التوصيف المذكور ينطبق على الكائنات التي وُصِفت في القرآن بلفظ "الجن". ولكن بالرغم من أن العلماء يعتبرون بالإجماعِ أن

لدى هذه البكتريا القدرة على استخلاص الطاقة اللازمة لها من الحرارة، إلا أن أحدا من العلماء غير ديكرسن لم يذكر أنها قد خلقت مباشرة في الأصل من الأشعة الكونية ومن ضربات البرق، غير أن الباقين على أية حال لا يزالون يكشفون النقاب عن الكثير من الأسرار التي تنجلي من خلال البحث العلمي.

"... في الثقوب الأرضية التي تتدفق منها الحمم تحت البحر، وفي الينابيع الحارة، وفي البحر الميت، وفي الأماكن المشبعة بالملح، بل إنها تكيفت لعدم قبول غذاء".[٧]

وأما فيما يتعلق بتوغل هذا النوع في القدم، فليس لدى وُوز ومؤيديه أي شك بتاتا في أن الأركيبكتريا هي أقدم الأنواع على الإطلاق، بينما لا يستبعد بعض من العلماء أن تكون قد تطورت في نفس الوقت أيضا عن أنواع أخرى مجهولة.

ولكن هذه كلها أمور تقع خارج نطاق هذا البحث. فسواء كانت الأنواع الأخرى من البكتريا قد نشأت عن هذا النوع أم لا.. أمر ليس على درجة من الأهمية بالنسبة لمناقشتنا للموضوع. فالمهم هو أن جميع أشكال البكتريا القديمة كانت تستخلص الطاقة اللازمة لها من الحرارة مباشرة.. ولا شك أن هذه الحقيقة العلمية لها قيمتها في إعلان عظمة البيان القرآني الذي جاء منذ أكثر من أربعة عشر قرنا وقال:

﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ﴾ (١٥ الحجر:٢٨)

وحسب الدراسات العلمية المقبولة والمعترف بها، فإن الحرارة المباشرة من النار قد لعبت دورا هاما وحيويا في خلق واستمرار حياة الكائنات في العصور السحيقة قبل تكوين الحياة المعقدة. وفي الواقع كان هذا هو الشكل الوحيد المتاح لاستخلاص الطاقة اللازمة لحياة هذه الكائنات في تلك المرحلة. ومع تكاثرها المستمر بغير انقطاع على مدى ألوف الملايين من السنين، فلا بد أن موتها قد لَوّث مياه البحار بعد أن تحللت وتخمرت

وحولت مياه البحر إلى حساء هيولي. وهذا ما سوف نبحثه بتفصيل أكثر في الفصل القادم.

*****

المـــــــراجع

1. LANE, E.W. (1984) *Arabic-English Lexicon.* Islamic Text Society, William & Norgate. Cambridge.
2. DICKERSON, R.E. (September 1978) *Chemical Evolution and the Origin of Life.* Scientific American, p.80
3. WOESE, C.R. (June, 1981) *Archaebacteria.* Scientific American, p.104
4. WOESE, C.R. (June, 1981) *Archaebacteria.* Scientific American, p.114
5. *The Hutchinson Dictionary of Science* (1993) Helicon Publishing Ltd., Oxford. p.37
6. BROWN, T.A. (1992) *Genetics A Molecular Approach*. Chapman & Hall. London, p,245
7. *The Hutchinson Dictionary of Science* (1993) Helicon Publishing Ltd., Oxford. p.37

الفصل الرابع

الدور الحيوي للطين والتخليق الضوئي في عملية نشوء الحياة

فلنكتف بهذا القدر من الكلام عن النار، ولنحَوِّل باصرتنا الآن نحو الماء، فهو النَقيض المضاد لها، ولنتعرف على الدور الذي لعبه الماء في عملية خلق الحياة.

لقد انتهت المرحلة التي عاشت فيها الكائنات التي أطلق القرآن عليها لفظ الجن، وبدأت مرحلة أخرى تختلف عنها تماما، كانت هي التي تتوسط بينها وبين المرحلة النهائية للتخليق الضوئي photosynthesis. وهذه المرحلة المتوسطة يمكن اعتبارها المرحلة التحضيرية لتخليق المواد التي كان من الضروري وجودها من أجل الحياة. والدراسة الدقيقة لما يأتي ذكره سوف تساعد على التصور الصحيح لكل ما تم في تلك الحقبة.

الكيمياء على الوجه العام تنقسم إلى جزءين أساسيين هما الكيمياء العضوية والكيمياء غير العضوية. وغير العضوية هي تلك التي تتعلق بالمركبات التي هي معادن في طبيعتها، وليست من نتاج الحياة. ومجرد وجود الكربون في ذاته لا يؤهل المركّب لأن يُعتبر عضويا. وكذلك فإن الماء، وكلوريد الصوديوم، والبوتاسيوم، كلها مواد غير عضوية، لأنها توجد أيضا على نطاق واسع خارج الخلايا الحية. وأيضا فإن ثاني أكسيد الكربون يُعتبر من المواد غير العضوية، رغم أنه يُنتَج بواسطة الكائنات الحية خلال عملية التنفس.

وباستثناء ثاني أكسيد الكربون الذي يُعتبر غير عـــضوي، فإن

الكربون يوجد في جميع المركبات العضوية التي ليست بالضرورة من نتاج الكائنات الحية.

ويعالج هذا الفصل جميع الخطوات التحضيرية التي كان من اللازم وجودها قبل خلق وحدات الحياة (bio-units). ونذكر باختصار ما أشار إليه القرآن المجيد عما حدث خلال هذه المرحلة المتوسطة، إذ يشير إلى أنه بعد أقدم المراحل في خلق الجن، لعب الماء دورا حيويا في إعداد المواد اللازمة لتكوين الأحياء. وكانت هذه المواد عبارة عن مركبات عضوية وُصفت بأنها طين لازب، أي راكد.

وقد حاول بعض العلماء البارزين أن يحلوا لغز إعداد المركبات العضوية قبل بداية الحياة على الأرض. وكان جوهر المشكلة يكمن في أن جميع المركبات العضوية هي من نتاج وجود الحياة. فكيف تكونت هذه المركبات العضوية، سواء في البحر أو على الأرض الجافة، بينما لم توجد خلال تلك الحقبة سوى المركبات غير العضوية؟ لم يكن يوجد في تلك الأزمنة معامل كيميائية متطورة، كما نجد الآن في صناعات الأدوية، تستطيع تخليق المركبات العضوية من المركبات غير العضوية. ويرجع فضل القيام بالأعمال العظيمة الرائدة في هذا المضمار إلى كل من برنال (Bernal)، وهالدين (Haldane)، وديكرسن (Dickerson)، وميلر (Miller)، ويوري (Urey)، وكارينس-سميث (Carins-Smith)، وأوبارين (Oparin)، والكثيرين من غيرهم.. فإن عبقريتهم جميعا تستحق التحية والتقدير، فهم الذين حاولوا إعادة بناء وتكوين هذه القصة المذهلة عن كيفية خلق المركبات العضوية من المركبات غير العضوية بغير توفر الظروف الخاصة التي يمكن التحكم فيها في المعامل الحديثة. وفيما يلي سرد لهذه القصة المذهلة لما نجحوا وما فشلوا فيه. وهم بأنفسهم يعترفون بهذا الفشل، ولكن اعترافهم هذا هو دليل آخر على عظمتهم. ويعالج هذا الفصل كيف تم بذل المحاولات المختلفة لحل هذا اللغز، وما هي الحلول المختلفة

التي أمكن التوصل إليها خلال المرحلة التي تم فيها هذا البحث. وليست هذه مجرد محاولة لتقديم عمل عظيم في الكيمياء الحيوية نبتغي أن نلفت إليه نظر القارئ، وإنما نبتغي أن نلفت أنظار القارئ إلى حقيقة أن ما ذكرناه عما أشار إليه القرآن المجيد قد لقي تأييدا كاملا من أكثر البحوث العلمية تقدما.

وتدور البحوث العلمية حول إعداد المواد العضوية اللازمة للحياة، وكلها ظلت محصورة في إثبات بداية مائية. والعلماء جميعا متفقون مع القرآن المجيد على هذا القدر. ولكن القرآن يذكر بالإضافة إلى ذلك بداية منفصلة أكثر قدما.. بدأت على الأرض الجافة.

وملخص الأمر كله هو ما يلي.. رغم أن المركبات العضوية يمكن أن تتخلق في محاليل مائية في بحار ما قبل التاريخ، فإنها تعود بفعل العوامل المائية إلى التحلل مرة أخرى إلى مكوناتها الأصلية الأولية. وكان التحدي هو في معرفة كيف يمكن تجنب حدوث هذا التحلل، حتى يمكن أن تتكون مادة عضوية أكثر تقدما واستقرارا، فلا تعود إلى جزئياتها الأصلية. وما دامت المادة العضوية الأولية في الماء، فإن انتقال ذرة الهيدروجين إلى المواد الكيميائية الجديدة يعني استمرار تحلل المادة القديمة إلى مكوناتها الأولية البسيطة.. وهكذا.. الأمر الذي يؤدي إلى دائرة مفرغة، ما أن يتم فيها تكوين مادة عضوية إلا وتُفقد مقابل هذا مادة عضوية أخرى. ومن أجل أولئك القراء الذين يُفضلون قراءة وصفا علميا أكثر دقة لهذه العملية، نقدم لهم ما يلي:

إن جميع الأحماض الأمينية اللازمة لبناء وحدات الحياة تتكون من مركبات الألديهايد، وذلك من خلال نسق آلي مشهور يُعرف باسم 'تخليق ستركر' (Strecker Synthesis). ويتم هذا التخليق على خطوتين متتاليتين.. الخطوة الأولى هي تفاعل الألديهايد مع خليط من الأمونيا وحمض النيتريك لتكوين ما يعرف باسم الأمينونترايل

(Aminonitrile). وحين يتميأ الأمينونترايل ويتحلل بالماء فإنه يُكوّن حمضا أمينيا.

ولكن المشكلة هي أن الخطوتين المتواليتين في عملية تخليق ستركر قابلتين للعودة في الاتجاه العكسي أيضا. وكان التحدي الأكبر الذي كان على العلماء مواجهته هو كيف يمكن لهذه المركبات الأولية غير المستقرة أن ترتقي وتتقدم. وقد طُرحت الكثير من الحلول، ولكن تلك الحلول كانت تثير من التساؤلات أكثر مما يمكن الإجابة عليه.

وهناك اتفاق متنامٍ في المجتمع العلمي على أنه.. بشكل أو بآخر.. لا بد أن تكون هناك مرحلة جافة، تتمكن فيها المواد الكيميائية العضوية البدائية غير المستقرة في الحساء الهيولي من أن تستقر وترتقي إلى مُركبات عضوية أكثر تعقيدا، فلا تنعكس لتعود إلى مُكَوّناتها الأصلية. وبالإضافة إلى ذلك فإن تكوين البروتينات والأحماض النووية من الأحماض الأمينية الأولية.. يحتاج بالضرورة إلى التخلص من جزيء من الماء في كل زوجين من الجزيئات في الأحماض الأمينية والنوويات nucleotides، وتسمى هذه العملية باسم البلمرة Polymerization. والمشكلة هي أنه برغم أن عملية البلمرة تمت في مياه البحر، فإن وجود الماء كان يؤدي بالضرورة إلى انعكاس هذا التفاعل، وبهذا فإن عملية البلمرة تتحول إلى عملية لا بلمرة.

ويعني هذا أنه في المحاليل الأولية، لا بد من نزع الماء من كل جزيء أثناء وجوده في الماء، وهي عملية في غاية الصعوبة والتعقيد إن لم تكن مستحيلة – فإن معظم التفاعلات التكاثفية التي تتم في المعمل تعطي دائما نتائجَ أفضل حين تُتاح للخليط فرصة أن يجف. وهذا يعني أنه لا بد أن يكون تبخر المحاليل الأولية قد حدث بعد أن ارتطمت مياه البحر بالصخور وبطين الشواطئ. ولعل هذا كان طورا ضروريا ولازما للمركبات البِدائية التي تخلقت في الماء، وللمركبات الأخرى الأكثر تطورا وارتقاءً، والتي استقرت فلم تعد تتحلل مرة أخرى إلى أشكالها الأصلية.

ولعل أكثر النظريات معقولية وأقربها للواقع بين جميع النظريات التي عالجت هذه المشكلة، كانت تلك التي ذكرت أن العوامل المساعدة مثل السليكا والطين قد لعبت دورها في هذه العملية. وكان جون برنال (John Bernal) هو الأول الذي أشار إلى هذا في عام ١٩٥١، إذ ذكر في كتابه *The Physical Basis of Life* ما يلي:

"... إن التصاق جزيئات الماء بسطح الطين وبِلّورات المواد غير العضوية كان وسيلة فعالة لتركيز وبلمرة الجزيئات العضوية ...".[١]

ومنذ ذلك الحين لم تفقد هذه الفكرة وجاهتها ومعقوليتها:

"... لقد أوضح سيدني و. فوكس (Sidney W. Fox) أن الأحماض الأمينية كانت تتبلمر بشكل أكثر سهولة وينتج عنها بوليببتايد Polypeptides تحت ظروف مختلفة تتشابه مع تلك الظروف التي كانت سائدة على الأرض البدائية. ويبدو أن هذه البلمرة قد تنشطت بواسطة الشحنات الكهربية، أو بالحرارة عن طريق الطاقة الحرارية الناتجة عن باطن الأرض مثلا geothermal، أو بالالتصاق مع بعض أنواع الصلصال والبوليفوسفات polyphosphates".[٢]

وقد أخذ كارنس- سميث هذه الفكرة إلى مدى أبعد، فبينما ذكر برنال أنه ليس الصلصال وحده بل كان السليكون أيضا ضروريا كعوامل مساعدة في عملية تكوين الجزيئات العضوية، فقد ذكر كارنس- سميث أن أنواع الصلصال، ربما كانت وحدها هي التي تكونت منها المركبات العضوية. وقد لخص نظريته تلخيصا جميلا في افتتاحية البحث الذي نشره عام ١٩٦٦.

غير أن بعض العلماء كانوا يرون أن ارتقاء المادة العضوية لم يكن لها بداية مائية، لأن استمرار خطر التحلل في الماء لا يسمح للتفاعلات أن تخرج من دائرة التفاعل والتفاعل المعاكس. وكان من رأي هؤلاء أنه لا بد من البحث عن كيمياء التفاعل في بدايات صلبة وليست مائية.

ورغم تباين الرأي عن كيفية التغلب على مشكلة التكوين ثم التحلل

المعاكس في الماء، فهناك أمر أكيد متفق عليه.. وهو أنه لا توجد أية نظرية عن النشوء الكيميائي للحياة يمكن قبولها بغير وجود بداية جافة، أو مرحلة جافة متوسطة. وقد نشأت هذه المرحلة عندما تحولت مياه البحار إلى حساء هيولي، ثم تركزت هذه المياه لوجودها على الصخور أو على الشواطئ، ولما جفت تكونت طبقات من صفائح رقيقة من الصلصال. ومن الواضح أن القرآن المجيد في جانب أولئك الذين يقولون بوجود بداية مائية يتخللها مرحلة متوسطة من التعرض للجفاف، حيث ازداد تركيز الحساء الهيولي إلى أن تشكل في رقائق من صلصال كالفخار.

والبحوث التي قام بها كل من نوآم لاهاف (Noam Lahav)، ودافيد وايت (David White)، وشيروود تشانج (Sherwood Chang)، بيّنت بشكل أوضح أهمية الصلصال كعامل لعب دورا أساسيا في تخليق المادة العضوية. فقد بينوا كيف أن الصلصال، حين تعرض إلى دورات من البلل والجفاف، استطاع أن يربط بين جزيئات الحمض الأميني المعروف باسم جلايسين Glycine، وتسببت هذه الدورات في انتقال الطاقة من الجو المحيط إلى الجزيئات العضوية.[٣]

كان الحل الذي قدمه هؤلاء أقرب ما يكون إلى ما يقرره القرآن المجيد، غير أن كارنس-سميث هو الذي أيد القرآن الكريم بوضوح أكثر وبغير أي تحفظ، رغم أنه لم يكن يعلم شيئا إطلاقا عن وجود أية عبارة في القرآن تتعلق بهذا الموضوع.

ونعيد فيما يلي ذكر الآيات المتعلقة بالموضوع، حيث يقول تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (٢١ الأنبياء:٣١)

﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (٥٥ الرحمن:١٥)

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾

(١٥ الحجر:٢٧)

ولعله من المناسب التنويه هنا بأن هذه الآيات الكريمة توضح بجلاء أن المادة التي استُخدمت في تكوين رقائق الصلصال كانت من حمإ مسنون وهو الطين الراكد الذي يشوبه السواد بسبب تحلل المركبات العضوية.

وحيث إن بعض مفسري القرآن لم يستطيعوا تصور كيفية تكوين الإنسان من الفخار، وحيث إن قطع الفخار حين يُضرب بها على قطع أخرى من الفخار، تُخرج أصواتا ذات رنين، فقد ظنوا أن هذه الآيات التي ذكرت الفخار تشير إلى خاصية الكلام لدى الإنسان، وهو عبارة عن إخراج أصوات لها مدلولات معينة. ولكن هذا التفسير البعيد يلوي كلمة الفخار المذكورة في الآيات على غير حقيقتها. والآن بعد أن استطعنا فهم طبيعة المراحل التحضيرية المتوسطة التي ساعدت على تخليق المادة، فإننا نستطيع أن نفهم لفظ الفخار بشكل أفضل، وهذا هو المدلول الحقيقي لكلمة الفخار.

ويرى العلماء أنه مع ازدياد جفاف الصلصال، وبالتالي ازدياد تركيز المحاليل التي يحتويها، بدأت هذه المحاليل تتبلور في نسق غير متناظر، وتكونت بذلك طبقة رقيقة غاية في الدقة والرقة. ومع استمرار ترسب طبقة فوق أخرى.. تكونت صفائح رقيقة تشبه قطع الفخار. ولعله من المثير ملاحظة أن هذه الرقائق الرقيقة كانت تخدم غرضا آخر أيضا في غاية الأهمية، وهو توسيع المساحة التي يتم فيها التفاعل. إن رقائق الميكا (Mica) ورقائق الفخار تحتوي على صفائح رقيقة من السليكات تفصل بينها طبقات من جزيئات الماء. وتبلغ المسافة التي تفصل تلك الصفائح عن بعضها البعض ٠ر٧١ نانومتر (يساوي جزءا من مليار جزء من المتر). ويؤدي هذا إلى زيادة سطح المساحة التي يتم فيها انفصال الجُزيئات المائية بشكل كبير جدا، حتى إن مكعبا من الصلصال بهذا الشكل، لا يزيد حجمه عن سنتيمتر واحد، يمكن أن يوفر مساحة تبلغ حوالي ألفين وثمانمائة متر مربع، أي ما يبلغ مساحة ثلاثة أرباع هكتار.

لقد قدمنا فيما سبق تقريرا مختصرا لما انخرط فيه العلماء أثناء بحثهم عن دلائل تؤدي إلى خلق المواد المطلوبة لتكوين الحياة. وسوف نقدم فيما يلي ما حدث منذ ذلك الحي إلى نهاية الرحلة، مع الإشارة إلى البحوث القيمة التي قام بها كُوين (Coyne) في هذا المضمار.

ويقول كُوين، وهو من جامعة كاليفورنيا، في حديثه عن خصائص أنواع صلصال الكاؤلينايت (Kaolinite) في المراحل المبكرة من عملية النشوء الكيميائي، إن هذه الأنواع من الصلصال تمتص الطاقة من الوسط المحيط بها (عن طريق عملية النشاط الإشعاعي Radioactive process)، ثم يخزنها، ثم يطلقها عندما يتعكر الصلصال من خلال عمليات البلل والجفاف المتوالية.[٤]

إن رحلة الكشف عن أصل الحياة أبعد من أن تنتهي. والحقيقة أن جميع بحوث العلماء وجهودهم في الكشف عن لغز أصل الحياة لم تتقدم كثيرا عن مرحلة الحساء الهيولي للمواد العضوية، التي لا يزالون يستقصون أسرارها. أما كيف وماذا حدث خلال انبلاج الفجر الغامض للخلق في حساء البحار الهيولي، فهو أمر لا يزال قيد البحث في مراحله البدائية.

وبعد دراسة الأهمية المذهلة للصلصال الجاف كالفخار في المراحل التحضيرية لنشوء الحياة، دعونا نتوقف هُنيهة لنعجب للعبقرية المبهرة التي أعلنها القرآن المجيد منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان. إن فكرة اشتراك صلصال كالفخار في عملية خلق الإنسان فكرة فريدة وعجيبة، وهي تتناقض على طول الخط مع الأساطير التي كانت سائدة وذائعة في ذلك الوقت عن خلق آدم. ويستطيع المرء أن يدرك ويفهم بسهولة مدى تفكير العقل البسيط في ظل تأثير هذه الأساطير السائدة.. فيتصور أن الله قد خلط التراب بالماء، ثم جففه إلى حد ما حتى صارت لــه خصائص الصلصال من ليونة وصلابة فأصبح قابلا للتشكيل. وما تبقى بعد ذلك كان عبارة عن عملية تشكيل أو صب هذا الصلصال في قالب على شكل

إنسان. ويا للعجب!! لقد تم بذلك خلق آدم من التراب بكل مكوناته العضوية!! ففي هذه اللحظة قفزت إلى الوجود جميع المركبات المعقدة لخلايا جسمه بما تحتويه من DNA, RNA، وكروموسومات، وجينات، وخلايا جسدية، وخلايا تناسلية، وغيرها. وأيضا تكونت الأذنان والأنف والعينان، وخُلقت الأوعية الدموية، وتم تكوين القلب والرئتين بكل تعقيداتهما. وكذلك بالطبع تم في تلك اللحظة تكوين الجهاز العصبي المركزي وأجهزة المناعة!

ويظن بعض السذج ممن يطالعون الكتاب المقدس أن هذه المعجزة قد خُلقت في غضون نفخة النفَس الواحدة، التي يعتقدون أن الخالق قد نفخها في التمثال الطيني لآدم بعد أن صب قالبه. إن هذا الاعتقاد يخلو من العقل والفكر، تماما كما أن التطور الأعمى يخلو من النظر والبصيرة. فدعاة التطور الذين يؤمنون بخلق تم بغير إله، وبغير عقل مدبر مدرك، قد يزدرون سذاجة أولئك الذين يأخذون عبارات التوراة في العهد القديم من الكتاب المقدس بحرفية بالغة. ولكنهم مع ذلك ينسون أن موقفهم هم أنفسهم موقف مفجع يُرثى لــه. فإذا كان من الممكن قبول المشاهد التي يقدمها الكتاب المقدس بشكل حرفي، فإن النتيجة الوحيدة التي يمكن للمرء أن يخرج بها، هي أن الإله الذي يتحدث عنه هذا الكتاب هو إله قدير، ولكنه ليس حكيما. فالإله الحكيم لم يكن ليسلك في الخلق نهجا مناقضا للعقل، بحيث يمكن لأي فخاري حاذق في مهنته أن ينهجه.

إن نسق نشوء الحياة وتطورها الذي سبق خلق الإنسان هو تحفة من الخليقة البديعة، وعمل رائع من جمال لا يُعرف له مثيل، فلا يُعقل أن ينسى هذا الخالق تماما جميع قوانين الطبيعة بكل تشابكاتها وتداخلاتها التي أوجدها بنفسه، ووحدات الحياة التي رسمــها بحكمة وبرأها بقدرة، والعجائب التي لا حصر لها، والتي عبأها جميعا في خلايا دقيقة. وكيف يمكن له أن ينسى التاريخ الطويل الذي يمتد على مدى ألف مليون عام

على نشوء الحياة؟ إن هذا أمر لا يمكن تصوره. ويبدو أن مثل هذا الإله الذي يصوّره الكتاب المقدس، بعد أن عبثت به الأيدي، قد نسي وهو في غمرة انشغاله في صب قالب آدم من الطين والصلصال، أن آدم الإنسان قد خُلق بالفعل منذ مئات الألوف من السنين، بأسلوب أكثر حكمة، وأنه في الوقت الذي تزعم التوراة أن آدم قد خلق فيه (منذ حوالي ٦ آلاف عام)، كانت الأرض بالفعل تعج بالإنسان العاقل. ولعل كل هؤلاء الناس كانوا ينظرون بدهشة واستغراب إلى ما كان يحدث في جنة عدن حسب رواية التوراة!

ومهما كانت النظرة الرافضة لهذا التصور الساذج لخلق الإنسان، والذي يتمسك به بعض المتدينين المتحمسين، فإن حالة العلماء العلمانيين ليست أقل إثارة للحزن والرثاء. فهم يعلمون جيدا التشابكات والتعقيدات التي لا حصر لها في نظام الخلق، والتدبير الرائع الخلاق في تطور الحياة، ومع ذلك فإنهم ينسبون هذه التحفة الرائعة العظيمة لعامل الصدفة المجردة التي ليست فقط بغير عقل.. ولكنها أيضا عمياء وصماء وخرساء. ولا يليق بهم أن يستهجنوا فكر المتدينين من ذوي العقول الضيقة، فإن تصورهم للإله.. مهما كان يبدو أقرب للخرافة، إلا أنه.. بعد إنجاز تخطيطه العظيم للخلق.. يكون أعلى شأنا وأسمى منْزلة من أفكار أصحاب نظريات التطور الناتج عن تفاعل القوى الخلاقة وهي تؤدي عملها ولكن بغير توجيه من خالق عليم حكيم وقدير. فهم يعتقدون أن هذا الخلق الرائع، وهذا النظام البارع، قد تم تنفيذه وتدبيره بواسطة خالق عديم العقل والبصر، وأن كل هذا لم يكن سوى محض صدفة كلعبة النرد.

إن صورة الإله التي تتبادر إلى الذهن من سفر التكوين، أول أسفار التوراة بعد أن عبثت بها أيدي التحريف، إذا أخذت على علاتها وحرفيتها، فإنها تبرز ذلك الإله وكأنه رجل خرف.. الأمر الذي يثير حنق

الإنسان العاقل. وأما ما يريد لنا علماء التطور الأعمى أن نقبله ونؤمن به، فهو أكثر إثارة للحنق والغيظ. فخلال المرحلة الطويلة التي امتدت على مدى ألوف الملايين من السنين التي نشأت خلالها الحياة، يصر المعتقدون بالطبيعة على أنه لم يشغل مقعد القيادة في عربة التطور سوى شبح من صدفة لا عقل لها ولا فكر لديها، وهي التي كانت تسير بها خلال ما لا حصر له من الالتواءات والنتوءات والثنايا، قبل أن تصـــل بها إلى الهدف النهائي.

ولسوء الحظ.. فإن كل بحوثهم القيّمة تنتهي إلى لا شيء حـــين يصلون إلى النقطة التي ينبغي عندها أن تنبثق الحياة في جـــو خال من الأكسجين، كان سائدا في ذلك الوقت، حسب رأي هالدين. وفي اتفاق مع نظريته.. فإن العلماء يعتقدون أن انتقالا قد حدث بالفعل من حقبة ما قبل الحياة إلى حقبة ما بعدها بالرغم من غياب الأكسجين. ونحن نعتقد مع ذلك أنه بالرغم من إنكارهم وجود الأكسجين في صورة حرة، فإن المرء لا بد أن يتصور وجوده في الجو.. بشكل أو بآخر.. بالقدر الذي يكفي لأن يعين على الحياة. وليس لدينا آلية بديلة يمكن بها إثبات هذا، غير أن عدم قدرتنا على ذلك ليست برهانا على أن ما نقول به لم يحدث.

هناك الكثير من الأمثلة عن أسرار كانت غامضة في زمن معين، ثم زال عنها الغموض في ضوء الاكتشافات التي تمت في عصور تالية. ويمكن أن نذكر مثالا معينا في هـــذا الشـــأن يتعلق بالانقـــراض المفاجئ للديناصورات. فقد ظلت هذه المشكلة في غموضها بغير حل لفترة طويلة من الزمن. لم يستطع العلماء أن يفهموا كيف اختفت الديناصورات فجأة، بينما استطاعت أنواع أخرى من الحياة أكثر ضعفا منها.. أن تستمر في تطورها الحياتي بغير انقطاع. وفي نهاية الأمر زال الغموض حين تم الكشف عن ارتطام نيزك كبير الحجم نسبيا.. ضرب المحيط منذ ما يقرب من ٦٥ مليون عام، مما تسبب في تفكك نظام الحياة على ظهر هذا

الكوكب، الأمر الذي كان يتنافى مع مصلحة الديناصورات. وتحت الظروف المناخية المتغيرة، صار من الصعب عليها الاستمرار في البقاء على قيد الحياة. وإلى أن تم اكتشاف هذه الأمور، لم يكن هناك من تفسير مقبول للانتهاء السريع لحقبة وجود الديناصورات.

إن تحول الجو، من جو خال من الأكسجين الحر إلى جو غني به نسبيا، يمكن أن يكون حالة مشابهة لانقراض الديناصور، ولكن الزمن وحده هو الذي يستطيع إثبات أننا على خطأ، إذا كان العلماء على صواب. وإذا كانوا على صواب.. فإن المشاكل التي تنتج سوف تكون من الكثرة والضخامة بحيث إنها سوف تميل الشكوك على وجود زمن التخليق الضوئي بأسره.

ولا بد لنا أن نتصور بوضوح ما عساه أن يكون قد حدث في زمن التحول.. عندما بدأ ينبثق فجر زمن التخليق الضوئي. كان كل الأكسجين موجودا في شكل مركبات غير عضوية، مثل ثاني أكسيد الكربون (ك أ$_{٢}$)، والماء (يد أ$_{٢}$)، وثاني أكسيد السليكون (سل أ$_{٢}$)، وهذا هو المعروف في الدوائر العلمية. ويعني هذا أن الوحدات الحيوية (Bio-units) الناشئة لا بد أن تكون قد قامت بتصنيع الأكسجين بنفسها ولاستعمالها الخاص. وبعد أن نقدم الأسلوب غير الواقعي الذي يفترض حدوث هذا من خلاله، رغم أنه لا يمكن أن يكون هذا قد حدث، فسوف نعود مرة أخرى إلى مناقشة.. أكثر جدية.. لطبيعة التخليق الضوئي والكلوروفيل، والمشاكل الجسيمة المتعلقة بتعقيدات الكلوروفيل.

ولنتصور الآن مشهد بعض جزيئات الحياة الأولية وقد قفزت فجأة على شاطئ النشوء البدائي وسط جو خال تماما من الأكسجين، لتكون هي الأسلاف والجدود لجميع أشكال الحياة القادمة. إنها فكرة يبلغ جمالها قدر شذوذها وغرابتها! وهناك الكثير من المشاكل والغموض والمجاهيل في هذه الفكرة تبقى بغير حل. ولم تكن لتستمر حياتها لمجرد أنها تخلقت

ضوئيا، فلا بد للطاقة المستخلصة من ضوء الشمس أن تُختزن وتُستهلك بواسطة عملية الهدم Catabolism التي تعتمد بدورها على وجـــود الأكسجين الحر، الذي لم يكن موجودا في ذلك الوقت، أو كان نادر الوجود. وتلك كانت فترة هبوب العواصف والأعاصير والأحوال الجوية شديدة التقلب وسريعة التغير. فكيف يمكن للحياة حديثة التكوين أن تنتج الأكسجين بنفسها، ثم تطارده لتعيد استنشاقه حتى يمكن لعملية الهدم أن تتم؟ فكيف بالله عسى أن يكون أجدادنا المساكين قد بدؤوا رحلة الحياة على الأرض؟ لقد كان لا بد لهم من أن يقوموا بأنفسهم بخلق الأكسجين الذي تعتمد عليه حياقم من خلال التخليق الضوئي. إنها بالفعل فكرة غريبة أن نتصور هذه الجزيئات وهي تقفز فجأة إلى الحياة في جو خال من الأكسجين، ورغم ذلك تحافظ على حياتها بدونه، وكأنها قد حبست أنفاسها إلى أن يأتي الوقت الذي تستطيع فيه القيام بصناعة الأكسجين الذي لا تقوم الحياة بدونه. ولم يكن عليها صناعة الأكسجين فحسب، بل كان عليها أيضا أن تقوم بتخزينه ومطاردة جزيئاته التي تفلت منها حتى تجمعها من الهواء.

وهذا يعني أنه إذا حالف الأجداد الحظ فقفزوا إلى الحياة في صباح يوم تسطع فيه الشمس، فحينذاك فقط يمكن لعملية التخليق الضوئي أن تتم، مما يؤدي إلى الخطوات الأولى اللازمة لتصنيع الأكسجين. ولكن هذا لم يكن كافيا أيضا. إذ كان من الضرورة القصوى أن يظل الأكسجين في متناول وحدات الحياة أو بالقرب منها حتى تستطيع أن تستنشقه فورا. ولكن يبدو أنه كان من الصعوبة بمكان أن تظل ذرات الأكسجين محلقة في الجو حول الأسلاف حديثي التكوين في ذلك الجو العاصف، وفي الظروف الجوية العنيفة التي كانت سائدة في ذلك الحين.

لا بد أن كل ذرة من ذرات الأكسجين التي أمكن تصنيعها قد حملتها الرياح العاصفة بعيدا بسرعة تفوق سرعة تصنيعها. فهل يمكن

لأحد أن يتصور مدى الحزن البالغ، وخيبة الأمل المحبطة، التي حتما قد انتابت أولئك الأسلاف وهم ينظرون بحسرة إلى ذرات الأكسجين وهي تتطاير بعيدا، قبل أن يتمكنوا من القفز وراءها للإمساك بها، حتى يستطيعوا أن يستنشقوا النفَسَ الأول في حياتهم؟ ولكن لم تكن هذه هي كل المعاناة التي تحمّلها الأسلاف في خطواتهم الأولى في الحياة، إذ كان لا بد أن ينتهي اليوم ويحل الليل، مهما كان النهار مضيئا أو مشمسا أو هادئا.

وعن موضوع الأيام والليالي ما قبل التاريخ، دعونا نذهب إلى العهد القديم لنلقي نظرة من خلال الكتاب المقدس لدى اليهود والمسيحيين، عما كان يحدث في ذلك العهد السحيق:

"وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظُلمةٌ، وروح الله يرف على وجه الماء. وقال الله ليكن نور، فكان نور. ورأى الله النور أنه حسن. وفَصَل الله بين النور والظلمة. ودعا الله النور نهارا والظلمة دعاها ليلا، وكان مساء وكان صباح يوما واحدا".[٥]

لا بد أنه كان يوما صحوا، ذلك الذي يصفه الكتاب المقدس، قفزت فيه أسلافنا من جزيئات الحياة البدائية للمرة الأولى، وهي مزوّدة بقدرات قتالية تمكنها من الحياة والبقاء على الأرض. ولكن كان من المحتم أن تحل أخيرا نهاية ذلك اليوم فيغيب الضوء وتخيم الظلمة، وبذلك تتوقف جميع عمليات التخليق الضوئي قبل أن يحل اليوم التالي.

فكيف أمكن لهؤلاء الأسلاف المساكين من وحدات الحياة وهم في افتقار شديد إلى الأكسجين أن يقضوا ليلتهم الأولى من حياتهم المشكوك فيها ؟ إن أبرع ممارسي رياضة اليوجا لا يستطيع أن يمتنع عن التنفس لهذه المدة الطويلة. ولا شك أنها لم تكن شمس الضوء التي غاب نورها في ذلك اليوم، ولكنها شمس حياة الأسلاف التي لا بد أن تكون قد غابت حيث لا تشرق من بعد أبدا!

لقد طرح العلماء مشاهد مختلفة بالطبع عن ذلك المشهد الذي

طرحناه، كما أنهم يذكرون عرضا موضوع الانتخاب الطبيعي، ولكن لم يقدم أحد أية حلول عملية. ولقد صار موضوع الانتخاب الطبيعي مجرد أكليشيه للعلماء الذين يريدون الهروب في وادي الغمـــوض، حـــينما يواجههم التحدي لشرح كيف أن الصدفة وحدها تستطيع أن تُحدث أمورا معقدّة بشكل يتوالى بدقة بالغة.. لقد عدّد ديكرسن بعض المشاكل التي تواجه العلماء، فلم يستطيعوا حتى الآن أن يجدوا لها حلا.

ونذكر فيما يلي، بأسلوبنا وكلماتنا، المراحل الخمس التي ذكرها ديكرسن:

١- تكوين كوكب الأرض مع الغازات التي في غلافه الجوي التي تصلح لأن تكون موادَّ أولية للحياة ليس أمرا بسيطا كما يبدو.

إن تكوين الغازات بنسبة صحيحة خلال التاريخ المبكر لكوكب الأرض هو في ذاته مثار للعديد من المشاكل التي تتطلب اهتماما خاصا. ولكن، ليس هذا كل ما في الأمر.. فمع كل تغيير يتم في تركيب الغلاف الجوي والنسب بين الغازات.. تثور الأسئلة عن كيف ولماذا. وأن يبقى الغلاف الجوي للأرض خاليا من الأكسجين لزمن يبلغ حوالي ثلاث مليارات ونصف المليار من السنين.. لا يمكن إهماله باعتباره أمرا عرضيا. أضف إلى هذا استمرار وقوع الأرض تحت وابل من الإشعاعات النافذة من الكون بتأثيراتها المدمرة على الكائنات الأولية المبكرة، وعندها يمكن أن تتضح المشاكل المحتملة. وما كان من الممكن أن تستمر الكائنات القديمة في الحياة على الأرض لو لم تتخذ إجراءات مضادة لكل هذه الظروف.

٢- إن تخليق مونومرات حيوية Biological monomers مثل الأحماض الأمينية، والسكريات، والقواعد العضوية، قد حدثت منذ حـــوالي خمسمائة مليون عام، وكل ما حـــدث في هذه المرحلة كان مشحونا بمشاكل جسيمة.

٣- إن بلمرة هذه المونومرات لتتحول إلى بروتينات بدائية وسلسلة

من الأحماض النووية في وسط مائي، كانت عملية على قدر بالغ من الأهمية في السنوات الأولى من التحضير للحياة. وهذه المرحلة بالذات تحتاج أجيالا من العلماء تقضي أعمارا طويلة لتحقيق الفهم الكامل لجميع التعقيدات والتشابكات التي تبدوا أمرًا بسيطا. ورغم خمسين عاما من البحث الدقيق والدراسات العميقة، فإن العلماء لم يستطيعوا بعد أن يتفقوا على حل مشكلة واحدة، مثل مشكلة البيضة والدجاجة، فيما يتعلق بنشوء وتكوين البروتينات.

٤- إن تفكك حساء هالدين إلى بروتوبايونات Protobionts التي لها كيمياء خاصة بها وهوية ذاتية، خلال المرحلة الأولى التي تكونت فيها الحياة، كانت أيضا مشكلة جبارة على جانب كبير من الضخامة.

٥- وأخيرا وليس آخرا.. هناك مشكلة فهم كيفية تكوين نوع ما من آليات التناسل حينما تكونت الوحدات الأولى للحياة. وكان من الضرورة بمكان أن تتمتع الخلايا الوليدة بكل القـــدرات الكيميائية وخصائص الميتابوليك (عملية التمثيل العضوي أو الاستحالة العضوية) للخلايا الأبوية.

وقبل الانتهاء من هذا الفصل.. نود أن نضيف بعض الأمثلة عن الحيرة التي أصابت العلماء أمام لغز الحياة إن كانت قد نشأت بنفسها. فهناك ملايين من المراحل التي مرت بها الحياة، وفي كل مرحلة كانت هناك درجات وخطوات صغيرة لا تكاد تُرى أو تُلاحظ، ومن خلالها تمت جميع العمليات الكيميائية اللازمة. وليست المشكلة هي فقط ضخامة التحدّي في محاولة فهم كيف تمت هذه العمليات الكيميائيـــة، وكيف ســـارت في اتجاه معين، وتحت تأثير أيـــة ظروف طبيعية.. فهناك أيضا العقبات العديدة، والمشاكل التي لا حصر لها لتصور الحكمة واكتشاف المنطق الذي جعل جميع هذه الخطوات تتم في تعاقب منتظم وفي حلقات متتالية بتدبير محكم، حيث تلتحم كل حلقة مع الحلقة التالية لها في المكان

المناسب وفي الموضع الذي يجب أن تلتحم فيه. وما أسهل أن يقول أحد العلماء إنه قد انتهى عصر البيونات التي كانت تستمد الطاقة اللازمة لها من عمليات التخمر، ثم بدأ بعد ذلك عصر التخليق الضوئي، ولكن ما أصعب تصور جميـــع المشاكل الناجـــمة وكيفية حلها، وإجابـــة كل التساؤلات التي تثور حول هذا الانتقال من عصر إلى آخر.

كذلك لا بد من إيجاد تبرير لوجود الفوسفـــور في كل خلية حية، رغم أن الفوسفـــور عنصر نادر الوجود في الطبيعة. أضف إلى ذلك موضوع عنصر الموليبدم (عنصر معدني فضي اللون من مجموعة الكروم)، وبعض العناصر الأخرى الأكثر ندرة، والتي هي ضرورية في عمليات بناء الحياة، وإذا بالمعضلة تزداد تعقيدا. وعند محاولة بعض العلماء فهم هذه الألغاز وحل هـــذه المعضلات، اضطروا إلى القول بأن الحياة لا بد أن تكون قـــد جاءت من الكون الخارجي إلى الأرض، لأن عنـــصري الفوسسفور والموليبدم موجودان بكثرة نسبيا هناك، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجدوا حلا للتساؤل الذي نشأ حينذاك، وهو إذا كانت الحياة قد نشأت وتكونت وتشكلت في الفضاء الخارجي، ثم تم انتقالها إلى كوكب الأرض، فكيف استمرت في اطراد وتناسق تتغذى بالفوسفور والموليبدم في جميع أنحاء الكرة الأرضية؟ وكيف استطاعت الحياة أن تنمو وتتقدم في مناخ شديد القسوة حيث لا يوجد فيه الفوسفور والموليبدم، وهما العنصران اللازمان لقوام الحياة؟

وهناك مشكلة مثيرة أخرى تواجه العلماء، وتتعلق بوجود مشترك لظاهرتين مسؤولتين عن صيانة الحياة واستمرارها. فالخلية الحية تتمتع بموهبتين أساسيتين، هما القدرة على التمثيل الغذائي والقدرة على التكاثر. ولكن المشكلة هي أن الحمض النووي لا يستطيع أن يكرر نفسه بغير وجود الأنزيمات، والأنزيمات لا تتركَّب بغير الحمض النووي. وحسب رأي كل من واطسون وكريك فإن DNA لا يستطيع أن يقوم بعمله، بما

في ذلك تكوين المزيد من DNA، بغير عوامل مساعدة من الأنزيمات أو البروتينات. والبروتينات لا يمكن أن تتكون بغير DNA الذي لا يمكن أن يتكون بغير البروتينات. وهكذا، فإن أولئك الذين يبحثون في أصل الحياة.. عليهم أن يواجهوا المشكلة القديمة للبيضة والدجاجة وأيهما بدأ أولا.. البروتينات أم DNA؟

وللخروج من مأزق هــذه المشكلة اقترح البعض أن كلا من البروتينات و DNA قد تكونت في معزل عن الآخر، وبشكل متوازٍ، إلى أن حدث بشكل ما أن بدأ كل منهما مرحلة جديدة في الاعتمادً على الآخر. وقد يبدو للبعض أن هذا الحل هو خبطة فائقة من العبقرية، ولكن حينما ننظر في الأمر بتمعن أكثر، لا نجــد فيه أي عنصر من عناصر التفوق، ولا أثر من آثار العبقرية. فقد أغمض أصحاب هذا الرأي أعينهم تماما عن السؤال الهام.. وهو كيف أمكن لكل من البروتينات و DNA أن يتكوّنا ويعملا بشكل متواز في معزل عن الآخر، رغم أن كلا منهما في كل مرحلة من مراحل وجوده لا يقوم إلا على وجود الآخر.

لم يكن للصدفة المحضة دور في تضافر جميع العوامل اللازمة لتحقيق نتيجة تبدو أنها غير ممكنة الحدوث، فإذا بها تصير ممكنة الحدوث بغير إشراف من العلماء البارعين ذوي العلم والخبرة. ولكي يستطيع هؤلاء العلماء أن يحققوا نجاحا فهم يحتاجون إلى أكثر المختبرات تقدما وأعظمها حداثة، وإلى أكثر الأجهزة تطورا، بينما من المفروض أن المعضلة المذكورة آنفا قد حدثت خارج جميع الظروف المحكومة داخل المختبرات. وهؤلاء الذين أجروا التجارب المذكورة.. فعلوا ذلك بالنسبة لمعضلة مماثلة تتعلق بتكرار الوجود الذاتي لمركب RNA من غير ضرورة وجود البروتينات والأنزيمات التي يجب أن ينتجها RNA بنفسه. غير أنهم اضطروا إلى الاعتراف بأن نجاحهم لم يكن نجاحا على الإطلاق، فيما يختص بالمعضلة التي كانوا يحاولون حلها. ويعترف هورجان (Horgan) بأن هذه التجارب

العلمية شديدة التعقيد، بحيث لم يكن من المستطاع تقديم تصور معقول عن مشهد واقعي لأصل الحياة.

"لا بد لك أن تقوم بأمور لا حصر لها بشكل صحيح، وألا تخطئ ولا في أمر واحد".[٦]

كان هذا هو اعتراف أورجل (Orgel) الذي قام بإجراء هـذه التجارب. وما يتفق عليه مع هورجان هو أن نجاحهم تحت الظروف المحكومة بدقة بالغة في المختبر، لا يدل على حدوث شيء تحت الظروف المكشوفة في الأجواء التي كانت سائدة قبل نشوء الحياة. وقد أجرى ج. زوستاك (J. Szostak) منفردا تجاربَ مماثلة كانت ناجحة.. ولكنها أيضا كانت تحت ظروف محكومة بدقة داخل المختبر.

ويُعبر هارولد پ. كلاين (Harold P. Klein) من جامعة سانتا كلارا عن شكوكه في إمكانية التعرف على كيفية حدوث الحياة بالكلمات التالية: "... إن تصور كيفية حدوثها يكاد يكون مستحيلا.[٧]

ونحن نتفق معه في الرأي.. ولكن نعترض فقط على كلمة "تكاد"، إذ كان عليه أن يعترف بصراحة فيقول إن من الاستحالة المطلقة حدوثها بغير وجود الله.

ويرى ديكرسن أن القبول المتبادل أمر جـوهري. وبعد أن ذكر العديد من المحاولات للعثور على عملية تكميلية بين تواتر البروتين وتواتر الحمض النووي.. اضطر إلى الاعتراف بأنه لم تكن هناك من محاولة واحدة ناجحة بين أي من هذه المحاولات.

وفي ذكر التعقيدات المتعلقة بالتزامن بين آليتين متوافقتين تتسبب كل منهما في وجود الآخر، راح يربط بين هذا الوضع المستحيل ومعضلة الدجاجة والبيضة. ولكن الحل الذي قدمه لهذه المعضلة لم يكن حلا على الإطلاق. فقد اقترح أن كلا من البيضة والدجاجة قد نشأ بمعزل عن الآخر وتكَوّن بغير الاعتماد على الآخر.

إن جميع أولئك الذين يحملون لديكرسن أبلغ الاحـــترام لأعماله الرائدة التي لا تُقدر بثمن في محاولات حل لغز الحياة.. لا بد أنهم قد دهشوا لمدى سذاجة هذه العبارة. ولعل العذر الوحيد الذي يمكن التماسه لديكرسن أنه قد أعياه التعب، وبلغ بـــه الفشل مبلغ اليأس، بعد كل محاولاته الطويلة وتجاربه الشاقة المضنية للخروج من هذه المعضلة، بغير الاعتراف بوجود الله. ولكن لا مخرج لأحد بدونه سبحانه! إذ بوجوده جل شأنه على رأس كل أمر.. تختفي كل معضلة من الوجود. إن عدم اعتراف العلماء برؤية اليد الحكيمة للخالق الأعظم العليم القدير، وراء كل دقائق الخلق، أمـــر لا يمكن فهمه ولا إدراك معناه، إلا أن يكونوا قد أغمضوا أعينهم عن رؤية الحقائق الظاهرة. فإن ما يُسمى بمعضلات الحياة، تنعدم من الوجود حينما يعترف الإنسان بوجود الله تبارك وتعالى.

وهكذا يقول القرآن المجيد:

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ۞ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (٦٧ الْمُلك:٤-٥)

أي أن الله تعالى هو الذي خلق سبع سماوات على مراحل متعددة، ولا يمكن للإنسان أن يرى أي تفاوت أو تناقض في خلق هذا الإله الرحمن الذي يُنعم بالعطاء حتى على من لا يسعى ولا يستحق النعم. فارجع البصر أيها الإنسان وفتش بدقة.. هل ترى من عيب أو نقص في هذا الخلق البديع؟ ثم كرر النظر وأعد البحث مرة بعد أخرى، فسوف يعود إليك النظر وهو متعب ومنهك.

إن مشكلة ديكرسن والعلماء الآخرين الذين يتباهـــون بموقفهم

العلماني الرافض لوجود الله.. تتلخص ببساطة في تصميمهم العنيد على ألا يسمحوا أبدا لله تعالى أن يقوم بأي دور خـــلاق في نظام الكون. وبالطبع لا توجد في الطبيعة أية معضلة، ولكن المعضلة تبدأ في اللحظة التي يُلقَى فيها بفكرة وجود الله خارج نطاق خلقه. والمثال على مدى الغيظ واليأس الذي ينتاب العلماء بطبيعة الحال، نجده في الحل الذي قدمه ديكرسن لمشكلة الدجاجة والبيضة. فهـــو في الواقع اعتراف بالإحباط الشامل والفشل الكامل.

ونعيد القول بأنه من المفهوم أن جزيئات RNA تعمل كرسل تحمل المعلومات والتعليمات التي يُصدرها DNA فتنتقل إلى أماكن معينة، حيث تصل هذه التعليمات وتُنفذ بمنتهى الدقة. وعندما حاول العلماء كشف النقاب عن النمط الذي اتبعته الطبيعة في تنفيذ هذا العمل، لم يندهش العلماء فحسب لمدى التعقيدات التي تُنَفذ بها هذه العملية، بل واجهوا معضلة أخرى أيضا. إذ يلزم وجود أنزيم شاحن ليلحم حمض أميني معين مع جزيء من RNA الناقل الذي لا بد أن يُستَقبل في الجهة المستهدفة بواسطة Anticodon، ولكن المشكلة هي أن الأنزيم الشاحن الذي ينشط عملية النقل.. هو نفسه يتخلق بواسطة العملية التي يقوم بها، وهذا مثال آخر لمعضلة الدجاجة والبيضة.

واستتباعا لما ذكرناه عاليه يتعين أن تكون مركبات DNA بمثابة الأم لمركبات RNA. فإن إعادة تكوين RNA مكتوب في جينات DNA، ومع ذلك فإن العلماء على يقين من أنه في بعض الأحوال، على الأقل، تسبق RNA في الوجود على DNA. وبالطبع.. هذه معضلة أخرى للدجاجة والبيضة، أو قد يمكن تسميتها بأي اسم آخر، غير أن معضلة وجود RNA سابقا لوجود DNA سوف تظل على الدوام لغزا عضالا.

وهكذا كانت كل طريق للبحث والاستقصاء يطرقها العلماء تؤدي بهم إلى نفس المعضلة الأزلية. ويبدو كأن جدارا سميكا من الصخر الأصم

قد اعترض سبيل البحث عند نقطة معينة، فلا يمكن تحقيق أي تقدم بعدها. وقد حاول ديكرسن أن يُخلص نفسه من إســـار ذلك الركن الضيق بادعاء أن كلا منهما قد وُجد وتطور في معزل عن الآخر. وإذا كان الأمر كذلك.. فعلينا أن نتصور مشهد البيض وهو يبيض بيضا والدجاج وهو يلد أفراخا، كل في معزل عن الآخر وفي خطين متوازيين، وقد استمرا على هذا المنوال على مدى الملايين من السنين. وهكذا عاش كل منهما مستقلا دون الاعتماد على الآخر، إلى أن حدث ذات مرة أن أشرق يوم دافئ جميل، وفكرت الدجاجة أن تضع بيضة بدلا من ولادة الفرخ الصغير، وفكر البيض أن يفقس أفراخا بدلا من أن يفقس بيضا آخر، وبهذا وصلت القصة إلى نهايتها السعيدة التي كانت في مصلحة كل من الطرفين. وهكذا عاشا معا في سعادة وابتهاج، وأنجبا بيضًا ودجاجا.. أو بمعنى آخر وأنجبا بعضهما البعض!

إننا نحترم ديكرسن احتراما شديدا لخدماته الجليلة التي قام بها في سبيل التقدم العلمي، كما أننا نُجله بتقدير عظيم لأسلوبه المتوازن غير المتعصب، في محاولاته لإيجاد حلول للمشكلات العلمية. ولكن.. أن يطرح ديكرسن هذا الحل لمعضلة الدجاجة والبيضة.. فهو أمر يترك المرء في دهشة محيرة! ولعله لم يكن رأيا محسوبا يمكن أن يؤخذ على عالم قدير مثل ديكرسن، بل لعلها كانت مجرد زفرة حيرة وإحباط لنفس قلقة، أصابها اليأس وهزمها القنوط، بسبب استحالة العثور على حل للموقف الذي لا يمكن أن يجد حلا إلا بتنكيس الرأس خشوعا وإجلالا وتقديرا لوجود الخالق عز وجل.

لقد ذكرنا فيما سبق اعتراف العلماء العظام أنه بالرغم من بذل الجهد الدؤوب فإنهم لم يستطيعوا حـــل لغز الحياة. ولكن لا يستطيع القارئ أن يجـــد في أي مكان أية إشارة أو تنـــويه منهم بتعقيدات الكلوروفيل التي يشيرون إليه ببساطة على اعتبار أنه مجرد "صبغة

خضراء". كذلك فلم تكن لديهم أية محاولة لتصور كيفية نشوئه، مثلما كانت لهم تصورات لنشـــوء المركبات العضوية المعقـــدة. وذلك لأن الكلوروفيل لم ينشأ ولم يتطور أبدا، ولا يوجد فيه للتطور أثر يمكن تتبعه، سواء على الغبراء، أو في الماء، أو في جو الهواء.

فحينما بدأت الحياة على الأرض، كان نمو جميع النباتات التي تحتوي على تلك الصبغة الخضراء - أي الكلوروفيل- يتم باقتناص ضوء الشمس المتاح وتحويله إلى طاقة كيميائية لتخليق المركبات العضوية من المركبات غير العضوية. وخلال هـــذه العملية.. كانت النباتات تقوم بتصنيع الكربوهيدرات من ثاني أكسيد الكربون والماء، وفي نفس اللحظة تطلق الأكسجين:

٦ ك أ$_{٢}$ + ٦ يد$_{٢}$ أ ———> ك$_{٦}$ يد$_{١٢}$ أ$_{٦}$ + ٦ أ$_{٢}$

والكلوروفيل نوعان، كلوروفيل 'أ' (ك$_{٥٢}$ يد$_{٧٢}$ ن$_{٤}$ أ$_{٥}$)، وكلوروفيل 'ب' (ك$_{٥٥}$ يد$_{٧٠}$ ن$_{٤}$ أ$_{٦}$). وتكوين هاتين التركيبتين لـــه موضعه الدقيق في كل عنصر بتَوالٍ معين يذكرنا بتكوين الهيموجلوبين.. الذي لا يقل غرابة وإثارة للدهشة بسبب تعقيداته. ولذلك يكتب ستيفن روز (Steven Rose) في كتابه (*كيمياء الحياة The Chemistry of Life*) فيقول:

> "رغم أن الكلوروفيل ليس بحال من الأحوال هو الصبغة الوحيدة المخلقة ضوئيا، إلا أنه هو الوحيد الذي يُعتبر على قدر كبير من الأهمية .... إن الجزء القطبي من رأس الجزيء، يتماثل تماما في الشكل مع هيمو (صبغ عنصري أحمر يوجـــد في الهيموجلوبين) السيتوكرومات ومـــع الهيموجلوبين. وهي تتكون مثل الهيمو من حلقات متصلة من جزيئات كربون-نيتروجين تحتوي حلقات رباعية (pyrrole rings) مرتبطة مع بعضها البعض لتُكَوِّن شكلا يشبه الكعكة الحلقية التي تحتوي على فراغ في وسطها، ويمتلئ هذا الفراغ في الهيمو بمعـــدن الحديـــد، وأما في الكلوروفيل فيمتلئ الفراغ في الوســـط بالمغنيسيوم. وهذه التكوينات

الحلقية تحتوي سلسلة من الأربطة الأحادية والثنائية بشكل تبادلي، وامتصاص كمية صغيرة من الضوء ذي موجات ترددية معينة يسبب نوعا من الذبذبة أو الرنين حول هذه الأربطة. وبسبب ضيق الحزم وثبات جزيئات الصبغة من داخل الرقائق فإن طاقة الطنين يمكن أن تنتقل من جزيء إلى آخر حتى تصل إلى جزيء كلوروفيل يختلف بعض الشيء ولا يستطيع الفكاك أو الهرب منها. وهذا النوع من الكلوروفيل الذي يقتنص الطاقة يمكن أن يستقبل طاقة من ٣٠٠ جزيء من الكلوروفيل العادي. وبهذا يزداد تركيز الطاقة الضوئية بشكل كبير في مكان واحد، فتعطي القدرة للجزيء التالي لينقل الكترونا إلى مستقبلٍ آخر غير صبغي، الذي ينقله بدوره بواسطة حاملات وسطية إلى NADP ....

ولكن النقطة الهامة التي يجدر ملاحظتها هي أنه باستثناء الجهاز الحاوي للكلوروفيل المسؤول عن نزع الماء، وبالتالي يعتبر المصدر الرئيسي للطاقة، فإن كل تفاعلات التخليق الضوئي، وتثبيت ثاني أكسيد الكربون، وتكوين السكريات، كلها تتبع مسالك سبق أن عرفناها في الكيمياء الحيوية للخلية الحيوانية".[8]

في جزيء الكلوروفيل الضخم شديد التعقيد.. توجد سلسلة طويلة جدا من الذرات مرتبة ترتيبا دقيقا في تعاقب متتال، إذا تغير أي جزء منه ولو في حلقة واحدة، لأتلف ذلك فعل الكلوروفيلً وأهميته. إن الحياة بكل صورها مَدينة بوجودها لمصيدة الطاقة المهمة هذه، ولكن لا يمكن للحياة أن تستعمل مباشرة الكربوهيدرات الناتجة بهذه الطريقة. وتعتمد سلسلة كل التفاعلات الكيميائية التابعة على ATP و ADP، وهما مادتان كيميائيتان تحتويان على مجموعتين أو ثلاث مجموعات من الفوسفات. وتلعب مجموعات الفوسفات دورا هاما في كل من هاتين المادتين. فهذا هو العنصر الهام الذي يوجد في كل خلية حية سواء كانت خلايا نباتية أو حيوانية، وهو يدير المصنع الكبير الذي ينتج العديد من المواد الكيميائية العضوية التي يحتاجها الجسم الحي.

لقد أشرنا فيما سبق إلى ثلاث من أسرار الحياة تغفل عنها عيون

العلماء التي اعتادت على رؤيتها. ولكن جميع العلماء العظام الذين حاولوا الكشف عن أسرار أصل الحياة قد سجّلوا هذه الحقائق وعملوا على حل غموضها. غير أن الكلوروفيل كان استثناء لهذه القاعدة. فبدلا من محاولة حل اللغز الذي يقدمه هذا الخضاب الأخضر، فإنهم يتحاشون الموضوع بكليته ويمضون لمناقشة بعض العقبات الأخرى التي يكون لديهم على الأقل بعض الحلول لها.

وهم يتجنبون موضوع الكلوروفيل، حيث لا بد أنهم قد أدركوا تماما أن هذا الخضاب الأخضر شديد التعقيد.. لا يمكن أن يكون قد قفز هكذا إلى الوجود من لا شيء. ومن ناحية أخرى.. إذا كان قد تطور فلا بد أنه قد ترك وراءه أثرا طويلا من مراحل تطوره. ولكن بكل اليقين.. لا يمكن أن يأتي إلى الوجـــود هكذا من لا شيء. غير أنه موجـــود.. ويُشكل تحدّيا لجميع الملحدين من الفلاسفـــة والعلماء لشرح ظهوره ووجوده الفجائي. إن من السهل القول بأن الهيموجلوبين قد تطور، ولكن من رابع المستحيلات تبرير وجود هذا الخضاب الأخضر.

المــــــــراجع

1. BARBIERI, M. (1985) *The Semantic Theory of Evolution.* Harwood Academic Publishers: p.86
2. OLOMUCKI, M. (1993) *The Chemistry of Life.* McGrow-Hill, Inc. France, p.55
3. CARINS-SMITH, A.G. (June, 1985) *The First Organisms.* Scientific American: p.100
4. CARINS-SMITH, A.G. (June, 1985) *The First Organisms.* Scientific American: p.100
5. *The Holy Bible* (1900) King James, Eyre and Spottiswoode Ltd., London, Genesis 1:2-5
6. HORGAN, J. (February, 1991) *In The Beginning.* Scientific American: p.119
7. HORGAN, J. (February, 1991) *In The Beginning.* Scientific American: p.120
8. ROSE, S. (1991) *The Chemistry of Life.* Penguin Books Ltd., London, pp.353-355

الفصل الخامس
البقاء على قيد الحياة
صدفة.. أم تدبير؟

إن موضوع البقاء على قيد الحياة، بالنسبة لجميع المخلوقات الحية، ليس موضوعا سهلا كما يُفهم عادة من الأفكار الدارونية مثل فكرة "البقاء للأصلح". إذ لا يمكن أن يُفهم هذا المصطلح فهما صحيحا إلا إذا طُبّق على أمثلة معينة ومحددة، وإلا.. فهناك خطر أن تؤدي هذه الفكرة الشائعة إلى سوء فهم لدى الكثير من الناس، بدلا من أن تؤدي إلى المعرفة الصحيحة الصائبة. والعقبة الحقيقية هي في معنى لفظ "الأصلح"، فبغير تحديد ذلك المعنى لا يمكن أن نضع هذا المصطلح موضع الاختبار. وأما عن دوره في تطور الحياة واستمرار تقدمها وتطورها من الأشكال الدنيا إلى الأشكال العليا، فمن المؤكد احتمال فشل هذا الاختبار.

إن القول بأن نوعًا معينًا من أنواع الحياة أفضل من نوع آخر أو يتفوق عليه هو مشكلة معقدة، وقد تختلف هذه المشكلة من موقف إلى آخر. ففي الكثير من الأحيان.. عند وقوع كارثة ما.. يحدث أن نوعا متفوقا، يشغل درجة أعلى على سلم أنواع الحياة، يكون أقل قدرة على البقاء في مواجهة التحديات.. من أنواع أخرى من الحياة تشغل الدرجات الدنيا من سلم الأنواع. وعلى هذا فإن الطبيعة تصدر حكمها تلقائيا في مصلحة هذه الأنواع الدنيا، عندما تحين ساعة الصراع على البقاء في الظروف الصارمة.

وفي أوقات الجفاف والقحط الشديد.. يحدث أن تتمكن بعض أنواع الحياة الدنيا من البقاء على قيد الحياة بسهولة، بينما يهلك الإنسان لعدم

استطاعته تحمل الضغوط الصعبة. والكوارث الطبيعية.. مثل التغير الفجائي غير المتوقع في درجات الحرارة، والثورات البركانية، والعواصف المخروطية (Tornadoes)، والأعاصير المدمرة، وحرائق الغابات، والفيضانات، والزلازل.. كلها قليلا ما تُفرّق في تعاملها مع الأنواع المختلفة من الحياة. وليس من الصعب على هذه الكوارث الطبيعية أن تمحو في بضع ثوان أو دقائق أو ساعات ما استغرق التطور ملايين من السنين في تكوينه. ومع ذلك، وتحت هذه الظروف المدمرة.. تستطيع الكثير من الأنواع الدنيا من الحياة أن تزدهر وتتكاثر بسرعة بغير أية عوائق. ويظل بعد ذلك التساؤل قائما عمن هو الأصلح، وبأي مقياس تَقَرر أنه الأصلح فعلا؟

إنها مجرد حالة بسيطة من البقاء على قيد الحياة ولا أكثر، وليس الأصلح هو الذي يبقى دائما، كما أن من يبقى ليس دائما هو الأصلح. وكل ما يمكن تقريره بشيء من المعقولية هو أن هناك بعض الأنواع من الحياة تصلح للبقاء تحت بعض الظروف المعينة، وهناك البعض الآخر من الأنواع التي تصلح للبقاء تحت ظروف مختلفة تماما. وعلى ذلك، فإن مجرد البقاء على قيد الحياة ليس في ذاته عاملا للحكم على قدرة الأنواع المختلفة على البقاء. ويمكن أن نقوم الآن بتحليل حالة الصراع من أجل البقاء التي تحدث بين أفراد نفس العينة حين تتعرض لتأثير الكوارث الطبيعية المختلفة. إذ يحدث أن تفنى أعداد كبيرة منها بعد أن تدهمها الأخطار التي تواجهها، إلا أن البعض منها يُبدي مقاومة فطرية ضد الكوارث التي تصيبها، والبعض يتجاوز تلك الكوارث فتمر عليه مرور الكرام، مع أنها تدمر أفرادا كثيرة من نفس نوعه. ولنتصور مثلا حالة شديدة من وباء الدوسنطاريا.. فمن المحتمل أن يتسبب هذا الوباء في وفاة بعض كبار الطبيعيين.. الذين يمارسون مذهب الالتزام بكل ما هو في الطبيعة، بينما ينجو منه بعض عمال الفلاحة الذين يكدحون في الأرض، وليس لديهم من قوة سوى قوة العزيمة، بغير أية مواهب عقلية أو ذهنية

يمكن أن يفخر بها أحد منهم. وأيضا.. نفس الأشخاص الذين تُكتب لهم النجاة من ويلات وباء معين، قد لا يستطيعون النجاة من بعض الأمراض المعدية، وقد يموت البعض أثناء انتشار الكوليرا، بينما من ينجو منها قد يُوَدِع الحياة بسبب مرض بسيط كالأنفلونزا الذي يعاود الظهور عاما بعد عام، أو ربما بسبب مرض أقل خطورة في تأثيره.

هذه هي ويلات الحياة واختباراتها. والبقاء على قيد الحياة أمر نسبي عندما يتعلق بموقف معين، لا يحكم بالضرورة دائما على أن ما يستمر في البقاء هو الأصلح بين كل نوعيات الحياة. والعلماء لا يعرفون الأسباب الحقيقية التي من أجلها تُفضل عملية الانتخاب الطبيعي بعض الحيوانات على البعض الآخر الذي تقضي عليه بالفناء. ولا يوجد مقياس معين يمكن به قياس كل حالة بالقسطاس. إن الانتخاب الطبيعي التلقائي الخالي من العقل والإدراك لا يستطيع أن يأخذ في الاعتبار كل الأمور الموجبة والسالبة قبل أن يُصدر حكمه في مصلحة البعض أو ضد البعض الآخر. وأهم ما في الأمر هو أن نضع في الاعتبار أن قوانين الموت والحياة ليست محكومة مباشرة بالانتخاب الطبيعي فيما يتعلق بظاهرة البقاء والفناء. فالمحصلة النهائية تتأثر بعوامل لا حصر لها، يمكن أن تُبقي أو تقضي على حيوان ما لأسباب هي في الواقع محكومة بالخطة الإلهية العامة للخلق. و لم تكن هذه الخطة لتحقق الهدف من التطور بغير الدور الواعي الذي يقوم به الخالق العليم العظيم الذي يحكم كل شيء في توافق تام مع خطته الإلهية. وأولئك الذين ينكرون هذا، لا بد أن لهم رأيا مسبقا ينْزعون إليه في إنكارهم هذا، الذي يساوي إنكار التطور نفسه، إن كانوا حقا يدركون بأمانة حجم وكم المشاكل التي يعنيها الإيمان بالتطور بغير الإيمان بالخالق.

وعند دراسة تطور الحياة في جميع مراحلها منذ بدايتها إلى أن بلغت أقصى ذروتها بتكوين الإنسان، فإننا نلحظ أن البقاء على الحياة هو

الاستثناء، وأن الموت هو القاعدة. فإن العوامل التي تتسبب في الموت لا يمكن حصرها ولا عدها، وكثيرا ما تتوافق مع عوامل الصدفة. ولو أمكن التعرف على هذه العوامل التي تسبب الموت وأمكن تحديد أماكنها.. فإن ذلك يجعل الحياة في حالة شديدة من البؤس، إن لم تكن مستحيلة، ويكون على الأحياء أن يعيشوا في حالة مستمرة من المعاناة والرهبة والفزع، تتربص بهم وتحوم حولهم على الدوام. ومن حسن الحظ أن الموت يتسلل خفية، بينما يظل الإنسان في كثير من الأحيان متناسيا مجيئه المحتم. ولولا نزوع الإنسان لأن يعيش في غفلة عن المصير المحتوم، لتحولت حياته إلى كابوس مستمر.

فإذا أمكن رؤية البكتريا التي قلما تخلو منها المياه التي يشربها الإنسان، لتحولت عملية إطفاء الظمأ إلى عقاب شديد بدلا من أن تكون عملية ينشد بها الإنسان التخلص من معاناة العطش. وإذا استطعنا أن نرى الكائنات الحية التي نستنشقها مع كل حركة من حركات التنفس، لتحولت عملية التنفس إلى عملية تعذيب.

وإذا استطعنا بطريقة ما أن نرى بالعين المجردة الكائناتَ التي تقفز وتتطاير في الهواء مع كل خطوة نخطوها على بساط عجمي ثمين أُحكم تنظيفه، فإن عملية التنفس العادية بالنسبة للكثيرين سوف تكون آية من آيات العذاب. وقليل ما يعرف الناس أن الحشرات المتناهية في الصغر والتي تعيش معنا في البيوت على السجاجيد والأثاث.. إذا أمكن تكبير حجمها لتتمكن العين من رؤيتها، لكانت تبدو أشد رعبا في منظرها، وأبشع شكلا في مظهرها، وأكثر قبحا وتوحشا في هيأتها من الديناصورات التي كانت تدب على ظهر كوكب الأرض.

إن الهواء الذي نتنسمه يعج بأنواع مختلفة من البكتريا التي لو استقر لها المقام في أجسادنا لسببت أمراضا كثيرة مثل السل، والالتهاب الرئوي، وسرطان الرئة، وسرطان الكبد، وجميع أشكال الدوسنطاريا، والإسهال،

وتعفن الدم (septicemia)، والأكزيما، والكثير من الأمراض الفتاكة الأخرى، التي ترتبط بالعديد من أعضاء الجسد الإنساني. ورغم كل ذلك فإننا نستنشق ذلك الهواء بكل ما يحتويه، وكثيرا ما لا نقع ضحية لجميع هذه الأخطار، فلا بد أن يكون هناك نظام للحماية من هذه الأخطار، وإبقاء مسببات تلك الأمراض بعيدة عنا، وسد طرق النفاذ إلى أعضائنا الداخلية أمامها. هذه هي "الصلاحية" التي أُحكم تدبيرها وتم تقديرها لحماية الحياة واستمرار البقاء.. البقاء الذي ليس هو من نتاج الصدفة، ولا هو بسبب وجود الأصلح.

إن هناك الكثير مما يزيد عما ذكرناه باختصار، وكل حركة نقوم بها، وكل فكرة تجول بخاطرنا، تترك لجهازنا العصبي فضلات متخلفة عن الطاقة التي استُخدمت، وإن لم يتم التعامل في الحال مع هذه الفضلات فإنها تسبب الموت الفوري. وعلى هذا، فإنه على مدى كل جزء من ثواني حياتنا.. نرى أننا نواجه الموت، ومع ذلك نستمر في البقاء. هذا هو المعنى الحقيقي لجملة بقاء الأصلح، وهذه الصلاحية ليست هي أبدا من نتاج الصدفة المجردة.

في كل خطوة.. هناك الكثير من الوسائل الدقيقة والأساليب المعقدة والإجراءات البارعة التي تُتخذ للحماية، والتي لا بد أنه قد أُحكم تدبيرها وأُحسن استخدامها لتوفير الحماية للحياة من الأخطار التي لا تُحصى، وهي تحدق بها وتهدد وجودها. ولعل الدور الذي يقوم به الأكسجين في عملية الأيض في النبات والحيوان.. هو مثال يصلح للمساعدة على فهم هذه الظاهرة.

إن عملية الأيض (metabolism) تنقسم إلى عمليتين أخريين.. هما عملية الابتناء (anabolism)، وعملية الانتقاض (catabolism)، وتلعب عملية الابتناء دورا هاما في بناء أنسجة حية من مواد الغذاء، وهي أيضا تقوم بتخزين الطاقة الزائدة في شكل دهنيات. وعملية الانتقاض هي

المضادة لعملية الابتناء، فهي تهدم الجزيئات المعقدة وتحولها إلى جزيئات بسيطة نسبيا مما ينتج عنه إطلاق الطاقة.

إن الجزيئات المعقدة الغنية بالسعرات الحرارية حين تنهدم وتنقسم إلى مكونات أصغر فإنها تطلق الطاقة. وخلال هذه العملية يقل بشكل عام وزن تلك الجزيئات وكتلتها، غير أن هذا النقص يتم تعويضه على شكل طاقة تستخدمها الكائنات الحية في بقائها على قيد الحياة. ورغم أن عملية الانتقاض تُعتبر عملية هدم، فهي ضرورية للغاية لكي تستمر الحياة، حيث تتوفر عن طريقها كل الطاقة التي يحتاجها الكائن للحياة. وكل الحركات الجسدية، وجميع الإثارة العاطفية، والعمليات الذهنية، تتطلب توفر الطاقة، وعملية الانتقاض هي التي توفر هذه الطاقة.

إن جميع الأشكال الدنيا من الكائنات الحية، حتى تلك التي ليس لها رئتان ولا أوعية دموية، قد تزوّدت بشكل أو بآخر بنظام بديل للتنفس. وبالتالي فإن حاجتها إلى الأكسجين قد توفرت أيضا كما توفرت للحيوانات من ذوات الرئة.

ومجرد الحصول على المواد الغذائية لا قيمة له بغير عملية الانتقاض. وتتضح أهمية هذه العملية في الحياة اليومية للإنسان. إذ يستطيع الإنسان أن يعيش بغير غذاء لمدة أسابيع، وبغير ماء لمدة أيام، ولكنه لا يستطيع الحياة بغير تنفس سوى لبضعة دقائق، ففي اللحظة التي يتوقف عندها وصول الأكسجين إلى الجسم الحي، تتوقف على الفور عملية الانتقاض، وتبدأ جميع الخلايا الحية في الموت، وأول ما يصيبه الموت هو خلايا المخ.

وقبل أن نبدأ في مناقشة وعرض الآثار الضارة الخطيرة للأكسجين، ثم نصف إجراءات الحماية البالغة التي اتخذت ضد هذه الآثار الضارة، فإننا نود أن نُذكّر القارئ بأن الأكسجين لازم وضروري ضرورة جوهرية في كل مجال من مجالات الحياة. وهذا يُشكل الأسلوب الرائع الذي وضعه الله تعالى في الطبيعة لخلق التوازن. فكل ما هو نافع وله فوائد يمكن أن يكون

لــه أيضا آثار ضارة، حيث إن لم يتم التحكم فيها ووضعها في حدودها، فإنها من الممكن أن تمحو تماما جميع الفوائد والمنافع. إن هذه المعضلة، ويا لها من معضلة، هامة وضرورية لبقاء الحياة على الأرض. وهذه هي قصة الخلق التي تتكرر وتستمر بغير حدود، ولا يستطيع أحد، مهما كان مخالفا أو معارضا، أن يرى أو يسمع ما يشوب جمالها أو يُنقص من كمالها. وسوف نعالج موضوع الأكسجين بتفصيل أكثر فيما بعد.

وفي الوقت الحالي نود أن نلفت أنظار القارئ إلى ظاهرة التناظر في الأكسجين الذي له صورتان مختلفتان، إحداهما هي صورة الأوزون. والأوزون (أ٣) هو الغاز الوحيد بين جميع الغازات التي يتركب الجزيء فيها من ثلاث ذرات، وهذه خاصية فريدة يتميز بها الأوزون دون الغازات الأخرى كلها. وهذا الأوزون هو أكثر العوامل التي تساعد على حماية الحياة، وهو في نفس الوقت من أشد العوامل التي تقتل الحياة. وهذا مثال آخر يوضح أن بقاء الحياة على الأرض لا يخضع أبدا للصدفة البحتة، وإنما اتُّخذت الوسائل المناسبة والإجراءات الدقيقة، ليس لتدعيم الحياة ومساندتَها فقط، بل لحمايتها أيضا من نفس العوامل التي تعمل على بقائها واستمرارها.

كانت هناك فترة من الفترات حين ظل الجو القريب من سطح الأرض خاليا من الأكسجين الحر غير المقيد في مركبات أخرى. وقد صارت هذه الحقيقة أمرا معروفا الآن، ولكن حينما أعلنها هالدين للمرة الأولى أثارت دويا كبيرا وسرورا بالغا بين العلماء الذين كانوا يبحثون عن حلول يمكن أن تزيل الغموض عن بداية الحياة. فقد مر زمن طويل من قبل نشوء الكائنات الحية، الأمر الذي ظل يواجه العلماء بمعضلة مُحيّرة. فإذا كان الجو، كما كان يُعتَقد في ذلك الوقت، يحتوي على أي أكسجين حر، فإن نوع الكائنات التي كانت موجودة من قبل الارتقاء الحيوي لا بد أن تكون قد دُمرت تماما بسب تفاعلها مع الأكسجين. وإن

لم تكن قد اتُّخذت بعض الخطوات الحاسمة والوسائل الدقيقة لحمايتها من الأكسجين لما بقي أي نوع من الحياة على الأرض. ولذلك فإن الكشف الذي أعلنه هالدين عن خلو جو الأرض من الأكسجين الحر في ذلك الزمن كان كشفا بالغ الأهمية. وبذا صار اعتبار أن طبقات الجو القريبة من سطح الأرض خالية تماما من الأكسجين الحر تقدُّمًا علميا عظيما، غير أن ذلك قد أثار في نفس الوقت مشاكل كانت أكثر إرباكا وأشد تعقيدا.

إن الحل الذي قدمه هالدين قد حل مشكلة وجود الأكسجين الحر الذي يتطاير في الجو القريب من الأرض، ولكن ماذا عن وسائل الحماية ضد القذف المستمر للأرض بواسطة الأشعة الكونية، وهي مشكلة ازدادت تعقيدا بغياب الأكسجين الحر، فكيف يمكن تحقيق هذه الحماية؟ إذ لا يمكن منع الأشعة الكونية من تدمير الكائنات التي على الأرض، إلا إذا كان الأكسجين الحر موجودا في جو الأرض. وهذه بالطبع معضلة أخرى تبدو أنها تستعصي على الحل. إن الاختيار سهل ولكنه قاتل في كلتا الصورتين. فإذا اخترنا حماية الكائنات بإزالة الأكسجين الحر كلية من الجو، فإن هذا سوف يتسبب بالطبع في تدمير تلك الكائنات بواسطة الأشعة الكونية القاتلة.

وكما سيتبيّن الآن.. كان وجود الأكسجين الحر في الجو هو العامل الذي منع بطريق غير مباشر الأشعة الكونية المدمرة من الوصول إلى الأرض. ويجب ألا ننسى أن جزيء الأكسجين مثل بقية الغازات يتكون من ذرتين، فهو أخف بمقدار ذرة عن نظيره الأوزون، وبذلك فمن الطبيعي أن يتوقع المرء أن كون الأوزون أثقل وزنا من الأكسجين فإنه يكون أقرب إلى سطح الأرض، بينما الأكسجين، حتى وإن افترضنا أنه كان موجودا، سوف يتصاعد إلى الطبقات العليا من الجو، لأنه الأخف وزنا. وهذه معضلة، ولكن هناك معضلة أخرى أشد تعقيدا وأكثر إثارة للحيرة.. وهي أنه إذا لم يكن هناك أكسجين حر على الإطلاق.. فكيف

تولَّد منه نظيره الأوزون، وانطلق صاعدا إلى الطبقات العليا من الغلاف الجوي، حيث كانت الحاجة شديدة إليه هناك؟ إنه لغز حقا، ولكنه يُذكرنا أيضا بالمقولة الشعبية المعروفة لدى أهل البنجاب، فهم يقولون في اللغة البنجابية ما معناه: إن الأم لم تولد بعد ولكن الابن يجري فوق السطح؛ وهم يُعبرون بذلك عن الأمر المستحيل حين يزعم الغريم وقوعه. لا شك أنها نكتة غير واقعية تتعلق بذلك المجتمع ولكننا هنا نواجه موقفا مستحيلا، غير أنه حدث بالفعل حسب قول العلماء. وهذه المشكلة لم تكن لتجد حلا بغير وجود هدف معين سبق تحديده، وتدبير محكم سبق تقديره. ففي خلال المرحلة التي نتحدث عنها لم يكن الأكسجين، الذي هو بمثابة الأم بالنسبة للأوزون، قد وُلد بعد، بينما كان ابنه الأوزون يجري فوق سطح الطبقات العليا من الجو.

ولعله من المفيد هنا أن نعلم أنه ليس من المسموح للأوزون أن يُدمر تماما كل الأشعة فوق البنفسجية. فإن الأشعة البنفسجية ذات التردد العريض تستطيع أن تمر من حاجز الأوزون لتصل إلى ما يقرب من سطح الكرة الأرضية، وذلك لأن هذه الأشعة في هذا النوع من التردد لا تُشكل أية خطورة على أنواع الكائنات التي تسكن الأرض، بل على العكس.. إن هذه الأشعة ذات التردد العريض تُعتبر ذات فائدة كبيرة في تخليق فيتامين 'د' عند الثدييات، بما فيها الإنسان. وإن المرء ليعجب حقا كم من المليارات من عوامل الصدفة قد تواطأت لتحقيق هذا الإعجاز، وكيف؟ فالملاحظ أن كل شيء يبدو محسوبا بدقة بالغة، ومخططا ببراعة فائقة، ومُنَفَّذا بإحكام معجز.

إن مقولة الانتخاب الطبيعي التلقائي في مقابل مقولة التدبير الهادف.. تتطلب مئات الألوف من الأجواء المختلفة، التي تكون قد خلقت مصادفة نتيجة لتفاعل المليارات من الصدف، التي تقع فوق الملايين من الكواكب الأرضية، التي منها واحدة فقط يمكن أن تكون مناسبة لمساعدة الحياة على

الأرض.

والميزة الأخرى التي يتميز بها الأوزون هي ما يتعلق بتكوينه. فالأوزون يتخلق بواسطة قذف الأكسجين بحزم مركزة من الأشعة فوق البنفسجية. وحين يحدث هذا فإن جزيء الأكسجين الذي يحتوي على ذرتين من الأكسجين يتحول إلى الحالة الأيونية، أي إلى ذرات من الأكسجين توجد في حالة منفردة، ثم تندمج هذه الذرات الحرة من الأكسجين مع بعضها بعض، لتُكَون كل ثلاثة منها جزيئا واحدا من الأوزون (أ٣). وبينما يتكون الأوزون بالتأثير المباشر للأشعة فوق البنفسجية على ذرات الأكسجين، فإنه خلال هذه العملية يقوم بتدمير هذه الأشعة التي هي سبب وجوده. فيا له من نظام مذهل وتدبير رائع ذلك الذي يقوم فيه العَدُوّان الرئيسيان للحياة، بالانخراط مع بعضهما البعض في معركة طاحنة لكي يدمر كل منهما الآخر، بغير أن يستطيع أحدهما أن يحرز أي تفوق على الآخر – فما أعجب ذلك التكافؤ الذي يتحقق!

وعودة مرة أخرى إلى مشهد ما قبل الحياة، حينما كانت الحياة على وشك النشوء والتشكل، فلا شك أن غياب طبقة الأوزون قد خلق مشكلة عويصة، إذ لا بد أن القذف المستمر وغير المنقطع للأشعة الكونية قد ظل يدمر باستمرار كل الكائنات في عصور ما قبل نشوء الحياة. وعلى ذلك كان لا بد من تكوين بعض الأوزون في الطبقات العليا من الغلاف الجوي قبل بداية الأنشطة الحيوية. ولا بد أن هذا قد حدث، ولكن، كيف؟ هذا هو السؤال الذي يجد العلماء راحة في تجنبه. ويقودنا هذا إلى الإقرار بأن الحياة في الواقع محاطة بقوى متضادة، تعمل في نفس الوقت لمصلحة الحياة وضد هذه المصلحة. ومع هذا فإن وجود كل منها ضروري ولازم لاستمرار الحياة، ولا بد أن الحياة قد استمرت تتقدم بين كل هذه الأخطار وهي مصونة في حجر الحماية والعناية الإلهية. يقول تعالى:

﴿سَوَآءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ

مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ۞ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ (١٣ الرعد:١١-١٢)

أي أن من يخفي قوله أو يعلنه، ومن يُخفي نفسه تحت ستار الليل أو يمشي في واضحة النهار، فكل منهما متكافئ عند الله تعالى. ولكل من هؤلاء ما يتحرك على الدوام من أمامه ومن خلفه لكي تتوفر له الحماية حسب ما يشاء الله وما يقدره بأمره.

وهناك الكثير من الآيات الكريمة في القرآن المجيد تشير إلى نفس المعنى.. أي أن الله تعالى لا بد أن يوفر الحماية للحياة في كل لحظة من وجودها، وإلا لكانت قد توقفت واختفت من الوجود.

إن الإنسان.. وهو يشغل مكانه الحالي في الأعالي الشاهقة من سلم تطور الحياة، عندما ينظر إلى أسفل ليرى الدرجات التي لا حصر لها تحته على سلم التطور.. قليلا ما يدرك أن الأمر ليس أقل من معجزة كبرى اقتضاها بقاءه على الحياة، رغم كل المخاطر التي مر بها، في كل درجة من درجات التطور هذه. إننا ندين بالامتنان للكثيرين من أجيال علماء البيولوجيا الذين أعانونا لكي نفهم، إلى حد ما، أسرار الحياة التي لا تنفذ، وألغازها التي لا تنتهي. ولكن ويا للأسف! إن هؤلاء الذين هم أنفسهم قد كشفوا الكثير من هذه الأسرار، وحلوا العديد من تلك الألغاز.. قليل منهم من يدرك مدى ما هو مدين به للرحمة الإلهية التي لا تنتهي، وحكمة الله الخلاقة التي لا حدود لها ولا نهاية.

ولزيادة إيضاح الموضوع الذي نبحثه، نعيد لفت أنظار القارئ إلى السيكولوجية الإنسانية وتعقيداتها البالغة. وفي الواقع.. إن كل إنسان هو عبارة عن كون مصغر في ذاته. هذا الكون الصغير لا يعيش بنفسه، ولكنه يحتاج إلى الملايين من وسائل الحفاظة والحماية، وأساليب التدبير والعناية، في كل خطوة من مراحل وجوده.

لقد كشف علماء الطبيعة عن الكثير من العوامل داخل الجسد

الإنساني، التي يمكن لكل منها، على حدة أو مجتمعة، أن تسبب الموت في التو واللحظة، إن لم تكن هناك التدابير التي تحفظ الحياة. وفي الواقع.. إن هذه المصاعب والتحديات لم توضع في حجمها الصحيح بل تمّ تبسيطها أكثر من اللازم. وإن وضع منهج لمواجهة كل هذه المخاطر والتحديات التي تواجه الحياة، ثم تطبيق هذا المنهج وتنفيذه، هو في ذاته أمر مهول، وتحد أصعب من الصعب، يقتضي أن تفنى الكثير من أعمار علماء المستقبل في الكشف والبحث.

ولنأخذ مثلا حالة الأخطار المحدقة بالغرفة الداخلية في الخلية الحية، والتي تسببها السوائل الغروانية المحيطة بها. لقد وضع الخالق التدابير المحكمة بأدق التفاصيل لحماية النواة من الامتصاص العشوائي للماء خلال الضغط الأسموزي.. الأمر الذي يسبب موت الخلية على الفور. وفي نفس الوقت وضع التدبير البارع، والتقدير الرائع، لكي ينتقل السكر الذي تحتاجه الخلية، مع الكمية المناسبة من الأنسولين، إلى الغرفة الداخلية للنواة. وأيضا.. أوجد النظام المحكم للتخلص من الفضلات التي تنتج خلال العمليات الكيميائية المستمرة، التي تجري داخل هذه الخلايا.

ويجب أن يكون من الواضح هنا أن السائل المائي للدم الذي تسبح فيه الخلايا الدموية، يمكن أن يكون سببا في الموت الفوري لتلك الخلايا، إذا استطاع ذلك السائل أن يتسلل إلى الغرف الداخلية للخلايا. ولإزالة خطر تسلل جزيئات الماء إلى غرف الخلايا.. أوجد الخالق غطاءً مزدوجا من الدهن في إتقان مبدع. ويستطيع هذا الغشاء المزدوج أن يمنع المواد غير المرغوب فيها من الدخول إلى الخلايا، ويتم ذلك بكفاءة تامة. غير أن هذا الغشاء لا يعوق مرور الغذاء، وغيره من المواد التي تحتاجها الخلايا، فيستمر مرورها داخل غرف الخلايا من خلال هذا الغشاء المزدوج العجيب. ولكن هذا الإجراء الوقائي في حد ذاته يُشكل مشاكل عويصة أخرى. فإذا كان الغشاء الوقائي لا يسمح بمرور أية سوائل إلى داخل

النواة، فكيف يمكن للسكر والأكسجين أن ينتقلا إلى داخل النواة، حيث إن وجودهما أمر حيوي تحتاجه هذه الخلايا؟ هذا هو السؤال الهام الذي لا بد أن ينشأ هنا. ففي كل جزء من ألف جزء من الثانية الواحدة من حياتها.. تحتاج الخلايا إلى إمداد متصل من السكر والأنسولين والأكسجين، وبعض الأملاح الضرورية الأخرى، لكي تظل على قيد الحياة. وحينما نضع في الاعتبار حجم الخلايا الدموية المتناهية في الصغر، وطبيعة الظروف المحيطة بها، والمشاكل التي تحدق بها، والمتطلبات التي يلزم توفرها لاستمرار حياتها، فإننا ندرك على الفور أن الأمر يتطلب معرفة كاملة بالقوانين الطبيعية، وتقنية متقدمة من الكفاءة العلمية، حتى يمكن النجاح في مواجهة جميع هذه التحديات، وتلبية كل هذه المتطلبات.

فمن ناحية.. يمكن للبروتوبلازم (المادة الحية الأساسية في الخلايا النباتية والحيوانية) والنواة التي في غرفة الخلية أن تكتسب المناعة ضد أخطار احتمال تسرب البلازما المحيطة بالخلايا، وذلك بواسطة هذا الغشاء الدهني المزدوج. ومن ناحية أخرى.. فإن الخلايا في حاجة إلى إمداد مستمر من الطاقة، تمر من خلال هذا الغشاء الدهني. ولتوفير هذه الحاجات الضرورية، وتحقيق هذه المتطلبات اللازمة، اتخذ الخالق من الإجراءات البديعة ما يخلب اللب ويُعيي العقل.

ولا شك أنه من غير المعقول أن تكون جميع هذه الإجراءات قد خُططت ونُفذت بواسطة مجموعة من الصدف العمياء، تواطأت كلها سويا لتحقيق هذه النتيجة. وفي الواقع.. إن دقائق التركيب الداخلي للبروتين الناقل، والنسق العجيب الذي ينقل به جزيئات الجلوكوز إلى الخلايا، لا بد وأن يكون قد أُتقن تصميمه بدقة، حتى يمكن له القيام بما هو منوط به. وأيضا.. هناك من الوسائل المساعدة، التي تقوم بها كل خلية مُتلقية، بحيث تتوافق تماما، وفي كفاءة كاملة، مع عمل البروتين الناقل. وحيث إن بعض القراء قد يكونون غير معتادين على قراءة الاصطلاحات العلمية، الأمر

الذي يخلق لهم صعوبة في تتبع هذا الموضوع، لذا سوف نبذل كل جهد ممكن لتوضيح الموضوع للقارئ العادي.

إن نظام النقل هذا في ذاته عبارة عن تحفة رائعة من التصميم العلمي والتركيب البنائي، حتى إن السكوت التام عنه يعتبر منافيا للأمانة والموضوعية. وقد صمم الخالق القدير هذا النظام بالذات بقدرة عظيمة، فجعل كل بروتين ناقل يمتزج تماما بالغشاء المزدوج، ويتكون هذا البروتين من ٤٩٢ حمض أميني مُرتبة في ٢٥ مجموعة. ثلاث عشرة مجموعة منها هي هيدروفيليك، أي أن لها شغف خاص بالماء والسوائل، والاثنتا عشرة مجموعة الباقية هي هيدروفوبيك، أي أنها تمقت الماء وتطرد المحاليل وتنفر من السوائل. والمجموعات الهيدروفيليك تشجع على امتصاص المحاليل، وترحب بالوسط المائي الخارجي الذي يحيط بالخلايا، بينما تبغض مجموعات الهيدروفوبيك الماء، وتبتعد عن السوائل، وتفضل الوسط الداخلي للخلايا. والمطلوب من كل النوعين أن يتحركا إلى الأمام وإلى الخلف اثنتا عشرة مرة[١]، داخل الفراغ الموجود في الغشاء المزدوج. وأثناء ذلك تنتقل البروتينات والسكريات وكل ما تحمله هذه المجموعات، إلى البروتوبلازم أولا، من خلال تكوينات مسامية خاصة على جانب الغشاء. وكل ما يقتضي أن ينتقل من البروتوبلازم إلى المجرى الخارجي للدم يتم أيضا من خلال هذا التوافق الحلزوني، الذي ينقل المواد المعينة من البروتوبلازم إلى سطح الغشاء الخارجي، الذي يقوم بدوره بنقل هذه المواد إلى مجرى الدم من خلال تكوينات مسامية أخرى شديدة التعقيد. وعلى ذلك فإن الناقل المتذبذب:

"... ينقل الجيب الرابط من الجلوكوز عبر جوانب الغشاء. والدراسات الحركية، بما فيها الكثير من الدراسات التي أُجريت في كلية طب دارتماوث .... تبين أن هذا التذبذب يتم بسرعة غير عادية.... بل وتزداد السرعة حين يكون الجلوكوز مرتبطا بالناقل، فتصل سرعة التذبذب إلى ٩٠٠ مرة في الثانية".[٢]

ولا يمكن لهذا النظام أن يقوم بتخطيط وتصميم نفسه بهذه الدقة العجيبة، ثم يقوم أيضا بالتنفيذ بهذه الكفاءة البديعة. ولا يمكن أيضا أن يتم كل هذا بغير أي تدخل من البديع العليم، الذي لا يريدون أن يعترفوا بوجوده. لقد أثبتت الدلائل المستقاة من خلال المطياف (جهاز تحليل الطيف الضوئي) أن البروتين الناقل بأكمله يتلولب في شكل حلزوني، وفي هذا الشكل الحلزوني الأسطواني يتم ترتيب مجموعات الهيدروفيليك على جانب من الأسطوانة، بينما تترتب مجموعات الهيدروفوبيك على الجانب الآخر. إن هذا النسق في غاية من البراعة، وآية من آيات الإبداع، ولا يمكن أن تكون هذه الآليات المعقدة قد حدثت هكذا نتيجة للصدفة المحضة، وإنما قد حدثت نتيجة لتصميم هادف، وتدبير عارف.

وبصرف النظر عن متطلبات الطاقة في الخلية، هناك مشكلة أخرى يقتضيها أمر استمرار حياة الخلية، وهي نسبة وجود الأملاح داخل غرف الخلايا وخارجها. إذ إن الأملاح التي لا بد من وجودها داخل الخلية يجب أن تحافظ على نسبة معينة. وتختلف هذه النسبة بقدر كبير عن تلك التي في المحاليل الالكترولية (محلول كيماوي يتحلل بإمرار الكهرباء فيه) التي تحيط بالخلية فأيونات الصوديوم مثلا لها تركيز يزيد عشر مرات خارج الخلية عن تركيزها داخلها. وإذا كان الأمر مجرد وجود مسامات عادية لنقل الجلوكوز إلى داخل الخلية، فإن نفس تلك المسامات سوف تسمح أيضا لأيونات الصوديوم بالنفاذ إلى داخل الخلية، وبذلك تضطرب النسبة العشرية، الأمر الذي يمكن أن يتسبب في كارثة. كذلك فإن الإمداد المستمر والمنتظم من أيونات الصوديوم أمر ضروري لحياة الخلية، وهو يتوفر ويتحقق بدقة كاملة، مما يجعل من هذه التقنية العجيبة معجزة رائعة. ففي الغشاء المزدوج خُلقت صمامات خاصة للدخول فقط، عندما تُفتح تسمح لحوالي عشرة ملايين من أيونات الصوديوم من الدخول خلال جدار الغشاء في الثانية الواحدة. وهذا أسرع مائة ألف مرة من سرعة انتقال الجلوكوز[٣].

فيا لها من سرعة عجيبة حقا! غير أن القصة لم تنته بعد.

لقد اتضح تماما من هذه الدراسة أن الحياة.. حتى في أكثر أشكالها الأولية ومستوياتها البدائية.. كانت في حاجة دائمة للحفاظ والحماية. ثم نلاحظ تدبيرا آخر من فعل وتأثير القوانين الطبيعية لخدمة نفس المرام. فهناك.. نجد أن الموت يقوم على الدوام بخدمة مصالح الحياة، وذلك بأسلوب مختلف تماما. وهنا.. يتفوق الموت على الحياة بنطاق واسع. ويبدو أن هذا مخالف تماما لما ذكرناه فيما سبق، ولكنه في الحقيقة يؤيد الموضوع الذي كنا نناقشه، وهو أنه لا يوجد شيء عفو الصدفة في قصة الحياة.

إن كل قانون قد خُلق، وكل حدث تم تدبيره، إنما كان الغرض منه هو مساندة الحياة بشكل أو بآخر. ولعل ما يجول بالخاطر هنا هو المبدأ الدارويني عن "بقاء الأصلح".. فحسب هذا المبدأ، ارتجلت الطبيعة أسلوبا أوتوماتيكيا لتمحيص وتحسين نوعية الحياة. ويتم التأكيد على هذه العملية البطيئة المستمرة للانتخاب الطبيعي كلما واجه نوع معين من أنواع الحياة تهديدا لبقائه. ويحدث الانتخاب الطبيعي في كل مجال من مجالات الأنشطة الحيوانية. فالحيوانات الضارية حين تطارد فريستها، سواء على الأرض أو في الهواء، فإنها تعمل باستمرار على إزالة الأضعف والأقل استعدادا للبقاء بينها. وبطبيعة الحال فإن الحيوانات الضارية لا تُفرق عن قصد في الاختيار بين فرائسها، ولكن بطبيعة الحال.. إن الأقوى، والأسرع، وأيضا الأكثر ذكاء من بين أعضاء الفصيلة الحيوانية.. تكون له فرصة أكبر للتهرب بالطبع.

وبالمثل، في مجال الإنجاب، نجد أن الأقوى والأشد من بين ذكور الفصيلة الحيوانية في موسم التزاوج تكون لــــه فرصة في النجاح أكبر من الأضعف، وممن يعاني من ظروف عائقة. وعلى هذا.. نجد أن يد الموت في نهاية الأمر.. هي التي تخدم مصلحة الحياة. ومن السهل ملاحظة هذه الظاهرة في هذا المستوى وهي تحدث بطريقة تلقائية، وليست في حاجة

إلى تدبير معين لكي تتحقق. ولكن هذا المبدأ لا يعمل فقط فيما يتعلق بالمنافسة على البقاء بين الأنواع المختلفة، ولكنه يعمل أيضا بطريقة خفية، وبأسلوب أقل وضوحا في مجالات أخرى من الأنشطة الحياتية.

فلكل طفل تحمله أم.. هناك المليارات والمليارات من احتمالات الحمل، تذهب ضحية من أجل ذلك الطفل الواحد. ولعل الكثير من الناس لا يعلمون أن كل ذَكَر صحيح البنية قد وُهب القدرة على إنتاج العديد من المليارات من الذُرية خلال الفترة المتوسطَة للحياة. ولكن القليل فقط من الحيوانات المنوية، خلال حياة الرجل بأكملها، ما يكون موفور الحظ فينجح في إخصاب بويضة الأنثى، مما قد ينتج عنه مولد طفل. حتى إذا كان للرجل أن يتباهى بأنه أنجب مائة طفل.. في المجتمعات البدائية التي يُمارَس فيها تعدد الزوجات بغير رابط أو حدود.. فإن عدد الحيوانات المنوية التي أنتجها.. والقادرة على إخصاب بويضة الأنثى.. تفوق بنسبة هائلة أعداد ما أنجبه بالفعل. ولكن حتى تلك الحيوانات المنوية التي فشلت في اجتياز اختبار الانتخاب الطبيعي، لا تموت هباء. فإن في موتها ضمانا أن الأقوى، والأصح، والأقدر على التنافس، والمستحق للبقاء، هو الذي ينتقل إلى عالم جديد من عوالم الأجيال الأخرى من أنواع الحياة. وبالمناسبة.. إن المرء ليعجب، ويتساءل.. أية صدفة هذه التي خلقت بويضة واحدة للأنثى، مقابل المليارات من الحيوانات المنوية التي "خلقتها الصدفة" لدى الذكر؟ إذا كان الأمر حقا قد حدث بسبب الصدفة وحدها، لكان من المحتم أن تخلق الصدفة أيضا المليارات من البويضات، وبهذا فإن كل زوج من المتزوجين وغير المتزوجين يستطيع أن يهدي إلى العالم أعدادا هائلة من الذرية، مما سوف يخلق من المشاكل ما يزيد من عبء اقتصاديات العالم، التي تعاني وتتنازع من أجل البقاء في العالم الحديث، الذي من سمته التسابق، ويحكمه التنافس.

وعلى هذا.. خلال الصراع على البقاء، لا بد من التضحية بأعداد كبيرة

من المتصارعين، وذلك من أجل الحصول على قدر ضئيل من تفاضل يؤدي إلى تحسين نوعية الحياة. ومع ذلك.. فإن الأمر لا ينتهي بمجرد النجاح مرة في تجنب عتبة الموت، إذ يظل أولئك الذين اجتازوا الاختبار يواجهون الموت في كل لحظة من لحظات حياتهم. إن الخطر المحدق الدائم هو ذلك الذي يشير إليه القرآن المجيد بأن الله تعالى يتولى.. بأمره ومشيئته.. حفظ الحياة منه عن طريق ملائكة الحياة، وهو حفظ يتم بتدبير واع. وعلى هذا.. فإن الموت ليس عفو الصدفة، كما أن الحياة ليست أيضا من نتاج محض الصدفة، وإنما يسير كل منهما في توافق مع الآخر، مثل الليل والنهار، لكي يبرهنا سويا على أن الوجود مخلوق بوعي وحكمة.

إن نظام الحفاظ والحماية الذي نتحدث عنه يغطي جميع مجالات الحياة بأكملها، الظاهر منها على المستوى الخارجي المنظور والمشاهَد، والخفي منها في الأعماق المجهولة والمستورة. وهذا النظام المتكامل للتقدم والحماية على طول الطريق التي سلكها التطور هو نظام واسع الانتشار، يغطي جميع أنشطة الحياة وشؤون الخلق. وحينما ننظر إلى الخلف.. إلى رحلة الحياة من وقت بدايتها إلى وقتنا الحالي، فإننا نلاحظ أنها قد انتقلت خلال الكثير من المراحل الصعبة، بل والمعاكسة. ويمكن أيضا أن نتصور الحياة وكأنها كانت تسير على أرض واسعة شاسعة من الرمال المتحركة التي تبتلع من يخطو عليها، إلا أن الحياة في سيرها كانت تخطو على بعض الأحجار الناتئة، وقد وُضعت وسط الرمال المتحركة على مسافات مناسبة. فإذا كان من يسير في تلك الظروف أعمى لا يرى، وليس لديه أي عقل أو إحساس، وإنما ينقل خطواته عشوائيا حسبما تقوده الصدفة، فكم هي احتمالات النجاح، إن كان هناك أي احتمال على الإطلاق، لهذا المسافر في تلك الظروف، لكي يعبر كل تلك المسافة الشاسعة، خطوة بعد خطوة، في الاتجاه الصحيح، وبغير أن يخطئ ولو مرة واحدة، في الانتقال من حجر إلى الحجر التالي، بغير أن تزل قدمه فيهوى لتبتلعه

الرمال المتحركة في أعماقها المجهولة؟

وإذا كانت الرحلة تقتضي اتخاذ المليارات من الخطوات عبر هذه الفلاة القاتلة، حيث كل خطوة يخطوها يحيطها الموت والهلاك من كل جهة، فمن ذا الذي يراهن على أن ذلك الأعمى سوف يصل سالما إلى غايته المقصودة؟ إنه لكي يتجه ذلك الأعمى دائما في الاتجاه الصحيح بغير أن يحيد عنه قيد شعرة، ولكي تقف أقدامه بكل ثبات على كل حجر من أحجار الحياة، ولكي يتجنب في كل لحظة عوامل الموت والهلاك التي تحيط به، فلا بد أن تكون يد الحكمة الإلهية هي التي تأخذ بيديه، ولا بد أن تكون القدرة الربانية هي التي تثبت خطواته، ولا بد أن تكون العناية الإلهية هي التي تحفظه من الهلاك. أما الصدفة العمياء.. فأنى لها أن تقود الأعمى على طريق الموت لتصل به إلى ساحل الحياة؟

إنه تطور بالطبع، ولكنه ليس تطورا أعمى. ففي كل مرحلة من مراحل تلك الرحلة، لم تكن الكائنات الحية هي التي تقرر الوجهة التي تتولاها، ولا الاتجاه الذي تسير فيه، ولا الغاية التي تخطو إليها، بل لَمَا كان من الممكن أصلا أن يكون هناك اتجاه، ولا أن تكون هناك غاية محددة، لو لم يكن هناك الخالق المبدع للحياة. وبغير هذا الخالق.. فإن كل خطوة تخطوها الحياة، كان من الممكن أن تكون في أي اتجاه عشوائي. ولا مانع أن تكون خطوة أو خطوتين أو حتى بعض الخطوات قد وقعت بالصدفة البحتة في الاتجاه الصحيح، ولكن أن تقع كل خطوة، دائما.. وباستمرار.. مليارات المرات.. بغير أن تخطئ ولو مرة واحدة، في الطريق الصحيح الذي يقود إلى خلق الإنسان، لهو أمر أغرب من الخيال، حتى إن أشباح الأساطير وأبطال الأقاصيص والخيالات، لترفض أن تصدقه. ورغم ذلك.. فإن بعض العلماء يصدقونه!

لو جاز لنا أن نعزل الله تعالى عن هذا النظام الدقيق من الخلق، فمن المحتم علينا أن نحدد من هو ذلك الخالق العظيم. وإن غضضنا الطرف عن

أسرار ومعجزات الكون الذي يضم غير الأحياء، فإن المعجزات الحية الباهرة على كوكب الأرض الصغير هذا، سوف تصرخ لليد التي شكلتها وملأت وجودها بما لا يُسبر غوره.. ولا يمكن إحصاؤه.. من الدقائق والعجائب. ولو لم يكن لله وجود، فإن صراخها سوف يظل دائما لا يُسمع، ولا يُستجاب. ولكنه سبحانه موجود.. يسمع الصراخ، ويستجيب الدعاء.

إن الإنسان يمكن أن يكون على يقين من أمر واحد.. هو أن الحياة لم تخلق نفسها، وأن الموت لا يمكن أن يخلق الحياة، وأن الفناء لا يستطيع أن يخلق البقاء.

*****

المـــــــــراجع

1. LIENHARD, G. E., SLOT, J. W., JAMES, D. E., MUECKLER, M. M. (January 1992) *How Cells Absorb Glucose.* Scientific American: p. 34
2. LIENHARD, G. E., SLOT, J. W., JAMES, D. E., MUECKLER, M. M. (January 1992) *How Cells Absorb Glucose.* Scientific American: pp. 36-37
3. LIENHARD, G. E., SLOT, J. W., JAMES, D. E., MUECKLER, M. M. (January 1992) *How Cells Absorb Glucose.* Scientific American: p. 37

الفصل السادس

الكيرالتية أو المجانبة في الطبيعة

ما هي المجانبة؟ وما هي أهميتها.. إن كان لها أية أهمية على الإطلاق؟ ولماذا المجانبة على أية حال؟ هذه كلها أسئلة سوف نوليها ما تستحقه من الاهتمام. فعندما نتحرك وندور حول دائرة، لا يهم بتاتا من أي جانب نبدأ، وسواء بدأنا من الجانب اليمين إلى الشمال، أو من الجانب الشمال إلى اليمين، فإن حركتنا، وقدرتنا على الدوران، لا تتأثران أبدا بأي جانب بدأنا. كذلك إذا أردنا أن نرفع شيئا ما من على الأرض.. فالتقطناه باليد اليمنى أو باليد اليسرى، فليس لموضوع اليمين أو الشمال أية أهمية، ما دام الشيء المطلوب رفعه قد ارتفع. إن موضوع جانب اليمين أو جانب الشمال يكتسب أهمية فقط إذا فهمنا الحكمة التي تتضمنها هذه المجانبة.. أي اختيار جانب معين دون الجانب الآخر. ولكن الغريب في الأمر أننا نجد في التعاليم الإسلامية، وفي بعض مظاهر القوانين الطبيعية، أن المجانبة تبدو مطبقة بصرامة، بدون سبب واضح لتفضيل جانب على آخر. وفي الفصل الأول من هذا الباب الخامس بعنوان: 'الحياة من منظور الوحي القرآني'، ذكرنا باختصار أن الكثير من الآيات القرآنية تتحدث عن المجانبة بمفهومها الديني. وقد وجد هذا المسلك القرآني متسعا في الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة للرسول ﷺ، تبين للمؤمنين كيفية السلوك اليومي في معاملاتهم الاجتماعية والدينية. وتوضح هذه التعاليم بكل تأكيد أن اليمين مفضل على الشمال.

لماذا هذا الانحياز في أمور تبدو بسيطة.. مثل تفضيل جانب على آخر؟ إنه سؤال يثير من الفضول والاهتمام الشيء الكثير عن سبب احتواء

التعاليم الدينية لأمور كهذه. ولكن حينما نواجه موضوع المجانبة كظاهرة في الطبيعة، فإن المعضلة تأخذ أبعادا فلكية في حجمها. إن التعاليم الدينية يمليها دائما الوحي الإلهي أو العقل الإنساني الواعي. ولكن العلماء العلمانيين لا يعترفون بوجود خالق واعٍ يمكن لــه أن يسنَّ نظاما للسلوك في قوانين الطبيعة. فلماذا إذن هذا التشابه بين التعاليم الدينية والقوانين الطبيعية في مجال المجانبة؟ وإن لم يكن الأصل واحدا في كل منهما، فهل يكون من المعقول رفض هذه الظاهرة باعتبارها وليدة الصدفة المحضة؟ ولكن.. ليس هذا هو كل ما في الأمر، إذ كلما تعمقنا في دراسة مظاهر المجانبة في الطبيعة.. اكتنفتنا الدهشة وغمرنا العجب. فليس هناك من تفسير علمي معروف لوجود المجانبة في الطبيعة. لماذا تبدي الطبيعة ميولا لاختيار جانب معين وتفضيله على جانب آخر؟ هذا هو السؤال الذي لا توجد عليه إجابة حتى الآن، وقد يظل بغير إجابة لعقود عديدة في رحم المستقبل.

ومما يستحق الذكر هنا هو أنه حسب ما يقول به القرآن المجيد.. فإن كل مسلك أو تصرف في الطبيعة لا بد أن يكون لــه تفسير عقلي، والقرآن يستبعد تماما وجود أي شيء في الطبيعة يكون عشوائيا، أو من نتاج محض الصدفة، أو لا يقوم على أساس من نظام وترتيب. وعلى هذا.. إن لم يكن اليوم.. فإن فجر ذلك الغد قد لا يكون بعيدا حين يتمكن العلماء من أن يسبروا غور الأسباب وراء كل مظهر من مظاهر المجانبة في الطبيعة، مهما كانت تبدو بسيطة اليوم.

وقبل أن نستطرد في الحديث عن هذا الموضوع، يبدو من المناسب أن نشرح بشيء من التفصيل ظاهرة المجانبة، أو الكيرالتية، وهو الاسم العلمي في اللغة الإنجليزية..Chirality، كما تعمل في الطبيعة. ويمكن فهمها بسهولة حين نتصور بعض التشكيلات البديعة التي يؤديها الأطفال تعبيرا عن قدراتهم الجسمانية. ولنتصور أن بعض المجموعات من الأطفال قد تشكلت

في شكل دوائر، تتكون كل دائرة فيها من نفس العدد من الأطفال، ثم طُلب من بعض المجموعات أن تدور في اتجاه عقارب الساعة، بينما تقوم المجموعات الأخرى بالدوران ضد عقارب الساعة. ولإضافة المزيد من جمال المنظر، نتصور أن المجموعات جُعلت في أزواج يتكون كل زوج منها من مجموعتين.. إذا دارت مجموعة منها في اتجاه معين فإن المجموعة الأخرى في هذا الزوج تدور تلقائيا في الاتجاه المخالف. وإذا أمكن أن نتصور وجود زوج واحد من مجموعتين تدور إحداهما في اتجاه.. بين تدور الأخرى في الاتجاه الآخر، فإننا نستطيع أن نفهم معنى المجانبة، أو الكيرالتية. ورغم التشابه في كل المظاهر الأخرى، إلا أن صورة المجموعة التي تدور من اليمين إلى الشمال لا يمكن أن تنطبق تماما على المجموعة التي تدور من الشمال إلى اليمين، وذلك بسبب الاتجاه المعاكس لاتجاه حركتهم. وأيضا.. رغم أن كل الجزيئات تدور حول محورها، فإنها جميعا لا تدور في اتجاه واحد، إذ يدور بعضها من اليمين إلى الشمال، بينما يدور البعض الآخر من الشمال إلى اليمين. وبعض المركبات التي لها نفس التكوين الكيمائي، قد تحتوي على جزيئات تدور في اتجاه اليمين، وجزيئات أخرى تدور في اتجاه الشمال، رغم وجود كل من النوعين من الجزيئات معلقا في نفس المحلول، بينما توجد مركبات أخرى تدور جزيئاتها في اتجاه واحد فقط. ولكن الكيرالتية ليست منحصرة في المستوى الجزيئي فحسب، فحتى الجسيمات الدقيقة في داخل الذرة لها كيرالتيتها الخاصة.


LOUS PASTEUR
لويس باستير

وقد جاء الدليل على وجود الكيرالتية في الطبيعة منذ ما يقرب من مائة وخمسين عاما، وكان لويس باستير (Louis Pasteur) العالم الفرنسي الشهير، هو الذي اكتشف الكيرالتية في دوران الجزيئات عام ١٨٤٨، وكان الفضل العظيم يرجع إلى ذكائه الفريد، وقوة ملاحظته الثاقبة. إذ بينما

كان يختبر ملحا معينا من أملاح حمض الترتريك، لاحظ وجود نوعين من البلورات، تبدو كل منها وكأنها صورة منعكسة في المرآة عن النوع الآخر. وبحرص شديد استطاع أن يفصل بين البلورتين، وأذاب كلا منهما في الماء، ثم جعل شعاعا من الضوء يمر في كل من المحلولين. وقد أخذته الدهشة عندما رأى أن الضوء المستقطب كان يدور في اتجاه مختلف في كل من العينتين. كان أحدهما يدور في اتجاه عقارب الساعة، بينما كان الآخر يدور ضد عقارب الساعة. وكان هذا يعني بوضوح أن جزيئات كل من العينتين لحمض الترتريك كانت تدور إما من اليمين إلى الشمال، أو من الشمال إلى اليمين، ولذلك لم تنطبق بلورات العينتين تماما بعضهما فوق بعض. وهذا تم اكتشاف الحالة الأولى من الكيرالتية على المستوى البدائي.[١]

وقد تم الكشف الفريد الثاني في هذا المجال على يد باستير أيضا عام ١٨٥٧. فقد لاحظ في أحد الأيام نمو نوع من العفن (Mould) في محلول كيميائي كان متروكا في مرطبان. وبدلا من أن يلقي بالمحلول في البالوعة باعتباره قد فسد وتلوث، فإنه جعل شعاعا من الضوء يمر في المحلول ليختبر تأثير ذلك العفن على المحلول، إن كان لـــه تأثير. وقد أخذته الدهشة البالغة حين رأى أن المحلول الذي لم يكن نشطا بالنسبة للضوء من قبل تكوين العفن، قد بدأ ينشط فجأة وأخذ يستقطب الضوء. كان المحلول غير نشط بالنسبة للضوء لسبب بسيط، وهو أنه كان يتركب من نوعين من الجزيئات.. متساويين في العدد.. يدور نوع منها في اتجاه اليمين ويدور النوع الآخر في اتجاه الشمال، فكان كل منهما يُعادل تأثير الاستقطاب على الضوء، فيبدو المحلول وكأنه خامل غير نشط. وعملية استقطاب الضوء التي ظهرت بعد تلوث العينة، لا تعني سوى أن العفن قد أكل نوعا واحدا فقط من الجزيئات التي كانت تدور في اتجاه معين، وترك الجزيئات الأخرى التي كانت تدور في الاتجاه المضاد. وقد أمكن بذلك الكشف عن أحد الأسرار، ولكن هذا خلق مشكلة أخرى أشد تعقيدا.. إذ كيف

استطاع العفن أن يتعرف على اتجاه دوران الجزيئات بهذه الدقة؟ ولماذا هذا الانحياز لجزيئات تدور في اتجاه معين؟ كانت هذه الأسئلة تحير عقل باستير في ذلك الحين، وهي لا تزال تحير فكر العلماء اليوم، ولا يعرف العلماء إلى متى تظل هذه الأسئلة بغير جواب، فإن حجم المعضلة مهول. إن جزيئات أي عنصر أو أي مركب، سواء كانت يمينية الدوران أو يسارية الدوران، تشترك دائما في نفس الخواص والصفات الطبيعية والكيميائية، فما الذي.. أو من هو الذي.. يقرر أن تدور جزيئاتها في هذا أو في ذلك الاتجاه؟ إن هذا في ذاته أمر محير يجهد الفكر، ولكن أن تستطيع المادة الحية.. بقدرتها العجيبة الخارقة.. أن تكتشف اتجاه الدوران في هذه الجزيئات، فهو أمر تبلغ صعوبته أبعادا فلكية. ولا يوجد من بين الحواس الخمس التي وُهبت للإنسان، ما لـــه القدرة على أن يقرر اتجاه دوران الجزيئات، وليس لدوران الجزيئات أثر معين على خواص المادة، حتى يمكن لحواس الإنسان أن تكتشفه. ولكن ماذا عن العفن الذي ليس له أعضاء للحس، وكل ما لـــه هو شيء من الشعور الباهت بالوسط الذي يحيطه؟

إن هذه القصة العجيبة عن الكيرالتية في الطبيعة لا تنتهي هنا.. بل تبدأ. فمنذ زمن باستير أحرزت البحوث عن الكيرالتية تقدما مهولا، وخرجت إلى دائرة الضوء أمثلة تثير الحيرة الشديدة، وهي تشهد بأن أنواعا مختلفة من الحياة يمكن أن تكشف الكيرالتية بدون أية أخطاء.

وقد تم في الوقت الحالي اكتشاف أن الكيرالتية تعمل في كل مستوى من مستويات الوجود المادي، غير أن موضوع كيف ولماذا تسلك بشكل معين.. لا يزال أمرا بعيدا عن مدارك الفهم والاستيعاب. وحتى عام ١٩٥٧ كان يُظن أن القوى الأربع الأساسية، التي تحكم تفاعل الجسيمات الأولية، تحافظ على التكافئ. وهذا يعني ببساطة أن جميع الجسيمات الأولية تدور في اتجاهات متماثلة (chiral-symmetry). غير أنه في عام ١٩٥٧ اكتشفت شين–شيونج وُو (Chien-Shiung Wu) وزملاؤها في جامعة كولومبيا.. أن

جسيمات بيتا beta المنبعثة من الأنوية المشعة، لا تدور في اتجاهات متماثلة. فالإلكترونات يسارية الدوران تتفوق كثيرا في العدد على الإلكترونات اليمينية. كذلك وُجد أن الجسيمات الدقيقة داخل الذرة، النيوترونات والنيوترونات المضادة، المتعادلة كهربيا والتي تتحرك بسرعة الضوء، لها أيضا دوران معين. ولكن على عكس الإلكترونات التي تُفضل في الغالب أن تكون يسارية الدوران، فإن النيوترونات المضادة تنحاز دائما إلى الدوران اليميني. ولا يوجد العكس في الطبيعة، ولا أحد يعلم سبب عدم التماثل هذا في هذه المستويات الأولية من الحياة.

وهناك الكثير من الافتراضات التي تُقدم في هذا الشأن، ولكن حين يتم اختبار هذه الافتراضات بدقة يتبين أن أغلبها ينافي الطبيعة أو يتعارض مع العقل. غير أن هناك أحد الاقتراحات الذي يبدو أنه قد زَوّد العلماء ببصيص من النور، ربما يمكّنهم من معرفة العوامل التي تعمل على المستوى الأوّلي للكيرالتية في الطبيعة، غير أنه على هذا المستوى يكون من الصعب جدا التحقق من سلامة هذا الاقتراح. وهو يتعلق بنظرية تُوَحد بين القوى الإلكترومغنطيسية الضعيفة، وكان أول من أعلن هذه النظرية في عام ١٩٦٠ هو الدكتور عبد السلام (Dr. Abdus Salam)، وستيفن واينبرج (Steven Weinberg)، وشلدون غلاشو (Sheldon Glashow). وقد تنبأت هذه النظرية بوجود قوة جديدة electroweak force لا تحافظ على التماثل. ويرى العلماء أنه من الممكن أن يكون عدم التماثل هذا هو المسؤول عن الدوران اليميني للنيوترونات المضادة، والدوران اليساري للنيوترونات وأيضا للإلكترونات. ولكن لا يمكن تصور أن تكون هذه القوة الكهربية الضعيفة هي العامل المسبب للدوران اليميني أو اليساري في جميع المستويات الأخرى للكيرالتية. وكثيرا ما يُسبب هذا السلوك المختلف بين الاثنين حيرة العلماء، وخاصة فيما يتعلق بالدور الذي يقومان به في التطور الحياتي. وتزداد المشكلة تعقيدا حينما نلاحظ أن

المركبات اليمينية واليسارية.. تحتوي على نفس المكونات ولها بالضبط نفس الصيغة الكيميائية.. غير أنها تؤثر تأثيرا مختلفا تماما على الحياة وبشكل غريب حقا. وفيما يلي بعض الأمثلة العجيبة:

اللَّيْمَونين مُركب يوجد في كل من الليمون والبرتقال. ولا يوجد هناك أي فرق إطلاقا بين الصيغة الكيميائية للَّيمونين سواء كان موجودا في الليمون أو في البرتقال. ومع هذا.. فإن اتجاه دوران جزيئات الليمونين في الليمون تكون على الدوام مضادة لاتجاه دورانها في البرتقال. فالليمونين في الليمون يميني الدوران باستمرار، بينما هو يساري الدوران باستمرار في البرتقال. فكيف يستطيع كل من الليمون والبرتقال أن يختار دائما الليمونين ذات الدوران المعين الذي يناسبه، مع أنه لا فرق البتة بين الليمونين في كل منهما سوى في اتجاه دوران الجزيئات؟ ولعل الأمر يحتاج إلى التأكيد مرة أخرى على أن كلا من عينتي الليمونين، اليميني واليساري، لها بالضبط نفس الصفات والخواص الطبيعية والكيميائية. وإنه لمن المدهش والغريب حقا أن تستطيع غدد الشم في الأنف البشري أن تحدد الفرق بين اتجاه الدوران في الليمون والبرتقال، فتعطي لكل منهما رائحة مختلفة تماما عن الآخر. لا بد بالطبع أن يكون هناك سبب ما، ولكن حتى الآن لم نستطع التعرف عليه.

ومثال آخر يتعلق بتأثير الكيرالتية على نوع من الحياة، ولكنه كان تأثيرا مشؤوما. وقد تسلطت الأضواء على هذه الواقعة في عام ١٩٦٣ حينما ظهر على مسرح الأحداث دواء جديد، يسمى ثاليدومايد (thalidomide) أنتجته إحدى شركات الأدوية، لعلاج الإجهاد والآلام التي تشعر بها السيدة الحامل في الصباح. وقد أمكن شفاء الكثيرات من السيدات بواسطة هذا الدواء، ولكن بالنسبة للكثيرات الأخريات من السيدات.. كان هذا الدواء مصدر شؤم، وسببا في وقوع الكثير من الكوارث. فقد حدث أن أطفالا وُلدوا بعيوب وتشوهات خلقية فظيعة،

لبعض السيدات اللاتي كن يُعالَجن بنفس هذا الدواء.

وكشفت البحوث الواسعة التي أجريت فيما بعد على أن شركة تصنيع الأدوية التي صنعت دواء الثاليدومايد، قد صنعت بغير قصد نوعين من مركبات الثاليدومايد، لهما نفس الصيغة الكيمائية. وبينما كانت جزيئات أحد النوعين تدور في اتجاه معين.. كانت جزيئات النوع الثاني تدور في الاتجاه المضاد. وبينما كان أحد النوعين يسبب شفاء أمراض النساء، كان النوع الآخر يُسبب التشوهات الخلقية الفظيعة في الأجنة، بدلا من شفاء آلام الصباح لدى السيدات الحوامل. وكانت أبشع الأعراض الجانبية لهذا الدواء هي العاهات والتشوهات التي حدثت في أذرع وأرجل المواليد، الذين وُلدوا بعد تناول هذا الدواء.

وهناك حالة مثيرة أخرى عن اتجاه الدوران تتعلق بأدنى المستويات البدائية في الحياة، وتفضيل اتجاه معين للدوران على الاتجاه الآخر. فبالرغم من وجود عدة مئات من الأحماض الأمينية، كانت موجودة في الحساء الهيولي، والتي تخلقت منها البروتينات التي كوّنت قوالب الحياة الأساسية من DNA و RNA، فإن 'الطبيعة' اختارت عشرين حمضا أمينيا فقط من بين تلك المئات، كانت كلها يسارية الدوران!

وفي حالة اختيار الجزيئات لبناء السكريات، كان الاختيار منعكسا. فإن جزيئات كل الأنواع الأربع المختلفة، والمسؤولة عن إمداد جميع أنواع الحياة بالطاقة، كلها بغير استثناء، يمينية الدوران. وهذا يعني أن جميع أنواع السكريات الموجودة والمتاحة في الحياة، مثل قصب السكر، وجذور الشمندر (البنجر)، والفواكه، وغيرها.. كلها تقوم بتكوين سكر يحتوي على جزيئات يمينية الدوران فقط.

ومع ذلك، فقد تمت بنجاح، منذ بضع سنوات، تجربة لإنتاج سكر يتكون فقط من جزيئات يسارية الدوران. وقد تبين أن هذا السكر المصنّع، رغم أنه مماثل تماما للسكر الطبيعي في الطعم، وفي الخواص

الكيميائية، وفي نفس السلوك والتأثير عند الطبخ، إلا أن الجهاز الهضمي لدى الإنسان يلفظه تماما، فلا يهضم الجسم منه ولا حتى ذرة واحدة. وقد أدى هذا إلى فكرة عجيبة لتصنيع نوع من السكر تصنيعا تجاريا، تكون جميع جزيئاته يسارية الدوران، ليس فقط لمصلحة مرضى السكر، ولكن أيضا لمتعة محبي تناول العديد من الأطعمة والتهام الكثير من الحلوى. إذ يستطيع هؤلاء تناول جبال من هذا السكر، دون أي خوف من تكوين ذرة واحدة من الدهون. وكانت العقبة الوحيدة، حتى الآن، هي أن تكاليف تصنيع هذا النوع من السكر يساري الدوران، باهظة بشكل يمنع من تنفيذ فكرة التصنيع، فالمطلوب هو تلال من الأموال لتصنيع ملعقة من هذا السكر. ولكن.. قد يستطيع أصحاب السمو في الدول الغنية بالبترول الذين يجلسون على تلال من الأموال أن يتحملوا أعباء شراء هذه المتعة.

إن ما يبدو أنه تفضيل عشوائي لليمين أو لليسار، يظهر أيضا في عديد من الأشكال الأخرى. فإن الغالبية من بين البشر يستخدمون اليد اليمنى، كما أن وضع القلب يكون في الجانب الأيسر، بينما يأتي وضع الكبد في الجانب الأيمن، وذلك في العموم الغالب من الناس، إلا من قلة نادرة بالطبع. وفي مقال بعنوان: "المجانبة في الكون *The Handedness of the Universe*" من تأليف مشترك من روجر أ. هجستروم Roger A. Hegstrom وديليب ك. كونديبودي Dillip K. Kondepudi والذي نُشر في مجلة *Scientific American* في يناير (كانون ثاني) عام ١٩٩٠، قدم العديد من الأمثلة على المجانبة في الطبيعة بغير وجود لما يبدو أنه سبب معين للمفاضلة. وذكر المقال أنه رغم أن معظم الناس يستخدمون اليد اليمنى، إلا أنهم لا يعرفون سببا.

"... لماذا لم يولد الأيمن من الناس والأعسر منهم في أعداد متساوية".[٢]

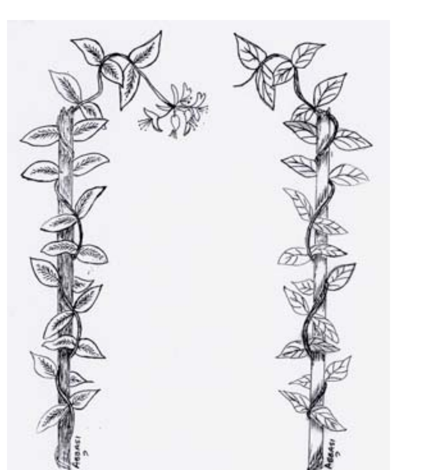
كذلك فإن إظهار تفضيل جانب معين على جانب آخر، ليس وقفا

على الجنس البشري وحده. فقد كتبا عن هذا الموضوع في المملكة الحيوانية، وفي السلوك النباتي فقالا:

"إن القواقع الحلزونية التي تتلولب ناحية اليمين يكثر وجودها على جانبي خط الاستواء، ولا توجد بين هذه القواقع اليمينية سوى بعض القواقع التي تتلولب ناحية الشمال، ولكنها لا توجد إلا بسبب طفرة تقع بنسبة تتراوح بين واحد في المائة إلى واحد في المليون حسب النوع".[٣]



وعلى العكس من هذه الأنواع من القواقع، هناك قواقع الولك على ساحل المحيط الأطلنطي التي تتلولب ناحية اليسار. وفي النباتات نجد أن شجرة صريمة الجدي، وهي شجرة متسلقة، تتلولب صاعدة من الشمال إلى اليمين حول العمود الذي تستند عليه، بينما تتلولب شجرة اللبلاب من اليمين إلى الشمال. وحتى بين البكتريا.. يُلاحظ أن بعض مستعمراتها تتلولب أيضا من اليمين إلى الشمال، ولكن حينما ترتفع درجات الحرارة فإنها تعكس اتجاه لولبتها من الشمال إلى اليمين.[٣]



وليست هذه سوى بعض الأمثلة، ولكنا نجد في كل مستوى من مستويات التطور أمثلة بارزة، تُبين كيف أن الحياة تُبدي تفضيلا في الاتجاه التي تدور فيه الجزيئات. ولا شك أن دراسة هذه الأمثلة تثير العجب، وتترك المرء في ذهول واندهاش. ولا بد أن يكون هناك إله حكيم عظيم يختار في كل مرحلة ما يشاء

ويقرر ما يريد، وإلا.. فهل يمكن أن يعود اتخاذ القرار إلى هوى وعشوائية الطبيعة العمياء؟

إننا نشعر في نهاية الأمر أن الغرض من تقديم هذه الكتابات يحتاج إلى الشرح والإيضاح مرة أخرى. فالموضوع الأساسي في المناقشة هو ما إذا كان يمكن للوحي أن يؤدي دورا في انتقال المعلومات من نطاق المجهول إلى نطاق المعلوم. وكل مناقشة تحت العناوين المختلفة في هذا البحث تتعلق دوما بهذا الموضوع. غير أن هذه العلاقة قد لا تكون مفهومة بوضوح في هذا الفصل، ومن هنا اقتضى الأمر زيادة إيضاح الموضوع. لقد أشرنا فيما سبق إلى أن الإسلام، يتميز وحده من بين مجموعة الأديان، بأنه يعطي اهتماما لموضوع المجانبة في السلوك الديني والاجتماعي. ونحن نلفت أنظار القارئ بكل احترام إلى أنه في الأديان الأخرى كلها.. نجد أن عكس كلمة 'right' هو 'wrong' أي 'خطأ' وليس left أي 'شمال'.

أما في الإسلام.. فإن كلمة 'يمين' لا تستعمل خصيصا للتعبير عما هو طيب، وإنما تستخدم حرفيا للتعبير عن 'الجانب' أيضا، وفي هذا المضمون.. لا يستخدم لفظ 'يمين' مقابل لفظ 'خطأ'، وإنما يستخدم مقابل لفظ 'شمال'. وهذه مجانبة بكل وضوح. وفي القرآن المجيد، هناك الكثير من الآيات الكريمة تشير بوضوح إلى تفضيل اليمين على الشمال. ولا بد أن هذه الآيات الكريمة هي التي كانت نبراس الهدى للرسول ﷺ لحث المؤمنين على تفضيل اليمين على اليسار في التعاملات اليومية والدينية. وقد بين بسُنته الشريفة أنه كان دائما يبدأ كل ما هو طيب من الجانب الأيمن، أو يؤديه بيده اليمنى. وقد أُمر المؤمنون مثلا حين الوضوء للصلاة أن يقوموا بغسل العضو الأيمن أولا، وحين يرتدون أحذيتهم أن يبدأوا بوضع القدم اليمنى أولا في الحذاء. وفي ترتيب جلوس المدعويين حول مائدة الطعام، يُخصص الجانب الأيمن للمضيف لجلوس ضيف الشرف. وعند مولد الطفل المسلم يُهمَس في أذنه اليمنى بالأذان ثم

بالإقامة في الأذن اليسرى. وهذه التعاليم ليست عفو الصدفة، ولكنها جاءت بأدق تفاصيلها. فحسب تعاليم الرسول ﷺ وطبقا لأسوته الشريفة وسُنّته الطاهرة، يتعين على المسلمين أن يستخدموا اليد اليمنى عند لمس أو تناول كل ما هو طيب، وترك ما دون ذلك لليد اليسرى. وعلى ذلك.. حين يضع المسلم يده في يد الآخرين للسلام، يكون من المتوقع منه أن يفعل ذلك وهو على يقين من أنه يمد يدا نظيفة.

وتُبين مثل هذه التعاليم بوضوح أن فكرة المجانبة في السلوك الديني والاجتماعي، قد جاءت في الإسلام لغرض معين ولحكمة بالغة. وفي هذا المضمون أيضا، جاءت نبوءات عن مستقبل الإنسانية، كما جاء استعمال تعبيرات مثل أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، أو اليمينيون واليساريون. ومن هنا كان التقسيم السياسي والاقتصادي في العالم المعاصر، الذي يقوم على الفلسفة اليمينية والفلسفة اليسارية، يتفق بوضوح مع ما أشار إليه القرآن المجيد عن أحداث المستقبل للإنسان.

والسؤال الآن هو.. لماذا نجد هذا التركيز بقوة على المجانبة في الإسلام وحده، بينما جميع الأديان السماوية الأخرى لم تذكر عنها شيئا؟

وللإجابة على هذا السؤال يتعين علينا أن نفهم أنه حسبما يقول به القرآن المجيد.. فقد انتهى زمن الأديان الأخرى كلها، وأفل نجمها مع انبثاق فجر الإسلام. ولم يكن للاستقطاب والمجانبة أي أثر في أمور المجتمع الإنساني قبل مجيئه. وكان الإسلام وحده هو الذي كان مُقدرا له أن يخاطب الناس في زمن يكون فيه الاستقطاب والمجانبة، يمينية كانت أو يسارية، عملة متداولة في التعبيرات الشائعة.

وحينما ننظر إلى الموضوع من هذه الزاوية.. يتبين لنا أن موضوع المجانبة في الأمور اليومية كان أمرا سبق التنبؤ به، يشير إلى أن الإنسان على وشك أن يعيش في عصر تتقدم فيه العلوم، ويكتسب فيه موضوع المجانبة أبعادا وأعماقا جديدة. وهذا هو ما حدث بالضبط. وقليل ما كان

يعلم إنسان ذلك العصر.. أن المجانبة لن تحرز أهمية كبرى في التقسيم السياسي والاقتصادي فقط، بل في المجال العلمي أيضا.. وأنها سوف تكتسب أهمية لم يكن يتصور أحد في أي عصر سابق أن تحوزها.

المـــــــراجع

1. FESSENDEN, R.J., FESSENDEN, J.S. (1982) *Organic Chemistry*. 2nd ed. PWS Publishers. Willand Grant Press. Massachusetts, p. 139
2. HEGSTROM, R.A., KONDEPUDI, D.K., (January 1990) *The Handedness of the Universe*. Scientific American: pp. 98-99
3. HEGSTROM, R.A., KONDEPUDI, D.K., (January 1990) *The Handedness of the Universe*. Scientific American: p. 99

الفصل السابع
الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح

للإجابة على السؤال المتعلق بمن كان المسؤول عن اتخاذ القرار، خلال كافة العصور، وعند كل خطوة من مراحل التطور.. يقول القرآن المجيد:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًاۖ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (٦٧ المُلك:٢-٥)

لو لم يكن لله تعالى وجود، لما استطاعت الحياة أن تخطو على درب هادف، ولا أن تسير على نهج ذي غرض معين، ولا أن تتقدم على طريق في اتجاه محدد. ففي كل خطوة كانت تخطوها.. كان أمامها منفسح واسع الامتداد من الإمكانات، تحفه الصعاب في كل مكان، وتكتنفه العقبات عند كل منعطف، ومع ذلك، كان عليها أن تشق من خلاله طريقا لها. وكان هناك ما لا يُحصى من الخيارات التي كان من الممكن أن تحيد بالحياة عن طريقها المرسوم، وأن تُغير من اتجاه التطور في كل لحظة حاسمة من لحظات الزمن. والسؤال الذي يلح الآن هو لماذا واصلت الحياة تقدمها على طريق معين للتطور، وفي اتجاه واحد محدد، وكأنه ليس من طريق

آخر، ولا من اتجاه مغاير؟

إن الإجابة الوحيدة التي يُقدمها لنا العلماء تتعلق بالانتخاب الطبيعي والدور الذي يقوم به. ورغم أنهم يُدركون جيدا حجم المشكلة، ومدى خطورتها وأهميتها، فإنهم يريدوننا أن نصدق بأنه عند كل مفترق في الطريق، وعند كل مرحلة حاسمة تتطلب اتخاذ القرار المناسب، فإن الانتخاب الطبيعي هو الذي كان يتخذ القرار، فكان دائما يأخذ القرار الصحيح، وكان دوما ينتقي الخيار المناسب من بين ما لا يُحصى من الخيارات المتاحة.


DARWIN
داروين

ومنذ أن صك داروين عبارة "الانتخاب الطبيعي".. تحولت هذه العبارة إلى عصا سحرية في أيدي العلماء الذين يبحثون في أسرار الطبيعة. وفي كل حالة من الأحوال التي يبدو أنها تقدم الدليل الناصع على الدور الذي يقوم به خالق عليم، يقرر ما يشاء ويختار ما يريد، فإنهم يختفون على الفور في ضباب هذه العبارة الغامضة التي أُسيء فهمها أبلغ إساءة. وهم ينسبون كل خطوة تتقدم بها الحياة على طريق التطور، إلى أن الصُدف التي لا تُعد قد خلقت ما لا يُحصى من الخيارات أمام الانتخاب الطبيعي لكي يختار منها ما يشاء. ولكن هذا الاختيار من جانب الانتخاب الطبيعي.. يكون اختيارا غير عاقل وغير مدرك، وهم يوافقون على ذلك. ومن الطبيعي أنه حينما تتصارع بعض الكائنات على البقاء في ظروف تستدعي التنافس بينها، فقد تتمكن بعض الكائنات من البقاء على حساب بعض الكائنات الأخرى، إذا كانت تمتلك من القدرات ما يمكنها من البقاء مما لا يمتلكه غيرها.

وهنا نود أن نذكر عبارة أخرى من المصطلحات الداروينية التي لا

يسأم العلماء من تكرارها، وهي عبارة "البقاء للأصلح" التي يستعملها علماء الطبيعة كثيرا. وقد صيغت هذه العبارة على أساس من افتراض أن الانتخاب الطبيعي، رغم أنه أعمى، فإنه سوف ينتقي دائما الخيار الصحيح، وأن الأصلح فقط هو الذي يستطيع البقاء في عالم يسود فيه التنافس. وما كان متخلفا في معركة الصراع على البقاء، فلا مهرب له من أن يلقى الفناء. ولعل هذا المبدأ الذي صاغه داروين قد أُسيء تفسيره إلى درجة وضعت المبدأ نفسه موضع التساؤل. ولدينا من الأدلة ما لا يمكن نقضه.. تنتشر في جميع أنحاء المسكونة.. مما يُثبت أنه حتى أكثر الأنواع تخلفا في الصفات التطورية، وأقل الكائنات صعودا على درجات سلم التطور، قد استمرت في البقاء. وفناء بعض الأنواع بالنسبة للبعض الآخر لا يحدث إلا حينما يكون الصراع قاسيا، وتكون المواجهة المتبادلة فيه شديدة بين من يبقى ومن يفنى. وحتى في هذه الظروف، لا يحدث بالضرورة أن يكون من يبقى هو دائما الأصلح على الإطلاق. إن بقاء الأصلح على الإطلاق، رغم أنه قد يحدث، إلا أنه قد لا يحدث على الدوام، في كل حالة من أحوال الصراع على البقاء. والأصلح في هذه الأحوال يكون هو الأصلح فقط فيما يتعلق بخصوصية ظروف ذلك الصراع. وتعيس الحظ الذي لا يستطيع مواجهة هذه اللحظات الصعبة قد يمتلك الكثير من الصفات المتقدمة، وله من القدرات ما هو أكثر كفاءة، مما يصنفه في مصاف الأكثر قوة، والأصلح قدرة على البقاء في صراعات أخرى، تحت ظروف مختلفة.

ولنستفِضْ بعض الشيء في شرح هذه النقطة.. فلنتصور مشهد مجاعة قاسية، نتجت عن موجة شديدة من الجفاف، أصابت قارة بأكملها. فإذا استمرت هذه المجاعة لزمن طويل، يكون من المحتمل أن تُسبب فناء الكثير من الأنواع. ويتوقف موضوع الفناء أو البقاء على مدى قدرة أنواع الحياة المختلفة على التعايش والتعامل مع الظروف السائدة في هذه الحالة

بالذات.

وفي هذه الحالة من المجاعة التي نتصورها.. من المنطقي أن تجف وتموت معظم الحشائش، والنباتات الموسمية، والشجيرات الصغيرة. والسبب الواضح لهذا الفناء هو أنه في حالة الجفاف، سوف ينخفض ويهبط مستوى المياه الأرضية طالما ظل الجفاف يضرب الأرض بأطنابه، حتى إذا ما جفت تماما كل التربة، فسوف تجف معها الجذور القصيرة. ولكن قد لا يكون هذا هو المصير المحتوم لبعض الأشجار التي لها جذور طويلة، تضرب في الأرض لتصل إلى أعماق غائرة. ومن المعروف أن بعض الجذور تصل إلى أعماق مهولة، وخاصة في أحوال الجفاف الشديد. وهناك الكثير من الكهوف التي اكتشفها علماء الآثار في الجبال تشهد على صدق هذه الحقيقة. ويبدو أن بعض الأشجار التي تنمو على قمم بعض الجبال تستطيع ملاحقة المياه الجوفية في أعماق كبيرة، مما يثير الدهشة والعجب. ورغم تكرار وقوع فترات الجفاف في الصحراوات، فإن سر استمرار حياة بعض الأشجار في بعض الواحات، يعود أيضا إلى هذه القدرة لبعض الأشجار على ملاحقة المياه في الطبقات السفلى من الأرض.

وفي مشهد المجاعة الذي نتخيله في دراستنا، يمكن للمرء أن يتوقع أن جميع الشجيرات الصغيرة ذات الجذور القصيرة، والحشائش، والنباتات الموسمية، وغيرها مما يماثلها، سوف تنمحي من الوجود، بينما تستطيع بعض الأشجار الطويلة الأخرى ذات الجذور الضاربة في أعماق الأرض إلى مسافات طويلة أن تتحمل أشد الأحوال جفافا.

ولننظر الآن إلى ما يمكن أن يحدث للحياة على العموم على ظهر هذه القارة في هذه الظروف القاسية. إن معظم الحيوانات ذوات الأرجل والأعناق القصيرة والتي ترعى الحشائش سوف تموت من الجوع أو العطش. وأيضا الحيوانات الضارية التي تعيش على اصطياد الحيوانات

راعية الحشائش لن يطول بقاؤها هي الأخرى مع تضاؤل واضمحلال مصدر غذائها.

ولعل ما يستطيع العيش من الكائنات في هذه الظروف هو ما يمكنه البقاء على القليل النادر من الماء مثل بعض الديدان، والعقارب، والحشرات ألفية الأرجل، والحيوانات التي تأخذ احتياجاتها اليومية من الماء من خلال تغذيها بنهم على تلك الحشرات. ويتميز حيوان الميركات من بين تلك الحيوانات بأن له قدرة خارقة على الحياة في مثل هذه الظروف القاسية. وقد يشاركه أيضا بعض أنواع القوارض التي تستطيع هي الأخرى أن تعيش في مثل هذه الظروف من الجفاف الشديد.

أما بين جميع الفقريات، فإن النوع الذي يمكن أن تكون له فرصة للبقاء هو حيوان الزراف الذي يتميز بطول فارع للعنق والأرجل، حيث لا يكون من العسير لديه أن يصل إلى أوراق الأشجار الخضراء في الأغصان العالية على قمم بعض الأشجار الطويلة من ذوات الجذور الضاربة في الأرض إلى أعماق بعيدة، بينما تهلك من حولها بقية الحيوانات التي تعتمد في غذائها على رعي العشب الأخضر فقط.

هناك أيضا بعض العوامل الأخرى التي يتعين أن تؤخذ في الاعتبار. فهناك بعض الحيوانات التي تستطيع أن تمشي لمسافات طويلة بحثا عما بقي من المياه في بعض الحفر أو المنخفضات الأرضية، وهناك أيضا الحيوانات التي تتحرك ببطء، وهي في موقف أقل حظًّا من غيرها. أيضا هناك بعض الحيوانات التي تستطيع أن تستطلع موضع المياه من أبعاد كبيرة، بينما هناك البعض مما يجب أن يجد المياه تحت أنفه. كذلك يجب أن نضع في الصورة دور الحيوانات المتوحشة التي سوف تزدهر حين تقتات على لحوم الحيوانات التي تعيش على رعي الحشائش، وتلاحقها حيثما ذهبت. غير أن هذه الضواري أيضا لا تستطيع البقاء على الحياة طويلا بغير وجود الماء. وإنه لمن المؤلم حقا تَصَور تلك اللحظة المأساوية التي سوف ينسدل

فيها الستار النهائي على هذه الدراما الغريبة، فسوف يغادر الممثلون فيها مسرح الأحداث وقد أنهكهم التعب، وقضى عليهم الجوع، الواحد تلو الآخر. وربما ما يبقى من المتفرجين على هذه المأساة هو بعض الحيوانات من الزرافات، وبعض الحشرات الطفيلية وبعض الميركات، حيث يشاهد هؤلاء الفصل الأخير في هذا المسرح المفتوح الكبير في القارة التي وقعت عليها هذه المأساة. ولعل كل ما يمكن أن يُسمع من تصفيق في نهاية هذه المسرحية الحزينة هو زقزقة بعض الميركات، أو همهمة بعض الزرافات، إذا كان قد بقي لديها من القوة ما يمكنها من الهمهمة، وهو تصفيق يعبر عن سعادتها بالنجاة والبقاء على قيد الحياة!

هل هذا هو بقاء الأصلح؟ هل هذا ما يرفع العلماء عقيرتهم بالصخب حولــه؟ هل هذا ما يعنونه بفعل وتأثير الانتخاب الطبيعي؟ هل صفات الزرافات والميركات، ناهيك عن صفات بعض العينات من الحشرات الطفيلية التي استطاعت البقاء، تُمثل حقا الصلاحية القصوى التي يفضلها التطور؟

ومن الممكن أن تكون المئات من مثل هذه الأمواج العتيدة من التغيرات المناخية قد حدثت خلال المليارات من السنين الماضية، ومرت على الأرض أوقات تهدد فيها وجود الحياة بسبب زمهرير البرد القارس، أو بسبب قيظ الحر الحارق. كذلك كانت هناك الأوقات التي هدد الحياة فيها موجات من الجفاف القاتل أو من السيول الجارفة. ولا بد أنه قد انتشرت الكثير من الأمراض خلال تلك التغيرات المناخية. وما يكون قد بقي على قيد الحياة بعد كل من هذه المراحل الصعبة من المتغيرات، لا يكون على الدوام هو الزرافات والميركات، أو حتى الحشرات الطفيلية.

ففي كل مرحلة من هذه المراحل الصعبة المتغيرة، يكون المتوقع من مبدأ بقاء الأصلح أن يُبقي على الحياة بعضَ الأنواع المختلفة عما بقيت من مراحل مغايرة، فإن كل كارثة من الكوارث لها من أنواع الحياة ما

هو أصلح للبقاء. وحينما ننظر إلى موضوع البقاء.. فيما يتعلق بالأخطار المختلفة، والتحديات المتباينة للحياة، والعقبات التي تعترض طريقها خلال مليار من سنوات التطور، فمن الصعب تصور بقاء أي نوع من الحياة على الإطلاق. والاحتمال الضئيل، إن كان هناك أي احتمال على الإطلاق، هو تصور بقاء جميع أنواع الحياة، لأن ما تُفضّل بعض الكوارث بقاءه، ليس هو نفسه ما تُفضّل بقاءه الكوارث الأخرى. إن السم لدى بعض أصناف الحياة يمكن أن يكون بمثابة اللحم الذي تتغذى عليه أنواع أخرى. وعلى ذلك.. فإن قانون الاختيار العشوائي سوف يقوم باختيار أعمى، وسوف يستمر في القضاء على كل ما يعترض طريقه.

ونأمل الآن أن يكون القارئ قد أدرك طبيعة وأبعاد المشاكل التي تنجم عن فعل بقاء الأصلح والانتخاب الطبيعي. ولعلنا نذكر أنه لم يتم اختبار تعبير "الانتخاب الطبيعي" اختبارا واسعا في جميع مجالات تطبيقاته. ونحن لم نعرض في هذا المضمون سوى مظهر واحد من مظاهره المتعددة.

وفي نظرية داروين عن التطور البيولوجي، يمكن ملاحظة دور الانتخاب الطبيعي بسهولة، كما هو مشاهد في الأنواع المتقدمة نوعا ما من أنواع الحياة. ولكن هنا أيضا تبين أنه ليس دقيقا في قبول القيم الصحيحة ورفض الخاطئة.

وأيضا لا بد من التأكيد هنا على أن ظاهرة الانتخاب الطبيعي عندما تحدث تحت ظروف متغايرة من المناخ، لا يكون لديها أية آلية للتأثير على التغيرات في نسيج الخلايا الداخلي لكي تتلاءم مع المتطلبات الخارجية. فإن الكروموسومات والجينات المسؤولة عن الصفات الوراثية، أبعد من أن تؤثر فيها التغييرات العشوائية الخارجية. والقوانين التي تحكم هذه الكروموسومات والجينات منعزلة تماما عن نزوات الحر أو البرد، وعن هوى الجفاف أو الرطوبة.

إن الانتخاب الطبيعي يعمل ويؤثر فقط بعد وجود مجموعة من

المتغيرات التي تتكون من خلال التغييرات الجينية التي إما أن تكون متغيرات منتظمة أو عشوائية. وفي عالم المتغيرات الكثيرة المتنافسة، والتي تخلّقت عن طريق 'الصدفة'، فإن ما يستطيع البقاء في ظلها هو فقط ما يثبت أنه الأصلح بالنسبة إلى بعض التحديات المعينة. ومع حدوث تغييرات في طبيعة وصفات التحديات، فإن تصنيف الصفات الأصلح سوف يتغير أيضا. وعلى ذلك فإن هذا الاعتقاد الخاطئ بأن الانتخاب الطبيعي سوف ينتخب دائما الصفات الأصلح تحت جميع الظروف المتباينة، لا بد أن يُسقط ويُرفض إلى الأبد. نعم.. أحيانا قد يحدث هذا، ولكن في أغلب الأحوال لا يحدث، فإن التعبير نسبي إلى حد كبير، ومن النادر ما يكون محددا في اختياراته. ومن الممكن أن يكون التنافس على البقاء بين أعضاء النوع الواحد، أو بين الأنواع المختلفة، واحتمالات النتائج المترتبة على وضع معين، هي وحدها التي تقرر نوعية عوامل البقاء. فالصراع الأعمى من أجل البقاء لا يمكن لــه أن يصيب على الدوام الصفات الأصلح. وما يستطيع البقاء بعد ذلك، سواء كان جيدا أو سيئا، فلا بد من قبوله على أنه الأصلح. وقد تحوز عينة من أنواع الحياة لقب البطولة لمقدرتها على البقاء في ظروف معينة، مع أن العينة التي فنت وانقرضت، قد يكون لديها من الصفات ما هو أصلح وأفضل وأكثر تقدما في مجالات أخرى.

ولنعتبر مثلا حالة حيوان الغوريلا الذي يُترك في عزلة في منطقة من مناطق القطب الشمالي الثلجية، فنجد أن الدب القطبي والثعالب لها فرصة أكبر في البقاء على قيد الحياة في هذه البيئة بالمقارنة مع الغوريلا. ورغم أن حيوان الغوريلا يُعتبر أكثر تقدما على سلم التطور، وعلى ذلك فهو الأصلح بالمقارنة مع الدب والثعلب القطبي، إلا أن مصيره المحتوم هو الهلاك على أيدي الانتخاب الطبيعي، باعتباره شيئا لا قيمة له بالمقارنة مع الدب القطبي والثعالب القطبية.

وإذا استبدلنا الغوريلا بالإنسان في نفس الظروف المكانية، فإن هلاكه المحتوم سوف يكون أسرع من هلاك الغوريلا، وذلك رغم مبدأ البقاء للأصلح. وعلى هذا فإنه من الخطأ الاعتقاد بأن الانتخاب الطبيعي ينتخب بالفعل النوع الأصلح. وعلى أحسن افتراض يمكن القول بأن خير ما يوصف به الانتخاب الطبيعي هو أن "القوة هي الأصلح" حتى ولو كانت هذه القوة غاشمة، ظالمة، بلا رحمة.. فإن القوة سوف تخرج منتصرة دائما في نظر الانتخاب الطبيعي.

وإذا حاولنا أن نقتفي آثار تاريخ التطور، فيما يتعلق بجميع الأشكال المختلفة للحياة، وأردنا أن نقرر ما إذا كانت قاعدة الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح قد قامت فعلا بما يُظن أنها قد حققته، فلا شك أننا سوف نحتاج إلى الكثير من الكتب الضخمة التي تتكون من آلاف الصفحات. وسوف يحتاج الأمر إلى أجيال من علماء المستقبل لتحقيق ذلك.

غير أنه لا بد أن نلفت أنظار القارئ إلى حقيقة أنه إذا تخيل المرء جميع الاختيارات الممكنة، فإن تواصل الاختيار يكون مستحيلا. فعند كل مرحلة يتعين فيها القيام باختيار معين، سوف تكون هناك الملايين من الاحتمالات التي يجب أن تتواطأ لاختيار صفة واحدة متميزة. والعكس أيضا يجب أن يؤخذ في الاعتبار بجدية.

لأن تقفز الطفرات العشوائية في أي اتجاه عشوائي أمر لا يثير الجدل أو الاعتراض، ولكن.. من المستحيل أن تقفز هذه الطفرات العشوائية دائما في الاتجاه الصحيح، لكي تخدم باستمرار الغرض الأسمى للتطور. وعلى هذا ففي لعبة حظ، والأمر هنا لا يخرج عن كونه لعبة حظ، من المستحيل للصدفة أن تخطو دائما في الاتجاه الصحيح حسب متطلبات التطور في هذه النقطة الزمنية المعينة. وإنه لمن المؤسف حقا.. أن يغلق معظم العلماء أعينهم عن حتمية وجود يد الخالق الحكيم الذي يختار، والذي هو وحده الذي يأخذ القرار الصحيح.. في كل وقت.. وفي كل

زمان.. بغير أن يترك شيئا لرمية زهر الصدفة والحظ.

كيف يمكن للتطور أن يسير دوما إلى الأمام في طريق تكوين الإنسان، بينما هناك ما لا يُحصى من الإمكانات، والاحتمالات، أن يأخذ التطور في كل لحظة خطوة خاطئة.. أو يتجه إلى الوراء في غير الاتجاه الصحيح؟ لعل الحل الوحيد لهذه المعضلة العويصة هو العودة إلى الوراء على نفس الطريق، والذي اخترعه صبي صغير حلا لمشكلته في يوم مطير. إذ يُحكى أن صبيا وصل إلى مدرسته متأخرا في الصباح، فلما عنّفه المدرس بشدة لهذا التأخير، اعتذر الصبي بأن الطريق إلى المدرسة كان زلقا بسبب المطر، حتى إنه كلما خطا خطوة واحدة إلى الأمام في الطريق إلى المدرسة، كان ينْزلق ويعود إلى الوراء خطوتين. فصاح فيه المدرس حانقا متغيظا: "وكيف استطعت رغم ذلك أن تصل إلى المدرسة"؟ فرد الصبي وهو يحاول أن يشرح لأستاذه ما تفتق عنه خياله فقال: "عفوا يا سيدي.. ولكن بعد مرور وقت طويل، خطر لي أن أسير في الاتجاه المعاكس، أي أن أسير في اتجاه منْزلي بدلا من السير في اتجاه المدرسة، وفي اللحظة التي بدأت أسير فيها في اتجاه المنْزل.. أخذت أنزلق إلى الوراء في اتجاه المدرسة بسرعة أسرع من تلك التي أسير بها عادة إلى المدرسة. وها أنا ذا يا سيدي قد وصلت.. وقد ارتطمت مؤخرة رأسي بحائط المدرسة للسرعة التي وصلت بها وأنا في اتجاهي المستمر إلى الوراء".

لو أن تطور الحياة كان متروكا كلية تحت تأثير عوامل الصدفة البحتة، لكانت المعضلة التي تواجه الحياة أشد قبحا من عذر ذلك الصبي. فكلما خطا التطور خطوة للأمام، مدفوعا بالصدفة وحدها، لانزلق إلى الوراء مئات الألوف من الخطوات. ولكان من المستحيل على الحياة أن تتقدم خطوة واحدة للأمام، بغير أن يكون هناك تقدير مُسبق لهذا التقدم.. وهو ما يعتقد به بعض العلماء المشتغلين بأمور الطبيعة. وإذا قلنا إن الحياة تتقدم إلى الأمام، فإلى أي اتجاه.. ومن أجل أي غرض؟ هذه

الأسئلة لا يمكن الإجابة عليها إذا كانت الصدفة وحدها هي خالقة الحياة. وحتى لو كانت الخطوات إلى الوراء، فما كان ذلك ليحل المشكلة. وإن لم يكن تكوين الإنسان هو الغاية النهائية للتطور، لفقدت الحياة معناها وقيمتها.. ولتاهت في فلاة التشوش والاضطراب، ولضاعت كل ميزة أحرزتها، ولعصفت بها رياح العشوائية التي ليس لها هدف ولا اتجاه.. سوى أن تقذف بها إلى يد الفناء.

إن كل ما يمكن أن تكون قد حققته بعض الطفرات، سوف يكون من المحتم أن يضيع خلال بعض القفزات في الاتجاه الخاطئ. ودعونا نطبق نفس المنطق على تكوين العيون مثلا، ونختبر كيف يمكن للطفرة العمياء أن تنجح في خلق أبسط أنواع العيون التي تستطيع أن ترى، وتنقل ما تراه إلى المخ الموجود خلفها. إذ مع مرور الوقت.. يكون من الأكثر احتمالا للتغييرات التي تُحدثها الطفرة، أو تلك التي يحدثها التطور التدريجي للخلايا، أن تُشَوِّش وتُفسد ما خلقته بنفسها.. عن أن تُنظم وتُرتب ما يحيطها من تشويش وعشوائية. فمن الممكن مثلا أن تُغير مكان العين، أو الأنف، أو الأذن، أو الفم، أو اللسان بما يحمله من خلايا المذاق. وربما يحدث أنه بعد مرور بعض الأجيال، فإن بعض الأنواع قد ينحرف فيها مكان العين إلى مؤخرة الرأس، أو إلى بطونها، أو قد تنبت العين تحت كل إبط! فمن ذا الذي يحكم أو ينظم يد الصدفة؟ وأيضا.. قد يحدث، بالصدفة كذلك، أن تبدأ الأذن في الرؤية، والأنف في الكلام، وأن يتحول اللسان فيأخذ حاسة السمع، وأن تنمو خلايا التذوق والشم على رسغ الأقدام! لو أن الصدفة وحدها هي التي تتحكم بالفعل، لظهر أثر ذلك في بعض الحيوانات على الأقل، فيبدو أثر الصدفة في خلقتها وتكوينها، مما يُبين أن وضع هذه الأعضاء في الأماكن العشوائية التي ظهرت فيها لا يخدم أي غرض ولا يحقق أية فائدة. ولكن حيثما نظرنا في الطبيعة.. نجد أنه كلما غيرت العين من مكانها المعتاد، أو خرجت الأذن عن وضعها

العادي، فإن ذلك كان مقصودا ليخدم غرضا معينا يساعد على تحقيق مصلحة الحيوان، ولا نجد أبدا أنه سبب في عرقلة هذه المصلحة أو إعاقتها. ومع هذا.. فإن تلك التغييرات عن الوضع المعتاد هي الاستثناء، وهو استثناء هادف، وأما القاعدة السائدة في الملايين من الأنواع فهي تؤكد على أن هناك نظاما عاما وتدبيرا شاملا. إننا حينما نشاهد الصدفة تعمل في أرض الواقع، نرى أنها تعمل بصورة عشوائية غير منتظمة، ولو كان الأمر متروكا للصدفة وحدها.. لرأينا أطفالا يولدون بتشوهات خلقية بغير سبب ما، مما يكون سببا في إعاقتهم. ومن يدري؟ إن لعبة الصدفة والحظ لا تخرج عن كونها لعبة صدفة وحظ.

إن مهمة اختبار عملية التطور التي أدت إلى تكوين العين تتطلب دراسة عميقة ومستفيضة. وأيضا تطور ظهور الأعضاء الحيوانية، التي تتكون في ذاتها من عوالم صغيرة.. ولكن متكاملة، وشديدة التعقيد.. تحتاج هذه أيضا إلى دراسة واسعة.

لذلك فإننا ننوي إضافة فصل خاص عن العمليات التخليقية التي أدت إلى خلق أعضاء حيوية شديدة التعقيد، تكون العيون فيها هي مركز البحث والاهتمام.

وما يؤسف لـــه أن العلماء المتخصصين في أمور الطبيعة قد أوْلوا اهتماما زائدا بتطور الشكل الخارجي والسمات الطبيعية لدى الأنواع.. أكثر من اهتمامهم بأعضاء الحواس. مع أن التغييرات الخارجية في اتجاه ما.. ليست ذات أهمية بالمقارنة مع نشوء وتقدم أعضاء الحس ونمو الإدراك في النظام العام للتطور. وما هي الحياة.. على أية حال.. إن لم تكن هي الحس والإدراك مقابل الموت، الذي هو لا حس ولا إدراك؟

إن المعجزة العظمى ليست في مجرد تغييرات الخلايا وتعقيدات الجزيئات على مستوى البروتينيات، ولكن معجزة بدء الحياة هي في انبثاق فجر الوعي والإدراك فجأة على أفق الكون الميت الذي سبق في وجوده.

ومنذ أن حدث هذا.. ظل الوعي ينمو من ضعف إلى قوة، ويشتد الإدراك من وهن إلى صلابة، ومن بداية منفردة إلى تنوع واختلاف. إن المعنى الصحيح للتطور لا يمكن أن يُفهَم على حقيقته بأن يحصر الإنسان نفسه بين جدران نظرية داروين عن التغييرات العضوية العشوائية التي تجمعها وتختارها يد الانتخاب الطبيعي، وإنما يمكن أن يُفهم فقط عن طريق الإدراك الأمثل للحواس الخمس التي نشأت وتطورت أخيرا، بعد رحلة الحياة الشائكة خلال المليار سنة الأخيرة.

ويستطيع الإنسان أن ينظر من عليائه إلى ما هو دونه وما هو ورائه. وحينئذ فقط يستطيع أن يُدرك معنى الحياة ومعنى التطور - خطوة بعد خطوة، ونانومتر بعد نانومتر. فبعد أن تولدت الحواس.. راحت ترتقي سلم التطور الذي لا نهاية له. إن الهدف من فلسفة التطور بغير شك هو خلق وتعزيز الحواس الخمس. وخلق هذه الحواس الخمس.. التي تُعتبر كل حاسة منها في حد ذاتها تحفة عبقرية من الإعجاز.. تقف شاهدة على حسن التدبير، وعظمة التقدير، في أوسع نطاق، وعلى أرحب الآفاق، حيث يسود التوافق والتآلف والتناسق. ولا عجب حينئذ أن يُعبر القرآن الحكيم مرارا عن ملخص شامل لما يؤول إليه التطور، وذلك في كلمات ثلاث بسيطة، تصف خَلق وإحكام موهبة السمع والإبصار والإدراك:

﴿وَاللّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

(١٦ النحل:٧٩)

ولكي نعود مرة أخرى إلى الموضوع الذي نناقشه، دعونا نؤكد مرة أخرى على أن التغييرات الطفرية يمكن أن تكون في اتجاه خاطئ أكثر مما تكون في اتجاه صحيح، حيث لا تدع على الإطلاق أي مجال للانتخاب الطبيعي أن يختار أو ينتخب من أجل تحسين الحياة. ولكن.. ليس هذا هو

كل ما نشاهده على بانوراما التطور الواسعة التي تلعب أدوارها على مسرح الحياة.

وللاستفاضة في متابعة الموضوع دعونا نركز أنظارنا على البيئة القطبية، إذ يمكن أن نضع مفهوم أصحاب الطبيعة عن النشوء والتطور موضع الاختبار، وذلك بدراسة الدب القطبي والثعالب القطبية، إذ يختلف الدب القطبي في شكله عن الدب الأصفر والأسود. إن الأطراف الخلفية للدببة القطبية أطول بعض الشيء عن أطرافها الأمامية، وذلك حتى تتمكن من الجري بسرعة أكبر عند مطاردة فريستها، وأيضا تمكنها الرقاب التي استطالت بعض الشيء من السباحة بسرعة. ومع أن الدببة من الأنواع الأخرى تستطيع السباحة أيضا.. إلا أن الدببة القطبية تستطيع السباحة بسرعة أكبر بالمقارنة مع غيرها، كما أنها تتمكن من السباحة لمسافة أطول، وهي ميزة ضرورية ولا بد منها لاستمرار بقائها على الحياة في البيئة القطبية.

ويمكن أن يصل وزن الدب القطبي إلى ٨٠٠ كيلوغرام، كما قد يصل طوله إلى ٣ أمتار. وضخامة حجم الدب يفيد في حمايته من البرد الشديد، كما أنه عامل هام في قدرته على اقتناص وقتل الفريسة. وبالمناسبة.. إن دَيْسم الدب عند ولادته يكون صغيرا جدا في الحجم، حتى إنه يزن مجرد نصف كيلوغرام، وهو جزء صغير من وزن الوليد البشري. ويغطي جلدَ الدببة الأسود فراءٌ أبيض، يساعدها على التمويه والاختفاء عن الأنظار طوال العام. ويشوب الفراء الأبيض في الصيف شيء من الصفرة حتى يتوافق مع لون الثلوج عند ذوبانها. ويقوم هذا الفراء الكثيف، ومعه طبقة سميكة من الدهون تحت الجلد، بحماية الدب القطبي من البرودة المتجمدة في البيئة القطبية[١]. وهذه الطبقة السميكة من الدهون بالذات ضرورية وخاصة عند السباحة، لأن الفراء لا يستطيع أن يحتفظ بالهواء الذي يعزل الجسم عن الماء. وعندما يجف هذا الفراء الأبيض، فإنه

يعكس الحرارة التي يمتصها من أشعة الشمس إلى الجسم، كما أن شعيرات الفراء ليست مصمتة بل مجوفة، لكي تسمح للأشعة فوق البنفسجية القادمة من الشمس أن تمر من خلالها حتى يمتصها الجلد الأسود تحتها.

وهناك ميزة أخرى تلفت النظر في الدب القطبي.. وهي أن لـــه أقداما كبيرة وعريضة، مسلحة بمخالب حادة قوية لتمزيق الفريسة ولإحكام قبضته على الجليد. ويغطي باطن الأقدام نفس الفراء الكثيف الأبيض الذي يمكّن الدب من المشي والجري على سطح الجليد، كما أنه يعزل الأقدام عن البرودة. ومما يثير الدهشة والعجب أن الدب القطبي يستطيع الجري فوق الجليد بالسرعة التي تجري بها الكلاب السريعة على الأرض الصلد. وفي الليالي الطويلة التي يسود فيها الظلام خلال الشتاء القطبي، يكاد يكون من المستحيل على الدب أن يجد طريقه إلى بِرَك المياه التي توجد عندها الفُقْمة وسبع البحر، ولكن بفضل حاسة الشم القوية لدى الدب القطبي فإن الظلام لا يُشكل عقبة أمامه، إذ أنه يستطيع أن يشم رائحة عجل البحر وسبع البحر واللحوم والجيفة من مسافة تصل إلى عشرين كيلومترا، حسب ما يقول به الخبراء المتخصصون في شؤون الطبيعة. ولا تقل حدة الإبصار لديه عن قوة حاسة الشم، وهي تزيد عن مثيلتها لدى الأنواع الأخرى من الدببة، حتى إن الدب القطبي لا يجد أية صعوبة في رؤية الفقمة أثناء النهار من مسافات بعيدة. وعندما يلمح الدب عجل البحر فإنه يُبدي صبرا عجيبا في تتبعه واقتفاء أثره، وهو يزحف على بطنه وأطرافه الأمامية ممتدة أمامه على الجليد، بينما تقوم الأطراف الخلفية بعملية الدفع. ويتمتع الدب القطبي بمهارة فائقة على الاختفاء والتمويه، حتى إنه أحيانا يبني ركاما من الثلوج ليُخفي وراءه أنفه الأسود، وأحيانا يُغطي أنفه بيده التي يكسوها الشعر الأبيض حتى لا يُكتشف مكانه.

ويقضي الدب القطبي معظم أوقاته في الماء، وهو يتمتع ببعض

المميزات التي تؤهله لهذا الوضع. وفي الماء تنعكس وظيفة الأطراف عما تكون عليه عندما يزحف على بطنه فوق الجليد وهو يتتبع الفريسة خلسة، إذ يستعمل الأطراف الأمامية في الدفع بدلا من استعمال الأطراف الخلفية، التي يستعملها كالدفّة. وبالإضافة إلى ضخامة أطرافه الأمامية، فإن يديه تتميزان بوجود غشاء جلدي صغير بين الأصابع مما يساعده على السباحة السريعة. وهناك أيضا ميزة أخرى يتمتع بها الدب القطبي مما يجعله متوافقا تماما مع ظروف بيئته، وهي أنه يستطيع السباحة تحت الماء وعيناه مفتوحتان بينما يكون أنفه مغلقا[١]. ورغم أن بعض العلماء يحاولون التقليل من شأن هذه السمات الفريدة التي يتسم بها الدب القطبي، بادعاء أنها ليست سوى مجرد نتاج للتطور، فهناك خبراء الطبيعة الذين يُذكِّرونهم بأن هذا التطور يحتاج إلى الملايين من السنين لتوفير هذه الخواص الفريدة التي تُميز الدب القطبي عن بقية الأنواع في عائلة الدببة.

ولا يتأخر الثعلب القطبي عن الدب القطبي في مجال التلائم مع ظروف البيئة. ففي الشتاء ينمو للثعلب فراء غزير أبيض يُساعده على الاختفاء، كما يوفر له الدفء المطلوب. وقليل ما يُفقد من حرارة الجسم عن طريق أذنيه الصغيرتين المستديرتين اللتين يغطيهما الفراء أيضا، وهما في ذلك تختلفان تماما عن آذان الثعالب في أي مكان آخر. وبالمقارنة أيضا مع أنواع الثعالب الأخرى نجد أن الثعلب القطبي يتميز بأن له أنفًا قصيرًا وأرجلاً قصيرة، مما يساعده أيضا على الاحتفاظ بحرارة جسمه. ويشترك الثعلب القطبي مع الدب القطبي في أن له فراء سميكًا ينمو على باطن أقدامه ليكون طبقة عازلة تحمي أطرافه من الصقيع البارد. ومما يثير الدهشة أن النوع الوحيد من الثعالب التي تشترك مع الثعلب القطبي في نمو الفراء على باطن أقدامها هو ثعلب الصحراء. ومن الواضح بالطبع أن ثعلب الصحراء يحتاج هذا الفراء ليحمي أقدامه من سخونة الرمال. إن الفراء الأبيض الذي يكتسي به الثعلب القطبي يساعده على الاختفاء في

البيئة القطبية، ولكن نفس هذا اللون الأبيض يمكن أن يكون ضد مصلحة الثعلب في بيئات أخرى. فمثلا في الجزر وعند سواحل البحار القطبية، حيث تقل كثافة الثلوج، تحتاج الثعالب إلى لون آخر يختلف عن اللون الأبيض الناصع لكي يعينها على الاختفاء، ويبدو أن اللون الرمادي المشوب بالزرقة هو أكثر مناسبة لها، وهذا بالضبط هو اللون الذي يكتسبه فراء الثعالب في هذه البيئة[٢].

يقودنا كل هذا إلى السؤال الهام عن دور الانتخاب الطبيعي في أصل الأنواع. فإذا كان الأمر قد احتاج إلى الملايين من السنين حتى أمكن تزويد الدب القطبي بهذه السمات المتميزة، والتي لا غنى عنها لبقائه على قيد الحياة في المناخ القطبي، ولا يقل الثعلب القطبي في حاجته إلى نفس هذه الملايين من السنين.. فإن السؤال الذي ينشأ هنا هو كم من ألوف الأجيال من الدببة والثعالب تكون قد هلكت وانمحت من قبل أن تتمكن من التطور لتكوين هذه التغييرات الهامة والجوهرية والتي لا بد من وجودها لضمان بقائها على قيد الحياة؟

وإذا كانت الدببة والثعالب القطبية خلال تلك الملايين من السنين قد استمرت على قيد الحياة – وهي بلا شك قد استمرت – بغير هذه المميزات الخاصة التي اكتسبتها على مدى الملايين من السنين، والتي جعلتها متوائمة تماما مع المناخ القطبي، فأين هي الحاجة أصلا إلى التواؤم والتوافق مع البيئة؟ ولماذا كل هذا اللغط عن التغييرات الجينية، والطفرات العشوائية، التي تتواطأ طوال هذه المدة لتوفير الفرصة للانتخاب الطبيعي أن يوافق على اختيار ما.. هو في الواقع مفروض عليه؟

وبالإضافة.. إذا كانت الدببة والثعالب العادية، التي توجد في كل مكان آخر من العالم، قد أُلقي بها اليوم في المنطقة القطبية، بينما أُخليَت الساحة تماما من كل الدببة والثعالب القطبية، فإن السؤال الذي لا بد أن ينشأ هنا هو ما إذا كان من الممكن أن تكون لها أية فرصة للبقاء على قيد

الحياة، بقاءً مستمرا، جيلا بعد جيل، بغير أن تنقرض وتختفي من الوجود، بسبب هذا المناخ المعادي لطبيعتها. فإذا استطاعت أن تضمن بقاءها على قيد الحياة، فإن جميع التغييرات التي أدت إلى تطور الدب العادي إلى دب قطبي تكون بغير داع، وكل هذه المميزات الخاصة التي تميز الدب القطبي تكون بلا معنى وبلا فائدة.

ثم لننظر الآن إلى نفس المشهد ولكن من زاوية تختلف بعض الشيء. إنه من المستحيل على المناخ الصعب في المنطقة القطبية أن يعمل هادفا إلى توفير التغييرات المطلوبة في الكيمياء الحيوية للخلايا. ومع هذا، فبغير هذه التغييرات الحيوية في الجينات المؤثرة في السمات والصفات، لا يمكن أن يُتَصور حدوث أية تغييرات.. سواء أكانت تدريجية أو طفرية. فالفراء الأبيض الذي ينمو فوق الجلد الأسود، والأطراف الخلفية التي تزيد في الطول عن الأطراف الأمامية، والآذان صغيرة الحجم، وحاسة الشم الخارقة، وحاسة الإبصار الحادة، والفراء السميك في باطن الأقدام، والتغيير في لون الفراء حسب مقتضيات الظروف البيئية، والطبقات السميكة من الدهن تحت الجلد، لا يمكن أن تكون الظروف السائدة في البيئة القطبية قد صنعتها كلها عشوائيا لتخص بها الدببة والثعالب القطبية. فلا بد للصدفة.. بغير اعتبار لظروف البيئة وبطريقة عمياء.. أن تقوم بدورها في كيمياء الخلايا لكي تضيف خواصا حيوانية جديدة إلى الخواص الموجودة، ولتُحدث تغييرات طفرية عشوائية في كل اتجاه.

وأما الانتخاب الطبيعي فعليه أن ينتظر لآجال طويلة إلى أن تحدث هذه التغييرات العشوائية البطيئة، وذلك من أجل أن تتوفر لـــه الخيارات الكثيرة التي لا تُعد ولا تُحصى لكي يستطيع أن يختار من بينها ما يصلح. فمثلا.. إذا كانت التغييرات العشوائية في كيمياء الخلايا يمكن أن تغير لون الشعر من الأسود إلى الأبيض، مع طبقة سميكة من الفراء الأبيض تُضاف فوق هذا الشعر، فلماذا لا تُحدث هذه التغييرات تغييرا في لون الشعر من

الأسود إلى الأزرق، أو الأحمر، أو القرمزي، أو البنفسجي، أو الأخضر، أو الأصفر الفاقع، أو الزعفراني؟ كيف استطاعت كيمياء الخلايا أن تعرف أن اللون المطلوب في المناخ القطبي هو اللون الأبيض فقط؟ ومع ذلك، فإن هذه التغييرات لم تلحظ أن الجلد الذي تحت هذا الشعر كان أسودا، وأنه بقي على لونه الأسود. فلماذا تركت تغييرات الخلايا هذه الجلدَ وشأنه، وفكرت فقط في تغيير لون الفراء إلى اللون الأبيض؟ إن فكرة إنبات الفراء الأبيض على الجلد الأسود لغريبة حقا! وعلى هذا المنوال.. فإن كل سمة من السمات المتميزة وكل صفة من الصفات الخاصة التي يتصف بها كل من الدب والثعلب في البيئة القطبية تتطلب حشدا من البدائل والخيارات التي لا بد للصدفة من أن تخلقها.

وطبقا للنظرية الداروينية لأصل الأنواع، فإن المرء يتوقع أن يجد أنواعا عديدة مختلفة للدب القطبي وللثعلب القطبي، يتميز كل منها بحشد من الصفات المتباينة المختلفة، تكون الصدفة العشوائية قد خلقتها من قبل أن يأتي الانتخاب الطبيعي ليلعب دوره. ولا بد للحفريات التي تتم في الدائرة القطبية أن تشهد على أن الصدفة العشوائية قد خلقت الدببة الحمراء، والدببة الزرقاء، والدببة الزعفرانية، والدببة قرنفلية اللون. ولكن يبدو أن التطور مصاب بعمى الألوان، فيما يتعلق بتأثيره على الدب القطبي، فلا يستطيع أن يميز سوى اللون الأبيض أو الأسود. وبالإضافة.. فقد كان من المحتم أن تتواجد الدببة القطبية في مختلف الأحجام والأشكال. فكان لا بد من وجود الدب القطبي صغير الحجم، والدب القطبي العملاق، والدببة من ذوات الأوزان الثقيلة، والمتوسطة، والخفيفة، ومن وزن الذبابة، والبرني، والريشة، إلى آخره. ولا بد أن نجد بعض الدببة وقد وُلدت بقوائمها الأمامية طويلة وقوائمها الخلفية قصيرة، وبعضها ضعيف النظر، وبعضها تخمد فيه حاسة الشم. فلماذا لا تنتج العوامل الخلاقة، على اختلافها، سوى اختيارٍ واحد في البيئة القطبية وتترك الانتخاب الطبيعي

يجلس عاطلا عن العمل، إذ لم يكن هناك ما يمكن أن ينتخب منه؟

ولعله كان من الواجب أن تُولد بعض الدببة، عن طريق المصادفة العشوائية، وهي تتميز بكراهة شديدة تجاه لحوم عجول البحر، حتى إنها لتفضل أن تموت جوعا على أن تلوك في فمها قطعة منه، بل أن مجرد منظر تلك العجول البحرية يسبب لها القيء ويصيبها بالغثيان ويصد شهيتها عن الطعام لساعات طويلة. وليس مستغربا أن يكون بين تلك الدببة ما لا يحسن السباحة، وما هو بطيء الجري.

وإذا كان الأمر كذلك، يكون لأولئك الداروينيين من أصحاب مذهب الطبيعة الخالقة، بعض الحق في إقناعنا بأن التخليق العشوائي وحده هو الذي كان يقود خطى عمليات التطور في تلك المنطقة المعينة. ولا بد بالتالي أن يكون قانون البقاء للأصلح والانتخاب الطبيعي قد قضى على كل الأنواع غير المرغوب فيها وغير القابلة للتكيف مع الظروف من الدببة القطبية، وكل ما استطاع البقاء على قيد الحياة هو الدب القطبي في صورته وشكله الحالي.

ولكن.. أين ذهبت تلك الدببة القطبية التي قضت عليها يد البقاء للأصلح بالانقراض، وأين اختفت؟ إننا هنا لا نتحدث عن بيئة استوائية، بل إن ما نتحدث عنه هنا هو بيئة شديدة البرودة عند القطب. فلا بد في مناخ كهذا أن تظل بعض جثث الأنواع المختلفة من الدببة التي انقرضت محفوظة حفظا كاملا لتدخل في سجلات الحفريات. ولا ننسى أن بعض الحيوانات التي كانت موجودة منذ مئات الألوف من السنين قد وُجدت مدفونة في أعماق الجليد المتجمد، وكانت كاملة بدون أدنى تغيير حتى إن لحمها كان صالحا للأكل، وكأنها قد دُفنت البارحة؛ كما كان الحال مع حيوان الماموث* الذي اكتُشف في سيبريا منذ وقت غير طويل.

كذلك كان لا بد لنفس هذه التغييرات العشوائية في الخلايا التي

* فيل كان يعيش في المناطق الشمالية، وهو أقدم فيل حفري (المترجم)

تتسبب في وجود حشود طائلة من الاختلافات بين الأنواع الحيوانية أن توجد أيضا فعالة في الأجواء والبيئات غير القطبية. وعلى الأقل كان لا بد من العثور على بعض الحفريات من بقايا هذه الأنواع محفوظة في أرشيف وسجلات الطبيعة.

ولنرحل الآن من المناطق القطبية إلى المناطق الأخرى من العالم، فإن مقارنة الدببة القطبية الضخمة مع العناكب الصغيرة ودراستها تتميز بسحر خاص.

إن العناكب موجودة تقريبا في كل مكان وتعيش في كل مناخ فيما عدا المناخ القطبي. وهي تتواجد بكثرة في الغابات الاستوائية، وتزدهر فيها وتتنوع بشكل لا يحدث في أي مكان آخر. غير أن الغابات الاستوائية المطيرة ليست وحدها البيئة التي تعيش فيها العناكب، فإن قدرتها على البقاء تحت ظروف صارمة وفي أجواء متطرفة تثير العجب. فهي تعيش على قمم الجبال كما أنها تعيش في أعماق الوديان وبطون الكهوف.

وهناك ما لا يقل عن ثلاثين ألف نوع من أنواع العناكب المعروفة، غير أن البعض يُقدر عـــدد أنواعها بما يبلغ ضعف هذا العدد[٣]. ولا تنسج كل العناكب شباكا، فما يقرب من نصف أنواعها ينسج شباكا، بينما يصطاد النصف الآخر فريسته بالهجوم عليها مباشرة، ويتم الانقضاض عليها بسرعة فائقة وبدقة مدهشة، وذلك رغم قدرتها على إنتاج النسيج العنكبوتي. والأنواع التي تنسج شركا من الخيوط إنما تفعل ذلك دائما لتقتنص فيها الحشرات، بينما تستطيع الأنواع الأخرى مهاجمة وقتل بعض الأنواع الكبيرة من الحيوانات. وبالمناسبة.. لقد قدّر واحد من أصحاب مذهب الطبيعة في القرن السابق أن إجمالي وزن الحشرات التي تفترسها العناكب يزيد عن وزن سكان الأرض من البشر[٣].

وحين العودة إلى موضوع المناقشة، نريد أن نُذَكّر القارئ بأنه كلما زادت الفروق بين أنماط الحياة لدى الأنواع المختلفة، كلما واجه العالم

الذي يؤمن بالنشوء العشوائي تحديا متزايدا وصعوبة متنامية في أن يعود إلى الوراء لاقتفاء آثار تاريخ نشوء كل نوع على حدة. فما هي تلك العوامل الطبيعية التي قادت خطوات التطور خلال الملايين من السنين وكيف؟ إذ يبدو أن كل نوع من هذه الأنواع قد بلغ فجأة المرحلة التي هو عليها الآن بغير تطور.

ومن أجل اهتمام القارئ نَذكر بعض الأمثلة لبيان كيف أن أنواع العناكب تختلف فيما بينها اختلافا شاسعا. فهناك العنكبوت الذئب، الذي يصطاد فريسته بوحشية الذئب، وهناك العناكب الصيادة، التي تتحرك بسرعات مدهشة، وهناك العناكب التي تفترس الطيور، وهي أيضا تعرف باسم ترانتولا. وهي كبيرة جدا في الحجم بالمقارنة مع أحجام العناكب الأخرى، حتى إن بعض أنواع الفقريات من الحيوانات تبدو ضئيلة الحجم بجوارها، وهي لا تتورع عن مهاجمة الإنسان إذا أثارها وشعرت بالتهديد منه. وهي تتغذى على أنواع الطيور الصغيرة، والزواحف، وبعض أنواع الحيوانات البرمائية، والخنافس، وأنواع الفراشات، وأنواع الجراد النطاط، وفي بعض الأحيان.. إذا اقتضت الحاجة.. فإنها تفترس العناكب الأخرى.

وأيضا هناك العناكب آكلة النمل، وهي تعتبر أقزاما بالمقارنة مع الترانتولا، ولا تزيد في حجمها عن حجم النمل العادي الذي تقتات عليه. لقد زودها الخالق سبحانه بقناع كامل للتمويه، بحيث لا يشك النمل أبدا في وجود هؤلاء الدخلاء القتلة بينه. فهذه العناكب تبدو في شكلها مثل النمل، وتتصرف مثل النمل، وتتحرك أيضا مثل النمل، وكأنها تتبع المقولة التي تقول: "عندما تكون في روما فعليك أن تسلك مسلك أهل روما"، غير أنها لا تُفكر مثل تفكير النمل. فكيف نشأت هذه القدرة العجيبة على التخفي والتمويه عن طريق تواطؤ بعض الصدف العمياء؟ وكم اقتضى من الوقت حتى تستطيع التغييرات الطفرية أن تُحكِم هذه العجائب؟ هذه هي بعض الأسئلة التي نترك لدعاة النشوء العشوائي

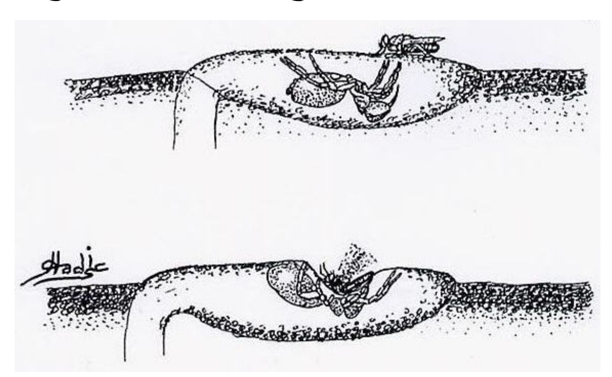
الإجابة عليها.

وبالطبع فإن المرء يتوقع أن يسمع شيئا من الشرح وإيضاح أنه كيف استطاع الانتخاب الطبيعي أن يقوم بدوره فيما يتعلق بالعناكب آكلة النمل. وكم من ملايين الأجيال من العناكب التي لم تُحسن صيد النمل قد خُلقت ثم هلكت من قبل أن ينجح أخيرا العنكبوت الماهر في اصطياد النمل.. في أن يتطور عن طريق ما يُسمى بالعوامل العمياء للتطور!

وهناك نوع آخر من العناكب اسمه العلمي أتيبوس (Atypus). ومنذ أن تم اكتشاف هذا النوع من العناكب في عام ١٨١٦ بواسطة و.ي. ليك (W.E. Leach) وهو يثير الكثير من الاهتمام على نطاق واسع بين علماء الأحياء. ومنذ زمن طويل من قبل أن يخترع كُتّاب القصص البوليسية لغز الحجرة المغلقة، خلقت 'الطبيعة' مثالا حيا للغز الحجرة المغلقة، بأن أوجدت.. وبدرجة من الكمال.. نوعا من إناث العناكب تُعرف باسم عنكبوت الباب المسحور. وقد ظل العلماء المتخصصون في أمور الطبيعة والحياة في دهشة بالغة من أنثى العنكبوت هذه، التي تحبس نفسها في غرفة أنبوبية طويلة من النسيج الحريري، وهي مغلقة بإحكام من طرفيها. واقتضى الأمر عالما مثل ف. إينوك (F. Enoch) ليكتشف أخيرا الحل لهذه المعضلة المحيرة أثناء عمله خلال الفترة ما بين عام ١٨٨٥ إلى ١٨٩٢. وعادة يبلغ طول الأنبوبة الحريرية التي تحبس فيها أنثى عنكبوت أتيبوس نفسها ٨ إلى ٩ بوصات، تنغرس كلها في عمق الأرض عدا بوصتين أو ثلاثة تبرز على سطح الأرض وكأنها إصبع منفوخ من أصابع قُفاز. وتتسع الغرفة الأنبوبية في وسطها حتى توفر لأنثى العنكبوت فرصة الحركة والالتفاف. ويحرص العقل الجبار للتطور الأعمى على ضمور هذا الجزء الهوائي أثناء الشتاء حين تقضي العناكب بياتها الشتوي، حتى إن الخيوط الحريرية التي تتكون منها الغرفة الضامرة تبدو وكأنها جذور نباتية وقد برزت على سطح الأرض. وتخلط العناكب الخيوط الحريرية بالتربة

أو بحبات الرمال حتى لا تكون واضحة للأعين. ويمكن مشاهدة الطريقة التي تقتنص بها أنثى العنكبوت ضحيتها من الحشرات، وذلك بلمس الغرفة الأنبوبية والطرق عليه بلطف بواسطة جذع صغير من جذوع الأعشاب، وفجأة ينطلق بعنف من النسيج العنكبوتي زوج من الأنياب المخلبية اللامعة، ويبدو من وضعهما أن أنثَى العنكبوت قد انقضت بوحشية القرش على ما ظنته فريسة لها وهي منقلبة رأسا على عقب. وحينما تكَون الضحية هي إحدى الذبابات الطنانة، فإن أنثى العنكبوت تغرس أنيابها في جسمها وتمسك بها كأنها خُطافة صيد الأسماك. وبعد بعض الجهد من المقاومة في شد وجذب، تظهر في جدار الغرفة الأنبوبية فتحة صغيرة تُسحب منها الضحية إلى الداخل. وقبل أن تأوي أنثى العنكبوت إلى الغرفة الداخلية في صحبة ضحيتها لتستمتع بثمار جهدها، فإنها تعود إلى السطح العلوي من الأنبوبة لكي تصلح وتغلق الجزء الذي تمزق من النسيج.[٤]

أما كيف أن المبدأ الدارويني عن "بقاء الأصلح" الذي لا يؤيده سوى مجموعة من التغييرات الطفرية يستطيع أن يتصور، ويبتدع، ويُدبر، ثم ينفذ



العنكبوت ذو الباب الصائد وهو في أنبوبته على وشك الإمساك بفريسته

هذه الخطة التي تسلكها عنكبوت الباب المسحور، فهو لغز قد لا يستطيع أن يفهمه ويقتنع به أحد سوى حضرات الجهابذة من أهل الطبيعة.

وأخيرا نأتي إلى نهاية هذه الدراسة بتقديم حالة العناكب التي تنسج

لضحاياها شَرَكا، وتبلغ أنواعها نصف عدد أنواع العناكب تقريبا. ورغم أن النسيج العنكبوتي يتصف بالوهن والهشاشة والرقة والدقة، إلا أن جميع هذه الأنواع من العناكب تتميز بمعرفة مدهشة لكيفية بناء تركيبات معقدة لاصطياد الحشرات الطائرة. وهي حالة دراسية تثير الاهتمام، لأننا حينما ننتقل من نوع إلى آخر من هذه العناكب الناسجة، فإننا نجد اختلافات مهولة في أساليبها واستراتيجياتها ومهاراتها في بناء النسيج. ولنتصور الآن كيف زودت الصدفة العمياء العنكبوت بالقدرة على تحويل الغدد اللعابية لديه إلى مصنع ذي كفاءة عالية في إنتاج خيوط الغزل.

وبالطبع لم يحدث هذا بين يوم وليلة عن طريق الانبثاق الفجائي للعديد من التغييرات الطفرية. وإذا أعدنا بناء العملية بأكملها جزءا جزءا، ومرحلة بعد مرحلة، فربما عندئذ يمكن أن نتصور بعض الشيء ما الذي يستطيع أن يفعله التطور العشوائي الذي لا هدف له ولا غاية.

ربما تكون القصة قد بدأت بالغدد اللعابية لدى العنكبوت وقد أصابتها فجأة حساسية شديدة بسبب بعض عوامل المصادفة البحتة. ثم ربما بعد ذلك.. خلال المليون أو المليونين من السنوات التالية.. وعن طريق تفاعل العديد من الصدف وانبثاق الكثير من الطفرات، تواطأت كلها على تعليم اللعاب كيف يتصلب في شكل جدائل في اللحظة التي يخرج فيها إلى الهواء الطلق. ورغم أن هذه الخيوط تبدو هشة ورقيقة، فإنها في نفس الوقت تتميز بقوة شدٍّ عظيمة تفوق تلك التي للصلب، عندما يتساوى الصلب في الوزن مع الخيط العنكبوتي.

ولا بد أن هذه الخيوط الطويلة العجيبة قد تناثرت في كل مكان، وكبلت أرجل العنكبوت نفسه، فأوقعته هو نفسه في شرك ليكون لقمة سائغة للحشرات والحيوانات الأخرى التي تلتهم العناكب. وكم من الوقت مر على هذا الوضع المؤلم، وكم من الأزمان انقضت على هذه المأساة.. ربما أهل الطبيعة وحدهم هم الذين يعلمون. ولكن لعلنا.. كأي

شخص عادي.. نخمن أنه بعد مرور مليون أو مليونين من السنين، حدث أن أحد العناكب المتقدمين عقليا كان مستلقيا في ضوء الشمس، ينعى حالته البائسة وهو مكبل بالخيوط التي تخرج من لعابه بغير نظام وبدون هدف، وفجأة.. في تلك اللحظة السعيدة.. قفزت إلى نجدته أخيرا مجموعة من التغييرات الطفرية زودت هذه النقطة الصغيرة من مخه بموهبة خاصة مكّنته من تحويل معاناته إلى ميزة يستطيع الاستفادة منها. ومنذ هذه الومضة التي تلألأت أمام مخيلته.. بدأ عهد جديد في أسلوب حياة العناكب بشكل ليس له مثيل في المملكة الحيوانية بأسرها.

كانت الفكرة التي راودت العنكبوت هي أن يؤهل نفسه ليتعلم كيف ينسج من الخيوط التي يُنتجها لعابه شركا لاصطياد الحشرات التي يتغذى بها ويعيش عليها. ولعله من الصعب أن نتصور كم احتاج العنكبوت من ألوف السنين حتى يستطيع أن يصل بعملية التعليم هذه إلى مرحلة الإتقان الناجح. وحسب منطق التطور، وما يستغرقه من أزمان طويلة لكي يُحقق نتيجة معينة، فلعله ليس من المستغرب أن يقتضي الأمر مرور مليونين آخرين من السنين حتى تستطيع العناكب إتقان هذا الفن بحنكة بارعة.

إن أكثر الأشكال براعة في التكوين، ودقة في الصنع، واختلافاً في التصميم من نوع إلى آخر لهذه الشباك العنكبوتية، ليست آسرة فحسب لأخذها بالألباب، ولا هي ساحرة فقط لبداعة منظرها وإعجاز تكوينها، وإنما معجزة الصنعة هي أنها تحقق الغرض الذي صُنعت من أجله، فهي لا تعوق بأي شكل حركة أقدام العنكبوت، التي ترقص عليه برشاقة وخفة، تماما كأحسن ما تكون راقصات الباليه، وتمشي عليه بسرعة وقدرة، كأبرع ما يكون البهلوانات الذين يمشون على الحبال. إذ لا يحدث أبدا أن يخطو العنكبوت خطوة في غير مكانها، ولا يترنح أبدا في حركته، ولا يحتاج إلى قضيب طويل ليحفظ به توازنه، ولا يتردد بتاتا في حالة من

عدم اتخاذ قرار سريع فيما يختص بكيف وأين يُثبت الوصلة التالية من خيط نسيجه وهو يقوم بإتمام بناء شباكه التي وضع تصميمها بإتقان وروعة. وهكذا تكتمل جوانب قصة هذا العنكبوت الذي تعلم كيف يصنع غزلا وينسج منه شباكا بمهارة فائقة، فتصل القصة بذلك إلى نهايتها السعيدة، حتى إن أكثر الزنابير وحشية التي تفترس العناكب.. تُفكر مرتين قبل أن تغامر بمهاجمة العنكبوت الذي يجلس في أمان داخل جدران قلعته العنكبوتية.

وإلى الآن وتبدو القصة جيدة الجوانب محبوكة التفصيل، ولكن.. على حين فجأة.. يمر بالفكر خاطر مُزعج، عن الغرض الذي من أجله تم تنفيذ كل هذه الخطة واتخاذ كل هذه الإجراءات من تعليم وتصميم وتدبير. ولماذا تَوَجه التطور الأعمى نحو هذا الهدف، بغير أن يكون هناك غرض مقصود مُخطط، وبدون أن يكون هناك تدبير عاقل مُسَبق. إن الغرض الوحيد الذي يمكن أن يخطر بالبال هو أن كل هذا قد تم من أجل تزويد العناكب بالطعام الذي كانت في أشد الحاجة إليه من أجل بقائها على قيد الحياة.

إن العنكبوت المسكين لم تُنعم عليه الطبيعة سوى بأربعة أزواج من الأرجل الملتوية كريهة المنظر. وقبل أن تكتمل هذه المهارة التي اكتسبها عبر الملايين من سنين التطور ليبني شباكا حريرية يصطاد فيها طعامه، لا بد أن العناكب قد استمرت، خلال هذه السنين الطوال، جيلا بعد جيل، تتغذى على بعض أنواع الطعام الذي ظلت تعيش عليه أثناء مرور هذه الملايين من السنين. إن الذباب قد يتميز بالغباء ولكن ليس إلى حد أنه يتوجه مباشرة فيحط على فم العنكبوت ليلتهمه، بغير أن يكون هناك نسيجا لزجا يسقط فيه. ومع هذا، بهذه الوجبة الطائرة.. أو بغيرها، استمرت العناكب في البقاء على قيد الحياة طوال مدة وجودها، فأين كانت الحاجة إلى هذه العملية الطويلة المعقدة لتتعلم العناكب كيفية إنتاج

خيوط الغزل، وكيفية نسجها في شباك لاقتناص الطعام، وإلى كل ما اقتضى أن يصاحب هذه العمليات من تطورات؟

إنه من الصعب حقا على غير المتمرس في شؤون الطبيعة أن يفهم هذه الأسرار كما يفهمها أولئك الذين جعلوا من الطبيعة إلها قادرا خلاقا، فلا يستطيع أحد غيرهم بالطبع تصور الحكمة في ضرورة مرور هذه الآجال الطويلة، والأجيال الكثيرة، والتغييرات الحادثة في فترة انتقال عبر ملايين السنين من وضع معين للحياة إلى وضع آخر. وإن المرء ليعجب كم تبلغ عدد الأجيال من العناكب التي هلكت، بدون أن يكون لها هدف، خلال هذه المراحل الطويلة بتحدياتها المتعددة.

ونريد أن نُذَكر القارئ هنا بأننا حين قلنا فيما سبق إن مجموعة من التغييرات الطفرية قد انبثقت فجأة لتزويد العنكبوت بموهبة الاستفادة من خيوط الغزل في نسج مصايد للحشرات، إنما قلنا ذلك فقط لإبراز وتوضيح مدى سخافة هذا الرأي. فإن التغييرات الطفرية لا تحدث فجأة، ولا تقع في مجموعة متوالية ومنتظمة. فالأمر يحتاج إلى مئات الألوف من الطفرات الحكيمة والمتوالية تتفاعل مع ظروف معينة حتى تنغرس وتثُبت في الجينات الحاملة للصفات الوراثية، وبالتالي تحدث التغييرات المطلوبة التي تغير من طابع حياة أي نوع من الأنواع الحيوانية.

ولا تقلّ حالة النباتات المائية التي تقتات على الحشرات والحيوانات الصغيرة في عجائبها عن حالة العناكب. وأبسط الحالات في هذه النباتات الضارية من التعقيد بمكان حتى إنها لتتحدى جميع محاولات الإنسان لشرح كيف تستطيع الصدفة العمياء، على مدى الملايين من السنين، أن تخلق آلات ذات كفاءة عالية ومهارة فائقة للصيد مثل هذه النباتات. ونبدأ بتقديم حالة نبات النابنط الذي ينمو في المستنقعات المائية، وهو ينتمي.. حسب رأي الخبراء.. إلى أبسط الأنواع بين مجموعة النباتات آكلة الحشرات. ويتميز نبات النابنط بأوراق يبلغ طولها حوالي٣٠ سنتيمترا

يلتقي طرفاها عند العرق على شكل أنبوب طويل. ويظهر كل أنبوب من هذه الأنابيب بكامل طوله على سطح الماء، ويغطي الجزء العلوي من هذه الأنابيب حواف واضحة الشكل يميل لونها إلى اللون الأحمر تتناثر فيها غدد تنتج رحيقا سكريا. وتتسبب الأمطار التي تهطل بغزارة في المناطق الاستوائية حيث تنمو هذه النباتات في امتلاء الأنابيب بالماء، ومع ذلك فهي لا تنفطر تحت ثقل ما بداخلها من مياه، ولا تغوص أيضا في مياه المستنقع. ويحدث هذا بسبب عاملين:

أ- إن الأوراق ملتصقة الأطراف على امتداد طولها فيما عدا بوصة أو بوصتين عند طرف الأنبوب، تاركة فتحة تكفي لإخراج الجزء الزائد من الماء.

ب- هناك حلقة من الثقوب الصغيرة في المكان المناسب تحت الجزء العلوي من الأنبوبة الورقية حتى تحتفظ دائما بالمستوى المناسب من المياه.

وتنجذب الحشرات نحو هذا النبات بسبب لونه ورائحة الرحيق السكري الذي ينبعث من غدده. وعندما تقفز الحشرات داخل الأنبوب للحصول على مزيد من الرحيق، فإنها تنْزلق داخل الأنبوب الذي تغطيه من الداخل شعيرات زلقة تتجه إلى أسفل، فلا تتمكن الحشرات من الصعود عليها مرة أخرى. وتظل الحشرة الضحية تنْزلق إلى الأسفل حتى تصل إلى قاع الأنبوب الذي يخلو من الشعيرات، وهناك.. تموت الحشرات في هذه الهاوية المغلقة، فتزيد من تركيز البروتينات والأملاح وغيرها في المياه التي في الأنبوب، ويمتصها النبات من الماء ليتغذى عليها. ولعله من الصعب تصور كم كان عدد الحالات الفاشلة التي كابدتها الطبيعة إلى أن استطاعت في النهاية إنجاز صناعة آلة القنص هذه على الوجه الأكمل.

والآن نُقدم مثالا آخر يبين كيف أدارت الطبيعة ظهرها للمملكة الحيوانية من أجل مصلحة المملكة النباتية. إن نبات النابنط البوقي له حراشف شمعية على السطح الداخلي للمصايد التي تحتويها، تلتصق بأقدام

الحشرات التي تقف عليها وتعمل لفك قبضتها، وبمجرد أن تفقد الحشرة توازنها.. إذا بها تنْزلق إلى الهاوية الممتلئة بالمياه. وتعمل الذبذبات الناتجة عن عملية السقوط هذه على تنشيط الغدد الهضمية في النبات فتفرز عصارات هضمية قوية تعمل على إذابة الحشرات القزمة في خلال بضع ساعات، بينما قد تستغرق الذبابة يوما أو يومين. وليست هذه الحشرات وحدها هي التي تلتهمها النباتات المتوحشة، فإن 'الراجا' بين أنواع نبات النابنط البوقي يمكن أن تُذيب وتلتهم بعض أنواع العقارب والجرذان.

أما ظاهرة نبات فينوس صائد الذباب فهي أكثر غرابة وأشد تعقيدا، حيث إنها تعمل بالكهرباء. (انظر اللوحة الثالثة) وقد استعصى على العلماء حتى الآن معرفة لغز كيفية توليد هذا التيار الكهربي، وما الذي يتحكم في فعالية هذه الآلية.

إن ما نستطيع أن نفعله هو أن نلفت أنظار أصحاب التطور الدارويني إلى هذه الاختراعات المدهشة، ونسألهم بكل لطف وأدب أن يبيّنوا لنا كيف نشأت هذه النباتات وكيف تطورت. وكم من الأجيال قد هلكت وفنت في محاولات فاشلة لم تستطع خلالها هذه الأجيال تنفيذ هذه الآلية الميكانيكية، قبل أن ينجح التطور أخيرا في خلق النباتات المتوحشة، بكل أساليب القنص التي تمتلكها، وجميع الأنزيمات الهضمية التي تفرزها؟ وبالطبع لم يحدث أن تحولت النباتات الخضراء العادية إلى آلات قنص جبارة بين يوم وليلة في مرحلة معينة من مراحل نموها، إذ أن الفروق التي بين النوعين فروق مهولة لا تخضع للقياس. وهي لم تستطع أن تُغير طريقة تناول غذائها لكي يحتوي على البروتينات والأنزيمات الحيوانية إلا بعد أن تمت كل عمليات التحول اللازمة. والأمر البعيد عن التصور حقا هو كم من ملايين السنين تَطَلبها هذا التحَوّل عن طريق النشوء والتطور العادي الذي يحكمه المبدأ الدارويني المتعلق بالانتخاب الطبيعي.

ببساطة شديدة.. إن هذا التحول لم يكن ليحدث. إذ لا يستطيع

أحد من أهل الطبيعة أن يبين أو يثبت حدوث تغيير من مرحلة إلى أخرى في عملية تحوّل النبات العادي إلى نبات متوحش. إذ لا بد أن يكتمل كل التحوّل أولا قبل أن تبدأ جميع الآليات في العمل.

إننا نود أن نعثر على محاولة من أهل الطبيعة لتتبع آثار النشوء والتطور في النباتات المتوحشة، مرحلة بعد أخرى، وعضوا بعد عضو، حتى يصلوا إلى النبات الأصلي الذي تطورت عنه هذه النباتات. إن أصغر هذه النباتات، آكلة الحشرات، تضع أمامنا مشاكل ضخمة عندما نبحث أمرها، ونختبرها بشيء من التعمق، ونحاول إبراز كل دقائق وتعقيدات التناسق والترابط في الهوية العضوية. فلا بد أن يكون كل جزء قد تكَوّن من أجل غرض معين، وتم تصميمه في تركيبة عضوية خاصة.

وأخيرا وليس آخرا.. ليس هناك من سبب يستوجب على هذه النباتات آكلة الحشرات أن تتخلى فجأة عن أسلوب الحياة لأجدادها من النباتات التي كانت خاصية التخليق الضوئي تكفل لها بداية مجيدة في صراعها من أجل الوجود. إن المبدأ الدارويني عن 'البقاء للأصلح' لم يكن ليقوم بأي دور فيما يسمى نشوء هذه النباتات آكلة الحشرات، حتى يحكم عليها هذا المبدأ بأنها الأصلح للبقاء. فلو كان الأمر كذلك لصارت كل الأراضي الجافة وجميع المستنقعات المائية مرتعا خصبا تنمو فيه هذه النباتات. ومن الواضح أن هذه النباتات صارت صالحة للبقاء بغير أن يكون هناك أي ماض للنشوء والتطور يسبق هذه الصلاحية للبقاء.

وبالإضافة.. فبالرغم أنه من المفهوم حسب مبادئ التطور لأي نبات أو حيوان أن يتحول من البيئة المعادية إلى البيئة الملائمة، فإن وقوع ما هو عكس ذلك أمر لم يسمع به أحد على الإطلاق. ولكن إذا أخذنا ما يقول به أهل الطبيعة مأخذ الجد، فإن حوادث الأقصوصة لديهم قد وقعت على النقيض من هذه الظاهرة في حالة نبات الصانديو آكل اللحوم، وفينوس قاتل الذباب.

ولنتخيل مثلا نبات الصانديو وهو ينمو في أمان واستقرار على جانب بِرْكة راكدة، وهو ينظر باشمئزاز إلى بشاعة ما يحدث في وسطها، إذ لا يستطيع أي نبات أن ينمو هناك بسبب الوسط المعادي فيها. ولو كان لنبات الصانديو عقل غير مرئي يفكر به، وهو ينظر إلى هذه البركة القذرة، بعيون لم توجد في الحقيقة، لكان قد اعتراه الفزع والهلع لما رآه، ولقفز بعيدا عنها، لو لم يكن مغروسا في الأرض بجذوره الضاربة في أعماق التربة. ولكن أهل الطبيعة لديهم رؤية تختلف تماما عما حدث. وحسب ما يقولونه فإن نفس هذا الصانديو وهو ينمو في سلام وأمان على حافة البركة، متمتعا بصحة جيدة، إذا به يتحول إلى نبات قاتل الذباب، وهو نفس النبات الذي نجده اليوم يزدهر في مثل هذه البيئة بغير أن تعوقه الظروف الصعبة المعادية الموجودة فيها. ومن المستحيل تصور أن هذا النبات يستطيع أن يعيش في تلك الظروف بغير أن يكون قد تطور من قبل ليستطيع التغلب على التحديات الجديدة التي تواجهه. وهذا لا يمكن أن يحدث إلا بعد أن تكون كل التغييرات اللازمة قد حدثت بينما كان النبات لا يزال يعيش وينمو على الأرض الجافة. فبغير إتمام كل التحولات اللازمة وهو خارج هذه البيئة، ما استطاع أن يعيش للحظة واحدة في هذا المستنقع.

هذه هي المعضلة التي يجابهها العلماء، والتي عليهم أن يشرحوها، ويبرروها بطريقة معقولة وبأسلوب منطقي. ولا بد هنا من تسجيل نقطتين على جانب كبير من الأهمية:

١- إن نبات الصانديو الذي يعتقد العلماء أنه الأب الشرعي لنبات فينوس قاتل الذباب، هو في ذاته لغز مُحَير، فليس له أثر يمكن تتبعه لمعرفة تاريخ تطوره عن النبات الخضري العادي.

٢- إن نبات فينوس قاتل الذباب لا بد أن يكون قد تحول إلى صورته النهائية بكافة دقائقها على سطح التربة الجافة، وهو خارج البركة، بغير أية دوافع

من التطور.

وهنا نترك المشكلة في أيدي أهل الطبيعة، منتظرين بكل شغف أن نسمع منهم حلا وشرحا لهذه المعضلات.

لقد أردنا أن نُبرز بالذات حالة نبات فينوس قاتل الذباب، لأنه يتميز بأن له نظاما آليا شديد التعقيد، وهو مصمم بتصميم مُحنك، ويعمل عن طريق الكهرباء، الأمر الذي فشل في فهمه أكثر العلماء خبرة ومعرفة. فكما سبق ذكره، يختلف نبات فينوس قاتل الذباب اختلافا جذريا في تكوينه التشريحي عما يُقال إنه الأجداد التي انبثق عنها. وعلى ذلك فليس من الصعب على أهل الطبيعة أن يحاولوا مَلْءَ هذا الفراغ الواسع عن طريق اقتراح ما لا يُعد ولا يُحصى من المراحل التطورية الصغيرة، التي يمكن أن تكون مناسبة لملأ هذا الفراغ الكبير. وفي غياب هذه المعلومات، فإنه يكون من الصعب تصور تأثير عامل الانتخاب الطبيعي وهو يؤثر على شيء ليس لـــه وجود. وللمزيد من إبراز سخافة رأي أصحاب الطبيعة، نقول إنهم يَبدون وكأنهم يؤمنون بولادة طفل لأم لا وجود لها. فهل هذه هي صورة التطور التي يقدمها لنا مبدأ البقاء للأصلح؟ أي بقاء.. وأية صلاحية؟ أين هو الجانب المنافس؟ إذا كان لدى هؤلاء العلماء أية أخلاق تفرضها المهنة، وهم في العادة لديهم الكثير منها، فعليهم أن يستعملوا آداب المهنة في حالة جميع النباتات المتوحشة التي كانت قد زُوِّدت من قَبل بكل أسلحتها للصيد والقنص قبل أن تدخل عالم الانتخاب الطبيعي! فإذا كان هذا هو 'الانتخاب الطبيعي'، فما عساه أن يكون إذن التهكم والاستخفاف بالصواب والحصافة، إن الإنسان ليعجب حقًّا!

حالـــة البعـــوض

لنأخذ في الاعتبار الآن حالة البعوضة كمثال للدراسة، فهناك الكثير الذي يمكن بيانه بطريقة منطقية ومقنعة، ويحتاج إلى أجيال من العلماء لفك أسرار هذا الآلة الرائعة الدقيقة والمحكمة في جميع أعضائها وتكويناها. غير أن هذه الدراسة سوف تظل غير مكتملة، إذ أهٔا كلما وصلت إلى مستوى معين من الفهم، يظهر هناك مستوى آخر يحتاج إلى اهتمام العلماء، وإلى الشرح والتوضيح لإزالة الغموض وحل الأسرار.

ولا عجب حينئذ أن يُفرد القرآن الكريم هذه المعجزة، صغيرة الحجم كبيرة القيمة، ليلفت بها أنظار الناس إلى عجائب وإعجاز خلق الله تعالى. فحتى في مثال البعوضة، التي ينظر الناس إليها باستهانة باعتبارها حشرة ضئيلة لا قيمة لها، ليس في خلق مثل هذه البعوضة أمر يستحي منه الخالق القدير. ولنبنِ هذا المنطلق بشكل أوسع ونشارك القارئ في فهم دقائق هذه الآلة الطائرة، التي تجعل كل أساطين التقنية والعلوم يشعرون بالعجز والاستحياء أمامها، رغم كل ما حققوه من إنجازات.

ولنبدأ بتقديم بيان القرآن الكريم وما ذكره عن البعوضة، مما يختلف تماما عن كل الحيوانات الأخرى. فهي المخلوق الوحيد الذي جاء ذكره مصحوبا بالتأكيد على عدم استحياء الله تعالى من خلقه، إذ يقول القرآن المجيد:

﴿إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾

(٢ البقرة:٢٧)

إن كلمة (فوقها) التي جاءت في الآية تعني "أعلاها"*. وهناك بعض

* انظر المنجد والمفردات للإمام راغب. منه

المفسرين الذين لم يفسروا الكلمة بمعناها الحرفي، والسبب الواضح لذلك هو أنهم كانوا يجهلون أن البعوضة تحمل فوقها شيئا ما.

لقد أثارت هذه الآية الكريمة فكر مؤلف هذا الكتاب، وظل المعنى الذي تتضمنه الآية محل تفكيره وتدبره. وفيما يلي بعض الأسئلة التي تثير فكر القارئ وتلفت انتباهه.

السؤال الأول الذي يثير الفكر هو لماذا ينفي الخالق القدير عن نفسه أنه لا يستحي من خلق البعوض، إذ لم يرد مثل هذا النفي في القرآن الكريم فيما يتعلق بأي نوع آخر من أنواع الخلق، بل يأتي ذكر الخلق دائما على أنه مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى التي لا تحدها حدود. فهل يشير الاستثناء في حق البعوض إلى أن الله تعالى يريد أن يلفت نظر القارئ إلى ما يبدو من ضآلة شأن البعوض؟ إن نفي الاستحياء أو الحرج من خلق شيء ضئيل في الظاهر إنما يعني نفي ضآلة ذلك الشيء. فالنفي في الحقيقة يلفت أنظار القارئ لكي يعيد التفكير ويراجع مفهومه عن البعوض. وهو أيضا يتضمن الأمور التالية:

(أ) إن البعوض ليس مخلوقا ضئيلا عديم القيمة كما هو مفهوم بين الناس عادة.

(ب) إن للبعوض دورا هاما يؤديه ولكن لم يتم فهم هذا الدور بعد، وهو يحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة.

وبعد أن يتم بحث هذا الدور وتُستكمل دراسته، فسوف يتبين أنه مريع شديد الضرر، ومع ذلك فإن نفي الاستحياء من خلق هذا المخلوق الضار أمر مؤكد عليه بشدة. وجاء هذا النفي ليبين أنه لكي يقوم البعوض بالدور السلبي المنوط به، فلا بد أن يكون قد خُلق بدقة لكي يخدم الهدف الذي خُلق من أجله. وأيضا.. إن مهمة البعوض، رغم كونها مهمة سلبية، لا بد أنها لعبت دورا هاما وحيويا في نظام الخلق عامة. ومن أجل هذا فإن ضرورة خلق البعوض، والصورة الكاملة التي خُلق فيها، يجب أن تُفهم

على أنها مدعاة للفخر وليس سببا للاستحياء. ويمكن أن يكون هذا الاستنتاج الذي خرجنا به صحيحا إذا تبين بالفعل أن للبعوض قدرات بنَّاءة وجميلة أشد إثارة للدهشة والعجب من كثير من أشكال الحياة الأخرى. وأيضا.. إن الدور الذي قام به البعوض ضمن النظام العام لخلق الحياة.. لا بد أن يكون له فوائد هامة خافية عن الأعين رغم كونه يبدو أنه سلبي، وهذا أمر متروك للعلماء لكي يكتشفوه مستقبلا. أما في الوقت الحالي.. فيكفي أن نقول إن البعوض قد لعب دورا هاما في رفع كفاءة جهاز المناعة لدينا، وهو دور هام لا يزال البعوض يقوم به.

إن الذي دفع مؤلف هذا الكتاب لأن يقوم بإجراء دراسة عميقة للبعوض، وكيفية تكوينه التشريحي، والدور الذي يقوم به البعوض في المملكة الحيوانية، هو إمكانية أن يكون جميع ما تضمنته الآية القرآنية الكريمة من أمور صحيحا. وقد تبين أن هذه الدراسة كانت عملا أكثر تعقيدا وأشد صعوبة عما بدت عليه عند البداية. إن أكثر ما كتب العلماء عن البعوض لا يُبين كيف نشأت وتطورت أعضاء البعوض، وهو نقص كان لافتا لنظر المؤلف خاصة. وفي كثير من المجالات الأخرى، نجد الكثير من الدراسات الممتازة، وهي تصف كيفية تطور أعضاء الحيوانات الأخرى بتفصيل ودقة بالغة. وقد اعتمدنا كثيرا على المواد المتاحة في المناقشة التالية، التي تشهد على صحة ما أشار إليه القرآن المجيد، من أن البعوض ليس خلقا عاديا. وقد قام بالفعل فريق من العلماء الأحمديين ذوي الكفاءة في أمريكا وكندا بإجراء بحوث في مجال نشوء وتطور خلق البعوض، غير أن بحثا كهذا سوف يستغرق وقتا طويلا، وحيث إن طبع هذا الكتاب لا يمكن أن يؤخَّر إلى حين اكتمال البحث، فقد قررنا أن نستكمل هذا الكتاب بما هو متاح لدينا من مواد ومعلومات.

لعل هذا المخلوق الصغير الدقيق الذي يبدو ضئيل الشأن هو أكثر الحشرات أهمية بالنسبة للإنسان وللأشكال الأخرى من الحياة. ويغلب

الظن بأن البعوض قد نشأ في العصر الطباشيري من حياة الأرض (Cretaceous Period) منذ حوالي ٦٥ إلى ١٤٠ مليون سنة[٥]، حينما كانت معظم المجموعة التصنيفية الحديثة للحشرات قد نشأت في نفس الوقت مع نشأة النباتات المزهرة. ويظن بعض العلماء أن البعوض قد نشأ في العصر الجوراسي (Jurassic) منذ حوالي ١٣٦ إلى ١٩٠ مليون سنة. وبما أن الثدييات لم تكن قد خُلقت حتى ذلك الحين، فلا بد أن البعوض كان يمتص الدم من الزواحف، والحيوانات البرمائية، والأنواع البدائية من الثدييات، أو حتى ربما من الديناصورات. وهذا الدافع الفطري لامتصاص الدماء.. كما يتصور أصحاب مبدأ الطبيعة وجوده في ذلك الزمن القديم، يثير الكثير من التساؤلات. فلماذا نشأ في البعوض هذا الدافع، رغم أنه ظل على قيد الحياة لزمن طويل وهو يعيش على نِتاج الخضراوات فقط. لم تكن هناك نباتات مُزهرة في ذلك الحين، ولَعله لذلك كان يعيش بالتغذي على إفراز نباتي[٦].

والبعوضة حشرة صغيرة زوجية الأجنحة، تنتمي إلى عائلة الكاليسيدا (Culicidae) من طبقة دايبترا (Diptera) أي الذبابات الطيارة ثنائية الأجنحة. ويختلف البعوض اختلافا أساسيا عن بقية أنواع الذباب في أن له خرطوما طويلا يخرج من رأسه، وأيضا لــه بعض السمات الأخرى التي ينفرد بها، مثل وجود حراشف على عروق الأجنحة، وهُداب من الحراشف على الهامش الخلفي من الأجنحة، وتَعرّق متميز حيث يتفرع العرق الطولي الثاني والرابع والخامس.

والبعوض مثل بقية أنواع الدايبترا يتعرض لظاهرة الانسلاخ في مراحل تكاثره، ولكن هناك سمات عديدة في عملية انسلاخه تختلف كثيرا عن انسلاخ أنواع الذباب الأخرى. إذ يفقس من بيض البعوض يرقات لا تشبه أبويها في شيء، وهي مُهيأة للحياة في الماء وتناول غذائها فيه.

وإنه مما يثير العجب حقا أن هناك الكثير من العلماء الذين يُعتَبرون

السُلطة المرجعية في علوم البعوض، لكونهم على علم واسع بأعضائه التشريحية ودورات حياته، ومع ذلك فإنهم لا يُقدمون أي تفسير منطقي أو معقول لعدم تأدية الانتخاب الطبيعي أي دور في صناعة هذه المعجزة الدقيقة من الخلق.

لكي تتحول البعوضة من حشرة لا تمتص الدماء إلى حشرة تعيش على مص الدماء، أمر يتطلب حدوث تغييرات تستغرق زمنا طويلا، يكاد أن يكون بغير نهاية، إذا تُرك لعوامل الصدفة البحتة. وإنه لأمر عجيب فعلا أن تتحقق هذه التغييرات، الواحدة تلو الأخرى، خطوة بعد خطوة، ومرحلة بعد مرحلة، وتقع هذه التغييرات في كل عضو من أعضاء البعوضة في انفصال تام عن العضو الآخر، إلا أنها جميعا تقع في نفس الوقت، وفي توافق تام كامل مع بعضها البعض. وخاصة حينما يأخذ المرء في الاعتبار أن هذا التغيير العضوي الذي يحدث قليلا قليلا.. لا يحقق أي غرض في حياة البعوضة إلى أن يكتمل تماما في صورته النهائية. وخذ مثلا احتياج البعوضة لأن تعثر على الدم وتحدد مكانه.. عندما يدرس العلماء هذا الاحتياج البسيط فإنهم يكتشفون وجود جهاز شديد التعقيد يبرر وجود هذا الاحتياج.

إن التغييرات التشريحية، والشعورية، والفسيولوجية، المطلوب وجودها في البعوضة لمجرد تلبية حاجتها في العثور على مضيف تتغذى عليه.. هي تغييرات هائلة عظيمة. وعلى البعوضة أن تعثر باستمرار على مصدر مناسب للبروتين من بين كل المؤثرات الخارجية التي تعج بها البيئة. ويقول العلماء أن الاستراتيجية التي اتّبعها البعوض كانت لكي:

> '.... تستجيب للإشعارات المرئية، وللحرارة، وللمُخرَجات.. مثل ثاني أكسيد الكربون، والأحماض اللبنية، والأحماض الدهنية المتطايرة، كما يحدث عادة من الكائنات التي تجري فيها الدماء'.[٧]

وهناك صعوبة أخرى تواجهها البعوضة، وهي أن الروائح الكيماوية

المتطايرة تتبدد بسبب التيارات الهوائية، ونتيجة لذلك يتعين على البعوضة أن تجد طريقها في نهج غير مباشر لكي تصل إلى المضيف الذي تمتص منه الدماء. وعندما تقترب البعوضة من ضحيتها، تبدأ أجهزة استشعار الحرارة لديها في العمل لتقودها مباشرة إلى الضحية. وخلال هذه السلسلة المتوالية من الوقائع في سلوك البعوضة، لا بد أن تتعامل معها أجهزة متكاملة للاستشعار والاستجابة في جسم البعوضة. فالبعوضة لا تقصد أن تبحث عن ضحية، وإنما هي تستجيب لمؤثرات عديدة سبق إعداد البعوضة لكي تستجيب لها. وما يزيد المشكلة تعقيدا هو أن أكثر أنواع البعوض له تخصص في نوعية معينة من الضحايا، فمثلا.. قد يحدث أن بعوضة تنتمي إلى نوع معين من البعوض تستجيب للمؤثرات المنبعثة من بقرة، ولكنها لا تستجيب للمؤثرات المنبعثة من إنسان.

ويُقَدر العلماء أن هذا السلوك قد نشأ في العصر الميسوزوي (Mesozoic) منذ ما يقرب من ٦٥ مليون سنة، وذلك:

"…. بتأسيس البيوت الأرضية العادية (أي الأعشاش) للزواحف، والطيور، والثدييات ...".[٨]

ويقترح بعض العلماء أن نشوء العناية الأبوية لدى الطيور والثدييات والديناصورات، ساعدت على زيادة التواصل مع البعوض، وذلك بتوفير البيئة المحمية والآمنة للبعوض. فقد شعر البعوض بسهولة الحياة وهو يحوم حول الأعشاش التي تعيش فيها صغار الطيور، وكان نفس الشعور يراود أيضا البعوض الذي يحوم حول أوكار الوحوش في الغابات، والأماكن التي تعيش فيها الديناصورات، حيث كانت تنمو وتتربى صغار الوحوش والديناصورات. ويقول العلماء إن هذه الصغار أتاحت للبعوض فُرصا جيدة لامتصاص الدماء الحيوانية وقتما تشاء، وبغير أن يعكر صفوها أية منغصات. وهو قول عجيب حقا إذا كان المقصود به هو أن إتاحة المصدر الغذائي الدموي هو الذي تسبب في نشوء خرطوم امتصاص الدماء في

أنثى البعوض. ولا يمكن أن يُؤخذ هذا القول مأخذ الجد إلا إذا كان يعني أن أنثى البعوض كانت قد تطورت بالفعل وتحولت إلى آلة لامتصاص الدماء من قبل أن تبدأ في البحث عن أهداف سهلة. وفي أي من الحالتين، لا يصلح هذا الظن لأن يقدم منهجا يقود إلى نشوء أنثى البعوض التي تمتص الدماء. وقد لوحظ أنه إذا كانت الضحية إنسانا، وتحركت الضحية خلال خمس ثوان من وقوع البعوضة عليها، فإنها تطير عنها (انظر اللوحة الخامسة). وحينما نأخذ في الاعتبار هذه السلسلة المعقدة من السلوك الغريزي لدى البعوضة في مجرد العثور على ضحية تهبها دماءها، نجد أن احتمال حدوث التحول الفجائي في تناول الغذاء ليقوم على امتصاص الدماء.. يبدو أمرا بعيد المنال.

إن أنثى البعوض التي تعيش على امتصاص الدماء، لم تكن في حاجة فقط إلى بعض التغييرات المكملة لأجهزتها لكي تجد المضيف الذي يهبها دماءه، بل كانت تحتاج أيضا إلى الأجهزة التي تُمكنها من ثَقب جلد ضحيتها، وإلى أجهزة تستطيع بها العثور على الأوردة التي تجري فيها الدماء، ثم إلى أجهزة لنقل الدماء من الضحية إلى مستودع داخل جسم البعوضة، والذي لا بد أن يكون مختلفا عن الكيس الذي يتجمع فيه الرحيق النباتي الذي يُعتبر المصدر الرئيسي للغذاء لكل أنواع البعوض، بما فيها أنثى البعوض التي تمتص الدماء فقط في أوقات معينة. (انظر اللوحة السادسة).

وكما سبق ذكره.. إن المطبوعات العلمية المنشورة عن البعوض صامتة عن الموضوع الأصلي. ويقول العلماء الذين يبحثون في أصل أنواع الحشرات:

> ".... بعض المجموعات المعروفة جيدا تطورت تطورا كبيرا، وبعض الأشكال الطفيلية مثل الكاليسيدا (أي البعوض)، التي يُعتبر الأصل الذي تطورت عنه أمرا يشوبه الغموض".[٩]

وسبب هذا الغموض، كما يقولون، أنه لا يوجد سجل كاف من

الحفريات. غير أن هذا ليس سببا للتبرير، إذ كان من الممكن لهم، بل كان من المفروض عليهم، أن يتبعوا أسلوب داروين الذي درس العصافير الحية في جزر غلاباغوس (Glapagos)، ولم يكتفِ بسجل حفرياتها حين طلع على الناس بنظريته عن التطور. وبالمثل.. كانَ من الممكن لهم أن يقوموا بتحليل عملية ارتقاء البعوض، حتى رغم غياب سجل تاريخي كامل مفصل من الحفائر. إن الصفات الخاصة بالبعوض الحديث بالمقارنة مع الصفات الخاصة بالأنواع الأخرى من الحشرات، أو الصفات الخاصة بأنثى البعوض بمقارنتها مع الذكور من نفس النوع، يمكن دراستها لتقرير أية خطوات اتخذها التطور حتى استطاع البعوض أن يأخذ شكله الحالي.

وقبل أن نقوم بتحليل الصفات الخاصة بالبعوض، دعونا أولا نبحث باختصار شديد المشهد الذي يتصور العلماء احتمال وقوعه عن كيفية تطور البعوض. إذ يُقدّرون أن الأسلاف الأوائل للبعوض، قبل أن تتغذى على امتصاص دماء الفقريات، لا بد أنها كانت تقتات على الحشرات من ذوات الأجسام الطرية. ثم فيما بعد، في مرحلة معينة من تاريخ تطورها، تَحول البعوض الذي اكتمل نموه إلى التغذية على دماء الفقريات[١٠]. وحسب وجهة النظر هذه، فإن أجزاء الفم لدى الأسلاف، كانت قد بدأت تتطور في أشكال تتشابه مع أجزاء الفم التي تم تطورها لدى البعوض. ومع هذا، فمن المعروف أنه في مرحلة اليرقات (وهي المرحلة التي تتشابه مع مرحلة اليرقات الدودية في دورات حياة الفراشات) لا تعتمد هذه اليرقات على الفقريات وليس هناك أي تواصل أو تعامل معها، الأمر الذي قد يُظن أنه سهل التطور نحو حالة من الاحتياج إلى امتصاص الدماء. وبالإضافة.. إنه من غير المحتمل أن يحدث تحول فجائي من التغذية على الحشرات من ذوات الأجسام الطرية إلى نظام آخر للتغذية يتطلب ثقب وتخلل جلود الديناصورات، إذا كانت الديناصورات حقا ضمن أوائل الضحايا التي وهبت دماءها للبعوض. ويعترف العلماء أنفسهم بأن

عملية التطور هذه تتطلب 'تعديلات وتغييرات تؤدي إلى تَحَوّل جوهري'[11] من التغذية على الحشرات إلى التغذية على الدماء. والشروح والتبريرات التي قدمها العلماء لتأييد هذه النظرية ليست سوى تخمينات بأن أسلاف البعوض قد بدأت فجأة تقتات على دماء الحيوانات التي راحت تتردد على بيئة البعوض الرطبة والمنعزلة. إن عملية امتصاص الدماء، كما سوف نبين فيما يلي، تتطلب وجود أعضاء متخصصة كثيرة في جسم البعوضة. وفي ضوء كل هذه المتغيرات التي تعتمد على بعضها البعض، يكون من الصعب تصور حدوث تَحَوّل 'فجائي' في أسلوب ووسائل التغذية لدى البعوض.

ويجب ألا ننسى أن هناك ثلاثا من العوامل الرئيسية التي يجب تحققها في أنثى البعوض حتى يتوفر لها التخصص المطلوب للقيام بعملية امتصاص دماء الحيوانات الفقرية. فإن عملية التغذية على الدماء تتطلب حدوث تغييرات في الأعضاء وفي الشكل،

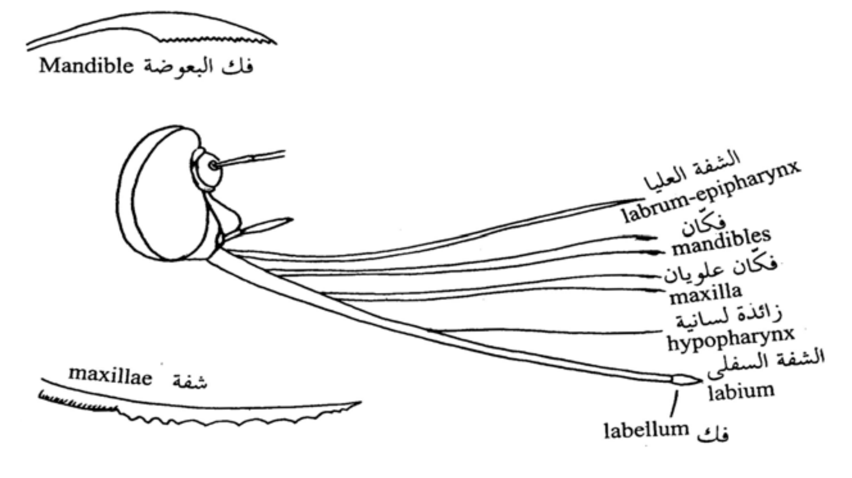
> "…. مثل تطور أعضاء الفم لكي تتمكن من اختراق الجلد؛ وتغييرات فسيولوجية، مثل وجود الأنزيمات التي تحلل البروتين لكي تتمكن البعوضة من هضم الدم؛ وتغييرات سلوكية، مثل القدرة على العثور على الأهداف التي تحمل الدم، والقدرة على التمييز بين الأهداف التي تحمل الدم والأهداف من غير ذات الدم".[12]

وكل هذا يحتاج إلى معلومات علمية غزيرة ومعرفة تقنية كبيرة.

إن القدرة على امتصاص الدماء لدى أنثى البعوض، بصرف النظر عن ضرورة وجود جهاز العثور على الضحية حاملة الدم والانقضاض عليها، تتطلب وجود مجموعة من الأجهزة الدقيقة المتخصصة مثل خرطوم البعوضة. إن هذا الخرطوم الموجود لدى أنثى البعوض في حد ذاته لهو أكثر روعة من عجائب الدنيا السبع، وهو تحفة بديعة الصنع. ولا بد في الحقيقة من الدراسة التفصيلية للجهاز الهضمي كله لدى البعوضة لكي يمكن إدراك أنه من المحال أن يكون من نتاج القوى العمياء التي يُقال إنها

تصوغ تطور شكل الحياة. وحتى إذا ألقينا نظرة عابرة على خرطوم أنثى البعوض لنتفحص كيفية تركيبه، فإن نتيجة هذا الفحص وحدها تكفي لأن تبدد أي خاطر عن احتمال كونه من نتاج الانتخاب الطبيعي، الذي يُظن أنه ظل يعمل على إنتاجه بصبر طويل مضنٍ لما يزيد عن المليون سنة. ففي أنثى البعوض.. يتكون الخرطوم، وهو الجهاز الذي يُستعمل للثقب في جلد الضحية ولامتصاص الدم منها، من ستة أجزاء متطاولة مغلفة بغلاف لين. هذه الأجزاء الستة تحتوي على فكين يستطيعان أن يقطعا جلد الضحية، وهما عبارة عن طرفين مثل الشفرة الحادة، ويقبعان في

أعضاء فم أنثى البعوض



غلاف داخل الخرطوم.. يخرجان منه عندما تشعر البعوضة بحاجتها إلى وجبة من الدماء، وحينذاك يبرز الفكان ليقطعا جلد الضحية، تماما كما يفعل مبضع الجراح.

ثم يوجد عضو اسمه العلمي (Labrum-epipharynx)، وأثناء عملية اختراق جلد الضحية يصبح هذا العضو أنبوبة تسمى قناة الطعام التي يُمتص منها الدم. وعندما تلدغ البعوضة ضحيتها، ينتقل لعابها إلى الجرح من خلال أنبوبة تسمى (Hypopharynx). وهناك أيضا مضخة لامتصاص الدماء ونقلها إلى ما يشبه المعدة، بينما يُوَجّه الرحيق النباتي إلى الأحشاء.

ويقول علماء الطبيعة إنه حسب اختيار عضو الكارديا، وهو جزء متضخم في الجزء الأمامي عند منتصف الأمعاء، يتم توجيه الدماء مباشرة إلى منتصف الأمعاء. أما الأنواع الأخرى من الغذاء، مثل العصارات النباتية، فيتم توجيهها إلى أنبوبة مسدودة من أحد طرفيها، مثل الزائدة الدودية، حيث يبقى فيها هناك لبعض الوقت.

أما الغدد اللعابية الفريدة المطمورة في خرطوم البعوضة فهي أعجوبة لا يُرى مثيل لها في المملكة الحيوانية كلها، ولولا هذه الغدد اللعابية لبطل عمل البعوضة المتعلق بامتصاص الدماء. إذ يوجد في اللعاب الذي تُفرزه هذه الغدد مادة كيمائية نادرة، تعمل على عدم تجلط الدم. ففي العادة.. عندما يتمزق أحد الأوردة الدموية، تندفع الصفائح الدموية إلى مكان التمزق خلال ثوان معدودة، وتبدأ عملية التجلط في الدم حتى ينغلق التمزق ويتوقف النَّزيف. ولكي تستمر عملية امتصاص الدم، فإن لعاب البعوضة الأنثى يحتوي على أنزيم يُعرف باسم (apyrase)، وهو نادر الوجود في الأغشية الحيوانية، غير أن الغدد اللعابية لدى أنثى البعوض غنية بهذا الإنزيم. وتعمل هذه المادة الكيميائية على تفاعل سريع للمواد الكيميائية في الدم، والتي تسبب تجلط الصفائح الدموية.

وما يزيد الأمر غرابة أن الجهاز الهضمي لدى البعوضة، ومجرى الدم فيها، في حفاظة كاملة من خطورة تأثير هذا الأنزيم، فهو لا يُستعمل إلا في المكان المطلوب وجوده فيه بالضبط، أي عند طرف الجرح. ومع ذلك فهو موجود في لعاب البعوضة الذي تستعمله بكثرة في إذابة العصارات النباتية الجافة والرحيق النباتي، لتجعله قابلا للامتصاص. ويُقال إن اللعاب يتدفق باستمرار من فم البعوضة لتسهيل عملية الامتصاص، ورغم ذلك فإن أنزيم (apyrase) الذي في اللعاب لا يُستعمل البتة، لعدم وجود الدماء في العصارات النباتية. ويتم هضم كل هذا الإنزيم غير المستعمل دون أن يُسبب أي ضرر للدورة الدموية لدى البعوضة. ويستطيع كل إنسان أن

يرى من هذا أن خلق البعوضة لم يكن مجرد لعبة حظ عشوائية، وإنما هي عملية مقصودة بتدبير إرادي. والدور السلبي الذي تقوم به البعوضة في المملكة الحيوانية بأكملها إنما يتم بسبب هذه الإرادة التي خلقت البعوضة. فلو لم يكن انطلاق أنزيم (apyrase) عملا فطريا وجوهريا لدى إناث البعوض، فإن كل الدور السلبي الذي تقوم به البعوضة لنشر المرض في جميع أنحاء العالم بين الكثير من أنواع الحيوانات، لم يكن ليتم أو يكون ممكنا. إن تركيب البعوضة التشريحي كله يبدو أنه مصمَّم لتحقيق هذا الغرض.

ومن بين الأنواع الخمسمائة من الفيروسات المعروفة لدى العلماء إلى الآن، هناك ما يقرب من نصف هذا العدد موجود في البعوض، وما يقرب من مائة نوع من هذه الفيروسات هي المسؤولة عن نشر الأمراض بين الإنسان وحده. وبعض الأنواع من البعوض تتخصص في حمل أنواع معينة من الفيروسات التي تؤثر على حيوانات معينة، ولكنها تحمل أيضا أنواع الفيروسات التي تؤثر كذلك على الإنسان. فمثلا هناك بعض الفيروسات التي تنتقل من القرود إلى الإنسان وبالعكس، وهي تنتقل عن طريق البعوض الذي يتغذى على دماء كل منهما. والبعوضة لا تحمل بالضرورة نوعا واحدا من الفيروسات، بل يمكن أن تحمل أنواعا متعددة منها في نفس الوقت. كذلك يمكن أن يكون البعوض نشيطا وفعالا في منطقة معينة، بينما يكون خاملا غير مؤثر في منطقة أخرى.

وتأتي الملاريا على رأس قائمة أنواع الأمراض الرئيسية التي ينقلها البعوض، وقد يكون نطاق تأثيرها عالميا أو محليا. ثم هناك الكثير من الأمراض واسعة الانتشار ينقلها البعوض أيضا، مثل داء الخيطيات (filariasis)، والحمى الصفراء (yellow fever)، وحمى الضنك (dengue) المعروفة باسم أبو الركب، والتهاب المخ (encephalitis). ويبلغ الضرر الذي يسببه البعوض للإنسان وحده أحجاما مهولة، بالإضافة طبعا إلى

الأضرار التي يسببها للحيوانات الأخرى. والملاريا قد لا تقتل دائما مباشرة، ولكنها عندما لا تقتل فهي تمهد السبيل لأمراض عديدة تُفسد الاقتصاد الفسيولوجي لمرضى الملاريا.

رغم أن الملاريا تُعتبر من أكثر الأمراض فتكا بالإنسان في العالم، إلا أنه لا يتم حصر جميع حالات الوفاة التي تُسببها. فالكثير من حالات الوفاة الناتجة عن الملاريا إما إنها لا تُسجل بتاتا في دول العالم الثالث، أو قد لا يتم تشخيص الملاريا باعتبارها سبب الوفاة. فالكثير من مرضى الملاريا يموتون بسبب أمراض تنتج عن تأثير الملاريا مثل السل والالتهاب الرئوي وغيرهما من الأمراض التي تنتشر بكثرة في مناطق انتشار الملاريا. وأيضا هناك الكثير من الأمراض الأخرى التي ترتبط فعلا بالملاريا التي تُفسد الأعضاء الحيوية لدى المصاب مما يؤدي إلى إصابته بالعديد من الأمراض المختلفة.

وهناك نوعان من داء الخيطيات ينتقلان وينتشران انتشارا واسعا عن طريق البعوض. والإصابة لفترة طويلة بأحد هذين النوعين قد يسبب إصابة الإنسان والحيوانات المنْزلية بمرض الفيل (elephantiasis)، وهو المرض الذي يسبب تضخم بعض الأجزاء من جسم المصاب.

والحمى الصفراء التي تنتقل هي الأخرى عن طريق البعوض لها نوعان أحدهما ينتشر في الأدغال والآخر في العمران. والنوع الذي ينتشر في الأدغال ينتقل من الحيوان إلى الإنسان أو من الإنسان إلى الحيوان عن طريق البعوض. ولا يخفى بالطبع مدى الأخطار المرعبة التي سببها انتشار مرض الحمى الصفراء في التاريخ الإنساني، وقد كان غرب أفريقيا يُدعى مقبرة الرجل الأبيض بسبب وجود الحمى الصفراء هناك.

والفظائع المروّعة والضخمة التي تقع على النطاق العالمي بأكمله، والتي يُسببها البعوض، ليست محصورة فقط في هلاك النفوس البشرية أو فقدان الثروة الحيوانية. إذ يختلف ضرر تأثير البعوض على الاقتصاد اختلافا

واسعا من خسائر كبيرة تنتج عن فقدان ساعات العمل في المصانع والشركات والحقول، إلى انخفاض أسعار الأراضي التي تكون بالقرب من مناطق انتشار البعوض. وهناك الكثير من المحاذير التي تُفرض على المناطق السكنية بسبب البعوض. ويُثبت تاريخ الحرب العالمية الثانية أن الكثير من المعارك قد تم الانتصار أو الهزيمة فيها، أو تغيرت فيها مجريات الأمور في مسار الحرب، بسبب هذا المخلوق الصغير الدقيق، والذي يبدو ضئيل الشأن.

وعودة إلى موضوع الانتخاب الطبيعي، وكونه قد لعب دورا في النظام العام للحياة، فإننا نسأل أهل الطبيعة أن يستعرضوا مواقفهم فيما يتعلق بالعوامل التي تعمل على تطور وتشكيل الحياة. إذ قد يفتح هذا عيونهم، ويجعلهم يركزون على إنزيم واحد فقط يسمى (apyrase).. أية آلية وأية قوة خلاقة للانتخاب الطبيعي هي التي أنتجت هذا الإنزيم في لعاب إناث البعوض فقط من دون الذكور؟ وأيضا نسألهم، بكل احترام، أن يذكروا لنا سببا واحدا معقولا يشرح لماذا وكيف استطاع الانتخاب الطبيعي أن يُجبر إناث البعوض على إضافة وجبة من الدم إلى قائمة غذائها النباتي المعتاد. ومرة أخرى نسأل.. لماذا كانت إناث البعوض وحدها هي التي تقتات على دماء ضحاياها، بينما كل من الذكور والإناث تقتات عادة على الرحيق النباتي وبعض السكريات النباتية باعتبارها المصدر المعتاد لحياتها؟ ألا يعود السبب إلى حاجة أنثى البعوض للبروتين الموجود في دماء الضحية، فقط من أجل تخليق المح وتكوين البيض؟ وهي عملية لا يحتاج الذكور إلى القيام بها؟ فكيف قام الانتخاب الطبيعي بتعليم إناث البعوض فقط أن البروتين مادة جيدة لأعضاء التكاثر لديها، ومن أجل ذلك أوجب عليها أن تقوم بعملية إنشاء وتطوير شديدة التعقيد لأجهزتها حتى تستطيع امتصاص الدماء؟ لماذا ظل البعوض على قيد الحياة لفترة طويلة قبل حاجة الأنثى للبروتينات الجاهزة من خلال

امتصاص الدم. وكم من الوقت استغرق الأمر لكي تتمكن أنثى البعوض من تنفيذ التغييرات الضرورية واللازمة في تكوينها التشريحي، وأن تقوم بتخليق المعجزة الكيميائية المتمثلة في إنزيم (apyrase)، وأن تتحول إلى شكل جديد من أشكال الحياة، التي استمرت في الحياة بغيرها مئات الألوف من السنين؟

إن الإجابة الوحيدة المعقولة على هذا هي أن السمات الفريدة التي تتميز بها أنثى البعوض قد وُضعت فيها بتدبير هادف، ولا يمكن أن تكون قد خُلقت عشوائيا بطريق الصدفة بواسطة الانتخاب الطبيعي. ومن الواضح أن الدور الهام الذي خُلق البعوض ليقوم به، مع سلبيته، هو الذي اقتضى أن تجد إناث البعوض في نفسها نزوعا فطريا تجاه امتصاص دماء الحيوان. فإن القدرة على امتصاص الدماء لدى أنثى البعوض توضح بجلاء التدبير المقصود في عملية التطور.

ويعتبر أصحاب مبدأ التطور العشوائي الأعمى أن الانتخاب الطبيعي يأخذ على الدوام القرارات الصحيحة، ويحفظ حق البقاء فقط لما هو الأصلح للحياة. فهل وجود البعوض، وهو أكبر تهديد لوجود الحياة، هو حقيقة اختيار ونتاج الانتخاب الطبيعي؟

أما القرآن المجيد فهو يُبين أن التهديد الذي يُسببه البعوض للحياة هو أمر مقصود، ويخدم هدفا أوسع وحكمة أشمل.

إن الإحكام الرائع، والتنفيذ المبدع لهذا التدبير قد تم بحثه فيما سبق، أما الآن فإننا نود أن نشير إلى الآية القرآنية التي تتعلق بالموضوع، وهي في حد ذاتها معجزة أدبية عظيمة. ونخص بالذكر التعبير القرآني: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ (٢ البقرة:٢٧). ويمكن تفسير هذا التعبير ليعني أن حرف (ما) يشير إلى أنواع الحياة الأخرى من المخلوقات غير البعوض، ولكن المعنى الحرفي لكلمة (فوق) الذي فات المفسرين ملاحظته في الماضي هو ما يجعل حرف (ما) يشير إلى ما تحمله البعوضة فوقها. وهناك استعمال مشابه جاء في القرآن

الكريم عن الأرض وعن كل ما تحمله، فاستعمل نفس الكلمة (فوق) ليعبر عما تحمله الأرض فوقها، وذلك في الآية الكريمة ﴿مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ﴾.

وحينما نُعيد تفسير الآية قيد البحث من هذا المنظور يكون المعنى: إن الله تعالى لا يستحي أن يذكر مثالا فيه ذكر بعوضة وما تحمله فوقها.

ونستطيع أن نُدرك الآن لماذا فشل المفسرون القدامى في فهم المعنى الواضح للآية، وذلك لأنهم لم يستطيعوا أن يفهموا أن البعوضة تحمل فوقها فيروسات لا يمكن أن تُرى بالعين المجردة.

أما لماذا لا يستحي الله تعالى من خلق شيء حامل للأمراض بهذا الشكل الكبير فهو لأن خلق هذا المخلوق كان مقصودا لإيجاد توازن في النظام العام للخلق والحياة. وقد يكون هذا أيضا لأن خلق هذه الآلة الطائرة الجبارة في ذاته يشهد على قُدرة الخالق وبديع صنعه. ونحن نعتقد أن البعوض قد لعب أيضا دورا حيويا وهاما في تكوين جهاز المناعة في الحياة. وأحد الأمثلة التي نعرفها في هذا الشأن هو ما يتعلق بمرض من أمراض الأنيميا المعروف باسم (sickle-cell anaemia) الذي ينتشر انتشارا واسعا بين أهل غامبيا في غرب أفريقيا. فوجود هذا النوع من الأنيميا يخلق مناعة خاصة حتى ضد أشد أنواع الملاريا فتكا. وعلى ذلك فليس من المستبعد أن تكون البعوضة قد لعبت دورا في نشأة وتطوير جهاز المناعة، بالإضافة بالطبع إلى بعض الأغراض الأخرى التي لم تُكتشف بعد، والتي لها ضرورة جوهرية في النظام العام للخلق. وقد يَثبت فيما بعد صحة ما نقول به وقد لا يثبت، ولكن لا يمكن إنكار أن ما يقول به القرآن المجيد من أن كلا من العوامل التي تؤدي إلى الحياة، والعوامل التي تؤدي إلى الموت، هما جزء لا يتجزأ من النظام العام للخليقة.

وهناك حقيقة أخرى شديدة الغرابة يجب أن تؤخذ في الاعتبار، وهي أن البعوض يحمل المئات من أنواع الفيروسات المسببة للأمراض، ومع

ذلك فإن البعوضة لا تتأثر بأي من هذه الأمراض التي تحملها. ولا يستطيع أحد ممن يدين بمبدأ الطبيعة الخلاقة أن يذكر أنه رأى بعوضة ترتجف من نوبة البرد التي تسبق عادة الإصابة بمرض الملاريا، ولا أنه رأى بعوضة تعاني من أعراض أي مرض من الأمراض التي تصيب بها الآخرين، مع أنها تحمل فيروسات الأمراض داخل جسمها، وليس فقط على أقدامها وأجنحتها. كذلك لم يحدث أبدا أن فيروسات مرض الفيل الذي تحمله البعوضة قد أصابت خرطومها فجعلته يتضخم ليصير مثل خرطوم صغير الفيل.

إن هناك الكثير من المعارف العلمية الدقيقة والتعقيدات التقنية التي تدخل في تركيب البعوضة، حتى إن الإنسان الآن.. رغم تقدمه في مجال العلوم والتقنيات.. لا يستطيع أن يصنع مجرد خرطوم بعوضة. وتستطيع البعوضة بطنينها الذي تطن به في أذن أكثر العلماء علما وقدرة في الهندسة الوراثية أن تتحداه لكي يمسك بها إذا استطاع، أو أن يصنع مثيلا لها إذا كانت لديه القدرة على ذلك. ولكن.. ويا للأسف، إن كل البعوض الموجود في العالم أجمع لا يستطيع أن يلدغ الملحد بما يكفي لأن يوقظه من غفلته الإلحادية! فليحلق البعوض طائرا في الأجواء، وهو يطن بأغانيه البعوضية! فإن الأصم لن يستطيع أن يسمع شيئا، والأعمى لن يتمكن أبدا من رؤية أي شيء.

وفي النهاية.. نريد أن نؤكد مرة أخرى على أهمية الصفات والسمات لكل الأنواع الحيوانية التي تحمل في طيات خلاياها الجينية شفرات لرسائل دقيقة محكمة. والبروتينات التي تحتويها هذه الخلايا هي الملاك الحارس الذي يحفظها ويحدد مصيرها. إن الجدائل التي تحمل الصفات الوراثية، والتي تُكَوّن (DNA, RNA)، وخلايا التكاثر والخلايا الجسدية لجميع الكائنات الحية، كلها مستقلة استقلالا كاملا عن البيئة الخارجية وتأثيراتها عليها. والبيئة التي لا عقل لها ولا فكر، لا تملك أية آلية تستطيع بها أن

تفرض أي تأثير على الجينات التي هي الحارس الأمين للحياة، وهذه الجينات.. حراس الحياة.. لم تكن لتضع بنفسها تصميم نفسها، ولا أن تُحدد التعاقب الدقيق المحكم للأحماض الأمينية فيها، التي إن أصابها شيء من الاضطراب في أي من حلقاتها أو تركيبتها، فسوف تسلب القوالب الأساسية للحياة من جميع قدراتها وأغراض وجودها. ومن أجل ذلك فإن الكثير من العلماء قد رأى يقينا أن الصدفة والعشوائية لا يمكن أن تكون قد شكلتها، ولا يمكن أن يكون لها أي تأثير عليها حتى ولو حاولت ذلك لمدة تروليون عام. ومع ذلك فقد خُلقت بشكل ما، ولها عالمها الخاص بها، عالم يستقل استقلالا كاملا عن التأثيرات الخارجية للمناخ والبيئة.

ولو قال أحد بعزل الله تعالى باعتباره الخالق القدير عن هذا النظام الدقيق البديع في الخليقة، فعليه أن يبحث عن خالق آخر ليحل محله. وإذا نحينا جانبا العجائب الرائعة والأسرار التي لم يمكن الكشف عنها بعد في عالم الجمادات، فإن عالم الأحياء الذي يوجد على كوكب الأرض، بكل غرائبه وعجائبه ومعجزاته، سوف يظل ينادي على اليد القديرة التي خلقته، وصاغت وجود كل فرد من أنواع الحياة فيه، بكل ما يحمله من تعقيدات وأسرار، مما لا يمكن أن يُسبر غَوْره ولا أن يُحاط سره. ولو لم يكن لله وجود، لظل نداؤهم هذا بغير طائل، لا يسمعه ولا يجيبه أحد. إن الإنسان يمكن أن يكون على يقين من أمر هام، وهو أن الحياة لم تخلق نفسها، وأن الموت لم يخلق الحياة. والانتخاب الطبيعي ليس له إدراك ولا حياة. إنه لا يعدو كونه ظاهرة لا حياة فيها، شأنه في ذلك شأن الجاذبية، التي تستطيع أن تجذب الحجر الذي ينفصل من قمة الجبل، فتجعله يهبط في أعماق الوادي، ولكنها لا تدرك ما إذا كان هذا الحجر سوف يسقط على ظهر ظبي أو على رأس تَيْس.

المـــــــــراجع

1. THEODOROU, R., TELFORD, C. (1996) *Polar Bear & Grizzly Bear*. Heinemann Publishers, Oxford.
2. HARPER, D. (1995) *Polar Animals*. Ladybird Books Ltd., Leicestershire.
3. O'TOOLE, C. (1986) *The Encyclopaedia of Insects*. George Allen & Unwin, London, p.134
4. BRISTOWE, W.S. (1958) *The World of Spiders*. Collins, London, pp.70-75
5. LANE, R.P., CROSSKEY, R.W. (1993) *Medical Insects and Arachnids*. Chapman & Hall, London p.120
6. DOWNES, W.L., DANLEM, G.A. (1987) *Key to the Evolution of Diptera: Role of Homoptera.* Environ-mental Entomology: 16:853-853
7. KLOWDEN, M.J. (1995) *Blood, Sex and the Mosquito*. Bioscience: 45:327
8. WAAGE, J.K. (November 1979) *The Evolution of Insect/Vertebrate Associations.* Biological Journal of the Linnean Society: 12:216
9. WAAGE, J.K. (November 1979) *The Evolution of Insect/Vertebrate Associations.* Biological Journal of the Linnean Society: 12:188
10. KLOWDEN, M.J. (1995) *Blood, Sex and the Mosquito*. Bioscience: 45:326
11. WAAGE, J.K. (November 1979) *The Evolution of Insect/Vertebrate Associations.* Biological Journal of the Linnean Society: 12:195
12. KLOWDEN, M.J. (1995) *Blood, Sex and the Mosquito*. Bioscience: 45:327

الفصل الثامن

أهي مباراة في الشطرنج أم هي لعبة حظ!

إن للكرة بغير شك سلبيات وإيجابيات
ولكن هنا أو هناك كما يضرب اللاعب الذي يرمي بها
وذلك الذي وضعك في وسط الملعب
هو وحده الذي يعرف كل شيء – هو يعرف – هو يعرف![1]

ولكن القطع التي لا حول لها في المباراة التي يلعبها
على لوحة الشطرنج التي تتكون من ليالٍ وأيام
هنا وهناك تحركات، وتهديدات، وتقاتلات
ثم الواحد منها تلو الآخر، يعود في النهاية ليرقد داخل الخزانة[2]

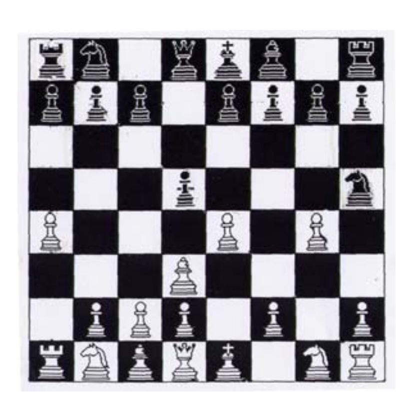
فلنحاول أن نتصور مسرحية الحياة والموت كما حدثت، فصلا بعد فصـــل، منذ بداية التطور إلى الوقت الحاضر. فحينما ارتفع الستار لأول مرة.. هل كان المشهد الأول هو مشهد كَوْنٍ بغير عقل، منشغل بغير نهاية في لعبة الحظ وإلقاءِ زهر النرد، أم أن الستار ارتفع عن مشهد يختلف عن ذلـــك تماما؟ ولا يغيبن عن البال أن المسرحية لا تزال تتوالى فصولها، ولا يـــزال الممثلون يقومون بأدوارهم. وتختلف الرؤية فقط بحسب الْمُشاهِد، فـــإذا كـــان الْمُشاهد ينظر من خلال منظار تَلَون بأفكار إلحادية راسَخة ســـبق تقريـــرها والثَـــبوت عليها، فحينئذ لن يرى شيئا سوى عشوائية

وفوضـــى تزاوجت مع فوضى وعشوائية، وأنجبت وليدا من نظام عجيب وترتيب دقيق، وسوف يستمر هذا في الحدوث جيلا بعد جيل بعد جيل. ومـــع أن كل جيل ظل يسقط باستمرار في براثن الفوضى، إلا أن وليده كان على الدوام وبغير استثناء هو النظام والترتيب. وعلى الرغم من ذلك تســـتمر دراما التطور في التقدم من فوضى إلى نظام، بدون وجود عقل مـــنظم يقـــوم بترتيب الفوضى، إلى أن تم خلق الإنسان.. التحفة الرائعة للنشوء والتطور، والابن النهائي لتركيبة من الفوضى والتشويش.

أمـــا، من ناحية أخرى، إذا كان الْمُشاهد ليس متحيزا لِما يراه ولا ضـــده، وتـــرك العنان لرؤيته تذهب به حيثما يتجه النظام العَام للخلق، فحينـــئذ بالطبع سوف تأخذ الدراما شكلا يختلف تماما. فعند كل عملية تتكرر فيها الحياة وتأخذ شكلا أشد تعقيدا، أو تتجلى بشكل أكثر تنظيما في كـــائن أرقـــى وأعلى من غيرها، ومع كل تقدم في أنواع الحياة طوال رحلـــة التطور، فإنه سوف يلمح اليد القديرة للخالق العظيم الذي يقود كل هذه المنظومة الرائعة. وإذا أمكن تشبيه المشهد الأول بلعبة الروليت، فلعلـــه يكون من المناسب تشبيه المشهد الحالي بلعبة الشطرنج، حيث يتم تحـــريك كل قطعة بيد خبيرة تخطط لكل حركة، ولا تتحرك إلا لغرض وهـــدف. ومـــن الواضح أن المشاكل التي تحدثنا عنها سوف تجد جميعها الحـــل المناسب إذا وضعنا في الاعتبار وجود اليد الحكيمة الخفية. إذ يبدو الأمـــر وكأن رقعة كبيرة للشطرنج قد امتدت على أديم الأرض لتغطيها بأكمـــلها، برها وبحرها، مرتفعها ومنخفضها، جبالها ووديانها. فهذه هي الســـاحة الواســـعة الفســـيحة التي يؤدي عليها ما لا يحصى من الممثلين أدوارهم التي يلعبونها في هذه الدراما التي تخلقت فيها الحياة من لا شيء، وكان كل ما عليهم مواجهته هو الموت الصارم الذي ساد على كوكب الأرض منذ ما يقرب من ٤٫٥ مليارات من الأعوام.

هل كان الأمر حقا يماثل لعبة الشطرنج التي تقتضي وجود عقل واع

حكـــيم يقـــوم بكل حركة في نظام وتخطيط وتدبير وحنكة ورَوية وصبر وبصيرة، أم أن الأمر كان كله فوضى وخلل وعشوائية وتشويش؟ أم لعله كان مجرد لعبة حظ تدور فيها رُحَى الأمور كما تدور عجلة الروليت بعد أن تدفع بها يد الفوضى لتستقر بعد ذلك في عشوائية واضطراب لا تعرف نظامـــا ولا ترتـــبط بقانون؟ هل ساد الاضطراب على كل شيء ثم راح ينخرط في معركة حياة أو موت مع عدو من فوضى، يهب كالرياح على وجه الأرض في كل اتجاه ومن كل اتجاه، بغير أن تكون هناك قواعد للعبة،



ولا غـــرض أو هـــدف، ولا تخطـــيط ولا تدبير، ومع ذلك فقد كان من المـــتوقع.. رغـــم عدم وجود عقل يفكر أو يتوقع.. أن كلا من العملاقين المـــتحاربين سوف يخسر المعركة، إذ أن كلا منهما سوف ينتهي إلى تدمير الآخـــر أو إلى الانـــتحار في يـــأس مطلـــق. فياله من مثال واضح لحالة هـــاراكيري!* ولعـــل هـــنا في الهراكيري يكمن الحل لدعاة مذهب قتال الفوضى مع الفوضى لتنتج المعركة سلاما وأمنا وقانونا، أو تتزاوج الفوضى مع الاضطراب لإنتاج وليد من النظام الكامل. وحقا إنها حالة متقدمة من الحـــالات الرياضية المنافية للعقل التي يمكن لتفكير سقيم أن يتمخض عنه تبريرا لما يقولونه. فما أشده من ولاء وتعظيم ذلك الذي تناله إلهة الفوضى مـــن أولادها الأعزاء! فهم يتصورون أنه إذا أمكن القضاء على الفوضى..

* الهراكيري: طريقة يابانية في الانتحار ببقر البطن بخنجر تخلصا من العار (المترجم).

بيد الفوضى، أو إذا قامت الفوضى بتدمير نفسها، فإن ما سوف يتبقى بعد ذلــك هو النظام الكامل، أو لا شيء على الإطلاق. وعلى ذلك.. فليس هــناك مــن لغز ينتظر الحل، ولا من سر ينتظر أن يُكشف عنه، ولا من معضلة تنتظر أن يُرفع عنها الحجاب! فياله من تخلص!

لقد حاولنا حتى الآن في هذه المناقشة أن نخرج ببعض النتائج المنطقية المحــتومة، ولكنها على أية حال لا تعدو أن تكون سوى كلمة من إنسان غريــب، تقف مقابل كلام كوكبة من العلماء العلمانيين البارزين. ولكي نقــدم بعــض التأيــيد لما قلناه، فقد قررنا أن ننهي هذا الموضوع بذكر مقــتطفات من كلام بعض العلماء الذين لم يجدوا غضاضة من التصريح بــأن الحــل الوحيد لمعضلة الخلق هو في الاعتراف بوجود خالق أعظم، والإقــرار بأنــه هو الذي خلق كل البدائل عند كل خطوة من خطوات الخلــيقة، وأنــه هو الذي اختار البديل الصالح الذي يجعل الخليقة برمتها تتقدم إلى مستوى أعلى وأفضل في وجودها. وبالتالي.. فإن في كل مرحلة مــن المــراحل الــتي مر بها الخلق، كان هو سبحانه الذي يأخذ القرار الصــائب، وهــو الذي يدير كل أمر بالتدبير الصالح، وهو الذي يحقق الهدف الذي يبتغيه، ويوجه الأمور نحو الغاية التي يريدها.

البروفيسور فرانك آلن (Frank Allen)، وهو أستاذ الطبيعة الحيوية في جامعــة مانيــتوبا الكندية، والحائز على جائزة ميدالية توري الذهبية من الجمعية الملكية بكندا، كتب يقول:

> "إن التغــيرات الــتي كان لا بد من حدوثها في الأرض لتكون صالحة للحياة هي أكثر من أن تكون قد حدثت بمجرد الصدفة".[٣]

ومن الواضح أنه يعني أننا نجد نظاما وتوافقا وتدبيرا على طول رحلة التطور، مما لا يمكن أن يُعزَى إلى محض الصدفة.

وفي تعلــيق لــــه على تعقيدات البروتينات وكيفية قيامها بالدور الأساسي في بناء ودعم وتقدم الحياة، رفض البروفيسور آلن رفضا حاسما

فكرة عزو ذلك للصدفة.

وأيضا.. إن تكوين جزئ واحد، عن طريق الصدفة، من نوع واحد من أنواع البروتين يقتضي $١٠^{٢٤٨}$ من السنين! وفيما يتعلق بالفترة المعلومة مـــن التطور فإن تكوين جميع الجزيئات لكل أنواع البروتينات التي سبق ذكـــرها لهـــو أمـــر يبلغ من الاستحالة قدر المستحيل نفسه، إذ أن جميع الخطـــوات العجيبة والرائعة المتعلقة بالخلق، التي تمت، لكي توجد الحياة بشـــكلها الحالي على الأرض، استغرقت فقط أربع مليارات ونصف من السنين، أي ٤٫٥× $١٠^{٩}$!

إن العلماء يُجرون تجاربهم في معامل ومختبرات في ظروف تحت تحكم تـــام. وإذا حدث أن انسكب سائل عن طريق الصدفة، أو إذا حدث أي تســـرب في تجـــربة ما، فإن هذا يُفسد التجربة بأكملها، ويقتضي إعادة إعداد الجهاز وإعادة إجراء التجربة نفسها لإصلاح آثار الخطأ الذي وقع. ولا بـــد من وجود عقل مدرك واع لكي يشرف على ما يجري، ويتأكد من عدم وقوع أي خطأ، وأن لا يُترك شيء للصدفة.

أمـــا عن الظروف التي كانت سائدة في الوقت الذي تمت فيه بعض الأطـــوار الرئيسية للتطور، فلم تكن أبدا ظروفا مواتية، بل إنها في الواقع كانت كما يصفها جون هورغان (John Horgan) حيث يقول:

"…. إن الحـــياة نشأت واستمرت تحت ظروف غير مواتية، وفي أحيان كثيرة كانت ظروفا جهنمية".[٤]

لأن تســـود الظروف الملائمة، وأن تستمر بغير انقطاع خلال مرحلة طويلة ممتدة من الزمن.. ليس في ذاته كافيا لنشوء وتثبيت نوع جديد من أنواع الحياة. فإن الزمن ليس خالقا، وإنما هو مجرد امتداد حيادي متعادل، يمكـــن أن يحدث خلاله أية تفاعلات وعوامل.. بناءة أو هدامة. ومثله في ذلك مثل المرجل أو الفرن، فإذا ألقينا ببعض المواد بطريقة عشوائية داخل المرجل بغير هدف وبدون أي تخطيط، فإن الزمن في حد ذاته، مهما طال

أو استطال، لا يمكن أن يقوم بترتيب هذه المواد بشكل يجعل منها منتجا ذا معنى.

إن العلماء الذين حاولوا القيام بإجراء تجارب تحاكي الظواهر الطبيعية الـــتي تخلقـــت فيها الحياة، في مخابر ومعامل محكومة ومنضبطة الظروف، يدركـــون تمامـــا أنه لا بد من الإشراف المحكم على العملية برمتها، ولا مـــناص من العمل الدؤوب على متابعتها خطوة بعد خطوة، للوصول إلى الغاية المنشودة من إجراء تلك التجارب، وللحصول على النتائج المرجوة منها. ومع ذلك فقد صاحبهم الإحباط ورافقتهم الخيبة، رغم أن العملية برمتها قد سبق التخطيط لها، وتم الإعداد المحكم لكافة تفاصيلها، بواسطة عـــلماء بـــارزين على جانب كبير من العلم والخبرة والمعرفة. فإذا تركنا المختـــبر تحـــت رحمة الزمن وحده، وعدنا إليه بعد مُضي ما يقرب من خمســـين عاما، فلن يكون من الصعب رؤية الفوضى التي خلفها الزمن، والدمار الذي سببه كر السنين.

إن مـــرور الـــزمن يُحَـــول النظام إلى فوضى، ما لم تُتخذ الخطوات اللازمـــة.. بوعي وإدراك وتخطيط.. لمعادلة تأثير الزمن، وإزالة آثار مرور الوقت.

وقـــد كتب كل من ويليام كرانتز (William Krantz)، وكيفين ج. غليســـون (Kevin J. Gleason)، ونلسن كاين (Nelson Caine)، في مقالة بعنوان: الأرض المزركشة (Patterned Ground)، فقالوا:

> "يـــبدو الـــنظام في الطبيعة وكأنه الاستثناء وليس القاعدة. فالاتساق في المجموعة الشمسية، والتنظيم المعقد في الكائنات الحية، وتشكيلة البلورة، كـــلها مجرد زركشة عابرة، تؤول إلى الزوال والفناء في فوضى مطلقة. فالمنظومة السائدة في الكون هي انتروبيا متزايدة، وعلى هذا.. فما أعجبه حقا من إعجاز أن توجد هذه الأمثلة من النظام المتقن في الطبيعة".[٥]

إن الكثيرين من العلماء الآخرين الذين أعملوا الفكر مليا في موضوع أصـــل الحـــياة والخليقة، وعلاقة ذلك بعوامل الزمن وأمور الصدفة، قد

توصـــلوا إلى النتيجة المحتومة التي لم يكن من الممكن لهم أن يتجاهلوها، وهـــي أنه لا بد من وجود كائن عليم، كامل القدرة، كلي الوجود، ذي عقل بارع وفكر رائع، قادر على تخطيط وتدبير وتنظيم الظواهر الخلاقة. وبدون هذا الكائن الأعظم فإن بداية الحياة وتطورها لم يكن من الممكن أن يحدث أو يتم.

ويذكـــر هورغـــان في مقالته بعنوان "في البداية" (*In the Beginning*) الملاحظة التي ذكرها كريك (Crick) فيقول:

"إن بدايـــة الحـــياة تكـــاد تبدو وكأنها أمر إعجازي، فهناك الكثير من الظروف التي كان لا بد من توافرها لتقوم الحياة وتستمر".[٦]

ولكـــن.. إن المـــرء ليتساءل: لماذا "تكاد" تبدو؟ إنها بالفعل معجزة حقيقية.

ويستكمل هورغان حديثه فيقول:

"يـــزعم بعـــض العلماء أنه إذا توفر الزمن الكافي، فحتى ما يبدو أنه من الأمـــور المعجزة يصير من الأمور الممكنة – مثل الانبثاق العفوي لكائن وحيد الخلية من الجماع العشوائي لمجوعة من المواد الكيميائية".[٧]

ولكـــن كـــم هي عدد صدف الجماع العشوائي المطلوبة حتى يمكن خلـــق الحياة، هذا هو السؤال الهام الذي أجاب عليه فريد هويل (Fred Hoyle) عالم الفلك البريطاني الشهير في الكلمات التالية:

".... هـــذا الاحتمال يساوي تقريبا احتمال تكوين طائرة جامبو ٧٤٧ نتـــيجة لاندفاع عاصفة حلزونية (تورنادو – Tornado) على مخزن من الخردة".[٧]

أمـــا البروفيســـور إدويـــن كونكلين (Edwin Conklin)، وهو أحد البيولوجـــيين البارزين في جامعة برينستون، فقد عبر عن رأيه في الموضوع كما يلي:

"إن احـــتمال أن تكـــون الحياة قد نشأت صدفة يمكن مقارنته باحتمال تكوين قاموس لغوي نتيجة لوقوع انفجار داخل دار للطباعة".[٨]

ويعترف عالم آخر من علماء البيولوجيا المشهورين، وهو الدكتور وينشيستور فيقول:

"…. بعد العديد من السنين التي قضيتها في الدراسة والعمل في المجال العلمي، فإن إيماني بالله قد صار أكثر قوة، بدلا من أن يهتز، واكتسب أساسا أشد صلابة من ذي قبل. إن العلم يتيح للإنسان بصيرة يتفكر بها في قدرة الكائن الأعظم، وتزداد هذه البصيرة وضوحا مع كل اكتشاف جديد".[٩]

إن المقياس الزمني الذي يتطلبه التطور، إذا افترضنا أن الصدفة العشوائية العمياء التي لا عقل لها هي خالقة هذا التطور، لهو شاسع الطول بشكل يُعيي العقل، حتى ولو كان عقل أكثر علماء الرياضة خبرة وعلما. ولا يستطيع أي رقم في نطاق علم الإنسان أن يُعبر عنه، ولا يستطيع أي عقل أن يدرك ضخامة العدد الذي يصف طوله.

وكما سبق ذكره.. يُقَدّر البروفيسور آلن أن الزمن الذي تقتضيه الصدفة لتخليق البروتينات المركبة هو $١٠^{٢٤٨}$ من السنين. أما الزمن الكلي الذي يتطلبه التطور بأكمله فهو أكبر بكثير من الزمن اللازم لتكوين البروتينات، ذلك الذي أشار إليه البروفيسور آلن.

ولتوضيح الأمر للقارئ غير المعتاد على هذه الكميات العددية، فإن العدد الذي يشير إليه البروفيسور آلن هو عبارة عن الرقم ١٠ مضروبة في نفسها ٢٤٨ مرة، أي أن أمامها ٢٤٨ صفرا. وعندما يعلم القارئ أن العمر الكلي للكون منذ الانفجار العظيم حتى الآن هو ١٨ أو ٢٠ مليارا من السنين، وأن المليار هو عبارة عن الرقم ١٠ مضروبة في نفسها ٩ مرات فقط، عندئذ يستطيع القارئ أن يتصور مدى ضخامة هذا العدد الذي يشير إليه البروفيسور آلن. ولم ولن يخترع أحد اسما لكمية.. ليعبر عن هذا الرقم الفلكي الذي توَصل إليه البروفيسور فرانك آلن. ولعل كمية المالانهاية هي أقرب كلمة يمكن أن تعبر عنه.

وباختصار.. فإننا نقول للقارئ: حتى ولو أن خلق العالم وما تبعه من

تطور الحياة قد تم منذ تريليون عاما مضروبة في تريليون عاما، فسوف يظل من المستحيل للتطور.. رياضيا.. أن يصل إلى مرحلة وجود الإنسان.

وهـــذا يعني ببساطة أن كلا من مؤلف هذا البحث، والقارئ الذي يحمـــل هـــذا الكـــتاب بين يديه، ليسا هنا ولا هناك. فما كان للقلم أن يُخلق، ولا اليد التي تحمله، ولا العين التي تقرأ هذا الكلام ولا العقل الذي يســـعى لفهـــم مدلول ما دَوّنه القلم، كل هؤلاء ما كان لهم أن تتصور الصـــدفة العمـــياء وجودهـــم لو كانت هي الخالق فعلا. فمن أنا.. أيها القارئ، ومن أنت؟ وما هو الخلاف إذن؟ فلننْزو في غمار نوم عميق إلى أن يـــأتي ذلـــك الزمن البعيد في حجب المستقبل حينما تستكمل الصدفة العمـــياء فـــاقدة العقل خطة التطور التي لم تقم بالتخطيط لها أبدا. ولكل خطـــوة تخطوهـــا الصدفة في الاتجاه الصحيح، فإن عليها أن تتخبط في ملايين بعد ملايين من الخطوات في الاتجاه الخاطئ. ولكن.. ويا للأسف.. قبل أن نصل إلى ذلك الحين ستكون الانتروبيا قد قضت على هذا الكون، ولم تـــدع فيه شيئا يمكن أن يتطور إلى أي شيء، بل ولن تترك الانتروبيا ذلـــك الخـــالق الأعمى أيضا الذي يُطلق عليه البعض اسم الصدفة، فلن تســـتطيع الصدفة أن تقوم بأي دور في حالة الخمود والموت الكلي الذي يعـــم كل شيء. فلا شك أن رقم $١٠^{٢٤٨}$ يفوق في ضخامته الزمن الذي تستغرقه الانتروبيا للقضاء على كل شيء.

ومـــن الواضح أن الأمر يحتاج أن يكون الإنسان العاقل على إصرار شديد لكي يؤمن بمثل هذه الحماقة والخبل. ومع ذلك.. فهناك الكثير من العـــلماء العقلانـــيين الذين هم على جانب كبير من الذكاء يؤمنون بهذا الهـــراء. وهـــؤلاء يشابهون إلى حد كبير المتعصب الديني، الذي يبدو أنه إنسان عادي في الأمور المتعلقة بالشؤون العامة للحياة، ولكن حين يتعلق الموضـــوع بـــأمور الدين والعقيدة، فإنه يغلق نفسه كلية وينعزل عن نور العقل والتفكير السوي في شرنقة من التعصب الغبي. إنه لمن العجيب حقا

كـــيف يســـتطيع العقل البشري أن يعزل نفسه أحيانا في حلم من أحلام اللـــيل رغـــم كونه في وضح نور النهار. ربما يكون الأمر أكثر واقعية أن نقـــول إنه يعيش في نفس الوقت في عالمين مختلفين أحدهما واقعي والآخر خيالي. إن الموت وحده هو الذي يستطيع أن يحرر الإنسان من عقاله التي تربطه مع حياة الادعاء والتظاهر.

المـــــــراجع

1. HERON-ALLEN, E. (1899) *Edward Fitzgeralds Rubâiyāt of ‘Omar Khayyām.* H.S. Nicholas Ltd., London, p.104
2. HERON-ALLEN, E. (1899) *Edward Fitzgeralds Rubâiyāt of ‘Omar Khayyām.* H.S. Nicholas Ltd., London, p.102
3. ALLEN, F. (1968) *The Origin of The World – By Chance or Design?* In: The Evidence of God in an Expanding Universe, by Monsma, J.C. Thomas Samuel Publishers, Bombay, p20
4. HORGAN, J. (February, 1991) *In the Beginning*. Scientific American: p.121
5. KRANTZ, W.B., GLEASON, K.J., CAINE, N. (1988) *Patterned Ground*. Scientific American: p.68
6. HORGAN, J. (February, 1991) *In the Beginning*. Scientific American: p.125
7. HORGAN, J. (February, 1991) *In the Beginning*. Scientific American: p.118
8. KORNTELD, E.C. (1986) *God – Alpha and Omega.* In: The Evidence of God in an Expanding Universe, by Monsma, J.C. Thomas Samuel Publishers, Bombay, p20
9. WINCHESTER, A.M. (1968) *Science Undergirded my Faith.* In: The Evidence of God in an Expanding Universe, by Monsma, J.C. Thomas Samuel Publishers, Bombay, p163

الفصل التاسع
مستقبل الحياة على الأرض

هل يمثل الإنسان المرحلة الأخيرة في التطور أم سيكون هناك خلق آخر بعد الإنسان؟ هل يوجد احتمال لنشوء نوع جديد يتطور عن الإنسان ويتمتع بحواس أفضل أو حواس إضافية، ويستطيع أن يُدرك أبعادًا جديدة مع القدرة على اكتساب ذكاء أعلى مما لديه الآن؟ وأيضا.. هل من الممكن أن تظهر هذه الأنواع الجديدة في هيئة وشكل مختلف تماما، ومنهج جديد كلية؟ حسب ما لدينا من معلومات، لم يحدث أن بُحثت هذه الأسئلة في أي دين من الأديان عدا الإسلام.

إن هذا الموضوع كان يبعد تماما عن حيز تفكير الفلاسفة والعلماء في العصور القديمة. وحتى العلم الحديث لا يستطيع مناقشة هذا الموضوع إلا في أضيق الحدود.

ومن المدهش حقا أن يتميز القرآن المجيد في هذا المجال، وأن يثير مثل هذه الموضوعات، ويرد على مثل هذه الأسئلة، ويتناول هذه الإمكانيات. إن موضوع الحياة بعد الموت أمر مختلف، وقد جاءت الإشارة إليه في جميع الأديان العظمى تقريبا. ولكن لم يناقش أي منها إمكانيةَ وجود أشكال أخرى للحياة هنا على الأرض، تنشأ قبل أو بعد يوم الدينونة.

بعد هذا فإننا نرجو أن نُذَكر القارئ بأنه رغم أن الصحف المقدسة الأخرى قد شاركت في أوصاف يوم الدينونة، إلا أن التعبيرات التي استعملها القرآن المجيد أكثر سعة وشمولا في معانيها. وهناك الكثير من النبوءات في القرآن المجيد تتعلق بأحداث مستقبلة، فاتحة لعهد جديد، كمثل الثورات العظمى والاضطرابات الكبيرة في العالم. وقد أشير إليها جميعا أيضا باستعمال نفس الكلمة.. أي (القيامة)، واستعمال اللفظ

المرادف لها.. أي (الساعة). ونفس هذه الألفاظ تستعمل أيضا في التعبير عن تلك الأمور التي تُعرف عامة باسم يوم الدينونة، ويشير إلى نهاية الجنس البشري بأكمله. وهذا هو ما تشترك فيه الصحف المقدسة الأخرى مع القرآن المجيد حين تتحدث عن يوم الدينونة.

وبينما يُفسر أتباع هذه الأديان تعبير "يوم الدينونة" على أنه يعني النهاية العامة الشاملة الكاملة للكون، فإن القرآن المجيد لا يستعمل هذا اللفظ دائما بهذا المعنى. فالقرآن المجيد يعتبر الأرض جزءا صغيرا من الكون الواسع الرحيب، وحدوث اضطرابات على نطاق عالمي واسع يمكن أن يخلق دمارا عظيما قد يضع نهاية لكل أشكال الحياة على الأرض، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أن الأرض برمتها سوف تُمحق من الوجود، أو أن هذا سوف يؤدي إلى دمار وانتهاء الكون بأكمله.

وقبل الاستطراد في الحديث عن هذا الموضوع، دعونا نقدم نبذة، من وجهة نظر القرآن المجيد، لما سوف يأتي ذكره في هذا الفصل فيما يتعلق بمستقبل الإنسان هنا على هذه الأرض، أو في أي مكان آخر يمكن أن تتواجد فيه الحياة. هناك بعض الآيات الكريمة التي تذكر أحداثا سوف تحدث في هذا العالم بعد يوم الدينونة. وتذكر بعض الآيات أن هيئة الإنسان سوف تتغير إلى هيئة مختلفة بعد الموت حيث يُبعَث في حياة جديدة. ثم هناك بعض الآيات الأخرى التي تختلف تماما عن الآيات السابقة، وتتحدث عن أمور سوف تحدث في المستقبل بعد يوم الدينونة، ولكن ليس في الحياة الآخرة. وهذه هي الآيات التي تُمثل بوضوح مشهد استمرار النشوء والتطور هنا على الأرض، مما ينتج عنه خلق أنواع من الحياة أعلى وأرقى من الإنسان. ويجب ألا يكون هناك خلط ولا ربط بين هذه الآيات والآيات الأخرى التي تتحدث عن البعث بعد الموت.

ولنبدأ بدراسة الآيات التي تتعلق بالآخرة، والتي تختلف عن الآيات التي تتحدث عن إمكان وجود شكل آخر من أشكال الحياة العاقلة

والجديدة تماما هنا على الأرض. ويوجه القرآن المجيد حديثه مخاطبا أولئك الذين يتشككون في حقيقة موضوع الحياة بعد الموت، فيُذَكر القرآن هؤلاء بأن الأوْلى بهم أن يتشككوا في حقيقة وجودهم أنفسهم هنا على الأرض، أكثر من تشككهم في حياتهم بعد الموت. فهناك أمر واحد هم على يقين منه، وهو أنهم جاءوا إلى هذه الدنيا من عدم مطلق، وهذا العدم هو الذي سبق وجودهم. فإذا كان وجودهم قد تم من عدم، فلماذا يتشككون في إمكانية وجودهم مرة أخرى من شيء هو موجود بالفعل وهو وجودهم الحالي. إن تولدهم مرة أخرى مما هم فيه اليوم لهو أكثر معقولية وأوضح منطقا من تولدهم من لا شيء. وتشكك الإنسان هذا في الحياة بعد الموت هو الموضوع الذي تعالجه الكثير من الآيات القرآنية، ولكن ذكر هذا الموضوع ليس مجرد فتح الباب للمزيد من البحث ومناقشة الموضوع. وليس المقصود منه في ذاته أن يُثبت وجود حياة في الآخرة، وإنما المقصود منه فقط هو تفنيد أيّ تبرير لهذا التشكك. وبالإضافة.. فإن القرآن الكريم يُذَكّر الإنسان أيضا بأن المستوى العالي من الوعي والإدراك الذي وصل إليه كان من الأولى أن يكون سببا في تنويره بدلا من أن يكون سببا لتخبطه في الظلام. كذلك فقد كان من الأوْلى أن يقوده إدراكه لما يحيطه من الموجودات وما وراء ذلك، إلى إقناعه بوجود الخالق الذي يشمخ الإنسان أمامه برأسه في تحد واستخفاف. وإن كان يؤمن بوجود الخالق فإن إنكاره لوجود الحياة الآخرة قد يكون بسبب اندهاشه البالغ لما سوف تكون عليه تلك الحياة، إذ قد يبدو لـــه أنها أعجب من أن تكون حقيقة واقعة. غير أن الواقع يقول بأن الخلق الأول الذي كان من العدم، هو أكثر غرابة وأشد إثارة للعجب وعدم التصديق من الخلق الثاني.

ثم ننتقل إلى ذكر دليل منطقي.. يمهد لـــه القرآن المجيد بقوله إن الإنسان لا يستطيع أن يحكم على حقيقة وجود الحياة الآخرة عن طريق

المشاهدة، وهو لا يستطيع أن يرى شيئا وراء نهاية الحياة في هذه الدنيا.. سوى العدم المطلق والخواء الفارغ. فانظر إلى حكمة الإنسان: إنه يعلم يقينا أنه وُجد من العدم المطلق، ومع ذلك فهو لا يستبعد هذا الوجود ولا يتشكك في حقيقته. ومع ذلك.. حين يُقال له إنه سوف يُبعث مرة أخرى بعد موته، فإنه يرفض أن يقبل هذا القول، ويعتبره مجرد هراء يخالف العقل. إن هذا الاستدلال المنطقي من القوة بمكان، ولا يحتاج الأمر إلى فيلسوف كبير ليفهم الدليل المنطقي الذي يسوقه القرآن المجيد.

وعلى هذا فليس هناك من شاهد غير الإنسان نفسه، يمكن أن يشهد ضد إنكار الإنسان. وحين يتناول القرآن المجيد هذا الموضوع فإنه يقدم أولا وجهات نظر المكذبين بدقة بالغة ووضوح شديد، ثم يتناول وجهات النظر هذه بالتفنيد بالحجة البيّنة. وفيما يلي بعض الآيات الكريمة التي تناولت هذا الموضوع. يقول تعالى:

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ﴾ (٤٥ الجاثية:٢٥)

ويقول ﷻ:

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ۝ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝ إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (٢٣ المؤمنون:٣٦-٣٨)

ويقول أيضا ﷻ:

﴿وَيَقُولُ الإِنْسَانُ ءَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ (١٩ مريم:٦٧)

ثم يقول سبحانه:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ۞ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ (١٦ النحل:٣٩-٤٠)

ويقول كذلك:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٣٦ يس:٧٩)

ويقول تبارك وتعالى:

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٥٠ ق:١٦)

وأيضا يقول جل شأنه:

﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۞ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾ (٥٦ الواقعة:٤٨-٤٩)

ثم يقول كذلك:

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۞ عَلَى أَنْ نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ ۞ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ﴾ (٥٦ الواقعة:٦١-٦٣)

وهكذا يُسهل القرآن المجيد للإنسان موضوع تصديق الحياة في

الآخرة، ولكن ليست هذه كل الدلائل على صحة وحقيقة هذا الموضوع. إذ يقول تعالى:

﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٣١ لقمان:٢٩)

وهذه هي الآية التي تقوي الموضوع أكثر وتفتح آفاقا أرحب لمفهوم الإنسان للحياة بعد الموت.

إن ظاهرة البعث ترتبط بظاهرة المولد لكل فرد. فإذا استطاع الإنسان أن يتصور حالته الابتدائية الأولى وهو في مرحلة الجنين، عند اندماج الحيوان المنوي في البويضة، ثم يحاول أن يتصور.. بدءا من تلك الحالة.. إمكانية تكوين المخلوق الذي سوف تتم ولادته في شكل طفل مكتمل النمو، فإنه سوف يجد أنه أمر من المستحيل أن يتحقق. ولنتصور التغييرات المهولة والجبارة التي تحدث في تلك البويضة البسيطة المخصبة والتي تتحول إلى معجزة في شكل طفل يتحرك ويخرج إلى الحياة في خلال تسعة أشهر. إن من لم يشاهد هذا التغيير يتم.. ومن لم ير هذا التحول يتكرر في الواقع، يكون من المستحيل عليه أن يتصور إمكان حدوثه بمجرد النظر إلى المراحل الأولى للجنين حين يتكون من اندماج خلية منوية مع بويضة الأنثى. والحياة بعد الموت تشابه هذه العملية المدهشة – فهي عملية تحول من لا شيء تقريبا إلى هيئة راقية عالية من أشكال الحياة المنظمة.

إن الفرق بين أصل الإنسان حين كان مجرد وحدة حية في الزمن السحيق، وبين ما صار عليه الآن، هو تَحَوّل ضخم عظيم يكاد لا يُصدقه العقل. وبالطبع فإنه من المستحيل على تلك القوالب الأولى للحياة عند بدايتها تصور أن مستقبل التطور سوف يبلغ ذروته في وجود الإنسان، حتى ولو كانت لها قدرة على التصور. إن إدراكها لكينونتها كان ضئيلا للغاية حتى إنه يكاد يكون من المستحيل على البشر الواعي المدرك أن يعتبروه

إدراكا أصلا. وهذه جملة لها مدلولها الكبير، ورغم كلماتها القليلة فإنها تغطي المدى الواسع للتطور من البداية إلى النهاية. وفحوى الرسالة التي تحملها هذه الكلمات هي أن الفرق بين الإنسان في حالته التي هو عليها الآن، وبين حاله عند البعث من الموت، سيكون فرقا شاسعا عظيما، كالفرق بين حال الإنسان عند بدء نشأة الحياة في الزمن السحيق.. عندما كان مجرد وحدة عضوية، وحالته الآن التي آل إليها حاليا. إن التحول الذي سوف يحدث للإنسان تحول عظيم جبار ومهول، ومن المستحيل على الإنسان الآن أن يتصور أو يدرك طبيعة ما سوف يؤول إليه هذا التحول عند البعث بعد الموت. ومع ذلك.. فلا مهرب للإنسان من النتيجة المحتمة، وهي أن خلق الإنسان الأول كان أكثر غرابة وأصعب تصديقا من الخلق الثاني الذي يرفض البعض تصديقه. ربما يستغرق الأمر مليارا من السنين، أو نحو ذلك، للروح بعد بعثها حتى تصل إلى ذروة اكتمال تطورها الروحي. إننا نخرج بهذا الاستنتاج لأن البعث قد شُبه بالمرحلة الأولى لخلق الإنسان من لا شيء. ونحن نعلم الآن أنه لكي يتطور الإنسان من أشكال الأسلاف الأولية للحياة إلى ما هو عليه الآن، قد استغرق على الأقل مليارا من السنين أو يزيد. فإن كان هذا الطور من خلق الإنسان يتشابه مع الطور الثاني بعد بعثه، فليس من المستبعد أن يكون التشابه يشمل أيضا المدى الزمني في الخلق الأول والخلق الثاني.

ولزيادة التدليل على هذه النقطة يسوق القرآن المجيد أسلوبا فريدا في المنطق الاستنتاجي. ونحن لا ننوي هنا أن نستفيض في شرح الموضوع والإشارة إلى الآيات القرآنية المتعلقة به، لأن الكثير من هذه الآيات قد سبق التعليق عليها في فصول أخرى. إننا نريد هنا فقط أن نوضح أسلوب هذا الاستدلال. وحين يتحدث القرآن المجيد عن بعض الأحداث المستقبلة التي تتعلق بهذا العالم، في وقت لم يكن هناك من إنسان يمكن لـــه أن يتصور أو يتخيل وقوعها، فإن القرآن يتحدث أيضا عن الحياة بعد الموت،

أحيانا بأسلوب لـــه معنيان متوافقان. فالنبوءات التي تحويها هذه الآيات يمكن أن تنطبق على أمور في هذه الحياة، كما أنها تنطبق أيضا على أمور في الحياة الآخرة. وعندما تتحقق الأمور المذكورة في هذه الآيات، والتي تتعلق بهذه الحياة، بكل وضوح وبشكل لا يقبل الجدل أو الاعتراض، يصير تحقيق الأمور التي تتعلق بالحياة الآخرة مجرد مسألة وقت. فإن الآيات التي تثبت صحتها فيما يختص بتحقق الأحداث المتعلقة بهذا العالم، لا بد أن تكون موضع ثقة بالنسبة لتحقق الأمور التي تتعلق بالعالم الآخر. هذا كل ما يمكن تقديمه من دلائل عن موضوع الحياة الآخرة، وإلا فليس هناك من سبيل، بل إنه يكون من المستحيل قبل الموت، إثبات أي شيء يتعلق بالآخرة.

وبعد بحث إمكانية نشوء شكل من أشكال الحياة والوجود بعد الموت، فإننا نجد أن بعض آيات القرآن المجيد تتحدث بوضوح عن خلق جديد للحياة هنا على هذه الأرض، تحل محل الحياة البشرية الموجودة الآن وتختلف عنها اختلافا واضحا. يقول تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۞ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾

(١٤ إبراهيم: ٢٠-٢١)

ومن الواضح أن هذه الآيات لا تتعلق بالحياة بعد الموت، واستعمال حرف الشرط (إِنْ) الذي يستعمل بمعنى (إِذَا) يشير بوضوح إلى أن المقصود هنا ليس هو الحياة بعد الموت، وإلا فإن هذا الشرط نفسه سوف يضع كل مفهوم الحياة بعد الموت موضع شك، رغم كونه أمرا مؤكدا عليه ويتحدث عنه القرآن المجيد بكل يقين. إن الآية التي نحن بصددها لا تتحدث عن استبدال البشر بآخرين من البشر يماثلونهم، وإنما تذكر بوضوح وجلاء أن الله تعالى سوف يأتي بخلق جديد. وليس المقصود

الذهاب ببعض البشر وإحلال غيرهم من البشر محلهم، فهذه عملية متكررة ولا يحتاج ذكرها إلى شرط يتعلق بمشيئة الله تعالى. إذن فالمقصود هنا هو استبدال الجنس البشري برمته بخلق جديد يختلف عنه.

إن الكون بأكمله قد خُلق بالحق، أي خُلق بما يتفق مع متطلبات ومقتضيات الحق. وكذلك أيضا كان خلق الإنسان.. الذي يُعتبر ذروة وسنام الخليقة. وبالإضافة إلى الحديث عن موضوع الحياة بعد الموت، فإن القرآن المجيد يتحدث أيضا عن موضوع آخر يختلف تماما عنه، وهو موضوع خلق آخر يستبدل الله به البشر، إذ يقول تعالى:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ (٧٦ الإنسان:٢٩)

ويقول أيضا:

﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ۞ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (٧٠ المعارج:٤١-٤٢)

إن الخلق الجديد الذي سوف يستبدل الله تعالى به الإنسان ليس هو مجرد "قوم" آخر من الأقوام، وليس هو مجرد جيل آخر من الأجيال البشرية. وأما استعمال حرف الشرط فيعني أنه إذا أصلح الإنسان من نفسه وعمله، فلن يكون من الضروري أن يُقضى على الجنس البشري بأكمله، ليُستبدل بنوع آخر خير منه.

يتبين من هذا أن القرآن المجيد يقول بإمكان نشوء أشكال أخرى من الحياة تكون أكثر تقدما، وقد يكون لها من الحواس ما هو أكثر دقة وأوسع مجالا، أو ربما تكتسب حواسا جديدة بالإضافة إلى الحواس الخمس التي يتمتع بها البشر الآن. ورغم أن القرآن المجيد لا يُصرّح بالقطع أن هذا أمر

حتمي الحدوث، إلا أنه يؤكد على قدرة الله سبحانه على إحداث هذه التغييرات، إذا شاء ذلك حسبما يقتضيه تقديره في الخلق. فالقرآن لا يقول بمفهوم عن تطور أعمى يقوم على حوادث عشوائية. إن إمكانية استمرار التطور، كما يذكرها القرآن المجيد، هي إحدى الدلائل العظمى على مدى اتساع حكمة وعظمة قدر علم مُنَزِّل هذا الكتاب ﷻ. كما أن ذلك يُثبت أيضا أن كل ما قيل عن الكتاب العزيز في الفصول السابقة عن نشوء الحياة وتطورها لا بد وأن يكون صحيحا، وإلا لما ذكر القرآن إمكانية تطور الإنسان إلى نوع آخر من الخليقة - وهو موضوع لم يسبق بحثه في أية كتب علمانية أو دينية. فإن مثل هذه الموضوعات لم تكن لتصدر إلا من مستوى عال من العلم المطلق واليقين الحق.

إننا قد لا ندرك تماما ما تعنيه إمكانات استمرار تطورنا، أو أن سلسلة جديدة كلية سوف تبدأ مرة أخرى بداية جديدة في رحلة التطور. إن إدراكنا يمكن أن يصل فقط إلى الخط الذي يحيط بدائرة معلوماتنا الحالية، وأما هذه الأمور فهي تظل بالنسبة لنا جزءا من عالم الغيب. غير أن المجهول يتحول باستمرار إلى معلوم أو إلى ما هو مفهوم، فهذه هي الوسيلة الطبيعية في التعلم. إن الله تعالى هو رب كل ما هو معلوم وكل ما هو مجهول، وهو عالم الغيب والشهادة. وهو سبحانه يوَسع بالتدريج آفاقنا حتى يمكن أن تزداد دوما لدينا قوة البصيرة، لنرى غدا ما يبدو اليوم مغلفا في طيات ستائر الظلام.

الفصل العاشر
التطور ونظام الأعضاء

إن تعريف العضو، في المصطلح الطبي، هو أي جزء معين في الكائن الحي يختص بمهمة معينة. وهناك العديد من الأعضاء في الجسد البشري، تحتاج إلى الكثير من الدراسة العميقة، لتحديد ما إذا كانت هذه الأعضاء قد تطورت تدريجيا خلال مدة طويلة جدا من الزمن، أم أنها قد خُلقت بشكل فوري في شكلها الحالي النهائي، كما يؤمن بذلك بعض رجال الدين في الغرب. إن هذه الأعضاء تتحدى نظرية التطور الداروينية، غير أنها، وبكل تأكيد، لا تتحدى التطور نفسه.

إنه لَسوء فهم بالغ من جانب القائلين بمذهب الطبيعة الخالقة.. أن الفرق بينهم وبين القائلين بمذهب الخلق لهو النـــزاع الحقيقي. ورجال الدين، الذين كثيرا ما يشير إليهم الطبعيون، هم أولئك الزمرة المتطرفة بين علماء الدين المسيحي الذين ينكرون التطور في جميع مستوياته، ويؤمنون بالفورية في الخلق. وتعني هذه الفورية أن كل حيوان قد خُلق منفردا وفي شكله النهائي الحالي بجميع ما يحتويه من أعضاء. ويقينا ليس هذا هو المفهوم القرآني للخلق الذي قمنا بشرحه وإيضاحه خلال هذا الكتاب، فهو يختلف تماما عن منظور أصحاب مذهب الخلق الفوري الذي نجده منتشرا بين المتدينين المسيحيين. وعلى ذلك ينبغي ألا يُساء فهمنا، ولا أن يُخلط بيننا وبين القائلين بمذهب الخلق الفوري حين نتناول موضوع خلق وتطور الأعضاء. غير أن هناك أمرا مؤكدا فيما يتعلق بنظام الأعضاء، وهو أنه حتى في مراحلها الأولية كانت هذه الأعضاء تشترك في أربعة أمور:

١- خلق جزء خارجي، يستحق في ذاته أن يُسمى عضوا.

٢- خلق نظام لنقل الإحساسات، مثل الشعيرات العصبية، لنقل المعلومات التي يجمعها العضو الخارجي.

٣- خلق نظام داخلي شديد التعقيد يختص باكتساب المعرفة، وهو ما نشير إليه كجزء معين من المخ. فهو مصمم لكي يستقبل المعلومات، ثم يجزئها إلى وحدات صغيرة، ويستخلص الرسالة المتضمنة فيها بطريقة صحيحة.

٤- وبعد إتمام هذا، يقوم المركز الذي في المخ بنقل كافة المعلومات التي جمعها إلى المراكز العديدة الأخرى من المخ، التي تتولى تسجيلها وإعادة توزيعها على المراكز العصبية المنتشرة في بقية الأجزاء الموجودة في الجسم.

ومن الواضح أن هناك أهدافا وغايات من خلق وتجهيز كل عضو من الأعضاء التي تُكَون مجموعة من هذا النظام العضوي الشديد التعقيد.

ونحن نرى أنه من الخطأ اعتبار العين أو الأذن أو ما شابههما.. عضوا منفردا يقوم وحده بأداء وظيفة معينة. فهذه الأعضاء لا تعني شيئا في ذاتها، وإنما يصبح لها قيمة حقيقية حينما تكون جزءًا متكاملا من نظام الأعضاء الكلي الذي تنتمي إليه. وأيضا حين نختبر ونبحث حقيقة هذه الأعضاء بدقة في حدودها الخاصة، نجد أنها ليست مجرد أعضاء فحسب، بل هي أنظمة صغيرة مُركبة تحتوي على الكثير من الأعضاء الأكثر صغرًا. وعلى ذلك فهي في مجموعها تقوم بدورها باعتبارها أنظمة صغيرة، وحتى في مراحلها الأولية كانت هذه الأعضاء تتشكل من مكونات تتوافق مع الوصف السابق. فميكانيكية الرؤية مثلا، لدى بعض الحيوانات التي كانت موجودة منذ ملايين السنين قبل وجود الإنسان، تثبت وجود نفس هذا التعقيد في تركيب أجهزة عالية التنظيم، كما أن أجهزتها البصرية أيضا كانت تتكون من عدة أعضاء. فبأي منطق يمكن إسناد كل هذا إلى الانتخاب الطبيعي، أو إلى أي قاعدة من القواعد الداروينية؟ هذا هو الأمر

الذي يصعب استيعابه على الفهم البشري.

ونحن ننوي أيضا أن نقدم للقارئ مثالا.. ليس فقط عن نوع واحد من العيون التي نألفها، وإنما عن أنواع أخرى من العيون ذات التركيب المختلف، والتي تخدم نفس الغرض.. وهو ربط العالم الخارجي مع الكون الموجود بداخل الكائن الحي. وليس من استثناء في هذه القاعدة العامة. وأيضا نحن نهدف إلى أن نوضح لكل قارئ رصين، أنه في كل هذه الحالات كان من المستحيل بناء هذه التركيبات بتفاصيلها بغير تصميم وتدبير سابق، وبغير معرفة علمية واسعة للمصمم القدير الذي قام بتصميمها. إذ يجب ألا ننسى أن كل جزء من الأجزاء التي تُكَوّن الجهاز البصري، يتكون هو الآخر من العديد من الأجزاء المركبة والمعقدة، وتحتاج الكثير من الشرح والتوضيح بالنسبة لتركيبها الداخلي، وطبيعة المواد التي تتكون منها.

وأهم عضوين حيويين يُفرقان بين الأحياء والأموات هما الآذان، بكل ما يتعلق بها من الأجهزة السمعية التي تنتمي إليها، والعيون التي هي جزء من الأجهزة البصرية. ونبدأ بالقدرة السمعية حسب الترتيب الذي جاء في الآية الكريمة التالية من آيات القرآن المجيد:

﴿وَاللّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

(١٦ النحل:٧٩)

ولعل القارئ العربي يعلم بالطبع أن كلمة (الفؤاد) التي تترادف أحيانا مع كلمة (القلب) لا تعني دائما ذلك العضو العضلي الذي يقوم بضخ الدم في الجسم، وإنما كلمة الفؤاد هنا تشير إلى مركز الفهم والإدراك لدى الإنسان. وهناك الكثير من الآيات الكريمة التي تعزز هذا الرأي، منها الآية التالية:

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ (٥٣ النجم:١٢)

فهذه الآية تشير إلى رؤية الرسول ﷺ صفات الله الحسنى. ومن الواضح أن استعمال كلمة الفؤاد التي تعني القلب هو استعمال مجازي، وذلك للإشارة إلى الدماغ أو العقل عادة، إذ أن عضلة القلب لا تستطيع الرؤية أصلا، ناهيك عن رؤية الصفات الإلهية، وإنما هو العقل البشري الذي يستطيع ذلك. وبهذه المقدمة الهامة والقصيرة نعود إلى مناقشتنا السابقة لنوضح تشريح الأذن البشرية.

تتكون الأذن من الصوان (auricle)، وهو الجزء الغضروفي الخارجي الذي يمكن مشاهدته، وهو الذي يُطلق عليه عادة اسم الأذن. وهذه الأذن الخارجية تختلف قليلا في الشكل والحجم من فرد لآخر، ولكن الغرض منها يظل كما هو، أي زيادة مساحة المجمع الذي تتجمع فيه الموجات الصوتية المتجهة إلى الفتحة الخارجية للأذن عند بداية القناة السمعية الخارجية (auditory canal). وتبلغ هذه القناة حوالي بوصة واحدة (أي ما يقرب من ٥ر٢ سنتيمتر)، وهي مبطنة بجلد يُفرز نوعا خاصا من الشمع اللين. وتؤدي هذه القناة إلى الغشاء الطبلي المعروف باسم طبلة الأذن (tympanum or eardrum). وهنا تنتهي الأذن الخارجية، حيث يمثل الغشاء الطبلي الحد الفاصل بين الأذن الخارجية والأذن الوسطى. ويتم ضبط ضغط الهواء متساويا على جانبي طبلة الأذن بفضل القناة السمعية الداخلية التي تربط بين الحلق والبلعوم واسمها العلمي هو (Eustachian tube). ويُعد نظام إبقاء ضغط الهواء متساويا على جانبي طبلة الأذن على جانب كبير من الأهمية، وذلك لضمان تردد الطبلة بحرية في كل من الاتجاهين.

وتتكون الأذن الوُسطى من فجوة على شكل شق طولي يقع بين القناة السمعية الخارجية والأذن الداخلية. ويمر الهواء في الأذن الوسطى التي تحتوي على ثلاث عُظيمات صغيرة (ossicles) تتصل بعضها ببعض بشكل يعمل على تضخيم ونقل الموجات الصوتية من الغشاء الطبلي إلى الأذن

الداخلية. ويُطلق على العظيمات الثلاثة اسم المطرقة (malleus)، والسندان (incus)، والركاب (stapes). والاسم العلمي الأمريكي لهذه العظيمات الثلاثة على التوالي هو:(hammer, anvil, stirrup). وتتصل الطبلة بالمطرقة التي تتصل بالسندان الذي يتصل بدوره بالعُظيمة الركابية. وتتصل هذه العُظيمة الركابية بغشاء النافذة البيضاوية الذي يهتز أيضا وينقل الترددات الصوتية إلى السائل الموجود في الأذن الداخلية.

وتتكون الأذن الداخلية من مجموعات متوالية من أكياس أو جيوب وأنابيب تقوم معا بأداء وظيفة السمع وحفظ التوازن. وهذا هو الجزء الأشد تعقيدا في الأذن كلها، وهو يتكون من فراغات ثلاث في فجوات داخل عظمة الصدغ. هذه الفراغات تُكَوّن ما يُعرف باسم التيه في الأذن الداخلية (labyrinth)، ويشمل الردهة (vestibule)، وقوقعة الأذن (cochlea)، والقنوات العظمية نصف الدائرية (semicircular canals)، وكلها تمتلئ بسائل يسمى بريليمف (perilymph). ويبطن الأغشية أطراف عصب شديد الحساسية لحركة السائل. وفي السائل الذي في القنوات العظمية نصف الدائرية يوجد قنوات غشائية تحتوي هي الأخرى على سائل يسمى إندوليمف (endolymph). وبشكل مماثل.. توجد قوقعة غشائية في سائل البريليمف الموجود في القوقعة العظمية التي يملؤها أيضا سائل الإندوليمف. وتؤدي الموجات الصوتية إلى اهتزاز الطبلة عندما تصطدم بها هذه الموجات، ويتم تضخيم هذه الاهتزازات والترددات بشكل كبير جدا عن طريق العُظيمات الثلاثة الصغيرة وهي المطرقة والسندان والركاب. وتنتقل أيضا عن طريقها إلى سائل البريليمف، الذي ينقلها بدوره خلال الأغشية إلى سائل الإندوليمف. ثم تنتقل تموجات سائل الإندوليمف إلى شعيرات في غاية الدقة، تتلقى هذه التموجات وتؤثر بها على شعيرات عصبية، وتنتقل على شكل نبضات عصبية عن طريق الأعصاب إلى المركز السمعي في المخ (cerebrum).

أما مهمة حفظ التوازن فتؤديها الأنابيب الثلاثة الحلقية التي في القنوات نصف الدائرية، والتي توجد على شكل زاوية قائمة، يتعامد كل منها على الآخر في مستويات ثلاثة. ويهتز السائل الموجود بها، عندما تدور الرأس أو تتحرك في أي اتجاه من المستويات الثلاثة، مهما كانت الحركة ضئيلة. وتنتقل الإشارات باستمرار عن طريق الأعصاب إلى المخ، حيث يتم تفسيرها هناك. وبهذا التفسير نعلم الوضع الذي نكون عليه، وفي أي اتجاه يتغير هذا الوضع. فالمستويات الثلاثة تغطي اتجاهات اليمين والشمال، والأمام والخلف، والأعلى والأسفل، وبدقة بالغة. إذ يتم تسجيل أقل حركة في أي اتجاه، وينتج عن ذلك إدراك في المخ بهذا الاتجاه.[1] وفي اللوحة السابعة رسم تخطيطي يساعد القارئ على رؤية تشريح الأذن كما تم بيانه فيما سبق.

لقد قمنا باختصار بتوضيح شكل ووظائف أجزاء الأذن. ويمكن الاستفاضة في هذا الوصف وزيادة الإيضاح بذكر الخلايا والأنسجة التي تتكون منها هذه الأجزاء، ومدى التعقيدات الداخلية التي تتركب منها. وما ذكرناه يكفي لإثبات الموضوع الذي نريد التأكيد عليه، وهو أن الأذن الخارجية عضو يتحدى كل نظريات النشوء والارتقاء بما تدعيه من بناء وتكَوّن تدريجي بطيء، قليلا قليلا. فكل جزء من أجزاء هذا العضو هو أساسي، ولا بد من وجوده لإتمام عملية السمع، وإذا تعطل أي جزء من هذه الأجزاء عن العمل، فإنه يتسبب في إفساد العضو بأكمله، أو إيقافه عن أداء وظيفته. ونحن ندعو جميع أولئك الذين يعتمدون على المبادئ الداروينية، ويعتبرون أنها وحدها تشكل الأسباب الرئيسية لعوامل التطور، ونسألهم أن يشرحوا لنا كيف أمكن لهذه الأعجوبة كاملة الروعة، ومعجزة العلم والتقنية، أن تُخلق مرحلة بعد أخرى خلال مليار أو حتى تريليون سنة، تحت تأثير العوامل المذكورة. هل يمكن للعلماء، بكل ما لديهم من معارف متقدمة وميكانيكيات الحياة، وعلوم طبيعية وكيميائية، أن يقوموا

بتصميم يماثل هذا العضو ليجعلوا عملية السمع ممكنة؟ فالآن، وهم يعلمون جميع تعقيدات التجاويف في عظام الصدغ والأذن الداخلية، هل يستطيعون أن يحاكوا هذا التركيب، ويقوموا بصنع أذن من مواد يقومون هم أنفسهم بتخليقها وتركيبها؟ هل يمكن لهم.. بصدق وأمانة.. أن يؤمنوا بأن هذه المعجزة البارعة يمكن أن تكون قد خُلقت هكذا بغير غرض أو مقصد أو هدف، وبدون تدبير وتصميم وتخطيط، بأدق التفاصيل، وإنما يتم كل هذا تحت تأثير الانتخاب الطبيعي الذي لا عقل لــه؟ فكلما استغرقت قوى الطبيعة العمياء وقتا أطول لخلق أعجوبة مثل الأذن البشرية، كلما صار من المستحيل أن تتم عملية تنظيم الأجزاء الْمُكَوِّنة لها في تعاقب وتتابع ذي معنى. لا شك أنه لا بد أن يكون هناك خالق على وعي وإدراك تام، وعلى علم كامل بالقوانين الطبيعية التي يمكن لــه تسخيرها في خلق هذه الآلة البارعة المتمثلة في الأذن البشرية.

غير أن العضو الخارجي الذي تحدثنا عنه، ليس وحده الذي يمثل المشكلة التي ينبغي لأصحاب مذهب التطور الأعمى أن يواجهوها ويجدوا لها حلا. ولنعد الآن إلى الحبال العصبية التي تنقل النبضات التي تستقبلها الأذن. إن صنع هذه الأعصاب في حد ذاته عمل مستحيل بغير أن يكون هناك تدبير عاقل مدرك. إذ لا بد من تخليق المواد المناسبة لتصنيعها، كما لا بد أيضا من إمدادها بالتيارات الكهربية بالقدر المحدد بإحكام تام. كذلك فإن الغلاف الذي يُغلف هذه الأعصاب يجب أن يُصنع أيضا من مواد خاصة، بحيث يمكن عزل كل عصب عن المحيط الخارجي، وحمايته من خطر التماس، مما ينتج عنه قصر الدائرة الكهربية وفساد العصب. ولا بد أن توجد بداية العصب في المكان المناسب بالأذن الداخلية، بينما لا بد أن يتصل الطرف الآخر للعصب بالمكان المعين في المخ، حتى يستطيع هذا العصب أن ينقل جميع الذبذبات حتى أدقها. وحين يتلقاها المخ يستطيع أن يفهم الرسالة الصوتية التي تحملها تلك الأعصاب. ونحن لا ننوي هنا

أن نشرح عمل المخ نفسه، فهي مهمة تصعب حتى على أكثر العلماء علما ومعرفة. إن دقائق كيفية تكوين المخ، وكيفية تأديته لجميع وظائفه، وكيفية نقله بدقة بالغة رسائل لها معنى، يقوم هو نفسه بحل رموزها في لغة من النبضات، تنتقل إلى كل المخ وأيضا إلى جميع أنحاء الجسم الحي، كلها أمور من المستحيل أن تكون قد حدثت هكذا بنفسها. فأنى لذكرى رسالة ما من التي تصل إلى المخ أن تُخزن وتُحفظ في الخلية المناسبة، التي يمكن أن يوجد منها ألوف الملايين، وكيف أنه في اللحظة التي يُراد فيها استدعاء أية رسالة من أعماق خلايا التخزين إلى سطح الوعي والإدراك، فإنها تظهر فجأة بغير أي عائق وبلا أي توان، كل هذه الأمور أيضا من المستحيل أن تكون قد حدثت بغير تصميم محدد وتدبير مخطط. فإن استدعاء أية رسالة وإحضارها إلى مستوى الوعي بهذه السرعة والدقة، يتطلب حاسوبا أكثر كفاءة وأشد دقة من كل الحاسوبات التي اخترعها الإنسان.

ولنتخيل تلك اللحظات من طفولتنا، التي كنا نضحك فيها على بعض الأصوات التي صدرت من بعض الحيوانات، أو من شخص ما حولنا. ومن الممكن – بعد مرور سبعين عاما – أن نسمع نفس ذلك الصوت مرة أخرى، فيثير فينا في التو واللحظة تلك الذكريات المخزونة منذ سبعين عاما، ويجعلنا نبتسم مرة أخرى. إن الجهاز الذي يمكننا من التعرف على الأصوات المتشابهة، مصمم بدقة بالغة، وفي إحكام متقن، حتى إنه ليحير العقل ويخلب لب أكثر الخبراء تقدما، ممن تفوقوا في علوم الصوتيات. فهل يمكن لأحد الأتباع المخلصين لداروين أن يصدق بأن كل هذه الأمور، التي هي في غاية الدقة، يمكن أن تخلقها اليد العمياء للانتخاب الطبيعي؟ ونحن لا نقصد مجرد خلقها كأجزاء منفردة، فإن ما يثير العجب في الأمر كله هو أن يتم تكوين هذه الأجزاء، كل منها على حدة وفي استقلال تام عن الأجزاء الأخرى، ومع ذلك تتوافق كلها بعضها مع بعض في دقة بالغة.

وكأنه حينما بدأت الأذن الخارجية في النمو، تصادف في تلك اللحظة بالذات أن بدأ عصب من الأعصاب ينمو بنفسه كذلك، بمجرد الصدفة، ثم راحت الأجزاء الأخرى تنمو أيضا وتأخذ شكلها المناسب، وكل منها لا يعي ولا يعلم شيئا عن وجود الأجزاء الأخرى. ورغم أن كل جزء من هذه الأجزاء معدوم القدرة على تصميم نفسه، وليس له من هدف ولا غاية، ومع ذلك فإن كل جزء من أجزاء الأذن يخدم غرضا أسمى وهدفا جماعيا لتحقيق حاسة السمع. هذه هي المشكلة المضاعفة التي نواجهها، والتي تتعلق بعضو واحد فقط، أو مجموعة من الأعضاء، يعتبر وجود كل منها ضرورة أساسية لكي يتمتع الإنسان بحاسة السمع.

وما وعدْنا به ليس فقط هو أن نناقش موضوع الأذن البشرية، وما تحتويه من نظم معقدة من الأعضاء، بل أن ندرس أيضا بعض الآذان الأخرى في المملكة الحيوانية التي لا يمكن تصور تعقيداتها، ولا يزال بعضها يشكل تحديا للخبراء أن يقوموا، على لوحات الرسم، بتصميم يشبه آذان بعض الحيوانات بنفس الخواص التي تنفرد بها.

ولنبدأ بالبومة.. التي تعتبر رمز الحكمة في الغرب، ورمز الغباء المطلق في الشرق. ولكن مهما بلغت حكمة البومة فإنها لا تستطيع أن تصمم أي جهاز للسمع، ناهيك عن أجهزة السمع الموجودة لديها، والوظائف السمعية شديدة الحساسية التي تؤديها أذُناها. ولكي نُلقي ضوءا على خصائصها الفريدة، فإننا نقترح على القارئ أن يقارن بينها وبين الجهاز السمعي لدى الإنسان. إن الأذن لدى الإنسان تنقسم إلى وعائين، كما هو الحال في معظم الحيوانات. والآذان متشابهة لدى معظم الحيوانات من الأنواع المتقدمة، وتخدم نفس الغرض. ويقوم المخ بإجراء توافق بين المعلومات السمعية التي تجمعها كل من الأذنين ويدمجها في صوت واحد، لكي يدلنا على اتجاه ومكان مصدر الصوت. وأولئك الذين يُعانون من ثقل السمع في إحدى الأذنين، يجدون دائما صعوبة في التعرف على المكان

الذي يصدر منه الصوت. فانفصال وضع الأذنين بعضهما عن بعض يدل في ذاته على عبقرية تصميم الصانع الذي أبدع صنعه. غير أن أصحاب مذهب الطبيعة الخالقة يرفضون وجود أي تصميم أو تخطيط يتعلق بهذه التحفة الرائعة من الهندسة الصوتية. لذا عندما يقول أحد إن هذا الإتقان المعجز لم يكن نتيجة تدبير واع، ولا هو من خلق كائنٍ عاقل عليم وقدير، بل إنه حدث هكذا بتأثير نظرية عديمة العقل لا تستطيع خلق شيء، حينذاك يغمر هؤلاء السعادة والانشراح، ويفتر ثغرهم عن ابتسامة عريضة ويقولون: *نعم.. الآن استطعت أن تفهم الموضوع على حقيقته.* فهل يا ترى تختلف ابتسامة البومة الحكيمة عن ابتسامتهم في مثل تلك اللحظات؟ ولكن.. لا نريد هنا أن نستفيض في هذا الموضوع.

إن أذني البومة ليستا فقط شديدتا التعقيد في تركيباتهما، وإنما هما



لا تدل أذنا البومة على تصميم معقد بشكل عام فحسب بل إنهما تقفان في تميّز بين آذان جميع الحيوانات، فأذناها الخارجيتان تختلفان قليلا في اتجاههما.

تنفردان بالتميز الخاص بالمقارنة مع آذان جميع الحيوانات. فالأذن الخارجية اليمنى تنحرف بعض الشيء في وضعها بالنسبة للأذن اليسرى، وهذا الانحراف مصمم بشكل دقيق جدا، وبمقياس محدد ليحقق بالضبط غرضا على جانب كبير من الأهمية. وأي تغيير عشوائي في هذا التصميم الدقيق

يتسبب في إفساد الأمر كله. والأصوات التي تنقلها الأذن الخارجية إلى الأذن الداخلية تنتقل فورا إلى المخ حيث يتم حل رموزها، وذلك بالرغم من تعقيداتها الشديدة. فالجهاز السمعي كله فريد في ذاته، دقيق في تركيبه، محكم في تكوينه، ليُمَكن البومة من أن تصطاد ضحيتها في الظلام المطبق وبدون أي خطأ.

لقد قام المجتمع العلمي في العالم، بعد أن أدهشته هذه القدرة العجيبة التي تتمتع بها البومة، بمهمة ضخمة لقياس وتحديد كفاءة الجهاز السمعي لدى البومة، وذلك باستعمال أحدث الأجهزة الإلكترونية الدقيقة. وحسب ما نعلم، فإن أهم الأعمال التي تمت في هذا السبيل قام بها البروفيسور ماساكازو كونيشي (Masakazu Konishi)، أستاذ السلوك البيولوجي في معهد كاليفورنيا للتقنية، مع نخبة من زملائه. وقد نُشرت بحوثهم في مجلة Scientific American التي صدرت في شهر أبريل (نيسان) عام ١٩٩٣.[٢] ورغم أننا قد اعتمدنا كثيرا على هذه البحوث في تقديم المعلومات التالية، فإن الوصف المختصر الذي قدمناه لا يفي بحق العمل البحثي الكبير، ويمكن لكل من يريد الحصول على المزيد من البيانات العلمية والاحصاءات العددية، أن يجد بغيته بالاطلاع على ذلك البحث العلمي القيم.

إن ميكانيكية الجهاز السمعي الذي تتمتع به البومة يمكنها من كشف أدق الأصوات التي قد تنتج عن حركة الفأر في سيره في ظلام الليل الدامس تحت أوراق الأشجار الساقطة. وتستطيع البومة أن تعرف بالضبط وبدقة بالغة كم يبعد مكان الفأر، وفي أي اتجاه، وفي أية بقعة بالتحديد يختفي. وتستطيع البومة أن تحدد المسافة التي تفصل بينها وبين الفأر إلى أقرب مليمتر. وفي الظلام المحدق، وبدون انبعاث أي صوت من رفرفة أجنحتها، تنقض البومة على الفأر وتنتزعه بمخالبها من مخبئه بدقة بالغة وكفاءة بارعة، حتى إن التربة لا تهتز تحت أقدام الفأر. فمن هو ذلك

الذي صنع هاتين الأذنين، وكيف؟ هل يمكن لأبرع جراحي التجميل في العالم أن يقوم بتغيير وضع وشكل الأذن البشرية لإنسان أعمى، مهما كان التغيير ضئيلا، حتى يستطيع تعويض الأعمى عن فقدان بصره، مما يمكنه من معرفة طريقه بالسهولة التي تستطيع البومة أن تجد طريقها نحو ضالتها في الظلام الحالك؟

إنهم يقولون لنا إن التطور الأعمى هو الذي خلق بمحض الصدفة هذه التحفة الرائعة الصنع، والانتخاب الطبيعي.. الذي لا يقوم بأي دور خلاق.. هو الذي اختارها للبقاء. أما كيف يستطيع أصحاب مذهب الطبيعة أن يحافظوا على هدوئهم رغم فظاعة معتقداتهم والتناقض الواضح في حقائق الخلق لديهم، فهو أمر يصعب حقا على العقل البشري أن يفهمه.

إن موضوع تركيب أذن الخفاش هو أيضا من الموضوعات المعقدة، ومن الصعب أن يُضغط الحديث عنه في حيز صغير. وتفاصيل تركيب الأذن الوسطى والأذن الداخلية لديه، رغم كونها تتفق بصفة عامة مع الأذن البشرية، إلا أنها تحتوي على بعض السمات الإضافية، التي تنفرد بها الخفافيش، وتتوافق تماما مع متطلبات طبيعتها.

والأمر الذي يستحق الملاحظة هو ما يتعلق بآذان الخفافيش التي تقتات على الفراشات. فإن جهاز السونار لدى هذا النوع من الخفافيش، وهو الجهاز الذي يبعث ويستقبل الموجات الصوتية لتحديد الهدف، يُعتبر من الدقة بمكان، حتى إنه يجعل أكبر العلماء حنكة في تصميم أجهزة السونار يشعر بالحرج والخجل. فهذه الخفافيش تستطيع أن تطير بسرعة عالية ومدهشة في الظلام الدامس، بينما تتوافق تماما أحبالها الصوتية وآذانها مع طبيعة الظروف التي تحلق فيها. ويحق للخفاش آكل الفراشات أن يضحك في سعادة حين يطير بسرعة مذهلة وهو يستمع إلى صدى الأصوات التي يبعث بها، فلو لم تكن لديه أجهزة عالية الكفاءة لحمايته، لكانت تلك الأصوات الحادة قد أفسدت أذنيه هو نفسه. وقد تم التغلب على هذه

المشكلة بخلق العضلة الركابية في الأذن الوسطى التي ترتبط بالعُظيمات الثلاثة الصغيرة المطرقة والسندان والركاب، وهي العظيمات الثلاثة التي تقوم بنقل الموجات الصوتية إلى الأذن الداخلية. ومع كل زعقة من الصوت يُطلقها الخفاش، تنقبض هذه العضلة فتسحب جانبا عُظيمة الركاب التي تمس طبلة الأذن، وبذلك لا ينتقل صوت الزعقة إلى الأذن الداخلية. إن تردد الزعقات وما يصاحبها من انقطاع لحظي لانتقال الصوت المنبعث إلى الأذن الداخلية، هو ما يتوقف عليه نجاح هذا الجهاز الذي لا يفشل أبدا، رغم سرعة تردد الزعقات.

فهناك من الخفافيش ما يطلق هذه الزعقات بسرعة ترددية تزيد عن ٢٠٠ زعقة في الثانية الواحدة، وتلاحق هذه العضلة في انقباضاتها بنفس هذه السرعة الترددية دون أي خطأ. ومع ذلك، فحين يصطدم الصوت المنبعث بأي هدف ويرتد إلى الأذن، يتجدد على الفور اتصال العُظيمة بالطبلة فينتقل صدى الصوت القادم إلى الأذن الداخلية فلا يضيع أي صدى، بل يسمع الخفاش صدى كل زعقة يبثها رغم ما لا يمكن إحصاؤه من مرات الانقطاع في نقل الصوت.[٣] أما كيف يستطيع الخفاش أن يقوم بهذا السحر العجيب، فهو أمر ليس من السهل إدراكه. ولنتصور صدور ٢٠٠ زعقة صوت في كل ثانية بدون أن تصل واحدة من الأمواج الصوتية المنبعثة إلى الأذن الداخلية، ومع ذلك تُعاود الأذن الداخلية اتصالها مع الأذن الخارجية ٢٠٠ مرة أيضا في تلك الثانية، لكي لا يضيع منها سماع صدى زعقة واحدة من الـــ٢٠٠ زعقة التي أطلقها الخفاش. وتقوم أذن الخفاش بهذه المهمة في وسط شديد التعقيد من وجود أصوات أخرى، وأصداء لتلك الأصوات، تصدر في طبقات صوتية ذات ترددات مختلفة. فهناك ألوف من الخفافيش تطير في غرفة من كهف حالك الظلام، ويستمر كل منها في إطلاق ملايين الزعقات التي تختلف في طبقاتها وتردداتها، ومع ذلك فإن الإشارات الصوتية التي تصدر عن الخفافيش لا

تتداخل بعضها مع بعض، وكأن لكل صوت سمة معينة تميزه عن الأصوات الأخرى كلها، وتمكن كل خفاش من أن يُفرّق بينها.

إن أشد ما يثير العجب في هذا الجهاز السمعي هو السيطرة الواعية على الذبذبات. فكلما تزايدت سرعة انبعاث الزعقات كلما تزايدت سرعة تجديد المعلومات في أجزاء صغيرة من الثانية، لكي يستطيع الخفاش أن يجد طريقه بسهولة تامة بين كل العقبات التي قد تعترضه أثناء طيرانه من الخفافيش الأخرى أو غيرها من الأشياء. فالخفاش يستطيع أن يجد طريقه بسهولة وأمان بين أغصان الأشجار التي لا حصر لها في الغابات كثيفة الأشجار المورقة، بدون أن يلمس أيًّا منها أو يرتطم به. وفي الكهوف التي تبيت فيها الخفافيش، تستطيع أن تتعرف على طريقها متفادية الاصطدام بجدار الكهف أو بالصخور الناتئة وسطوحها المتعرجة. ولا يحدث أبدا أن يرتطم رأس الخفاش بواحد من ألوف الخفافيش التي تطير معه في نفس الكهف إلا ما شذ وندر من الحوادث العرضية. إن الخفاش يستطيع أن يتبين وجود العوائق التي تعترضه، حتى ولو كان العائق عبارة عن خيط أدق من الشعرة، فهو يستطيع أن يتفادى الاصطدام بها. ويتم كل هذا عن طريق إشارات صوتية، تخضع حدتها وطبقاتها وتردداتها لسيطرة الخفافيش.

وعند الحاجة.. تستطيع بعض الخفافيش أن تُصدر ٢٠٠ زعقة في الثانية، يستمر كل منها لمدة جزء واحد فقط من ألف جزء من الثانية الواحدة، مما يترك فسحة من الوقت بين كل منها، وذلك يتيح الفرصة للجهاز السمعي الداخلي أن يلاحقها. فخلال فترة زمنية تبلغ جزءا من ألف جزء من الثانية، ينقطع الاتصال بين العُظيمة التي تناظر عظيمات (ossicles) لدى الإنسان، مع طبلة أذن الخفاش، ثم يعود الاتصال ثانية قبل أن يرتد صدى الصوت مرة أخرى إلى الأذن، بغير أن يفشل هذا النظام ولو مرة واحدة في هذه الفترة الزمنية بالغة القصر والضآلة.[٣] ويحدث كل

هذا بإرادة الخفاش، فهو يعرف كيف يرفع أو يخفض ذبذبات هذه الإشارات، وله السيطرة الكاملة على طبقة الصوت، فيزيد من حدهّا أو يقللها تماما كما يريد. ويمكن له أن يختار التردد الصوتي الذي لا يتداخل مع مئات الألوف من الإشارات الصوتية للخفافيش الأخرى. وإن المرء ليعجب حقا.. كيف استطاعت يد الانتخاب الطبيعي أن تُشكل آذان الخفافيش هذه، وحلوقها، وأمخاخها، بمثل هذه الدقة البارعة وهذا التوافق التام. وإذا تصادف وجود الإنسان في المكان الذي تطير فيه الخفافيش، فإنه لا يسمع أيا من زعقاتها، فمعظمها من طبقة صوتية لا تستطيع أن تسمعها الأذن البشرية، ولو استطاع الإنسان سماعها لتسبب ذلك في انفجار طبلة الأذن لديه، ولكن لحسن الحظ.. كل ما يستطيع الإنسان أن يسمعه وهو يقف في وسط كهف تأوي إليه الخفافيش، أو تنطلق منه عند غروب الشمس، هو السكون التام المطبق.

إن عدم استعمال العينين لفترة طويلة من الزمن يصيبها بالضعف والضمور، تماما مثل الأطراف البشرية التي إن لم تُستعمل لزمن طويل فإنها تفقد حيويتها وفعاليتها. وأي عضو يتوقف استعماله لفترة زمنية طويلة يصيبه الضمور والتضاؤل فيقل حجمه، ويظل هذا التضاؤل والضمور إلى أن ينطمس ويختفي من الوجود. وهذه الظاهرة هي من ظواهر الحياة التي لا تستثني شيئا، وعلى ذلك فإن عيون الخفاش آكل الفراشات قد تقلص حجمها هي الأخرى، حتى صارت في حجم صغير جدا، وتبدو لمن يراها كأنها مجرد ثقبين في رأس الخفاش. أما الخفافيش التي تقتات على الفواكه، فلها عيون واسعة جميلة، تستطيع أن ترى وتحدد الشكل والمكان.

وعودة إلى موضوع تركيب أذن الخفاش، فبالإضافة إلى ما قيل عن تعقيد الأذن البشرية التي تتشابه مع أذن الخفاش، تتميز هذه الأخيرة بوجود عضلة إضافية تعمل بدقة على تفعيل أو تعطيل الجهاز السمعي، وتُشكل هذه العضلة تحديا كبيرا لأولئك الذين يؤمنون بمذهب التطور الطبيعي. فإذا

أُبطل عمل هذه العضلة الصغيرة التي تقوم بعملها في آذان الخفافيش آكلة الفراشات، لصار الجهاز السمعي كله بغير تأثير ولا فعالية. فكيف يستطيع الانتخاب الطبيعي أن يقوم بأي دور في خلق وانتخاب هذه العضلة؟ إن التركيب الدقيق لهذه العضلة الصغيرة، والمكان المحدد الذي توجد به، لا يدل أبدا على أن الانتخاب الطبيعي له أي دور في ذلك. فالدور الوحيد الذي يمكن أن يقوم به الانتخاب الطبيعي هو أن ينتظر إلى أن تقوم الطفرات بإحداث تغييرات عشوائية، وفي أشكال مختلفة ومتعددة، وفي أنماط وطرز متباينة ومتكررة، وحينئذ يستطيع الانتخاب الطبيعي أن يختار منها شكلا معينا. ولكن من المستحيل تصور أن هذه العضلة المعينة، بوظيفتها المحددة، يمكن أن تكون قد خُلقت بواسطة أية قوى خلاقة بغير أن يكون قد سبق ذلك تدبير واع، وعلم كامل، وقدرة واسعة، وتقنية بارعة. إن الآلات الدقيقة التي تُصنع من أجل غرض معين مثل تلك العضلة، لا يمكن أبدا أن تكون من نتاج العشوائية.

وبالمناسبة.. هناك مثال آخر بين الطيور، هو أيضا فريد في نوعه ودقيق في تركيبه، وهو يحمي الطائر من كل التأثيرات الضارة التي تسببها القدرة الوظيفية لهذا الطائر، وهي قدرة فريدة في المملكة الحيوانية.

إن منقار طائر نقار الشجر يضرب بسرعة بالغة في أماكن معينة من جذوع الأشجار، حيث يكون الطائر قد حدد مكان وجود الديدان بعد أن يكون قد استمع بإرهاف شديد لحركة زحفها. فيبدأ الطائر في الضرب بمنقاره بسرعة كبيرة تبلغ مئات الضربات الشديدة في الثانية الواحدة، الأمر الذي يخيف الديدان فتخرج من مخابئها، فيتمكن نقار الخشب من التقاطها بلسانه المطاطي الطويل. وسرعة النقر مهولة حتى إن الإنسان لا يستطيع أن يميز بين هذه النقرات، بل تبدو له كأنها صوت واحد متصل مشوب بشيء من الترددات. إن هذه القدرة الوظيفية لا مثيل لها بين الطيور، ولا مثيل أيضا للجهاز الفريد الذي يقوم بحماية مخ

الطائر من الضرر الذي يمكن أن يصيبه من جراء الموجات التصادمية الشديدة الناتجة عن الضربات القوية التي يسددها بمنقاره.

فبين منقار الطائر ومخه يوجد غشاء يفصل بينهما ويمتص الصدمات، وهو بذلك يمنع الموجات الناتجة عن الاصطدامات القوية من الوصول مباشرة إلى المخ. ولا يوجد طائر آخر يستطيع أن يضرب بهذه القوة وهذه السرعة، ولذلك لا يوجد طائر آخر لديه هذا الغشاء لحمايته. وهذا مثال آخر يُبين كيفية حماية الحيوان من أخطار القدرات الوظيفية التي يقوم بها. ونحن نعجب إن كان أحد من أصحاب مبدأ الطبيعة يستطيع أن يبين لنا أيًّا من الأساليب العشوائية اتبعه الانتخاب الطبيعي ليختار هذا الوضع.

ولنعد الآن إلى الموضوع الرئيسي الذي نعالجه، وهو الأذن والموجات الصوتية وأجهزة السونار. ولننتقل من الهواء الذي تحلق فيه طيور الظلام لنغوص في أعماق مياه البحار العكرة والأنهار الطينية مثل نهر الأندس والجانجس والأمازون، لنرى كيف تواجه الحيوانات هذه البيئة العكرة، وكيف تتحرك وتتعرف على طريقها فيها.

تتميز الدرافيل بأن لها أجهزة سونار فائقة الكفاءة، تستخدمها لأغراضها في البحار الواسعة، وأيضا في الأعماق الطينية في المحيطات وفي الأنهار. فالعكارة الطينية السميكة الراكدة تعوق قدرة الدرافيل على رؤية أي شيء أمامها، حتى ولو كانت على بعد بضع سنتيمترات. وما تحتاجه الدرافيل ليس فقط عيون لترى بها، ولكنها تحتاج إلى أجهزة سونار قوية، وهي التي تتزود بها جميع الدرافيل. وهذا الجهاز شديد التعقيد ويتوقف في عمله على أمور متداخلة حتى إنه يحتاج إلى دراسة خاصة. وتوجد في رأس الدرفيل قنوات وجيوب يقوم من خلالها بضغط تيار من الهواء ضغطا شديدا ويدفع به إلى مقدمة الرأس. وفي مقدمة رأس الدرفيل يوجد عضو كبير تملؤه الدهون، وهو بيضاوي الشكل كالقاوون أو فاكهة الشمّام ويُسمى ميلون (melon). وحينما يضرب الهواء المضغوط على الميلون يثير

فيه نشاطا خاصا فتبدو منه ظاهرة في غاية الغرابة. فهذه الكتلة من الدهون تتحول على الفور إلى محطة سونار، وتعمل كأنها عدسة تبث شعاعا من السونار يتحرك أمام الدرافيل، بغير أن يتأثر بكدورة الماء أو بالطين.

ويستطيع الدرفيل أن يصدر سبعمائة إشارة من السونار في الثانية الواحدة، ترتد إليه مرة أخرى حين تصطدم بشيء صلب. ويقوم مخ الدرفيل عن طريق الصدى المرتد بحساب المسافة التي تفصل بالضبط بين الدرفيل وذلك الشيء الصلب، ويتبين أيضا طبيعته وشكله. وهو يستطيع أن يتعرف على أي شيء معدني يربض في القاع، كما يستطيع أن يعرف ما إذا كان فارغا أو مملوءا. وكذلك يستطيع أن يُفرق بين الأشياء الحية وغير الحية. ويستخدم الدرفيل نفس هذه الخاصية في تحديد أماكن أفواج السمك في البحار الواسعة، حتى ولو كانت على بعد أميال أمامه. وبمساعدة جهاز السونار لديه.. يقترب الدرفيل من قطيع السمك، ثم يُطبق عليه بسرعة وهو يلتهم مجموعة الأسماك الواحدة تلو الأخرى.[٤] هل في استطاعة الانتخاب الطبيعي أن يخلق هذا الجهاز الرائع لبث إشارات السونار، ثم يخلق أجهزة الاستقبال في المخ التي تستطيع أن تفسر صدى هذه الإشارات بهذه الدقة البالغة؟ هل يستطيع أحد أصحاب مذهب الطبيعة أن يصنع كتلة مماثلة من الدهون تنتج شعاعا من السونار؟ وحتى لو استخدم جميع التقنيات المتاحة اليوم.. فإنه لن يستطيع أن يجعل كتلة من الدهن تُصدر موجة واحدة من السونار، ومع ذلك فإن ميلون الدرفيل يستطيع أن يصدر ٧٠٠ من أمواج السونار في الثانية الواحدة.

إن الموجات التي كانت تنطلق من مخ داروين، والتي يعتقد أصحاب مذهب الطبيعة أنها قد نجحت في حل لغز الحياة، لم تستطع أن تنتج سوى ثلاث قواعد ميتة، وهي الصراع من أجل البقاء، والبقاء للأصلح، والانتخاب الطبيعي، زاعما أنها هي التي صاغت ونظمت الحياة. ويُفضل أصحاب مذهب الطبيعة أن يتناسوا أن هذه القواعد الثلاث هي في الواقع

قواعد ميتة، خرساء، بكماء، وعمياء، وأنها ليست قواعد خلاقة، ولكنها تعمل فقط حين يكون هناك خالق قد أوجد لها ما يمكن لها أن تؤثر عليه. إن على أصحاب مذهب الطبيعة أن يُبَينوا أولا العمليات الخلاقة التي تسببت في خلق الجهاز السمعي لدى الدرفيل، وحينئذ فقط يستطيعون أن يتحدثوا عن الانتخاب الطبيعي وعما عساه أن يكون قد فعل بذلك الجهاز. إننا نطلب منهم فقط ألا يخلطوا بين أمرين مختلفين، وهما الانتخاب الطبيعي والعوامل الخلاقة. فأية عوامل خلاقة تلك التي كانت تعمل في حالة الدرفيل أو الخفاش، وكيف استطاعت تلك العوامل أن تقوم بالتدريج بصنع هذه الأجهزة إلى أن بلغت درجة الكمال؟ وكيف استطاعت المبادئ الداروينية أن تقوم بمساعدة الخالق المجهول في كل مرحلة من مراحل الخلق، قبل أن تكتمل في النهاية في شكلها الحالي؟

والآن لا بد أن ننتقل لمناقشة خاصية البصر، ولنبدأ بوصف مختصر لتركيب العين البشرية.

فالعين.. كما سوف نبين.. عضو في غاية الحساسية والتركيب المعقد. وهي لذلك محمية بحماية طبيعية خاصة وبعناية شديدة. فالنصف الخلفي من العين محميٌّ بعظام الجمجمة، بينما تقوم الأجفان والرموش بتوفير الحماية للنصف الأمامي أو الجزء الخارجي من العين.

ويوجد جيب يفصل بين الجزء الداخلي من العين ومقلة العين نفسها، ويبطن ذلك الجيب غشاء ظهاري، يساعد في القضاء على بعض البكتريا التي تسبب الأمراض، والتي قد تدخل من خارج العين.

وإذا حدث أن دخل جسم غريب صغير إلى منطقة الجفن، ينشط على الفور جهاز الدفاع الطبيعي، وتحاول الحركة السريعة للجفن، والدموع التي تطلقها الغدد الدمعية والتي تحتوي على أنزيم مضاد للبكتريا، أن تدفع ذلك الجسم الغريب إلى الخارج. وتُصرَف الدموع في قنوات دمعية موجودة في الجوانب السفلى من فتحة العين وتؤدي إلى التجويف الأنفي.

وتستقر مقلة العين نفسها على وسائد دهنية لحمايتها في تجويف العين، وترتبط مقلة العين بزوجين من العضلات يمتدان من داخل تجويف العين إلى المقلة، وهي العضلات التي تحرك العين.

وللعين شكل يكاد أن يكون كرويا (اُنظر اللوحة رقم ٨)، وتتكون جدران مقلة العين من ثلاثة طبقات:

١- الصُّلبة: وهي الطبقة الخارجية للعين، وتتكون من غشاء متين أبيض رابط، وهو ما يُعرف عادة باسم بياض العين. وهو يبرز قليلا في المقدمة كما أنه شفاف، ويُكَون القرنية.

٢- المشيمية: وهي الطبقة الوسطى، وتتكون من شبكة رقيقة من غشاء رابط غني بالأوعية الدموية. وتحيط هذه الطبقة بالعين كلها عدا إنسان العين، وهي فتحة صغيرة في هذا الغشاء عند مقدمة العين، وتقع مباشرة خلف القرنية. وتتلون طبقة المشيمية حول إنسان العين، وهي ما يعرف باسم الحدقة أو قزحية العين، وهو ما يعطي العين الألوان المختلفة، مثل اللون البني، أو الأزرق، أو الأخضر، أو البندقي، أو خليط من هذه الألوان. وإنسان العين هو الذي يتحكم في كمية الضوء التي تدخل العين عن طريق العدسة البلورية المحدبة التي تلتصق بالمشيمية عن طريق العضلات الهدابية. وحين تنقبض هذه العضلات تُمكن العين من التركيز على الأشياء المرئية سواء كانت قريبة أو بعيدة. والرطوبة المائية للعين عبارة عن محلول مائي يملأ المنطقة بين القرنية والعدسة، وهو يساعد على المحافظة على تحدب القرنية إلى الأمام. وتمتلئ المنطقة كلها خلف العدسة بمادة شفافة أكثر كثافة، وتُعرف باسم الرطوبة الزجاجية في العين، وهي ضرورية لإبقاء مقلة العين ثابتة وفي شكلها الكروي.[٥]

٣- الشبكية: وهي الطبقة الداخلية الباصرة، ويقل سمكها من مليمتر واحد، وتحتوي على عشر طبقات مختلفة من خلايا تُعرف باسم الخلايا المستقبِلة (receptors) وخلايا العقد (ganglia) والألياف العصبية (nerve fibers).[٦] والخلايا

المستقبِلة، التي يُفضل أن يُطلق عليها اسم الخلايا البصرية (photoreceptors)، تتكون من نوعين: الخلايا البصرية المخروطية، والخلايا البصرية العَصَوية. وفي العين البشرية يوجد حوالي ١٣٠ مليون خلية عصَوية لرؤية اللونين الأبيض والأسود، ولكن يوجد فقط ٧ ملايين خلية مخروطية لرؤية الألوان الأخرى.[٧] والضوء الذي يتركز على الشبكية يقوم بتنشيط الخلايا البصرية المخروطية والعصوية. وتؤدي الخلايا المخروطية وظيفة فصل الضوء إلى ألوان مختلفة. وإذا أصاب هذه الخلايا ما يُعطلها عن العمل فإن الإنسان يُصاب بعمى الألوان. وخلال ضوء النهار الساطع تكون الخلايا المخروطية وحدها كافية لتقوم بكل متطلبات الرؤية، وفي هذه الحالة تظل الخلايا العصوية بغير فائدة، إلا أن ضرورة وجودها تظهر عند قلة الضوء أو في الظلام. ففي الضوء الخافت، أو في الظلام الحالك، تقوم الخلايا العصوية بوظيفة الرؤية، غير أنها تستطيع أن تُفرق بين اللونين الأبيض والأسود فقط. أما الخلايا المخروطية فهي لا تستطيع أن تقوم بأية وظيفة في هذه الظروف، فعندما يزداد خفت الضوء تشحب الألوان كلها أو تختفي كلية. وعندما ينتقل المرء من مكان يسطع فيه الضوء إلى حجرة مظلمة، فإن الوقت الذي يستغرقه لكي يستطيع الرؤية مرة أخرى، هو الوقت الذي تستغرقه الخلايا العصوية لاستعادة نشاطها وفعاليتها. وكل من الخلايا المخروطية والعصوية تنقل نشاطها إلى خلايا العقد الموجودة بجوار مقدمة الشبكية، وحين تنشط هذه الخلايا تقوم بالنبض لتنشيط العقد التي في المقدمة. ومن هذه الخلايا هناك أكثر من نصف مليون خلية عصبية تحمل هذه النبضات إلى عصب أكبر يسمى العصب البصري. والمنطقة التي يتصل فيها العصب البصري بالشبكية تسمى المنطقة العمياء، لأنه لا توجد فيها أية خلايا مخروطية أو عصوية.

خلف كل من المقلتين توجد أعصاب بصرية منفصلة تقوم بوظيفة نقل ما تراه العين إلى الجزء الخلفي من المخ حيث يوجد المركز البصري.

وينقسم هذا المركز إلى فصين، يختص كل فص بإحدى العينين. غير أن بعض الأعصاب البصرية تمتد من المقلة اليمنى إلى الفص الأيسر، وأيضا من العين اليسرى إلى الفص الأيمن، وبذلك يستطيع كل من الفصين في المركز البصري تمييز ما يراه المرء بكل عين على حدة.[٨] والصورة التي تتكون بواسطة الشبكية تكون مقلوبة، ولكن المركز البصري يقوم بجعلها معتدلة. ويقوم المركز العصبي بأداء وظائف هامة أخرى أيضا، فالصورة التي تتكون تكون عادة بالغة الصغر، ولكنها تُكَبر إلى حجمها الطبيعي، وما نراه نحن بعد تكبيره يكون في بعض الأحيان أكبر مئات الألوف أو مليارات المرات عن الصورة الأصلية. وليلق المرء بنظرة نحو النجوم، ورغم أن صورة أديم السماء الواسع تشغل بقعة بالغة الصغر في المخ، إلا أنها تزيد في حجمها عدة تريليونات من المرات عن حجم الصورة الأصلية التي تقع على الشبكية. إن هذه العملية المدهشة لا يؤديها العضو البصري، أي مقلة العين وحده، بل يؤديها الجهاز البصري بأعضائه الثلاث الرئيسية. غير أن أعظم الأعمال هو ما يظهر من المحصلة النهائية لتكوين الصورة، وهو ما يتم تنفيذه بالمركز البصري في المخ.

وتقوم الشبكية بصنع بعض المعجزات أيضا. فهي تقوم بالمهمة التي يقوم بها الفيلم الذي تُسجل عليه الصور المرئية، ثم تُمسح الصور في التو واللحظة ليتم استبدالها بصور جديدة، وهو عمل من المستحيل أن تقوم به أشرطة تسجيل الصور التي صنعها الإنسان. أما المركز البصري في المخ فهو يقوم بأمور أكثر إعجازا، فهو يقوم على الفور بتخزين الصور المرئية بحجمها الطبيعي في مكان ما في ذاكرة التخزين شديدة التعقيد. وخلال فترة حياة المرء يمكن تسجيل وحفظ مليارات الصور في تلك الذاكرة. ويمكن للشخص صحيح العقل أن يسترجع في لحظة صورا تم تخزينها في طفولته المبكرة، بنفس ألوانها، وبنفس الجو الذي كانت فيه، وبنفس حجمها الطبيعي وشكلها الحي. كذلك فإن كل ما كان يتعلق بصورة

ما، مهما كان بعيدا من ناحية الزمن، فإنه أيضا يتم استرجاعه حينما تُستدعى الصورة من الذاكرة. وهكذا، يمثل المخ العضو الثالث في هذا النظام من الجهاز البصري.

وهناك الكثير من البحوث العلمية الهامة التي تم إجراؤها على مسببات الخوف لدى مختلف الحيوانات وتأثيرها على المخ، باعتباره العضو المستقبل لما تبعث به أعضاء السمع والرؤية. وقد اكتشف العلماء أن انطباع الخوف على نسيج المخ، سواء كان قد تسبب عن طريق الصوت أو الرؤية، هو انطباع دائم. ويمكن التخفيف من رد الفعل لدى الحيوان لهذه الانطباعات أو محوها عن طريق العلاج النفسي أو العلاج الدوائي، ولكن انطباع الصورة نفسه يظل موجودا على الدوام. لقد أعيا الجهاز البصري بأكمله جميع محاولات العلماء في العصر الحديث لفهمه فهما كاملا. ولا توجد أية آلة سمعية أو بصرية محتوية على ثلاثة أعضاء من صنع الإنسان يمكن أن تتماثل مع الكفاءة والتوافق المدهش لهذه الأجهزة الثلاثة العجيبة التي تحدثنا عنها. وكان من الأولى بأصحاب مذهب الطبيعة أن يقوموا بإجراء البحوث في هذا المجال ليكتشفوا ما هي تلك القوى التي تقوم بدور خلاق متناسق ومتناغم بهذا الشكل الرائع. ولكنهم لن يحاولوا القيام بهذا، ربما لأنه من الواضح أنهم سوف يجدون أن هذه القوى تشير إلى الله تعالى الخالق، ولا تشير إلى داروين. ونحن نتحدث هنا عن البيولوجيا الداخلية وميكانيكيات الحياة، وليس عن القوى الخارجية التي تعمل بعمًى وليس لها أية علاقة بالميكانيكيات التي ذكرناها.

وكما ذكرنا في هذا الكتاب من قبل، إن بداية الرؤية لا تبدأ بخلق العيون. إنه إحساس شامل من الوعي الذي ظل يتنامى في الكائن الحي مما أدى إلى نمو عضوي. وقد تم حديثا إجراء بعض الأبحاث العلمية المكثفة في العالم المظلم، مئات الأمتار تحت سطح مياه البحر، ثم اتسع البحث ليصل إلى قاع البحر على عمق بضع كيلومترات. ويختفي الضوء تماما عند عمق

ما يقرب من ٢٠٠ متر. وفي هذا البحث تم العثور في هذا العالم السفلي المظلم على بعض الحيوانات التي ليس لها عيون على الإطلاق، ومع ذلك فقد أبدت تفاعلا مع وميض الضوء الخافت الذي ينبعث من الحيوانات الفوسفورية المتألقة. وقد أمكن إجراء هذا البحث بمساعدة آلة الكترونية حديثة ذات كفاءة عالية تسمى فنتانا (Ventana)، لم تكن تحمل أي قائد، وإنما كان يتم التحكم فيها عن بعد بواسطة كابلات تُستعمل أيضا لتزويد تلك الآلة بتيار مستمر من الكهرباء. ونفس الكابلات كانت تحمل المعلومات إلى العلماء الجالسين في السفن عاليا، وهم يراقبون عن كثب هذه التجارب ليلَ نهارَ. وقد نُشر تقرير مثير عن هذه التجربة في مجلة Scientific American في عددها الصادر في يوليو (تموز) ١٩٩٥.[٩] وبين الأمور الغريبة التي كشفت عنها هو أن نوعا من أنواع قناديل البحر، ويدعى ميديوسا (Medusa)، ليس لها عيون على الإطلاق، ورغم ذلك فقد أبدت تفاعلا مع الضوء المنبعث من الروبوت فنتانا، وذلك بأن راحت تغطس إلى الأعماق حيث الظلمة الكاملة. وهذا هو بالضبط ما سبق أن قلناه.. إن الإحساس الخافت في الأحياء، وهم في أدنى مستوى من وجودهم، هو ذلك الذي استعمله الخالق ﷻ ليؤدي إلى وجود أعضاء الحس. إن كل بداية تكون غالبا في منتهى البساطة، وغالبا ما تتحول بعد ذلك في مراحل نموها إلى تطورات مدهشة. والخطوة التالية لهذا الإحساس الشامل، كما عبر عنه قنديل ميديوسا، لا بد أن تكون عينا تماثل كاميرا أو آلة تصوير صغيرة في حجم ثقب الدبوس وبدون عدسة، وهذا هو بالضبط ما نجده في الطبيعة. ولكن حتى هذه العين المتناهية في الصغر لا يمكن أن تصنعها المبادئ الداروينية، لأنه حتى في هذه المرحلة البدائية، فإن العين تمثل جهازا بصريا متكاملا، وليس مجرد ثقب عشوائي. وهذه الحيوانات التي عيونها في حجم ثقب الإبرة نجد أن لها زوجا من هذه العيون بدلا من عين واحدة، تجمعان المعلومات سويا، وفي توافق متبادل، وترسلان بها إلى وعاء

خلفي ينقلها بدوره إلى إحساس داخلي يمكن وصفه مخًّا بدائيًا. وبالإضافة.. إن الجهاز البصري الذي نراه في الإنسان، نراه أيضا في صورة متكاملة في الأجهزة البصرية لدى الحيوانات القديمة التي كانت تعيش منذ مئات الملايين من السنين. وهذا يقلل بشكل كبير الزمن المتبقي تحت تصرف التطور الأعمى منذ بداية خلق هذه الحيوانات. ومعظم الحشرات قد وُجدت ولها أجهزة بصرية متكاملة، وبعض حفريات الأسماك في أستراليا التي يبلغ عمرها حوالي خمسمائة مليون سنة، كان لها حفرتان كبيرتان تدلان على وجود عينين كبيرتين.[١٠] وهذا بالتالي يخفض فترة الزمن اللازم إلى مجرد خمسمائة مليون سنة، حتى يتمكن ما يسمى بالتطور المرحلي.. رويدًا رويدًا.. من تكوين عيون الحيوانات، مما يعد زمنا قصيرا للغاية، لا يكفي لأن تتطور فيه هذه العيون. ولا بد من ملاحظة أن هذه الفترة الزمنية يجب أن تُقسم أيضا إلى أجزاء أصغر، حيث يُستهلك جزء منها في إيجاد الوحدات الأولى للحياة. وعلى أية حال.. فإن كل الزمن المتاح منذ البداية إلى نهاية اكتمال تحقق الحياة هو في ذاته قصير جدا، كما أنه يمثل فترة ضئيلة جدا بالمقارنة مع الزمن الذي يقتضيه التطور. إن بناء الوحدات الأولى للحياة يستغرق زمنا أطول من الزمن الكلي الذي يقتضيه التطور بشكل لا يمكن تصوّره، ومع ذلك.. فإن هذا أيضا يجب أن يتم في هذه الفترة القصيرة. هذا هو حجم المعضلة التي يواجهها العلماء. أما معضلة بقية العالم التي تبغي حلا فهي ما إذا كان يجب أن يبكي أو يضحك على هؤلاء.

إن كل العيون، حيثما وُجدت في المملكة الحيوانية، تؤدي وظيفتها على أساس علمي، وقد جاء تصميمها لكي تؤدي الغرض الذي وُجدت من أجله، وهي في توافق تام مع ما يحيط بها. إن انتفاء الهدف يلغي وجود أية آلة تؤدي مهمة ما. فلو أن آلة بدائية قد وُجدت قبل أن تُستعمل لغرض ما، فإن هذا الغرض لا بد أن يكون قد وُجد من قبلها. وهذا هو

المنطق البسيط لحقائق الحياة.

إن الإنسان بدأ يستخدم الأحجار. ولعل هذه الأحجار كانت موجودة بغير غرض معين، ولكن في اللحظة التي نرى فيها هذه الأحجار وقد تشكلت في شكل فؤوس وصارت لها مقابض متصلة بها، فلن يكون هناك إنسان عاقل يقول بأن حتى هذه الآلات البدائية قد صُنعت بالصدفة وبغير غرض معين. وما تعرضه لنا الحياة أشد تعقيدا مليارات المرات. وكل عضو مخلوق يؤدي وظيفة معينة، وقد صُمم بالضبط لكي يؤدي هذه الوظيفة. ولأن يُقال إنها كانت رحلة للخلق بغير أي غرض، لهو بالفعل أشد أنواع العماية.

المــــــراجع

1. Anatomy Notes (details not listed).
2. KONISHI, M. (April 1993) *Listening with Two Ears.* Scientific American: pp.34-41
3. DAWKINS, R. (1996) *The Blind Watchmaker.* Penguin Books Ltd, England, pp. 27-29
4. DAWKINS, R. (1996) *The Blind Watchmaker.* Penguin Books Ltd, England, pp. 96-97
5. Anatomy Notes (details not listed).
6. OTTO, J. H., TOWLE, A. (1077) *Modern Biology.* Holt, Rinehart and Winston, Publishers, USA, p.592
7. *The Hutchinson Dictionary of Science* (1993) Helicon Publishing Ltd. London, p.224
8. OTTO, J.H., TOWLE, A. (1077) *Modern Biology.* Holt, Rinehart and Winston, Publishers, USA, pp.593-594
9. ROBISON, B.H. (July, 1995) *Light In The Ocean's Midwaters.* Scientific American, pp.51-56
10. LONGO, JOHN A, (1995) *The Rise of Fishes 500 million years of Evolution.* University of New South Wales Press, Australia. (Also worthy of study are his other works on fishes like *The Rise of Fishes* (1957)).

الفصل الحادي عشر

صانع الساعة الأعمى
الذي هو أيضا أصم وأبكم

وفاء لما سبق أن وعدنا به في مقدمة هذا الباب، نتحول الآن إلى كتاب "صانع الساعة الأعمى" [١] لريتشارد دوكينْز (Richard Dawkins) الذي صار يُعرف باسم البروفيسور دوكينْز.

في البداية.. لم تكن قراءة هذا الكتاب أمرا يبعث الراحة في النفس، لأن البروفيسور دوكينْز كان يبدو أنه يتحاشى مواجهة المعضلات الحقيقية لوجود الحياة، رغم أنه يعرفها جيدا ويعترف بوجودها. ولم يلبث أن راح يُخفي نظرياته خلف ستار من ربكة مفتعلة من صنعه. وليس من الممكن تناول جميع النقاط التي ذكرها، لأن معظمها لا يتعلق بموضوعنا ولا يوجد من ترابط بينها. غير أنه حين يكتب عن الحياة الحقيقية والأسرار التي تحفل بها، فإنه يفعل هذا كأي عالم مجرد من التعصب، وبغير أن يحاول ليَّ الحقائق لتحقيق أغراض أو دوافع خفية، وهنا يظهر دوكينْز في أحسن حالاته. ولكن المشكلة هي أنه عندما يكون في أحسن أحواله، فإنه يكون أيضا في أسوأ أحواله فيما يتعلق بأسباب الانتخاب الطبيعي. فليس هناك معالجة أمينة لحقائق الحياة يمكن أن تؤدي لفكرة أن الحياة بما تحمله من تعقيدات يمكن أن تكون قد خُلقت هكذا بغير خالق يتصف بالوعي والإدراك، بينما يفتقدهما الانتخابُ الطبيعي. ولكي يتجنب مواجهة هذا الاستنتاج المنطقي الذي لا يمكن تحاشيه أو الانفلات منه، فقد أسرع بالهروب إلى عالم وهمي غير واقعي من صنع خياله – وكأنه قد خلق عالما من عوالم ألعاب الكومبيوتر. كذلك فقد راح يحاول المقارنة بين تعقيدات الآلات التي اخترعها الإنسان وتعقيدات الطبيعة. وحاول إيهام القارئ

بأن تعقيدات وعجائب الآلات التي خلقها الإنسان هي بالفعل حقيقية، وقد أُحكم تصميم وتصنيع هذه الآلات من أجل تحقيق أغراض معينة، أما تعقيدات وعجائب الطبيعة، التي تفوق آلات الإنسان في الغرابة والإعجاز، فإنها لم تُخلق بتصميم سابق، ولا لتحقيق غرض لاحق.

وهو هنا يشوش فكر القارئ غير الحذر وغير المتيقظ، ليهيم به هنا وهناك، ويأخذه إلى الأمام وإلى الخلف، ويجوب به في دهاليز الواقع الذي يكتنفه الخيال، ويلقي به في دروب الخيال المشوب بالواقع، في محاولات عجيبة للخداع والمغالطة. فهو يريد لكل العالم أن يقتنع بأن جميع الآلات التي اخترعها الإنسان، قد اخترعها ببصيرة وحكمة، ولذا فلا بد أن يكون اختراعها قد تم من أجل غرض معين، ولا بد أن عقلا واعيا هو الذي وضع تصميماتها وتركيباتها وتعقيداتها. وعندما يتحول إلى الطبيعة، يضطر إلى الاعتراف بأن عوامل الإعجاز فيها أعظم بآلاف المرات من تلك التي تتميز بها منتجات الإنسان، ومع ذلك فإن رأيه الذي يحاول بإصرار أن يُقنع القارئ به، هو أنه بسبب أننا تعودنا على أن نُرجع كل منتج إنساني إلى التصميم المسبق والغرض المحقق، لذلك فإننا حينما ننظر إلى الطبيعة ومنتجاتها الرائعة، فإن عادة الاستنتاج لدينا تخلق وهْما بضرورة وجود التصميم والغرض، بينما في الحقيقة هي حالة من خداع النفس أقنعنا بها أنفسنا أن منتجات الطبيعة هي الأخرى لا بد أن يكون لها مصممًا واعيًا. ومن الواضح أنه لا يمتلك أي دليل ولا برهان يؤيد به صحة نظرية الوهم هذه سوى كلمته هو التي يُفترض قبولها باعتبارها صادرة عن عالم موثوق به. ومع ذلك فإن جميع الاستدلالات التي اختار أن يقدمها من واقع الحياة تتناقض بشدة مع منطقه وتؤيد ما هو عكسه تماما.

ولنأخذ مثلا بحثه العلمي عن الخفافيش. وحيث إننا قد سبق أن تحدثنا عن الخفافيش وبعض ما يتعلق بها من عجائب، فإننا سوف نذكر فقط بعض الملاحظات التي ساقها البروفيسور دوكينْز في هذا الموضوع،

ونُذكره بوعده الذي قطعه على نفسه في الصفحة الأولى من مقدمة كتابه حيث يقول:

"…. بعد أن أقوم بتقديم اللغز وإبراز الغموض، فإن هدفي الهام الآخر هو إزالته مرة أخرى بشرح الحل."[٢]

ومما يؤسف له أنه لم يستطع أن يفي بهذا الوعد.

لقد خصص الجزء الأكبر من فصل: "التصميم الجيد" (Good Design) للحديث عن الخفافيش، وكتب يقول:

"إن مخ الخفاش عبارة عن رزمة دقيقة متناغمة من جهاز صغير دقيق معبأ بأعاجيب إلكترونية ساحرة، وقد تمت برمجته بحشد من البرامج المتقنة اللازمة لفك رموز عالم من الأصداء الصوتية في التو وعلى الفور. وفي الغالب يكون وجه الخفاش بشع الشكل فيبدو لنا شائن المنظر، إلى أن ندرك حقيقة هذه الخفافيش في واقعها، وهي أنها عبارة عن أجهزة رائعة متقنة صُنعت لتبث حزما من الموجات فوق الصوتية في الاتجاه الذي تريده".[٣]

وهكذا يقدم لنا اللغز بكل جدارة، ثم يُسهب في كلامه بتقديم الثناء الفريد لقدرة الخفاش على أن يكون السيد المتفوق بغير منازع في مجال السونار، فيقول:

"عندما يشعر الخفاش البُني الصغير بوجود حشرة طائرة ويبدأ في التحرك للانقضاض عليها، يبدأ معدل الزعقات التي يطلقها في الازدياد، حتى إنه يصير أسرع من المدفع سريع الطلقات، إذ يمكن أن يصل إلى قمة تبلغ مائتي زعقة في الثانية حينما يُطبق الخفاش على الهدف المتنقل".[٤]

وبعد أن أثار الأسئلة التالية:

"إذا كانت الخفافيش تستطيع أن ترفع عدد الزعقات التي تبثها إلى ٢٠٠ مرة في الثانية، فلماذا لا تستمر دوما في الإبقاء على هذا

المعدل؟ وحيث إنه من الواضح أن لديها "زر" تتحكم به في جهاز 'الستروبوسكوب' الذي يقيس سرعة الترددات، فلماذا لا تستمر في الضغط عليه حتى تصدر الحد الأقصى من الترددات، وبذلك يظل إحساسها بالعالم المحيط بها على أشده حدة طوال الوقت، مما يمكنها من التعامل السريع مع أي طارئ أو ضرورة مفاجئة؟"[٤]

ثم يجيب على ذلك قائلا لقرائه:

"أحد الأسباب هو أن هذه المعدلات العالية لا تناسب سوى الأهداف القريبة. فإذا حدث أن تتابعت الزعقات الواحدة تلو الأخرى بسرعة كبيرة، فإن هناك احتمالا أن يتداخل الصدى المرتد من أي زعقة مع صدى الزعقة التي تسبقها عندما تكون المسافة التي يقطعها الصدى طويلة".[٥]

ويستطرد في الكلام عن العجائب المذهلة عن قدرات الخفافيش، وقدراها على إصدار واستعمال إشارات السونار، ثم ينتهي من ذلك بقوله:

".... إننا نستطيع فقط أن نفهم هذه القدرات على مستوى الآلات المصنعة، والحسابات الرياضية على الورق، ولكننا نجد من الصعب تصور أن حيوانا صغيرا كهذا يستطيع أن يقوم بكل ذلك في رأسه".[٦]

وعند الحديث عن بعض التعقيدات التي تتصف بها الآلات والأجهزة التي صنعها الإنسان، رغم كونها تقل كثيرا في كفاءاها عن قدرات الخفاش، نراه يقول:

"وبالطبع فقد قام العقل الواعي الخبير بتوصيل الأسلاك الكهربية (أو على الأقل قام بتصميم الشبكة السلكية)، ولكن لا يوجد عقل واعٍ يقوم بالانخراط في العمل لحظة بعد لحظة من عمل الجهاز".[٧]

"…. إن خبرتنا عن التكنولوجيا أيضا تجعلنا نرى العقل والتصميم الهادف من وراء وجود الآلات الحديثة".[٨]

وبعد هذا تبدأ الاستنتاجات المنافية للعقل والمناقضة للمنطق، لأنه يَدّعي بأن الذي وضع تصميم كل روائع الطبيعة هو الانتخاب الطبيعي الذي لا عقل له، وهو "صانع الساعة الأعمى". وفيما يتعلق باستحالة أن تكون المبادئ الداروينية العمياء التي لا تعرف شيئا هي التي خلقت المعجزة الحية الرائعة لجهاز السمع لدى الخفافيش، نراه يواجه السؤال:

"كيف يمكن أن ينشأ عضو شديد التعقيد مثل هذا؟"

فتكون الإجابة التي يقدمها هي:

"ليس هذا بدليل، ولكنه ببساطة تأكيد على الميل إلى الشك".[٩]

وإذا قيل للبروفيسور دوكينْز أن جهاز الكومبيوتر بسعة ٦٤ كيلوبايت الذي يقول إنه كان يعمل عليه، لم يكن من خَلْق عقل واع، و لم يكن له أي تصميم مهما كان، فهل كان لديه الاستعداد لقبول مثل هذا القول؟ كلا بالتأكيد، بالرغم من حقيقة أن ذلك الكومبيوتر البدائي الذي كان يعمل عليه يقل كثيرا في تعقيداته عن الجهاز السمعي لدى الخفافيش.

وإذا كان يرفض أن يكون أي كومبيوتر قد تم صنعه هكذا بغير أن يكون لــه صانع واعٍ مقتدر وضع تصميمه، فمن المحتم عليه أن يسائل نفسه بأمانة وموضوعية ليكتشف سبب رفضه الإيمان بخالق خَلَقَ الحياة. ولعل الإجابة الوحيدة التي سوف يجدها هي أنه يرفض فكرة أن يكون الكومبيوتر بغير صانع لأن التصميم المعقد للكومبيوتر، والنظام الدقيق الذي يدخل في بنائه، لا يمكن أن يكون قد حدث هكذا من تلقاء نفسه. ومع ذلك، حين يتعلق الأمر بموضوع الحياة فإنه يُغير موقفه تماما، وكأنه قد خرج من شرنقة فبدا في صورة مختلفة تماما عما كان عليه من قبل. ولكونه عالما في البيولوجيا، فلا بد أنه يدرك أن الحياة أكثر وأشد تعقيدا من الكومبيوتر. إن رقم تريليون مضروب في نفسه تريليون مرة يُعد لا شيء

على الإطلاق في هذه المقارنة. فإذا كانت جميع التعقيدات الموجودة في الحياة تعتبر وهماً، فإن للكومبيوتر الحق الأكبر أن يُعتبر وهما هو الآخر. كيف يمكن للبروفيسور دوكينْز أن ينسى، ولو للحظة واحدة، أنه لو كان حكمه صحيحا، فإن عقله هو نفسه بكل ما يحتويه من أمور شديدة الدقة والتعقيد، يجب أن يوصف أيضا بأنه وهم هو الآخر. ونحن لا نريد أن نتجرد من اللياقة تجاهه، لذلك يحسن أن ندعه هو يتحدث عن نفسه. فأي السبيلين يختار.. هل يُفضل أن يوصف عقله بأنه مجرد وهْم يتكون من كتلة غير متناسقة من الخلايا، أم أنه يُفضل أن يعتبر نظرياته هو.. مجرد هلوسة تصدر عن عقل سليم. مهما كانت المحاولة من جانبنا، فإننا لا نرى لـــه اختيارا ثالثا. إذا كان العقل الإنساني مجرد وهم، فإن كل ما ينتجه هذا العقل هو أيضا وهم مضروب في نفسه، مثل سيل من الأحلام التي أوجدتها أحلام رجل فقد عقله. ولكونه من العلماء الكبار، ويتمتع بذكاء وفطنة، فإننا لا نريد أن نصف عقله بأنه مجرد وهم. إنه يتلاعب بالألفاظ، عندما يقول إن الحياة ليست شيئا معقد التركيب، بل إنه الوهم الذي يتولد لدى من ينظر إليها هو الذي يجعلها تبدو كذلك، وما دامت الحياة ليست شيئا معقد التركيب، فمن الممكن أن تكون قد أوجدت نفسها وخلقت ذاتها. إن اعتبار كل تعقيدات الحياة وهما، وميكانيكية الكومبيوتر أمرا معقدا، يعادل تماما قلب المنطق رأسا على عقب. إن اعتبار النهار ليلا والليل نهارا لهو أقل افتقادا للمعقولية والمنطق من هذه الحركة البهلوانية التي يقلب بها البروفيسور دوكينـــز العقل والمنطق رأسا على عقب. إن الميل إلى الشك وعدم التصديق هو السبب الرئيسي في هذا الشأن. فمن الواضح أنه من المستحيل عليه أن يصدق بأن مجرد طائرة بوينج ٧٤٧ يمكن أن تتبنى بنفسها، غير أنه ليس من المستحيل عليه تصديق أن ملايين الأشياء التي تُعد أكثر تعقيدا وأغرب تركيبا يمكن أن تقفز إلى الحياة بنفسها هكذا بغير صانع. وللتهرب من هذه المعضلة، ولكي يخفي تعصبه ضد الله تعالى فإنه

يعتبر تعقيدات الطبيعة مجرد أوهام أناس شديدي السذاجة ممن يؤمنون بالأديان. ولكن عليه قبل ذلك أن يعتبر كل أولئك الذين اشتركوا في صنع وبناء طائرة البوينج ٧٤٧ مجرد وهم من صنع عقله هو، فإن نفس المنطق الذي يستخدمه ضد من يؤمن بوجود الله تعالى يمكن أن يُستخدم ضده، وبقوة أشد. فإن كان من غير الممكن للكومبيوتر البسيط أن يقوم ببناء وتركيب نفسه بنفسه، فمن الأولى أن يكون أشد استحالة أن تقوم البوينح ٧٤٧ ببناء نفسها بنفسها لأنها أشد تعقيدا من الكومبيوتر. وبالطبع فإن البروفيسور دوكينْز يقبل هذه المستحيلات، غير أنه يؤمن بها لأنه يرى أنها تمثل تعقيدا في التصميم، الأمر الذي يقتضي الوجود المسبق لعقل واع يقوم بالتصميم. ولكن، لكي يتهرب من الإيمان بوجود مسبق لعقل واع يقوم بتصميم جميع التعقيدات الموجودة في الطبيعة، فإنه يُغمض النظر عن هذه التعقيدات، ويعتبر أنها كلها مجرد أوهام. فإذا كان تكوين طائرة البوينج ٧٤٧ بنفسها أمرا لا يقبل التصديق لدى دوكينْز، فإن خلق الحياة بنفسها هو الأولى بأن يكون أبعد تصديقا وأكثر استحالة. إن هذا السلوك من قِبَل دوكينْز يفضح فقط إصراره المسبق والمتعمد على عدم الإيمان بالله تعالى.

على دوكينْز أن يُبين الفرق بين ما يقول به وما يقول به الآخرون، الذين يواجهونه بنفس المنطق الذي يستعمله هو ويوظفه ليتناسب مع أغراضه. فالحجة الوحيدة التي يحتج بها للدفاع عن منطقه هي كما يلي:

".... إننا لا نملك القدرة على تصور مدى اتساع الزمن المتاح لحدوث التغيير الذي يتطلبه التطور".[٩]

وهو بهذا يعني أننا نملك القدرة على تصور التغييرات خلال الزمن الذي يستغرقه بناء طائرة البوينج ٧٤٧، غير أننا نستطيع تبيان أن حجته عن الزمن لا أهمية لها. فإن قصر الزمن أو طوله لا ينطبق هنا. فهو يعلم أنه في حالة البوينج ٧٤٧ كان هناك عقلا بشريا واعيا يعمل ويخطط من قبل أن تبدأ عملية بنائها. وهذا هو السبب الوحيد الذي يجعله يؤمن

بالتصميم المسبق والغرض المحقق. ومن الممكن إثبات.. ولو من الناحية الافتراضية.. أن الزمن ليس لـــه أية أهمية على الإطلاق في حجته. فمثلا.. إذا افترضنا العثور على جزء من هذه الطائرة مدفونا بين سجلات أرشيف الطبيعة لمدة نصف مليار من السنين، فهل يمكن لـــه حينئذ أن يقبل ويصدق بأن الزمن هو الذي قام بصنع ذلك الجزء؟ كلا بكل تأكيد! بل إنه سوف يؤمن بوجود صانع عاقل مجهول قام بصنع ذلك الجزء. إن دوكينْز يستطيع أن يمد الزمن إلى عدد مستحيل من السنين، ولكنه هو نفسه لن يصدق بأنه من الممكن حتى لعجلة من عجلات البوينج ٧٤٧ أن تكون قد تكونت بفعل مرور الزمن رويدًا رويدًا، قطعة بعد قطعة. أما وجود الحياة أو عدم وجودها فهو أمر لا أهمية له في نظره. فالتعقيد المبهر، والتصميم المبدع، والتركيب المذهل، هو ما يُعوَّل عليه.

كذلك فإن الإصرار على أن الخفاش من نتاج خلق قوى الطبيعة العمياء عديمة الإدراك، إنما هي محاولة لاستبدال الخالق الواعي الحكيم المدرك بخالق عديم البصر وعديم الإدراك من صنع الفلسفة الداروينية. ومن يتفق مع رأي دوكينْز هم فقط أولئك العلماء الذين، رغم علمهم الواسع وإخلاصهم المتفاني للعقلانية، يريدون أن يلقوا بكل هذا جانبا.. ولو مؤقتا.. ليهربوا من حقيقة وجود الله.

إن الخدمة الكبرى التي يؤديها دوكينْز للفلسفة الداروينية تكمن في حيلته الساذجة لتفنيد اعتراض شائع على مبدأ الانتخاب الطبيعي، يرفض أن يكون الانتخاب الطبيعي قد لعب أي دور في عمل الجينات. وهذا في الواقع هو دافعه الرئيسي في الاتجاه نحو البيولوجيا، فهو يقدم فكرة جديدة ذات تَوَجه مختلف تماما، عن الارتباط المتبادل بين الانتخاب الطبيعي والجينات، وهو لا ينفي أبدا الدور الذي تقوم به الجينات في التأثير على النمو وإحداث التغييرات الطفرية. ومن الواضح أنه لا يزعم بأن هذه التغييرات تخضع مباشرة للانتخاب الطبيعي، فكل ما يدعيه ببساطة هو أن

الانتخاب الطبيعي يحكم التغييرات الجسمانية التي تسببها الجينات. فحينما يوافق الانتخاب الطبيعي على التغييرات الجسمانية ويعتبر أنها تستحق البقاء، فإن هذه الموافقة تنتقل أيضا أوتوماتيكيا إلى الجينات التي تُحدث هذه التغييرات. غير أنه كان قد قدم لنا الرأي التالي مستعينا بقوانين الاحتمالات. ففيما يتعلق باحتمال تكوين الهيموجلوبين بالاعتماد على عوامل الصدفة المجردة فقط، نراه يقرر بكل تأكيد أنه أمر غير ممكن الحدوث. وفي صفحة ٤٥ يستطرد في شرح هذه الاستحالة، فيكتب عن أربعة أنواع من سلاسل الأحماض الأمينية تنجدل مع بعضها لتُكَون ١٤٦ حمضا أمينيا في الخلية الواحدة من خلايا الهيموجلوبين. وهنا نراه يبدأ بعض الحسابات الرياضية المعقدة ثم يخرج منها بأنه من المستحيل أن يتكون جزيء من جزيئات الهيموجلوبين عن طريق الصدفة. وفيما يلي ترجمة كلماته:

> "إن هذا رقم ضخم كبير بشكل لا يمكن تصوره. فالمليون عبارة عن رقم ١ وأمامه ستة أصفار، والمليار (أي ألف مليون) عبارة عن رقم ١ وأمامه تسعة أصفار. أما الرقم الذي نتحدث عنه 'رقم الهيموجلوبين' فهو (يقترب من) رقم ١ ويقف أمامه ١٩٠ صفرًا! إن فرصة واحدة من هذا العدد تمثل احتمال تكوين جزيء الهيموجلوبين بمجرد الصدفة. ويحتوي جزيء الهيموجلوبين على **جزء ضئيل للغاية من التعقيدات الموجودة في الجسم الحي**".[١٠]

إنه دليل واهٍ ذلك الذي يقنع به نفسه بأنه استطاع أن يحل لغز الحياة عن طريق المبادئ الداروينية، بينما في الحقيقة لم يحل دليله شيئا. فقد ثبت حسب كلامه في المقطع السابق أن الجينات، بالإضافة إلى الهيموجلوبين الذي يحتويها، لا يمكن أن يكون لها وجود. وهذا هو ما يُفهم من الدراسة العميقة للفصل الذي كتبه دوكينْز حول هذا الموضوع. إن فكرته

هذه هي المسؤولة عن إقناع الأجيال الشابة من العلماء الطبيعيين اليوم بفاعلية الانتخاب الطبيعي. ولكننا سوف نثبت أنها ليست سوى وهم ابتدعته قريحته، فإن حقائق الطبيعة نفسها لا تؤيد نظريته.

إننا نريد أن نلفت أنظار القارئ إلى حقيقة أن تأييد أو عدم تأييد عوامل البيئة لا تُغير، ولا تتحكم، ولا تؤثر بأية حال من الأحوال على أنشطة الجينات، وذلك برغم أن الأجسام نفسها التي تحويها تكون دائما تحت رحمة عوامل البيئة.

وبسبب قناعتنا أن هذا هو أهم الأدلة التي اخترعتها قريحة دوكينْز، فإننا نشعر بأنه من الواجب علينا أن نشرح موقفنا بشيء من الاستفاضة. وقد سبق لنا في هذا الكتاب شرح عمليات التطور بطريقة واضحة تكفل عدم الوقوع في سوء تطبيق للمبادئ الداروينية، ونأمل أن يجد الدارسون الذين يتخصصون في العلوم الطبيعية هذا العمل مفيدا عند إعادة تقييمهم لموضوع التطور. لقد كانت نظرتنا إلى الموضوع مختلفة تماما عن نظرة غيرنا من علماء الدين الغربيين أو العلماء التجريبيين الذين كتبوا بالذات ضد الداروينية، فهذا العمل الذي يحتويه كتابنا يقوم على دراساتنا للمؤلفات العلمية العامة. ولكن كيف يحق لنا القول بأن كتابنا هذا يختلف عن الكتب الأخرى التي نُشرت ضد الداروينية، رغم أننا لم نقرأ هذه الكتب؟ إننا نقول هذا لأننا خلال معالجتنا للموضوع في هذا الكتاب كنا دائما نسترشد بهدي القرآن المجيد، الأمر الذي لم يستطع علماء الغرب القيام به.

وعودة إلى الدليل الثوري الذي اخترعه دوكينْز، نقول إنه يجب ألا يغيب عن البال أن فعاليات وأنشطة الجينات محكومة بقوانين فطرية كامنة فيها تعمل بواسطة قوى لا يعلمها دوكينْز. فالجينات تعمل بغير أي تأثير لمتغيرات البيئة والظروف المحيطة. وبينما قد تؤثر ظاهرة الانتخاب الطبيعي على بعض السمات الجسدية في الكائن الحي، فهي تظل عديمة التأثير أو التحكم في فعاليات الجينات الموجودة في هذه الأجسام. وهذا أمر يتضح

تماما من دراسة التطور من البداية إلى النهاية. والكائنات الأولية، مثل الأميبا، وبعض الأنواع الأولية من الحياة التي تبعت الأميبا على سلم التطور، قد خُلقت بواسطة أنشطة الخلايا التي تتحكم فيها الجينات. وجميع هذه الكائنات الحية، رغم ضعفها الواضح وعدم تسليحها بقوى دفاعية، ظلت هي والجينات التي تحتويها تتمتع بالبقاء والوجود على مدى زمن التطور كله.

وأخيرا.. ظهر الإنسان على قمة سلم التطور. والاختلاف بين المملكة الحيوانية والإنسان واسع فسيح متعدد الأشكال والألوان حتى إنه لا يوجد ولا عالم واحد يستطيع أن يتصور حدوث تغييرات تطورية بطيئة، رويدًا رويدًا، يمكن أن تملأ هذا الفراغ. ونحن لا نتحدث هنا عن بعض التشابهات الجسدية البسيطة التي اهتم بها داروين، فإن أهل الطبيعة يتحدثون عن الحلقة المفقودة التي قد تكون هي الشيمبانزي، حسب رأي البعض، أو الغوريلا حسب رأي البعض الآخر. نعم.. بعض أنواع القرود قد فقدت ذيلها، ولكن المشكلة لا تكمن في وجود الذيل أو عدمه. بل هي في كيفية شرح وتبرير هذا الفراغ الواسع والفرق الشاسع بين الإنسان والحيوان، فيما يتعلق بأنماط السلوك والقدرات الذهنية. فأي من الحيوانات استطاع أن يتعلم القراءة والكتابة، وأن يُعبر عن نفسه في لغات حديثة مثل اللغات البشرية؟ إن المقارنة بين الإنسان والحيوان في هذه المجالات سوف تكشف عن أن القدرات البشرية تفوق مليارات المرات تلك التي للحيوان، وهو تقدير متواضع حين ننظر إلى الواقع. ولننظر مثلا إلى دور الكتب التي في العالم وما تحتويه من علوم ومعارف.. هل يمكن لواحد من العلماء أن يُرينا مكتبة صغيرة ضئيلة تحتوي على أبسط الأشياء في كهف من كهوف الغوريلا، أو على فرع شجرة من الأشجار التي يبيت فيها الشمبانزي؟ فليُرِنا أحد العلماء صفحة واحدة قام بتأليفها أحد هذين النوعين، اللذين يُقالَ عنهما أنهما أقرب إلى الإنسان من غيرهما من الحيوانات، ثم قام بحفظها باعتزاز على

رفوف مكتبته، وحينئذ سوف نعترف بأننا قد بالغنا في حجم الفارق بين الحيوان والإنسان. إنهم يتحدثون بالطبع عن لغات الحيوان، ولكنهم يذكرون هذه اللغات باعتبارها تعبيرات صوتية لم تُوضَعْ بوعي وإدراك. إنهم يتكلمون حتى عن الدرافيل التي تصدر أصواتا تُحاكي بها أصوات الإنسان، وتنطق أحيانا ببعض الكلمات، ولكنهم لا يستطيعون أبدا أن يبينوا لنا وجود لغات بين الحيوانات تتقارب مع اللغات التي وضعها البشر بمثل هذه الاختلافات والتباينات العديدة.

قد يستطيع القرد الذي تخيله دوكينْز أن يكتب سطرا من أدب شيكسبير على الكومبيوتر الذي كان يستعمله دوكينْز، وذلك بأن يدق عشوائيا على لوحة المفاتيح. ولكن الوقت اللازم لتحقيق كتابة ذلك السطر الواحد عن طريق الصدفة العشوائية ليس فقط أمرا بعيدا غاية البعد، بل هو مستحيل. ونحن لا نفهم لماذا يفترض دوكينْز استخدام قرد يتخيل وجوده، بينما القرود الحقيقية موجودة ومتوفرة بسهولة. لقد كان عليه أن يأتي بقرد



حقيقي ليقوم بهذا العمل.. وبغير أن يقوم هو بتدريبه.. ليدق على لوحة المفاتيح. وكل ما كان عليه عمله هو أن يربط القرد بجوار الكومبيوتر. وفي

صباح اليوم التالي.. عندما يعود ليرى ماذا أنتج الكومبيوتر بمساعدة ذلك القرد، فإنه غالبا سوف يجد الكومبيوتر وقد تحطم إلى قطع عديدة، بدلا من أن يعثر على كلمة واحدة من أدب شيكسبير. ولكن.. نحن نعلم بالطبع أن الزمن المتاح كان قصيرا جدا، وقد يكون من الواجب توفير كومبيوتر جديد مع كل صباح تشرق فيه الشمس، يوضع تحت تصرف القرد ليكتب عليه سطرا من أدب شيكسبير، أو يحطمه ليلحق بما سبقه. وفي اليوم الذي يلفظ فيه القرد آخر أنفاسه، سوف نجد أن الغرفة قد تحولت إلى ساحة لتجميع الخردة من حطام أجهزة الكومبيوتر، بغير العثور على أثر من أدب شيكسبير، ولا حتى على جسد القرد الذي لم تُبق عليه عوامل البقاء. ومع ذلك، يظل الزمن اللازم لتحقيق هذه العملية صغيرا جدا إذا قيس بالمقاييس الداروينية. ولكن.. ألم تنشأ القرود منذ ما يقرب من خمسة إلى ثمانية ملايين عام قبل الإنسان؟ ألم يكن هناك من الزمن ما يكفي لنشوء شيكسبير من بينها؟ وعلى أية حال.. إن الفرق بين مخ القرد ومخ الإنسان هو مجرد وثبة واحدة، رغم طول مداها.

وعودة إلى موضوع الهيموجلوبين، نقول إنه لو كان من الجائز أن تُنسب الألوهية إلى أحد غير الله ﷻ، لكان من المحتم أن تُنسب إلى الهيموجلوبين، وليس إلى عامل الانتخاب الطبيعي الأعمى، والأصم، والأبكم. فكل ما تلا ذلك من صنع للحياة، وإلى أن تم خلق الجسد البشري – وهو الذي قال دوكينْز عنه إنه من المستحيل أن يكون قد خُلق بمحض الصدفة – يرجع الفضل فيه إلى الهيموجلوبين وليس إلى الداروينية. وبذلك يكون البروفيسور دوكينْز قد حدد من هو إلهه، إلا أنه لا يعترف به. فهو لا بد أن يُقر بأن الهيموجلوبين هو الإله الذي خلق كل الحياة، غير أنه لا بد أن يكون للهيموجلوبين خالق، وهذا الخالق.. حسب رأيه.. هو رقم خرافي من الصدف، رقم ليس له وجود بالتأكيد.

إن الملخص العام لكلامه هو أن الهيموجلوبين لا يمكن أن يكون لـــه

وجود، لأن عدد الصدف المطلوبة لخلقه هو عدد مستحيل. والخطوة المنطقية التالية لـــه هي أن عليه أن يشرح سبب وجود الهيموجلوبين، بينما كان من المفروض ألا يكون له وجود. والإجابة التي لا مفر منها لهذه المعضلة هي أن وجود الهيموجلوبين نفسه ينفي تماما أن تكون لعبة الحظ أو الصدفة العشوائية هي خالقه. وإن ما يحتويه الهيموجلوبين من تعقيدات شديدة وتركيبات معقدة، تصرخ كلها لتشهد بوجود خالق آخر يحل محل هذه الصدفة العشوائية. إن البروفيسور دوكينْز ليس لديه خيار ثالث.. فهو إما أن يضع قدميه في القارب الذي يستحيل وجوده، أو يضعهما في القارب الذي.. شاء أم أبى.. سوف يحمله للقاء الله تعالى الخالق، ولعله حينئذ يصير أقرب ما يكون من الخالق سبحانه. غير أنه في اللحظة التي يدرك فيها ضعف موقفه ووهن منطقه، نراه يطير بعيدا عن الخالق ﷻ نحو الداروينية، إلهه الزائف، الذي يعلم جيدا أنه لا ناقة له ولا جمل في خلق الهيموجلوبين. وبالطبع فليس من حقه أبدا أن ينسب معجزات الخلايا التي خُلقت في الجسم البشري إلى الداروينية بغير أن يشرح أولا كيف أمكن لخالقها، الهيموجلوبين نفسه، أن يأتي إلى الوجود. وما هي العوامل، غير عوامل الصدفة البحتة، التي لا بد أن تكون قد شكلت الخلايا الأساسية للحياة، وهذا هو السؤال الحقيقي الذي يتعين عليه أن يجيبه. ومن هنا فإن جميع محاولاته في الاحتيال الفكري لإخضاع الجينات لعوامل البيئة لا معنى لها على الإطلاق، ولا تقوم على أي أساس، بل كما أوضحنا.. إنها في الواقع مناقضة للمنطق. وهذه هي مشكلة البروفيسور دوكينْز الكبرى.. إذ أنه يتفادى مواجهة الموضوع الأساسي ويحاول أن يصرف انتباه القارئ إلى موضوعات أخرى وهمية لا حقيقة لها.

وفي ضوء هذا التحليل يتضح أن جميع محاولاته لاستخدام الكومبيوتر، ونظريته عن العوامل المتراكمة رويدًا رويدًا، قد تمخضت كالجبل فلم تلد حتى فأرا واحدا. إن قصر الزمن أو طوله لم يكن أبدا هو المشكلة، وهو

نفسه يخبرنا بأن الزمن اللازم للخلق التراكمي رويدًا رويدًا لوحدات الحياة الأولية أكبر تريليون مرة مضروبة في نفسها تريليون مرة من الزمن المتاح في الحقيقة والواقع. وحين يخبرنا أيضا بأن الزمن اللازم لخلق الأجسام أكبر من ذلك عند المقارنة، لم يعد له بذلك أي حق مهما كان في أن يطرح أو يناقش نظريات الخلق رويدًا رويدًا. إنه تبديد مطلق وإضاعة كاملة لوقته ووقت قُرائه بسبب ما يريد أن يملأ به فترة زمنية تبلغ مجرد مليار من السنين – أي رقم ١ وعلى يمينه تسعة أصفار حسب النظام الأمريكي، أو رقم ١ وعلى يمينه اثني عشر صفرا كما كان يكتبه البريطانيون — فهي فترة لا تستطيع أن تحمل من الطبيعة ما يمكن أن تحمله فترة زمنية أطول منها كثيرا. وفي الواقع.. إن الرقم الذي يُعبر عن طول الفترة التي يجب وضعها تحت تصرف الطبيعة لتتمكن من تحقيق عملية الخلق المتراكم رويدًا رويدًا، يمكن أن يصل في ضخامته إلى الرقم ١ الذي يقف على يمينه ألف من الأصفار، الأمر الذي يعني في الحقيقة الإنكار التام للوجود. وعلى ذلك،فإن حقيقة الوجود يجب أن تُعتبر حسب رأي البروفيسور دوكينْز مجرد وهْم.

إن التحليل النهائي الذي قام به البروفيسور دوكينـــز في الفصل الأخير من كتابه يتعلق بالاختيار بين الإيمان بإله وبين الإيمان بالانتخاب الطبيعي. من هو الخالق.. هذا هو الأمر الذي يجب تحديده. وسواء استطاع أن يحددِّه أم لم يستطع، فهو يقينا ليس من حقه أن يستبدل الله تعالى بالانتخاب الطبيعي. فالانتخاب الطبيعي لا يمكن أن يُعتبر خالقا، لأنه لا يخلق.. وإنما هو كأي عامل من عوامل الطبيعة يؤثر على ما هو مخلوق من قبل. إنه مما يثير السخط حقا أن يشير البروفيسور دوكينـــز إلى مجرد مبدأ، بغير أن يكون لـــه شخصية ذاتية ولا هوية معينة، فيعتبر أنه هو الإله الخالق، مع أنه مجرد مبدأ أصم وأبكم وأعمى، وليس له كيان ولا وجود، سواء كان ماديا أو روحيا. فهذا يقينا لا يمكن أن يكون الخالق. وإذا كان البروفيسور دوكينْز يصر على إنكار وجود أي إله خالق، وهو لا يملك

الحق في استبداله بأي مبدأ، فلا يبقى لديه مرة أخرى سوى خيارين منطقيين. إما أن يعترف بأن الخليقة موجودة، غير أنه قد فشل في تعريف الخالق؛ أو أن يعلن بأنه لا يوجد خالق، رغم أن الخليقة موجودة. وهذا يعادل بالضبط القول بأن الكتاب "صانع الساعة الأعمى" موجود، ولكن لم يكن هناك أبدا بروفيسور دوكينْز الذي كتب صفحاته!

لقد قدمنا في الفصل السابق وصفا لتشريح العين والجهاز البصري بأكمله. وحينما نقرأ ملاحظات البروفيسور دوكينْز عن خلق العين نجد أنها ملاحظات سطحية للغاية، يشوبها النقص والضعف، الأمر الذي أصابنا بخيبة أمل عميقة. فقد اعتمد كلية على نظريته في الخلق التراكمي رويدًا رويدًا، وهي نظرية قد سبق أن رفضناها بناء على ما اعترف به هو نفسه من بيانات. غير أنه ينبغي علينا أن نلفت أنظاره إلى حقيقة أنه من الخطأ اعتبار مقلة العين عضوا مستقلا. إنها جزء من الجهاز البصري، يتوقف عمله على غيره كما يتوقف عليه عمل غيره، وإلا فإنه لا يستطيع أن يقوم منفصلا بأي دور في خاصية النظر. أما انخراط دوكينْز في محاولات عقيمة لإثبات أن نسبة ضئيلة من البصر خير من لا بصر على الإطلاق، فهي كلها محاولات لا طائل منها ولا جدوى لها. ومحاولة إثبات أن الرؤية ممكنة حتى بدون عدسات أمر لا معنى له. لقد قدمنا وصفا علميا للجهاز البصري عند البشر، بما يحتويه من تفصيلات علمية قدمها العلماء المتخصصون. وكان من الواجب عليه أن يُطبق نظريته في الخلق التراكمي رويدًا رويدًا على هذا الجهاز – وهي مهمة نجح في أن يتحاشاها.

فليبدأ مثلا بشبكية العين، وليخبر العالم كله كيف أن الخلايا العَصَوية والخلايا المخروطية التي تحتويها الشبكية قد نشأت رويدًا رويدًا وجزءا بعد جزء ونانومترا بعد نانومتر، إلى أن بدأت في النهاية تتعرف على الألوان، وتتبين الضوء والظلام. ولو كان هذا التعرف مقتصرًا على نفسها فقط لما حقق أي غرض. إن على دوكينْز أن يبدأ في تطبيق نظريته عن التكوين

رويدًا رويدًا على جميع مُكَونات الجهاز البصري، التي تلعب دورا جماعيا في تحقيق ما حصلته الخلايا العصَوية والمخروطية. إن عينا بسيطة التركيب لا تحقق سوى ١٠% من القدرة على الرؤية تعتبر عينا ضعيفة، ولكن نصف عين بشرية لا تعتبر عينا على الإطلاق. إن الشبكية، والخلايا العصَوية، والخلايا المخروطية، والكتل العصبية، والتعاقب المتتالي لمكان كل منها، كلها ضرورية لإيصال النبضات الضوئية إلى المخ. وهناك الكثير من الأمور التي تتعلق بالتعقيدات التي تتسم بها، وكلها تتحدى حكمة نظرية البروفيسور دوكينْز. ولنا كل الحق أن نسأل البروفيسور دوكينْز أن يشرح لنا كيف، وكم من الزمن، تَعَين على الشبكية أن تنتظر حتى يتم تكوينها رويدًا رويدًا؟ وإن لم يكن هناك تصميم مسبق للخلايا المخروطية بكل ما تحتويه من قدرات مدهشة، وإن لم يكن هناك تدبير سابق لوجود الخلايا العصَوية، بجميع ما يوجد بها من قدرات علمية مذهلة، والتي تُرى فيها بوضوح، فكيف أمكن لها أن تخلق نفسها رويدًا رويدًا، بحيث تتكامل كلها في توافق تام أبدع وأروع من أي فريق أوركسترالي لعزف السيمفونيات الموسيقية يمكن أن يتصوره إنسان؟ إن أقل وأصغر جزء في هذا العضو العظيم يستحق في ذاته دراسة عميقة. كيف يمكن أن تكون هذه الجزيئات قد نشأت وتطورت ببطء وبالتدريج، لتصبح مُكونات ذات معنى، وفي تزامن تام بعضها مع بعض لتصير مقلة عين، وتبدأ في أداء وظيفة كامنة في فطرتها؟ هذا أمر لا يمكن أن يفهمه العقل. وهذه مجرد بعض التساؤلات، ولكن هناك المئات والمئات من الأسئلة التي يجب أن يكون لها جواب عند أصحاب الطبيعة الذين لا يؤمنون بوجود الله. إن مقلة العين بأكملها، وبكل ما تحتويه من الجزيئات الدقيقة والتركيبات المعقدة يجب أن تُشرح في ضوء نظريته عن التكوين رويدًا رويدًا. إن الجهاز البصري أشد تعقيدا وأكثر توافقا عما يمكن أن يتصوره الشخص العادي. وحتى البروفيسور دوكينْز، العالم العظيم من أصدقاء الطبيعة، كان يحوم فوق السطح فقط دون الدخول في تفاصيله

المعجزة. ولكن حتى المعالجة الكاملة للسطح تعتبر عملا علميا عظيما. ولذا فإن أمامه الكثير من العمل الذي عليه أن يقوم به في هذا المجال. وهناك العديد من الأمثلة عن أجهزة الحواس لدي الحيوان، التي رغم كونها قد سبقتنا بمئات الملايين من السنين، إلا أنها تشترك معنا في أساسيات التصميم والتركيب. وغالبا ما تكون الاختلافات سطحية، ولكن حتى هذه الاختلافات قد صُممت بدقة لتحقق الأغراض المعَينة التي تتطلبها طبيعة الحيوانات التي تملكها.

والحيوانات الأخرى.. عدا الخفافيش والدرافيل والبوم، قد زُوِّدت هي الأخرى بميكانيكيات متقدمة، وبأعضاء بالغة الدقة والحس تمكنها من السمع والرؤية في الظلام الدامس. ونجد فيما يلي بعض الأمثلة عن ميكانيكيات الإحساس التي تفوق في مجالها المحدود ما لدى البشر أو ما صنعته أيديهم من أجهزة وآلات.

إن المثال المدهش حقا في هذا المجال هو ما تقدمه بعض أنواع الثعابين، التي تجد طريقها معتمدة كلية على استخدام الأشعة الحرارية فوق البنفسجية، التي تُزودها بشعور شديد الحساسية، وإن يكن قاصرا على مهمة معينة. وتبدو هذه الثعابين وكأنها مُزودة بأحدث الأجهزة التي تستخدم الموجات فوق الصوتية والأشعة تحت الحمراء. ولدى بعض الأنواع من الثعابين غدد بالغة الحساسية، موجودة بين عينيها وثقبي الأنف، تنقل إليها المؤثرات المنتجة للأشعة تحت الحمراء عن طريق فتحة صغيرة مثل كاميرا في حجم رأس الدبوس. وهذه الفتحة، التي لا تزيد عن بضع مليمترات، تنقل الأشعة تحت الحمراء إلى الغدد التي تبلغ في حساسيتها أنها تستطيع أن تستشعر التغييرات التي تحدث في درجات الحرارة، حتى ولو كانت متناهية الصغر إلى حد يبلغ ٣ أجزاء من ألف جزء من درجة حرارة واحدة. وتستطيع هذه الثعابين أن تستجيب لكل من هذه التغييرات بسرعة مذهلة، في غضون ٣٥ جزء من الثانية، وهي سرعة تفوق مئات المرات أي

جهاز مماثل من صنع الإنسان، بكل ما يملكه من علوم وتقنيات حديثة.[11]

وتتميز الصراصير بحساسيتها الشديدة تجاه الاهتزاز، حتى إنها تشعر بالحركة الضئيلة التي تُقاس بالوحدات القياسية التي تستخدم في حساب المسافة داخل الذرة. وهي تستطيع أن تشعر بحركة تبلغ مجرد ألفين مرة قدر حجم ذرة الإيدروجين.[12] وإنه مما يذهل العقل حقا أن تكون لدى الصراصير هذه القدرة العجيبة على الإحساس بالاهتزازات المتناهية في الدقة بهذا القدر.. فإن العين البشرية تستطيع أن ترى ذرة الإيدروجين إذا أمكن تكبير حجمها ١٠٠٠ر١٠٠٠ر١٠٠٠ر١٠٠٠ر١٠٠٠ر١٠٠٠ر٤٠٠ مرة. ونحن نُذكر القارئ الذي يريد محاولة قراءة هذا الرقم أن التريليون هو العدد ١ وعلى يمينه ١٢ صفر، وعلى أية حال.. فإن محاولة قراءة هذا الرقم لن تجدي شيئا.

لقد استطاع العلماء الآن إتمام العمل المعقد والضخم لإعداد خرائط وتخطيطات حول التغييرات المغناطيسية التي تحدث طبيعيا عبر المحيطات. وتستخدم الحيتان هذه التغييرات المغناطيسية للبحث عن طريقها في البحار. وحتى الآن لم يتوصل العلماء إلى كشف الوسيلة التي تستطيع بها الحيتان معرفة هذه التغييرات المغناطيسية وكيفية استخدامها لها. وربما يستطيع دوكينْز أن يشرح لهم كيف أن الحل سيكون سهلا بسيطا لو أنهم أسندوا المهمة إلى المبدأ الدارويني الخاص بالانتخاب الطبيعي. غير أنه يتعين على العلماء أن يتحلوا بالصبر لأن هذا الشرح، في ضوء نظريته عن الخلق التراكمي رويدًا رويدًا، قد يستغرق زمنا يطول بقدر طول الحياة نفسها، وفي النهاية سوف يظل غير مقنع كما كان في البداية.

إن منقار حيوان البلاتيبوس* (platypus)، الذي يشبه منقار البطة، شديد الحساسية للكهرباء حتى إنه يستطيع الإحساس بالمجال الكهربي الذي تبلغ قوته جزءا من خمسمائة مليون جزء من الفولت في السنتيمتر،

---

* حيوان مائي ثديي بيوض يعيش في أستراليا. (المترجم)

وهي قدرة تفوق قدرة الكثير من الأجهزة الكهربية الحديثة. وهو لا يجد أية صعوبة بتاتا في الشعور بجزء من ألف جزء من الفولت الذي تولده حركة بسيطة من ذيل حيوان الروبيان البحري (الجمبري). والمعروف عن أسماك القرش وأسماك الراي أنها تستطيع الكشف عن الفريسة حتى ولو كانت ثابتة لا تتحرك، كما أنها تستطيع أيضا الإحساس بالكهرباء الناتجة عن حركة عضلات التنفس لدى الفريسة، حتى ولو كانت مختبئة في طبقات الرمال في قاع المحيط.[١٣]

والطيور الجارحة لديها عينان مستديرتان بهما خط مستطيل، وتركيب العينين ومكانهما يمكناهما من أداء وظيفة عدسة جهاز التليفوتو، الذي يقوم بتكبير صورة الأماكن البعيدة مرات عديدة. وتستطيع النسور أن تحلق على ارتفاعات شاهقة تبلغ ٢٠٠٠ متر أو يزيد، ويمكن أن تمسح بعينها الأرض من تحتها لعدة كيلومترات بحثا عن فريستها، التي غالبا ما تتخفى في شكل مموه![١٤]

وللحيوان البحري القشري كوبيليا (Copilia) زوج من العيون المدهشة. فهي تُكَون صورة باستخدام عدساتها، ثم تقوم عدسة متحركة أخرى وشبكيتها بمسح كامل للصورة.

"تحتوي الشبكية على تسع خلايا فقط لاستقبال الضوء، ولكن من خلال مسح الصورة حوالي عشر مرات في الثانية، تستطيع أن تُكَون صورة مجسمة بعض الشيء".[١٥]

"يحتوي ذيل سمك الثعبان الكهربي على عشرة آلاف من الأعضاء الكهربية الدقيقة، مرتبة في ٧٠ عمودًا، وما يزيد عن نصف حجم السمكة متخصص في توليد الكهرباء، وهذا يمكن السمكة من توليد قوة كهربية مهولة تبلغ ٥٥٠ من الفولتات. وتكفي هذه القوة في الواقع لقتل إنسان".[١٦]

إننا.. بكل احترام.. نلفت الأنظار العلمية للبروفيسور دوكينْز إلى

هذه الحقائق، التي تعتبر مجرد عينة صغيرة بين الآلاف المعروفة إلى الآن للعلماء. ونحن نرجو منه ألا يصرف وقته ووقت القراء في العبث بألاعيب الكومبيوتر الصبيانية. فلماذا لا يُطبق نظرياته على وقائع الحياة الحقيقية؟ لقد كان من الأوْلى به من الناحية المنطقية، إذا أراد أن يكون أكثر إقناعا، أن يتناول هذه الحالات المدهشة من عجائب الطبيعة التي ذكرناها فيما سبق، وما يتعلق بالميكانيكيات المعقدة التي تتمتع بها. وليس عليه أن يطيل البحث في سجلات الحفريات ولا في تتابع الحيوانات التي سبقتها. إننا نعفيه من هذه المشقة، ونطلب منه فقط أن يركز اهتمامه على هذه الثمانية من العجائب الحية التي أشرنا إليها فيما سبق، وعلى الوظائف الخارقة التي تقوم بها.

وليُبين دوكينْز ويشرح للعالم كله كيف تجمعت الأجزاء والمكونات المركبة في هذا النمط المعقد. ولا بد من بيان كل خطوة فيما يتعلق بعمل وتأثير المبادئ الداروينية العمياء. وبعد أن يتمم هذا العمل يظل أمامه واجب هام، فإن كل عضو منها يقتضي معاملة مماثلة، لأن كل عضو يحتوي بالتالي على عدة أجزاء ويتكون من مواد معينة - وكل منها يؤدي مهمة فردية، وكلها سويا تؤدي مهمة جماعية، وتشترك جميعها في صنع المنتج النهائي.

وفي النهاية.. عليه أن يهتم بموضوع طبيعة المواد اللازمة لتصنيع هذه الأعضاء وكيفية توفيرها. فمن هو ذلك الذي قام بتصنيع هذه المواد بغير هدف؟ وكيف تم تصنيعها بغير مَصنع مُعَدّ لإنتاج هذه المواد؟ ومن الذي قام ببناء هذا المصنع ذي الكفاءة العلمية العالية؟ وكيف استمرت هذه المصانع في البقاء دون أي توقف أو تعطل في هذه الظروف من الطبيعة الواسعة، التي تخضع لتأثير الرياح وأعاصير البحر؟ وكيف قدمت المواد نفسها في الوقت المناسب لكي تُستعمل في المكان المناسب؟ هذا هو الإجراء الواضح الذي نطلب من دوكينْز أن يقوم به. عليه أن يواجه حقائق

الأسرار البيولوجية التي هي وقائع حقيقية رغم أنها أشد ما تكون غموضا. والنصيحة التي يمكن أن تُقدم لدوكينْز هي أن يحاول حل معضلات وألغاز الحياة من الحياة نفسها، كما هي وحيثما تكون. ونقترح أن يبدأ عمله بدراسة سمكة الثعبان الكهربية التي ذكرنا عنها جانبا باعتبارها المعجزة الثامنة.

إن الأسماك الكهربية تستخدم مجالاتها الكهربية لمعرفة طريقها في البحر. ولهذه الأسماك مجال كهربي مستمر وغير مرئي يحيط بكل جسم السمكة. وحين تقترب من أي جسم، تحدث على الفور تغييرات في التيار الذي يحيط بها مما يرفع قوة الجهد الكهربي لديها، ويساعدها على اختيار الاتجاه المناسب. وبهذا الجهاز المدهش للإبحار تستطيع السمكة أن تميز بين العقبات التي تعترض طريقها، وتتعرف على الأسماك المفترسة، والأسماك التي يمكنها هي أن تفترسها. وما لم تواجه السمكة شيئا، تظل القوة الكهربية فيها في حالة استرخاء، وبذلك لا تضطر لمواجهة عبء جهد إضافي دون حاجة، مما يتسبب في ضياع طاقتها. وفي اللحظة التي تواجه السمكة جسما ما، يحدث على الفور بشكل ما أن تنبعث إشارة إلى أجهزة قياس الضغط الكهربي لديها لزيادة الجهد الكهربي في الحال إلى مستويات عالية، يمكن أن تقتل رجلا، أو تصعق حصانا يصطدم بها في المياه الضحلة.

وقد فشل دوكينْز في إدراك أنه من المستحيل لهذا الجهاز الدقيق والمعقد أن ينشأ هكذا بسبب الانتخاب الطبيعي، أو بسبب التكوين الذي يحدث ويتراكم جزءا بعد جزء رويدًا رويدًا، حسب نظريته التي هو مغرم بها. أفلا يتوقف لحظة ليفكر من أين نشأت هذه الأجزاء رويدًا رويدًا؟ وكيف تستمر هذه التغييرات في الحدوث رويدًا رويدًا في حيوان غير مؤهل بعد للتعامل معها؟ إن دراسة الأسماك الكهربية تقدم دليلا عظيما على وجود خالق واع مدرك. ولا بد أن هذا الخالق على علم تام وكامل بعلوم الكهرباء، فهو يعلم كيف تتولد الكهرباء وكيف تعمل. ونحن

نسأل.. من أين جاءت فكرة إحداث تغيير لإنتاج تيار كهربي في الماء، والأكثر غرابة من ذلك.. كيف؟ وكيف يحدث لعضلات السمكة المصفوفة في صفوف أن تتوتر على حين فجأة، فتُصدر كل منها تيارا كهربيا كأي جهاز حديث لتوليد الكهرباء، ثم تلتقي كلها في النهاية لتكوين كهرباء ذات جهد عال صاعق؟ وبالمناسبة.. إن هذا التصفيف للعضلات يحمي كل عضلة من خطر التهتك والتمزق بسبب الجهد الكهربي العالي لو أنها كانت متصلة على التوازي. وحسبما يقول دوكينْز:

"إنه من الضروري لجسم السمكة أن يظل متصلبا، فإن الكومبيوتر الموجود في رأس السمكة لن يستطيع أن يتحمل التداخلات التي سوف تنتج إذا ظل جسم السمكة ينثني ويلتوي كالسمك العادي." [١٧]

إن المنطق والعقل يقتضيان إثارة سؤال هام هنا، وهو إذا كانت السمكة لا تستطيع أن تتحمل نتيجة هذه التغييرات، فلماذا تُحدث السمكة هذه التغييرات في المقام الأول؟ وعلى أية حال.. يضيف دوكينْز قوله:

"…. ولكن عليها أن تدفع ثمنا لهذا: إذ عليها أن تتنازل عن الطريقة المعتادة ذات الكفاءة العالية التي تتبعها الأسماك في السباحة، لتلقي بكل جسمها في موجات ثعبانية. وقد استطاعت أن تحل المشكلة بإبقاء جسمها كله متصلبا كالقضيب …." [١٨]

من هي التي "استطاعت"، والتي قامت بحل المشكلة؟ لم يوضح دوكينْز الأمر جليا. هل قامت الأسماك بفعل ذلك بنفسها؟ وإن لم تقم هي بذلك، فمن الذي فعل ذلك من أجلها؟ وحينما نتخيل كيف كانت البداية الأولية للسمكة الكهربية، حسب نظرية الخلق الذي يتراكم ويتجمع رويدًا رويدًا، يبدو أن الجهاز الكهربي كله قد بدأ بالفتحات.

يقول دوكينْز:

"يوجد لدى السمكة ما يشبه جهاز الفولتامتر الدقيق لمتابعة قياس الجهد الكهربي عند كل "فتحة". .... فإذا ظهر أي جسم بجوار السمكة، مثل صخرة أو مادة من مواد الطعام، فإن خطوط التيار الكهربي التي تصطدم بهذا الجسم سوف تتغير، وهذا يؤدي إلى تغيير الجهد الكهربي عند الفتحة التي أثر الجسم في الخط الكهربي الذي ينبعث منها، وبالتالي فسوف يسجل الفولتامتر المختص هذه الحقيقة. وعلى ذلك، فمن الناحية النظرية، يقوم الكومبيوتر بحساب شكل الأجسام التي حول السمكة، بعد مقارنة جميع أنماط الجهد الكهربي التي سجلتها الفولتامترات في جميع الفتحات. **ومن الواضح أن هذا هو ما يقوم به مخ السمكة**".[١٩]

لماذا يجب أن يقوم مخ السمكة بأداء هذا العمل الفذ الفريد من الهندسة الإلكترونية؟ إذا كان المرء على قناعة تامة بأن مخ السمكة لم يتم خلقه بإرادة منظمة، ولا تم تصميمه بتدبير مسبق، وليست لـــه أية قدرة ذاتية على التصرف الواعي، كما يؤكد دوكينْز على ذلك، فإن التلميح حينئذ إلى اعتباره تحفة من الهندسة الإلكترونية إما يُعتبر سذاجة مفرطة، أو محاولة غير مقصودة لتضليل الآخرين. وللإجابة على هذه المشكلة الواضحة، نراه يقول على الفور:

"ومرة أخرى، هذا لا يعني أن الأسماك قد صارت من العلماء الماهرين في الرياضة. فإن لديها جهازا يستطيع أن يحل المعادلات الضرورية، تماما كما يحل المخ لدينا، بغير وعي، المعادلات في كل مرة نلقف فيها الكرة".[١٩]

وهكذا، وبدون قصد، أضاف دوكينْز مشكلة أخرى إلى المشكلة التي كانت تواجهه. فناهيك عن المخ البشري وقدرته على أن يحسب كيفية تلقف الكرة، ولنتجه إلى مخ هذه السمكة وكيفية تمكنه من حل مشكلة

رياضية معقدة هكذا، أوتوماتيكيا وبغير وعي ولا إدراك. وبعد اعترافه هذا، من الطبيعي أن نتوقع منه أن يتوجه إلى نظريته عن الخلق الذي يرى أنه يتكون رويدًا رويدًا وينمو ويزداد جزءا بعد جزء، ثم يرينا كيف أنها تنطبق على السمكة الكهربية التي تحدث عنها. وعليه أن يشرح كيف نشأت هذه الفتحات الكهربية شيئا فشيئا. وكيف أمكن حل مشكلة إصدار الفولت الكهربي المناسب لكل موقف معين؟ كيف نشأ هذا الجهاز الكهربي الساحر بكل ما يحتويه من فتحات تنتج القدر الكافي المطلوب من الجهد الكهربي بهذه الدقة؟ كيف يمكن أن يكون كل هذا قد نشأ هكذا وتطور أوتوماتيكيا، وبدون أدنى خطأ، بناء على أمر غير واع ولا عاقل من السمكة الكهربية؟ إن جميع هذه الأسئلة لا تزال تبحث عن إجابات شافية مقنعة.

ومرة أخرى نعفي دوكينْز من عبء مشقة تتبع أنواع أخرى من الأسماك الأقل كفاءة ثم تطورت إلى هذه السمكة الكهربية التي تعتبر الآلة المثلى، فمن الواضح أن تلك الأنواع قد انقرضت منذ زمن طويل، فلندعها ومصيرها الذي آلت إليه. إن ما أمامه الآن لكي يؤيد نظريته عن الخلق التراكمي رويدًا رويدًا هو تركيب هذه السمكة، بكل ما تحتويه من ميكانيكيات معقدة، التي لا شك أنه يعترف بأنها تفوق جميع الأجهزة المماثلة من صنع الإنسان. لقد كان على دوكينْز أن يقتنص هذه الفرصة ليثبت صحة رأيه بأن مخ هذه السمكة يمكن أن يكون قد خلقها بغير وعي، مدفوعا فقط بالجينات التي يحملها. وعلى دوكينْز ألا ينسى أن الجينات نفسها ليست سوى أشياء لا عقل لها ولا إدراك. ولننس السمكة للحظة، ولندع مخها الذي خلقها بكل ما فيها من أعاجيب، وليشرح لنا دوكينْز كيف يستطيع هو نفسه أن يقوم ببناء سمكة مثلها، مستعينا بمخه هو، وبكل الأجهزة العلمية الحديثة التي يمكن أن توضع تحت تصرفه!

وحين يحاول المرء أن يتخيل كيف أن هذه السمكة التي تُعتبر جهازا

كهربيا عالي القدرة والكفاءة، قد تكونت هكذا في البحر، بغير هدف معين، وبغير أي تصميم مسبق، وبغير أية معرفة بكيفية عمل الكهرباء، فليس لدى المرء من خيار سوى أن يتخيل مشهد ذلك اليوم الذي كان في الماضي السحيق، حين أصابت الدهشة إحدى الأسماك العادية لظهور بعض الفتحات بطريقة عشوائية في بطنها. وكل ما نستطيع أن نفعله هو أن نتعاطف مع ما شعرت به من حنق وغيظ أثناء انتظارها المضني الطويل لهذا الجهاز الإلكتروني المعقد لتوليد الكهرباء لكي ينشأ ويتطور ليكون في النهاية جهازا فعالا. ولا شك أن هذه التغييرات قد سببت لها الكثير من الإزعاج، لأنها حتى ذلك الحين لم تفهم أن هناك غرضا مفيدا لكل هذا الهراء. أما كم من الزمن استغرق هذا الأمر حسب المقاييس الداروينية، ربما يكون دوكينْز وحده هو الذي يعلم الإجابة. بعد ذلك، وفي مكان آخر في جسم السمكة، بدأ يظهر الفولتامتر مع الأسلاك التي تصل بينه وبين المخ الصغير للسمكة، ثم بدأت تتابع بعض التغييرات الجسمانية المهولة بترتيب جديد لكل عضلة في تخطيط خاص وقدرات عجيبة. وهكذا أكمل الخالق المجهول، أيا كان، خلقَ تحفة رائعة لتوليد الكهرباء. فهل كان ذلك الخالق هو قانون الانتخاب الطبيعي الذي لا يعلم شيئًا والذي لا كيان لـــه ولا ذات ولا وعي؟ أم هو مخ السمكة الصغير الذي لم يكن يعلم ماذا يجري ولا حتى كان يدرك مدى قدراته الوظيفية؟ أم هو الجينات الوراثية القديرة التي، رغم كونها لا تملك عقلا مفكرا، جلست في مقعد القيادة لتقود الجهاز المتكامل الذي كان بلا شك بحاجة إلى عالِم قدير يقوم بتشغيله؟

لقد تحاشى دوكينْز أمورا كثيرة هامة أخرى أيضا. فهو لم يقدم أي حل منطقي واضح يُفسر وجود نوعين من الأسماك الكهربية، السمكة الموجودة عند سواحل أمريكا الجنوبية، والأخرى الموجودة عند السواحل الشرقية للقارة الإفريقية. إن كلاهما لا يرتبط بالآخر في شيء، فكيف نشأ

كل منهما في معزل عن الآخر، وفي أماكن جغرافية مختلفة، مع أنهما يتشابهان في التركيب الوظيفي.

وهو يستفيض في الحديث عن هذا النشوء المتوافق رغم انفصاله وانعزاله فيقول:

"إن السمكة الكهربية، على الأقل في حالتين مستقلتين بعضهما عن بعض، قد عثرت بالمصادفة على هذه الوسيلة البارعة لمعرفة طريقها في البحر..."[٢٠]

ويقول أيضا:

"ومما يثير الدهشة أن الأسماك الكهربية بأمريكا الجنوبية قد عثرت بالمصادفة على نفس الحل بالضبط مثل الأسماك الإفريقية ...."[٢١]

إن السؤال الذي يثير الحيرة والشجون حقا هو كيف أمكن لجميع هذه الأسماك بالإجماع أن "تعثر بالمصادفة على هذه الفكرة". وبالإضافة، كيف حدث لهذه الأسماك أن تعثر بالصدفة على فكرة شديدة التعقيد ومثيرة لمتاعب ومشاكل لا تعرف كيف تتعامل معها، ناهيك عن قدرتها على حلها. إن هذا القول يعني أن الحيوانات في جميع أرجاء العالم تعثر هي الأخرى بالمصادفة على أفكار لتنشأ وتنمو رويدًا رويدًا وجزءا بعد جزء. فالدب القطبي عثر مصادفة على فكرة أن يتلون باللون الأبيض في البيئة القطبية، بينما عثر الدب القطبي على فكرة أن يتلون باللون البني في كندا – وكل في معزل عن الآخر! غير أن هذا بالتأكيد يشير إلى وجود الهدف والتدبير. ولكن الحقيقة هي أن الأسماك لم تعثر بالمصادفة على أية أفكار، ولا الحيوانات الأخرى أيضا. ورغم أن دوكينز نفسه قد قدم كل البيانات اللازمة لإثبات وجود مدبر عاقل عظيم وقدير، غير أنه لم ينجح في التحليل الصحيح لنتائج بحثه. وبسبب نظريته الخاطئة التي لا تقف على ساق ولا قدم، دفع به اليأس إلى أن يعلن قائلا:

"إن الواقع المادي لحقيقة أنها تستطيع استغلال المجالات الكهربية في الماء هو أمر أشد غرابة على إدراكنا أكثر مما للخفافيش والدرافيل من غرابة".[٢٢]

وقد سبق لنا في هذا الفصل أن أبدينا بعض الملاحظات على ما أبداه من تعجب على هذه النقطة. وقد ذكرنا هذا المقطع من كلام دوكينْز لكي نبين أنه كان مخطئا في تأكيداته السابقة على انعدام أي غرض من وجود الأحياء. فإن جميع مسالك التطور التي يصفها، رغم أنه لا يوجد بينها أية علاقة ما، ولا ترتبط أو تعتمد بعضها على بعض، فإنها تصل إلى نفس نقطة الذروة في استقلال بعضها عن بعض. فما الذي جعلها تتوافق بعضها مع بعض وتصل إلى تلك النقطة، رغم أن كلا منها قد ارتحل في رحلة مغايرة لا غاية لها ولا قصد؟ وإذا حدث أن بدأ عدة أفراد في مجموعة مختلفة من الناس رحلة، بغير أي غرض وبدون أي هدف، وفي اتجاهات لم يختاروها، فكيف يتسنى لهم أن يتقابلوا جميعا في نفس البقعة بالضبط، بحيث تكون هذه البقعة مناسبة لهم جميعا كأفراد وكمجموعة في نفس الوقت؟ فليتفكر دوكينْز في هذا الأمر بهدوء، وليعاود التفكير في نظريته عن غياب القصد وانعدام الهدف، في ضوء الشهادة التي تضمنتها كتاباته العلمية.

كذلك فإن التناسق والتوافق العجيب في النمو والتطور بين الحيوان والنبات يُشكل ردا مفحما يبدد تماما نظريته عن انعدام التدبير المسبق للخلق. وهناك ألوف الأمثلة على هذا التوافق في الخليقة، وقد ذكرنا بعضًا منها في هذا الكتاب. ونريد هنا أن نذكر مثالا واحدا على هذا التوافق يتعلق أيضا بداروين نفسه. فقد بحث داروين ظاهرة وجود بعض أنواع الحياة الحيوانية والنباتية التي نمت وتطورت بعضها بجوار بعض، ويعتمد كل منها في بقائه على الآخر. فهناك أنواع من الديدان، والحشرات، والطيور، كانت تنشأ في نفس الوقت تماما الذي كانت تنشأ فيه أنواع من النباتات.

وقد ظلت طبيعة وشكل الزهور والثمار تتطور لتناسب تماما طبيعة الحيوانات التي نشأت وتطورت في معزل عنها. ومن الممكن أن نذكر المئات من هذه الأمثلة التي تُبين أنه من المستحيل القول بأن هذا التناسق المتبادل بين الطرفين قد تم بغير وعي بواسطة عوامل الانتخاب الطبيعي.

ونشير هنا إلى اكتشاف نبات يُدعى سحلبية (أوركيد) مدغشقر، واسمه العلمي (*Angracecum*). ويتميز هذا النبات بأن زهرته بيضاء بياض اللبن والحليب، وهي على شكل نجمة، وقاع الزهرة عبارة عن أنبوبة طويلة، تبلغ قدما في طولها، مقوسة بعض الشيء وتنتهي في الغرفة التي تحتوي على المبيض. ولا يملأ الرحيق سوى نصف بوصة فقط من هذه الغرفة. وحينما سُئل داروين كيف يمكن تلقيح هذا النبات، ذكر أنه لا بد من وجود نظير لهذا النبات بين الحشرات، يكون له خرطوم مقوس وطويل لا يقل طوله عن قدم، حتى يستطيع أن يصل إلى الرحيق الذي في قاع الزهرة. وهذا هو بالضبط ما تم اكتشافه فيما بعد. ولا شك أن داروين يستحق تحية تقدير لعبقريته التي قادته إلى هذا الاستنتاج، ولكن ليس على اختراعه مبدأ الانتخاب الطبيعي. فإذا كان الأمر فعلا يتعلق بالانتخاب الطبيعي، لما نشأ كل من النبات والحشرة في معزل عن الآخر، ومع ذلك يعتمد كل منهما على الآخر في توافق تام.

والسؤال الذي ينشأ هنا هو كيف يمكن لهذا النبات أن يستمر في البقاء والتكاثر بغير فاعلية جهاز التكاثر لديه. وإذا كانت هناك عملية نشوء تتم رويدًا رويدًا، فلماذا نشأت من الأصل وتطورت إلى أن وصلت إلى وضع عائق مستحيل؟ لماذا ينمو قاع الزهرة ليصل إلى هذا الطول الفريد في شكل أنبوب مقوس يخفي الرحيق في أسفل قاعه؟ لماذا يُعاق كل طير وتُمنع الحشرات من الوصول إلى الرحيق في القاع لإتمام عملية التلقيح حتى يمكن تفعيل أعضاء التكاثر؟ إن نشوء صنفين من الحياة، في نفس الوقت، أحدهما في المملكة النباتية، والآخر في المملكة الحيوانية، يعتمد كل منهما على

الآخر في وجوده، هو أمر من المستحيل اعتباره مجرد مصادفة أو ضربة حظ.

هل يستطيع البروفيسور دوكينْز أن يُقدم حلا لهذه المعضلة التي ذكرناها آنفا؟ كيف يمكن لهذه الزهرة أن تنشأ وتنمو رويدًا رويدًا في نفس الوقت مع فراشة الصقر التي تملك هذا الخرطوم بالغ الطول؟ هل من العادة أن تكون للفراشات مثل هذا الخرطوم الطويل والمقوس؟ وكم يا ترى عدد عينات الفراشات التي لا بد أنها قد خُلقت ثم بادت وانقرضت قبل أن يبدأ الانتخاب الطبيعي في القيام بعمله عليها؟ ولا بد أن كلا من النبات والفراش قد بدأ تطوره من بداية ضئيلة شديدة البساطة، ولا بد أيضا أن كلا منهما قد ظل يقظا على الدوام لكي يتابع بالتفصيل أقل التغييرات التي تحدث في الآخر، لكي يستطيع أن يتوافق معها بكل دقة، سواء كان ذلك في الشكل أو في التصميم. ولا بد كذلك أن كلا منهما قد تواشج وتشابك بالآخر وكأنهما قد صارا في كينونة واحدة، وكأن الاختلاف بين هوية كل منهما، هذا كحيوان وذاك كنبات، قد اختفى من الوجود تماما. وبعد أن يقدم دوكينْز هذا الشرح، يكون المطلوب منه أن يلقي بعض الضوء على تلك القوى التي كانت تتحكم خلال هذا التطور المنفصل والقوي. أي يد للانتخاب الطبيعي الأعمى يمكن أن تكون قد حققته؟ في كل خطوة من ملايين الخطوات الصغيرة التي لا بد أن كلا منهما قد اتخذها وهو منفصل عن الآخر، فإن من المحتم أن يكون عدد الخطوات الخاطئة التي اتخذها كل منهما هو عدد ضخم مهول، حسب ما تقول به القوانين الرياضية عن العشوائية. وقد أتيح بذلك ليد الانتخاب الطبيعي الأعمى أن تختار وتنتخب من بينها ما تشاء وترفض ما يشذ ويخرج عن المألوف. ومع ذلك فإن الاختيار النهائي للانتخاب الطبيعي كان خاطئا كل الخطأ. فقد تم خلق زهرة يكاد يكون من المستحيل تلقيحها، وتطورت فراشة لا تستطيع البقاء إلا على الاكتمال

النهائي لهذه الزهرة بعينها.

وعلى دوكينْز أن يعترف هنا على الأقل بأن الانتخاب الطبيعي قد عمل ضد نفسه بخلق صعاب جمة في سبيل بقاء الأنواع، فإن نشوء كل من هذين النوعين كان يعتمد كلية على وجود تناسق كامل بينهما كما ذكرنا آنفا. وهذا في ذاته أمر مستحيل ما لم يكن هناك عقل واع ومدرك وواسع العلم لكي يستطيع التحكم في إتمام عملية النشوء والتطور واستمرار البقاء بنجاح، وأنى للانتخاب الطبيعي أن يكون لـــه عقل مثل هذا؟ إن أيا من النوعين لم يكن ليستطيع أن يستمر في البقاء في تطور متواز مع الآخر، ويتمكن من الوصول إلى غايته النهائية، إن لم يكن هناك هاد يهدي خطواتهما على طريق التطور، ويضمن تماما أنهما في توافق وعلى اتساق كامل بعضهما مع بعض. إن هناك الكثير من العوامل الأخرى في النظام العام للخلق كما خلقه الله تعالى، تبعد عن مجال تأثير الانتخاب الطبيعي. وإن لم يكن هناك من يعمل على تفعيل هذه العوامل المعينة، وإن تُرك تطور الكائنات الحية تحت رحمة الانتخاب الطبيعي، لكانت الحياة قد فقدت كل معنى وشكل لها.

إن قائمة الإجراءات الكثيرة الخاصة التي اتخذها الخالق ﷻ خلال عمليات التطور، التي لا تتعلق ولا ترتبط بالانتخاب الطبيعي، أطول من أن نقوم بذكرها هنا. أحدها مثلا، يتعلق بانقراض الديناصورات والهدف الأسمى الذي حققه ذلك في النظام العام للخلق. فلماذا تسبب شهاب ضخم في إنهاء عصر الديناصور، تماما في الوقت الذي كانت فيه هذه النهاية مطلوبة أشد الطلب؟ فإذا كان هذا الأمر من تدبير الله تعالى، كما نؤمن نحن بذلك، فإن أحد الأغراض التي حققها ذلك هو إعطاء الفرصة لأشكال الحياة الأخرى أن تنمو وتتطور لتحقق غاية قـــدراتها التطـــورية إلى أقـــصى الحـــدود، دون أن تخـــشى تهديد الديناصورات لها. والغرض الآخر الذي حققه الموت الجماعي للديناصورات، والذي لم تتم معرفته إلا

بعد وقت طويل لاحق، هو أن تُدفن الديناصورات في الأعماق على سواحل البحار مع ما لا يحصى من مليارات الحيوانات الميكروسكوبية الدقيقة حتى تتحول بالتدريج إلى بترول، سوف يحتاج إليه الإنسان الذي سوف يوجد على ظهر الأرض في ذلك الوقت اللاحق. وهذا هو عمل الخالق الذي هو بكل شيء عليم. ولا يمكن لأحد أن ينسب هذا التدبير المحكم إلى الصدفة العشوائية. فمن المستحيل أن يكون التدبير عشوائيا، ونحن نستطيع الآن أن نرى التنسيق الكامل والتدبير المحكم، على الأقل لتحقيق غرضين في غاية الأهمية بالنسبة للنظام العام للخلق والحياة. فكيف يمكن أن يكون كل هذا من نتاج وعمل الانتخاب الطبيعي؟

لكم كنا نتمنى لو أن دوكينْز قد طبق نظريته الخاطئة على غوامض الطبيعة الواقعية التي يصفها بجدارة، بدلا من المباريات الخيالية التي يخترعها عقله. وبالمناسبة.. إننا نلفت أنظاره إلى شكل رقم ٥ على صفحة رقم ٦١ من كتابه، الذي قدمه لتأييد نظريته عن"*التراكم المتوالي للتغييرات الصغيرة*". فكل شكل من هذه الأشكال، بداية بالشكل الذي يشبه الذيل المشقوق، كان من الممكن أن يتسبب عشوائيا في وجود أي شكل آخر من مجموعة السبعة عشر شكل التي نشرها. وهذه تعتبر محاولة متعمدة من جانبه لخداع الكومبيوتر البريء، والذي يعمل حسبما يوجهه مزاج صاحبه. فأي مفهوم للجينات ذلك الذي تمت تغذية الكومبيوتر به.. ذلك سوف يظل سرًّا من غوامض الأسرار، لأن سلوك الجينات أمر لا يمكن التكهن به، وهي لا تعمل على مستوى ثنائي من عالم الخطوط والأشكال. إن عالم الجينات أكثر تعقيدا من مساحة التكوين البيولوجي التي من الواضح أن عقلا واعيا هو الذي كَيّفها، بينما تفتقد الجينات أن يكون لها ذلك العقل. كذلك فإن هذه الأشكال قد اخترعها العقل الذي يقوم أيضا بتشغيل الكومبيوتر، وهو لا يستطيع أن يدّعي بأنه يعلم جميع غوامض وتعقيدات عالم الجينات. إن الرسومات التي خطها كومبيوتر

دوكينْز تفتقد كل معنى وتبعد عن الواقعية، وهي تشبه إلى حد كبير رسومات الأطفال، التي يمكن لأي طفل صغير أن يخطها على قطعة من الورق، والتي تفتقر إلى المعنى والمغزى بالمقارنة إلى رسوم رسمها الكومبيوتر. فهل يمكن أن تكون مثل هذه الأشكال من خلق الجينات؟ إن الجينات لا تملك عقلا واعيا تتصرف به، رغم أن العمل المعقد الذي تقوم به لا يمكن أن يتم بواسطة شيء لا عقل لـــه. فهي تعمل وتتصرف كما لو أن لها عقلا ذكيا بارعا قادرا على تفعيل القرارات المعقدة التي تتخذها. ولا وجه للمقارنة على الإطلاق بين هذه الصور الكومبيوترية والأشياء الحية الحقيقية. ولكن دعونا نفترض لبرهة أن هذا النموذج الكومبيوتري يعبر فعلا عن الواقع والحقيقة، وإذا كان الأمر كذلك.. فإن أي شكل من الأشكال السبعة عشر يمكن أن يُنتج أي شكل آخر بواسطة نمو الخلايا أو بالطفرة العشوائية للجينات.

ولو كانت مثل تلك الحسابات التي قام بها دوكينْز تحدث فعلا في الطبيعة، لكان من الممكن أن تُنتج الفراشة الخطافية "رجلا يلبس قبعة"، أو أن "رجلا بقبعة" يمكن أن يلد عقربا. كذلك فمن الممكن أن تلد الطائرة الحربية "سبيتفاير" ضفدعا يمكن بدوره أن يلد ثعلبا يلد هو الآخر مجموعة من المصابيح، التي يقفز منها مجموعة من العناكب أو الخفافيش، التي سرعان ما تخفق أجنحتها لتطير مسرعة نحو كهوفها المظلمة. فهكذا تعمل الألعاب والمباريات التي ينتجها كومبيوتر دوكينْز في بعد واحد من الخطوط المستوية أو الملتوية. ونحن نعجب.. لماذا لا يُقدم لنا دوكينْز دراسة تحليلية من الواقع العملي لرجل يلبس قبعة بالفعل، ثم يُرينا كيف يمكن للانتخاب الطبيعي أن يقوم عمليا بخلق رجل مثل هذا، مع القبعة أو بغيرها. ولماذا يلجأ إلى إخراج الخفاش من قبعة الكومبيوتر وصوره؟ لماذا لا يتناول الخفافيش التي وصفها بجدارة، ثم يُرينا كيف يمكن أن تكون قد نشأت وتطورت رويدًا رويدًا؟ وهنا كان عليه أن يتوقف ويوضح لنا كيف أن الانتخاب الطبيعي

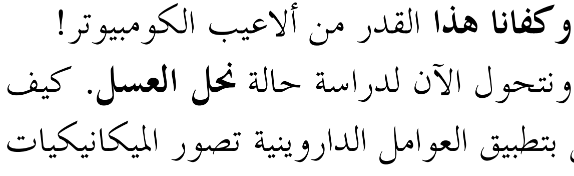
قد نجح حتى ولو في خلق جناح خفاش.

وبمناسبة الكلام عن الأجنحة.. لقد أخذتنا الدهشة البالغة حين قرأنا كلام دوكينْز عن إمكانية تحوُّل الحيوانات البرمائية رويدًا رويدًا إلى طيور تُحلق في الفضاء، وذلك بخفق أذرعها! ولعله من الأمور المعروفة أن الأجنحة لا تتخلق بخفق الأذرعة ولا بثنيها. فقد يستمر مثل هذا الخفق والثني لمليارات من السنين ولن يُخلَق جناح واحد أبدا.

إن تشريح الطيور أشد تعقيدا من أن يؤخذ بهذه البساطة، وإذا كان تحريك الذراعين إلى أعلى وإلى أسفل يمكن أن يخلق التكوين الداخلي ويحدث التغييرات التشريحية التي يمكن أن تُكَون القفص الصدري لدى الطائر، فربما حينئذ فقط يمكن أن نتقبل هذه الفكرة المثيرة للضحك والسخرية. غير أن ما ينبغي توفره لدى الطائر أولا، حتى يتمكن من الطيران، هو العظام الخفيفة والمجوفة. كذلك فإن ريش الطير لا ينمو بسبب تحريك الذراعين إلى أعلى وأسفل. وقد تستمر حركة الذراعين هذه إلى أعلى وأسفل إلى الأبد، ولكن لن ينمو شبح ريشة واحدة بسبب هذه الحركة. ولعله من المفروض أن نرى على ذراعي المدربين الرياضيين بعض البثور الصغيرة التي سوف ينمو منها الريش رويدًا رويدًا في المستقبل. وقد يعترض بعض أصحاب مبدأ الطبيعة الخلاقة على هذا الكلام قائلين إن فترة حياة المدرب الرياضي بطولها تُعتبر جد قصيرة لإحداث مثل هذا التغيير التشريحي. ولكن عليهم ألا ينسوا أن الكثير من أنواع الثدييات كان موجودا منذ ثلاثمائة مليون عام، وكل أنواع الثدييات دائمة التحريك لأطرافها، وتحاول أن تتسلق ما تستطيع تسلقه من المرتفعات وبعضها يحاول القفز عاليا، ولكن لم يحدث أبدا أن بدأ الريش ينمو على تلك الأطراف! فهل يا ترى كان نمو الريش وتحول الأطراف إلى أجنحة وقفا على الحيوانات البرمائية فقط؟ ولكن سواء نما الريش أو لم ينْمُ.. فإن الحيوانات البرمائية لم تكن لتستطيع أن تحدث التغييرات الداخلية والميكانيكيات اللازمة والموجودة

حتى لدى أكثر الطيور بدائية. ونحن نعلم أن هذا كان رأي داروين، ولكن آراء داروين لن تغير من وقائع الحياة شيئا. وسواء تحولت الحيوانات البرمائية إلى طيور أم لم تتحول، فقد كان المتوقع من دوكينـــز أن يمد آفاق رؤيته إلى خمسمائة مليون عام في أعماق الماضي السحيق حين كانت الأرض تعج بأنواع من الحشرات الطائرة، فكيف حدث أن نمت أجنحتها رويدًا رويدًا، بكل ما يقتضيه ذلك من تغييرات في الخلايا وتحولات في التشريح التي تدخل في تركيب الحشرة الطائرة؟

وعودة إلى الصور التي أنتجها كومبيوتر دوكينْز، والتي يبدو أنه مولع بها أشد الولع، فالملاحظ أنه خطا تسع وعشرين خطوة فقط، بينما كان من المطلوب إجراء أعداد مهولة من الحسابات لتحقيق رؤية واقعية لما يمكن أن يقع داخل الجينات، وكيفية عملها. وبالإضافة.. فإن الجينات، كما اعترف هو نفسه بذلك، لا تملك عقلا تفكر به وتزن الأمور، كما أنها لا تملك أيضا كومبيوترا تقوم بإجراء حساباتها عليه، بينما هو عنده العقل ويملك الكومبيوتر ولديه المعرفة والمقدرة على استغلال الكومبيوتر لخدمة أغراضه. وليس هذا فقط، بل إنه يعترف كذلك بأنه قد اختار بعض الأشكال المعينة من بين كل جيل من الأجيال التي أنتجها الكومبيوتر، وأعاد إدخالها إلى الكومبيوتر للحصول على شكل الجيل التالي. كذلك فقد تجاهل أيضا عاملا هاما، وهو أنه لا يوجد الإنسان الذي يستطيع أن يتصور في مخيلته متى يمكن أن تحدث الطفرات في الجينات ومتى لا تحدث. ولا يستطيع عقل أي عالم من العلماء، مهما بلغت مهارته، أن يُقحم نفسه في عالم الخلايا، وعلى ذلك فإن أي نموذج من إنتاج الكومبيوتر بتوجيه من أكثر العلماء علما ومعرفة، يعتمد على تقديراته الشخصية عن متى وكيف ينبغي للجينات أن تقوم بتأدية أنشطتها، التي تتعلق وترتبط بما لا يُعد ولا يُحصى من العوامل الداخلية الأخرى، إنما هو في الواقع خيال وليس حقيقة علمية.



وكفانا هذا القدر من ألاعيب الكومبيوتر!

ونتحول الآن لدراسة حالة **نحل العسل**. كيف يمكن بتطبيق العوامل الداروينية تصور الميكانيكيات الداخلية في نحل العسل بغير أن يكون هناك من وضع تصميماتها، وبدون أن يكون لهذا التصميم أي غرض في عقل ذلك المصمم الذي يعمل على تحقيقه؟ والأمر الذي يصعب تصوره هو كيف يمكن للجينات أن تكون قد شكلت وخلقت نحلة العسل بكل عجائب سلوكياتها الرائعة؟ هل يستطيع واحد من العلماء أن يشرح كيف نشأت هذه الميكانيكيات الداخلية وتطورت بالتدريج بجميع قدراتها الوظيفية؟ إن الأسلوب الذي ترى به النحلة، والشكل الذي تتميز به عينها، وقدرتها البصرية، كل هذه مصممة لتتوافق تماما مع عالمها الخارجي من زهور وفواكه، مما يُعتبر في ذاته تحديا كبيرا لأصحاب الطبيعة الذين ينكرون وجود أي تدبير سابق في الخليقة. فما هي القوى التي شكلتها، وكيف يمكن أن تكون النحلة قد تطورت تدريجيا ونشأت في الوجود بنفسها؟ وليس هذا هو كل ما في الأمر.. فإن الأسلوب الذي تبني به أقراص العسل، والطريقة التي تجمع بها المواد اللازمة لهذه الأقراص تقتضي أيضا الشرح الكثير من جانب أصحاب الطبيعة. وإذا كان الأمر هو مجرد تجميع مواد لبناء عش أو بيت تأوي إليه النحلة لكان هذا أمرا عاديا شائعا تقوم به الكثير من الحيوانات، ولكن أن تقوم النحلة بتخليق المواد التي تناسب غرضها بكل دقة، فهو الشيء النادر الذي يستحق العجب، وهذا بالضبط ما تقوم النحلة بعمله.

"تزيل النحلة بكاحل أرجلها الخلفية رقائق الشمع من أربعة أزواج من الغدد الموجودة في أسفل بطنها، وتدفع بها إلى الأمام لاستخدامها في عمليات البناء التي تقوم بها بواسطة أرجلها الأمامية وفكّيها. .... ويُخلط الشمع باللعاب ويُعجن إلى أن

يصل للقوام المناسب ودرجة المرونة المطلوبة حتى يمكن تشكيلها على أحسن وجه".[٢٣]

كيف يمكن لحشرة.. لا تملك عقلا تفهم به دقائق الغوامض العلمية للعالم المادي.. أن تبدأ فجأة في استخدام هذه الغوامض العلمية وتوظفها بما يكفل مصلحتها؟ ويتبين من هذا أن النمو البطيء التدريجي لعقل النحلة ومعرفتها الفطرية بكيفية بناء بيوتها وأي المواد تستخدمها في هذا العمل، لا بد أن يكون قد وُضِع فيها بواسطة من يعلم كل هذه الأمور. ولكن هناك أيضا ما يزيد عما تستطيع العين أن تلمحه، فجميع الغرف التي في أقراص العسل مبنية على شكل سُداسي تلتقي أضلاعه بزاوية قدرها ١٢٠ْ بالضبط.

"إن أقراص العسل نفسها هي إحدى عجائب الهندسة الحيوانية. وهي تتكون من مصفوفات من الخلايا سداسية الشكل وتنتظم في متواليات متوازية، وتبعد كل خلية عن جارتها بمسافة ثابتة لا تتغير".[٢٤]

وتتمتع النحلة بمهارات هندسية عجيبة، وقدراتها على البناء تعطي الانطباع بأنها قد تزوَّدت بأدق آلات القياس:

"إن الدقة البالغة والقوة التي يبني بها النحل بيوته هي أمور مثيرة للعجب، إذ يبلغ سمك جدار كل خلية ثلاثة وسبعين جزءا من ألف جزء من المليمتر، قد تزيد أو تنقص جزءين من ألف جزء من المليمتر، والزاوية التي بين جدار الخلايا المتلاصقة تبلغ ١٢٠ْ بالضبط، وفي العادة يتم بناء كل قرص على مسافة تبعد خمسة وتسعين جزءا من السنتيمتر بالضبط عما يجاوره".[٢٥]

ويفقس من بيض النحل ثلاثة أنواع من الذرية تنخرط في ثلاث مجموعات وظيفية؛ الملكات، والشغالة، والذكور. وتستطيع ملكة النحل أن تضع ألوفا من البيض في اليوم الواحد.

"إن ملكة النحل ، هي فعلا اسم على مسمى، فهي التي تتولى الحكم على المستعمرة، ويحيط بها من يقوم على خدمتها ويقدم لها غذاءً غنيا خاصا، تحتاجه لتتمكن من القيام بالأعمال القليلة التي تؤديها، والتي هي على قدر كبير من الأهمية للمستعمرة بأكملها. ويخفي شكلها الرفيع المبايض الضخمة التي تجعل منها آلة محكمة قديرة لوضع البيض، فهي تستطيع أن تضع ألوفا من البيض كل يوم. كذلك فإن مظهرها الهادئ يحجب طبيعتها المتسلطة القوية، وهي تطلق بعض الإشارات الكيميائية إلى الشغالة فتحكم بها سلوكها، وتساهم بذلك في دعم الحياة الاجتماعية التي تربط بين أفراد خلية النحل".[٢٦]

أما ذكور النحل.. التي تطعمها أيضا الشغالةُ.. فهي تتمتع بأجسام قوية، ولها مهمة واحدة تعمل على تحقيقها، وهي التزاوج مع الملكة ثم تموت بعدها.

أما الجزء الأكبر من خلية النحل فيتكون من النحل الشغالة التي تقوم بجمع الرحيق وصناعة العسل. وهي أيضا تصطف على حافة الخلية للحراسة المستمرة، وللقيام دوما بالدفاع عن المستعمرة. وقدرتها على الطيران تتوقف على درجة حرارة أجسامها التي يجب أن تبقى ثابتة عند درجة ٣٥° مئوية. والاحتفاظ بهذه الدرجة لا تمثل مشكلة عند منتصف أقراص العسل لأنها محمية من جميع الجوانب، ولكن عند الحافة قد ترتفع أو تهبط درجة الحرارة تبعا لتأثيرات حالة الجو المحيط. وتعالج الشغالة هذه المشكلة بخفق أجنحتها من وقت لآخر، لتوليد بعض الطاقة الاحتكاكية.

إن خلية النحل.. حين تُبنى في تجاويف الأشجار أو في بعض الكهوف الضيقة، يكون لها مدخل واحد، وبالتالي فإن الهواء لا يتجدد فيها، ولا يمكن الحفاظ تلقائيا على مستوى غاز ثاني أكسيد الكربون وبعض الغازات الأخرى. وقد يزداد تركيز غاز ثاني أكسيد الكربون إلى

حد يهدد حياة النحل في الخلية. ولإزالة آثار هذا الخطر.. تقوم مجموعات النحل الشغالة بالتحرك، مجموعة بعد أخرى، إلى حيث المخرج من الخلية، وتقف هناك وذيلها في اتجاه المخرج، ثم ترفرف بأجنحتها بسرعة لكي تخلق تيارا من الهواء يدفع الهواء الراكد إلى الخارج ويأتي بهواء متجدد إلى الخلية. وهي تقوم بذلك لمدة ١٠ ثوان، ثم تحل محلها مجموعة أخرى إذا اقتضى الأمر. وهي أيضا تقوم بتكرار هذه العملية إذا ارتفعت درجة الحرارة أعلى من ٣٥° مئوية. وتنجح الشغالة في عملية تكييف الهواء في الخلية بفضل الاستمرار على القيام بهذه العملية لتنظيم درجة الحرارة. وتبدأ كلها سويا في خفق أجنحتها، وتتوقف أيضا كلها سويا في نفس اللحظة. وبالإضافة إلى ذلك، فهي تقوم أحيانا بإحضار الماء إلى أقراص العسل بدلا من الرحيق، وتضعه حول الخلايا التي يوجد بها يرقات يمكن أن تتضرر من تأثير الحرارة العالية.

إن اختيار النحل لغذائه، والطريقة التي تتكون بها كل قطرة من قطرات العسل المستخرج من رحيق الأزهار، وكيف ينبغي أن يمتزج اللعاب بالرحيق لتزويد الرحيق بالسيولة اللازمة حتى يتحول إلى عسل، كل هذا يعتبر معجزة في ذاته. وتقوم النحلة بخلط جزيء من الرحيق بلعابها وتظل تدفعه بلسانها إلى الخارج حتى ينضج، ومن أجل تكوين قطرة واحدة من العسل يتعين على النحلة أن تقوم بعدة رحلات إلى الحقول المجاورة بحثا عن الرحيق. وتستمر هذه العمليات يوما بعد يوم إلى أن يمتلئ الجزء المخصص من الأقراص بالعسل. وبكيفية ما.. تستطيع شغالة النحل أن تُفرق بين العسل العادي والغذاء الهلامي الذي تقوم أيضا بصنعه لكي تتغذى عليه الملكات. إن الغذاء الملكي يتميز بخاصية معينة تُزَوِّد الملكةَ بالطاقة اللازمة التي تمكنها من وضع البيض بسرعة. وتستطيع الملكة في كل يوم أن تضع من البيض ما يُعادل وزنها، الذي يزيد كثيرا عن وزن النحلة العادية. كذلك فإن غذاء الملكة يتميز أيضا بقدرته العجيبة، التي لا يُعرف لها سبب،

على زيادة عمر الملكة من عمر النحل العادي مئة مرة. وتعتبر المستعمرة رعية للملكة بكل ما تحتويه من أفراد النحل التي قد يبلغ عددها ثمانين ألفا من الرعايا. وليس هناك من نظام ولا التزام بالنظام يماثل هذا في الممالك التي يحكم فيها الإنسان.

وبالإضافة إلى الأعمال المذكورة سابقا التي يقوم بها النحل، هناك أيضا نظام المراقبة، الذي تقوم به بعض أفراد من الشغالة المتمكنة لكي تعثر على مكان جديد مناسب تنتقل إليه المستعمرة بعد أن تتقرر هجرة المستعمرة القديمة. والشغالات المراقبة التي تتخصص في القيام بهذا العمل، والكيفية التي تقوم بها بتأديته، هي من الأمور التي تُعد من أعجب أساليب السلوك في الحياة. فهي تنطلق بعيدا بحثا عن الأماكن المناسبة التي تسهل فيها حمايتها، والتي ينبغي أن تكون بالقرب من بعض الحقول الغنية برحيق الأزهار. وقد تكون هذه الأماكن الجديدة على أبعاد تختلف قربا وبعدا من حقول الزهور، وقد تكون أفضل أو أقل مناسبة لبناء المستعمرة الجديدة. غير أن المقارنة بين المعلومات التي تأتي بها الشغالة المتخصصة في أعمال المراقبة، والحكم بصلاحيتها وأفضليتها أو العكس، يكون من اختصاص الملكة التي لها وحدها القرار الأخير في اختيار مكان مستعمرتها الجديدة وتقدير مدى صلاحيتها. وتقوم الشغالة المراقبة بتقديم المعلومات إلى الملكة بأسلوب يجل تماما عن الفهم. وفي الواقع.. إن العملية بأكملها فريدة بذاتها في المملكة الحيوانية. ولا بد أنها حيرت عقول علماء الطبيعة عن كيفية تحقيق هذا النظام في الاتصال ونقل المعلومات، بغير أن يكون هناك من وضع تصميما لها ويشرف على التنفيذ. ولكن.. هل لهم بالفعل أن يتفكروا في هذه الأمور؟ إن المرء ليعجب حقا! إن كل مراقب من الشغالة حين يعود إلى المستعمرة يقوم بأداء رقصة عجيبة. فهو يقف في اتجاه معين أمام الملكة ويبدأ في الرقص بحركات خاصة، وبذلك يُبَلغ الملكة بكل الرسائل التي يحملها. والمعلومات التي تنقلها هذه الرقصات لم يكن من الممكن نقلها بطريقة أفضل لو استخدمت فيها اللغات

البشرية. إنها تخبر الملكة عما رأته، وأين رأته، وكم يبعد عن المكان الحالي للمستعمرة، وكم يبعد عن الحقول التي بها قدر معقول من الزهور. وهي تحدد تماما المسافة بين المكان الجديد للمستعمرة ومكانها الحالي، وأيضا تحدد المسافة التي بين هذا المكان الجديد وحقول الزهور المجاورة. كذلك فإنها تصف المكان الجديد نفسه في تفصيل كامل، وما إذا كان مصونا من تأثير العوامل الطبيعية، وما إذا كان تجويفا في شجرة أو شقا في صخرة أو بقعة على جذع شجرة تحيطها الأغصان لحمايتها. ويأخذ كل مراقب دوره في تبليغ المعلومات التي لديه، وتنتظر الملكة لتسمع من جميع المراقبين حتى ينتهي الجميع. وحينئذ فقط تقرر الملكة ماذا تفعل، ثم تنطلق في طيرانها مباشرة في اتجاه المكان الجديد الذي قررت اختياره. أما عن كيفية الانتقال بين المكانين، وكيفية بناء المستعمرة الجديدة، فهذه قصة أخرى تثير الدهشة والعجب.

وفي النهاية.. ينبغي أن نذكر كيف يحافظ نحل العسل على طهارته الصحية، وأيضا على نقاء أقراص العسل وخلوها من الجراثيم، بشكل يجعل المستشفيات والعيادات الحديثة تشعر بالخجل. فعلى النقيض تماما من البعوضة، الحشرة الخطيرة التي تحمل الكثير من أنواع الجراثيم والفيروسات، فقد اكتشف الباحثون أن النحل لا يحمل على جسمه أية جراثيم ولا فيروسات على الإطلاق. ولما أدهشهم هذا الاكتشاف الغريب، انكبوا على برنامج جديد للوصول إلى معرفة السبب. وقد أدى البحث إلى الكشف عن قصة مثيرة تبين كيف أن النحل يقوم بنفسه بتصنيع المواد المطهرة التي يجمعها من بعض النباتات التي تنتج نوعا من المواد الصمغية، وتُعرف هذه المادة باسم "العكبر" (propolis)، وهي مادة راتنجية شمعية يجنيها النحل من براعم بعض النباتات. ولهذه المادة خاصية عجيبة في القضاء على البكتريا والفيروسات. وبعد أن يقوم النحل ببناء أقراص العسل، يقوم بلصق هذه المادة العجيبة على الحافة المحيطة بكل أقراص العسل، وحين تعود كل نحلة إلى المستعمرة فإنها تقف أولا على

هذه الحافة، حتى يمكن لمادة العكبر أن تقضي على أية بكتريا أو فيروسات تكون قد علقت بأرجلها الصغيرة، وذلك قبل أن تدخل إلى المستعمرة.

لقد ناقشنا موضوع نحل العسل هنا بشيء من التفصيل، بينما حين تناولنا بالحديث الحيوانات الثمانية التي ذكرناها فيما سبق، لم نخض في حديث مفصل عنها. وقد فعلنا هذا لأن القرآن المجيد قد ذكر النحل على وجه الخصوص، وبشكل يقدم حلا للغز الحياة الذي حير العلماء من أصدقاء الطبيعة. وقد اخترنا لهم موضوع نحل العسل ليتفكروا فيه، وليشبعوه بحثا طولا وعرضا، لتعيين القوى الخلاقة التي أبدعت هذه الحشرة الطيبة. وبالطبع فإن علماء الطبيعة الذين تخصصوا في دراسة هذا الموضوع يعلمون عن خصائص النحل وعالمها المعقد أكثر مما نعلم نحن. وبكل أمانة، فإننا نشك كثيرا في أن يتجاهلوا الموضوع بسهولة وينسبوا نحل العسل وجميع ما يتعلق به من عجائب ومعجزات إلى الصدفة المجردة.

فليرفع هؤلاء العلماء أيديهم بالتسليم، وليعترفوا بأنه لا بد من وجود خالق. وهو ذلك الخالق الحكيم الذي يتحدث في القرآن المجيد، وهو الذي يكشف عن أسرار الحياة بشكل قاطع. وتتحدث الآيات الكريمة التالية عن النحل فتقول:

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۞ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً ۚ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٦ النحل:٦٩-٧٠)

لقد اختار الله تعالى هذه الحشرة الوحيدة، من بين جميع الحشرات التي تنتشر في جميع أنحاء العالم، ليبين أنه تعالى حين يتصل بحيوان من

الأنواع العادية، فإن مكانته ترتفع وتسمو بشكل لا مجال معه للمقارنة بينه وبين الحيوانات الأخرى التي تنتمي إلى نفس النوعية. فماذا تكون النحلة على أية حال.. إنها مجرد حشرة من الحشرات الطائرة. ولكن ما أعجبها من حشرة! لقد بدأت هذه الحشرة تشغل هذه المكانة بعدما بُلغت بهذه الرسالة التي أشارت إليها الآيات السابقة، بعد المراحل الأولى من خلقها، وبعد أن طُبعت في فطرتها وفي الجينات التي تحملها، حتى إنها بدأت تتصرف بالطريقة التي تتصرف بها. وهي لا تحتاج لأن تؤدي مهامها ووظائفها التي تقوم بها بوعي وإدراك، أو بعقل واع يتحكم في تصرفاتها. فإن الجينات التي تقوم بتعليمها ما ينبغي عليها القيام به لا تملك بنفسها عقلا. ولكنه هو ﷻ الذي خلقها، فهو الذي لـه الوعي والإدراك، وهو الذي يأمر هذه الجينات فتستجيب بأمره كما يستجيب العبد لسيده ومولاه. وقد تكلم سبحانه ليبين للعالم أنه حين يختار شيئا ما، حتى ولو كان ذلك حشرة ضئيلة، فإنها تصير على مقام عظيم في عالم الحشرات بأكمله. فهي تصير وسيلة علاج وشفاء، على النقيض من الحشرات الأخرى التي تحمل وتنشر المرض. وهناك بون واسع بين النقيضين فيما يتعلق بوظيفة كل منها في الحياة.

وفيما يتعلق بالخصائص الشفائية للعسل، فإن هذا أمر لا يزال يخضع للبحث المستمر، والباحثون الذين اكتشفوا بالفعل بعض هذه الخصائص المدهشة، يتوقعون كشف الكثير والمزيد منها. وما حققته العلوم الطبية حتى الآن يجد ملخصا في المقطع التالي:

> "حاليا يُستخدم عسل النحل في علاج بعض الأمراض المَعدية والمعوية، وأمراض الأوعية القلبية، والأمراض الرئوية، والكلَوية، وأمراض الجلد، والأمراض العصبية الخاصة بتجويف الفم، والأذن، والحلق، والأنف، والتهابات أعضاء التناسل الأنثوية، والرحم، وعنق الرحم".[٢٧]

وإحدى الخصائص العلاجية التي اكتشفها العلماء البريطانيون مما أثار دهشتهم، هي قدرة عسل النحل على علاج قروح العين التي كان يُظن بأنه لا علاج لها. وقد أمكن إنقاذ الكثيرين من خطر الإصابة بالعمى الكامل، وذلك باستعمال عسل النحل.

"إن المرضى الذين يعانون من التهابات تقرحات جفون العيون، والتهابات الملتحمة في باطن الجفون، بدأوا يشعرون باختفاء الإحساس بالحكة وذرات الرمل في العين الذي تسببه هذه الالتهابات، وذلك بعد استخدام عسل النحل في العلاج، وكذلك قل احمرار الملتحمة أو اختفى تماما، وأيضا تقرحات أطراف الجفون، كما قصرت مدة العلاج اللازمة لالتئام تلك التقرّحات باستخدام عسل النحل. أما المرضى الذين يعانون من مرض تشوش الأشعة، فقد تحسنت حالة القرنية باستعمال العسل، كذلك تحسن مرض رهاب الضوء وتحسنت أيضا قوة النظر".[٢٧]

ألا يوجد في هذا درس ورسالة هامة لأصحاب الطبيعة كي يتفكروا فيه؟ إنا لنعجب حقا أشد العجب، ونأمل.. ولكن لا فسحة للأمل!

وختاما لهذا البحث.. نؤكد مرة أخرى أن سبب إنكار أصحاب الطبيعة لوجود غرض من وراء مختلف أنواع الحياة.. هو أن اعترافهم بهذا الغرض يؤدي بالضرورة إلى الاعتراف بوجود الله ﷻ. وهم يُفضلون أن يكون خالق كل شيء هو عامل أصم وأبكم وأعمى. وبذلك فهم يخادعون لتحقيق غرض معين، إذ يعلمون جيدا أن العوامل الداروينية العمياء ليست عوامل خلاقة. إن هذه العوامل تبدأ فقط في العمل بعد أن يتم إيجاد الخليقة بواسطة أيد أخرى تختلف عن تلك العوامل. نعم.. إنها عوامل ذات تأثير قوي، تماما مثل قوانين الفيزياء، غير أنه إذا اجتمعت جميع قوانين الفيزياء، وقوانين الكيمياء، وقوانين الحركة والديناميكية، فإنها

لا تستطيع أن تخلق كوخا لكي يعيش فيه رجل فقير، يكون مكتملا من ناحية السباكة، ومزَوَّدا بمطبخ صغير، وحمام. وبالطبع فإن هذه القوانين تُستخدم لإتمام مثل هذا البناء، ولكن من يستخدمها لا بد أن يكون شخصا عاقلا له مخ يتمتع به، فالمخ هو السيد الذي يوظف القوانين الطبيعية.

أما نظرية النمو الذي يتراكم خطوة بعد أخرى.. فيمكن أن تصح فعاليتها في بعض الأحوال المحدودة جدا، وينبغي فحصها وبحثها جيدا لإزالة أي احتمال بوقوع تشوشات وأخطاء بسبب سوء فهمها. وتكوين الجزر المرجانية هو مجرد مثال في هذا الموضوع. فإن موت الحيوان المرجاني، وتراكم التريليونات من هذه الحيوانات بعضها فوق بعض لا يتم لتحقيق غرض معين. ومع ذلك.. فهي حين تتراكم، ربما خلال الملايين من السنين، فإن النمو المطرد لحجمها يخلق في النهاية الجزر المرجانية. وإذا نظرنا إلى الخلف لنعرف كيف بدأت هذه العملية وكيف تمت، فإننا قد ننسب إليها غرضا ما من الواضح أنها لم تسع لتحقيقه. ويمكن للمرء أن يتخيل جبالا تُبنى في وسط المحيطات، بتؤدة وبصبر طويل، رويدًا رويدًا عبر دهور لا نهاية لها. وهذه الجبال لا تلقى أي اهتمام من الناس الذين يعيشون على الأرض إلا بعد أن تظهر فوق سطح الماء. وحينذاك تبدأ في تحقيق غرض ما، نستطيع نحن أن نراه حين تتحول هذه الجبال إلى جزر مرجانية. وهي قد تخدم الحياة وتدعمها بالعديد من الوسائل المدهشة. هذه هي الحالة التي يتم فيها الخلق العشوائي، رويدًا رويدًا، بغير أن يكون قد سبق خلقها تدبير معين يمكن اقتفاء أثره، ولم يسبق خلقها تحديد غرض محدد. إذ من الممكن ألا تكون هذه الجبال قد وُجدت أصلا في ذلك المكان، ومع ذلك.. فلا يمكن إنكار فائدتها وما تحققه من أغراض.

إن كلا من القوانين الطبيعية يعمل في استقلال عن غيرها، إن لم يكن هناك عقل يستخدمها بوعي. وهذه القوانين تعمل وتحكم كل شيء في

الوجود. وغياب العقل الواعي الذي يستطيع استخدام هذه القوانين ينفي تماما الخط الوهمي الذي يُقال إنه يفصل بين الأحياء والأموات. فإذا كان مخ الكائن الحي لا يستطيع أن يصمم نفسه، ولا يستطيع أن يلعب أي دور واع فعال في صنع الجسم الذي يحتويه، يكون كل من الحي والميت محكوما بشكل متماثل تماما بنفس القوانين الطبيعية. ومعنى ذلك أن هذه القوانين التي لا عقل لها، هي وحدها المسؤولة عن البناء التراكمي للَبِن الحياة. وإذا كانت تلك القوانين قادرة على خلق لَبِن الحياة بكل ما فيها من تعقيدات، فلا بد أنها قادرة بالأولى على بناء مبنى مثل بناية الإمبايرستيت (Empire State Building) من خلال نفس عملية البناء التراكمي، رويدًا رويدًا. ومع ذلك فإن أصدقاء الطبيعة يناقضون أنفسهم ويرفضون أن يؤمنوا بالتكوين التراكمي، رويدًا رويدًا، لبناية الإمبايرستيت بواسطة الخطوات العشوائية التراكمية، مهما كانت تلك التراكمات ضئيلة صغيرة. وهم بذلك يقيمون جدارا مصطنعا يفصل بين تأثير وفعالية القوانين الطبيعية على الأجسام الحية، وتأثيرها على الأجسام غير الحية. ولكن ليس من المفروض أن يكون هناك مثل هذا الانفصال، ما لم يكن هناك من يُشرف بوعي وإدراك على فعالية هذه القوى في أي من الجانبين. ويقول أصحاب الطبيعة إنه لا يوجد من يشرف بوعي على فعالية هذه القوى في حالة الأحياء، وبالتالي فمن المحتم أن يعترفوا بأنه لا فرق بين الأحياء وغير الأحياء، وعلى هذا فليس هناك من يشرف بوعي على فعالية هذه القوى على غير الأحياء. وكل ما يبقى بعد ذلك هي هذه القوانين الطبيعية الحرة، التي تعمل وتؤثر على الأحياء، تماما كما تعمل وتؤثر على غير الأحياء. فإذا كانت هذه القوانين تستطيع بنفسها أن تخلق أشياء شديدة التعقيد مثل اللَبِن التي تبني الحياة، فلن يكون من الصعب عليها أبدا أن تخلق بناية الإمبايرستيت، الأمر الذي يُعد أسهل من أن تخلق من الحبة قبة. ولعل الاعتراض الوحيد، الذي ليس اعتراضا في الحقيقة، هو ذلك الذي يتعلق بعامل الزمن المتاح. ولكن الزمن

المتاح لتأثير فعل القوانين الطبيعية على غير الأحياء، أطول كثيرا بالمقارنة مع الزمن المتاح لنشوء الحياة. ولننس برهة بناية الإمبايرستيت، فالكل يعلم أنها قد بُنيت تحت إشراف عقل مدرك، ولنتصور بدلا من ذلك إمكانية وجود مئات الألوف من ناطحات السحاب الأعلى والأجمل من بناية الإمبايرستيت، والأكثر تعقيدا من الناحية الهندسية، وكلها قد بُنيت بتأثير فعالية القوى الطبيعية وحدها خلال الخمسة عشر مليارا من السنين الماضية، أو ما يقرب من ذلك. ولنتذكر أن القوانين الطبيعية وتأثيرها ظل كما هو على الأجسام الحية وغير الحية، كما لا ننسى أن أصحاب مبدأ الطبيعة الخلاقة قد استبعدوا وجود عقل واع مدرك يشرف على فعالية هذه القوانين في كلتا الحالتين، أو يوظفها لإنتاج شيء، سواء بين الأحياء وغير الأحياء. وعلى ذلك.. إذا افترضنا سلامة العقل واحترام المنطق، فيجب ألا يكون هناك جدار يفصل بين تأثير القوانين الطبيعية على الأحياء وغير الأحياء. ويترتب على ذلك أن نرى أثر هذه القوانين الطبيعية وفاعليتها على الخلق التراكمي رويدًا رويدًا لإنتاج مخلوقات شديدة التعقيد والتركيب في مجال الأجسام غير الحية، كما نراه في مجال الأجسام الحية حسب رأي أصحاب الطبيعة الخلاقة. وبالتالي.. فإن كل من يؤمن بخلق الحياة بغير أن يكون هناك عقل مدرك سبق خلقها، يكون من حقه.. افتراضيا.. أن يصعد على قمة بناية الإمباير ستيت، ويعلن من فوقها:

"هذه البناية من نتاج تراكم تريليونات من الصدف العشوائية. وليس هناك أي تصميم سبقها، ولا وُجد من قبلها أي عقل واع، ولم يكن هناك من تفكير ولا تصور لشكلها قبل تكوينها. بل إن كل ذلك ليس سوى الوهم الذي تسلط على عقول بعض الأغبياء من المؤمنين بالأديان حين بهرتهم روعة المنتج النهائي بعد إتمامه".

وتنطبق نفس هذه العبارة، وبنفس القوة، على أصحاب مبدأ الطبيعة

الخلاقة، الذين ينكرون وجود أي تصميم سابق لنشوء الحياة، ولا تحقيق غرض لاحق مِن خلقها. إنهم يقفون على قمة سلم التطور الذي انتهى إلى وجود الإنسان، وحين ينظرون إلى أسفل، من مكانهم الشاهق الذي يقفون فيه، فإن بناية الإمبايرستيت لا بد أن تبدو شيئا ضئيلا مثل بقعة صغيرة في مكان ما على ظهر كوكب الأرض. ومع ذلك فإنهم يصيحون بأعلى أصواتهم: *"ليس هناك من تصميم، وليس هناك من غرض لخلقنا، إذ أنه من المستحيل لنا أن نكون قد خُلقنا، ولكن يبدو أننا موجودون. إن العالم بأكمله هو مجرد وهم. فأنتم تتصورون أننا موجودون، ونحن نتوهم أيضا أنكم موجودون. وعلى ذلك فإن الكون بأكمله ليس سوى وهم وسلسلة من الخيال، كما يتصور الفلاسفة غير الموضوعيين. ولإزالة وهم الوجود.. فكروا مرة أخرى في عدد السنين اللازمة لتكوين الهيموجلوبين، ثم اختفوا وتلاشوا إلى لا شيء*"!

إنهم بإنكارهم وجود خالق له ذات وعقل وإدراك، ولديه جميع القدرات على تنفيذ مشيئته، يحاولون استبداله ﷻ بفكرة ليس لها ذات ولا عقل ولا إدراك. إن هذه السخافة المنافية للعقل، التي تُعزَى فيها عملية الخلق أو الانتخاب إلى فكرة لا عقل لها، هي التي يرفضها القرآن المجيد جملة وتفصيلا في الآية التالية:

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ﴾ (٧ الأعراف:١٩٦)

ومن الواضح أن هذا البيان القرآني كان موجها إلى عُباد الأصنام في ذلك العصر، يُذكرهم بأنه رغم أنهم يؤمنون بأن آلهتهم هي ذوات حية لها أشكال آدمية، إلا أنها في الواقع ليست سوى أفكار لا شكل لها ولا مضمون. وكان من المفترض أن ينتهي البيان عند هذا الحد، بغير أن تكون

هناك مدعاة لذكر موضوع الزمن المتضمن في عملية الإنظار. إن الجزء الأخير من هذه الآية الكريمة يتضمن بوضوح أن الأفكار المجردة لا تخلق شيئا، رغم أنها قد تمتلك تحت تصرفها ما تشاء من الزمن. أما الله تعالى فهو لا يعتمد على عوامل الزمن الطويلة في قدراته على الخلق. إن الآية الكريمة بكليتها تنطبق تماما على الأفكار الحديثة، التي تزعم بأن الانتخاب الطبيعي هو المسؤول عن نشوء الحياة وتطورها، بشرط أن يُتاح له الزمن الكافي للخلق، لأن الزمن بالنسبة للانتخاب الطبيعي هو أمر أساسي وجوهري. وبهذا فإن فكرة غامضة، لا أرجل لها ولا أيد لها ولا عقل لها، يُفترض أنها تعمل في إطار من الزمن الطويل، لكي تناسب نظرية نشوء الخلق التراكمي رويدًا رويدًا وجزءا بعد جزء. وإن ضغطنا الزمن إلى مجرد مليار من السنين، إذا بالشقوق والصدوع تنتاب فورا هذه النظرية وتبدأ في الانهيار، الأمر الذي لا يدع مجالا للشك في أن الزمن هو العامل الرئيسي بالنسبة لهم في عمليات خلق الحياة. وهذا هو بالضبط ما يستنكره القرآن المجيد بذكره عامل الزمن في الآية المذكورة آنفا، وكأنه يقول: *إن الأفكار التي ليس لها ذات ولا شكل يمكن أن يكون لها ما تشاء من الزمن، ولكن الله تعالى بقدراته الخلاقة يستطيع أن يخلق بغير أن يكون محكوما بعوامل الزمن.*

إن عامل الزمن هذا بالنسبة لعملية الخلق قد اكتسب أهميته في العصر الحديث، فيما يتعلق بالعوامل الداروينية. وقد ينتاب البعض شك في أن المقصود من هذه الآية الكريمة هو هذه الفكرة الحديثة، ولكن لا يمكن إنكار أن المعنى الكلي للآية ينطبق تماما عليها. وسواء كانت هذه الفكرة الحديثة هي المقصودة أم غير مقصودة، فليس هناك من كلمات يمكن لها أن تنقد القدرة الخلاقة المزعومة للانتخاب الطبيعي أفضل من هذه الكلمات.

إن المؤمنين بالطبيعة يدّعون أن القوى التي تقوم بمهمة الخلق، والقوى

التي تقوم بمهمة الاختيار، هي قوى مختلفة ومنفصلة بعضها عن بعض، رغم أنها تعمل في توافق تام. وهم يريدون منا أن نؤمن بأن الجينات التي لا عقل لها هي العامل الذي يخلق، وأن قانون الانتخاب الطبيعي.. الذي ليس لـــه ذات ولا كينونة.. هو العامل الذي يختار. وهم في نفس الوقت يستبعدون أمر الجينات ويخضعونها لسلطة الانتخاب الطبيعي. وبذلك فهم يُوَحدون بين المهمتين اللتين من المفروض أن تكونا منفصلتين، ويربطون بينهما بأسلوب ينافي العقل. فإذا تراجعت الجينات باعتبارها العامل الخلاق إلى مركز هامشي، يكون ما تبقى هو عامل الاختيار الذي لا عقل له ولا إدراك يمكنه فعلا من اتخاذ قرار الاختيار. وبدفع الجينات خارج نطاق الحلبة لا يبقى فيها سوى عامل واحد هو الانتخاب الطبيعي. وهم بهذا الأسلوب قد دمجوا في قالب واحد، وبغير أي تبرير منطقي، المهام المنفصلة للخلق والاختيار. وعلى أية حال، فليس هناك من عالم واحد يعلم شيئا عن آراء داروين يمكن أن ينسب إليه دعوى أن الانتخاب الطبيعي يمكن أن يقوم أيضا بمهمة الخلق، إذ لا بد أن يكون هناك أشياء مخلوقة أولا لكي يستطيع الانتخاب الطبيعي أن يؤدي عمله عليها. وهذه هي المعضلة التي لا يستطيع أن يحلها أبدا أنصار الانتخاب الطبيعي هؤلاء.

إن القرآن المجيد يقدم صورة مختلفة تماما، وفيها الحل الصحيح الكامل للمعضلة التي بين أيدينا. فالقرآن يعلن أن حقائق التطور تقضي بأنه لا يمكن أن يكون الذي يخلق والذي يختار شخصين مختلفين. إن الذي يخلق، هو وحده فقط الذي يستطيع أن يختار من بين ما خلق. وما لا يختاره ليجعل منه مخلوقا أكثر تقدما فإنه لا يمحوه من الوجود بالضرورة، وإنما يظل موجودا لتوسيع قاعدة الخلق على كل مستوى يمكن أن يقوم بدور فعال في النظام العام للخلق. وعلى ذلك.. في كل مرة يتقدم فيها التطور خطوة، تزداد قاعدة التطور اتساعا، لكي تتمكن من دعم ما أضيف إلى عمودها المتصاعد.

وحسبما يقول به القرآن الكريم، فإن الإنسان ما كان ليشغل المكان العالي الذي يشغله على سلم التطور، وما كان ليستطيع المحافظة عليه، بغير النظام الحيوي الذي ينظم العلاقة بين الكائنات الحية وبيئتها، والذي تساهم في توفيره الكائنات الأخرى ذات المستوى الأدنى. وإلى هذا تشير الآية الكريمة التالية:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَآبَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (١٦ النحل:٦٢)

وأهم ما ينبغي ملاحظته هو أن العالم الحيواني بأكمله سوف يُمحى من الوجود إذا اقتضى الأمر معاقبة الإنسان. ومن هذا يتبين أن مستويات الحياة الأدنى من الإنسان، ليس لوجودها أي غرض سوى دعم الحياة البشرية التي تفوقها. فإذا تقرر أن يختفي الإنسان من هذه الدنيا، فإن كل أنواع الحياة سوف تختفي معه.

وعلى هذا يكون السؤال الهام النهائي الذي يجب أن يُطرح ويجيب عليه الفلاسفة، والعلماء، وأولئك الذين يؤمنون بأن الانتخاب الطبيعي يقوم عمليا بكل من مهمتي الخلق والاختيار في النظام العام، هو كالتالي:

لا بد أن تجتمع مهمّتا الخلق والاختيار بشكل ما، ولا بد أن يتم هذا الاجتماع في شخص الخالق، وليس في شخص من لا يخلق بل يقتصر على الاختيار. وهذا هو الاستنتاج الوحيد المنطقي الذي يمكن أن يستنتجه أحد. ولكن هذا الاستنتاج يؤدي بالضرورة إلى الله تعالى، وهو الأمر الذي يسعى عالم المؤمنين بالطبيعة لأن يتجنبوه. ومن أجل إزالة هذا الاستنتاج الحتمي، حاول داروين أن يعزو كلتي المهمتين إلى الانتخاب الطبيعي بأسلوب غير مباشر. *فهل حدث أن قدم داروين فكرة أن الانتخاب الطبيعي يستطيع أن يخلق أيضا؟* حسب ما نعلم.. إنه لم يفعل

ذلك قط. لقد كان يعلم، كأي إنسان ذي ذكاء حاذق، أن مهمة الاختيار ومهمة الخلق هما وظيفتان مختلفتان. ولعله كان من الأكثر معقولية.. أن من يقوم بدور الخلق ينبغي أيضا أن يقوم بدور الاختيار من بين ما يخلقه. غير أن هذا لا يناسب نظرية التطور العمياء، ومن هنا كانت كل هذه المحاولات المحمومة لاستبعاد وجود خالق عاقل واع، يمكن أن يكون أيضا هو الذي يختار. وعلى أية حال، إنه من المستحيل تصور وجود خطة للاختيار، وخطة أخرى منفصلة للخلق، كلاهما بدون عقل، ومع ذلك كلاهما يتقدم إلى الأمام في توافق تام. ويبدو أن داروين قد حل هذه المعضلة بقوله إنه ما دام الانتخاب الطبيعي يوافق على شكل الأجسام التي تخلقها الجينات، فيمكن القول.. بشكل ما.. إن الانتخاب الطبيعي يقوم أيضا بدور الخالق بطريق غير مباشر.

لقد كتبنا في فصل آخر بالتفصيل رفضا لفكرة أن يُعزى فضل ما تنتجه الجينات إلى الانتخاب الطبيعي، سواء كان ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. ولكننا نود هنا تبيان أن عزو عوامل خلاقة للجينات، والقول في نفس الوقت بحرمانها من المعرفة الواعية، هو أمر متناقض. وإنه لمن الغباء بمكان أن تبدأ رحلة التطور من الجينات، بغير أن تُعرف أولا العوامل التي خلقت الجينات نفسها. وإنه من المستحيل على أنصار الداروينية أن يُبينوا كيف يمكن أن يكون الانتخاب الطبيعي قد لعب أي دور على الإطلاق في خلق الجينات. كيف ولماذا تستطيع الجينات أن تخلق بغير أن يكون لها القدرات الخلاقة للعقل الواعي؟ هذا هو السؤال الذي كان من الواجب إجابته أولا. وباختصار.. ينبغي أولا تعريف الخالق العاقل الواعي الذي خلق الجينات، وإلا فلا بد من الاعتراف بأن الجينات التي ليس لها عقل ولا إدراك، هي التي خلقت نفسها، وكأنها كانت مؤهلة لذلك بجدارة وبوعي، ومزودة بقدرات خلاقة. وإنه لمن المثير حقا تصور شيء بغير عقل وبدون وعي ولا إدراك، يقوم بخلق نفسه ببراعة

فائقة وبكفاءة ممتازة. إن أصحاب الطبيعة يبدأون رحلتهم بغير أن يبحثوا هذا الأمر الذي يلزم بحثه أولا. ويرجع فشلهم في معالجة هذا السؤال إلى أنه من المستحيل لهم أن يجدوا لـــه جوابا، بغير أن يصيبوا منظورهم كله للتطور بالفوضى والتناقض. أما القرآن المجيد فهو يقدم إجابة شافية مباشرة لحل هذه المعضلة، حيث يقول:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيرَةُ ۚ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢٨ القصص:٦٩)

إن ما تبرزه هذه الآية هو أن مهمة الاختيار أساسا هي من حق الخالق ﷻ، وأنه لا يمكن الفصل بين المهمتين.

إن الله تبارك وتعالى يعلن أنه هو ذلك الخالق الذي يخلق ويختار من خلقه ما يشاء. وهذا هو ما يجب أن يكون، وهذا بالضبط هو ما كان. ولا يستطيع أحد ممن يعبدون الطبيعة أن يغير هذه الحقيقة، ولا أن يستبدل الخالقَ سبحانه بخالق آخر عديم العقل. وهم في محاولة يائسة لخلق ذلك الإله، حاولوا أن يجمعوا في الانتخاب الطبيعي مهمة الخلق أيضا. وبذلك فهم يُفضلون أن يؤمنوا بمبدأ لا يعرف شيئا ولا يعقل شيئا، ويفتقد الوعي في الحالتين.. أي أنهم يفضلون أن يكونوا أبناءً للعدم والفراغ.

إن كل ما بقي في أيديهم هو مبدأ لا عقل له، ولا ذات له، بل هو مبدأ أصم، وأبكم، وأعمى، يؤمنون بأنه هو الذي خلقهم. وبالمناسبة.. إن هذا الموقف يُذكرنا بالمثل القائل: هذا الشبل من ذاك الأسد، إلا أن الأسد هنا أصم وأبكم وأعمى، ومع ذلك فهم يعتبرون ذلك محلا للفخر وسببا للتباهي. غير أننا نود أن نختلف بشدة مع هذا الاتجاه. إننا نفضل أن نكون نتاج عمل الخالق الذي يتصف بالحكمة المطلقة، وله القدرة الواسعة على تنفيذ ما يشاء وما يختار. فلا بد لنا أن نؤمن بذلك الخالق العظيم، وإلا فلا بد أن ننكر أن لنا عقلا نفكر به ومنطقا نفهم به، بينما يبدو أننا

نتمتع بالعقل والمنطق. وإن كان لأولئك الذين لا يؤمنون بما نؤمن به أي حق في الاختيار، فعليهم هنا أن يمارسوا هذا الحق. فأي من الخالقين الاثنين يودون أن يختاروه ليكون هو الذي خلقهم؟ إن هذا الأمر متروك لهم ليقرروه بأنفسهم.

المــــــــراجع

1. DAWKINS, R. (1986) *The Blind Watchmaker*. Penguin Books Ltd, England.
2. DAWKINS, R. (1986) *The Blind Watchmaker*. Penguin Books Ltd, England, p.xiii
3. DAWKINS, R. (1986) *The Blind Watchmaker*. Penguin Books Ltd, England, p.24
4. DAWKINS, R. (1986) *The Blind Watchmaker*. Penguin Books Ltd, England, p.25
5. DAWKINS, R. (1986) *The Blind Watchmaker*. Penguin Books Ltd, England, pp.25-26
6. DAWKINS, R. (1986) *The Blind Watchmaker*. Penguin Books Ltd, England, p.35
7. DAWKINS, R. (1986) *The Blind Watchmaker*. Penguin Books Ltd, England, p.36
8. DAWKINS, R. (1986) *The Blind Watchmaker*. Penguin Books Ltd, England, p.37
9. DAWKINS, R. (1986) *The Blind Watchmaker*. Penguin Books Ltd, England, p.39
10. DAWKINS, R. (1986) *The Blind Watchmaker*. Penguin Books Ltd, England, p.45
11. DOWNER, J. (1988) *Supersense*. Perception In The Animal World. BBC Books, London, pp.12-13
12. DOWNER, J. (1988) *Supersense*. Perception In The Animal World. BBC Books, London, p.16
13. DOWNER, J. (1988) *Supersense*. Perception In The Animal World. BBC Books, London, p.29

14. DOWNER, J. (1988) *Supersense*. Perception In The Animal World. BBC Books, London, pp.48-49
15. DOWNER, J. (1988) *Supersense*. Perception In The Animal World. BBC Books, London, p.46
16. DOWNER, J. (1988) *Supersense*. Perception In The Animal World. BBC Books, London, p.32
17. DAWKINS, R. (1986) *The Blind Watchmaker*. Penguin Books Ltd, England, p.98
18. DAWKINS, R. (1986) *The Blind Watchmaker*. Penguin Books Ltd, England, p.99
19. DAWKINS, R. (1986) *The Blind Watchmaker*. Penguin Books Ltd, England, p.98
20. DAWKINS, R. (1986) *The Blind Watchmaker*. Penguin Books Ltd, England, pp.98-99
21. DAWKINS, R. (1986) *The Blind Watchmaker*. Penguin Books Ltd, England, p.99
22. DAWKINS, R. (1986) *The Blind Watchmaker*. Penguin Books Ltd, England, p.97
23. WINSTON, M.L., (1991) *The Biology of the Honey Bee*. Harvard University Press, London, p.83
24. WINSTON, M.L., (1991) *The Biology of the Honey Bee*. Harvard University Press, London, p.81
25. WINSTON, M.L., (1991) *The Biology of the Honey Bee*. Harvard University Press, London, p.83
26. WINSTON, M.L., (1991) *The Biology of the Honey Bee*. Harvard University Press, London, p.1
27. MOZHERENKOV, V.P., SHUBINA, L.F., (1982) *Use of Honey In Treating Eye Diseases*- Translation of Russian Article: Feldsher Akush.

الباب السادس

- كشف القرآن عن الغيب – منظور تاريخي
- الإبادة النووية
- الهندسة الوراثية
- الطاعون
- فيروس الأيدز

الفصل الأول
كشف القرآن عن الغيب
منظور تاريخي

هـــناك مدى واسع لا حدود لـــه من "الغيب" يحيط بجميع المعارف الإنسانية. وما يعلمه الإنسان عن ماضيه وحاضره ومستقبله، لا يتعدى أن يكون ومضة من الضوء تماثل إحدى تلك الومضات الضوئية التي تنبعث من ذيل يراعة تسبح في محيط واسع من الظلمة الحالكة. ورغم أن الإنسان قـــد مـــد آفـــاق معارفـــه إلى حـــدود الكون بمساعدة الفيزياء الفلكية والرياضـــيات العالـــية، إلا أن الحقائق التي بدأت تصله من حدود الكون كانـــت من خلال إشارات ضوئية انبعثت منذ ما يقرب من ١٨ إلى ٢٠ ملـــيارًا من السنين الضوئية. أما ماذا حدث هناك خلال هذه المدة، وما عساه يحدث هناك الآن، فهو أمر يخضع لمجرد التخمين.

ولندع الماضي والمستقبل جانبا.. فحتى معرفة الحاضر تقع في الغالب وراء نطـــاق المدارك الإنسانية. فما الذي يعرفه الإنسان عن الأمور التي تحدث بعيدا عن بيته، وعن الشارع الذي يسكن فيه، والمدينة التي يعيش فيها؟ إن كل وسائل الإعلام مجتمعة، لا يمكن أن تنقل إليه حتى جزءا من مليار جزء من الأمور التي تحدث في العالم من حوله. ولكن ليس هذا هو كل ما في الأمر. فماذا يعرف الإنسان عن الناس ممن يبدو أنه يعرفهم من بـــين أصـــدقائه وأقـــرب أقربائه؟ إن النفاذ إلى ما وراء المظهر الخارجي للإنســـان لمحاولة قراءة ما هو خلف المظهر، إنما هو أصعب من النظر إلى سطح بركة مياه طينية ومحاولة رؤية ما تخفيه المياه تحت السطح. ففي كلتا الحالتين لا يرى الإنسان سوى الصور التي تنعكس على السطح فقط، مع

الأخـــذ في الاعتبار أن البرك لا تستطيع أن تُمثل، ولا أن تتظاهر، ولا أن تتكلف، ولا تتعمد افتعال مظهر معين يخالف الحقيقة. واعتمادا على حالة الطقـــس، في أيام الشتاء التي قد تتجمد فيها المياه، أو في بقية أيام السنة، تـــبدو البركة دائما بنفس المظهر؛ أما الإنسان فليس كذلك. إن تعقيدات النفس الإنسانية، وتقلبات الأمزجة والسلوكيات البشرية، وتباين المبادئ الأخلاقـــية والفلســـفات الخاصة بكل فرد، واختلاف القدرات وتنوع استعدادات كل من القلب والرأس، وعمق أو ضحالة السلوك.. هي بعض المـــتغيرات التي لا حصر لها، والتي لا تشترك فيها البرك. وحتى ما يجري داخل نفس الإنسان ذاته.. يظل أحيانا كثيرة أبعد من قُدرة الإنسان نفسه عـــلى إدراكه وفهمه. ومع ذلك.. فإن الكثير من الناس لم يتعلموا دروس التواضـــع بعـــد، ونادرا ما يُدركوا أن المصدر الأعلى لكل حق مطلق، وينـــبوع كـــل معرفة كاملة، لا يمكن أن يكون سوى الخالق ﷻ. فهو وحـــده الذي يحيط بجميع أسرار خلقه، وهو وحده العليم البصير، وهو.. دون سواه.. الكبير العظيم.

إن المعـــرفة هـــي أهم اللوازم الضرورية التي ينبغي توفرها من أجل الخلـــق، سواء كانت المعرفة ربانية أو معرفة بشرية، وسواء كان المخلوق كبيرا أو صغيرا. فبغير المعرفة الكاملة العميقة بكل ما يُراد خلقه، لا يمكن أن يـــتحقق الهدف من الخلق. ولذلك فإن الخالق وحده فقط، ولا أحد سواه، هو الذي يعرف جميع دقائق وخفايا وتعقيدات ما يخلقه. ومن هنا كـــان العـــلم الـــذي يشمل ويحيط بكل شيء هو ما يختص به الله تعالى وحده، فالمعرفة الكاملة الشاملة بكل موجود هي من اختصاص الله وحده العليم بكل شيء، ولا يشاركه فيه أحد سواه.

فإذا كان نفس ذلك الإله العليم بكل شيء، والموجود في كل مكان وفي كل آن، هو الذي أنزل القرآن من لدنه، فلا بد للوحي القرآني الذي يتعلق بالماضي والحاضر والمستقبل أن يتأيد بالحقائق الصحيحة الثابتة حين

يُلقـــى عليه ضوء البحث والتمحيص، وهذا بالضبط ما سوف نتناوله في الســـطور التالية. ويحدونا الأمل الكبير أن نتمكن من فعل ذلك مستعينين بالحقائق المقررة، التي لا جدال فيها ولا نزاع عليها.

لقد ناقشنا فيما سبق بشيء من التفصيل دور الوحي القرآني في إبراز بعض حوادث الخلق التي تمت في الماضي السحيق، منذ بداية الزمن.. حين انفجـــر الكون على حين فجأة من ثقب أسود. وحسبما يقول به القرآن الكريم.. انفتق الكون بأمر من الخالق القدير، ثم تنتهي تغطية الوحي القرآني بانتهاء الزمن، حين ينسحق الكون مرة أخرى في ثقب أسود آخر.

أمـــا فـــيما يتعلق بمنشأ الحياة.. فإننا نرى كذلك أن الوحي القرآني جـــامع شـــامل، ودقيق بشكل يثير الدهشة والعجب، فهو يغطي جميع مراحل التطور الهامة.. العضوية والحيوية.. على مدى ٤,٥ مليار عام من تـــاريخ هذا التطور.. إلى أن بلغ التطور ذروته بخلق الإنسان. ومنذ ذلك الوقـــت ومـــا تلاه، ذكر القرآن الكريم تاريخ الإنسان فيما يتعلق بتطور المجـــتمع والدين والحضارة. وذكر أيضا إمكانية انقراض الجنس البشري، الـــذي قـــد يُستبدل بشكل آخر من أشكال الحياة.. يكون أعلى وأكثر تطورا.

إن كل ما أشرنا إليه هنا قد سبق أن ذكرناه بالتفصيل في فصول هذا الكـــتاب، وقـــد أوضحنا كيف أن الوحي الإلهي يمكن أن ينقل بكفاءة كاملـــة أمورا من عالم الغيب المجهول إلى نطاق المعلوم. وسوف نُبين في هـــذا الفصـــل كيف أن القرآن المجيد قد كشف بعض الوقائع الهامة في الـــتاريخ بعـــد أن كانت دفينة بين طيات الماضي الذي يكتنفه الغموض. وســـوف نُبين أيضا كيف أنه كشف كذلك العديد من أحداث المستقبل الـــتي لم يكـــن لأحد حول ولا استطاعة لمعرفتها في الزمن الذي نزل فيه القرآن. وسوف نُوَضح على وجه الخصوص كيف أن القرآن المجيد قد تنبأ بكل دقة بالمنجزات العلمية الكبرى التي سوف ينجح الإنسان في تحقيقها،

والتي كان من المقدر لها أن تغير أسلوب حياته تغييرا كاملا.

ونبدأ هنا بسرد واقعة تاريخية هامة، لها أهمية دينية مشتركة لدى كل من اليهود والنصارى والمسلمين. وهي تتعلق بخروج موسى عليه السلام من مصر، وما حدث لجيش فرعون الذي خرج في إثر موسى عليه السلام بعد أن عبر هو وقومه منطقة دلتا النيل.

هناك الكثير من الأمثلة الأخرى في التاريخ اليهودي والمسيحي عن نفس الفترة الزمنية، وقد ذكرها العهد القديم والعهد الجديد من الكتاب المقدس، كما ذكرها أيضا القرآن المجيد. غير أننا اخترنا بالذات واقعة الخروج لهذا البحث الحالي، لأنها تُوَضح بجلاء طبيعة الوحي الإلهي كما جاء في القرآن المجيد.

إن سرد الكتاب المقدس يبدو بالمقارنة أنه ضحل وسطحي، رغم أنه يقص الكثير من حوادث التاريخ عبر الكثير من القرون. فمن وجهة نظر أحد الأتباع من معسكر موسى عليه السلام، يكون أقصى ما يمكن أن يلاحظه ويسجله عن توالي الأحداث هو غرق فرعون وجنوده، وقد غمرتهم أمواج كالجبال ابتلعتهم بين طياتها. أما ماذا حدث لفرعون نفسه قبل أن يغرق؟ وما الذي وقع بين الله تعالى وفرعون أثناء لحظاته الأخيرة قبل الغرق؟ وما هو ذاك الذي طلبه فرعون من رب موسى، إن كان قد طلب شيئا، في اللحظات التي واجه فيها الموت؟ فهذه كلها أمور تقع كلية خارج نطاق ملاحظة أي إنسان ينظر إلى ما يحدث وهو يقف على الشاطئ. وعلى هذا.. فإن كل ما يذكره الكتاب المقدس عن فرعون وجنوده هو أنهم قد غرقوا جميعا بغير استثناء، إذ يقول:

> "فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر، لم يبق منهم ولا واحد. وأما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم".[1]

ومن الواضح.. حسب هذه العبارة من الكتاب المقدس.. أن البحر

قد ابتلع جميع الأجساد، و لم يُستثن فرعون من ذلك، فكان الهلاك شاملا. وفي المقابل من هذا.. وردت العبارة التالية في القرآن الكريم تصف نفس الحدث الذي ذكره الكتاب المقدس، ولكن الفرق واضح بين العبارتين:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۞ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ (١٠يونس:٩١-٩٣)

وينبغي أن نلحظ هنا أنه على عكس هذه العبارة القرآنية.. نجد أن عبارة الكتاب المقدس لا تشير من قريب أو بعيد إلى أي احتمال لاستعادة جسد فرعون، إذ تقول: "..... لم يبق منهم ولا واحد"

وعلى هذا، وإلى أن جاء الزمن الذي ذكر فيه القرآن نجاة جسد فرعون ليكون آية لمن يأتي خلفه من الأجيال البشرية، لم يشر إلى هذه الحقيقة أي مصدر تاريخي بشري.

وحينما أُنزل القرآن.. كانت قبور الفراعنة المصريين ترقد في أعماق الأرض تحت طبقة من بعد طبقة من رمال الصحراء. وكان الناس في ذلك الزمن يعرفون قليلا عن علوم تحنيط المومياوات، وبالتأكيد كان العرب أبعد ما يكونون عن معرفة هذه الأمور. لم تكن هناك كتب ولا روايات منقولة، سواء كانت دينية أو غير ذلك، قد ذكرت شيئا على الإطلاق عن نجاة فرعون بجسده، ناهيك عن ذكر ما تلا ذلك من عمليات تحنيط جسده وحفظه لأجيال وقرون طويلة. إن هذا السرد القرآني فريد أيضا في أنه لا يكشف فقط مجرد بعض الأحداث التي وقعت في الماضي، والتي

لم تكـــن معروفة للعالم في ذلك الوقت، وإنما هو يتنبأ أيضا بأن المستقبل ســـوف يشهد على صحة وحقيقة البيان القرآني. لقد كان تصور إمكان استعادة جسد فرعون بعد غرقه في الظروف التي ذكرها الكتاب المقدس.. أمـــرا لا يقبله العقل، ومثل هذا الجسد.. حتى ولو أمكن استعادته.. فإنه سوف يُشكل مشكلة ليست هيّنة من أجل تحنيطه وحفظه كمومياء.

ورغـــم كل ذلك.. فإن هذا هو ما يذكره القرآن المجيد. فما كان أحد ليجرؤ على التقوّل بعبارة مثل هذه العبارة القرآنية مخالفا بذلك جميع الدلائل التاريخية المعروفة في زمن نزول القرآن المجيد. وكل ما كان الناس يعرفونه عن فـــرعون هـــو أنه قد غرق، وأن جسده قد فُقد في أعماق البحر إلى الأبد. وحتى لصوص المقابر لم يكن لديهم أدنى معرفة بأي من الملوك الفراعنة قد تم دفـــنهم في المقابـــر التي نطلق عليها اليوم اسم وادي الملوك. فما الذي دفع الرسول ﷺ لأن يأتي بعبارة فريدة كهذه إن كان هو مؤلف هذا القرآن؟ إن مثل هذه العبارة لم تكن لتخدم أي غرض على الإطلاق، بل من الممكن أن يكـــون لها أثر معاكس، فلو تحداه أحد.. لما استطاع النبي ﷺ أن يُقدم أي دلـــيل عـــلى صدق العبارة التي أتى بها. إن هذه العبارة لم تكن لتخدم أي غرض سوى أن تجعل مصداقية القرآن الكريم محلا للشك. ولكن.. لقد كان مـــن المقـــدر أن تخرج الأرض أثقالها وتلفظ أسرارها بعد مرور العديد من القـــرون من نزول وحي القرآن، وأمكن بعد ذلك الكشف عن مومياوات جميع الملوك الفراعنة الذين كانوا فراعنة مصر في زمن موسى عليه السلام.

وســـواء كـــان فرعون مصر في ذلك الزمن هو رعمسيس الثاني أو فرعون آخر، فهو أمر لا يزال محل جدل واختلاف، ولكن لا يختلف أحد عـــلى أن إحدى المومياوات التي استُخرجت من وادي الملوك هي مومياء فرعون الذي تصدى لموسى عليه السلام. وعلى هذا يكون الحكم الوحيد الذي يمكن أن يقرره المرء هو أنه على عكس حكم التاريخ الذي كان سائدا في العـــالم بأجمعه آنذاك، فإن حكم الوحي القرآني وحـــده هو الذي ثبتت

صحته: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾. هذا هو حكم القرآن الذي صار اليوم هو حكم التاريخ أيضا في العالم.

ويمكن أن يعني هذا الخطاب الذي وجهه المولى ﷻ إلى فرعون.. أنه قد مضى الوقت الذي كان من الممكن فيه إنقاذ حياته، وعلى ذلك فإن جسده الميت هو فقط الذي سوف يتم إنقاذه. ومن الممكن أن يكون المعنى الآخر المحتمل لهذه العبارة هو أن الوقت قد مضى لقبول الإيمان الذي أبداه، وعلى هذا فلن يكون هذا الإيمان سببا في نجاة روحه من العذاب، ولكن من الممكن أن يتم إنقاذ جسده فقط من الموت ليعيش بعد ذلك حياة وهو أشبه بالأموات، مما يُعبر عنه اليوم بالموت السريري. ونحن نرى أن المعنى الثاني هو المقصود بالعبارة القرآنية، ولتأييد وجهة النظر هذه نذكر الأسلوب القرآني الذي يقص وقائع هذه الأحداث، وعلى وجه الخصوص التعبير الذي يقول: ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾.

وهنا يبدو فرعون حريصا على بقائه حيًّا، وليس على مجرد استعادة جثته، فإن لم يتم إنقاذ حياته الروحانية ولا حياته المادية، فما هو معنى هذا الوعد الذي تلقاه فرعون؟ إذ من الواضح أن فرعون لم يدع الله لإنقاذ جسده الميت.

وإذا كان دعاؤه قد استُجيب.. ولو جزئيا.. كما يتضح ذلك من القرآن المجيد، فلا معنى لأن يُقضى عليه بالموت روحانيا وأيضا بالموت ماديا، فهذا معناه الرفض التام لكل ما كان يدعو الله من أجله. إن إقراره بالإيمان بالإله الذي آمنت به بنو إسرائيل قد تم خشية أن يفقد حياته، ولذلك رفض الله تعالى قبول هذا الإيمان الذي لا قيمة له. وكل ما وعده الله به هو إنقاذ حياته الجسدية، وليس إنقاذ حياته الروحانية. غير أن معظم المفسرين يصرون على أن نجاة بدنه إنما يعني فقط استعادة جثته من البحر.

وهم يرون أن هذا أيضا في حد ذاته ليس بمعجزة بسيطة، تحت الظروف التي جاء وصفها في كل من الكتاب المقدس وفي القرآن المجيد.

فحتى الوعد بنجاة جثته يُعتبر نعمة عظيمة على فرعون الغريق.

فهم يقولون إن الفراعنة كانوا شديدي التكبر والشموخ، ولا بد أن مجرد الوعد بإنقاذ جثته قد أضفى عليه بعض الرضا في لحظات احتضاره. ولكن غرض الله تعالى لم يكن مجرد إشباع رغبته، وإنما كان الغرض الحقيقي هو تزويد الأجيال القادمة بآية عظيمة ذات أوجه عديدة، يمكن أن تستفيد منها تلك الأجيال.

ومهما يكن من نتائج تتمخض عنها هذه القضية.. سواء تبين أن ذلك الفرعون قد مات غرقا، وأن جثته فقط هي التي تم إنقاذها، أو أنه قد تم إنقاذه أثناء غرقه وهو في حالة أقرب من الموت منها للحياة، فإن هذا لا يؤثر بحال من الأحوال على أهمية المعجزة القرآنية. إن جسد ذلك الفرعون قد تم حفظه بالفعل، وهذه الحقيقة قد صارت معلومة لمن خلفه من أجيال، تماما كما سبق وتنبأ بذلك القرآن المجيد.

وبالمناسبة.. إن العلماء الذين يعتقدون أن فرعون كان ميتا حين تم استعادة جسده.. يعتقدون أيضا بأنه كان "منفتاح" الذي خلف رعمسيس الثاني، ولم يكن رعمسيس الثاني نفسه بل خلفه. وهذا يعني أن موسى عليه السلام عاش في فترة حكم فرعونين اثنين بدلا من فرعون واحد. فقد وُلد بينما كان رعمسيس الثاني قد تبوأ الحكم وصار ملكا، وتربى موسى عليه السلام في قصره بإشراف إحدى زوجاته التي كانت سيدة صالحة تخشى الله تعالى، ويُقال إنها كانت أصغر زوجاته. وحيث إنها كانت محرومة من إنجاب الأطفال، فقد كانت رغبتها في أن تتبنى طفلا أمرا مفهوما. وإن أخذنا بوجهة النظر هذه فيترتب على هذا أن يكون موسى عليه السلام قد ترك مدين ليعود إلى مصر بعد وفاة رعمسيس الثاني حين تم تتويج منفتاح. وهم يستشهدون بما يذكره الكتاب المقدس لتأييد رأيهم بأن الله تعالى قد أخبر موسى عليه السلام وهو بمنفاه في مدين أن فرعون - الذي أثناء حكمه قتل موسى رجلا - قد مات.

ويبدو هذا الرأي معقولا ومقبولا.. ولكن في ظاهره فقط. فإن موت الملـــك لا يُعفي أي شخص من عقاب جريمة ارتكبها، وليس في هذا أي مـــنطق على الإطلاق. ولذلك فإن الله تعالى لا يشير في القرآن المجيد من قريـــب أو بعيد إلى موت أي فرعون لكي يزيل خوف موسى عليه السلام، بل على العكس.. أخبره الله تعالى ألا يخاف، لأنه سبحانه سوف يتولى حمايته هـــو وأخيه، وهذا ما يبدو أكثر معقولية. كذلك يبدو من أحوال مومياء رعمســـيس الـــثاني أنه قد مات بعد أن بلغ أرذل العمر.. مما يقرب من التسعين عاما، وأنه قضى السنوات الثلاثين الأخيرة من عمره وهو طريح الفراش، يعاني من أمراض الشيخوخة، فكان عجوزا مترنحا من الغابرين، يقاســـي الأوجـــاع والآلام الشديدة الناتجة عن حالة متقدمة من مرض تصلب الشرايين. ومن الممكن أن تكون هذه الحالة قد نتجت بسبب غرقه وتوقف تغذية المخ بالأكسجين اللازم لوقت لم يكن قصيرا.

كذلك فإن مدة بقاء موسى عليه السلام بالمنفى في مديَن قد استمرت فقط لمـــدة ثمـــاني أو عشر سنوات. كان رعمسيس الثاني قد بلغ من العمر في نهايـــتها ما لا يزيد عن الأربعين أو الخمسين عاما. وعلى هذا فإن عبارة الكتاب المقدس التي تشير إلى أن الله تعالى كان ينتظر وفاة فرعون لتكليف موسى عليه السلام بالنبوة، وإصدار الأمر إليه بالذهاب إلى مصر هي عبارة غير مقـــبولة. وبالمناسبة.. حسبما يشير القرآن المجيد.. فإن فرعون الذي عاد إليه موسى عليه السلام قد اتهمه بارتكاب جريمة القتل، ولكنه كان يبدو مترددا في اتخاذ إجراء ضده بسبب الآيات الإعجازية التي أظهرها موسى أمامه. ومن الواضح أن نجاته من العقاب لم يكن يقينا بسبب موت أحد الفراعنة وتتويج آخر مكانه.

وأيضا.. يبدو من القرآن المجيد ومن الكتاب المقدس أن حياة موسى وأخـــيه هارون عليهما السلام بعد عودتهما إلى مصر كانت حياة حافلة بـــالأحداث، كما أن المواجهة بينهما وبين فرعون قد طالت بحيث لا بد

وأن تكــون قد استغرقت عقدا من الزمان، أو ما يقرب من ذلك، إلى أن وصلت إلى ذروتها. فليس من المعقول أن تكون كل الحوادث التي وقعت قد استغرقت عاما أو اثنين. وفي المقابل من هذا.. يُقدّر المؤرخون أن كل فــترة حكــم منفتاح من يوم تتويجه إلى يوم وفاته لم تتجاوز سوى ثماني سنوات أو أقل.

وبالإضــافة.. فإن التاريخ يصف منفتاح بأنه كان ملكا محاربا، قام بعــدة حمــلات للهجوم على أهل فلسطين عاما بعد عام، بينما لا يذكر بتاتا.. كل من القرآن المجيد والكتاب المقدس.. أن فرعون موسى قد قام بمثل هذه الحملات التي تستدعي مروره على الأرض التي كان يسكنها بنو إسرائيل في مصر. ولكن.. لعل صفحات هذا الكتاب ليست هي المكان المناسب لمناقشة هذا الموضوع بالتفصيل، كما أنه ليس من المحتم بالضرورة إثبات أي من الفرعونَين.. رعمسيس الثاني أو منفتاح.. كان هو فرعون مصــر أثــناء خروج بني إسرائيل منها. فطالما ظلت مومياتاهما محفوظتين مصــونتين، فــإن أيا منهما سوف يظل دائما شاهدا على صدق وصحة نبوءة القرآن الكريم، أما اسمهما فلا أهمية لــه على الإطلاق.

النبوءات المتعلقة بالمستقبل القريب والبعيد

بعــد أن قدمــنا بشيء من التفصيل بعض الحوادث الهامة في التاريخ المصــري القــديم، التي وقعت في عصر موسى ﷺ، والتي ظلت مخفية مكنونة إلى زمن نزول القرآن المجيد، نتوجه الآن إلى بعض نبوءات الوحي القــرآني التي تختص بالعديد من الحوادث الأخرى. وتتعلق هذه النبوءات بالكــثير مــن مجــالات الاهــتمامات الإنسانية.. الاجتماعية والدينية والسياســية.. كما تتعلق أيضا بالتقدم العلمي الذي سوف يكون بداية لعصور من التقدم، يكون من المقدّر لها أن تُغير وجه الأرض بأكملها.

كذلك فإن بعض هذه النبوءات تشمل التغييرات البيئية، والتي سوف تــتحقق عــن طريق الاختراعات العلمية المستقبلية والتوسع في الصناعة.

وهناك قائمة طويلة من هذه النبوءات التي تحتويها السور القصيرة في أواخر القرآن المجيد، ولكنها ليست مقصورة على هذه السور وحدها. وذكر هذه النبوءات ليس وقفا على القرآن وحده، فإن الكثير منها قد تناولته الأحاديث الشريفة بالشرح والتفصيل. وقد اخترنا فقط من هذه النبوءات بعض العيّنات التي تنتمي إلى فئات متباينة. أما النبوءات التي تختص بوسائل النقل الجديدة ومدى تأثيرها الواسع، فسوف نتناولها بتفصيل أكبر في نهاية هذا الفصل، نظرا لأهميتها العالمية.

وللمحافظة على تسجيل الحوادث بحسب ترتيب وقوعها التاريخي.. نبدأ بذكر النبوءات التي تحققت أثناء حياة الرسول ﷺ. والبعض من هذه النبوءات يتعلق بعودته إلى مكة بعد أن اضطر للهجرة منها إلى المدينة، وكل هذه النبوءات قد نزلت في القرآن حتى من قبل هجرته إلى المدينة، وبذلك.. وفي نفس الوقت.. أشارت هذه النبوءات إلى أنه ﷺ سوف يهاجر من مكة وسوف يعود إليها. فالآية التالية من سورة القصص، وهي سورة مكية نزلت قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة:

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٨ القصص:٨٦)

وقد كان ذكر عودته ﷺ إلى مكة المكرمة قبل هجرته منها نبوءة ذات مدلولين. وبالنظر إلى التدهور المستمر في الأحوال.. مما جعل الحياة في مكة أمرًا يزداد سوءا باطراد بالنسبة له ولأتباعه من المؤمنين، فربما يبدو موضوع الهجرة لبعض القراء أمرًا حتميا معقولا. ولكن علينا ألا ننسى أن عوامل الدهشة والعجب في هذه النبوءة ليست في وقوع الهجرة، وإنما العامل الذي يثير العجب هو التحدي الواضح لإرادة وقوة أهل مكة، الذين كان من الممكن ألا يسمحوا بتحقيق نبوءة الهجرة. كذلك فإن التصميم المتنامي لأهل مكة على منع الرسول ﷺ من الهرب، وعملهم

المتواصل على عدم السماح لـــه بالهجرة، كانت هي العوامل التي تؤكد على عدم احتمال صدور هذه النبوءة من الرسول نفسه، وهو في الظروف الصعبة التي لم يكن لـــه فيها من حول ولا قوة.

وهـــناك وعد إلهي آخر بأن الرسول ﷺ سوف يعود حتما إلى مكة، وسيدخلها مدخل صدق، وتتضمن الآية التالية هذا الوعد:

﴿وَقُلْ رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾
(١٧ الإسراء:٨١)

والمـــثال الثالث عن كيف أن عودة الرسول ﷺ الظافرة إلى مكة قد ســـبق التنبؤ بها، حتى من قبل أن تبدأ الهجرة منها. ويُمكن استنباط ذلك مـــن الآيات الأولى من سورة الروم (رقم ٣٠) التي أجمع العلماء على أنها قد نزلت قبل الهجرة:

﴿غُلِبَـــتِ الرُّومُ ۞ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَـــيَغْلِبُونَ ۞ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٣٠ الروم:٣-٦)

وتشير هذه الآيات إلى الهزيمة الأولية التي أُصيب بها الرومان على أيدي الفُـــرس. وتتنبأ هذه الآيات بوضوح بأن النصر الذي حققه الفُرس سوف يتـــبين أنـــه نصر قصير الأمد، وأنه خلال بضع سنين سوف تتحول هزيمة الرومان إلى نصر. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ إن ما تتضمنه هذه النبوءة فيما يتعلق بمصير المؤمنين هو أمر واضح كل الوضوح. إذ بعد نزول هذه الآيات لم يلبث المسلمون أن فقدوا مساكنهم وممتلكاتهم التي استولى عليها المشركون في مكة، كما فقد الرومان أيضا مساكنهم وممتلكاتهم التي وقعت في أيدي المشركين في فارس، وكان الاقتناع العام بين الصحابة هو

أنه عن قريب.. بعد انتصار الرومان.. فإن المسلمين أيضا سوف يستعيدون مكة. وكان هذا الاقتناع شاملا بين جميع صحابة رسول الله، ولكن كان الاختلاف الوحيد هو في المدة التي سوف يتم فيها تحقق هذه النبوءة. وقد نشأ هذا الاختلاف من تفسير التعبير القرآني: ﴿بِضْعِ سِنِينَ﴾ الذي يعني حرفيا فترة من الوقت تمتد من ثلاث إلى تسع سنوات. وقد راح بعض الصحابة في غمرة حماسهم من أجل تحقق النبوءة يُراهنون على أن عودتهم سوف تتحقق حتما بعد انقضاء ثلاثة أعوام. غير أن الآخرين كانوا يُذكرونهم بأن عودتهم يمكن أن تتأخر إلى تسع سنين، وهي مدة الحد الأعلى للتعبير ﴿بِضْعِ سِنِينَ﴾. وقد أثبت تتابع الأحداث صحة الرأي الأخير. وهكذا تحقق الوعدان نصا وروحا، فتحقق أولا الوعد للرومان الذين استعادوا خلال المدة المحددة أرضهم التي كانوا قد فقدوها، ثم جاء دور المسلمين لأن يعودوا إلى مكة في نصر محقق قبل انتهاء فترة ثماني سنوات بعد الهجرة.

وهناك نوع آخر من النبوءات التي تحققت أيضا بوضوح تام أثناء حياة الرسول ﷺ، تتعلق بالهجمات المتكررة على المسلمين في المدينة من جانب أهل مكة وحلفائهم من قبائل أهل البادية.

وأولى هذه النبوءات.. كما هي مذكورة في الآيات التالية.. تصف بجلاء أحداث معركة غزوة بدر. فخلال أول مواجهة على نطاق واسع بين المسلمين وجيش رهيب.. يضم المقاتلين المتمرسين على فنون القتال من بين أهل مكة، تم هزيمة الجيش الذي جاء إلى قرب المدينة غازيا، مما دفعه إلى الانسحاب والهروب المخزي، وذلك على يد حفنة من المدافعين المسلمين، تُعد بالمقارنة حفنة صغيرة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنْتَصِرٌ ۞ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۞ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾

(٥٤ القمر:٤٥-٤٧)

إن الهــزيمة الفادحــة التي نزلت بجيش مكة كان قد سبق التنبوء بها بشــكل واضح في هذه الآيات المذكورة عاليه. وتؤكد الآية الأخيرة على مرارة الساعة بالنسبة لهم.

فالصــفوة من بين زعماء مكة، الذين أقسموا على معاداة الإسلام، وكــانوا أيضا مشهورين بكراهتهم الشديدة للرسول ﷺ، سقطوا جميعا الواحد بعد الآخر، وقد تمرغت وجوههم في تراب ساحة المعركة في بدر.

لقــد قُــتِل أبو جهل بيد صبيَّين مسلمَين، وكذلك لقي شيبة وعُتبة ســاعتهم المقدرة، فأجهز السيف عليهم خلال ساعات قليلة. وحل الليل عــلى القلــوب الكــأداء الحزينة من أهل مكة وكأنه كان يوم الساعة، واضــطروا إلى الهروب مدحورين في فوضى شاملة. وتشير الآيات التالية من سورة الأنفال إلى هذه الهزيمة المخزية فتقول:

﴿وَإِذْ يَعِدُكُــمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَــيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَنْ يُّحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ (٨ الأنفال:٨)

غــــزوة الخنـــــدق

كانـــت غزوة الخندق ذات أهمية خاصة بين المواجهات الأخرى التي وقعت مع أعداء الإسلام، وقد وقعت هذه الغزوة حسب ما سبق التنبوء بـــه وبكـــل دقـــة. كذلـــك فقد سبق التنبوء خلال هذه المعركة ببعض الانتصـــارات العظـــيمة الأخرى، وذلك في الوقت الذي كانت فيه حياة المسلمين أنفسهم في مهب الرياح.

وقـــد جاء أول نبأ عن غزوة الخندق في سورة "ص"، وهي بالتأكيد سورة مكية، ونزلت في المراحل الأولى من البعثة النبوية حسب رأي معظم

العلماء. تقول الآية الكريمة:

﴿جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ﴾ (٣٨ ص:١٢)

وإلى هذه النبوءة أيضا يشير القرآن المجيد:

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ (٣٣ الأحزاب:٢٣)

ومن بين جميع المعارك التي خاضها الرسول ﷺ، انفردت غزوة الخندق بكونها أكثرها خطورة وأشدها وقعا وبلاء على المسلمين، من حيث إنها قد شُنّت على المسلمين في عقر دارهم وعلى أرضهم في المدينة. وفي الكثير من الأحيان كانت شدة البلاء تنذر بأنه لا أمل للمسلمين في الحياة والنجاة بأرواحهم. ويصف القرآن المجيد أحوال المسلمين في الآيات التالية:

﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ۝ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ۝ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إلا غُرُورًا ۝ وَإِذْ قَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إلا فِرَارًا﴾ (٣٣ الأحزاب:١١-١٤)

وقد استحقت هذه الغزوة أن تسمى غزوة الخندق.. لأنه لما بلغت الأخبار رسول الله بأن جميع قبائل العرب تقريبا قد تواطأت على غزو

المدينة، في مواجهة حاسمة أخيرة للقضاء على الإسلام قضاءً مبرما، صار بناء حاجـــز في الجـــزء المكشوف من المدينة أمرا لا مناص منه. فقد كان عدد المســـلمين بالنســـبة لأفواج الجيوش المهاجمة صغيرا للغاية، حتى إنه كان من المســـتحيل لهم على الإطلاق أن يمنعوا العدو من دخول المدينة إذا شب قتال عام بين الجانبين. وعلى هذا.. وبعد التشاور في الأمر.. تقرر أن حفر خندق هو الخيار الوحيد المتاح أمام المسلمين. وكان المطلوب هو حفر خندق على طول مسافة لا تقل عن ميل في أرض صخرية شديدة الصعوبة.

وتختلف التقديرات عن أعداد المسلمين الذين اشتركوا في هذا العمل، إذ تقول أدنى التقديرات إنهم كانوا سبعمائة، بينما تذكر أعلى التقديرات أنهـــم كانوا ثلاثة آلاف. ونحن نرى أن عددهم كان حول ألف وثمانمائة رجل على أكثر تقدير، وذلك لأن الأمر الوحيد الذي تتفق عليه الآراء هو أنـــه قـــد أُنيط بكل مجموعة تتكون من عشرة أفراد.. حفر مسافة عشر ياردات من الخندق. وحيث إن المسافة كانت لا تزيد عن ميل واحد، لم يكن عدد أفراد المسلمين المطلوبين ليزيد عن ألف وسبعمائة وستين رجلا. وكان العمل شاقا ومجهدا، وكان المشتركون يعانون من الفقر والحرمان، ممـــا زاد من صعوبة المشاكل التي كان يواجهها المعسكر الإسلامي. وفي بعـــض الأحـــيان كان يتعين على الرجال العمل على معدة خالية خاوية طوال اليوم وعلى مدى الأيام المتتالية.

وفي أثـــناء تلك الظروف القاسية، بلغ الرسول ﷺ أنه رغم المحاولات المـــتكررة للرجال المشتركين في الحفر، فإن حجرا صخريا كبيرا اعترض طـــريق الحفر، وظل شامخا في عناد غير عابئ بضربات المعاول التي انهالت علـــيه. وتوجه الرسول ﷺ إلى مكان الحجر ليتفقد الأمر، فلما وصل إلى الـــبقعة التي بها المعضلة أخذ معولا بيديه الشريفتين، وضرب الحجر ثلاث ضـــربات حـــتى انفلـــق، وتحطم إلى قطع صغيرة. وفي كل مرة كان ﷺ يضـــرب بمعولـــه الحجـــر.. كان الشرر يتطاير منه فيصيح مكبرا: "الله

أكبر". وفي نهاية الأمر.. استفسر منه الصحابةُ عن سبب تكبيره في المرات الثلاث بصيحة الانتصار، فأجاب الرسول ﷺ بأنه رأى في الشرارات التي تطايـــرت في المـــرة الأولى قصـــور سوريا في الإمبراطورية البيزنطية وقد أُعطيـــت له مفاتيحها، وفي المرة الثانية رأى قصور ميديا وفارس المضيئة وقـــد تسلم مفاتيحها، وفي المرة الثالثة تسلم مفاتيح قصور صنعاء بعد أن شاهدها في الشرارات التي انبعثت عندما ضرب الحجر بمعوله. ويشهـــد الـــتاريخ على أن هـــذا هو ما تحقق بالضبط، ولكن لم تكن المعجزة هي في تحقـــق هذه الأنباء فحسب، وإنما كان مجرد التفوه بهذه النبوءات، في ذلك الوقت الصعب الذي قيلت فيه، هو في ذاته معجزة كبرى.[٢]

إنـــه من النادر أن يُقدم لنا التاريخ مثالا مشابها لقلة من المدافعين، لا حـــول لهم ولا قوة، يتعرضون لهجوم كاسح من عدو كاسر، كما كان الحـــال مـــع المسلمين أثناء انشغالهم في حفر الخندق، يوما بعد يوم، وقد عضّهم الجوع بأنيابه، ونال منهم التعب بأوجاعه. لقد كان ذلك الوقت هـــو الوقـــت الذي لم يحدث لروح المسلمين المعنوية أن اضمحلت إلى مستوى أدنى مما وصلت إليه، وكان ذلك الوقت هو الوقت الذي تحدث فـــيه محمد ﷺ بهذه الكلمات التاريخية التي لا يستطيع التاريخ أن يصنعها، بل هي التي صنعت التاريخ.

وتنبُّؤ أحد بمثل هذه الانتصارات في مثل ذلك الوقت العصيب.. يعني أن هـــذه النـــبوءات لا بد أن تكون إما من نتاج هذيان رجل مجنون، أو تكون بلاغا من رب العالمين على لسان نبي عظيم. أما أن يكون محمد ﷺ مجنونا فحاشا لـــه ذلك، فقد كان هو أحكم الحكماء الذين عاشوا على وجه هذه الغبراء. وإن كان هناك من نبي قد تشرف بتلقي أعلى درجات الوحـــي القدسي العظيم من الله تعالى، فقد كان ﷺ هو ذلك النبي. لقد صـــاغت شفتاه الكريمتان الأقدار، ونطق لسانه الحكيم الأحكام لأن الله تعالى كان يتكلم معه، وهو يتكلم بلسانه ﷻ.

وكمـــا سبق الإشارة إليه.. ليس الغرض من هذا المقال تقديم دراسة تفصـــيلية لكل النبوءات التي ذكرها القرآن المجيد والرسول ﷺ، وإنما هي مجـــرد محاولـــة لأن نقدم للقارئ بعض النبوءات المعيّنة التي لها وقع كبير ومدى واسع. وبعد أن ذكرنا بعض هذه النبوءات التي تتعلق بزمن رسول الله والفترة التي تلته مباشرة، نتوجه الآن إلى فئة أخرى من النبوءات تتعلق بالمستقبل البعيد نسبيا. ومن الصعب تقرير من أين نبدأ، ولكن لعله ليس مـــن غير المناسب أن نبدأ بالنبوءات عن امتداد العالم الذي كان معروفا، وذلـــك باكتشـــاف قارتي أمريكا الشمالية والجنوبية. وفيما يلي الآيات الكريمة التي تتعلق بهذا الموضوع:

﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ۞ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۞ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ (٨٤ الإنشقاق:٤-٦)

وقد تحققت بوضوح كامل النبوءة التي تتضمنها الآية الأولى في هذا المقطـــع باكتشاف 'العالم الجديد' في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، حـــين خطا كريستوفر كولومبس بأقدامه للمرة الأولى على أرض جزيرة من جزر البهاما في ١٢ أكتوبر (تشرين أول) من عام ١٤٩٢.

كانـــت هـــذه هـــي بداية النهاية لشعوب الأمريكتين. ولكن بداية أخـــرى.. يبدو أنه لا نهاية لها.. قد قُدّرت لأمريكا أن تعلو وتتسلط على بقية العالم القديم، وهذا ما تتضمنه بجلاء الآية الثانية التي تذكر أن الأرض سوف تلقي بأثقالها وأسرارها وتخلو بذلك.

ونفـــس هـــذا الموضوع قد تناولته أيضا وبتفصيل أكثر بعض السور الأخرى. فمثلا تقول الآية الثانية والثالثة من سورة الزلزال:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۞ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ (٩٩ الزلزال:٢-٣)

وهـــنا تذكـــر الآية نبوءة عن أن الأرض سوف تتزلزل زلزالا شديدا، وسوف تُخرج المعادن الثقيلة التي في باطنها، وسوف يبدأ الإنسان في التعجب والاندهاش لأحوالها، حتى إنه سوف يبدأ في التساؤل عما جرى لها.

إن كـــلمة 'أثقـــال' التي جاءت في الآية تشير إلى كل ما هو ثقيل، وعلى ذلك فإن تفسير خروج الأثقال من الأرض بما يعني خروج المعادن الثقـــيلة، لا يُعـــد تحميلا على معنى الآية. كذلك فإن إخراج الأثقال من الأرض يمكـــن أن يكون معناه خروج الكنوز من الأرض. إن كل التقدم العـــلمي الـــذي تحقق في عصرنا هذا ما كان من الممكن أن يتحقق بغير اكتشاف المعادن الجديدة التي أخرجتها، الأرض تماما كما سبق أن ذكرته النـــبوءة. فـــإذا استبعدنا وجود جميع هذه المعادن.. لدارت عجلة التقدم العـــلمي إلى الخلف دورة كاملة. فلا يمكن تصور إمكانية وجود أي من الاختراعات العلمية الحديثة بغير اكتشاف الفحم، والبترول، واليورانيوم، والبلوتونيوم، والألومنيوم وغير ذلك.

إن الترتيب الزمني لهاتين النبوءتين المذكورتين عاليه يتضمن أيضا معنى معينا. فالنبوءة التي تتحدث عن امتداد الأرض في العالم القديم.. قد تبعتها عـــلى الفور النبوءة التي تتحدث عن استخراج المعادن الجديدة، وهذا هو بالضبط الترتيب الذي تحققت به النبوءتان.

النبوءة عن الكشوف الأثرية

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ (٨٢ الانفطار:٥)

بيـــنما تتحدث آية سورة الزلزال بوضوح عن إخراج الأرض لأثقالها من الكنوز التي في باطنها، فإن هذه الآية من سورة الانفطار تذكر بجلاء الحفريات والكشوف الأثرية.

غير أن هذه ليست هي الآية الوحيدة التي تتحدث عن هذا الموضوع، وقد اخترنا هذه الآية بالذات بسبب طبيعتها التنبؤية، وإلا فهناك العديد من

الآيـــات الكـــريمة في القرآن المجيد.. التي تكرر دائما لفت أنظار الإنسان بصـــورة مباشرة إلى الكثير من المدن الدفينة والحضارات التي كانت تعيش فـــيها الأقوام الغابرة. وهي تحث الإنسان على البحث والتنقيب عن آثار تلك الأقوام، ودراسة العوامل التي تسببت في تدميرها وفنائها.

وتذكـــر الآيتان التاليتان من فواتح سورة التكوير أن الإسلام سوف يكون قد اضمحل شأنه وأصابه الضعف قبل أن ينبلج فجر عهد جديد:

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُـــوِّرَتْ ۞ وَإِذَا النُّجُـــومُ انْكَدَرَتْ﴾

(٨١ التكوير:٢-٣)

ويجـــب أن نضع في الاعتبار أن الشمس والنجوم المذكورة في هاتين الآيـــتين ترمز للإسلام وعلماء المسلمين. فالقرآن الكريم يشير إلى الرسول الكـــريم ﷺ ويصـــفه بكونه ﴿سِرَاجًا مُنِيرًا﴾، تماما كما وصف الشمس بكونها سراجا كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (٧١ نـــوح:١٧) بيـــنما يشير الرسول ﷺ إلى صحابته من العلماء الذين يتلقون النور منه، فيشبههم بالنجوم التي تشع من الضوء ما يكفي لهداية الناس، فيقول:

"أصحابي كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم".[٢]

فحينما تُوصف الشمس بأنها قد توقفت عن بسط نورها وأشعتها، إنما يعني ذلك بجلاء اضمحلال شأن الإسلام، لأن الرسول ﷺ هو رمز الإسلام الحي. وانكدار النجوم بنفس هذا المنطق يشير إلى زمان يتوقف فيه العلماء عن إشعاع نور الإسلام. ويؤيد هذا التفسير ما تحتويه الآيات التالية لهاتين الآيـــتين. فهـــي كلها تحدثنا عن زمان للتقدم العظيم.. العلمي والسياسي والاجتماعي.. الأمر الذي يجعل من هذا التقدم سمة مميزة لذلك الزمان. فإذا كانـــت فواتـــح السورة التي ذكرناها فيما سبق، تتعلق بهذا العصر المزدهر الذي تحدُث فيه كل هذه التغييرات الثورية، فسوف يكون صوت الخلاف بـــين الآيـــات الأولى وما تلاها عاليا ومزعجا، الأمر الذي يوحش الصدر

ويدمـــي الفـــؤاد. فهـــذا يعني أن ذلك العصر العبقري.. الذي تتقدم فيه المعـــارف بشكل يكاد أن يكون معجزا.. يوصف وكأن الشمس فيه قد احتجب نورها، وتوقفت النجوم عن إشعاع ضوئها. لا.. بل هما مرحلتان مختلفـــتان من التطورات المستقبلة. وعلى ذلك.. إذا كان القدر الأكبر من هـــذا الفصل يتعلق بالرفعة المادية للعالم المسيحي التي كان من المقدر لها أن تـــتلو اكتشـــاف الأمريكتين، فيتعين أن نفهم الآيتين الأوليَين على أنهما تـــتعلقان بمصـــير الإسلام. فما الذي حدث للإسلام حتى إنه يوصف بهذا الوصـــف الحـــزين في العام الذي تم فيه اكتشاف الأمريكتين؟ إذا وجدنا الإجابة على هذا السؤال.. فلن تكون هناك حاجة إلى دليل آخر لتأييد ما ذهبنا إليه في تفسير هذه الآيات. إن عام ١٤٩٢ الذي أشرنا إليه فيما سبق هو أبرز الشواهد التي تفصل بين العالم القديم والجديد. فهل نستطيع التدليل عـــلى أن الإســـلام قد وصل إلى الحضيض في نفس ذلك العام حتى يرى القـــارئ بسهولة علاقة واضحة بين الحدثين؟ نعم نستطيع.. وليس الحكم هو حكمنا ولا حكم أحد من المسلمين الآخرين، وإنما هو حكم التاريخ، الذي يشهد لـــه المؤرخون المسيحيون أنفسهم. ويذكر كتاب تاريخ العالم *(Chronicle of the World)* ما يلي عن السمة الأشد تمييزا في ذلك العام فيما يختص بالإسلام:

> "إن غرناطة.. آخر الولايات الإسلامية في أسبانيا.. قد سقطت في أيدي الجـــيش الكستيلاني بعد حملة استمرت لمدة عشر سنوات. وقد رحب المسيحيون باستسلام المدينة باعتباره "أعظم يوم وأشده بركة أشرقت فيه الشـــمس على أسبانيا". ويصف المسلمون هذا اليوم باعتباره واحدًا من أشد الأيام هولا وفظاعة أصاب الإسلام بكارثة مهولة"[٣].
>
> "لقـــد استولى فرديناند وإيزابيلا على غرناطة.. آخر الممالك الإسلامية في أسبانيا، وذلك بعد مقاومة للغزو المسيحي استمرت لقرنين من الزمان"[٣].

وقد أدى هذا إلى نهاية الحكم الإسلامي في أسبانيا الذي استمر بغير انقطاع لمدة سبعمائة عام.

وبعد أن تم إنهاء السيادة السياسية للمسلمين في عام ١٤٩٢.. بدأت على الفور حملة نظمتها الكنيسة لاغتيال الإسلام. ورغم أن السيادة الإسلامية قد انتهت نهاية مبتورة بعد حكم استمر لمدة خمسمائة عام، فإن التأثير الذي خلفه الإسلام على مدى الخمسة قرون السابقة لم يكن من السهل القضاء عليه في عام أو عامين. فقد كانت هناك أعداد كبيرة من المراكشيين الذين تبعثروا في جميع أنحاء التلال والمنطقة الجبلية في الطرف الجنوبي من الأندلس، مما كان يُشكل جيوبا قوية منعزلة للإسلام. وكانت هناك أعداد أكبر من المواطنين الأسبان الذين دخلوا في الإسلام، و لم يكن هؤلاء أقل إخلاصا وتمسكا بالإسلام من المسلمين الأوائل الذين قاموا بغزو أسبانيا من الجزيرة العربية ومن أفريقيا. وقد كان هؤلاء.. أكثر من غيرهم من المسلمين.. هم الذين يشكلون مصدرا لضيق غير محتمل لرجال الدين المسيحي، الذين ظلوا يعملون طوال السنين على القضاء عليهم وتدمير دينهم.

وكان خيمينيس (Ximenes) هو رسول الكنيسة المتطرفة صاحب الصوت الأعلى، والذي:

"... كان يريد أن ينقذ أرواح أولئك ''الكفرة'' من الجحيم سواء شاءوا أم أبوا"[٤].

وقد وضع في

'... عقل إيزابيلا المقدس عقيدة شريرة، مؤداها أن المحافظة على العهود مع الكفرة معناه قطع العهود مع الله"[٤].

و لم يكن

'... رجلا يسهل صرفه عن تحقيق غرضه. فقد استحث الملكة على إصدار مرسوم ملكي يقضي بتخيير المور (أي المسلمين الأسبان) بين أن يُعَمّدوا ويصيروا مسيحيين أو يُنفَوا من أسبانيا. وكان يُقال لهؤلاء إن أسلافهم كانوا يوما ما من المسيحيين، وأنهم بكونهم من نسلهم فقد وُلدوا في رحاب الكنيسة، ويتحتم عليهم بذلك أن يؤمنوا بعقيدتها"[٥].

وهكذا كانت بداية النهاية بالنسبة للإسلام في أسبانيا، التي استغرقت

مائتين من السنين لكي تستكمل مسارها القاتل.

"لقد أُغلِقت المساجد، وأحرق الكاردينال الغاشمُ ما لا يُحصى من المخطوطات التي كانت تحتوي على نتاج عصور من علوم المراكشيين. وقد هُدد "الكفرة" التعساء وضُربوا ليعودوا إلى إنجيل السلام والوئام بعد اتباع الأسلوب الذي تمت الموافقة عليه من قِبَل ملوكهم الكاثوليكيين ضد اليهود، الذين لم يكونوا أقل من المسلمين بؤسا وشقاء. وبالطبع فقد اضطرت الأغلبية للرضوخ، بعد أن وجدوا أنه من الأسهل عليهم أن يتخلوا عن دينهم بدلا من التخلي عن مساكنهم؛ غير أن جذوة من الإيمان ظلت مشتعلة في قلوب المور الذين كانوا يقيمون في جبال البوكسارّاس ... (Alpuxarras)"[٦٤].

".... لم يكن حكام أسبانيا من ذوي الحكمة أو الشرف في تعاملاتهم مع الموريين، ومع مرور الوقت، مال الحكام إلى الظلم أكثر فأكثر وجنحوا إلى الباطل. فقد صدرت الأوامر إلى "الكفرة" باستبدال ملابسهم الوطنية ذات الألوان المزركشة، وأن يبادروا إلى استعمال القبعات والسراويل القصيرة التي كان يرتديها المسيحيون؛ وأن يتوقفوا عن الاستحمام، ويتبنوا قذارة أولئك الذين انتصروا عليهم؛ وأن يتخلوا عن لغتهم، وعن عاداتهم، وعن أعيادهم، بل وحتى عن أسمائهم، وأن يتحدثوا اللغة الأسبانية، ويظهروا بالمظهر الأسباني، ويتسموا بالأسماء الأسبانية"[٦٧].

"وكان من نصيب فيليب الثاني أن يضع في حيز التنفيذ العملي ذلك القانون الاستبدادي الذي تركه أبوه بغير تطبيق. وفي عام ١٥٦٧ أمر بتطبيق ذلك القانون البغيض فيما يختص باللغة والملابس وما شابه ذلك، ومن أجل ضمان تنفيذ منع النظافة.. أمر بهدم الحمامات الجميلة في مدينة الحمراء."[٦٨]

"في شتاء عام ١٥٦٩-٧٠ بدأ (دون جون) حملته، وفي شهر مايو/أيار تم وضع شروط الاستسلام. وقد تلطخت الشهور.. بين بداية الحملة والاستسلام.. باللون الأحمر القاني بسبب نهر الدماء الذي جرى. وكان شعار (دون جون) هو "لا هوادة"؛ فقد ذُبح الرجال والنساء والأطفال

حسب أوامره وأمام عينيه، وتحولت القرى الواقعة في جبال البوكسارّاس إلى أنقاض."[٩]
"لقـــد مات الكثيرون من المنفيين المطرودين من أسبانيا، بسبب الجوع والحاجـــة، والجهـــد والتعب، والتعرض للعوامل الجوية، بينما استطاع الـــبعض أن يصـــل إلى أفريقيا، حيث كان عليهم أن يتسولوا الكفاف يوميا، ولكنهم لم يجدوا أرضا يزرعونها..."[١٠]
"يُقـــال إن مـــا لا يقل عن ثلاثة ملايين من شعوب المور قد طُردوا في الفترة ما بين سقوط غرناطة والعقد الأول من القرن السابع عشر. وبألم شديد يُسجل مؤرخ الأحداث العربي الضربة القاضية فيكتب قائلا: "لم يشـــأ الله القديـــر أن يمنحهم النصر، ولذا فقد غُلبوا على أمرهم وقُتّلوا تقتيلا في جميع الجوانب، وفي النهاية تم طردهم من أرض الأندلس. وقد وقعـــت تلك الفاجعة في أيامنا التي نعيشها في سنة ١٠١٧ الهجرية. إن الأرض والملك لله تعالى، وهو سبحانه يهبهما لمن يشاء".[١٠]
"لقد طُرد شعب المور، ولفترة قصيرة راحت أسبانيا المسيحية تشع، كما يشـــع القمر، بنور ليس نابعًا منه بل يقترضه من جِرْم آخر؛ ثم جاء زمن الخسوف، وظلت أسبانيا تتخبط في ظلام هذا الخسوف منذ ذلك الزمن.[١١]

هـــذا ما ذكره ستانلي لين–بول (Stanley Lane-Poole) في كتابه عن الـــتاريخ: "المـــور في أسبانيا" (*The Moors in Spain*). إن شمس السيادة السياســـية الإســـلامية الـــتي غربت في أسبانيا عام ١٤٩٢، قد تركت وراءهـــا.. فـــيما يـــبدو.. غسقا ملطخا بالدماء، استمر لمدة قرنين من الـــزمان.. إلى أن اخـــتفى في النهاية نور الإسلام من سماء أسبانيا، فخيم عليها ظلام دامس انكدرت فيه النجوم.

أما التنوير العلمي الذي أتت به الحضارة الإسلامية التي خرجت من أسبانيا، فلم يستغرق الأمر طويلا إلا وقد خرج منها هو الآخر أيضا.

وهكـــذا فتح عام ١٤٩٢ بوابتين في وقت واحد، دخل من إحداهما مســـتقبل السيادة المسيحية للعالم بتشامخ عظيم، ومن الأخرى خرجت

جميع الأمجاد السالفة للإسلام، برؤوس مطأطئة ووجوه ترهقها قترة، وكانت كل خطوة تخطوها الأقدام في الطريق إلى المنفى.. تضيف آلاما تعتصر القلوب التي لا تقوى على احتمالها.

وتتحدث الآية الرابعة من سورة التكوير عن تسيير الجبال من مكان إلى آخر. يقول تعالى:

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ (٨١ التكوير:٤)

في التعبير الإسلامي تعني الجبال القوى المادية العظمى، وهناك العديد من الآيات الكريمة في القرآن المجيد تذكر الجبال بنفس هذا المعنى. وعلى هذا فإن هذه الآية التي تتحدث عن الجبال هي في الحقيقة الآية التي نبدأ بها دراستنا للموضوع لكي نفهم ما عسى أن يحدث في آخر الزمان. فبعد الاضمحلال المبدئي للإسلام، سوف يُعسعس ليل انكدرت نجومه، ثم يتنفس صبح يوم لن يكون فجره هو فجر انبثاق الإسلام مرة أخرى. إذ لن تظهر وتعلو قوى مادية عظمى فحسب، بل سوف تتحرك وتنشر نفوذها على مدى واسع من مكان إلى مكان، ومن قارة إلى قارة، وتطوي تحت سيادتها بلدا بعد آخر. وهذه هي الكيفية التي يمكن أن تتحرك بها الجبال وتسير في الأرض، ولقد سارت الجبال بالفعل. ويمكن أيضا فهم سير الجبال بطرق أخرى سوف نتطرق إليها فيما بعد. أما الآن وقد بدأنا نتبين ونرى التغييرات العظيمة التي كان من المقدر أن تحدث حسبما تقول به هذه السورة الشريفة في ذلك العصر، فإننا سوف نتناول الموضوع شيئا فشيئا، ونسقا بعد نسق، كما يأتي في الترتيب الذي ذكره القرآن المجيد.

وحيث إننا نتناول موضوع السير والحركة والانتقال، فمن السهل فهم ما تتضمنه الآية الخامسة التي تقول:

﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ (٨١ التكوير:٥)

والعشار هي جمع أنثى الجمل التي تبلغ مدة حملها عشرة أشهر، وتقرر الآية أن هذه العشار سوف تُعطل عن الاستعمال.

وفي هذا السياق يمكن فهم هذه النبوءة التي تتحدث عن تعطل استعمال النوق والجمال في السفر والانتقال بأن وسائل أخرى للمواصلات.. أفضل، وأسرع، وأقوى من الجمال سوف يتم اختراعها. إن مشهد الجبال التي تسير من مكان إلى مكان، أي القوى العظمى التي تنشر نفوذها من قارة إلى أخرى، إنما تتعلق مباشرة بموضوع تعطل العشار عن الاستعمال.

ويجب أن نضع في الاعتبار أن سير الجبال يمكن أن يعني انتقال حمولات ضخمة، كما يعني أيضا نشر نفوذ القوى السياسية العظمى، وكل من هذه الأمور يتطلب حتما وسائل للمواصلات أشد قوة وأكثر تقدما من العشار. وإن لم تكن مثل هذه الوسائل الجديدة للمواصلات قد صارت متاحة للإنسان، لكان من الجنون حقا أن يتخلى عما لديه من وسائل السفر مهما كانت ضعيفة أو بطيئة. وهو بلا شك لن يتخلى عن العشار ليحمل هو على ظهره حمولات ضخمة كالجبال!

إن المفهوم الذي لا مناص للمرء أن يخرج به من هذه الآية الكريمة.. هو أن الله تعالى سوف يُمكن الإنسان من اختراع وسائل آلية جديدة للسفر والانتقال تكون أعظم قوة وأكثر سرعة، مما يجعل وسائل السفر التقليدية معطلة عن الاستعمال ولا قيمة لها.

ويجب ألا ننسى أن العشار يمكن أن تكون رمزا فقط لوسائل المواصلات التي تتحرك على الأرض اليابسة، ولكن المرء ليعجب.. ماذا عن القوارب والسفن وغيرها، ولماذا لم يأت ذكرها، وماذا يذكر القرآن المجيد من أنباء عما يؤول إليه أمر وسائل المواصلات البحرية؟ هذا ما سوف نتناوله فيما بعد، وأما الآن فنتناول الآية التالية التي تتحدث عن حشر وتجميع كل أنواع الحيوانات. يقول تعالى:

﴿وإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ (٨١ التكوير:٦)

إن الانتقال من ذكر التخلي عن العشار إلى جمع الحيوانات لأمر يثير الاهتمام، وفي هذا دليل آخر على أن العشار لن تُترك وشأنها ما استمر نفعها كوسيلة للسفر. فإن ذكر تجميع الحيوانات مع بعضها البعض يؤيد فكرة اختراع وسائل جديدة للنقل. فمن الطبيعي أنه لا يمكن تجميع الحيوانات الكاسرة ونقلها من مكان إلى آخر على ظهور الجمال. ولا يمكن أن يتصور أحد أن أيا من الفيلة، ووحيدي القرن، وأفراس البحر، والزراف، والتماسيح، والحوت الأزرق، والأخطبوط الضخم، وغيرها.. سوف تستمتع بركوب الجمال! إن نقل هذه الحيوانات لا يكون ممكنا إلا بعد اختراع وسائل النقل والمواصلات التي نراها الآن في عصرنا الحالي.

وتستمر الآية التالية في الحديث عن نفس موضوع النقل والمواصلات، إذ تقول:

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ (٨١ التكوير:٧)

إن كلمة ﴿سُجِّرَتْ﴾ في الآية الكريمة يمكن أن يكون لها ثلاثة معان مشتركة كما جاء في موسوعة لين (Lane):

١. وإذا امتلأت البحار.
٢. وإذا التقت البحار بعضها مع بعض.
٣. وإذا تأججت البحار بالنيران.

أما بالنسبة للمعنى الأول.. فإن امتلاء البحار بطبيعة الحال يعطي الانطباع بامتلائها بالسفن التي تمخر عبابها. وبهذا المعنى تتفق الآية مع نفس الموضوع الذي تعالجه الآيات السابقة. وسوف نتناول هذا المعنى بتفصيل أكبر حين نعود إلى مناقشة هذا الموضوع مرة أخرى.

أما الآن.. فإننا نريد أن نتناول المعنى الثاني من هذه المعاني الثلاثة، الذي يتحدث عن التقاء البحار بعضها مع بعض. وتشير الآيتان التاليتان

من القرآن الكريم إلى هذه النبوءة بشيء من التفصيل:

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۞ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ﴾

(٥٥ الرحمن: ٢٠-٢١)

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ (٢٥ الفرقان: ٥٤)

جاءت هذه الآيات الكريمة في سورتين مختلفتين من سور القرآن الكريم، تذكر كل منهما نبوءة عن حادثة منفصلة عن التقاء بحرين. وهذا ما حدث تماما في الزمن الحديث، حيث تم حفر قناة السويس فيما بين عام ١٨٥٩ إلى عام ١٨٦٩، وحفر قناة بنما فيما بين عام ١٩٠٣ وعام ١٩١٤، وقد شاهد العالم تحقق هذه النبوءات بشكل لا يمكن أن يكون قد خطر على بال أحد في الزمن الذي عاش فيه الرسول الكريم ﷺ.

المعنى المشترك الثالث.. الذي يذكر مشهد البحار وقد تأججت بالنيران.. لا يقل غرابة عن المعنى الأول، مما يقضي بأنه من المستحيل أن يكون هذا المعنى قد خطر على قلب بشر قبل أربعة عشر قرنا من الزمان. فهو أمر لا يمكن أن يتحقق إلا عند اندلاع معارك بحرية تتبادل فيها الأسلحة النارية بقوة مهولة. وبالمناسبة.. إن الأعداد الضخمة من السفن التي تشترك في المعارك البحرية الحديثة تغطي أيضا مساحات شاسعة من البحار، مما يؤيد ما ذهبنا إليه في القول بأن المقصود بامتلاء البحار هو أنها سوف تمتلئ بالسفن التي تمخر عباب هذه البحار.

كذلك فإن المعنى المشترك الثالث الذي يتحدث عن الزمن الذي تتأجج فيه البحار بالنيران.. يشير إلى الزمن الذي يحدث فيه انسكاب كميات هائلة من البترول كما يحدث في عصرنا الحالي. وكثيرا ما تُشعل تلك الكميات المنسكبة من البترول للتقليل من أخطار آثارها على الحياة البحرية. وفي تلك الأحوال يمكن مشاهدة مساحات هائلة من البحار تبلغ

مئات الألوف من الأميال المربعة وقد اشتعلت بالنيران.. حرفيا كما تذكر الآية الكريمة.

وتزيد الآية التالية من سورة التكوير نفس الفكرة وضوحا وتفصيلا، وبالإضـــافة إلى تجميع الحيوانات فإن النفوس البشرية أيضا سوف تجتمع كما تشير إليه الآية الكريمة:

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ (٨١ التكوير:٨)

وهذه الآية أيضا يمكن أن تحتمل معان ثلاثة:

١. عندما يرتبط الناس بعضهم ببعض من خلال روابط معينة.

٢. عندما يندمج الناس من جميع أنحاء العالم بعضهم ببعض.

٣. عـــندما يتم اتصال الناس بعضهم ببعض من خلال وسائل أسرع للسفر والاتصال.

ومن الواضح أن كلا من المعاني الثلاثة المذكورة قد تحقق وحدث بالفعل. فعصرنا هو العصر الذي ارتبطت فيه جميع أمم العالم بمواثيق ومعاهدات دولية بغير استثناء. وعلى ذلك يكون المعنى الأول لهذه الآية الكريمة قد تحقق بجلاء ووضوح، ولا يحتاج الأمر إلى تفصيل آخر.

كذلك فإن إنشاء عصبة الأمم.. التي تم استبدالها فيما بعد بهيئة الأمم المتحدة.. قد ساعد على التقدم خطوة أخرى في سبيل تحقيق اندماج وتوحيد العالم، تماما كما تنبأت به الآية.

أما فيما يختص بتحقق النبوءة التي يتضمنها المعنى الثالث لهذه الآية الكريمة، فقد رأينا كيف أن المسافات التي تفصل الشعوب والأمم بعضها عن بعض قد تقلصت بفضل وسائل السفر والاتصال الحديثة، حتى إنها قد خلقت الإحساس بأن العالم كله قد تقلص ليصبح قرية واحدة.

وقبل الاستطراد في دراسة آيات سورة التكوير وما تحمله من نبوءات، نود أن نشير إلى نبوءة أخرى تتعلق أيضا بموضوع تجمع الناس

بعضهم مع بعض. إذ تذكر النبوءة تجمع بني إسرائيل وعودتهم إلى الأرض المقدسة في آخر الزمان. يقول تعالى:

﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ (١٧ الإسراء:١٠٥)

إن تدمير أورشليم في عام ٧٠ بعد الميلاد على أيدي الرومان، كان هو الناقوس الذي أعلن بدقاته البائسة نهاية الدولة اليهودية. فمنذ ذلك الحين.. تبعثر اليهود في جميع أنحاء العالم.. من بلد إلى بلد. وتشير الآية الكريمة إلى هذه الحال من الانتشار في الأرض، إلى أن يتحقق في يوم ما تجميع اليهود مرة أخرى من جميع أنحاء الأرض، وحشدهم في الأرض المقدسة. إن هذا وعد من الله تعالى وكان من المحتم أن يتحقق، وقد شاهدنا بالفعل تحقق هذا الوعد على نطاق واسع، بشكل لم يشاهده الإنسان من قبل. فلم يحدث أبدا في تاريخ الشعب اليهودي، بعد أي تيه أو مغادرة للأرض المقدسة، أن أعيدوا إليها بعد أن تفرقوا في جميع أنحاء الأرض، كما حدث في الماضي القريب بعد إنشاء دولة إسرائيل.

وعودة مرة أخرى إلى سورة التكوير التي ابتعدنا عنها هنيهة، ولنتناول الآن الآية التاسعة المذكورة فيما بعد، فإن هذه الآية الكريمة والآية التي تتلوها تتعلقان بنفس الزمن الذي تتحدث عنه جميع الآيات السابقة من زوايا مختلفة.

﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (٨١ التكوير:٩-١٠)

كان بعض العرب في عصر الجاهلية يشعرون بالمهانة الشديدة إذا وُلدت لهم ابنة، حتى إنهم كانوا أحيانا يدفنونها حية لشدة خجلهم. و لم يكن للمجتمع الحق بتاتا في التدخل في هذه الأمور، وكأن الآباء كانوا يملكون أولادهم كما يملكون عقارا.

والآية تتحدث عن زمن يُطبق فيه القانون بصرامة، وخاصة فيما يتعلق بحقوق المرأة، وليس الأمر مجرد حديث عن تطبيق القانون، وإلا لذُكرت جملة تعبر عن ذلك وحسب. وفي ضوء ذلك.. لا يستطيع المرء إغفال أهمية هذه الخصوصية، إذ لن يستطيع الرجال أن يعبثوا بحقوق النساء، وهو الأمر الذي تؤكد عليه الآية الكريمة. و لم يحدث في أي عصر من العصور أن اكتسبت حقوق المرأة أهمية على نطاق عالمي كما يحدث الآن في هذا الزمن المعاصر.

إن آيات هذه السورة القرآنية تذكر السمات التي تتعلق بآخر الزمان بشكل متناغم، حتى إنها تنتقل من سمة إلى أخرى كما ينقل الفنانُ الفرشاةَ ليرسم بها صورة واقعية لما سوف يحدث في آخر الزمان. والتقدم العلمي الذي تتضمنه كل آية من هذه الآيات يتناسق أيضا مع الوجه السياسي والاجتماعي. وذكرت الآية رقم ٨ نبوءة عن ارتباط الناس بعضهم ببعض بأكثر من وسيلة. وتكرر ذكر نفس الموضوع أيضا في الآية رقم ١١ بعد ذكر التطور الاجتماعي والسياسي. وعولجت فكرة الارتباط بين الناس بذكر أكثر الوسائل وأشدها فاعلية في ربط الناس بعضهم ببعض، وذلك من خلال النشر الواسع للصحف المطبوعة بما تحتويه من كتب وصحف ومجلات وغيرها. إن جميع وسائل النقل المذكورة فيما سبق قد لعبت دورا هاما في توحيد البشر في العالم، ولكن الدور الذي لعبته المطبعة لا يمكن أن يُحجب أو يُستبدل بأية وسيلة أخرى من وسائل الربط بين الناس. فإذا حاولنا إلغاء أثر التوزيع الواسع للمواد المطبوعة من هذا الزمان، لشعر الناس فجأة بالانفصال بعضهم عن بعض، رغم تقلص المسافات بينهم، ولأحسوا بالانعزال والتفكك. إن هذه الوسيلة الحديثة من وسائل الإعلام والنشر الواسع للمطبوعات هو ما تذكره الآية محل البحث:

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ (٨١ التكوير:١١)

وتتضمن هذه النبوءة أيضا اختراع المطابع الحديثة، وإلا لما كان من الممكن للمخطوطات اليدوية أن تُنشر وتَنتشر على نطاق واسع.

إن عصرا تنتشر فيه الكتب والمطبوعات على نطاق واسع لهو أيضا العصر الذي تنتشر فيه العلوم والمعارف والبحوث والمعلومات. ويؤكد القرآن المجيد على دور القلم وأهميته تأكيدا شديدا، حتى إنه ينسب لله مباشرة أمر تعليم البشر كيفية الكتابة. ونستشهد على ذلك بالآيات التالية من سورة العلق، وهي الآيات الأولى التي أُنزلت على الرسول ﷺ، وتقرر بكل يقين:

﴿إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٩٦ العلق:٤-٦)

وعندما نقرأ هذه الآيات الكريمة مقترنة بالآية التي تحت البحث، نستطيع أن ندرك مدى التأكيد على أن من خصائص ذلك الزمن أنه سيكون زمن المعارف الواسعة المتقدمة. ومن المتضمن أيضا في هذه الآيات انتشار دور العلم مثل المدارس والمعاهد والجامعات.

فالآية الأولى في العبارة القرآنية المذكورة تؤكد على أن الله تعالى هو الأكرم، لأنه هو سبحانه الذي علم بالقلم. ومن الواضح أن المتضمن في الآية هو أن القلم سوف يكون مصدر العلوم والمعارف، وأن العلوم والمعارف سوف تكون مصدر العظمة والتقدم. وبالمناسبة.. على المرء ألا ينسى أن هذه الآيات قد نزلت على رجل لم يتعلم كيف يمسك بالقلم أو يخط شيئا بيمينه. لقد كان القلم الذي حرر القرآن هو قلم الله تبارك وتعالى ولم يكن قلم محمد ﷺ. كذلك تتضمن الآية أن المعرفة ستكون هي الوسيلة للحصول على القوة، وأن القلم سيكون أمضى من السيف.

والآية التالية تزيد الموضوع شرحا وبيانا.. إذ تعلن أن السماء هي الحد الذي يحد سبل المعرفة، فتقول:

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ (٨١ التكوير:١٢)

وتبرز هذه الآية المقارنة المأساوية بين حالة الإسلام في ذلك الزمن وبين القوى المادية المسيحية حينما تتكور شمس الإسلام فتحتجب، وتنكدر نجوم الإسلام فتنطفئ وتفقد أنوارها. أما العالم المادي لغير المسلمين فسوف يبدأ في الارتقاء عبر السماوات ليتعلم أسرار الفضاء.

ويستحضر هذا المشهد إلى الأذهان بعض الآيات القرآنية التي تذكر نبوءات عن السفر عبر الهواء والفضاء، ونجد فيما يلي الآيات المتعلقة بهذا الموضوع:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ (٥١ الذاريات:٨)

أي أقسم بالسماء التي مُلئت بالطرق والمسالك.

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۞ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ۞ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۞ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾ (٧٧ المرسلات:٢-٥)

أي أقسم بأولئك الذين أرسلوا لأداء مهام معينة معروفة، وأقسم بأولئك الذين يتحركون بسرعة كالريح العاصف، وأقسم بأولئك الذين ينشرون المطبوعات والمنشورات على نطاق واسع، وأولئك الذين يُفرّقون ويُميزون بين الأولياء والأعداء.

إن هذه الآيات الكريمة والكثيرة الأخرى، ترسم لنا دائما وتكرارا صورة سماء تُستخدم على نطاق واسع في أغراض السفر خلال أجوائها وأقطارها. إذ إنها تحتوي على طرق ومسالك يروح ويغدو فيها المرسلون من مكان إلى آخر وهم يتحركون بسرعة كريح عاصف، وتُحمَل الكتب والمطبوعات وتُنشَر على نطاق واسع، وهكذا يصير من الممكن للإنسان أن ينتقل ويطير على أجنحة الهواء. وبعد أن يحقق الإنسان أمانيه وأحلامه

في الطيران، تراوده أحلام أخرى أعلى مكانا وأرحب نطاقا وأوسع مجالا. إذ إنه سوف يبدأ في التعرف على خبايا السماوات والأجرام السماوية، ويأخذ في كشط ورفع الحجب والأستار التي تغطي تلك الأجرام لكي يكشف عن أسرارها، وسوف يقيم في الفضاء محطات ومراكز للمراقبة لكي يتابع ما يحدث في السماوات من فوقه. وتبين الآية التالية بوضوح هذه المرحلة من التقدم العلمي والتقني للإنسان، مما سيمكنه بالفعل من محاولة التسمع على ما يجري في آفاق السماوات العُلى وجنبات الكون. يقول تعالى:

﴿لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۞ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ (٣٧ الصافات:٩-١٠)

وفيما يتعلق بطموح الإنسان في غزو الفضاء إلى أقصى أغواره، يُوَجه القرآن المجيد هذا التحدي إلى كل من يزمع غزو السماوات، سواء كان من علية القوم أو من أدناهم.

وقبل أن نذكر الآية التي نتحدث عنها.. نرى من الضرورة بمكان أن نوضح طبيعة أولئك الذين يُوَجِّه القرآن إليهم هذا التحدي. فالكلمات: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ﴾ تحتاج إلى شيء من الإيضاح، إذ إن الجن المخاطب في الآية ليس هو تلك الأشباح الخيالية التي تختلف عن البشر. فكما ذُكر فيما سبق.. كثيرا ما تستخدم كلمة 'الجن' للتعبير عن العظماء من الناس مقابل البشر العاديين الذين يُطلق عليهم لفظ 'الناس'. ولعله من الأوفق فهم هذه الآية على أنها تخاطب القوى الرأسمالية والقوى الشعبية.

والآية التي نتحدث عنها هي قوله تعالى:

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلا بِسُلْطَانٍ﴾

(٥٥ الرحمن:٣٤)

ونحن نرى.. بكل احترام.. أن المقصود من كلمة 'بسلطان' في هذا السياق هو "بمساعدة القياس الاستدلالي القوي". وهذا يعني أنه رغم عدم استطاعة الإنسان أن ينفذ إلى خارج حدود السماوات والأرض، إلا أنه سوف يتمكن من الوصول إلى حدود الكون، بالقدر الذي يسمح به نطاق علومه ومعارفه. وفيما يلي الأسباب التي تدفعنا لهذه الرؤية:

إن فهم كلمات الآية القرآنية بغير المعنى الذي ذكرناه قد يخلق انطباعا معاكسا لما يريد القرآن أن يبيّنه ويوضحه، ذلك الانطباع الذي قد يُفهم منه أن القرآن ينفي تماما إمكانية أن ينجح الإنسان في غزو الفضاء والوصول إلى حدود الكون الخارجية. إن كلمة 'سلطان' في حد ذاتها لا تعني السلطة والسطوة فحسب بل تعني كذلك الْمَلِك العظيم، كما تعني أيضا الحجة البالغة والقياس الاستدلالي القوي. وعلى ذلك يمكن فهم الآية على أن الإنسان سوف يتمكن من الوصول إلى حدود الكون من خلال القياس الاستدلالي القوي.

إن ما ينكره القرآن ليس مجرد قفزة أو قفزتين في الفضاء، بل ما يُنكره القرآن هو قدرة الإنسان على أن ينفذ من حدود الكون بجسده المادي. وبالمناسبة.. إن الأخطار التي تتعرض لها رحلات الفضاء قد ذُكرت أيضا في الآية التالية:

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّنْ نَّارٍ وَّنُحَاسٌ فَلا تَنْتَصِرَانِ﴾

(٥٥ الرحمن:٣٦)

والآية لا تتحدث عن شعلات النيران العادية، وإنما ترسم لنا صورة واضحة للتأثير المدمر للأشعة الكونية.

وبعد هذا الاستطراد في الحديث عن المعاني المتضمنة في الآية رقم ١٢ من سورة التكوير، في ضوء الآيات المذكورة عاليه من سورة الرحمن (رقم

٥٥)، نعود مرة أخرى لمتابعة الحديث عن آيات سورة التكوير.

وإنها لمصادفة غريبة أن ننتهي من الحديث عن آيات سورة الرحمن بذكر التحذير من العقاب بشواظ النار المستعر، فإن هذا هو بالضبط الموضوع الذي تبحثه الآية رقم ١٣ من سورة التكوير التي نريد أن نتناولها الآن:

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ (٨١ التكوير:١٣)

وينطبق لفظ 'الجحيم' هنا على الحروب التي سوف تشتعل في ذلك الزمن، الأمر الذي يجعلها تخلق انطباعا في نفوس الناس بأنها جحيم وقد تسعرت، وعليه.. فإن الآية توجه إنذارا. وهذا هو التفسير المعقول الوحيد في سياق النبوءات السابقة التي تتحدث جميعها وبغير استثناء عن أحداث هذا العالم المعاصر. وإنه لمن شواذ الأمور حقا أن يُقال للإنسان إنه بينما تجري بعض الأمور هنا على هذه الأرض، فإن جحيم الآخرة سوف تُسَعر في مكان ما لا علاقة لـــه بهذا العالم المادي الذي نعيش فيه.

وهكذا يصل مسلسل الأحداث إلى نهايته المنطقية. فالتقدم المادي.. مهما بلغ من عظمة ورفعة.. لا نفع منه للإنسان إذا ما حقق طموحاته المادية على حساب رضا الله تبارك وتعالى. فلا بد لساعة العقاب أن تأتي وتخسف بالإنسان بالرغم من كل ما وصل إليه وما حققه من قوة مادية. ولكن الكارثة لن تأخذه من السماء، وإنما هو الذي سوف يؤجج جحيمه بيديه، وسوف يخلق بأنانيته توترا شديدا على نطاق عالمي يبلغ أوْجه باندلاع حروب مستعرة تتأجج فيها نيران الجحيم. وعندما ننظر فيما مضى من تاريخ الحربين العالميتين، فلن يظل هذا التفسير مجرد اجتهاد نظري، وإنما يكتسب أهمية تحمل في طياتها نذيرا خطيرا. وهذا التفسير يفتح أيضا باب الأمل في إزالة التباين بين الاضمحلال المأساوي للإسلام وظهور القوى غير الإسلامية. فإن الآية تحت البحث تبين بوضوح أن

التسلط والسيطرة المادية على العالم لن تستمر على الدوام، وإنما يبدأ سقوط القوى المادية بتنامي العداء المتبادل بين هذه القوى، إلى أن يصل هذا العداء إلى قمته بوقوع كوارث فظيعة مرعبة من صنع أيديهم. إذ ستتابع الحروب الواحدة تلو الأخرى، فتندلع الحرب ثم تخمد مخلفة وراءها رماد القوى الكبرى، التي تكون قد أحرقت نفسها بنفسها. إن الحربين العالميتين الماضيتين قد تركتا بالفعل أثرا منهكا على القوى العظمى التي لم يستطع أحد أن يتحداها، بينما برزت إلى حد ما الأمم الضعيفة والشعوب الفقيرة، وهي تشعر بأنها قد استعادت شيئا من كرامتها المفقودة. ولا يزال ميزان الأمور أبعد من أن يكون قد مال إلى الجانب الآخر ولم يصل بعد إلى النقطة الحاسمة. غير أن الزمن يتحرك.. ولو ببطء شديد.. ولكنه يقينا يتحرك نحو ثورة عالمية. إنها تلك الثورة العالمية التي تنبأ بها القرآن العظيم لتكون هي الثورة النهائية للإسلام. وحتى لا يؤخذ هذا الكلام على أنه مبالغة تعميمية، أو يُظن أنه مجرد كلام يُلقى على عواهنه، فإننا سوف نذكر في الفصل التالي بعض الأدلة القاطعة التي تزيل مثل هذه الظنون.

وبناء على ما تحمله الكثير من الآيات القرآنية من أنباء وأخبار، فقد ذكر الرسول ﷺ بوضوح.. الكثير من الأنباء عن المحصلة النهائية للصراع العالمي في آخر الزمان. وقد بين ذلك فيما يتعلق بما ذكره عن خروج المسيح الدجال. ولكن لا بد من الإيضاح بادئ ذي بدء أن صورة المسيح الدجال ليست هي تلك الصورة الممسوخة التي قد تبدو من المطالعة السطحية. وتشير الأحاديث الشريفة إلى أن هذا المسيح الدجال قد جمع في نفسه قوة وقدرة الأمم العظمى. وفي الواقع.. إن هذه المرحلة بأكملها من آخر الزمان كما وصفها رسول الله ﷺ هي زمن المسيح الدجال، وكل علامات آخر الزمان تتعلق به. ومن العلامات التي تساعد على الكشف عن هويته مجموعة من العلامات تتعلق على وجه الخصوص بوسائل المواصلات الحديثة، التي لم يكن الإنسان يعلم عنها شيئا من قبل.

إن بيانا مفصلا عما يكون هذا المسيح الدجال، وعن كيفية تسلطه على العالم بأكمله، لن يترك ذرة من شك في ذهن القارئ غير المتعصب، أن النبوءات التي تتحدث عنه لا تتحدث عن شخص منفرد. فإن تعبير 'المسيح الدجال' الذي استعمله الرسول ﷺ ليس إلا تعبيرا رمزيا، وهو يرمز إلى القوى العظمى في هذا العصر، وأن استغلال العالم من قِبَل ذلك الدجال وتسخيره لسطوته.. إنما هو في الحقيقة تسلط القوى المسيحية العظمى على مقدرات العالم. غير أن هذه السطوة لن تستمر، ولن يدوم التسلط إلى الأبد، فإن نهاية المسيح الدجال الذي يرمز إلى تلك القوى قد جاء ذكرها أيضا بشكل قاطع. ومن بين حطام المادية.. سوف تشرق مرة أخرى شمس الإسلام، وتكشف الحجاب عن جمالها الوضاء، وتزيل أستار الشك والريبة التي غلفتها خلال عدة من القرون الحزينة.

ونتناول الآن.. مرة أخرى.. الأسلوب الجديد الذي آلت إليه وسائل المواصلات في ثورتها الحديثة، ولكننا في هذه المرة نستنير بضوء الأحاديث النبوية الشريفة. وأما فيما يتعلق بالعلامات الأخرى للمسيح الدجال، وخاصة تلك العلامات التي لها مدلولات دينية، فسوف نبحثها بتفصيل أكبر في فصل آخر إن شاء الله.

إن جميع أنماط السفر والانتقال.. في البر والبحر والجو.. قد جاء وصفها بشكل يؤيد تماما ما ذهبنا إليه في تفسير الكثير من الآيات التي قدمناها فيما سبق. حتى إن موضوع انتقال الجبال وتسييرها قد جاء ذكره بشكل يعيد إلى الذهن تفسير الآيات المتعلقة بهذا الموضوع. والوصف المفصل الذي ذكره الرسول ﷺ للمسيح الدجال، ولحماره الفريد العجيب الذي يمتطيه، لا بد أن يكون قد أثار عجبا شديدا بين الناس في زمنه. ولا بد أنه كان يبدو شديد الغرابة، وذلك رغم أنه ﷺ كان دائما ما يطلق على تلك المطية لفظ 'الحمار'. فليس هناك من صفة ولا سمة من سمات الحمار المعروف تنطبق على ذلك المخلوق الغريب. ومع ذلك.. فإن جميع ما

تتصف به وسائل المواصلات الحديثة.. ينطبق تماما على حمار الدجال.

إن العامل المشترك بين جميع وسائل المواصلات الحديثة هو أن القوة الدافعة لها تأتي عن طريق آلات تعمل بواسطة الاحتراق الداخلي وتستمد طاقتها من النار. وحتى الآلات القديمة التي كانت في القطارات العتيقة التي يحركها البخار كانت تعمل بواسطة الاحتراق الخارجي وتعتمد أيضا على النار. وهذا هو الخط الفاصل بين وسائل الانتقال القديمة التي كانت تعتمد على الحيوان، ووسائل الانتقال الحديثة في زمن المسيح الدجال، وهذا الخط هو الذي يكشف عن أن هذا الحمار المذكور في النبوءات ليس حيوانا وإنما هو من جماد. ونحن نستعمل في حقه الضمير 'هو' لأن ذكره جاء حرفيا في الأحاديث الشريفة على أنه حمار. وفي الحقيقة أنه سوف يمكن التعرف عليه من خلال هذه الخاصية المميزة وحدها. وليتأمل القارئ حمار المسيح الدجال ليدرك أنه بالفعل يعني وسائل الانتقال الحديثة. وقد يختار القارئ ألا يعتبر هذه الوسائل الحديثة هي حمار الدجال، ولكن عليه في هذه الحالة أن يعود القهقرى إلى الوراء.. إلى عصر الحمير.

هناك الكثير من الأوصاف الغريبة والعجيبة لهذا الحمار الرمزي.. جاء ذكرها في العديد من كتب الحديث، وفيما يلي تقديم مجمل لما جاء فيها من معلومات:

١) إن المسيح الدجال سيكون.. كما هو الحال مع حماره.. عملاقا ذا حجم شديد الضخامة بشكل لم يُسمع عنه حتى في أغرب الأقاصيص خيالا، فهو سيكون من الطول بمكان حتى إن رأسه تبدو وقد اختفت فيما وراء السحاب. وسيكون شديد القوة حتى إنه سيتمكن وحده من التغلب على العالم بأجمعه.[١٢]

٢) بالرغم من كل هذه القوى المادية فإنه سوف يعاني من عيب واحد، وهو أنه سيكون مصابا بالعمى في إحدى عينيه، وهي العين اليمنى.[١٣]

٣) لن يكون الحمار هو الركوبة الخاصة لاستعمال المسيح الدجال

وحده، بل سيكون استعماله متاحا لعامة الناس كوسيلة عامة للمواصلات. وسيصعد الناس إلى بطنه ويدخلون من فتحات في جوانبه جُعلت خصيصا لهذا الغرض.[١٤]

٤) إن بطن الحمار مضاءة إضاءة جيدة من الداخل، وستكون مزودة أيضا بمقاعد مريحة.[١٤]

٥) إن الحمار سوف يتحرك بسرعة عالية وفائقة بشكل خاص، حتى إنه يستطيع أن يقطع مسافات شاسعة في يوم واحد أو في ساعات قليلة، بينما تستغرق المطايا الحيوانية في قطعها عدة شهور.[١٥]

٦) عندما يتحرك هذا الحمار في رحلة ستكون لــه وقفات أو محطات يقف فيها، وعند كل محطة سيُدعى الناس لأن يأتوا ويجلسوا في أماكنهم قبل أن يستأنف رحلته، ثم يتم الإعلان عن مغادرته بصوت عال. وعلى ذلك.. فإن هذا الحمار المجازي سوف يظل على الدوام ينتقل من مكان إلى آخر، مُزَوِّدا الناس بوسيلة سريعة، ومناسبة، ومريحة.. للانتقال.[١٦]

٧) إن المسافرين الذين يركبون في بطن هذا الحمار لن يتعرضوا بحال من الأحوال للاحتراق بالنار التي يأكلها الحمار، مما يشير إلى أن الركاب سوف يجلسون في مقصورة منعزلة تماما عن الغرفة التي تحترق فيها النار.[١٦]

٨) سوف يمكن أيضا لهذا الحمار أن يمخر عباب البحار، وينتقل من قارة إلى قارة، راكبا أمواج البحر.[١٧]

٩) خلال الرحلات البحرية لهذا الحمار.. سوف يزداد ويتضخم حجمه بوجه ما، وبذلك يستطيع أن ينقل جبالا من الخبز والطعام على ظهره عبر البحار. وسوف يُستخدم هذا الحمار كثيرا في نقل هذه الكميات الضخمة من التموين إلى الأمم الفقيرة التي تخضع بخسّة لمشيئة المسيح الدجال. ونقل الجبال من الخبز والطعام هو تعبير

مجازي يذكرنا بالآية التي تنبئ عن الزمن الذي تنتقل وتسير فيه الجبال.[18]

١٠) هذا الحمار الغريب المذهل سوف يعرف كيف يطير أيضا، لأن بعض قفزاته الجبارة توصف بأنها تغطي مسافات بين الشرق والغرب. فمن المذكور في الأحاديث أن أحد حوافر هذا الحمار ستكون في الشرق والأخرى في الغرب، الأمر الذي يشير إلى ضخامة حجم قفزته، مما يعني أنه سوف يُقلع من قارة ويهبط في أخرى.[19]

١١) حينما يطير هذا الحمار فإنه سوف يرتفع فوق السحاب.[20]

١٢) سوف يحمل القمر على جبهته. ومن الواضح أن القمر يشير إلى وجود الأنوار الأمامية التي تُستعمل ليلا للإنارة في وسائل المواصلات الحديثة.[20]

وبعد قراءة هذا الوصف الجلي لحمار الدجال، فإننا لنعجب حقًا ما إذا كان القارئ لا يزال في حاجة إلى شرح تفصيلي لمعرفة حقيقة هذا الحمار الذي يستخدمه المسيح الدجال في غزو العالم.

ومن الواضح أن القوى المسيحية العظمى في العالم هي المقصودة باستخدام لفظ 'الدجال'[21] حيث كان من المقدر لها أن تحكم العالم كله يوما ما. والحمار الذي يأكل الماء والنار، والذي وُصف بأنه يقوم بالأعمال التي تؤديها في عصرنا هذا الطائرات والسفن والقطارات التي تتحرك بسرعة هائلة، سوف يقوم بالدور الحاسم في غزو العالم بواسطة القوى المسيحية. وعدا التأكيد على أهمية السرعة العالية في الانتقال، فإن أهمية القدرة على حمل الأوزان الثقيلة والحمولات الضخمة قد ذكرها القرآن المجيد بالذات في معرض الحديث عن الصراع العالمي من أجل التفوق والتسلط. يقول تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۞ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ (١٠١ القارعة:٧-٨)

فكلما ثقلت موازين حمولات ما يملكونه، وكلما ازدادت سرعة انتقالهم، كلما زادت فرصة هذه القوى العالمية في التفوق والهيمنة. فإن حجم الشيء وسرعته هما العامل الحاسم في طريق الانتصار.

إن هذه النبوءات فريدة في ذاتها، حتى إنه يصعب حقا أن نجد ما يساويها أو يماثلها في أي مكان أو مجال آخر. وقد جاء الوصف فيها حيا ودقيقا للغاية، حتى إنه ليعطي الانطباع بأن الرسول ﷺ كان يصوغ في كلمات تصويرية ما كان يراه يتحقق أمام عينيه من ظهر الغيب، تماما كما يلتقط الفنان بريشته روعة وجمال المنظر الذي يراه أمامه.

وبهـــذا نأتي إلى نهاية هذا المبحث عن هذه المجموعة من النبوءات التي تحـــتويها سورة التكوير. وسوف نتناول في الفصل التالي بعض النبوءات الأخـــرى الـــتي تعتـــبر على جانب كبير من الأهمية، والتي تذكر بعض الســـمات الأخـــرى لـــنفس الزمن. وتتناول كل منها موضوعات معينة ومتباينة، وقد احتوتها بدقة وبراعة العديد من السور القرآنية.

المـــــــــراجع

1. *The Holy Bible* (1982) The New King James Version. Thomas Nelson Publishers, Nashville, Exodus 14:28-29
2. *Fat-hul-Bārī* – The Commentary of Sahih Al-Bukhārī by Hfiz Ahmad bin ‘Ali Hajar Al-‘Asqalāni (773-852). Kitāb Al-Magāhzī Babo Ghazwah Al-Khandaq Al-A zāb. Vol. VII p.397.
3. *Mishkāt-ul-Masābih.* Vol.I, Chapter III. Kitāb Al-Manāqib. Babo Manāqib Al-Sahabah. Publisher: Al-Maktab Al-Islāmi, Beirut.
4. *Chronicle of the World.* (1989) Chronicle Communications Ltd and Longman Group UK Ltd., London, p.436
5. LANE-POOLE, S. (1888) *The Moors in Spain.* 8th ed., T. Fisher Unwin, London, p.270
6. LANE-POOLE, S. (1888) *The Moors in Spain.* 8th ed., T. Fisher Unwin, London, pp.270-271
7. LANE-POOLE, S. (1888) *The Moors in Spain.* 8th ed., T. Fisher Unwin, London, p.271
8. LANE-POOLE, S. (1888) *The Moors in Spain.* 8th ed., T. Fisher Unwin, London, p.273

9. LANE-POOLE, S. (1888) *The Moors in Spain.* 8th ed., T. Fisher Unwin, London, p.278
10. LANE-POOLE, S. (1888) *The Moors in Spain.* 8th ed., T. Fisher Unwin, London, p.279
11. LANE-POOLE, S. (1888) *The Moors in Spain.* 8th ed., T. Fisher Unwin, London, p.280
12. 'ALLAMAH 'ALA-UD-DIN 'ALI AL-MUTTAQI. *Kanz-ul-'ummāl* vol:14 p.604 & 613 (1979), Beirut.
13. IMAM MUSLIM BIN AL-HAJJĀJ BIN MUSLIM AL-QUSHAIRĪ AL-NAISAPŪRĪ. *Sahih Muslim*, Kitabul-Fitan, Babo Zikrid-Dajjāl wa Sifātehī Wa ma ma'ahū.
14. 'ALLAMAH MUHAMMAD BĀQIR AL-MAJLISĪ. *Bihārul-Anwār* 'Alāmāte Zohurihī Alaihis-salām min Al-sufyāni wad-Dajjāl.
15. 'ABDUR-REHMĀN AL-SAFŪRĪ. *Nuzhat-ul-Majālis,* vol:1 p.109. Maymaniyyah Press, Egypt.
16. 'ALLAMAH MUHAMMAD BĀQIR AL-MAJLISĪ. *Bihārul-Anwār* 'Alāmāte Zohurihī Alaihis-salām min Al-sufyāni wad-Dajjāl.
17. 'ABDUR-REHMĀN AL-SAFŪRĪ. *Nuzhat-ul-Majālis,* vol:1 p.109. Maymaniyyah Press, Egypt.
18. *Sahīh-Al-Bukhārī*. Kitāb-ul-Fitan, Babo Zikrid-Dajjāl
19. 'ABDUR-REHMĀN AL-SAFŪRĪ. *Nuzhat-ul-Majālis,* vol:1 p.109. Maymaniyyah Press, Egypt.
20. 'ALLAMAH MUHAMMAD BĀQIR AL-MAJLISĪ. *Bihārul-Anwār* 'Alāmāte Zohurihī Alaihis-salām min Al-sufyāni wad-Dajjāl.
21. IMAM MUSLIM BIN AL-HAJJĀJ BIN MUSLIM AL-QUSHAIRĪ AL-NAISAPŪRĪ. *Sahih Muslim*, Kitabul-Fitan, Babo Zikrid-Dajjāl wa Sifātehī Wa ma ma'ahū.

الفصل الثاني
الإبادة النووية

مــن بــين نــبوءات القــرآن الــتي تتعلق بأحداث عصرنا الحاضر والاخــتراعات الــتي تمت فيه.. نجد أن البعض منها على جانب كبير من الأهمــية، وله وقع كبير على المستوى العالمي. وإحدى هذه النبوءات تتعلق بالأخطار المتوقعة لما هو معروف باسم الإبادة النووية (Nuclear Holocaust).

وقــد جاءت هذه النبوءة في زمن ما كان للإنسان أن يتصور وقوع انفجــار نووي مهما جمح به الخيال أو هامت به الأفكار. ولكن.. كما ســنبينه فــيما يلي.. هناك بعض الآيات المعيّنة في القرآن الكريم تتحدث بوضوح عن أجسام دقيقة تبدو وكأنها عديمة القيمة، ولكنها توصف بأنها مخازن لطاقة عظيمة، وكأن نيران الجحيم الموقدة قد أغلق عليها بداخلها. وممــا يــثير العجب والدهشة البالغة أن هذا هو بالضبط ما تذكره حرفيًا الآيات التالية:

﴿وَيْــلٌ لِّكُــلِّ هُمَــزَةٍ لُّمَزَةٍ ۞ الَّذِي جَمَعَ مَالا وَّعَدَّدَهُ ۞ يَحْسَــبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۞ كَلا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۞ نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ ۞ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ۞ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤْصَدَةٌ ۞ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ (١٠٤ الهمزة: ٢-١٠)

أي الويــل لكل مغتاب عياب، الذي جمع ثروة من الأموال وأخذ يعدها ويكرر عدها مرة بعد أخرى، وهو يتصور أن هذه الأموال سوف تمنحه الخلــود والبقاء. كلا! إنه سوف يُترك في "الحطمة"، وما يدريك ما هي "الحطمة"؟ إنها نار موقدة من لدن الله تعالى، سوف تنفذ إلى القلوب. إن

هذه النيران محبوسة داخل أعمدة تتمدد فتُكَوِّن أعمدة من النيران.

هـــذه السورة القصيرة تحمل في كلماتها الكثير من المعاني والعبارات المذهلـــة، والـــتي كانت بعيدة تماما عن أفكار وتصورات الناس في ذلك الزمن الذي ذُكرت فيه. وإنه لمن العجيب حقا أن يذكر القرآن المجيد أن أولـــئك الآثمـــين الذيـــن يتصـــفون بصفات معينة.. سوف يُقذفون في "الحطمـــة"، وهي تعني الجزيئات الصغيرة الدقيقة التي نراها عادة تسبح في الهواء عندما يتسرب شعاع من الضوء إلى داخل حجرة مظلمة.

وتذكـــر القواميس المعتمدة للغة العربية أن للفظ "الحطمة" أصلَين.. لكل منهما معنى خاص الأصل الأول هو "حَطَمَه"، بمعنى "دَقَّ وسَحَقَ" أو "جعلـــه قطَعـــا وأجزاءً صغيرة جدا". والأصل الثاني هو "حِطْمَة"، بمعنى "الجـــزء الَصغير الذي لا قيمة له". والحطْمة هي الجزء الذي ينتج عن دق شيء وكسره وسحقه وتحويله إلى أصغرَ مُكوناته.

ويمكن أن ينطبق هذان المعنيان على أصغر أجزاء من أية مادة يمكن أن تنقســـم إلى أن تصل إلى أصغر أجزائها القابلة للانقسام. وحيث إن فكرة انشطار النواة لم تكن قد وُلدت بعد منذ أربعة عشر قرنا من الزمان، فإن أقـــرب تعبير يصف هذا الانشطار النووي هو لفظ "الحطمة" وهو أيضا أقرب ما يكون من "atom" من ناحية اللفظ أيضا. ولا يكاد المرء يفيق من العجـــب لمـــا يعلنه القرآن الكريم من أن يوما ما سوف يأتي حين يُلقَى الإنســـان في أتـــون الحطمة، أي في جحيم الانشطار النووي، حتى يتبع القرآن ذلك بذكر أمر آخر أكثر عجبا وأشد إثارة للدهشة.

فالقرآن المجيد يُبين ويشرح ماهية الحطمة، فيقول إنها نار الله الموقدة، وإنهـــا مؤصـــدة داخلها ومحبوسة في أعمدة ممتدة. كذلك فإنه يقول إن الإنسان حين يُلقى في هذه النيران فإنها سوف تنفذ إلى قلبه مباشرة وكأنه لا يوجد ما يمنعها من قفص صدري أو أي شيء يقف في طريقها. وهذا يشير إلى أن هذه النار مختلفة تماما.. فهي تهلك القلب قبل أن تحرق الجسم

الخارجي. ومن المعلوم أنه لم يكن الإنسان في ذلك الزمن يعرف نارا يمكن أن تـــنفذ إلى القلـــب مباشـــرة بهذا الشكل الذي جاء وصفه في الآيات الكريمة.

ولكـــن ليست هذه وحدها جميع العوامل المثيرة للدهشة والعجب في هـــذا الوصف، فما يأتي بعد أشد غرابة وأكبر عجبا. فقد ذُكر عن هذه الـــنار أنها مؤصدة في أعمدة ممتدة، وهي تنتظر أن تنفذ إلى قلب الإنسان حين يأتي الزمن الذي تنطلق فيه هذه النيران من محبسها.

إنهـــا حقا دهشة بعد دهشة، وعجب يتلوه عجب، يتراكم جميعه في نطـــاق هـــذه العـــبارات القليلة والآيات البيّنة التي تحتويها هذه السورة الكـــريمة. فأولا يأتي الإعلان بأن زمنا ما سوف يجيء حين يُلقَى الإنسان في أصغر جزء من أجزاء المادة.. أي "الحطمة"، ثم يأتي وصف هذا الجزء الأصغر من المادة وما يحتويه من نيران، وأن هذه النيران محبوسة في أوعية تظهر في شكل الأعمدة الممتدة.

ولا يعـــني قـــذف الإنسان في هذه الحطمة الصغيرة الدقيقة أن فردا واحدا سوف يُقذف فيها، فالإنسان هنا اسم عام، وقذفه في الحطمة يعني خضـــوع جـــنس البشر لآفاتها ومصائبها التي يهلك فيها. وقد صار من الممكـــن حدوث هذا في زماننا المعاصر فقط، حين استطاع الإنسان أن يكتشف أسرار الذرة ونواتها بما تحويه من خزائن الطاقة الجبارة. وهذا هو الزمن الذي يمكن فيه لهذه الطاقة أن تنطلق من محبسها وتكتنف مساحات شاسعة تبلغ الألوف من الأميال المربعة، بكل ما تحتويه هذه المساحات من مـــبان أو نـــبات أو إنسان. وهكذا فإن الأمر الذي كان من المستحيل حدوثه منذ أربعة عشر قرنا من الزمان قد صار اليوم أمرا حقيقيا معروفا، يستطيع أن يفهمه الجميع حتى الأطفال.

إن أكـــثر تعبيرات العجب إطنابا لا تعطي هذه النبوءة العظيمة حقها في الوصف والتعبير. ولا يقل عن ذلك عجبا أن الناس في الأزمنة الماضية

لم يدركــوا أهمــية هذه السورة القصيرة.. سورة الهمَزة، وإلا لكانت قد نفذت إلى عقولهم وعقائدهم. فكيف لم تلفت هذه الآيات أنظارهم و لم يثر أحد منهم اعتراضا أو تساؤلا عن كيفية دخول المرء في حطمة دقيقة، ولعــلهم ظــنوا أن هذه الآيات لا تتعلق بأحداث هذا العالم، وإنما تنطبق على العالم المجهول الذي يختص بالحياة الآخرة. لذا فقد تجنب العديد من المفسرين الخوض في تفسير هذه الآيات، والقليل ممن قام بتفسيرها أراحوا أنفســهم بأن نسبوا أحداث هذه الآيات إلى يوم البعث والنشور، ولكن بغــير تقــديم أي دليل لإثبات أنها كذلك. وهكذا.. بغير إدراك المعاني الحقيقية التي تحتويها هذه الآيات الكريمة.. كان من السهل عليهم أن يلقوا بها إلى نطاق عالم المجهول.

وكان المستشرق سيل (Sale)، أحد المستشرقين الغربيين الذين قاموا بــترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية، قد واجه المشكلة نفسها لدى ترجمة كلمة "الحطمة" حرفيا. وببساطة.. قال سيل إن الآية تعني أن عددا كــبيرا مــن الناس سوف يُلقون في *Al-hotamah* بغير أن يُترجم كلمة "الحطمــة" إطلاقــا. وبذلك لم يكن أمام الناطقين بالإنجليزية أية سبيل للاعتراض على إمكان إلقاء عدد كبير من الناس في جزيء دقيق متناه في الصــغر. وحيــث إنهم كانوا يجهلون تماما ما تعنيه كلمة ***hotamah*** فقد أعطــوا لخيالهم العنان في تصور أنها عبارة عن بهو واسع كبير من النيران المتقدة وتسمى حُطمة. وبهذه الاستراتيجية أنقذ "سيل" نفسه من الارتباك الذي واجهه في ترجمة الكلمة، بيد أنه فشل في نفس الوقت أن يعطي هذه النبوءة المدهشة حقها الذي تستحقه.

إن الــنار التي تتحدث عنها الآية، سواء كانت لهيبا مدمّرا هنا على الأرض أو جحــيما مســتعرا في الآخرة، لا يمكن بأية حال من الأحوال ضــغطها وحبسها في نطاق المكان الصغير المتناهي في الصغر الذي تشغله "الحطمة". غير أن هذه لم تكن هي المعضلة الوحيدة التي واجهت "سيل"

والمفســـرين الأوائل. فماذا عن النيران المحبوسة في أعمدة ممددة، وهو أمر كان من المستحيل تصوره قبل أن ينبلج فجر العصر النووي؟ أما الآن فقد أمكن أخيرا حل اللغز المستعصي واتضحت تماما جميع أركانه.

ومـــا لم يكـــن المرء على معرفة بالتوصيف العلمي لكيفية حدوث الانفجـــار النووي والتغييرات التي تحدث نتيجة لذلك داخل النواة، فإنه يصعب على المرء أن يفهم تماما معنى التعبير القرآني: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾. إذ يصـــف الخـــبراء في شؤون الانشطار النووي الحالة الحرجة للكتلة التي توشك على الانشطار بأنها تتمدد وهي تخفق وتنبض تحت الضغط الهائل الـــذي يتـــنامَى بداخلها. وينتج الضغط بسبب الاستطالة والتمدد الذي يحدث للأنوية قُبيل انشطارها، وأثناء هذه العملية ينشطر عنصر من ذوي الأوزان الذريـــة العالية إلى عنصرين كل منهما لـــه وزن ذري يقل عن العنصر الأول. والمجموع الكلي للأوزان الذرية للعناصر المتكونة تقل عن الوزن الذري للعنصر الأول، الذي عادة ما يُطلق عليه اسم العنصر الثقيل. والجزء البسيط من الأوزان الذرية التي تم فقدها في هذه العملية يتحول إلى طاقة. وهذا لا يُشكل بالطبع النمط الوحيد للقنبلة النووية، ولكننا اخترنا هذا النمط البسيط لوصف عملية العَمَد الممددة.

وحين ننتقل إلى موضوع كيفية نفاذ هذه النيران إلى القلوب مباشرة، نقدم فيما يلي التفسير العلمي لهذه الظاهرة:

عـــند لحظـــة الانفجـــار.. تـــنطلق على الفور كميات كبيرة من النيوترونات وأشعة جاما وأشعة إكس، وترفع أشعة إكس درجة الحرارة إلى مســـتويات عالـــية جدا تشبه درجة حرارة الشهب عند اصطدامها بـــالغلاف الجوي، وهي بذلك تُكَون كرة كبيرة من النيران ترتفع بسرعة إلى أعلى على متن الحرارة الشديدة المنبعثة نتيجة للانفجار النووي. وهذا هـــو سرادق النار الذي يرتفع بما يشبه شكل نبات عش الغراب، وهو ما يمكن رؤيته في كل مكان من مسافات بعيدة.

كذلـــك تنطلق أشعة إكس مع النيوترونات في اتجاه جانبي، وإلى جميع الاتجاهات، فتُسبب ارتفاعا شديدا في درجات الحرارة، مما ينتج عنه احتراق كـــل شـــيء في طريقها. وتفوق سرعة حركة هذه الموجة الحرارية سرعة الصـــوت عدة مرات، فتخلق أيضا موجات اهتزازية رهيبة. غير أن الأسرع مـــن كل هذا والأكثر نفاذا، هي أشعة جاما التي تسبق سرعة انتقال الجبهة الحرارية، حيث إنها تتحرك بسرعة الضوء. وهذه الأشعة تتردد بسرعة كبيرة جـــدا حتى إنه بمحض تأثير سرعة ترددها هذا.. تنفذ على الفور إلى القلب وتصـــيبه بسكتة فورية. فالموت لا ينتج بفعل الحرارة الشديدة الحارقة الناتجة عـــن تـــأثير أشعة إكس، بل إنها الطاقة الجبارة لأشعة جاما هي التي تسبب الموت الفوري. وهذا هو بالضبط ما يقرره القرآن المجيد.

كذلـــك يذكر القرآن في سورة الدخان أن سحابة قاتلة من الدخان المحتوي على الإشعاع المهلك سوف تكتنف الناس، فيقول:

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۞ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٤ الدخان:١١-١٢)

وتتضح خصائص هذه السحابة الدخانية بشكل أكبر من الآيات التالية:

﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۞ انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ ۞ لا ظَلِيلٍ وَّلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ۞ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ۞ كَأَنَّهُ جِمَالاَتٌ صُفْرٌ﴾ (٧٧ المرسلات: ٣٠-٣٤)

إن كـــلمة ﴿انْطَلِقُوا﴾ تشير إلى أن الإنسان سوف يتوجه تدريجيا إلى مرحلة زمنية حيث يكون عليه مواجهة هذه السحابة الدخانية الرهيبة التي لا تمـــنح ظلا ولا تُوَفر حماية. فالظلال تمنح الحماية من الحرارة الشديدة، وتقـــف السحب حائلا بيننا وبين الحرارة المستعرة لأشعة الشمس. ولكن

لا يوجــد في هذه الآيات ذكر للشمس، وإنما ذُكِر اللهب وشرر النيران الــتي لا يحجــبها ظل ذلك الدخان، بل إن ظل ذلك الدخان نفسه هو الوسيلة التي تنقل العذاب الأليم الذي تُشعه تلك النيران، فلا ينجو شيء مــن هــذا الظل، ولا يكون أحد تحته في مأمن من الاحتراق. وهذا هو الوصــف الدقــيق لتأثير سحابة الإشعاع النووي. وبالإضافة.. فإن هذه الســحابة الدخانية سوف تموج فيها النيران حتى إن ألسنة اللهب والشرر المتصاعد يبدو في لون الجمال ذات اللون الأصفر الفاقع، بينما يبلغ حجم ذلــك الشرر حجم القصور والقلاع. ولعل أوجه الشبه بين ألسنة اللهب والجِمــال لــيس فقط في اللون، وإنما في شكل انحناءات سنامات الجمال أيضاً.

إن الناس الذين كانوا يعيشون في القرن السابع الميلادي.. حين نزلت هذه الآيات الكريمة.. لم يكن لديهم التصور اللازم لإدراك خطورة هذه السحابة الدخانية القاتلة، فإن كيفية حدوثها كان أبعد مما تعيه مداركهم. أمــا الــيوم فإننا ندرك ماهية الانفجارات النووية ونعلم حقيقة السحب المشعة التي تنتج عنها.

وإلى هــذا الوصف المشؤوم والمصير المحتوم تشير أيضا آية أخرى في نفس السورة من القرآن المجيد حيث تقول:

﴿وَيْلٌ يَّوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٧٧ المرسلات:١٦)

ويمكــن أن تشير لفظة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ إلى يوم القيامة، كما يمكن أيضا أن تشير إلى زمن هنا على الأرض، حين يرفض أولئك ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ الإيمان بآيــات الله تعــالى، فيغشاهم عذاب أليم من دخان يلقي بظلال الموت والهــلاك على كل ما يوجد من تحته. وسوف تتحرك هذه الظلال المميتة وتنــتقل من مكان إلى مكان، فلا تحمل في طياقما أي أمن أو سلام، بل ظــلال من عذاب وآلام. وذلك هو الزمن الذي حين يشهد فيه الإنسان

ذلك العذاب الأليم، فحينذاك يعود ويرجع أخيرا إلى الله تعالى، ويسأله أن يـــرفع عنه هذا العذاب الذي لا يُحتمل. غير أن غضب الله سبحانه حين ينْزل بساحة قوم.. يكون زمن العفو والمغفرة قد ولّى وانقضى. وفي هذا يقول القرآن المجيد:

﴿أَنَّـــى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ (٤٤ الدخان:١٤-١٥)

إن النـــبوءات الـــتي تحتوي على تحذير وإنذار إنما تهدف إلى إيقاظ الإنسان وتنبيهه إلى أخطار الكوارث التي تحدث نتيجة لسوء عمله. ومن الواضـــح أن النبوءات التي ذكرناها فيما سبق تختص بالعصر الذي نعيش فيه، وهي تتحدث عن أمور كانت مجهولة تماما للناس في العصور الأولى. وإن المـــرء ليعجـــب إن كان الله تعالى قد كشف للرسول ﷺ عن جميع مدلـــولات هذه النبوءات بكل تفاصيلها، غير أن الدقائق من الأمور التي وصفها ﷺ والوضوح الذي وصف به الكثير من الأمور الغيبية المستقبلية، تـــترك لـــدى المرء انطباعا وكأنه ﷺكان يشاهد هذه الأحداث تمر أمام عينيه، كأنها كانت تقع في فيلم سينمائي على مسرح الأقدار. ومع ذلك فقـــد تعـــين على الإنسان الانتظار أكثر من ألف عام قبل أن تبدأ هذه النبوءات في التحقق. و لم يكن لهذه الأحداث أن تنتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة إلا بعد حلول عصر الذرّة.

إن فظاعة الكارثة النووية أمر مهول ورهيب، ومع ذلك فإن الإنسان لا يـــبذل الجهـــد الكافي أو اللازم للبحث عن جذور وأسباب هذا الشر المســـتطير. ونادرا ما ينفذ بصر الإنسان إلى أعماق السطح الذي يتفرس فيه، وخاصة إذا كان يتعلق بهذه الأمور. وقليل من الناس من يستطيع أن يختـــبر أفكـــاره ويتأمل بواطن نفسه من أجل الكشف عن الوجه الخفي لجوانـــب الشـــر التي تقبع في أعماق النفس. وهذا نوع من العماية تتعلق

بالاعوجـــاج الكـــامن في الإنســـان. فكلما كان هو نفسه المسؤول عن التسبب في حدوث المعاناة وانتشار الشرور من حوله، كلما قصرت عيناه عن رؤية يديه وهي تخلق هذه الشرور والمعاناة.

هـــذه هي سلسلة الكوارث التي نبحثها والتي تؤثر على العالَم بأجمعه. ويســـتطيع العالِم أن يشرح ظاهرة الانشطار النووي، ولكنه يفعل ذلك في نطـــاق الأســـباب الطبيعية والمادية فقط. ولكن حين تُستخدَم هذه القوى المدمـــرة الجـــبارة في تدمير أمن الإنسان، فلا يقع اللوم حينئذ على العلماء الذين خلقوها. إن جذور المشكلة تنبت في مكان آخر، فالمسؤول الحقيقي دائما هو القوى العظمى التي تتخذ القرارات الرعناء باستخدام العنف الذي يعصف بأمن العالم كله. وبالرغم من عظمة تلك القوى.. فهي لا تعدو أن تكون مجرد دُمًى في أيدي الإرادة الجماعية الأنانية للجماهير.

ورغم أن القرآن المجيد يتحدث عن الأحداث والتطورات العلمية بدقة بالغة، إلا أنه لا يسلك مسلك مدرس العلوم الذي يقدم العلوم كما هي، وإنمـــا يوجه الانتباه إلى الأسباب غير الأخلاقية لاعوجاج وفساد السلوك الإنســـاني. وهو حين يذكر لنا أخطار الزناد وما ينتج عنه، فإنه لا يركز الانتـــباه عـــلى الزناد فقط بل على الإصبع الذي يضغط عليه، وهذا هو الهـــدف من ذكر تلك التحذيرات في القرآن المجيد. وفي هذا الشأن يذكر القرآن المجيد تكرارا أن كل البشاعة التي تصيب الإنسان، يكون هو نفسه المســـؤول عنها، ولا يقع اللوم إلا عليه. وعلى هذا فإن إجراءات الوقاية التي يبيّنها القرآن تتعلق بإصلاح أخلاق الإنسان وتقويم سلوكه. ويؤكد القـــرآن المجيد على أنه إذا غير الناس من مسلكهم، وأصلحوا من أنفسهم بمـــا يتفق مع الهدي الإلهي، فإن هذا سوف يخلق المناخ الصحي المناسب واللازم لإقامة العدل واستمرار الحياة.

إن مـــنار النـــبوءات القرآنية يُبين بوضوح أماكن الصخور التي ينبغي تجنبها، والقنوات التي يتحتم الإبحار فيها لضمان السلامة. ولكن يبدو أنه من

غـــير المحـــتمل لهؤلاء الذين يتولون قيادة سفينة شؤون الإنسان أن يلقوا بالا للـــتحذيرات ويقودوا السفينة عبر الأخطار المحدقة ليصلوا بها في سلام إلى بر الأمـــان. وبـــدون التحليل العميق والحقيقي لسلوكيات الإنسان على كل مستوى من مستويات أنشطته، فليس هناك من حل معقول يمكن أن يتصوّره أحـــد لحل المشاكل التي تجابه الإنسان اليوم. وبعبارة بسيطة نقول إن الأمر كلـــه يـــتوقف على إحياء القيم الإنسانية الأساسية مثل الصدق، والأمانة، والكرامة، والعدل، والمساواة، والاهتمام بمصالح الآخرين، والإحساس بمعاناة الـــناس.. حـــتى ولو لم يكونوا من الأقارب والمعارف، والالتزام العام بفعل الخير. فإن أزلنا هذه العوامل من العلاقات الإنسانية، فلا ننتظر أو نتوقع شيئا سوى أن تحل بنا الكارثة. وهذه هي النتيجة المنطقية الوحيدة.

إن سورة القمر تشرح هذا الأمر بما يتعلق بالأقوام السابقة التي لم تُلق بالا للتحذيرات التي أُبلغوا بها على لسان رسل الله تعالى الذين جاءوهم في زمانهم. وترتب على ذلك أنهم جميعا، وبغير استثناء، قد شاهدوا بأعينهم الـــنهاية المحـــزنة الـــتي أُنذروا بها، و لم تنفعهم توبتهم بعد فوات الأوان. والغرض الوحيد من ذكر هذه التحذيرات هو أن تتعظ الأجيال المستقبلة، ولا تعير تلك التحذيرات أذنا صمّاء. وهكذا يقص علينا القرآن المجيد أنباء الكـــوارث التي أصابت تلك الأقوام لكي تتعلم الأقوام التالية فنون الحياة من دروس الموت الذي أصاب السابقين. يقول تعالى:

﴿وَلَقَـــدْ جَاءَهُمْ مِّنَ الأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۞ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ (٥٤ القمر:٥-٦)

فإن لم يتعلم الناس الدروس المستفادة، فلا يقع اللوم إلا عليهم عما يترتب على ذلك من كوارث تنتظرهم لتعصف بهم.

وتـــتحدث سورة طه أيضا عن موضوع الإبادة النووية الذي نبحثه، وتذكر النتائج النهائية التي تؤول إليها الأمور، وتشير بعض الآيات إلى أن

كـــبرياء وعجـــرفة القوى العالمية العظمى في هذا الزمن، سوف تنكسر وتتحطم، ولكن لن ينمحيَ الجنس البشري من الوجود.

وتذكر الآيات المعيّنة أن هذا الأمر لن يؤدي إلى فناء البشر جميعا، وإنما ســـوف تتفتت وتُسوَّى بالأرض قوة تلك القوى السياسية المتعجرفة فقط. ومـــن جنـــبات قبورهم سوف ينبعث ويقوم النظام العالمي الجديد. إن هذه القـــوى العظمى التي هي كالجبال الراسية سوف تُدق وتُسحق وتُسَوى بها الأرض، حـــتى لكأنها قد صارت مثل الأرض المنبسطة التي تكسوها الرمال، فلا ترى فيها أعالي ولا أسافل، ولا عوجا ولا أمتا. يقول تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ قُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًـــا صَفْصَـــفًا ۝ لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ۝ يَوْمَئِذٍ يَتَّـــبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلا هَمْسًا﴾ (٢٠ طه:١٠٦-١٠٩)

إنه الله تبارك وتعالى، هو الذي سوف يحقق بيده الكريمة هذا التحوّل المدهش. والجبال في هذه الآيات ليست سوى استعارة مجازية للتعبير عن القـــوى العظمى والأمم والشعوب. ويذكر القرآن المجيد أنه متى تم سحق عجرفتهم وزال تكبرهم واستقام أمرهم، فحينذاك فقط سوف يستمعون إلى نـــداء الداعي إلى الله الذي لا عوج لـــه. وهذا الدمار الذي يذكره القـــرآن المجـــيد لا ينتج إلا عن إبادة تتم بانفجار المئات من التفجيرات الـــنووية، مما يعني أن الإنسان لن يتعلم الدرس بسهولة، وأنه لا بد من أن يُطأطَـــأ رأسُ كـــبره تحت ضغط وثقل فظاعة الكوارث التي تلم به. ومع رسالة الوعيد المرعبة هذه.. تأتي أيضا رسالة جليلة تحمل الأمل بأن الفناء لن يعم الجنس البشري بأكمله، بل إنه سينجو من هذه الكوارث في نهاية المطـــاف ويدلف إلى عهد جديد من عهود النور. وسوف يتعلم الإنسان

كيف يصلح من أساليبه وسلوكياته.. إن لم يكن من قبل، فعلى الأقل من بعد أن يذوق ثمار سيئاته وعصيانه لله تعالى.

وفي سورة أخرى يحدثنا القرآن الكريم عن تغييرات ضخمة وشاملة في المناخ وفي جغرافية الأرض، وستكون لها طبيعة فظيعة مرعبة، حتى إنها ستُحَول وجه الأرض في أماكن كثيرة من البلاد والقارات إلى خراب ودمار شامل. وقد تكون هذه النبوءات عن الحالة بعد الإبادة النووية التي نتحدث عنها. وقبل حدوث هذا الدمار.. كانت نفس تلك الأراضي والأماكن تُعد من أكثر البقاع في العالم كله جمالا وسحرا في طبيعتها، وكانت فريدة في غناها الذي يبهر العيون ويخطف الأبصار. وإننا لنتمنى ألا تتحقق هذه النبوءة على الأقل من بين جميع النبوءات التي ذكرها القرآن المجيد. ويقيننا ليس في هذه الأمنية أية شائبة من عدم الاحترام للنبوءات التحذيرية التي ذكرها القرآن العظيم، بل إنها تنبع من إيماننا الذي لا يتزعزع في الرحمة العامة الشاملة لله تعالى - الله الرحيم الكريم. فإن جميع النبوءات التي تحمل الإنذار والوعيد، مهما كانت قوية، يتوقف تحققها على مدى استجابة الإنسان لها. وهناك المثل الذي ذكره القرآن المجيد عن قوم يونس عليه السلام، الذين نجوا من عقاب الله المقدّر لهم حين رجعوا إلى الله تعالى بتوبة صادقة نصوح، فهذا يضيء لنا اليوم نور الأمل. ورغم أنه لا يبدو هناك من سبب معقول يبرر التفاؤل، بالنظر إلى الانحطاط المستمر والمتواصل في القيم الأخلاقية لدى الإنسان، إلا أن نجاة قوم يونس تظل هي الأمل الوحيد الذي يمكن أن نتعلق به، وغير ذلك ليس سوى ليل أسود مظلم مرعب من اليأس الكامل. ولكن العلاج لأمراض العالم المتأصلة لم يعد في أيدي المسحاء الكذبة وأدعياء الدين، وإنما هو في يد الله تعالى وحده، إذا ارتفعت أيدينا إليه بالدعاء الصادق المخلص فقط. وربما يكون كلامنا هذا في لغة يصعب فهمها على الإنسان المعاصر لأنه على عكس ما اعتادت أذنه أن تسمعه. إن الله وحده هو العليم بحقيقة الأمور.

الفصل الثالث

الهندسة الوراثية

لقـــد صار من الممكن اليوم تغيير بعض سماة الحياة من خلال حقل الهندسة الوراثية. ولكن في الزمن الذي نزلت فيه الآيات التالية.. لم يكن يتصـــوّر أحد أن أمرا كهذا يمكن أن يحدث، مهما جمح به الخيال. يقول تعالى عن الشيطان:

﴿...وَقَـــالَ لأَتَّخِـــذَنَّ مِـــنْ عِـــبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝ وَلأُضِـــلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّـــيَـــنَّهُمْ وَلآمُـــرَنَّهُمْ فَلَيُـــبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ...﴾ (٤ النساء:١١٩-١٢٠)

إن فكرة بتر بعض أعضاء الحيوانات أو تشويهها، مثل بتر الذيول أو شـــق الآذان، ليس هو ما يعنيه القرآن المجيد هنا، إذ أنه يشير ببساطة إلى التقليد الذي كان معمولا به عند العرب في أزمنة ما قبل الإسلام، بعمل بعـــض الشقوق في آذان الأنعام كعلامات لتخصيص هذه الأنعام لتكون قرابين تُقَدم للآلهة المختلفة. غير أن ما يلي في نفس الآية الكريمة أمر أكثر إثـــارة.. وهـــو ثوري في طبيعته، إذ تنتهي الآية بذكر ضغينة من ضغائن الشـــيطان، فهو يصرح بنيته في تحريض الناس على تغيير خلق الله تعالى، فتستطرد الآية:

﴿... وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ (٤ النساء:١٢٠)

إن إمكانية تغيير طبيعة خلق الله تعالى هي فكرة لم تكن لتخطر ببال

الـــناس في الأزمـــنة السالفة. ومن الواضح أن الآية الكريمة تتحدث عن إمكانـــيات لم تكـــن قد تجلت بعد في آفاق العصور السابقة، فإن إجراء بعـــض التغـــييرات البسيطة، مثل بتر الذيول مثلا، هو عمل بسيط يمكن القـــيام بـــه في جميع العصور. غير أن إمكانية أن يحقق الإنسان تغييرات جوهـــرية في خلـــق الله تعالى.. كانت دائما أبعد من تخيّل الإنسان قبل الأزمنة الحديثة، فلم يتم إضافة الهندسة الوراثية كفرع جديد في الدراسات العلمـــية إلا مـــنذ عقد أو عقدين. ومع ذلك فإن هذا الفرع الجديد من العلـــوم يـــتحرك بسرعة إلى المرحلة التي كان لا بد أن يقدم القرآن عنها تحذيـــرا واضحا منذ أربعة عشر قرنا. فقد بدأ الإنسان بالفعل يتدخل في أمـــور الخلـــق، وحقـــق بعض النجاح في تغيير بعض أشكال الحياة على مستوى البكتريا والحشرات وغيرها. والمزيد من الخطوات في هذا الاتجاه قد يؤدي إلى وقوع الكارثة. وقد بدأ بعض العلماء يدقون ناقوس الخطر، ولكـــن ممـــا يؤسف لـــه أنه لم يعد في مقدور هؤلاء العلماء إدارة عجلة التجارب.. التي تُجرَى في هذا المجال.. في الاتجاه المعاكس.

وينقســـم العلماء إلى فريقين فيما يتعلق بأخلاقيات الهندسة الوراثية، فالبعض يرفعون أيديهم منذرين بالخطر، بينما يحث الآخرون على ضرورة اكتشـــاف جميع المجالات في هذا الحقل، حتى يمكن لنا أن نكتشف أسرار الخلـــق. وهـــم يعتقدون أن التطورات التقنية في هذا المجال سوف تزيد مستقبل الإنسان ضياءً وبهاءً.

ويســـتعر الجدال بشدة في أمريكا بين الفريقين.. من يؤيد منهم ومن يعـــارض الهندسة الوراثية، وهناك بعض القضايا التي رُفِعَت في الولايات المتحدة الأمريكية ضد إجراء التجارب في مجال الهندسة الوراثية بدون أية حدود أو ضوابط، وتنتظر أن يبت فيها القضاء بكلمته. ويحذر البعض من أن التجارب قد تخطت بالفعل التوقعات العلمية لما كان من المفروض أن ينـــتج عـــن نقـــل الجينات من جنس إلى آخر. وفي بعض الحالات كان

الانحراف عن النتائج المتوقعة كبيرا بشكل يثير الدهشة، أكثر حتى مما كان يتوقع المتشككون. ومع ذلك فإلى الآن لم تخرج الأمور كلية من نطاق السيطرة. فالتجارب التي أُجريَت على بعض أنواع البكتريا والمحاصيل.. قد أثبتت أنها مفيدة في تحسين المنتجات الزراعية وحمايتها من بعض الأمراض المعينة. ولكنه من المبكر جدا والسابق لأوانه فعلا أن نجذل فرحا لتحقيق هذه المكاسب العابرة والبسيطة.

ومن المستحيل تقدير التأثيرات النهائية للسلالات الجديدة المخلقة على البيئة في المستقبل إلا بعد المراقبة الدقيقة الكاملة لسلوك السلالات المعدّلة لعدة أجيال متعاقبة. والأخطار التي يمكن أن تنتج من هذه السلالات المعدّلة هي أخطار حقيقية وجوهرية. وإن لم توضع هذه التجارب تحت المراقبة الدقيقة، وتوضع لها القواعد والقوانين التي تنظمها، فمن الممكن أن تؤدي بعض التجارب غير المسؤولة في مجال الهندسة الوراثية إلى انطلاق بعض أنواع من الحياة غير المتوقعة، مما لا يمكن للإنسان أن يسيطر عليها. وإن تأكيد القرآن المجيد على التحذير من عقاب التدخل والعبث بخلق الله تعالى إنما هو نذير شر لمستقبل الحياة على الأرض. ويعلم الله تعالى ما إذا كان الإنسان سوف يتوقف أبدا عن القيام بدور الخالق ﷻ، فهل من حل أو تدبير، أقل من الإبادة الكاملة، يمكن أن يلقن الإنسان درسا في التواضع؟

غير أنه من الخطأ أيضا الزعم بأن هذه الآية الكريمة المذكورة فيما سبق تدين وتمنع جميع استخدامات الهندسة الوراثية. فكل فرع من فروع العلم يستخدم لخدمة ونفع خلق الله تعالى، بدلا من تغييره والعبث به، فهو يقينا لا يُذم ولا يُمنع. فمثلا إذا استخدمت الهندسة الوراثية لإصلاح العيوب في التركيبات الجينية genetic codes الناتجة عن حوادث معينة، فلا يعتبر هذا أبدا عبثا أو تدخلا في تغيير خلق الله، وإنما يُعتبر علاجا. كذلك إذا حدث تشويه في التركيبات الجينية نتيجة لبعض الأمراض، أو بسبب

الــتأثير الضـــار لبعض الأدوية، ثم حاولنا إصلاح هذا التشويه من خلال الهندسة الوراثية، فلن يكون هذا من عمل وتأثير الشيطان الذي تُدينه الآية الكريمة.

وبعـــد كل ما يُقال عن هذا الحقل، دفاعا أو إدانة، فمن اليقين أنه لا يصــح إطلاق يد العلماء ليعبثوا ما شاء لهم العبث بخلق الله تعالى، وتغيير الــنظام الــذي وضعه سبحانه للخلق. وإنه لخليق بهم أن يشكروا حسن حظهم أنه لم تقع حوادث خطيرة حتى الآن، وإن حدث هذا فليس هناك مــن يلقون عليهم باللوم سوى أنفسهم. ونحن نأمل أن تستمر حكومات العــالم في المراقبة الدقيقة للاتجاهات التي تنحاها التجارب التي تُجرى في مجال الهندسة الوراثية، والنطاق الذي تتم فيه. فما يتعرض للانهيار هنا هو شـــرف وكـــرامة السلالة الإنسانية ضمن المملكة الحيوانية. ونحن نأمل وندعـــو الله تعالى أن يُجَنّب الإنسان عذاب رؤية ذلك اليوم الذي يحكم فيه البشرَ عبيدٌ من تخليق الإنسان نفسه.

الفصل الرابع

الطاعـــــون

إن العالم الذي نعرفه اليوم (١٩٩٨) يختلف كثيرا عما كان عليه منذ مائـــة عـــام. فلم يكن فجر عصر الطيران قد انبلج بعد. وكانت المحاولة الأولى لطـــيران الأخَـــوَان رايت (Wright brothers) لا تزال بعد حلما لم يتحقق إلا بعد عدة سنوات. ولم تكن السفن العملاقة كالجبال قد بُنيت بعد، ولا كانت الغواصات قد اختُرعَت بعد. ومع ذلك فقد كانت هناك حركة ونشاط في الأجواء تنبئ بأن فجر يوم مبكر يوشك على الانبلاج، فينبثق في إثره يوم جديد يحمل انقلابا عظيما من الاختراعات العلمية.

كذلـــك كانـــت الأجواء في عالم الأديان تنبض بحيوية في توقع ذي طبيعة مختلفة. فقد كان هناك حديث يجري بين أتباع كل دين عن قرب ظهور مصلح عظيم من الله تعالى يأتي للعالم كله. أما من هو ذلك المصلح الرباني وأين يظهر، فقد كان هو الموضوع الذي يثير الجدال الساخن بين الناس. وكانت هناك الكثير من الآراء والآراء المقابلة، ولكن لم يكن من مكان تحتدم فيه المجادلات كما كانت تحتدم في شبه القارة الهندية.

كان كل من المسلمين والمسيحيين ينتظرون وصول المسيح من بينهم. ولم يكـــن الهـــندوس أقل حماسا منهم انتظارا لظهور كرشنا من بينهم. وكذلـــك لم يكـــن البوذيون في المؤخرة بالنسبة لجميع هؤلاء، فهم أيضا كانوا ينتظرون بعثة "بوذا" الثانية.

وفي هـــذا الجو المشحون بالتوقع والانتظار والصراع بين جميع أتباع الأديان.. سمع العالم صوتا عاليا مدويا، لإنسان من أصل كريم كان اسمه مرزا غلام أحمد عليه السلام من قاديان. وقد أثار دويا كبيرا بدفاعه البارع عن الإسلام وإظهار عظمته وتفوّقه على الأديان كلها. وراح يقدم التحدّيات

إلى الجميع باسم الإسلام.. تحدّيات تؤيدها الدلائل القوية التي تقوم على البراهين العقلية والأدلة المستقاة من الصحف المقدسة، الأمر الذي اضطر زعماء الأديان الأخرى إلى الاهتمام به اهتماما بالغا، وأن يحسبوا له ألف حساب. وكان الإحساس العام والشعور الغامر في كل مكان هو أنه "قد قام مجاهد جديد للدفاع عن الإسلام".

كان ينتاب مسلمي الهند غبطة وسرور عظيمان، كما كان يراودهم أيضا أمل كبير. فإلى أن دخل هذا البطل الجديد ساحة الدفاع عن الإسلام، كان الإسلام أقل الأديان المتصارعة قدرة على الدفاع عن نفسه، وذلك لغياب من يقومون بهذا الواجب أو لضعفهم. ولقد علا نجمه بسرعة فلكية في سماء الشهرة بين مسلمي الهند حين نشر مؤلفه العظيم 'البراهين الأحمدية'. وتسابق أشهر العلماء المسلمين في زمانه إلى تقريظ الأجزاء الأولى التي تم نشرها من الكتاب، ودبجوا المقالات، وكالوا الثناء الشديد على براعة المؤلف في دفاعه عن الإسلام. ونشر علماء عصره الكثير من مقالات المديح والامتنان في الصحف الإسلامية الكبرى. ولكن.. لم تكن هذه الحال لتستمر طويلا.

لقد تغير الوضع تماما عندما أعلن يوما أن الله تعالى قد أوحى إليه أن المسيح عيسى بن مريم عليه السلام قد مات، وأنه بعد أن نجاه الله تعالى من الموت على الصليب عاش لسنوات طوال، ثم مات كما مات من قبله الأنبياء الآخرون. وأن الله قد جعله هو.. مرزا غلام أحمد عليه السلام.. مسيح آخر الزمان، إذ بعثه الله تعالى وسماه باسم المسيح وجعله مشابها له في روحه وقوته وأسلوبه، وذلك تحقيقا للنبوءات عن المجيء الثاني لعيسى عليه السلام. وسوف نناقش هذا الموضوع باستفاضة في الباب السابع من هذا الكتاب، أما الآن فنكتفي بالقول إن شهرته كانت قد طبقت الآفاق قبل أن يقوم بنشر إعلانه هذا. وأول ما كلفه هذا الإعلان هو فقدانه للتأييد والإعجاب الشديد الذي كان يحظى به، والذي تحول بين يوم وليلة إلى

شهرة قبيحة وصيت رديء. وظل اسمه معروفا لدى المسلمين من الشرق إلى الغــرب عبر ربوع شبه القارة الهندية الواسعة، ولكن بغير أن يكون مقــرونا بالشــرف والكرامة، ولا مصحوبا بالآمال المعقودة أو الأماني الطموحة. وهكذا تحَوّل البطل المغوار الذي كان أشد المدافعين ذودا عن الإســلام.. ليصير هدفا لنبال المسلمين أنفسهم.. الذين كان يدفع عنهم وعــن الدين سهامَ الأعداء التي انهالت عليه من كل جانب. وتحوّل جميع الأصدقاء إلى أعداء، وكل أولئك الذين كانوا يتمنون لــه الفوز والنجاح راحــوا يتمنون لــه الموت والهلاك، بدلا من أن يقبلوا بموت عيسى بن مــريم عليه السلام أو يقبلوا تحقق الوعد بعودته في مسيح يولد من بين المسلمين أنفســهم. ولم تــر شبه القارة الهندية أحدا ناله الثلب والشتم والتحقير، ووُجّــه إلــيه الــذم والسب والتكفير، وصُب عليه جام الغضب والغيظ والــتعريض، كما حدث معه بهذه الشراسة البالغة والقسوة العنيفة. وفي تلك اللحظات من الخيانة التامة والتخلي الكامل من قِبَل العالم الإسلامي، والعداء السافر والخصومة العنيدة من قِبَل أتباع الأديان الأخرى، تلقى من الله تعالى وعدا بأنه سبحانه لن يتخلى عنه ولن يتركه وحيدا. وأوْحَى إليه تــبارك وتعــالى بالكــثير من النبوءات التي تحمل الإنذار بالعقاب الإلهي لأولــئك الذيــن كــانوا يقودون الحملات المريرة من الكراهية الشديدة والمعارضة المجنونة التي كانت تُشن ضده. كذلك فقد أبلغه الله تعالى بعديد مــن النــبوءات تتعلق بعقوبات سماوية على نطاق أوسع ومجالات أكبر وأشمل، حتى يتسنى للناس عموما أن يتعلموا الدروس النافعة منها. ولكنهم لم يلقوا إليها بالا.. فقد كذبه الناس، ولكن لم يسَع أحدا تكذيب نبوءات العقاب السماوي التي أوحاها إليه.

كانت إحدى تلك النبوءات تتعلق بانتشار وباء الطاعون الذي كان مــن المقــدّر لــه أن يعيث فسادا وينشر الهلاك في البنجاب على وجه الخصــوص، وهــي المحافظــة الهــندية التي كان ينتمي إليها. وأما أشد

الإنذارات المؤكدة التي وجهها للعالم بأسره، فقد أوحاها الله تعالى إليه في الكلمات التالية المترجمة إلى العربية:

"لقد جاء نذير إلى الدنيا، ولكن الدنيا لم تقبله؛ غير أن الله سيقبله ويُظهر صدقه بهجمات قوية".[1]

كان الطاعون كما ذكرنا هو مجرد واحدة من الضربات العقابية الكثيرة التي تنبأ بها، ولكنها كانت آية معجزة بشكل خاص، حتى إننا اخترناها بالذات لتكون حالة خاصة بنفسها. فلم تكن آية تدل على صدق المسيح الموعود عليه السلام فحسب، وإنما كانت آية على صدق القرآن المجيد، وصدق الرسول ﷺ الذي أتى به من عند الله العزيز الحكيم. كذلك فقد أثبتت بوضوح وجلاء أن الوحي الإلهي هو أكثر الوسائل التي يُعَوّل عليها في نقل المعرفة من نطاق المجهول إلى عالم المعلوم. إن العقاب الإلهي الذي أتى به الطاعون، كما أنبأ الله تعالى به المسيح الموعود عليه السلام، كان في واقع الأمر نبوءة ذكرها القرآن المجيد، وتكرر تأكيد الله تعالى له على وقوعها في زمنه، حيث إنه كان الزمن المقدّر لها أن تتحقق فيه. يقول تعالى:

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ﴾ (٢٧ النمل:٨٣)

إن كلمة (دابة) كما يستعملها القرآن المجيد قد تم التعريف بها فيما يتعلق بآية أخرى سبق الحديث عنها، فهي تنطبق على جميع الأجسام الحيّة من أصغرها حجما إلى أكبرها ضخامة، التي تتحرك على وجه الأرض بحركة انتقالية.[2]

ومن الضرورة بمكان فهم أهمية هذه النبوءة التي تحمل أيضا رسالة هامة للناس في زمننا هذا. وقد ذكر الكثير من العلماء المسلمين والمفسرين أن هذه الآية الكريمة تتعلق بالزمن الذي يظهر فيه الإمام المهدي والمسيح

الموعود. ورغم أنه لم يكن في مقدورهم سبر الغور الكامل لأهمية الرسالة التي تحملها هذه الآية، إلا أنهم اقتربوا جدا من ذلك. فقد علق على هذه الآيـــة العلامـــة إسماعيل حقي البروسوي (المتوفى ١١٣٧ من الهجرة) في تفسيره "روح البيان"، فقال إن المهدي سوف يأتي ثم يخرج الدجال يتبعه المسيح. وفي أثناء ذلك ستخرج الدابة ثم تطلع الشمس من المغرب.

وكان العالم الشيعي الملا فتح الله الكاشاني (المتوفى في ٩٨٨ هجريا)، قد ذكر في تفسيره "منهاج الصادقين" العبارات التالية:

"في رأي البعض من أصدقائنا أن هذه الآية (التي تتحدث عن خروج الدابة) تشير إلى مجيء السلطة الربانية التي هي مهدي الأمة الإسلامية".

كـــان هذا هو أقصى ما وصل إليه هؤلاء المفسرون حسب دراستهم للحديـــث الشـــريف فيما يتعلق بالآية الكريمة السابق ذكرها. ولم يُقدم هـــؤلاء أي شرح أو بيان عن طبيعة "الدابة"، وإنما تُرك هذا الأمر لحضرة مـــرزا غلام أحمد عليه السلام، بصفته المجدد المأمور من الله تعالى لآخر الزمان، فكـــان من نصيبه أن يستفيض في شرح المعنى الحقيقي الذي تتضمنه هذه الآية، في ضوء الوحي الإلهي والرؤى التي تلقاها من الله تعالى.

في شهر فبراير (شباط) من عام ١٨٩٨ تلقى سيدنا أحمد عليه السلام وحيا مـــن الله تعالى ينبئه فيه بقرب ظهور وباء الطاعون. وعلى الفور نشر هذا النذير في الصحف، وفي الكثير من المنشورات، لكي يحذر الناس عامة من العقاب الآتي. وقد بيَّن أن هذا الوباء الذي أخبره الله تعالى عنه، هو نفس البليّة التي تتضمنها الآية المتعلقة بخروج الدابة.

كذلـــك فقـــد شرح أن كلمة (تُكَلِّمْ) المذكورة في الآية القرآنية لها معنـــيان أساسيان. المعنى الأول هو (تُجَرِّحْ)، والمعنى الثاني هو (تُحَدِّثْ). والســـياق الذي جاءت فيه الآية القرآنية يدل بوضوح على أن حيوانا ما ســـوف يُجَـــرِّح الناس لأنهم كانوا يرفضون الإيمان بآيات الله عز وعلا. والمعـــنى الآخـــر يقتضي من الدابة أن تحدث الناس، وهذا تقوم به الدابة

بطـــريقة ضمنية، بمعنى أن التجريح الذي تسبّبه الدابة هو نتيجة لرفضهم قـــبول آيات الله تعالى. وعلى ذلك فالدابة تحدّث الناس حين تُجرّحهم، وبهذا تُفرّق بين الصالحين والطالحين منهم.

وتـــلا هذا الإنذار المبدئي الكثير من التحذيرات والإنذارات التي تُبين طبيعة الوباء المتوقع، والكيفية التي سيتفشى بها. وقد أخبر الله تعالى عبده المسيح الموعود عليه السلام بكلمات لا يشوبها أي غموض أن هذا الوباء سوف يصـــيب الكثير من المناطق في البنجاب بخراب شديد، وأن قرية بعد قرية ســـوف تصـــير قفرا يخلو من الحياة، وسوف يطرق الطاعون كل باب، ويصيب المدن والحضر من أقصى البلاد إلى أقصاها، وسوف يترك وراءه شـــعاب مـــن الرعب والفزع حيثما حل أو رحل. وحتى قرية قاديان.. حيـــث كان يسكن هو نفسه.. لن تُستثنى من هذا العذاب، وإنما سوف يعمـــل فـــيها الطاعون عمله لكي يظهر صدقه ويتجلى الحق. وسيصيب الطاعون جميع الديار التي تحيط بداره، ولكن لن يسمح الله تعالى للطاعون أن يخطو خطوة واحدة إلى داخل الدار، فكان الوحي الذي تلقاه يقول:

إني أُحافِظ كُلَّ مَنْ في الدَّارِ[٣]

وقـــد شرح بوضوح لجميع هؤلاء الذين أرادوا أن يتخذوا من داره ملاذا من الطاعون.. أن هذا الوعد ليس مقصورا فقط على أولئك الذين يقـــيمون بأشخاصهم في داره المبنية من حجر، وإنما يشمل أيضا أولئك الذيـــن يقيمون في داره الروحية.. أي في الجماعة الإسلامية الأحمدية التي تؤمن به وتتبعه. وبذلك فقد كان نذيرا لكل من حاد عن الطريق وأبى أن يؤمن به، كما أنه كان بشيرا بالحفاظة الإعجازية لجميع المؤمنين.

وعـــندما ذكر أن الأحمديين سوف يتمتعون بالحفاظة الربانية المعجزة مـــن هـــذا البلاء المبين، فقد بيَّن أيضا أنه في بعض الحالات الاستثنائية.. يمكـــن أن يعـــاني من هذا الوباء بعض الأحمديين الذين يؤمنون بأفواههم

فقــط. ولكــن الأحمديــين ككل.. وعلى وجه العموم.. سوف ينالون الحفاظة بنسبة عالية واضحة وبارزة بشكل لا يترك أي مجال للشك لدى من يشاهد هذه الظاهرة بأن هذه الحفاظة ليست نتيجة للصدفة المحضة.

إن قصــة الطاعون في البنجاب قصة عجيبة حقا. وهي تشهد على صــدق المســيح الموعود الطَّيِّلا نصا وروحا. فكيف يسوغ لإنسان ادعاء حفاظــته.. ولــو من الزكام العادي.. كدليل على صدقه؟ وإعلانه بأن الطــاعون سوف يتعاطف بشكل واضح مع أتباعه لهو أمر عظيم لا يجرؤ الإنســان العادي على الادعاء به ما لم يكن الله تعالى بنفسه قد أنبأه به. لقــد كــان حقا نبأ عظيم ذلك الذي أعلنه.. بأن كل من يخضع بصدق لدعوتــه، وإيمانه بأنه إمام الزمان المرسل من لدن الله تعالى، فإنه سبحانه سوف يقيه شر ذلك الطاعون الفتاك.

وأخــيرا حيــنما حانت ساعة العقاب.. نزل العذاب بساحة أعدائه الألــداء. وكان الكثيرون منهم قد أقسموا أمام الناس أن مرزا غلام أحمد نفســه هــو الــذي سوف يسقط ضحية لهذا الوباء ويهلك بالطاعون. ولكــنهم هــم وأفراد أسرهم أصيبوا بالطاعون، فكان الفرد من الأسرة يمــوت ويتبعه الآخر، حتى إنه لم يبق في النهاية أحد للحداد والبكاء على موتهم. وحسب الوعد الذي ذكرته النبوءة، فقد حاد الطاعون عن أتباع مــرزا غلام أحمد الطَّيِّلا إلى حد كبير، وبشكل واضح لا يمكن تبريره بأنه نتــيجة الصدفة، وليس هناك من منطق أرضي أو دنيوي يمكن أن يشرح هذه المحاباة المتميزة، التي كان الطاعون يعامل بها الأحمديين، في المئات من القرى التي يعيش فيها الناس، ويختلطون بعضهم ببعض. وقد تكررت هذه المعجــزة في كل مكان بوضوح يخطف الأبصار، بل يجعل الأعمى يرى الــنور. ولقد رأى العميان النور، وتوافدوا إلى المرفأ الآمن.. إلى الجماعة الإســلامية الأحمديــة.. بأعداد كبيرة وضخمة بشكل لم يحدث من قبل أبدا، وبهذا فقد نجوا من الموت. ولكن وا أسفاه على أولئك الذين كانوا

يتمـــتعون بـــنعمة البصر، ولكن عميت عيونهم بسبب تألق الحق بأنواره المتلألئة. كانت هناك بعض القرى لم يبق بها أحد ليحمل نعوش الموتى إلى المدافن القريبة، ما عدا أتباع مرزا غلام أحمد ﷺ، الذين كانوا يحملون نعـــوش الموتى من المعارضين لهم على أكتافهم إلى أرض المدفن، بغير أن ينتابهم ذرة من خوف العدوى والإصابة بالطاعون.

وإذا عدنــا إلى قاديان لنرى ماذا يحدث فيها، بعد هذه النظرة العامة للأمور في البنجاب، فإنّا نرى أن كل شيء كان يسير وفق النبوءة، إلا من حالة أو حالتين كانتا تبدوان كأمر شاذ متنافر النغم. فقد حدث أن أحد أتباع المسيح الموعود البارزين، وكان اسمه المولوي محمد علي، وقع فريسة لحمى شديدة تصاحبها جميع الأعراض التي تشبه أعراض مرض الطاعون، حـــتى إن الغدد تحت إبطيه بدأت تتورم بشكل خطير، فسببت لــه آلاما مـــبرحة وضيقا شديدا. وقُدمت له المساعدة الطبية التي كانت من أحسن مـــا هو متاح، ولكن بغير جدوى، إذ لم يختف الألم ولم يقل. ولم يستطع أن يفهـــم.. وهـــو من أصحاب المسيح ﷺ.. كيف يمكن أن يؤول به الأمـــر إلى هـــذه النهاية، على عكس الوعد الذي جاء في نبوءة الوحي الإلهي. إن آلام المرض بذاتها كانت أشد من أن تُحتمل، خاصة إذا أضفنا إليها عذاب الضمير الذي ربما كان يعذبه خوفا من أن يكون معدودا عند الله تعالى خارج عباده الصالحين.

وهكذا كان يتقلب في فراشه وهو يبكي وينتحب، راجيا أن يسرع أحـــد إلى المســـيح الموعود ﷺ ليخبره بما تردّى إليه أمره، ويرجوه أن يـــزوره.. لعـــل الله تعالى يُنْزل عليه بركة من السماء. وقد جاء المسيح الموعـــود ﷺ عـــلى الفور، ولم يزعجه بتاتا أن يكون المريض قد وقع فريســـة للطاعون حسب التقارير الطبية، فذهب إلى جوار سريره ووضع يـــده الشـــريفة على جبهة المولوي محمد علي، وهو يُسرِّي عنه بكلمات الســـلوى السكينة، مؤكدا على أنه كما هو على يقين بأنه المسيح الحق

المبعوث من لدن الله تعالى، فهو أيضا على يقين بأن المولوي صاحب لن يموت بالطاعون. ولم يستغرق الأمر طويلا لكي يرى الحاضرون تحقق هذه الكلمات.. فبينما كان المسيح الموعود عليه السلام يتحدث مع المولوي محمد علي، وهو لا يزال واضعا كفه على جبهته، إذ هبطت درجة حرارته بسرعة، وعلى الفور اختفت جميع آثار الحمى أو الطاعون، فجلس على سريره مندهشا وهو يتحسس جسده هنا وهناك، وقد عقدت الدهشة لسانه للسرعة العجيبة التي غادرت بها الحمى جسده. وتعجّب جميع أولئك الذين جلسوا حوله وهم يتوقعون موته بين لحظة وأخرى، ولكن كان من المقدّر لهم أن يروا معجزة حياته. وقد عاش أعواما طويلة بعد ذلك، ومات في لاهور عام ١٩٥١ عن عمر مديد بلغ فيه عامه السابع والسبعين.

كيف أمكن للطاعون أن يُفرّق بين أولئك الذين آمنوا بالمسيح الموعود عليه السلام وبين غيرهم من الناس.. سيظل هذا سرا عجيبا من غوامض الأمور، ولكن ليس لهؤلاء الذين يؤمنون بالله تعالى الذي لا حصر لأسمائه الحسنى، ولا حدود لقدرته سبحانه على فعل ما يريد.

غير أنه يمكن أن ينشأ هنا سؤال هام.. منطقي ومعقول.. وهو: ما هي تلك الدلائل والبراهين التي يمكن تقديمها لكي تُقنع الباحث المحايد بصدق وحقيقة ما تم ذكره في هذا الفصل من أحداث؟ والمشكلة هي أن جميع الدلائل المباشرة التي يمكن تقديمها هي أدلة داخلية، فكل الشهود هم أحمديون أو من الذين دخلوا في الجماعة الإسلامية الأحمدية بعد مشاهدة هذه المعجزة. وليس هناك من دليل خارج الجماعة إلا الأدلة غير المباشرة أو الأدلة الضمنية، ومع ذلك فهي أدلة قوية، لأنها تأتي من الشهود المخالفين والمعارضين معارضة شديدة للجماعة. والمشكلة الرئيسة هي أنه لم يحدث أن قامت جهة محايدة محترمة في ذلك الوقت بتقصّي الأمر، إذ كان هناك فريقان لا ثالث لهما: الأحمديون وغير الأحمديين. وكل ما

يمكن الحصول عليه من الحقائق والأرقام المتاحة عن وباء الطاعون وتأثيره وأسـلوب سـلوكه.. هو ما تحتويه الأراشيف لما تم نشره في الصحف، والمجلات، والمنشورات، والملصقات، والكتب، التي كانت تصدر في ذلك الحـين. غير أن دراسة وفحص مصداقية هذه المستندات يظل أمرا يخضع للتقدير.

إن أكـثر العوامـل الجديرة بالتسجيل هنا هو ذلك الاهتمام المدَوّي الـنابض بالجماعـة الإسلامية الأحمدية في تلك الفترة. فقد كانت هناك صـحافة قويـة معارضة للأحمدية، وكانت تقوم بتغطية دقيقة، وحادة، ولاذعـة، وسلبية لكل ما كان يحدث في هذه الجماعة الحديثة، وكل ما كـان يُقال أو يحدث من قبل مرزا غلام أحمد عليه السلام، وكان كل ما كان يحـدث لـه تحت الملاحظة الدقيقة، كما كان يتم تسجيله من جانب معارضيه. كان كل ما يمكن أن يُؤخذ عليه أو يُستعمل ضده يَلقَى تغطية كاملـة بحمـاس جياش. ولم تكن تلك المعارضة القوية وقفا فقط على الصـحافة الإسـلامية مـن غـير الأحمديين، بل إن الصحافة المسيحية والهندوسـية لم تـترك أيـة فرصة تفلت منها لتتذرع بكل وسيلة ممكنة للإسـاءة إليه أو توجيه اللوم لـه. ولو كانت تغطية الصحافة الأحمدية لأخـبار الطاعون قد حادت عن الحقيقة قيد أنملة، أو بالغت في ذكر أي أمر من الأمور، فإن الصحافة المعادية لغير الأحمديين ما كانت لتغفل عنه أو تسقطه من اهتمامها.

طـوال السـنوات السبع، أو ما يقرب من ذلك، التي ظل الطاعون يعمـل فيها بنشاط في البنجاب، لم يترك مرزا غلام أحمد المسيح الموعود عليه السلام اهـتمام الـناس يقل أو يتضاءل بأنباء الطاعون وسلوكه تجاه أفراد جماعـته. وقد كان هناك العديد من أعدائه الألداء الذين كانوا قد دخلوا معـه في مباهلات مصحوبة بالادعاءات والادعاءات المقابلة التي كان يتم نشرها على نطاق واسع لتحديد الفريق الذي سيموت مصابا بالطاعون..

علامـــة على نزول غضب الله عليه. وقد مات الكثير من أولئك الأعداء، وظـــل الباقون ينتظرون في ترقب وخوف. ولكن الطاعون لم يقترب منه ولم يمســـه، ولم يمس زوجه، ولم يصب أحدا من أبنائه أو بناته أيضا، بل ولم يُعثر أبدا على فأر مات بتأثير الطاعون بين جدران بيته.

وقـــد كـــان يعيد نشر هذه الحقائق، مما كان يزيد نار الغيظ والحقد اشتعالا لدى أعدائه، الأمر الذي كان يدفعهم إلى تكرار الدعاء عليه أكثر مما سبق حتى تحل عليه لعنة الطاعون، ولكن بغير جدوى. فلم يحدث لـــه شـــيء ولا لهؤلاء الذين كانوا يعيشون داخل نطاق مسكنه الآمن.. سواء كان ذلك مسكنه المادي أو مسكنه الروحي. فهل يمكن لأحد أن يُصدر ســـطرا واحدا تم نشره في أية صحيفة أو مجلة أو كتاب من الصحف أو المجلات أو الكتب التي نُشرت في ذلك الوقت، يُبين كذب أقواله أو عدم صحة ما أعلنه، أو هل يمكن لأحد أن يذكر اسم أي فرد من أفراد أسرته أو أولـــئك الذيـــن كانوا يقيمون داخل جدران بيته، ممن يكون قد وقع ضحية لمرض الطاعون؟

وينطـــبق نفـــس الأمر على المطبوعات الأحمدية التي من الواضح أنها كانت صامتة تماما عن ذكر أي من تلك المصائب والنكبات، فلم تسجل تلـــك المطبوعات أي خبر عن وقوع وفاة بين أفراد عائلة المسيح الموعود عليه السلام أو أولـــئك الذيـــن كـــانوا يعيشون حوله، مع العلم بأن الصحافة الأحمديـــة كانت تتابع وتنشر باستمرار، وبشكل دوري، جميع الأحداث التي كانت تتعلق بالمسيح الموعود عليه السلام من قريب أو بعيد.

وأمـــا فـــيما يتعلق بأفراد الجماعة خارج نطاق قاديان، فقد كانت نجاتهم من الوقوع فريسة لمرض الطاعون تزيد بشكل واسع وبنسبة كبيرة. فقد كانت نسبة غير الأحمديين الذين صرعهم الطاعون تقف عالية مرتفعة بالنسبة للحالات النادرة التي مات فيها بعض الأحمديين في نفس القرية.

ولـــو كانت هذه الأنباء التي نشرتها الصحافة الأحمدية غير صحيحة،

لكانـــت الصحافة المعادية قد كشفتها وضخمتها وأذاعتها لتستفيد منها على أوسع نطاق. ولكن هذا لم يحدث أبدا، وهو أمر يجب أن يُؤخذ في الاعتـــبار على أنه دليل خارجي غير مباشر، ولا يصح إغفاله أو التغاضي عنه.

وهناك دليل آخر يؤيد ما أعلنته الجماعة الإسلامية الأحمدية ولا يمكن دحضه، وهو يتعلق بحقيقة الانتشار الواسع ودخول أعداد كبيرة من الناس في الجماعة خلال الفترة التي انتشر فيها الطاعون. كانت الأرقام التي تنشر دومـــا في صـــحيفة الجماعـــة 'الحكَم' تبين زيادة ضخمة في معدلات الانضمام إلى الجماعة في تلك المرحلة الصعبة، و لم يحدث أبدا أن أنكرت الصحف المعادية أيا من هذه الأرقام أو صوّبتها، فقد كانت هذه الأرقام صـــحيحة وحقيقية وتعبر عن أشخاص حقيقيين يسكنون في قرى ومدن حقيقـــية. فـــلماذا سكتت الصحافة عن تكذيب هذه الأرقام لو كانت بـــالفعل أرقامـــا كاذبة أو مبالغا فيها، ولماذا صمت جميع المعارضين فلم يسجلوا اعتراضاتهم على صحة هذه الأرقام؟ حقا لقد كانت تلك الفترة هي الفترة التي يكون الصمت فيها أعلى دويا من جميع الكلمات.

إن الحقـــيقة الشـــامخة هي أن انتشار الدعوة الأحمدية هذا الانتشار الواســـع في الفـــترة من ١٨٩٨-١٩٠٦، وهي فترة وجود الطاعون في البنجاب، إنما هو أمر لا يمكن إنكاره، وحقيقة لا يمكن دحضها. وحسب الإحصـــاءات الـــتي كانت جريدة الحكَم تنشرها دوْما، كان عدد أفراد الجماعـــة الإسلامية الأحمدية في عام ١٩٠٢ قد ارتفع من بضع عشرات الألوف إلى مائة ألف. وفي عام ١٩٠٤ تضاعف تعداد أفراد الجماعة إلى مائتين ألف. وأخيرا عندما بدأ الطاعون يتراجع في عام ١٩٠٦ كان تعداد الجماعة قد زاد عن أربعمائة ألف.

وفي ضوء ما سبق ذكره.. لا بد أن نضع في الاعتبار أنه لو ثبت خطأ النـــبوءة الـــتي ذكرها المسيح الموعود ؑ عن الطاعون، لكانت الدعوة

الأحمدية قد سُحقَت وانمحت تماما من على وجه الأرض. ولو كان قد نجا أحد من أفرادها من بطش الطاعون بعد السنوات التي عاش فيها في أرض البنجاب، لتعرض إلى الخزي بسبب "افتضاح كذب مرزا غلام أحمد". ولكن هذا لم يحدث. إذ أن الطاعون كان دوْما يقلل أرقام المعادين والمعارضين للجماعة الإسلامية الأحمدية، بينما كان يزيد ويضخم أعداد المنضمين إليها، وانتشرت الدعوة وتقدمت بقفزات واسعة ووثبات سريعة إلى الأمام.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَّتَفَكَّرُونَ﴾ (٣٠ الروم:٢٢)

وفيما يتعلق بالآية القرآنية التي يقوم عليها بناء هذه النبوءة، وهي الآية التي تذكر خروج الدابة.. فإننا نريد أن نلفت أنظار القارئ إلى حقيقة أن هذه الآية تُعتبر معجزة في ذاتها. ولا بد من مساعدة القارئ لكي يستطيع أن يُقَدّر حقيقة الجمال الذي تتضمنه الآية وما خفي فيها من أمور. وقد حاولنا تحقيق هذا في المقطع التالي، ولا بد من التأكيد على أهمية الأمور التالية:

في الزمن الذي نزل فيه القرآن، لم تكن أسباب انتشار الطاعون بهذه الصورة الهائلة معروفة لدى الناس، ولم يكن أحد يعلم شيئا عما إذا كانت الفئران تقوم بأي دور فعال في نقل العدوى. ومن المؤكد أن الفئران لم تكن تعض الناس فتنقل إليهم العدوى. كذلك لم يكن من المعروف أن حشرة صغيرة بدون جناحين، أي البرغوث، هي التي تحمل جراثيم ذلك المرض المميت. ولم يكن من المعروف أيضا أن لدغة هذا البرغوث هي التي كانت تحقن فيروسات المرض في دماء الضحايا. ولو كان القرآن من تأليف أحد من البشر في ذلك الزمن، لما كان في استطاعته أبدا أن يتنبأ بأن انتشار الطاعون يتم عن طريق لدغة حيوان يمكن أن يوصف بأنه 'دابة'.

ونحن نعلم الآن أن الحيوان الذي ينشر وباء الطاعون هو حشرة، كما نعلم أيضا أن هناك أعدادا ضخمة من أنواع الحشرات لها أجنحة، وأن عدد أنواع الحشرات غير المجنحة هي أعداد ضئيلة جدا بالمقارنة، مثل حشرة القمل، والحشرة المعروفة باسم العثة الفضية، وبعض الأنواع التي لا تتوالد من أمثال النملة البيضاء. وأخيرا لقد عرفنا الآن أنه برغم كون البرغوث حشرة إلا 'أنه يُعتبر دابة' أيضا، حيث إنه غير مجنح ويدب على الأرض في حركته. وهذه الصفة الخاصة التي يتصف بها البرغوث هي التي تؤهله بحق أن يُسمى 'دابة'، وإلا فقد كان من المحتمل اعتبار الآية القرآنية غير صحيحة.

وبكل احترام.. فإننا نلفت أنظار علماء التاريخ الطبيعي والمنادين بمذهب الطبيعة إلى هذا المثال الفريد، ونتوسل إليهم أن يبحثوا الأمر بعقولهم ووجدانهم. هل يمكن لهم حقا التغاضي عن هذا الاستثناء وإسقاطه على أنه مجرد صدفة؟

*****

المراجع

1. *Nozūl-ul-Masih* – Rūhānī Khazā'en. (1984) Vol.18 pp.466-467
2. LANE, E.W. (1984) *Arabic-English Lexicon.* Islamic Text Society, William & Norgate. Cambridge.
3. *Tazkirah* – Collection of Revelations and Dreams of the Promised Messiah – HAZRAT MIRZA GHULAM AHMAD OF QADIAN. Published by Al-Shirkatul Islāmiyyah ltd. p.428

الفصل الخامس

فيروس الأيدز

لقد أنبأ أيضا حضرة مرزا غلام أحمد عليه السلام عن نوع آخر من الطاعون سوف يظهر فيما بعد في أجزاء أخرى من العالم. ففي عام ١٩٠٧، بعد أن انتهى أثر وباء الطاعون من الهند، تلقى وحيا من الله تعالى يخبره فيه بنوع من الطاعون سوف يظهر أيضا في المستقبل، وفيما يلي ترجمته العربية:

"نوع من الطاعون سوف ينتشر في أوربا والدول المسيحية الأخرى، وسوف يكون شديدا جدا"[١]

ماذا يعني التعبير 'نوع من الطاعون'، ولماذا يصيب أوربا والدول المسيحية الأخرى بالذات؟ إن مفتاح الإجابة موجود في حديث من أحاديث رسول الإسلام ﷺ حين أبدى ملاحظة منذ ثلاثة عشر قرنا قبل المسيح الموعود. وطبقا لهذا الحديث الذي سجله ابن ماجة في كتاب الفتن، يقول ﷺ:

"لَمْ تَظْهَرِ الفَاحِشَةُ في قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إلا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ التي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ في أَسْلافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا." [٢]

إن لفظ "الفحشاء" أو الفاحشة يعني استباحة ارتكاب المحرمات بنوع من الجرأة، والجهر، وعدم الإحساس بالخجل، مما يؤدي إلى عرض الأمور المتعلقة بالجنس علنًا. ولا يغيب عن البال أن ارتكاب المحرّمات في ذاته ليس سببا لنُزول هذا العقاب الشديد من الله تعالى، ولكن حين يفيض

الكـــيل.. وتُتجاوز كل الحدود.. ويحدث هذا بشكل عام.. ويعتبر هذا المســـلك مقـــبولا اجتماعيا، فحينئذ تصيب هذا المجتمع بعض الأمراض المتعلقة بالجنس، علامة على غضب الله سبحانه.

ويـــبدو أن إصـــبع الاتهام في هذا الحديث الشريف تشير إلى العصر الحـــالي، الذي انتشرت فيه الرذيلة وارتكاب الإثم الفاحش بشكل علني أكـــثر من أي عهد آخر. وعدم الإحساس بالخجل بالإعلان عن ارتكاب الفاحشـــة.. وهو ما يشير إليه الحديث الشريف.. قد صار أمرا واضحا هذه الأيام على أجهزة التلفاز، وفي الصحف، وفي المجلات، يوما بعد يوم، بشـــكل لم يسبق حدوثه على هذا المنوال في تاريخ البشرية كلها. وعلى ذلك فإن العدل المطلق يتطلب تطبيق العقوبة على قدْر الجرم. إن الانخراط في الأعمـــال الشهوانية مع الإعلان الواضح والفاضح عنها.. هو الأساس الذي تتقرر عليه العقوبة. وقد اختارت النبوءة التي ذكرها المسيح الموعود عليه السلام ذكر أوربا بالذات وبلاد مسيحية أخرى، ولكن النبوءة السابقة التي ذكرها الرسول ﷺ لم تعين قوما أو بلدا أو دينا معينا، وإنما اقتصرت على ذكر طبيعة الإثم نفسه، واعدة بعقوبة مناسبة له.

وحـــين قراءة كلتا النبوءتين معًا تتضح الصورة تمامًا. فوصف البلاد المســـيحية ينطبق تماما على الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن طبقا لآخر الإحصاءات يتبين أن الدول الأفريقية في جنوب الصحراء تقود العالم كله في إثم ارتكاب الفاحشة بغير خجل، يليهم في ذلك سكان بلاد الجزر في البحر الكاريبي[٣]. وفي هذه الإحصاءات التي ذكرناها تأتي الدول المسيحية الأفريقـــية في مقدمـــة الدول التي تزيد فيها عدد الإصابات بمرض الأيدز زيادة كبيرة تفوق كثيرا عدد الإصابات في بقية الدول الأفريقية.

والأمـــر الذي يحتاج إلى إيضاح هو طبيعة هذا "النوع من الطاعون" كما جاء ذكره في النبوءات. ويبدو أنه من المعقول تماما القول بأن مرض الأيدز هو المقصود بتلك العقوبة. فالكثير من الأطباء البارزين أطلقوا عليه

اســـم "طـــاعون العصر". فهو كالطاعون.. يسبب التهاب بعض الغدد، ويصاحب ذلك الالتهاب حمى ترتفع فيها الحرارة جدًّا. وهو مرض قاتل بغـــير رحمة.. تماما مثلما كان وباء الطاعون. ومع ذلك فله سماته الخاصة التي يفتقدها مرض الطاعون. فالأيدز هو يقينا مرض يبدأ نتيجة للاتصال الجنســـي، بيـــنما لا يبدأ الطاعون بذلك. وهو بهذه الصفة مرسوم بدقة لمعاقبة الفواحش الجنسية.

ولعلـــه من المفيد هنا أن نُذَكر القارئ بأن النبوءات الدينية يجب ألا تؤخذ بحرفيتها. وذكر الدول الأوربية والمسيحية قد جاء فقط للمساعدة عـــلى معرفة وتحديد المناطق التي سوف يتفشى فيها هذا النوع الجديد من الطاعون، ولا يعني هذا أنه سوف يظل مقصورا فقط على أوربا أو الدول المسيحية.

وتشير نبوءة الرسول الأعظم ﷺ بوضوح إلى إمكان حدوث انتشار أوسع، حيث إنها لا تربط هذا المرض بالدول، بل ببعض الآثام الأخلاقية المعيـــنة. وحيثما تنتشر هذه الآثام الأخلاقية فسوف يتبعها المرض. ولكنه ســـيكون بصورة وباء في البلاد التي تسرف في اقتراف الإثم بشكل علني. ولا يهـــم ألبـــتة ما هو اسم هذه البلاد، كما لا يهم ما إذا كان أغلب الســـكان فـــيها من المسيحيين أو من الهندوس أو من المسلمين. فالبلاد والديانـــات ليست هي السبب، وإنما السبب هو الإباحية المطلقة. وعلى ذلـــك.. حيـــثما كانت الأسباب المؤدية لاستنْزال العقاب، فإن النتائج سوف تتبع حتما.

ولعـــل السبب في ذكر البلاد الأوربية والمسيحية بالذات دون غيرها هو أن الإباحية وارتكاب الفواحش بشكل مفضوح يُعتبر عندهم مسلكا اجتماعـــيا على المستوى الوطني، فإن المرء لا يسمع عن تقنين ما يسمى بالزواج بين الأفراد من نفس الجنس إلا في الدول الغربية، ولا يسمع أيضا عن إباحة العلاقات الجنسية بين أفراد الجنس الواحد في أي تنظيم ديني إلا

في المسيحية.

غــير أنه لا بد من الأخذ في الاعتبار أنه رغم أن الغالبية العظمى من شــعوب هذه الدول هم من المسيحيين، إلا أنها أبعد ما تكون عن القيم المسيحية. وفي هذا الشأن لا يمكن للدول الإسلامية أيضا أن توصف بحق أنها هي المحافظة على القيم الإسلامية.

ويترتــب على ذلك أنه إذا كانت الإباحية والسلوك الوقح المنفلت يمارَس أيضا في الدول الهندوسية أو الإسلامية، فليس هناك من سبب يمنع أن تقع فيهم نفس الكارثة المترتبة على ذلك المسلك.

وقد وصل وباء الأيدز بالفعل إلى جميع قارات العالم، ويكاد لا يوجد أحــد على غير علم بالأهوال التي يسببها هذا المرض، ومع هذا فإنه من السذاجة بمكان الظن بأن جميع أهوال وفظائع هذا المرض قد تم تقديرها. وليس بصحيح أيضا الظن بأن الأيدز قد أكمل دوره المقدر لــه، وأنه في طــريقه الآن إلى الاختفاء. وهو غير مصيب حقا من يراوده الأمل بأنه في القريــب ســوف يتمكن البحث العلمي من العثور على ترياق ضد هذا المــرض أو عــلاج وقــائي من فيروس الأيدز. ونحن لا نشارك في هذا الــتفاؤل، بل على العكس.. فنحن نخشى أن تكون الهجمة الكبرى لهذا المــرض لم تأت بعد. والملاحظة التي تؤيد وجهة النظر هذه تتعلق بأوجه الشبه العامة بين مجيء المسيح الأول.. سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام ومجيء المسيح الثاني.. سيدنا أحمد عليه السلام.

ولــيس هــذا هو المكان المناسب للدخول في دراسة مفصلة لأوجه المشــابهة بــين المســيح القديم والمسيح الجديد. غير أنه فيما يتعلق بآية الطــاعون.. يتــبين أن الطاعون قد انتشر أيضا كآية عقابية لمن عارضوا المســيح عيسى عليه السلام. فعندما رفض الناس الإيمان به.. بدأ وباء الطاعون الأول في الانتشــار عام ٦٥ بعد الميلاد، كما تدل على ذلك السجلات التاريخــية. وسواء كان الأمر مجرد مصادفة أو بحسب التقدير الإلهي، فقد

انتشـــر ذلـــك الطـــاعون بوجه عام في المناطق التي بلغتها دعوة المسيح ورفضها الناس فيها. ثم أعاد الطاعون هجمته بعد ما يقرب من مائة عام بعد ذلك في عام ١٦٧، ولكنه في تلك المرة أصاب جزءا أكبر وأوسع من العالم، كان يمتد على مدى قارتين من أسيا الصغرى إلى روما، وما وراء ذلـــك في بـــلاد الغال (أي فرنسا القديمة) ومصر. وكانت رسالة السيد المســـيح ؑ قـــد وصلت بالفعل إلى هذه البلاد، ورفضت الأغلبية من الناس قبولها.

فـــإذا كانت المشابهة بين زمني المسيح الأول والمسيح الثاني أمرا يكرر نفسه، فلن يكون من المستبعد الآن بعد مرور ما يقرب من مائة عام على وقوع الطاعون الأول أن يصل النوع الجديد من الطاعون إلى قمة انتشاره عند نهاية هذا القرن العشرين ويمتد إلى بداية القرن التالي. ويستند تقديرنا هـــذا على أن الطاعون الذي وقع لأول مرة في زمن المسيح الموعود ؑ وصل إلى ذروته في الفترة ما بين عام ١٨٩٨ وعام ١٩٠٤، ويعلم الله إلى أي مـــدى يريد سبحانه أن يكرر التشابه في تفصيلاته، غير أن النُّذر قد باتت واضحة، ولا بد أن نكون على حذر.

إنـــنا ندعـــو الله تعالى أن ينقذ الجنس البشري من هذه الكارثة ذات الأبعاد العالمية، ويُعينَ الناس على إصلاح أنفسهم. وليس من المستبعد على الإنســـان أن ينال المغفرة من الله تعالى، وينجو من مغبات ذنوبه، إذا ما أصـــلح من أعماله وتاب توبة صادقة. ولكن.. وبكل أسف.. فليس من المـــتوقع أن يتوب الإنسان ويصلح من أعماله. ولا يهم ما إذا كان المرء متدينا أو غير متدين، أو إذا كان يؤمن بالله تعالى أو ينكر وجوده. ففيما يـــتعلق بالســـلوك الأخلاقي للإنسان عامة.. يبدو أن الفساد الأخلاقي واقـــتراف المعاصي قد صار عاما شاملا. وبكل أسف.. فإن أولئك الذين يدّعون بالتدين ليسوا أقل فسادا في الأخلاق من غير المتدينين. ولم يعد من الممكن التفريق بوضوح بين سلوك أولئك الذين يدّعون الإيمان بالله تعالى

وغـــير المؤمـــنين به. لذا فإنه ليس من قبيل المبالغة القول بأن هذا الزمن بأكملـــه قد انحرف وضاع في خسران مبين.. إلا من قلة نادرة. وهذا ما يعلنه القرآن المجيد في وصف الناس في آخر الزمان، حيث يقول:

﴿وَالْعَصْـــرِ ۞ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (١٠٣ العصر:٢-٤)

والقلة السعيدة التي تتواصى بالصبر وتعمل الصالحات.. هي بالمقارنة قلـــة نادرة، أقل من أن تغير مجرى الأمور، أو أن تمنع مد مياه بحر الفساد الأخلاقي من أن تجور على شاطئ الحياة، تماما كما لا يقوى نصل ورقة خضراء.. ولا يتمكن عصفور مغرد.. من تحويل وحشة الخريف واقفراره، إلى روعة الربيع واخضراره.

*****

المراجـــــــع

1. *Tazkirah* (1969). Al-Shirkatul Islamiyyah Ltd., Rabwah. Urdu edition, p.705
2. *Sunan Ibn-e-Mājah.* Kitābul-Fitan, Bābul-‘Uqoobāt. Vol.II. Dārul-Fikr Al-‘Arabi, p.1333
3. UNAIDS and WHO (December 1996) HIV/AIDS: The Global Epidemic. UN web site

الباب السابع

- مستقبل الوحي
- محاولات فلسفية لتبرير انقطاع النبوة غير التشريعية
- عيسى عليه السلام وانتهاء النبوة
- خاتمة الكتاب

الفصل الأول

مستقبل الوحي

تعيش الحيوانات يوما بعد يوم على ما تقدمه الحياة لهم. ولا يبدو أنها تـــنظر إلى ماضيها أو تحلم بمستقبل تتطلع إليه. أما الإنسان.. فهو مستثنى مـــن ذلك في المملكة الحيوانية، إذ من النادر أن يقنع بحاضره، فهو إما أن يعـــيش هائمـــا في ذكـــريات الماضي، أو يمني نفسه بأيام أفضل في رحم المستقبل، وغالبا ما تتعلق هذه الآمال بمستقبله الاقتصادي أو السياسي أو الديني. وسوف نتناول في الصفحات القادمة المستقبل الديني للإنسان.

إن الأديان الرئيسية جميعها تَعِد بمجيء مبعوث سماوي، يُشكل قدومه مـــرحلة جديـــدة من الأمل للإنسانية، إذ أنه سوف يُوَحّد البشرية جمعاء ويجمـــع كلمـــتهم تحت لواء سماوي واحد. وهذا الأمل بمنـــزلة الأرض الموعودة التي يتطلع الجميع إلى الوصول إليها والاستحواذ عليها يوما ما. إنها اليوتوبيا.. المدينة الفاضلة.. ملتقى آمال جميع الأديان، غير أنها بكل أسف قـــد صـــارت أيضـــا مفترق الطرق الذي تتباعد عنده السبل والدروب، وتخـــتلف المقاصـــد والاتجاهـــات. إن الأحلام فقط هي التي يشترك فيها الجمـــيع، ولكـــنهم لا يشتركون في كيفية تحقُّقها. فأتباع الأديان جميعها متفقون في إيمانهم بأن مبعوثا سماويا سوف يأتي لهداية البشرية وإنقاذها من الهـــلاك والدمار، ولكن حين يتعلق الأمر بشخصية ذلك المنتظر، نرى أنهم يختلفون تماما بعضهم مع البعض. فهل سيكون هو الرب كرشنا أم يسوع المسيح؟ هل سيكون هو زرادشت أم بوذا؟ أو لعله كونفوشيوس أو لاو- تـــزو؟ فأتباع كل دين من الأديان ينتظرون شخصا مختلفا، له اسم مختلف، وـــله لقب مختلف، وتتوقع كل فئة منهم أن ينتمي هذا المبعوث إلى دينهم عـــلى وجه الخصوص. وهنا يرى المرء أن أبواب الأمل التي كانت مفتوحة لمجـــيء المنقذ المخلّص قد بدأت توصد مرة أخرى. وهي تبدو موصدة من

وجهـــة نظر أولئك الذين يعتبرون أن كل الأديان الأخرى هي أديان زائفة باســـتثناء دينهم هم، وعلى هذا يكون الباب الوحيد المفتوح هو بابهم هم، بيـــنما نفس هذا الباب يرى الآخرون أنه موصد أيضا. فكل فئة ممن كان يـــتغنى بأهازيج قدوم المنقذ العالمي.. راحت تغني على ليلاها عندما يتعلق الأمـــر بشخصـــية ذلـــك المنتظر، فإما أن يحقق لهم ما تخيلوه في توقعاتهم وأحلامهـــم.. أو إنهـــم لن يقبلوا أحدا على الإطلاق. وا أسفاه! إن هذا الموقف الأخير هو الذي اختاروه لأنفسهم، فلماذا يعبأ الله تعالى بأهوائهم إن كـــانوا هـــم لا يعبـــئون بإرادته ومشيئته. فليقيموا هم منقذهم الذي يتخيّلونه من خواء آمالهم وتصوراتهم اللاعقلانية.

إنه من المثير حقا أن نشاهد هذا الجدال الصاخب يدور على النطاق العـــالمي. وبعـــد أن هـــدأ غبار عواصف الدعوات والدعوات المضادة.. وسكن، فإن الاتفاق الوحيد الذي استقر عليه أنصار كل دين هو استمرار الاختلاف بشكل أقوى وأشد. فمن المحتم لكل فئة أن يكون المجدد المنتظر مـــنهم ولـــيس من غيرهم، وإلا فلن يقبلوه. إن كلامهم عبث، وآمالهم أوهام، ولا مكان للمُخلِّص الذي يريدونه سوى في أحلامهم.

هـــل يمكن لهذا المنتظر أن يحقق آمال جميع الأديان أم أنه سوف يحقق آمال أحدها فقط؟ وإلى أي دين منها سوف ينتمي في واقع الأمر، وأية أمان ومطامح سوف يحقق.. بينما يصرخ أتباع كل دين متعلقين بأهداب الأمل: *حقق لنا نحن الآمال.. حقق لنا نحن الآمال.. حقق لنا نحن الآمال!* والسؤال الذي يطرح نفسه في النهاية هو هل الشخص الموعود هو شخص واحد؟ أم هو عدة أشخاص يأتون في نفس الوقت؟ إن الله تعالى مُنَزَّه عن التناقض حتى يرسل عدة أشخاص يناقض بعضهم بعضا، فهو إما أن يرسل شخصا واحدا برسالة واحدة، أو لا يرسل أحدا على الإطلاق. فما الذي سيحدث للفئات المختلفة المتناحرة من الأديان المتعددة في ذلك الحين، فكل منها تؤمن بأمور متغايرة تتناقض مع ما تؤمن به الأخرى؟ وفيما يلي سننظر بعين الاهتمام إلى

هذه التناقضات التي تتميز بها تلك الفئات.

إن الأسلوب الذي يتصور الجميع أن تتحقق به أحلامهم هو أمر مستحيل الحدوث. خذ مثلا حالة اليهود الذين كانوا منذ زمن سحيق يتطلعون لمجيء المسيح، وقد ظلوا ألوفا من السنين يضربون رؤوسهم بحائط المبكى، ولا يزالون، يتضرّعون لكي يسرع المسيح بمجيئه، ولم يدركوا أبدا أنه قد جاء ورحل ولكن ليس بالأسلوب الذي كانوا يتوقعونه، ولا بالشكل والمظهر الذي تخيّلوه لمجيئه وحدّدوه. وعلى هذا فإن الباب الذي أبقوه مفتوحا قد أُغلق عمليا، بل وأوصد بالمزلاج. فما أقسى شعور اليأس ألا يأتي الضيف الذي طال انتظاره بشوق وشغف، رغم أن المرء لا يرى أي مانع ولا حائل يحول دون مقدمه. وفي الواقع.. إن جميع هؤلاء الذين ينتظرون مقدم الضيف السماوي هم أنفسهم المسؤولون عن وضع عقبات في طريقه لا يمكن اجتيازها، ولكنهم لسبب أو لآخر لا يدركون ما يفعلون. ولو أنهم أدركوا أن توقعاتهم مستحيلة التحقق، لأمكن لهم، على الأقل، أن ينعموا بنوع من الهدوء الذي يأتي بعد فقدان الأمل والشعور بالقنوط. إن الحوائل والسدود التي تغلق الطريق تُفقد الأمل، وتخمد شعلة التوقع، هذا بالطبع إذا أقروا بوجود الحوائل والسدود. أما إذا تجاهل البعض وجود هذه الحوائل والسدود، فهم وحدهم الذين يجلبون اللوْم على أنفسهم. واليهود مثلا.. الذين لا يزالون ينتظرون قدوم المسيح، لم يعوا بعد هذه الحقيقة البسيطة، رغم أنهم يتصفون بالذكاء، ولم يعد لديهم سوى أن يبكوا وينوحوا بجوار حائط من حجر، متوسلين لكي يأتي المسيح الذي لا يمكن أن يأتي وفق تصوراتهم.

ولكن اليهود ليسوا وحدهم ضحية هذا التناقض متأرجحين بين الذكاء والغباء، إذ لا تختلف عنهم كثيرا حالة جميع الأديان الأخرى التي ينتظر كل منها منقذا مختلفا. قد يختلف الممثلون الذين يؤدون الأدوار،

وقد تختلف أشكالهم وملابسهم، ولكن الدراما التي يؤدونها هي واحدة في جميع الأحوال. فاليهود كانوا ينتظرون مقدم مسيح كان من المحتم أن يأتي مــنقذا لهــم، وقد جاء بالفعل، ولكنه لم يكن نفس المسيح الذي كانوا يتوقعونه في مخيّلتهم، ولذلك لم يعرفوه. لقد كانوا ينتظرون أن يأتي إليهم مســيح يضع تاجا على رأسه، ويتوقعونه ملكا جالسا على عرش الْمُلك. كــانوا يعــتقدون أنه سيكون مسيحا محاربا.. يقود جيوش الإسرائيليين لمجابهــة الحكم المتسلط للإمبراطورية الرومانية ويحقق الظفر والفلاح. وها قد مرَّ ألفان من السنين منذ أن رفضوا قبول المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، و لم يــأتهم بعد ذلك المسيح الذي كانوا يتوقعونه في مخيلتهم. وها قد غيّر الــتاريخ الجغرافيا السياسية في العالم، وفقدت نبوءة مجيء المسيح معناها كلــه. فــلم تعد فلسطين واليهودية تحت إصر حكم دولة رومانية يريد الشــعب اليهودي أن يتحرر منه. لقد اختفت تماما من خريطة العالم هذه الإمبراطورية الرومانية التي حكمت في يوم من الأيام نصف العالم المعروف في ذلــك الــزمن، ولكننا لا نزال نسمع صرخات الإنقاذ في فلسطين، ولكنها صرخات الإنقاذ من اليهود وليست لإنقاذ اليهود.

ورغــم أنه ليس هناك من خطأ في اعتقادهم بأن المسيح سوف يولد كمــا يولد أي إنسان آخر من رحم امرأة، إلا أنهم ربطوا مولده ببعض الظواهــر غــير الطبيعــية التي كان من المستحيل أن تتحقق. وقد كان اعتقادهم بالنّزول الجسدي للنبي إلياس من السماء هو حجر العثرة الذي سد الطريق أمام مسيحهم المنتظر. وهكذا تحوّل موقف اليهود تجاه مجيء المسيح إلى إنكار تام لمجيئه بناء على ما ربطوه به.

وحــين نتحوّل بأنظارنا من اليهود إلى النصارى، فإننا لا نرى موقفا يختلف كثيرا عن الموقف الذي ذكرناه فيما سبق. ولنتصور مثلا أن المسيح قــد عاد في زيارة ثانية إلى الأرض، مصحوبا بذلك الهيلمان العظيم الذي يتصوره المسيحيون الذين لا يزالون ينتظرون التحقق الحرفي لنبوءات عودته.

إن فكـــرة نزول ابن الله من السماء في مجد عظيم، وفي شكل إنسان، هي فكـــرة تصلح فقط لقصص الخيال، ومع ذلك فهي تُستخدم لإبقاء الأمل حيا، أو لعلنا نقول إنها تُستغل لإبقاء الإيمان المسيحي حيا. وحينما ننظر إلى هـــذه الفكرة من زاوية عقلانية تختلف مع النظرة المسيحية، فإن سخافتها ومنافاتها للعقل يصبح أكثر وضوحا وأشد جلاء. ولا يوجد إنسان من غير المسيحيين، سواء كان متدينا أم غير متدين، يمكن أن يشارك المسيحيين هذا الاعــتقاد، لأنه يتحدث عن تزاوج خيالي مُفرط بين المادة والروح. ومع ذلـــك فإن المسيحيين لا يرون في هذه الفكرة أي عنصر من عناصر الخرافة غير العقلانية، فإن الاعتقاد الراسخ بهذه الفكرة قد أعماهم تماما.

والغريب أن نفس هذا المسلك الشاذ لليهود والنصارى يتفق تماما مع مســـلك أتـــباع الأديان الأخرى الذين تتناقض أيضا توقعاتهم مع الحقيقة وتتـــنافر مع الواقع. إن مسحة بسيطة من غير المعقول في عقائد الآخرين تـــزعج الـــيهود والنصارى، وتثير استنكارهم لما يعتبرونه منافيا للحقيقة، ولكن أعينهم تعمى تماما عن رؤية الأخطاء الفاحشة التي تلطِّخ عقائدهم هم، مهما كانت منافية للطبيعة ومخالفة للعقل. إنهم يرون القشة في عيون الآخـــرين، ولكنهم لا يرون الخشبة التي في أعينهم، خاصة لو أنهم نظروا إلى أنفسهم من خلال عيون الآخرين. إن النظرة العقلانية هي وحدها التي تســـاعد كـــل الأطراف على تبين أن العودة الحرفية في زيارة أخرى إلى الأرض.. لأي نـــبي من الأنبياء، أو ما يسمى بإله أو ابن الله.. هو أمر لا يـــتفق مع العقل. فإن مثل هذه الزيارة لم تحدث قط في أي زمن مضى أو في أي مكـــان على ظهر هذه الأرض خلال عمر البشرية بأكملها، وهي لن تحدث في المستقبل أبدا. و لم يحدث بتاتا أن نزل أي نبي من الأنبياء من السماء بالمعنى الحرفي، وإنما كان الأنبياء يأتون إلى العالم عن طريق أرحام النساء، ويولدون ويعيشون في الدنيا كما يعيش بقية البشر. وكانوا دائما يـــبدأون حركة للإصلاح يتحتم عليها أن تخوض صراعا مريرا من أجل

البقاء والانتصار على جميع العقبات. هذا هو الواقع، وأي معتقد لا يتواءم مع هذا الواقع فإنه لا ينتمي إلا إلى عالم الوهم والخيال. لذلك فلا بد من رفض جميع وعود الإصلاح وإحياء الدين التي تقوم على هذا الأساس الذي يتنافى مع العقل، فلم يحدث مطلقا أن استخدم الله تعالى هذا الأسلوب.

وإذا انتقلنا بأنظارنا إلى العالم الإسلامي.. نجد أن الفكرة الشائعة عن إحياء الدين لدى المسلمين قد تبدو مختلفة عن الخط العام الذي تنتهجه الأديان الأخرى، ولكن عند فحصها عن كثب يمكن للمرء أن يرى أنها عمليا لا تختلف كثيرا عن موقف الأديان الأخرى، فيما عدا سياق الأحداث. فبادئ ذي بدء.. يقول المسلمون إن رسول الله ﷺ هو آخر الأنبياء على الإطلاق، وهم اليوم يفهمون تعبير "خاتم النبيين" على أنه يعني انقطاع مجيء الأنبياء بجميع فئاتهم. ورغم هذا.. فهم أيضا ينتظرون نزول عيسى بن مريم من السماء. أفلا تتناقض فكرة مجيء نبي مع فكرة كون محمد ﷺ هو آخر الأنبياء على الإطلاق؟ هذا هو السؤال الذي تتعين إجابته. وعند الرد على هذا الموقف المتناقض نراهم يقولون إنه بالرغم من استحالة بعثة نبي جديد، فإن نبيا قديما يمكن أن يعود مرة أخرى لتحقيق المقتضيات المستجدة التي استدعت حضوره. ويبدو أنهم قد نجحوا بهذه الاستراتيجية في إبقاء باب النبوة مغلقا وموصدا بالمزلاج، بينما يحاولون بمناورة ماكرة إدخال المسيح عليه السلام من الباب الخلفي. إن المسلمين المعاصرين.. سواء كانوا من أهل السنة أو من أهل الشيعة.. يتفقون على هذا التفسير لمعنى ختم النبوة. فالجميع يؤمنون بعودة المسيح عيسى بن مريم نبيا من عند الله تعالى، ومع ذلك فهم يؤمنون أيضا بالآخرية المطلقة لسيدنا محمد ﷺ.

وتبدو مشكلة التناقض المتأصل هذه في المعتقدات الشائعة بين المسلمين اليوم أكثر وضوحا وأشد جلاء.. حين يتعلق الأمر بنبوءات

مجـــيء الإمـــام المهدي. فهو لكونه إماما.. سوف يكون مأمورا من الله مباشـــرة وسيجعله للناس إماما، ولهذا يتعين على كل مسلم أن يؤمن به. وسوف نتحدث بتفصيل أكثر عن مقام الإمام المهدي، غير أنه يكفي الآن التأكيد على أن الإمام المهدي قد وُصف بكل ما يتصف به الأنبياء، رغم أنه لم يُعط لقب نبي.

أمـــا وقد أوضحنا هذا الأمر.. فالضرورة تقتضي أن نعود إلى بحث موضوع عودة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام والكيفية التي يمكن أن تتحقق بهـــا هذه العودة. وتختلف عقيدة الجماعة الإسلامية الأحمدية عن عقيدة عامـــة مســـلمي هذا العصر في الكيفية فقط، وليس في موضوع العودة. والسؤال هنا هو ما إذا كانت كيفية العودة هذه سوف تكون حقيقية أو مجازيـــة. هـــل ستتحقق هذه الكيفية بعودة نفس ذات الشخص، أم أنه ســـيكون شخصا آخر يشابه المسيح السابق؟ هل سيظهر كنبي مسيحي وقد تحوّل إلى شريعة دين الإسلام، أم أنه سيكون نبيا مسلما يحقق صورة مجازيـــة للمسيح بن مريم؟ وما هي العلاقة التي تربطه بالأديان الأخرى؟ هذه هي الأسئلة الهامة التي يجب أن يكون لها إجابات شافية.

إن موقـــف الجماعة الإسلامية الأحمدية هو الموقف العقلاني الفريد. فهـــي تقـــبل.. مـــن ناحية المبدأ.. جميع الدعوات التي تنادي بها الأديان الأخـــرى التي تقول بمجيء مصلح رباني عالمي في آخر الزمان. فمن حق الهندوس أن تُقبل دعوتهم حين يقولون بعودة كرشنا تماما كما هو من حق المسيحيين أن تُقبل دعوتهم حين يقولون بعودة المسيح عليه السلام. كذلك فإن توقعـــات الزرادشـــتيين الذين يتطلعون لعودة زرادشت، وآمال البوذيين وأتـــباع كونفوشـــيوس في ظهور كل من بوذا وكونفوشيوس على أنه المخلـــص الموعـــود.. يجـــب أن تحظى تلك الآمال والتوقعات بالاحترام الممـــاثل. غير أن الاعتراف بصدق جميع هذه الدعوات المختلفة التي تبدو أنهـــا متناقضة.. يمكن أن يكون معقولا إن لم نأخذها بحرفيتها واعتبرناها

مجازيـــة. والاستنتاج الوحيد المعقول.. الذي يمكن أن نستخلصه منها هو أن ذلـــك المصلح الموعود.. لا بد وأن يكون شخصا واحدا، يمثل مجيء جمـــيع هؤلاء الذين تذكرهم النبوءات، وإلا.. فإنه من المستحيل التحقق الحـــرفي لجمـــيع هذه النبوءات بسبب الهالات الخرافية المحيطة بكل منها. وهـــذا ما قدمه مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية ، وقد ذكر هذا الرأي لشعوب العالم بمنطق لا جدال فيه. فإن مجيء كل هؤلاء المصلحين في وقـــت واحد، لا يمكن أن يكون بشكل مادي وحرفي، وإنما يمكن أن يكـــون فقط بشكل مجازي. وبنفس المفهوم.. أعلن أنه حقق في شخصه هـــذا الشكل المجازي الذي يمثل مجيء المسيح والمهدي كشخص واحد، وأنـــه في شخصـــه يتحقق أيضا مجيء الآخرين مثل بوذا وكرشنا، وكل المصلحين الآخرين الذين يُنتظر مجيئهم في أي مكان في العالم.

وإذا تركنا جانبا التأثير الذي خلقته هذه الدعوة بين الآخرين.. سواء بالقـــبول أو بالـــرفض، فإننا نبدأ بدراسة الأثر المدوّي الذي خلقته بين أوســـاط الأصوليين من المسلمين، وهؤلاء لا يهتمون بتاتا بعودة بوذا أو كرشنا أو غيرهم لأنهم لا يؤمنون بهم أصلا، ولكنهم يهتمون اهتماما بالغا بالمســـيح ، رغم أنه كان نبيا مرسلا إلى بني إسرائيل وحدهم. وفي رأيهم، أن قول أحد بأنه يمثل مجيء المسيح عيسى بن مريم هو قول أبعـــد مـــن أن يهضم أو يحتمل، ويزيد الأمر بشاعة لديهم أن يقال عن المسيح الذي يحلمون به إنه قد مات ولن يعود مرة أخرى، والقول بمجيء إنسان يماثله من بين المسلمين هو أمر يصيبهم بالاشمئزاز الشديد وبالغثيان.

ولا يغيبن عن البال أنه قبل أن يعلن مرزا غلام أحمد عن دعواه بأنـــه مثيل المسيح عيسى بن مريم .. كانت شهرته وصيته قد طبقت آفـــاق الهـــند لما أثاره كتابه العظيم "البراهين الأحمدية" من إعجاب بين المسلمين. وقد أثنى المولوي محمد حسين البطالوي.. أحد علماء فرقة أهل الحديث.. على الكتاب ثناء بالغا، فقال عن المؤلف إنه أعظم مَن دافع عن

الإسلام منذ وفاة الرسول ﷺ[1]. ومع ذلك.. ورغم هذه الشهرة الواسعة، فإنـــه بمجرد إعلان رأيه بوفاة المسيح الذي كان رسولا إلى بني إسرائيل، بـــدلا من أن يؤيد فكرة حياته في السماء التي كانت شائعة بين الناس في ذلـــك الوقت، إذ بموقف الناس تجاهه يتحوّل تحوّلا جذريا، ونفس أولئك العـــلماء الذيـــن كانوا يكيلون له المديح، ويغرقونه بقصائد الثناء، غيروا موقفهـــم مـــنه تغييرا كاملا. فمن يكون هو بالمقارنة مع مولاهم المسيح المنتظر الذي يعتبرونه المخلص الموعود للعالم أجمع؟ وهكذا.. وبين عشية وضـــحاها.. انهارت شهرته إلى الحضيض، وتهاوت من ذراها الشاهقة في أعـــالي السماء. وكان الناس يريدون لصورة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام أن تظل في السماء كما كانت في مخيلاتهم. وأما هذا الذي يدّعي أنه جاء مثـــيلا لــــــه، فلا جزاء لـــه عندهم سوى القتل والإعدام. وهكذا كان الهـــيجان الشديد الذي أثارته دعوة مرزا غلام أحمد أمرا لم يُر لـــه مثيل في الـــتاريخ الديـــني للهـــند. وانطلق فجأة إعصار من الغضب الجارف، وانفجـــر بـــركان من الحقد العارم، راح يلقي بحمم من الشتم والسب وفـــتاوى الـــتكفير. وبذلك انطفأ النجم اللامع الذي كان يتلألأ في سماء القـــيادة الإسلامية في الهند، وتحوّل الرجل الذي كان محط إعجاب الناس لـــيكون محط سخط الجماهير، إلى الحد الذي لم يعد فيه يستحق أن يُعتبر حـــتى واحـــدا من المسلمين العاديين. غير أن كل هذا لم يفتّ في عضده شـــيئا، ولم يؤثر في خلية واحدة من جسده، فلم يكن هناك من أمر يمكن أن يحول بينه وبين القيام بالمهمة الربانية التي كلفه الله تعالى بها.

ولم يـــتأخر المســـيحيون أيضا كثيرا في موقفهم العدواني تجاهه، فلم يتركوا دربا إلا سلكوه، ولا بابا إلا ولجوه، من أجل تدميره والقضاء على دعوتـــه، حتى إنهم اختلقوا له تهما كاذبة راحوا يلاحقونه بها في المحاكم البريطانية في الهند. ولكنه ظل على هدوئه وثباته وصلابته، لا تحركه عن قصده الزلازل، ولا تثنيه عن عزمه النوازل.

وبعد ذلك، وكأن دعوته بكونه مثيلا للمسيح عيسى بن مريم عليه السلام وما أثارته ضده من سخط المسلمين والمسيحيين على السواء لم تكن كافية، فإذا به يعلن أيضا أنه مثيل لكرشنا.. نبي الهند العظيم.. الذي اتخذه أتباعه إلها يعبدونه من دون الله باعتبار أن الله قد حل فيه. وكذلك فقد أثار سخط الهندوس.. وخاصة طائفة الآريا سماج.. أكثر طوائف الهندوس تعصبا وأشدها غلظة وترويعا.. بقيامه بهجوم مضاد لصد هجماتهم الفاحشة والضارية ضد الإسلام وضد رسول الرحمة ﷺ. كذلك فقد دعا زعماء طائفتهم إلى مناظرات ومباحثات في أمور عقائدهم، مما كان له أثر مدمّر على من قَبِل منهم تحديه. وباختصار، فقد أعلن أن جميع النبوءات الموجودة في كل دين، والمتعلقة بمجيء مصلحين ربانيين في آخر الزمان، إنما تتعلق كلها بمجيء شخص واحد فقط. وبغض النظر عن الأسماء والألقاب المختلفة المذكورة في الديانات المختلفة والصحف المقدسة، فإن كل ما يهم هو أن ذلك المصلح الموعود.. أيّا كان.. هو مبعوث من لدن الله تعالى إلى العالم أجمع في آخر الزمان. وأما أولئك الذين كانوا أسارى التعصب وضحايا الفهم المنغلق، فلم يكن له أي شأن بينهم، ولا كانت دعوته تمثل أية أهمية بالنسبة لهم. وكان هؤلاء هم الذين رفضوه رفضا قاطعا، وعادوه عداء سافرا. لقد كذبوه كما كذب الناس عباد الله المرسلين من قبله، ولكن الله تعالى كان يؤيده بكل تأكيد كما أيد دائما جميع عباده المرسلين من قبل.

إنه من العجيب حقا كيف ينسى الناس دائما أن الله عز وجل يعامل أنبياءه جميعا بنفس المعاملة، والأنبياء أيضا بدورهم ينصاعون لأوامره انصياعا كاملا. وبالمثل كانت الطاعة الكاملة لهذا المصلح العالمي الموعود هي لله تعالى وحده، وليست لأي من تلك الفرق الدينية التي تنتظره وتتوقع أن يؤيد عقائدها المنحرفة. فهو مبعوث يأتي من لدن الله تعالى ونائبا له سبحانه، وليس لأولئك الذين تخلوا عنه عز وجل وخذلوه. وهو ينتمي

إلى جميع عباد الله الصالحين، وليس لأولئك الذين جعلوا من أنفسهم سادة على عباد الله الصالحين.

إن وحدانية الله تبارك وتعالى وإرسال الأنبياء بين الناس هما الأساسان المشتركان بين جميع الأديان. قد تختلف الأسماء وتتباين الألقاب، ولكن هذه كلها غير ذات قيمة، فإن ما يهم هو أن يكون صاحب الدعوى مبعوثا من عند الله تعالى. ولم يدّع مرزا غلام أحمد عليه السلام أبدا أنه صار أشخاصا عدة ذوي أسماء وألقاب مختلفة.. انصهروا جميعا في شخصية واحدة.. غير أن معظم رجال الدين يختلقون مفهوما زائفا في هذا الشأن، ويثيرون به حنق الجماهير الجاهلة ليسخروا منه ويهزءوا به، قائلين لهم إنه يدّعي بأنه كل هؤلاء الأنبياء الموعودين وقد تجسّدوا واجتمعوا في شخصه، الأمر الذي أصاب جماهير الناس بصدمة عنيفة، فكيف يمكن للمهدي وللمسيح ولكرشنا ولبوذا أن يكونوا جميعا فردا واحدا؟ وهكذا راح البعض يهتف في ازدراء: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون! وأعادت المعاملة التي استقبلوه بها إلى الأذهان نفس المعاملة التي استقبل الناس بها رسول الإسلام ﷺ حين أعلن دعواه بوحدانية لله لا مداهنة فيها. لقد قام كهنة عُبّاد الأصنام بقصد خبيث بالعمل على تشويه دعوته في أذهان الناس، فراحوا يُقنعون الناس بأنه يدّعي أنه أدمج آلهتهم كلها في إله واحد هو الله تعالى. يقول الكتاب الكريم:

﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (٣٨ ص:٦)

وليس من الصعب للباحث غير المتعصب أن يرى حكمة مرزا غلام أحمد عليه السلام خلال جميع مباحثاته مع معارضيه، إذ كان موقفه دائما موقف الإنسان العقلاني والمنطقي. وإن لم يكن الأمر كذلك لكان من السهل إثبات خطئه في أغلب معتقداته ومناظراته باستعمال نفس الآلية العقلانية.

ولو كان غير مصيب في رأيه بأن المقصود من النبوءات الموجودة في

كل الأديان عن مجيء مصلح رباني في آخر الزمان.. هو مجيء شخص واحد فقط من عند الله تعالى، لكان هذا يعني أنه ينبغي أن يظهر في كل دين مصلح خاص، يحمل اسما مختلفا، ولقبا مختلفا، ومذهبا وأيديولوجية مختلفة. وهذا يفتح مجالا واسعا من الدعوات والدعوات المضادة، ويفتح الأبواب للكثير من الخصومات والمنازعات، وإذا انفتحت هذه الأبواب فإنه يكون من المستحيل أن تُغلق بعد ذلك أبدا. إن كل من هؤلاء سوف يعلن أنه هو وحده الممثل الشرعي الوحيد لصوت السماء، وكل منهم سوف يدعو العالم بأجمعه للإيمان به باعتباره الأمل الوحيد المنوط به نجاة الناس، وسوف يعتبر كل منهم أن الآخرين ليسوا سوى أدعياء كذبة. ومن الواضح أن فساد هذا السيناريو المجنون لا يحتاج لأي تعليق. إن كل إنسان به ذرة من عقل أو منطق لا يمكن أن يؤمن بإله يعمل على تفريق الناس إلى مئات من الفرق المتنافرة والمذاهب المتناحرة، وإنه من الجنون حقا أن تُنسب هذه التفرقة إلى الله، أو أن تتم باسمه وبسلطانه.

فأي إله هذا الذي يجعل يسوع المسيح ينْزل من السماء في صفوف المسيحيين ليبدأ غزوا عالميا باسم الثالوث: الإله الأب، والإله الابن، والإله الروح القدس؟ وما إنْ يتم تحقيق ذلك يسرع باستنساخ نفسه ويتحوّل إلى الرب كرشنا في شبه القارة الهندية، مؤكدا على أهل الهند أنه ليس واحدا وليس اثنين وليس ثلاثة، بل هو إله متعدّد الوجود، من الصعب أن تُحصى أشخاصه أو تجلياته. ويمكن عبادته باعتبار أنه أشجار، أو حيّات، أو عقارب، أو أفيال، أو عواصف رعدية تصُمّ الآذان. كذلك يمكن عبادته على أنه القمر الذي يبزغ أثناء صمت الليل الطويل، وهو أيضا الشمس التي تنير النهار الجميل، وهو ما لا يمكن حصره من نجوم تُزين أديم السماء. أما على الأرض فمن السهل معرفته في شكل الأبقار والقرود والدببة والضباع والنمور والخيول والحمير وما لا حصر له من أشكال الحيوانات التي تسكن في البحر والأرض والهواء. كذلك يمكن عبادته على

أنـــه الأشـــباح والأشكال الشبحيّة التي يتصوّرها الإنسان. وعلى ذلك فسوف يصيح مناديا الجميع: هيا أسرعوا إليّ واعبدونا!

وقـــبل أن يضـــيع صوته في خضم الترنيمات المتصاعدة: سمعا لك يا مولانا كرشنا، هاري راما.. هاري راما.. إننا سوف نعبدكم جميعا، فإن صوتا آخر سوف يبدأ في الانطلاق، ويعلو ويرتفع في تصاعد مستمر على أنه صوت بوذا. وسوف يرفض رفضا باتا جميع أشكال الوحي الإلهي التي ادّعاهـــا الـــرب كرشنا، بل إنه سوف يسخر من فكرة وجود إله على الإطلاق. وسوف ينادي بأعلى صوته ويقول: هأنذا بوذا، وأنا لست إلها، ولـــيس هناك من إله غيري، فأنا لست سوى اكتمال الحكمة الإنسانية، وهـــذا هـــو كل ما عليكم أن تعرفوه على الأرض. فلننكر جميع الآلهة، ونحتفل بخلاصنا من ربقة الأساطير الإنسانية. لقد جئت لأحرركم من الله كمـــا كنت أفعل دائما بعد كل ألفية من السنين، وليس هناك سواي من يستطيع أن يهديكم كما أهديكم أنا إلى الحق.

وقـــبل أن يخمـــد صوته وينتهي إلى سكون شامل ينْزوي على أثره إلى أعماقه الخاوية وتأملاته في لا شيء أزلي، إذا بصوت آخر يأخذ في الارتفاع من بلد مجاور في إيران، وهو صوت أهورا مازدا، إله النور الذي يتحدث من خـــلال شـــفتي زرادشـــت، وسوف ينادي قائلا: إن الصوت الذي كنتم تســـمعونه يا أهالي الهند والتبت والصين كان هو صوت أهرمان إله الظلام، فهـــو الإلـــه الوحيد الموجود سواي، ومن المحتم أن يكون ذلك الصوت هو صوته، فليس في الكون آلهة سواي أنا وهو، فأنصتوا جيدا يا بني آدم: إن الله لـــيس إلها واحدا ولا هو ثلاثة ولا أربعة ولا خمسة. ومن الحماقة أن تؤمنوا بعـــدد غير محدود من الآلهة، فإننا لسنا إلها واحدا ولا آلهة متعددة، إننا لسنا ســـوى إلهـــين اثنين فقط، أما الباقون فهم مجرد خيال لا حقيقة، وها أنذا موجود.. أنا إله الخير، وهو إله الشر، وهو الذي كنتم تسمعون صوته مدعيا أنـــه بوذا. إنه إله الظلام بينما أنا إله النور. إنه ينكرني دائما ويرفضني دوْما

ويحـــاول أن يصــــرف عبادي عن عبادتي. إنه يقول للإنسانية كلها إنه ليس هـــناك مـــن إله يستحق العبادة سوى الإنسان نفسه. إنه يسكن في مكمن الذات الأنانية في النفس الإنسانية، وباسم هذه الأنانية ينال كل تبجيل وثناء يقـــدّم في محراب الأنانية. ومع ذلك فلا بد من أن أعترف بأنه إله حقيقي، معتم ومظلم كما يكون الليل الأسود حالك الظلام، وعليكم أن تتحملوه، ولكن كونوا على حذر منه واعبدوني أنا وحدي.

وفي غمـــرة الصخب الذي خلقته الفرق المتناحرة التي ذكرناها، إذا بالعالم الإسلامي يتحرك هو الآخر في نشاط شامل مع مجيء الإمام المهدي الـــذي يأتي شاهرا سيفه، إذا كان هو بالفعل ذلك الإمام الدموي الذي يؤمـــن بـــه الكثير من رجال الدين المسلمين. وسوف يطلق صيحة بنداء إعـــلان الجهـــاد المقـــدس لقتال غير المسلمين من الناس، والقضاء على الحكومات غير المسلمة في العالم.

وخلال هذه النوْبات العاتية من الجنون الديني.. يصير الدين نفسه هو المســـتهدف النهائي والضحية الكبرى. ولا شك أن العقلانية سوف تقفز وتطـــير محلقة بعيدا عن ساحة هذه الحماقة.. وهي تبتهل إلى الله تعالى أن ينقذ الدين من أيدي هؤلاء الذين يريدون أن ينقذوه ويصلحوه بزعمهم. وبغير أن يتخذ الله ﷻ وسائل عاجلة لمعالجة الأمر، فإن الجميع.. هندوسًا ومســـيحيين، بوذيين وزرادشتيين، يهودًا ومسلمين.. سوف يعانون من النّزاع والخلاف أشد المعاناة.

إن أي إنســـان به شيء من العقل لا يمكن أن يؤيد مثل هذه الحماقات غـــير المنطقية، أو يدافع عن هذه المفاهيم غير العقلانية، فضلا عن أن ينسبها إلى تدبـــير الله تعالى. وبالتالي فلا يمكن فهم النبوءات المتعلقة بالأمور الدينية بطـــريقة حرفية، وإنما يجب أن يكون للعقل والمنطق دور هام وجوهري في فهمهـــا وتفســـيرها. إن العصر الذهبي لتوحيد الإنسانية كلها لا يمكن أن يـــتحقق إلا إذا ظهر مصلح واحد، يكون مبعوثا من لدن الله تعالى، في دين

واحــد يختاره سبحانه بنفسه. هذا هو الحل العقلاني الوحيد لجميع المشاكل التي تواجه أديان العالم في الزمن الأخير. غير أن الناس الذين كانوا في انتظار حــل لضــمان بقائهم واستمرارهم قد رفضوا هذا الحل، وظلوا يتمسكون بــآرائهم الخاويــة وتصــوراتهم الخيالــية لبزوغ عصر ذهبي.. لا يبدو إلا كالسراب.

إن المشــهد الذي قدمناه فيما سبق هو محاولة أمينة لشرح الأوضاع المتناقضــة في كل دين من الأديان فيما يتعلق بالدور الذي يؤديه كل دين لتحقــيق الهداية الشاملة للإنسان. إنهم يفتحون أبواب الأمل، ثم يغلقونها بأنفسهم مرة أخرى.

أمــا المسلمون.. فهم ينهجون نهجا عكسيا، إذ أنهم يبدأون بإغلاق أبواب الأمل، وذلك بإعلان النهاية المطلقة لجميع أشكال النبوة بعد رسول الله، ومــا أن ينتهوا من ذلك حتى يقوموا بفتح تلك الأبواب مرة أخرى، غير أن موقفهم يظل في واقع الأمر كما هو دون تغيير. وبالتالي فإن الدراما التي تقع أحداثها على المسرح الإسلامي لا تختلف كثيرا عن تلك التي تقع أحداثهــا عــلى مسارح الأديان الأخرى في العالم. وبالرغم من إعلانهم الآخرية المطلقة للنبي ﷺ وانتهاء جميع أشكال وأنواع النبوة بشكل لا يقبل أية حلول وسطية، إلا أنهم يتمسكون بشدة وشغف بشخص المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، إذ أنهم يدّعون بأنه سوف يأتي حتما بعد الرسول ﷺ، غير أن الأسلوب الذي يحدّدونه لمجيئه يجعل من مجيئه أمرا مستحيلا، وعلى ذلك يظل موقفهم من الناحية العملية على ما هو عليه دون تغيير.

منطق انتهاء النبوة

إن آخــرية أي نــبي يمكن أن تتحقق من زاوية الرسالة التي يحملها، وأيضا من زاوية مكانته ودرجته ومقامه. ومن الممكن أن يكون نبي ما هو الأخير من حيث الرسالة، ويكون أيضا الأخير من حيث مقامه ومكانته. ومــع ذلــك فإنه من الممكن أن يأتي نبي يكون أقل منه مكانة وأدنى منه

مقاما، ويكون مواليا لــه وتابعا لرسالته، بغير أن يتناقض هذا مع آخريته. وهذا النوع من النبوة هو الذي نريد الآن أن نبحثه بشيء من التفصيل.

إن الإيمــان بآخــرية الشريعة الإسلامية كما نصّ عليها القرآن المجيد وآخرية الرسول ﷺ الذي تلقى هذه الشريعة من الله تعالى.. هو من الأمور التي تُجمع عليها الأمة الإسلامية بأسرها. فالقرآن المجيد، الذي هو في ذاته شريعة كاملة تامة، يعلن أيضا أنه تحت الحفاظة الإلهية المستمرة، التي تحمي نصوصــه مــن العبث الإنساني.. سواء كان ذلك بالإضافة أو بالحذف. ومادامت هذه الدعوى صحيحة وصادقة، كما يؤمن بذلك جميع المسلمين ويؤكدون على صحتها وحقيقتها، فلا بد من اعتبار حامل هذا الكتاب.. أي الــنبي الــذي أتى بهذه الشريعة من لدن الله تعالى.. هو آخر نبي يأتي بشريعة من وحي الله. هذا أمر واضح تمام الوضوح، ويلقى تأييدا من جميع المسلمين قاطبة، لم يشذّ عنه أحد منهم ما دام مسلما، رغم أنه قد يبدو من العسير من وجهة نظر غير المسلمين فهمُ كيفية أن يقوم كتاب واحد بتلبية حاجــات جميع العصور، ويتحدّى متطلبات التغيير خلال العصور التالية. وعند إضافة دعوى القرآن بعالمية رسالته، فإن المشكلة من وجهة النظر غير الإســلامية تتضــاعف كثيرا. فكيف يمكن منطقيا لأي كتاب مقدس أن يُعالج.. على نحو مُرض.. جميع المشاكل العرقية المختلفة، والمشكلات المحلية الــتي تــبرز بــين جمــيع شعوب العالم على السواء؟ إن هناك أوربيين، وأمريكــيين، وأفارقــة، وعربًا، وإسرائيليين، وروسًا، وأنواعا عديدة من الشعوب من أصل أسيوي تنتمي إلى أعراق مختلفة وثقافات وتقاليد موروثة متباينة. كذلك تختلف تقاليدهم السياسية والاجتماعية اختلافا واسعا حتى إنه من الصعب رؤية كيف يمكن لشريعة عالمية واحدة تحتوي على مجموعة من القوانين الدينية أن تُرضي جميع هؤلاء وتلبي حاجاتهم بعدالة وتوازن.

وللإجابــة على كل من هذين السؤالين يعلن القرآن المجيد أن تعاليمه جميعها تقوم على أساس الفطرة والطبيعة الإنسانية، وهي عامل مشترك بين

جميع أفراد الجنس البشري، لا تتغير بتغير الزمان. إن كل تعليم يقوم تماما، وبشـــكل كامل، على الفطرة الإنسانية.. هو تعليم ثابت غير قابل للتغيير. ويشير القرآن المجيد إلى هذا المبدأ حين يقول:

﴿فَـــأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَـــيْهَا ۚ لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ۚ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٠ الروم:٣١)

نعـــم.. إن الفطـــرة والطبيعة التي خلقها الله تعالى لا يمكن أن تتغير، وحتى الملحد لا بد لــــه أن يُقر بأن الطبيعة الإنسانية قد بقيت على حالها في جميع أنحاء العالم منذ عهود سحيقة. غير أن كتاب الشريعة نفسه الذي يخاطـــب طبـــيعة الإنسان غير المتغيرة يمكن أن يخضع للتغيير على أيدي الإنســـان، ولذلـــك فقد حرص القرآن المجيد على بيان انتفاء وجود هذا الاحـــتمال وذلـــك بالتأكـــيد على وجود الحماية والحفاظة الربانية لهذا الكتاب. يقول تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (١٥الحجر:١٠)

وقد أثبت التاريخ أن هذه الدعوى حقيقة صحيحة واقعة. فلا بد من الإقـــرار بأن الرسول ﷺ الذي جاء بهذه الشريعة هو حتمًا آخر نبي يأتي بشريعة من لدن الله تعالى، وليس في هذا الإقرار أمر يتناقض مع المنطق أو يختلف مع العقلانية. ولكن حين يُقال إنه من المستحيل أيضا أن يأتي نبي غير مشرِّع أي بدون شريعة جديدة، فإن هذا يُعد تمديدا مبالغا فيه وغير مـــنطقي لمبدأ الآخرية.. والذين يقولون بهذا الرأي ويعلنون مبدأ الآخرية المطلقـــة للنـــبوة بجمـــيع أشكالها وأنواعها، هم في حقيقة الأمر يهدمون بأنفســـهم هـــذا المـــبدأ من أساسه، وتبدأ ثغرات الضعف في الظهور في الـــلحظة التي يسرعون فيها إلى استثناء عيسى ؑ من هذا القانون العام

المطلق الذي وضعوه لإثبات الآخرية المطلقة.

وعندما يواجَهون بهذه المعضلة نجد أنهم يصرفونها بإشارة بسيطة من أيديهم، كما لو لم تكن هناك أية معضلة على الإطلاق.

وهـــم يقولون إن عودة عيسى عليه السلام نبيا بعد الرسول ﷺ لا تتعارض مع آخريته المطلقة للأسباب التالية:

- إن عيســـى سوف يأتي كنبي من الذين سبق أن جعلهم الله أنبياء قـــبل مقدم سيدنا محمد ﷺ، وعلى ذلك فليس هناك تعارض مع آخريته، وإنمـــا يحدث التعارض إذا بُعث من بعده نبي جديد حتى ولو لم يأت هذا النبي بشريعة جديدة، ولو كان هذا النبي من أمة محمد ﷺ.
- إن نـــبوة عيسى ستكون هي نفس النبوة التي نالها عند مجيئه قبل الإسلام وليست نبوة جديدة.
- إضـــافة إلى ذلـــك.. فإنـــه عند عودته مرة أخرى سيكون تابعا للرسول ﷺ ولن يكون نبيا مستقلا.

ولهذا.. لكونه نبيا قديما، ولأنه سيكون نبيا تابعا، فهو لن ينقض ختم النبوة. ويترتب على ذلك أن مفهومهم عن الآخرية.. أو ختم النبوة.. يعني فقط إنه من غير الممكن أن يختار الله تعالى أنبياء جددا ولكنه يستطيع فقط أن يستحضر الأنبياء القدماء فحسب. وهذه سخافة لا تتفق مع العقل السليم ولا مع المنطق المتزن. فأي حكمة تلك التي يتصف بها ذلك الإله الذي يقرر الآخرية المطلقة لنبي من الأنبياء رغم علمه التام بضرورة بعث نبي بعده؟ أما أن يكون هذا النبي جديدا أو قديما فهذا أمر لا أهمية لـــه على الإطلاق، إذ أن جوهر الموضوع وأهميته يتركز في وجود الحاجة والضرورة لبعث نبي.

إن وجـــود الحاجة لبعث نبي بعد مجيء النبي الأخير هو أمر ينم على التـــناقض في ذاته. وحين يواجه العلماء هذا التناقض نجدهم دائما يلوُون الحقائق، وهم يقولون إن الحاجة إلى مجيء نبي قد تنشأ بعد أن يكون النبي

الأخير قد جاء ومضى، ومع ذلك فإن آخريته المطلقة تبقى على حالها، ما دام أحد الأنبياء القدماء هو الذي يلبي هذه الحاجة الجديدة. ومن الواضح أن أي عـــاقل يمكـــن أن يرى مدى سقم هذا المنطق المغلوط والمغشوش. فاخـــتلاق فـــرق بين نبي قديم أو جديد هو أمر ساذج، ومحاولة صبيانية لإثارة التشويش والاضطراب في الأذهان. فإذا افترضنا أن عيسى الناصري عليه السلام قد عاد إلى الظهور مرة أخرى كنبي تابع للرسول ﷺ فإنه بلا شك ســـيكون نبيا جاء من بعده. إن تلبية حاجة جديدة باستعارة نبي قديم.. أســـوأ من تلبية نفس هذه الحاجة ببعث نبي جديد يكون من أفراد الأمة الإســـلامية. وبالطـــبع إذا كـــان بعث النبي القديم لا يتعارض مع عقيدة الآخرية المطلقة للرسول ﷺ فإن بعث نبي جديد لا يتناقض أيضا معها.

الإمـــام المهـــدي

لعلـــنا الآن نستطيع أن نخرج قليلا عن موضوع عودة عيسى عليه السلام لنلقي بأنظارنا على مكانة ومقام الإمام المهدي.

فحسب بعض نبوءات الرسول ﷺ لا يبدو أن ظهور عيسى عليه السلام هو وحـــده الظهور المنتظر في آخر الزمان، فهناك الكثير من النبوءات تتحدث عن مبعوث آخر يقيمه الله تعالى تحت اسم "الإمام المهدي". وتذكر الكثير من الأحاديث الشريفة عيسى عليه السلام والإمام المهدي كما لو أنهما شخصان مختلفان، غير أن هناك استثناء واضحا من ذلك، إذ يذكر ابن ماجة.. وهو أحد كتب الصحاح ا لستة أن هذين الشخصين هما في واقع الأمر شخص واحد، وإنما يحمل لقبين مختلفين. وفي هذا الشأن يقول نص الحديث:

"... ولا المهدي إلا عيسى".[٢]

وهذا يعني بوضوح أن المهدي المنتظر قد لُقب باسم عيسى، غير أنه مـــن المعروف أن الإمام المهدي سوف يولد من بين أفراد الأمة الإسلامية حســـب الكـــثير من الأحاديث النبوية الشريفة، فكيف يكون هو نفس

عيسى ﷺ إذا كان عيسى سوف ينْزل من السماء من بعده؟ إن هذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كان اسم "عيسى" هو مجرد لقب يحمله الإمام المهدي بالإضافة إلى لقب "الإمام المهدي"، وبالتالي.. فليس هناك من شخص آخر ينْزل من السماء. أما الدور الذي يُقال إن عيسى سوف يقوم به، فسوف يقوم به الإمام المهدي. وعلى ذلك فإن من لُقِّب باسم النبي عيسى ﷺ مجازا سوف يولد في الأمة الإسلامية باعتباره الإمام المهدي. وهذا يقودنا إلى تحديد المكانة الحقيقية للإمام المهدي. وكما سوف نبين في هذا السياق.. لا يمكن إلا أن يكون مقامه مقام نبي تابع لا يحمل شريعة، رغم أن أغلب العلماء المسلمين لا يعتبرونه كذلك. وأما في حالة عيسى عليه السلام فلا يجدون أية غضاضة في أن يقولوا باطمئنان إنه نبي، لما سبق ذكره من أسباب، ولكنهم لا يستطيعون أن يعترفوا بذلك في حق الإمام المهدي، خشية أن يتعارض هذا الاعتراف مع عقيدتهم عن الآخرية المطلقة.

وتختلف استراتيجيتهم اختلافا كبيرا بالنسبة للإمام المهدي، فهو بالنسبة لهم سوف يظل نبيا غير مُتَوج، إذ أنه سوف يتصف بجميع صفات الأنبياء فيما عدا هذا اللقب. وهذا يشابه تماما وصف مخلوق بجميع صفات الإنسان بغير اعتباره إنسانا، رغم أن اعتباره أي شيء آخر لن يغير حقيقة كونه إنسانا. ومن هنا ينبغي أن يدرك العلماء أن مكانة الإمام المهدي تتحدد حسب ما تقتضيه الصفات التي يتصف بها. ولا يمكن إنكار مكانته كنبي مادام يظل يؤدي مهمة النبي ويتصف بصفات النبي. فإذا كانت كل مقتضيات النبوّة متوفرة في شخص ما، فإنه يكون نبيا، ويظل نبيا، مهما أطلق الناس عليه من أسماء. ويكون إنكاره مع كونه مبعوثا من الله تعالى بمثابة إنكار الله عز وعلا. وعلى هذا من يرفض الإيمان بالإمام المهدي باعتبار أنه نبي تابع.. سوف يفقد الحق في أن يعتبر نفسه ضمن زمرة المؤمنين الصادقين. إن الإيمان به فرض واجب على كل مسلم، كما يعترف بذلك

حـــتى الأصوليون. وهو بذلك يشترك مع بقية الأنبياء في ضرورة الإيمان بهم جمـــيعا، ولا يشترك أحد آخر مع الأنبياء في هذا الأمر. والإصرار على عدم الاعـــتراف بمكانة الإمام المهدي لا تحرمه بتاتا من هذا الحق، كما لن يقلل عدم الاعتراف هذا من التناقض السافر في معتقداتهم.

الوحي والأنبياء الذين لا يحملون شريعة

إن مقـــام النـــبوة في الإســـلام هو أعلى مقام يمكن أن يهبه الله تعالى للإنسان. وليس النبي هو الشخص الذي يخبر ببعض النبوءات، وإنما النبي هو الـــذي يكلفـــه الله تعـــالى بهذه المهمة بشكل خاص. وليس كل المجددين بالضرورة هم من الأنبياء، ولكن جميع الأنبياء هم بالضرورة مجددون. وتلقّي الوحـــي في ذاتـــه لا يجعل الإنسان نبيا، إذ من الممكن أن يتلقى الوحي غير الأنبياء، فينعم الله تعالى عليهم بوصاله والاتصال به.

وللوحـــي مجـــال واسع من الأشكال التي يتم بها، من بينها الأحلام والرؤى والإلهامات وحتى المحادثات الكلامية. ولا ينكر العلماء وقوع هذه الظاهـــرة، حتى علماء العصور الوسطى، وإنما يقع الاختلاف فيما يتعلق بإمكـــان حدوث وحي النبوة. وهذا الجانب من الوحي هو الذي سنقوم ببحثه.

إن المرء يستطيع أن يفهم بسهولة حكمة انقطاع بعثة الأنبياء بشريعة جديـــدة، في ضـــوء ما سبق شرحه من اكتمال التشريع في القرآن المجيد. والموضوع الذي يجب أن يتم بحثه بالتفصيل هو: لماذا يتوقف أيضا الوحي الـــذي لا يحمـــل تشريعا، ولماذا يجب أن ينتهي أيضا مقام النبوة بأكمله وبصـــورة فجائية؟ إن تاريخ الأديان يثبت بما لا يدع مجالا للشك أنه ليس مـــن المحتم لكل نبي أن يأتي بشريعة جديدة من الله تعالى. فهناك الكثير من الأنبـــياء، مثل إسحاق ويعقوب ويوسف ولوط، وأشعياء، الذين لم يأتوا بشـــريعة جديـــدة. ومع ذلك فقد اصطفاهم الله كما اصطفى الذين من قبلهم، وكلفهم بمهمة النبوة، وأن يكونوا قادة روحانيين لأممهم.

المـــــــــراجع

1. BATALVI, MAULAWI MUHAMMAD HUSSAIN. *Ishā'at-us-Sunnah* (June/July/Aug, 1884) No. 6. Vol.7. p.169
2. *Sunan Ibn-e-Mājah.* Kitābul-Fitan. Bābo Shiddatiz-Zamān

الفصل الثاني
محاولات فلسفية لتبرير انقطاع النبوة غير التشريعية

هـــناك محاولـــتان قام بهما مفكرون ورجال دين مسلمون للخروج بتبرير منطقي لانقطاع مجيء الأنبياء، حتى الأنبياء الذين لا يحملون شريعة جديدة من الله تعالى. وتقوم المحاولة الأولى على موضوع الحاجة إلى مجيء نـــبي جديد، فيقولون إن مجيء الرسول ﷺ، وهو النبي الكامل الذي جاء من الله تعالى يحمل الشريعة الكاملة، يلغي تماما أية حاجة لمجيء نبي تابع. وبطبيعة الحال.. فإنه يمكن قبول ذلك فيما إذا أمكن فعلا إثبات أن مجيء هـــذا النبي الكامل بهذه الشريعة الكاملة يضمن تماما عدم وقوع الانحراف في فهـــم هذه التعاليم الكاملة المتضَمنة في كتاب الله المجيد وسُنة رسوله، وبهـــذا يظل الناس على طريق الهدى المستقيم، متمسكين بأهداب التقوى والصـــلاح. ولكن بكل أسف.. إن هذا لأمر لا يمكن إثباته لا عمليا ولا تاريخيا.

والحقـــيقة إن هذا الرأي لا يؤيده أي دليل ذي معنى أو منطق يقنع العقـــل، لأن المهمة التي يؤديها الأنبياء لا تنحصر فقط في إحضار كتاب شـــريعة مـــن الله تعـــالى. إن النبوة في ذاتها أمر لـــه عديد من الجوانب العظيمة والتأثيرات الهامة. ولا يستطيع أحد أن يزعم أبدا أنه بعد اكتمال الشـــريعة في الكـــتاب والسُّنة.. لم يعد لوجود الرسول ﷺ أية أهمية على الإطـــلاق، والاحتفاظ بالكتاب وبسنة النبي حامل الشريعة لا يكفي بعد وفاتـــه لأن يكون بديلا للنبوة. ويكفي لتوضيح هذا الأمر ما حدث مع المســـلمين بعـــد انـــتقال الرســـول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، حيث ظهر الاضـــمحلال الـــذي استمر يؤثر بشكل متزايد على المجتمع الإسلامي،

فقامت خلافات أدت إلى الاقتتال بين المسلمين، وانقسموا إلى فِرَق ومذاهب ظلت تتزايد وتتفاقم. والفرْق الشاسع بين أحوال المسلمين الروحية من تقوى وصلاح أثناء وجود الرسول ﷺ بينهم خلال فترة حياته الشريفة، وبين أحوال المسلمين الآن.. أمر لا يحتمل المقارنة. ومع ذلك فإن الشريعة الكاملة لا تزال كما هي محفوظة بأمر الله تعالى، والكتاب لا يزال كما هو لا ريب فيه، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وظل كما هو، كاملا بدون تغيير أو تحريف كما كان قبل الأربعة عشر قرنا الماضية.

أما التبرير الثاني لفكرة الآخرية المطلقة وانقطاع مجيء الأنبياء بكافة أنواعهم فيقوم على نظرية ارتقاء الإنسان ووصوله إلى مرحلة النضوج الفكري. والمناصر الأكبر لهذه النظرية هو العلامة والمفكر والشاعر العظيم محمد إقبال، الذي يعتبره البعض أكبر المفكرين المسلمين في الأزمنة الحديثة. وفكرة النضوج الفكري هذه تقوم على افتراض أن القرآن المجيد قد نزل من الله تعالى حينما وصل الإنسان إلى مرحلة النضوج الفكري، وعلى هذا.. لم يعد الإنسان بحاجة إلى هدي آخر من أي مبعوث آخر، على عكس الأجداد الذين رحلوا في الأزمنة السابقة. وللوهلة الأولى تبدو هذه النظرية كأنها فكرة فلسفية جميلة، ولكن بعد إمعان النظر فيها ودراستها بعمق يتبين خواؤها وخلوها من أية قيمة. فإن الأساس نفسه الذي تقوم عليه هذه النظرية من أن الإنسان قد وصل إلى مرحلة النضوج الفكري، حتى إنه أصبح قادرا وحده على استنباط الحقائق، وانتهاج المنهج الصحيح السليم للسلوك من تعاليم الدين الكامل، هو أساس يخضع للنقاش والجدل من نواحٍ عدة.

وينبغي ألا ننسى أن الإنسان كان دائما وعند كل منعطف من منعطفات التقدم يعتبر نفسه قد وصل إلى قمة النضوج الفكري، وعند كل مرحلة من مراحل التاريخ.. كان الجيل الذي يعيش تلك المرحلة يعتبر

نفســـه أيضـــا قـــد بلغ قمة التقدم الإنساني. وكان الناس إذا نظروا من موقعهم الذي وصلوا إليه إلى الأجيال السابقة، كانت تلك الأجيال تبدو لهـــم أقل نضوجا وأقل تقدما منهم، ومع ذلك فلم يحدث أبدا أن تصرف الإنســـان وحـــده في أي مرحلة من مراحل التاريخ بحكمة تكفي لهداية نفســـه. وعلى الدوام كانت ترتفع رؤوس ورؤساء مثل فرعون لتتحدى الهـــدي الإلهي، وكان المتمردون على الهدي الإلهي يرفضون قبول الأنبياء الذين جاءوا إليهم في أزمانهم مستخدمين نفس المنطق المغلوط الذي يعتمد على نضوجهم الفكري، وكرر الجميع مرارا نفس الادعاء بأنهم قد بلغوا مـــرحلة مـــن التقدم الفكري يكفل لهم تقرير أمورهم بأنفسهم. غير أن الـــتاريخ يبين أن كل تلك الأجيال كانت على خطأ. وعلى ذلك.. فمن السذاجة بمكان الزعم بأن الجيل المعاصر هو الوحيد الذي وصل بالإنسان أخـــيرا إلى الاكـــتفاء بقدراتـــه الذاتـــية لكل متطلبات تقدمه الأخلاقي والروحاني.

كذلك يتضح زيف فكرة النضوج الفكري من خلال وقائع وحقائق الـــتاريخ. فبعد وفاة الأنبياء لطالما كانت تقع الانقسامات، وتتعدد الفرق الدينـــية التي تتولى تقديم التفسيرات المختلفة والمفاهيم المتباينة للتعاليم التي أتـــى بهـــا الأنبـــياء، وكانت هذه ظاهرة عامة لم يخل منها أتباع نبي من الأنبـــياء على الإطلاق، ولم ينج منها المسلمون أيضا. وهكذا يتضح أن موضوع بلوغ النضوج الفكري المزعوم لا يؤهل الإنسان لاستنباط الفهم الصحيح للصحف المقدسة، وإنما يقتضي الأمر هديا إلهيا.

وإذا كـــان "النضـــوج الفكـــري" للإنسان يعني أنه يستطيع وحده استخلاص الحقائق من دراسته للصحف المقدسة، لكان من المحتم أن ينتج عن ذلك وحدة واتفاق كامل على جميع الأسس في التعاليم الدينية. ولكن للأســـف إن ما نراه اليوم عمليا وكواقع فعلي ملموس، يُعد فشلا ذريعا لهذه الفكرة. والمسلمون الذين تشرفوا بتلقيهم من الله تعالى الكتاب الإلهي

الكـــامل والأخـــير.. نجـــد أنهـــم ليسوا أقل فُرقة وانقساما، فيما يختص بالتفســـير، من غيرهم من أتباع الأديان الأخرى. فما جدوى ما يسمى بالنضـــوج الفكـــري للإنسان؟ إن تاريخ الأديان يثبت بما لا يدع مجالا للشـــك بأنـــه إذا بدأ الناس ينقسمون إلى فِرق ونحل ومذاهب، فإنهم لا يـــتخلون أبدا عن هذا الانقسام والتشيع ليعودوا إلى التوحد نتيجة لجهود الإنســـان وحده. وتنطبق نفس هذه الحالة بدون أدنى شك على المسلمين الـــيوم أيضـــا. وبغير أن تتدخل السماء عن طريق المصلح الرباني، فمن المستحيل جمع المسلمين وتوحيدهم مرة أخرى تحت راية واحدة. ولكنهم بكـــل أسف يرفضون هذا الإجراء السماوي، رغم أنه باب الأمل الوحيد المفتوح أمامهم.

إن وجـــود مـــا يـــزيد عن سبعين فرقة بين المسلمين.. رغم وجود الكتاب المحفوظ والسُّنة المتواترة والأحاديث الشريفة المحققة.. كلها تقف دلـــيلا على عدم صحة الفكرة الفلسفية للشاعر إقبال عن نظرية النضوج الفكري للإنسان.

والاخـــتلافات الـــتي تُـــباعد بين هذه الفرق الإسلامية ليست مجرد اخـــتلافات هامشية، وإنما هي أساسية وعميقة، كما أنها تتزايد وتتأصل بمرور الزمن. وعندما نضيف إلى هذه الاختلافات الفقر الأخلاقي المنتشر في العالم الإسلامي، ومأساة وجودهم وكأنهم جسد ميت فقد الحياة، فإن الأمـــر يصـــير مؤســـفا يثير كثير الحزن وشديد الأسى. وإذا كان الأمل الوحـــيد الـــذي يمكن أن يبعث فيهم الحياة هو اعتمادهم على نضوجهم الفكـــري، فلنقل على الدنيا السلام، والأَوْلى بالمرء أن يتوضأ كي يكون عـــلى استعداد لحضور صلاة الجنازة وقراءة الفاتحة والترحم على الماضي الذي لن يعود.

يـــا لها من مأساة مفجعة! لماذا لا يدرك هؤلاء الناضجون فكريا أن كـــتابا محفوظا فقط لا يكفي لتزكية النفوس وتطهير القلوب؟ إذ لو كان

الأمـــر كذلك لاستطاع المسلمون الحفاظ على مكانتهم المثلى ووحدقم الفكرية، غير أن الواقع العملي بكل أسف يبعد عن هذه المثالية التي كانت تتمتع بها الأمة في بدايتها.. بُعد الشرق عن الغرب، والسماء عن الأرض.

إن كـــل ما يمكن أن يُقال هنا دفاعا عن الفكرة التي قدمها الدكتور إقـــبال لإغـــلاق نـــافذة النور الإلهي بهذا السُّخْف الذي يسميه النضوج الفكـــري.. هو أنه لم يخترع تلك الفكرة بنفسه، وإنما كانت سقطته هي أنه اقتبس بغير تفكير عميق نظرية الفيلسوف الألماني المعروف نيتشه. فإن نيتشه هو أول من استخدم فكرة النضوج العقلي في العصر الحديث لينفي وجـــود أيـــة حاجة لتلقي الهداية من الله تعالى. وفي الواقع.. كان نيتشه يحـــض الإنسان على أن يفيق من غفوته ويرتقي إلى مستوى الزمن الذي يعيش فيه، وأن يستخدم قدراته الخاصة المتمثلة في حواسه الخمس. وكان التعبير الذي وضعه نيتشه لمن يصل إلى مرحلة النضوج.. حيث يكون قد تمكن من استغلال جميع حواسه بكامل قدراقا.. هو الإنسان المتفوق، أو "الســـوبرمان". ومـــثل هذا الإنسان في رأيه ليس في حاجة إلى الله لكي يـــتلقى منه الهداية، فقد كان يعتبر أن الله مجرد ظن وتخمين، وليس حقًا ويقيـــنًا. وكـــان يـــرى أن هذه الظنيات قد تولدت من نقص القدرات الفكرية خلال العصور التي لم يكن الإنسان فيها قد نضج بما يكفي لكي يكـــون سيد نفسه. والآن.. حيث بلغ الإنسان مرحلة النضوج الفكري، كما استخلص نيتشه في كتابه: "هكذا تكلم زراثوسترا "[#]- الذي يُعتبر الوحـــي الرمزي لفلسفة نيتشه، مشيرا فيه إلى أنه لم تعد هناك من حاجة إلى التمسك بأية ظنيات.

"في زمن ما كان المرء يقول الله.. حينما كان ينظر إلى أديم البحار؛
ولكني علمتك الآن أن تقول: الإنسان المتفوق (السوبرمان).
"إن الإله هو مجرد ظن، ولكني أرغب ألا يتجاوز ظنك إرادتك الخلاقة".

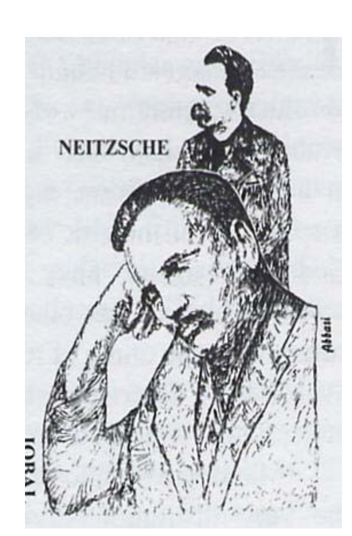
[#] انظر الملاحظة عن زرادشت في الفصل عن الزرادشتية. منه

١

"هل يمكن لك أن تفكر كإله؟ هذا هو ما يجب أن تعنيه الحقيقة لك: أن يـــتحول كـــل شيء إلى ما يمكن أن يتصوره الإنسان بفكره، وما يراه الإنسان، وما يلمسه الإنسان. فعليك أن تفكر من خلال حواسك وما يتعلق بها وما يترتب عليها".[٢]

"إن الإلـــه ما هو إلا مجرد ظن، ولكن من الذي يستطيع أن يتخلص من صراع الظن إلا بالموت".[٣]

وخلاصة ما أدى إليه كتاب "هكذا تكلم زراثوسترا " هو تمرّد نيتشه على الإله الذي يعتبره مجرد ظن، وذلك الإله هو في الواقع.. تصور المسيحية عن الإله. ولكي نفهم لماذا تمرد زراثوسترا على الإله، فلا بد من قراءة الفصل بعنوان: "المتقاعد". ولكن يكفي هنا أن ندرك أن ما تتمخض عنه فلسفة نيتشه هو تحرير الإنسان من أن يكون أسير الهداية التي تأتيه من السماء، فإن نضوجه الفكري هو الذي يكفي لتحقيق هدايته.



نيتشه وإقبال

وهذه بالضبط كانت فلسفة إقبال التي أعلنها لإلغاء الحاجة إلى مجيء نبي، بعد أن وصـــل نضوج الإنسان الفكري إلى قمة قدراتـــه. وبـــدلا من أن يستخدم العلامة إقـــبال هـــذه الفلسفة المستعارة والمقتبسة لإنكار الحاجة إلى الهداية الربانية، نراه قد طوّر فكرة النضوج الفكري بعض الشيء لتناسب أغراضه داخل الإطار الإسلامي. وبالرغم من أنه لا يزال يعترف بالحاجة إلى المعلِّـــم الكامل والكتاب الكامل، ومادام ذلـــك متوفرا، فهو لا يرى أن تؤرق السماء مضجع الإنسان بتدخلها في شـــؤون هدايـــته. ولكن ليس هذا كل ما في الأمر.. فإن عقيدة النضوج

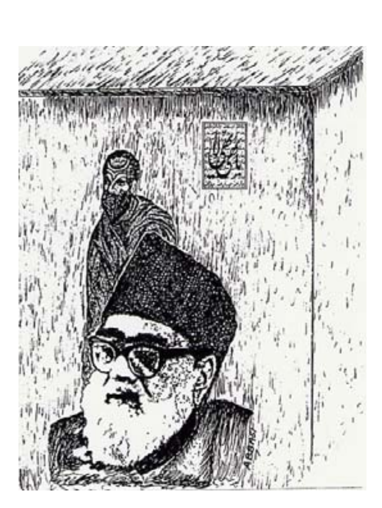
الفكري، بعد التعديل الذي أدخله عليها إقبال، لا تلغي الحاجة إلى النبوة فحسب، وإنما تلغي كلية أيضا أية حاجة لوجود اتصال ما بين الله والإنسان، حتى ولو كان نوعا من الوحي غير وحي الأنبياء. ولا بد أن يكون هذا هو الاستنتاج المعقول الوحيد الذي تُفرزه عقيدته عن النضوج الفكري، فإن فكرة النضوج هذه تقتضي استقلالا كاملا للإنسان عن أية هداية سماوية إضافية في أي شكل من الأشكال. فهو قد صار من الكفاءة بمكان حتى إنه يستطيع أن يقرر لنفسه ما يشاء في ضوء ما مُنح له من هداية. فالإنسان.. كما يقول إقبال.. لم يعد طفلا تُمسك بإصبعه الصغير يدُ نبي لتعينه على أن يخطو بعض الخطوات إلى الأمام. ألم ينضج هذا الإنسان ويصل إلى سن البلوغ الفكري لكي يقرر أمر نفسه بنفسه؟ قد يبدو هذا المنطق معقولا لدى البعض، غير أن نظرة واحدة إلى التدهور الروحي والانحطاط الأخلاقي الشامل للإنسان اليوم.. تكفي لتبديد هذه الدعوى واعتبارها مجرد خيال ووهم مغلوط.

ولعل ما ذكرناه حتى الآن فيه الكفاية عن إقبال و دعاويه النظرية، ولنتحوّل الآن إلى الكلام عن المودودي.. وهو أحد العلماء المشهورين بين المسلمين من أهل السُّنة. وهو يؤكد على أن الانقطاع المطلق للنبوة بعد الرسول ﷺ إنما هو نعمة فريدة من الله تعالى على الإنسانية جمعاء. وهو يرى أن انقطاع النبوة هذا يعتبر برَكة خاصة للمسلمين.. لأنه يدفع عنهم على الدوام خطر قدوم نبي من الله تعالى ومن ثم عدم قبوله، وبذلك فهم في حصن حماية الله تعالى من أن يكونوا محل لعنة من الله كما لُعن الذين من قبلهم، لارتكابهم معصية الكفر بأنبياء الله في زمانهم. ونحن نرى أن وجهة النظر هذه تستحق أن تُعالج بدُعابة مضحكة بدلا من أن تعالج بمناقشة موضوعية، فالمثل الشائع يقول: شر البلية ما يُضحك.

وإذا كان من الممكن قبول فلسفة المودودي هذه، فإن هذا يعني ضمنيا أن النبوة نفسها كانت في الواقع لعنة، وإلا لما اعتُبر انقطاعُها نعمة.

إن هذا الأسلوب في التفكير يماثل تفكير بولس الذي وصم شريعة التوراة بأنها لعنة، وكان يؤمن بأن المسيح هو المخلّص لأنه ألغى هذه الشريعة، فقد كان بولس يرى أنه لو لم تكن هناك قوانين تشريعية يمكن أن تُنتهك، فلن تكون هناك معصية أو ذنوب يمكن أن تُرتكب.

إن فلسفة المودودي الهوائية هذه لم تنبع من أفكار بولس وحده، وإنما تعيد إلى الأذهان دعوى بهاء الله أيضا، فإن ما فعله المسيح بإلغاء شريعة التوراة حسب رأي بولس.. هو نفسه الذي ادّعى بهاء الله أنه فعله بإلغاء شريعة القرآن، وبذلك فقد أعلن نفسه ليكون محررا للإنسانية من ربقة القرآن. غير أنه لم يُقلد منهج بولس تقليدا كاملا، فإن بولس لم يدّع لنفسه أبدا أن الله قد تجسد فيه فصار


بولس والمودودي

مظهر الله، بل نسب هذه الألوهية كلية إلى المسيح، فالمسيح بالنسبة له كان في الواقع المحرر الذي أزال الخطأ الفادح الذي ارتكبه "الإله الأب" في حق الإنسان. فإن خلق شريعة إلهية في ذاته أمر يعادل خلق الخطيئة، وعلى ذلك يكون ما حققه يسوع بالفعل هو أنه دمّر التربة التي تنمو فيها الخطيئة، وذلك بإلغاء الشريعة الإلهية حسب رأي بولس. ويبدو أنه في نفس الوقت الذي قام فيه يسوع بتحرير الإنسانية، فإنه قام أيضا بتحرير "الإله الأب" من حماقة خلق الخطيئة.

وقد طبق بهاء الله هذه الفلسفة نفسها ولكن بطريقة جزئية، فادّعى بأن الشريعة القرآنية كانت بالغة الصعوبة ومرهقة، وبذلك فقد فقدت قيمتها بالنسبة للإنسان في العصر الحديث. لذا فقد ظن أنه بتحرير الإنسانية من هذا العبء الثقيل المرهق فإنه سوف يطلق الإنسانية من

إسارها. ولكن الأمر لم يكن تماما هكذا.. فقد جعل من نفسه "مُشرعًا" بعد أن ألغى الشريعة السابقة. ولكن عند تحليل النتيجة النهائية نجد أن بهاء الله لم يـــنجح إلا في ارتكاب الإساءة إلى الله تعالى وإلى نفسه. فالشريعة التي أملاها بهاء الله لتحل محل الشريعة القرآنية، لم تكن أكثر ولا أقل من إهانة وقحة للفكر والمنطق والعقلانية.

وبين هذيْن الحوارييْن الحديثيْن لبولس، أي بهاء الله والمودودي، ضاع كل شيء، ولم يعد يبدو أنه قد بقي شيء من الإسلام. فقد ادّعى بهاء الله أنـــه تخلص من الشريعة باسم التحرير من العبودية. وأما عن النبوة.. فقد شرع المودودي في القضاء عليها تحت عباءة فلسفة بولس. غير أن كليهما فشـــل في تحقـــيق أغراضه، ولم يُصفّق لهما ويعتبرهما من أبطال الفكر إلا أولئك الذين كانوا أمواتا من الوجهة الروحية.

غير أن المودودي لم يتبع منهج بولس تماما، فلم يذهب إلى ما ذهب إلـــيه بولـــس فيقول إنه كان يتعين على الله إلغاء شريعة القرآن، حتى لا يكون عدم اتباعها سببا في نزول لعنة الله على من لا يتبعها، بل إنه طبق مبدأ بولس فيما يتعلق بالنبوة فقط. فحتى إذا جاء أنبياء لا يحملون من الله تعـــالى أيـــة شريعة جديدة بعد الرسول ﷺ، فمن المتوقع في رأيه أن تقوم الأغلبية العظمى من المسلمين برفض الإيمان بهؤلاء الأنبياء، كما فعل ذلك الذيـــن من قبلهم، لذلك.. حسب المنطق المودودي.. سوف يظل سيف اللعـــنة مُصلَتًا على رقاب المسلمين. وفي تقدير المودودي بإلغاء مبدأ مجيء الأنبـــياء كلـــية بعد الرسول ﷺ، يكون الله تعالى قد أنعم على الإنسانية عامة، وعلى المسلمين خاصة، بنعمة لا مثيل لها.

ولو صح بالفعل انقطاع بعث الأنبياء.. لكي لا يتعرّض من يرفضهم مـــن الناس لنُزول اللعنة عليه.. فإن هذا يعادل تماما القول بأن مبدأ بعث الأنبياء نفسه كان سببا لنُزول اللعنة. وعلى هذا فإن فلسفة بولس الجديد تتطلـــب من الله تعالى أن يزيل لعنة النبوة كلية ليخلص الناس من اللعنة،

فما أعجبه من خلاص، وما أغربها من نجاة!

ولكـــن ينبغي أن يكون من المفهوم أن مبدأ المودودي هذا لا بد أن ينطبق على الماضي كما يريد تطبيقه على المستقبل. فلماذا أرسل الله تعالى عيســـى عليه السلام قبل الرسول ﷺ؟ ألم يذكر القرآن المجيد أن اليهود قد لُعنوا بســـبب كفـــرهم به وقولهم على مريم بهتانا وإثما مبينا؟ وما الذي حدث للأنبياء السابقين الذين أرسلهم الله إلى العديد من الأمم؟ ألم يكفر الناس بهم وكانوا يستهزئون بهم ويسخرون منهم؟ ألا يكشف هذا عن حالة من العجرفة والغطرسة للسلوك الإنساني المستمر كما يبين ذلك القرآن المجيد:

﴿يَـــا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٣٦ يس:٣١)

ألـــيس من الغريب حقا أن الله تعالى لم يشأ أن يضع نهاية لهذه اللعنة الـــتي يكتســـبها الناس برفضهم الإيمان بالأنبياء؟ وما الذي حدث لليهود خـــلال تاريخهم الطويل وتعاملهم مع الأنبياء؟ ألم يلعنهم الله تعالى على لســـان داود عليه السلام؟ وما الذي حدث لأهل الكتاب بعد موسى وعيسى عليهما السلام؟

ألم يكـــن هذا السلوك العدواني الدائم والمستمر لتعامل الناس الظالم تجاه الأنبياء كافيا لأن يرى الله تعالى.. حسب رأي المودودي.. أن النبوة كانت سببا لنُزول اللعنة أكثر من أن تكون سببا لنُزول الرحمة؟ ولو كان الأمـــر كذلـــك حقا.. فلماذا أرسل الله نوحا ولوطا وإبراهيم؟ ألم يكن الكفـــر بهم سببا في نزول اللعنة على أقوامهم؟ وباستثناء القلة النادرة التي آمنـــت بهم.. ألم يُدمّرهم الله تعالى ويقض عليهم ويمح وجودهم من على وجه الأرض؟ وبرغم كل هذا فإن هذه الفكرة العجيبة التي خطرت على بـــال المودودي لم تخطر على بال الله عز وعلا. فهل كان السبب هو أن عقل المودودي هو الذي اخترع هذه الأسطورة ونسبها بسخافتها إلى الله

تعـــالى؟ إن هذا التخلف العقلي في الاستنتاج لهو خليق فقط بالأطفال لا بالرجال العاقلين. لقد ظل الله تعالى يرسل النبي بعد النبي رغم أن الإنسان المـــتعجرف ظـــل يكفر بالنبي تلو النبي. وعلى هذا فإن اللعنة التي عمّت أولـــئك الذين كفروا بالأنبياء لا يمكن أن يكون سببها هو بعث الأنبياء، فإن اللوم يقع على الناس أنفسهم.

ومـــرة أخرى.. لو أن مبدأ المودودي هذا كان مقبولا في أية مرحلة زمنـــية، فلا بد أن يكون مقبولا في كل مرحلة زمنية منذ بعث آدم ﷺ ابتداءً. فخوفا من أن يكفر الناس بآدم، فتحل اللعنة عليهم، كان ينبغي ألا يبعـــث الله تعالى آدم على الإطلاق. وإذا كان المودودي يرى أن الخوف مـــن أن يكفر الناس بنبي من بين أتباع رسول الله.. يكون أقل منه مكانة وأدنى مقامـــا.. يعتـــبر سببا معقولا لانقطاع النبوة كلية، فإن نفس هذا الخـــوف كـــان ينبغي أن يكون سببا أقوى وأوْلى في عدم بعث الرسول الأرفع مكانة والأعظم مقاما ﷺ. ألم يكن ﷺ هو أعظم الأنبياء وأفضلهم قاطبة؟ بالطبع هو كذلك.. كما يشهد به العالم الإسلامي بأجمعه. وحيث إنـــه الأعظـــم بـــين الأنبياء، فلا شك أن الكفر به يستنْزل أكبر اللعنات وأشـــدها. فـــيا حسرة على المودودي.. الذي يبدو أنه قد نسي تماما أن معظـــم سكان العالم قد كفروا برسول الله عند بعثته، بل إن ثلاثة أرباع العـــالم اليوم لا يزالون ينكرونه ولا يصدقونه. وعلى أحسن تقدير.. فإن المؤمـــنين بالـــنبي ﷺ اليوم لا يزيدون عن ربع سكان العالم، ولكن.. هل إيمانهم بالنبي ﷺ يُعتبر إيمانا صادقا صحيحا يجعلهم في عداد المؤمنين حقا؟ إن المـــودودي نفسه يرى غير ذلك، بل إنه يرى إن من بين المليار مسلم الموجوديـــن الـــيوم.. هـــناك ٩٩٩ من كل ألف منهم مدانون من قبل المودودي بأنهم غير مسلمين، إذ يقول المودودي:

"إن في هـــذا المزيج الضخم مما يسمى بالمسلمين.. هناك ٩٩٩ من بين كـــل ألـــف لا يعرفون شيئا مطلقا عن الإسلام. وهم لا يستطيعون أن

يفرقوا بين الصواب والخطأ، ولا يمت سلوكهم الأخلاقي أو الفكري بأية صلة إلى الإسلام. فمن الأب إلى الابن، ومن الجد إلى الحفيد، قد ورثوا الاسم الإسلامي فقط، ولا أكثر من هذا".[٤]

ويبدو من وصف المودودي لأوضاع المسلمين عامة وما انتهت إليه الأمور أنه كان ينبغي على الله تعالى ألا يرسل رسولا ولا أن يُنْزل كتابا، حتى لا يكون عباده المساكين موضعا للعنته المستمرة، أو محلا لنُزول سخطه وغضبه الدائم عليهم.

ومع ذلك فإن المودودي يؤمن بوجود المبرر الكافي لله تعالى في إرسال جميع أنبيائه منذ زمن آدم عليه السلام إلى زمن أفضلهم وأعظمهم ﷺ. فإذا كان الكفر بأي منهم قد استنْزل اللعنة على الكافرين، فما هو الضرر الفادح الذي يحل بالإنسانية إذا أضيف إلى قائمة الأنبياء نبي آخر؟ إن هذا التناقض الواضح في عبارات المودودي وفلسفته يصير أشد قبحا حين يتبين أنه هو نفسه كان يؤمن بعودة المسيح عليه السلام نبيا من الله تعالى!

فإذا بعث الله تعالى نبيا بغير شريعة.. من بين المسلمين أنفسهم.. بدلا من عودة عيسى عليه السلام الذي بعثه الله تعالى في قديم الزمان نبيا إلى بني إسرائيل، فكيف تُغير بعثة النبي الجديد هذه السُّنة الأزلية في استنْزال اللعنة على الكافرين؟ ولماذا تكون بعثة هذا النبي الجديد وحده هي محل الاعتراض خوفا من نزول اللعنة، بينما كان الكفر بأي نبي من بين جميع الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى منذ زمن آدم عليه السلام.. سببا لاستمرار نُزول اللعنة على الكافرين؟

المـــــــــراجع

1. KAUFMANN, W. (1976) *The Portable Nietzsche.* Penguin Books. England, p.197
2. KAUFMANN, W. (1976) *The Portable Nietzsche.* Penguin Books. England, p.198
3. KAUFMANN, W. (1976) *The Portable Nietzsche.* Penguin Books. England, p.370-375
4. MAUDOODI, SYED ABUL-A'ALA. *Musalmān Aur Maujoodah Siyasi Kashmakash.* 1st ed. Vol.III. Published by Maktabah Jama'at-i-Islāmi, Dār-ul-Islām, Jamālpur, Pathānkot, p.130

الفصل الثالث

عيسى عليه السلام وانقطاع النبوة

إن الإيمان بأن آخر الأنبياء.. محمدا ﷺ.. قد جاء وخلا، ثم الجزم بأن عيسى عليه السلام سوف ينْزل إلى الأرض نبيا من بعده، هو أمر شديد التناقض، ومــــن غـــير الممكن الجمع بين الأمرين معا. إن هذا الخلط بين أمرين غير مرتـــبطين بعضــــهما مع بعض.. في الواقع.. قد تم على أيدي بعض علماء العصــــور الوســـطى وبعض المتأخرين، أما في زمن نزول القرآن المجيد وأثناء حياة الرسول ﷺ فلم يخطر ببال أحد أن يربط بينهما.

ولعله من المناسب هنا أن نشرح الخلفية التاريخية لهذا الموضوع حتى يستطيع القارئ.. غير المطلع أو غير المسلم.. فهم ومتابعة الموضوع. إن الآية القرآنية الكريمة التي تصف الرسول ﷺ بكونه "خاتَم النبيين" هي إحدى الآيات الهامة في القرآن المجيد، وهي غنية بالعديد من المعاني، وتحتوي على الكثير من الدلالات الهامة. ولكن ليس في أي من هذه المعاني أو الدلالات ما يتعلق من قريب أو بعيد بالصعود المزعوم لعيسى عليه السلام إلى السماء. وهكذا فإن ادّعاء بعض كهنة الدين بأن عيسى عليه السلام قد رُفع إلى السماء الرابعة، بسبب أن هذه الآية، التي تدل في زعمهم على آخرية الرسول ﷺ، كان من المقدّر لها أن تنْزل من عند الله، لهو أمر باطل وبالغ السخف. فإن الصعود الجسدي المزعوم لعيسى عليه السلام إلى السماء لا علاقة لــــه البتة بآية خاتم النبيين، أو بأية آية أخرى في القرآن المجيد. إن الله تعالى لم يذكر قط رفع عيسى عليه السلام إلى السماء. والقرآن المجيد بأكمله.. والأحاديث الشريفة للرسول ﷺ.. تُنَزِّه الله تعالى عن هذا السخف حيث تخلو تماما من أية إشارة إلى رفع عيسى إلى السماء، فالرفع كان إلى الله تعالى وليس إلى السماء. وإنها لكذبة صفيقة ما يزعمه كهنة

الدين من أن الله تعالى رفع عيسى إلى السماء ليحل المشكلة الناجمة عن آية ''خاتم النبيين''، فهذا افتراء على القرآن المجيد لا أساس له من الصحة. إن أولئك الكهنة هم الذين خلقوا مشكلة، ثم أوجدوا لها حلا ونسبوه إلى الله تعالى. وإنه لعمل قبيح وبغيض حقا أن يربطوا هذا الخيال الذي توهموه بآية من أهم آيات القرآن المجيد. والأسباب التي دفعت كهنة عصور الظلام لهذا العمل.. وهذا الأسلوب الخادع الذي سلكوه في محاولاتهم للربط بين هذه الأمور غير المرتبطة على الإطلاق.. هي الموضوع الذي سنناقشه الآن. وبعد أن أصبح القارئ على علم بهذه الخلفية، نستطرد الآن في سرد حكاية التهافت اليائس لكهنة الدين. ونأمل أن يستوعب القارئ استيعابا كاملا ما سنوضحه.

بالرغم من أن الصعود المتخَيّل أو النُّزول المتصوّر لعيسى عليه السلام لا يرتبطان بتاتا بالإعلان المستقل تماما عن آخرية الرسول ﷺ، فإن فريقا من رجال الدين لا يزالون يصرون على أن هناك ترابطا لازما بين الأمرين، وأن المسيح عيسى بن مريم عليه السلام سوف ينْزل من السماء مرة أخرى، لأنه من المستحيل أن يُبعث نبي جديد بعد الرسول ﷺ. ولعل التحايل بإحضار نبي قديم إلى الأرض بدلا من بعثة نبي من الأمة للقيام بما تقتضيه الحاجة، قد يبدو حيلة بارعة ومكيدة محكمة، يقبلها البعض من المسلمين السلفيين المقلدين بحماس منقطع النظير، ولكن الإنسان العادي لا يستطيع أن يشاركهم هذا الحماس. فليس هناك من أحد لديه ذَرّة من الإدراك السليم والفكر السوي القويم يقبل أن ينسب هذا الخداع الرخيص والتحايل السقيم إلى الله العزيز الحكيم. إنهم كهنة الدين وحدهم هم الذين يستطيعون أن يقترفوا هذه الحماقة، وهذا بالضبط ما يحاولون القيام به. ولعلهم يظنون أنهم بربط موضوع عودة المسيح بموضوع آخرية الرسول، قد أنقذوا الله من ورطة الإعلان عن انقطاع النبوة قبل الأوان. وهكذا يظن كهنة الدين أنهم قاموا بتخليص الله من معضلة متشابكة من التناقضات. ولا

شك أن مثل هذه الآراء هي من بنات أفكار نفر من المولويين من ذوي أنصاف العقول التي يمكن أن تتمخض عنها مثل تلك الأفكار. أما أن يُنسب إلى الله تعالى، الذي هو بكل شيء عليم، أنه قد قرر أن يصف نبيا بأنه آخر الأنبياء، رغم علمه بضرورة مجيء نبي بعده، فهو أمر لا يمكن أن يتصَور عاقل صدوره عن الله.. سبحانه وتعالى عما يصفون. والتظاهر بالحفاظ على وعد الآخرية المزعوم، باستحضار نبي قديم، بعد وفاة الرسول الأخير، هو عبث مطلق لا يليق بشأن الله تعالى. وهكذا يحكم الْمُلا بحسب عقليته هو الملتوية، ومقاييسه الخرقاء، على أفعال الله تعالى. فهو أولا ينسب إلى الله عز وجل الوقوع في التناقض الفاضح، ثم يأتي هو بذكائه 'الغبي' لإنقاذه من هذا التناقض. ولكن هذه المحاولة الوقحة ليست بغير هدف، فهي بالنسبة للمُلا أو كاهن الدين فكرة عظيمة لها العديد من الفوائد.

فهذه المحاولة تنقذ عيسى من الموت المهين على الصليب، وتُخيِّب محاولات أعدائه في إثبات كذبه، ولنا أن نتصور مقدار سخطهم وغضبهم عندما يكتشفون أن عيسى عليه السلام قد هرب من بين مخالبهم واختفى في غلالة من الهواء (هذا إذا كان هناك أي هواء في السماء الرابعة التي يزعمون أنه صعد إليها). ولكن الملا بعقليته الفارغة لا يدرك أن هذا الإجراء قد خلق مشكلة أخرى أيضا.. هي متى يعود إلى الأرض ولماذا، إذ من غير المعقول أن يظل جالسا في معزله السماوي إلى يوم الدين. وبالنسبة لله تعالى فليس هناك أية مشكلة على الإطلاق، ولكن المشكلة هي لدى الملا الذي خلقها ليُخفي فيها تناقضه في الإيمان بالآخرية المطلقة للرسول صلى الله عليه وسلم، والإيمان أيضا في نفس الوقت بمجيء عيسى عليه السلام نبيا من بعده. وهذا هو السبب الوحيد الذي يدفعه لأن يربط بين آية خاتم النبيين، وبين ما تخيله من صعود عيسى عليه السلام إلى السماء. وهو يقوم بهذا الربط بأسلوب ماكر ومخادع.. لا يستطيع العامة من الناس كشفه، فهو

يصوغ رأيه بالشكل التالي:

١. إن عيسى عليه السلام قد صعد إلى السماء لسبب ما، وسوف ينْزل منها في النهاية إلى الأرض.

٢. إن مجيء نبي قديم بعد أن ظهر النبي الأخير لا يعد مناقضا لختم نبوته.

٣. إن الحاجة إلى وجود نبي في آخر الزمان سوف تتم تلبيتها دون حدوث معضلة أو تناقض في الحكم الإلهي.

هناك من يستطيع أن يقتل عصفورين بحجر واحد، ولكن يبدو أن كهنة الدين يريدون أن يقتلوا ثلاثة عصافير بحجر واحد. غير أنهم.. بنسبة تفكيرهم الملتوي هذا إلى الله تعالى.. فهم في واقع الأمر يعطون أنفسهم حق الحكم وتقرير الأمور بدلا من الله عز وجل.

ونحن نرى أنه بتلفيق هذه المغالطة المنافية للعقل، ونسج هذه الأقصوصة الخيالية، فإن أكبر ما يحققه كهنة الدين من مكاسب وفوائد، عدا غيرها من مكاسب، هو الهروب من أية سلطة إلهية يمكن أن تُفرض عليهم. فبالتخلص النهائي من مبدأ بقاء النبوة، وتثبيت مبدأ الآخرية المطلقة وانقطاع النبوة، فإنهم بذلك يضمنون ألا يفقدوا أبدا سلطتهم المطلقة على الجهلة من الجماهير وعامة الناس. وفكرة أن نبيا بلغ عمره حتى الآن أكثر من ألفي عام سوف يعود يوما ما، تشير ضمنيا إلى ضمان عدم مجيء نبي آخر مرة أخرى أبدا. وبالتالي.. فإن قبضة كهنة الدين سوف تستمر على عامة المسلمين الذين ينظرون إليهم نظرة الاحترام والتبجيل، وبذلك تتواصل سلطتهم الاستبدادية بغير انقطاع.

إن الموتى لا يعودون أبدا من العالم الآخر. فإذا غادروا هذا العالم فإنهم لا يعودون أبدا لزيارته مرة أخرى لكي يبدأوا في الاختلاط والتعامل مع الأحياء. ولم يحدث أبدا أن أعاد الله تعالى أحدا من العالم الآخر إلى هذا العالم مرة أخرى ليستأنف أمور حياته العادية. وعلى ذلك فإن أولئك الذين ينتظرون عودة عيسى عليه السلام قد يستمرون في انتظارهم هذا إلى الأبد، ولكنه

لن يعود أبدا مرة أخرى. وبإبقاء الأمل في عودته حيا لا يَفقد كهنة الدين زعامتهم وسلطاتهم على العالم الإسلامي. وهكذا يظل عامة الناس تحت رحمة كهنة الدين الذين لا يعرفون أية رحمة، ويظل الناس أسارى لأمل خادع.. هو عودة عيسى عليه السلام يحمل إليهم في يديه كأس ماء الحياة. وسوف يستمر الإسلام في المعاناة من الاضمحلال المطرد عاما بعد عام، وقرنا بعد قرن، طوال حكم وزعامة كهنة الدين.

وعند النظر مرة أخرى إلى موضوع عيسى عليه السلام مقابل موضوع الآخرية المطلقة للنبوة، نجد أن الحل الذي يقدمه كهنة الدين ليس حلا يمكن الدفاع عنه بأية حال. فاقتراض نبي قديم من أمة موسى عليه السلام لمعالجة متطلبات مختلفة تماما في الأمة الإسلامية في آخر الزمان، لا يمكن أن يكون فيه حل مشاكل هذه الأمة على الإطلاق. إذ لا يدرك كهنة الدين أن النبي المقترَض سيكون هو الذي ينتهك حرمة ختم نبوة الرسول ﷺ، وليس النبي الذي يولد في الأمة الإسلامية ويُبعث فيها ويكون بمنْزلة الابن الروحي لخاتم النبيين.

وبالإضافة إلى ما ذُكر فيما سبق، فإننا يجب أن نأخذ في الاعتبار أنه في سياق المناقشة الحالية، لا يمكن أن يحدد التعاقب الزماني وحده ما إذا كان نبي ما يُعتبر نبيا قديما أو جديدا. فإذا عاد نبي بنفس صفاته ونفس مهمته التي كان مكلّفا بها خلال مجيئه الأول، فحينئذ يمكن بالطبع اعتبار أن عودته الثانية هي استمرار لمهمته الأولى أو إعادة لمجيئه الأول. ولكن إذا حدث أنه قد تغير تغييرا شاملا فيما يتعلق بصفاته الجسدية، وفيما يتعلق باستعداداته، وأيضا فيما يختص بسلوكه تجاه أعدائه ومخالفيه، فلا يمكن اعتباره نبيا قديما عاد مرة أخرى. أضف إلى كل هذا أن المقام الروحي الذي سوف يشغله، والرسالة التي سوف يكون مكلفا بتبليغها، والمعجزات التي سوف تتم على يديه، والسُّلطة التي سوف تكون لــه على الناس كافة، كلها تختلف اختلافا كاملا عما كان عليه عيسى عليه السلام الذي أنزل الله عليه الإنجيل.

ومن المفيد أن نذكر هنا أن عيسى الذي وعد الرسول ﷺ بمجيئه يختلف في هويته وصفاته اختلافا كاملا عن عيسى السابق، فعيسى الموعود به لن يكون رسولا إلى بني إسرائيل، وهو لن يكون خاضعا كما كان لأحكام التوراة، ولا لتعاليم الإنجيل الذي جاء به من قبل، ولن تكون مهمته محصورة في بني إسرائيل وحدهم كما كان في السابق. فإذا أصر كهنة الدين بعد كل هذا أنه سوف يكون هو نفسه عيسى النبي الإسرائيلي، فعليهم أن يقروا بأنه لا بد من إعادة تكوينه وتكليفه في جميع العناصر الأساسية من نبوته، قبل مجيئه إلى الأرض مرة أخرى. وإن لم يُعتبر هذا مجيء جديد لنبي جديد، فماذا يكون؟ إن أحدا من كهنة الدين لا يمكن أن يتصور مجيء نبي كهذا في الأمة الإسلامية دون أن يؤثر ذلك على مبدأ الآخرية المطلقة للنبوة. وعلى هذا فليس أمامهم سوى أن يؤمنوا بأن عيسى سوف يعود إلى الأرض بدون حدوث أي تغيير فيه. حتى إذا ما جاء فسوف يُطعَّم بشجرة الإسلام، ثم يبدأ نموه مرة أخرى كمصلح جديد، مما يجعله مستحقا لأن يكون نبيا مسلما ومرسلا للناس كافة، وأن تشمل رسالته العالم بأجمعه. وحتى في هذه الحالة فسوف يبقى عيسى عليه السلام غريبا على الإسلام غير قادر على التخلي عن هويته الإسرائيلية. إن حالته هذه ستكون كالبرعم الذي ينتمي إلى شجرة معينة ويُراد تطعيمه مع شجرة مختلفة ومن نوعية أخرى. فإذا أمكن تطعيم شجرة الموز بشجرة البرتقال، أو أمكن تطعيم شجرة البطيخ بشجرة التوت، فربما يمكن حينئذ تصوّر تطعيم شجرة الأمة الإسلامية بنبي ينتمي إلى أمة أخرى من قبل الإسلام، ولكن بلا جدوى.. فإن نبيا من الأمة الإسرائيلية، حتى ولو أمكن ربطه بالشجرة المحمدية الإسلامية، سوف يظل نبيا من الأمة الإسرائيلية.

وعلى هذا.. وحتى لو أمكن انتقال عيسى عليه السلام فعلا إلى عالم الإسلام، فمن المستحيل عليه أن يغير من تعريفه الحقيقي ومن أصله الفعلي. فما زال القرآن الكريم يصرح بكونه نبيا لبني إسرائيل، ويمكن لأي مسلم أن

يتحدى دعوته على أساس هذا التخصيص القرآني وحده، وسوف يرفض الناس قبوله أو الإيمان به، وسوف يعترضون على دعوته إياهم، وسوف يسائلونه بأي حق يلغي هذا النص القرآني الذي يقرر أنه ليس سوى نبيا إلى بني إسرائيل وحسب. وما دام القرآن المجيد يحدده ويحصره في أمة بني إسرائيل، فإن تعريفه لا يمكن أن يتغير. فإنه كان.. وسوف يظل.. رسولا إلى بني إسرائيل فقط. يقول تعالى عنه في كتابه العزيز:

﴿... وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٣ آل عمران:٥٠)

إننا نعيش في عصر استطاع فيه الأصوليون المتطرفون أن يثيروا مشاعر العامة من الناس، خاصة حول موضوع التكفير. ومن الواضح أن عيسى عليه السلام لو عاد إلى هذا العالم، فإن حياته سوف تكون في خطر أشد بسبب هؤلاء المتطرفين.. أكثر مما كان وهو في أيدي اليهود. كذلك فإنه سوف يواجه أخطارا جديدة لم يواجهها من قبل خلال زيارته الأولى. فإن العالم الإسلامي اليوم منقسم إلى فرق ومذاهب.. بعضها لا يعرف معنى التعايش السلمي مع غيرها، أشد مما كان عليه حال الأمة اليهودية في الزمن الماضي.

إن الخطر على حياته سيكون شديدا ومُريعا حيثما نزل في أي دولة إسلامية، هذا بافتراض أنه نزل. فإذا افترضنا أن مهبطه سيكون في إيران، فمن الواضح أنه سيخضع لاختبار عصيب، وتحقيق رهيب، فيما يتعلق بموقفه العقائدي. فهل يؤمن يا ترى بالأئمة الاثني عشر أم أنه لا يقيم لهم وزنا؟ وهل يؤمن بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان أم أنه يَكفر بهم ويُكفّرهم؟ هل يؤمن بولاية الإمام عليّ المتواصلة بعد الرسول ﷺ بغير انقطاع؟ حتى وإن كانت جميع إجاباته على هذه الأسئلة تتفق مع عقائد الشيعة، فلن يمكنه أن يتفادى الخطر المحدق بحياته بعد، وذلك بسبب مشكلة اختفاء الإمام الثاني عشر الذي تؤمن الشيعة بأنه المهدي المنتظر.

وسوف يُتهم عيسى اتهاما سافرا بأنه مدّع كذاب، لأنهم يعتقدون أن عيسى الحقيقي لن ينْزل قبل أن يظهر الإمام المهدي.. إمام الشيعة المقدس، الذي لا يزال مختفيا في مكان ما. وبغير أن يشهد الإمام المهدي على صدق ذلك الذي يدّعي بأنه عيسى، فلا بد من وصمه بالكذب ومُعاقَبته على ادعائه الكاذب بالنبوة.

فإذا تبين أنه يؤيد حق الخلفاء الثلاثة.. أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم.. في الخلافة، فإن إدانته سوف تكون أشد وذنبه أكبر، وسوف يُحكم عليه فورا بالكذب وادّعاء النبوة، وفي هذه الحالة يكون موضوع الحكم عليه بالموت هو مجرد اتخاذ بعض الإجراءات الشكلية التي يقتضيها إصدار فتوى حسب قوانين الشيعة.

أما إذا حدث أنه نزل من السماء في منطقة تخضع لأهل السُّنة بينما كان هو يؤمن بما تؤمن به الشيعة، فإن أهل السُّنة سوف يبعثون بروحه إلى السماء بنفس السرعة التي نزل بها. أما إن لم يكن يؤمن بعقائد أهل الشيعة، فإن حياته لن تكون بعد في مأمن من الخطر، فهناك العديد من الفرق والمذاهب التي تُكفّر بعضها بعضا بين أهل السُّنة، وسوف تطالبه كل فرقة أن يؤيد عقائدها ويعضد ما تؤمن به، وإلا فسوف ترى فيه كذابا مدّعيا للنبوة. ومن الصعب التصور أن يأتي عيسى مؤيدا لعقائد البريلويين أو أن يأتي كوهابي من الأصوليين.. إذا حدث أن هبط في بلد ينتمي إلى إحدى الطائفتين. وسوف يظل التساؤل يلاحقه.. إلى أي من الطائفتين سوف ينحاز؟ وفي أية حال من الحالتين.. سيكون الاختيار بمنْزلة استصدار فتوى بهدر دمه وقتله من علماء الفرقة الأخرى.

ولن يكون هدر دمه هذا بسبب انتمائه إلى فرقة مغايرة فحسب، وإنما سيكون بسبب افترائه على الله كذبا وادعائه الكاذب بأنه نبي من عند الله تعالى، وسوف تكون حجتهم في ذلك أن النبي الصادق لا يمكن أن يحمل عقائد دينية خاطئة. فكل فرقة وكل طائفة سوف تحكم عليه وفق

معتقداتها الخاصة، ولن تقبل أية طائفة منهم أن يحكم هو على خطأ معتقداتها.

كذلك سوف تكون هناك معضلة أخرى.. إذ سوف ينشأ سؤال هام.. أي مذهب من المذاهب الفقهية سيتبنى؟ هل يتبع فقه الإمام مالك أم فقه الإمام أبي حنيفة؟ وهل يؤيد صحة فقه الإمام الشافعي أم يأخذ بفقه الإمام أحمد بن حنبل؟ وحيث إنه لم تكن لــه خبرة سابقة بهذه النِّزاعات الفقهية، فإنه سيجد نفسه حائرا في خضم هذه التعقيدات. ولعله يتمنى في تلك الأثناء لو أنه لم يعد أبدا مرة أخرى إلى هذه الأرض الظالم أهلها! وحتى لو أنه كان مقبولا من الفرقة التي يرتضي أن يلتحف بردائها، فإنه سيكون مرفوضا من الإحدى والسبعين فرقة الباقية. وبالإضافة إلى كل هذا.. ألن يكون دائما وأبدا محلا للرفض والاعتراض من الجميع بناء على الآية الكريمة المذكورة فيما سبق والتي تُقرر وتُؤكد على أنه ليس إلا رسولا لبني إسرائيل؟

ولعل بعض المتطرفين من معارضيه سوف يصيح في وجهه قائلا: 'اذهب إلى حيث مكانك الذي تنتمي إليه، فعليك أن تحلق مرة أخرى في الفضاء، ثم تعدل مكان هبوطك لتنْزل في إسرائيل'. وقد يتحداه بعض الدهماء ويصرخ أحدهم في وجهه قائلا: 'إن كنت رجلا حقا ولا تخشى أن تواجه محاكمة جديدة، فعد إلى اليهود وبرهن على صدق دعواك وعلى شخصيتك الحقيقية'.

وإن المرء ليتساءل.. ماذا يفعل الله تعالى هذه المرة حين تنحى الأمور هذا المنحى.. هل يسارع بإرسال الملائكة لينقذوا عيسى عليه السلام ويرفعوه مرة أخرى إلى منْزله السماوي، أم يتركه سبحانه ليواجه مصيره بنفسه على أيدي كهنة الدين من المسلمين أو اليهود المتعصبين؟ وهل سيقوم الجنود الإسرائيليون بصلبه مرة أخرى في إسرائيل أم أنه سوف يلقى الموت على يد جلاد مسلم؟ هذا هو السؤال الذي سوف يجيب عليه المستقبل فقط، إذا

حدث أن عاد مرة أخرى ليزور هذا العالم الذي نعيش فيه. لقد كانت المهمة التي قام بها في زيارته الأولى يسيرة سهلة بالمقارنة مع المهمة الصعبة التي ينبغي عليه أن يقوم بها في زيارته الثانية، والتي ستكون بحق مهمة مستحيلة.

أما إذا انتحينا منحًى أكثر جدية، فإننّا نود أن نُذَكر القارئ بأنه حينما يتم تفسير الدين بعيدا عن العقلانية، وحين تبتعد العقائد عن العقل والمنطق، فإن كل ما يتوَلد من ذلك هو خرافات وأساطير لا أساس لها. إن الأوصياء والقائمين على أمور الدين.. إذا افتقروا إلى العقلانية.. فإنهم لا ينجحون إلا في تحويل الحكمة الإلهية إلى مهزلة بائسة.

إن العلماء العظام الذين كانوا يعيشون في العصور الوسطى، الذين اجتهدوا بقدر جهدهم وكل طاقاتهم، ولكنهم أخطئوا في فهم المعنى الحقيقي لمثل هذه النبوءات، لهم العذر والمغفرة، فإن العالم الذي كانوا يعيشون فيه يختلف عن عالم اليوم، وكان تصورهم لذلك العالم وإدراكهم للكون الذي يحيط به يقوم على الوهم والخيال. ولكن كهنة الدين المعاصرين الذين يعيشون بعقلية العصور الوسطى، رغم أنهم يعيشون في عالم اليوم، الذي يُعتبر عالم التنوير والعلوم والمعارف، لا عذر لهم في فهم معنى هذه النبوءات بصورة خاطئة . فلا شك أن روح عيسى عليه السلام الذي كان نبيا وعبدا مخلصا من عباد الله المخلصين.. قد انتقلت إلى بارئها في الدار الآخرة لتشغل مقامها في عليين مع النبيين، أما تلك الشخصية التي ينسبونها إلى عيسى عليه السلام فليست في الحقيقة سوى شبح من خيال لا يوجد إلا في عقولهم السقيمة. فهل يهتم أحد لو أن شخصية خيالية صُلبت أو قُتلت أو شُنقت ولو ألف مرة. إن الفكرة برمتها للصعود المادي بالجسد العنصري إلى مكان ما في الفضاء، والانتظار هناك معطلا عن القيام بعمل نافع.. إلى ما بعد مرور ألوف من السنين.. ليقوم بمهمة ما في المستقبل حين تبرز الحاجة إلى مجيء نبي.. هي فكرة تستفز العقل

السليم وتتحدى الحس القويم. فإذا أضفنا إلى كل هذا سفاهة نسبة كل هذا السخف إلى الله تعالى.. يكون من حقنا أن نتساءل من أي شيء رُكِّبت عقولهم.

عسى أن يتمكن العالم الإسلامي من التخلص نهائيا من هذه الخرافات، ولينصرف هؤلاء المتكهنون الذين أتوا بها، فإن في انقضاء عصرهم حياة الإسلام، وفي نهاية أجلهم بداية لرقي الدين الحق.

وأخيرا.. وليس آخرا.. هناك أيضا اعتراض قوي على فكرة أنه من الممكن إدخال بعض التعديلات على نبي من الأمة الإسرائيلية لكي يصلح لأن يقوم بدور نبي في الأمة الإسلامية. فهل نسي كهنة الدين أنه خلال غياب عيسى عليه السلام عن الأرض، لم ينْزل الله تعالى القرآن المجيد على الرسول ﷺ وعلى عيسى عليه السلام في نفس الوقت. وحين النظر إلى الأمر من هذه الزاوية، فإن الكثير من الأسئلة العويصة ستبرز لرجال الدين، وينبغي عليهم أن يقدموا لها إجابات شافية. وأهم هذه الأسئلة ما يتعلق بموضوع دخول عيسى في الدين الإسلامي. والسؤال هنا هو متى علم عيسى عليه السلام خلال غيابه عن الأرض أن أعظم الأنبياء صاحب خاتمة الشرائع قد ظهر على الأرض وممن علم؟ وهو بالطبع كان يشهد بأن لا إله إلا الله، فهل شهد في ذلك الحين أيضا بأن محمدا رسول الله، وصار بذلك فردا من الأمة الإسلامية؟ وإذا كان قد صار مسلما فكيف تعلّم ممارسة الشعائر الإسلامية، وهو لا يعلم شيئا من القرآن ولا من سُنة الرسول ﷺ؟

كذلك فإن السؤال الهام والحاسم الذي ينبغي الإجابة عليه، هو هل أُنزل القرآن أيضا على عيسى عليه السلام مباشرة من الله تعالى عن طريق جبريل عليه السلام أم لا؟

فإذا كان القرآن المجيد قد أُنزل علي عيسى بينما كان لا يزال يعيش في الفضاء، فلا شك أنه يُعتبر شريكا للرسول ﷺ ويشغل نفس مكانته، كما كان هارون من موسى عليهما السلام اللذان كانا يحتلان المكانة نفسها

تقريبا، وإن لم يُنَزل عليه القرآن أثناء غيبته عن الأرض، فما عساها تكون طبيعة إيمانه قبل عودته إلى الأرض؟ هل سيكون دينه خليطا من اليهودية والنصرانية في حين قد تم التصريح عن الإسلام أنه هو الدين الأخير وللبشر كافة؟ وهل يا ترى استثناه الله تعالى من الإيمان بشريعة محمد ﷺ وسمح له بأن يظل غير مسلم بعد بعثة الرسول ﷺ؟ وإن لم يكن الأمر كذلك.. فمن الواجب الإقرار بالنتيجة المنطقية بأنه لا بد أن يكون القرآن قد أُنزل عليه بطريقة ما. وهذا يعتبر مناقضا ومخالفا لنص القرآن نفسه الذي نص على أنه قد ﴿نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّد﴾.

فهل يقول كهنة الدين إن الرسول ﷺ هو الذي قام بتبليغ القرآن إلى عيسى عليه السلام بدلا من أن يكون جبريل هو الذي أنزله عليه؟ في هذه الحالة تواجهنا مشكلة أخرى، وهي أن النبي ﷺ كان يقوم بتبليغ صحابته شريعة القرآن، ولم يكن هناك من وسيط بينه وبينهم. وكل ما قام جبريل بإنزاله عليه قام هو بتبليغه مباشرة إلى صحابته، ولكن عيسى عليه السلام، كما يقول كهنة الدين في العصور الوسطى، كان جالسا هناك في مكان ما في السماوات، ولم تكن هناك أية وسيلة اتصال مباشرة بينه وبين الرسول ﷺ. وعلى ذلك لا يتبقى لدينا سوى احتمالان لا ثالث لهما: إما أنه كان على غير علم بتاتا برسالة القرآن إلى حين عودته الأخيرة إلى الأرض؛ أو أن النبي ﷺ كان يبلغه القرآن عن طريق الرسائل. ولكن كيف يمكن توصيل الرسائل إليه وهو جالس في مقره السماوي، إلا إذا كان جبريل عليه السلام هو الذي قام بهذه المهمة؟ غير أن المشهد الذي ينتج عن هذا الافتراض من السخف بشكل لا يمكن لأي مؤمن صادق أن يقبله ولو للحظة واحدة. إذ كيف يمكن أن يتصور أحد أنه حين يأتي جبريل عليه السلام ببعض الآيات القرآنية ويعلمها للرسول ﷺ، فإن جبريل يطلب منه أن يعيد عليه قراءة هذه الآيات حتى يقوم بتبليغها إلى عيسى عليه السلام، حتى تكون الرسالة من محمد ﷺ ولا تكون من الله تعالى مباشرة؟

وعودة إلى موضوع اعتناق عيسى ﷺ للإسلام.. فبما أن القرآن لم يُنَزّل قط على عيسى ﷺ، ولو افترضنا أنه آمن بالرسول ﷺ بطريقة غير معروفة، وهكذا يكون قد جاء مبشرا بالإسلام وهو لا يعرف شيئا عن تعاليم الشريعة الإسلامية، ولم يمارس شيئا من شعائر الدين، فيمكن اعتباره في أحسن الأحوال مسلما غير ملتزم.. الأمر الذي قد يُشعر العامة من جمهور المسلمين في أي مكان في العالم بأنهم أفضل منه إسلاما رغم جهلهم. فكيف يَصلح شخص مثل هذا لأن يكون نبيا يحتفي به العلماء والفقهاء في الأمة الإسلامية عند عودته إلى الأرض؟ وهل يا ترى سوف يذهب إلى الإمام المهدي بسرعة لكي يبايعه ويتعلم منه ليتلافَى هذا النقص؟ أم أنه بمجرد دخوله في الإسلام سوف يجلس على كرسي الحكم ليكون هو الحكَم الذي يفصل بين الفرق والطوائف والمذاهب الإسلامية؟ ومتى ستتاح له الفرصة لتعلم شريعة الإسلام، ومن الذي سيقوم بتعليمها إياه بسرعة بالغة حتى يمكن له القيام بالمسؤوليات الملقاة على عاتقه بالدقة المطلوبة؟

وإذا كان كهنة الدين يصرون على أن الله تعالى قد فوضه ليكون نبيا مسلما عندما كان لا يزال في السماء قبل نزوله إلى الأرض، فكيف يمكن اعتباره نبيا قديما من عهد ما قبل الإسلام؟

وخلاصة القول.. إن اقتراض نبي من عهد ما قبل الإسلام يقتضي إما أن يكون عيسى ﷺ قد تم تفويضه كنبي مسلم جديد وهو في السماء بعد مجيء المصطفى ﷺ، النبي الأخير، أو أنه يكون قد دخل في الإسلام بعد نزوله إلى الأرض، وبعدئذ تم تفويضه ليكون نبيا مسلما.

إن هذه الفكرة شاذة وغريبة بما تحمله من تناقضات، ومن السهل أن يرى الناس عامة أنها خالية تماما من أي منطق، وعارية كلية من أية عقلانية، ومع ذلك فإن كهنة الدين لا يعيرون ذلك أية أهمية، إذ يبدو أن العقلانية والمنطق لا أثر لهما في كيفية فهمهم للنبوءات الدينية. فهم

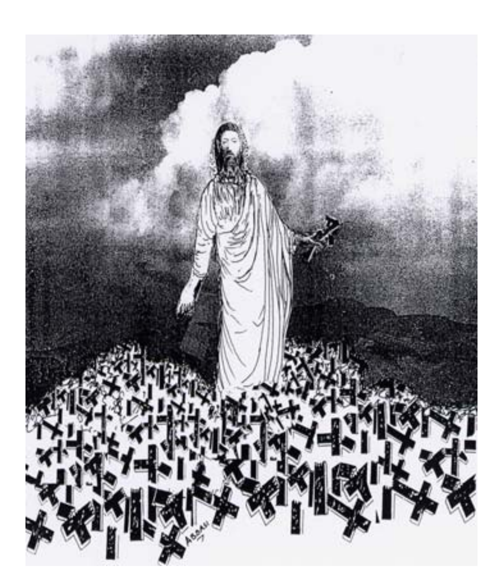
يفهمون تلك النبوءات بشكل حرفي بغير أن يدركوا مدى الإساءة والضرر الذي تسببه هذه الحرفية للإسلام. إن هذا الجنون هو السبب في الخلط والتشويش الذي نراه اليوم مهيمنا على مفاهيم الناس وآمالهم وتطلعاتهم.

يتضح من كل سبق أن فكرة اقتراض نبي يتبع شريعة غير الشريعة الإسلامية، ويأتي من عهد ما قبل الإسلام لا تجدي نفعا لكهنة الدين. ولا معنى لإصرارهم العنيد على تفضيلهم اقتراض نبي قديم من الأمة الإسرائيلية.. يأتون به من السماء إلى الأرض.. ويدخلونه في دين الإسلام، بدلا من أن يولد نبي في الأمة الإسلامية يكون من أتباع محمد ﷺ. غير أنهم يفعلون ذلك لأنهم يرون الكثير من الفوائد لهم في هذه الأقصوصة التي نسجها خيالهم عن زيارة عيسى عليه السلام إلى الأرض. فهو باعتبار أنه زائر من الفضاء.. فلن يكون نفس النبي الإنسان كما كان أثناء وجوده في الدنيا، ولكنه سيتمتع بقوى الإنسان الخارق، والتي لم يسمع بها أحد في تاريخ النبوة والأنبياء قبل عودته التي يتخيلونها إلى الأرض.

هذه الصورة الأسطورية لعيسى عليه السلام قد خلقتها نزعتهم إلى التفسير الحرفي للنبوءات الدينية. ومن الواضح أنهم لم يكترثوا بالثمن الفادح لحماقة ضربهم بالعقلانية والمنطق عرض الحائط. فقد نسبوا إلى عيسى عليه السلام مهمة إنقاذ ما بقي من شرف وكرامة للإسلام في آخر الزمان، وهم يؤمنون بأنه هو الذي سوف يقوم وحده بشن حرب واسعة النطاق ضد المسيح الدجال على النطاق العالمي، وبعد أن يحصره ويهزمه ويقتله.. ذلك المسخ المشوه الأعور.. فإنه سوف يمنح مقاليد الأمور ومفاتح السلطة والسلطان للمسلمين، ويقسم بينهم خزائن وكنوز الأرض التي يكون قد استولى عليها. وهكذا.. فإنه سوف يلقي بكل غنائم الحرب التي شنها ضد المسيح الدجال تحت أقدام المسلمين.

وبعد أن يحل جميع المشاكل السياسية والاقتصادية للمسلمين ويزيلها،

فإنه سوف يوَجه أنظاره ويصرف كامل جهده في تحقيق النبوءات الخاصة بالدين. فهو سيبدأ بشن حرب من نوع جديد ضد المسيحية، وسوف تكون استراتيجيته في هذه الحرب هي أن يقوم بكسر الصليب.. كل صليب في العالم.. مهما كانت المادة التي صُنع منها. سوف يقوم بزيارة إلى كل كاتدرائية، وكل دير، وكل كنيسة، وكل معبد، وكل صومعة مسيحية، وسوف يمشي في كل طريق، في كل مدينة، في كل ولاية،



التصور التقليدي لعودة المسيح عندما يقوم حرفيا بكسر الصلبان في العالم

في كل قطر من أقطار العالم كله، محدّقا في كل من يقابله من المارين، باحثا عن كل صليب. وسوف تكون النساء على رأس قائمة المشتبه بهم، فهو يعلم ما تعودت عليه النساء من نقش الصليب على حليهن ومجوهراتهن، بالإضافة طبعا إلى أنهن يعلقن صلبانا على صدورهن وحول رقابهن، ولذلك سوف ينتزع كل سوار وكل خلخال وكل ما يتدلى من العنق أو الأذن مما يكون على شكل الصليب أو يحمل نقشه. والويل كل الويل للنساء اللاتي يوقعهن حظهن العاثر في طريق عيسى، ولكن أين يمكن لهن أن يهربن أو يختبئن.. هؤلاء البائسات المسكينات؟ إنه سيدخل كل بيت، ويبحث في كل خزانة، وفي كل صندوق للمجوهرات والمصوغات، وسوف يخضع كل حائط وكل ركن لفحصه الدقيق فهو لا بد أن يقوم بكسر كل صليب على وجه الأرض تنفيذا للتفسير الحرفي الذي يفهم كهنة الدين به ما جاء في هذا الخصوص من نبوءات. وهو لن

يهدأ ولن يستريح قبل أن يُتم هذا العمل ويُزيل كل صليب من على وجه البسيطة. هذه هي الرؤية التي يرى بها كهنة الدين مهمة المسيح عندما يعود إلى الأرض.. طبعا إذا حدث أن عاد إلى الأرض. ولكن ليس هذا فقط كل ما في الأمر.

فبعد أن ينتهي المسيح تماما من تكسير وتحطيم رمز التثليث، سوف يوجه جميع جهوده لتحقيق مهمة أخرى تخصه بها النبوءات التي جاءت في الأحاديث النبوية.. إذا أُخذت بمعناها الحرفي. فهو لن يدع أية لحظة تضيع منه بغير أن يبدأ بقتل كل من هو غير مسلم من سكان العالم، فإما أن يدخلوا في دين الإسلام أو يكون الموت هو الجزاء الأوفى لهم، وليس لأحد من خيار سوى هذين الخيارين. وهو سيقوم بمهمة القتل هذه بطريقة غريبة وعجيبة، إنه سوف ينفخ ريح نَفَسه على كل كافر.. فيخرج هذا الزفير كما تخرج النيران من فم التنين الضخم كما جاء في الأساطير، مع أن الأساطير لم تذكر مثل هذا النبي من قبل بتاتا.. حتى في أغرب أقاصيص الأساطير الخيالية. وسوف تحرق النيران المنبعثة من ريح نَفَسه ما لا يمكن عدّه ولا حصره من الكفار، حتى ولو كانوا على بعد أميال منه. أما هؤلاء الذين يكونون في نطاق سيفه فإن رؤوسهم سوف تُضرب وتُقطع رقابهم. وهو يستطيع بدون أية صعوبة أن يميز كل كافر لأنه مكتوب على جبينه كلمة "كافر" بحروف واضحة. وهو بذلك لن يترك أحدا على قيد الحياة سوى المسلمين والمسيحيين الذين فقدوا مسيحيتهم بالطبع فلم يعد لهم صليب واحد يتعبدون به. وبذلك سوف يُسدل الستار على هذه المذبحة الفريدة التي يقوم بها هذا المسيح الخيالي، كما يتصور كهنة الدين. وسوف يمتلئ العالم برائحة نتنة، وتزكم الأنوف رائحة الأجساد العفنة التي ذُبح بعضها واحترق بعضها. وهكذا تخلق الكراهية مزيدا من الكراهية، ويؤدي سفك الدماء إلى المزيد من سفك الدماء.

أما آخر الأعمال الدموية التي من المفروض أن يقوم بها المسيح ﷺ، حسب التفسير الحرفي، فهو يتعلق بقتل كل أنواع الخنْزير. فلن يترك عيسى ﷺ أية بقعة من الأرض لتعيش فيها الخنازير، إذ يجب أن يعمل السيف عمله فيها وفي صغارها، ولا يترك منها رأسا ولا عنقا. فبالسيف القاطع في اليد.. وبالنيران الحارقة في النَّفَس.. سوف يزور عيسى ﷺ كل بلد، وكل مدينة، وكل قرية، وكل طريق، وكل منْزل، وكل كوخ، وكل مزرعة، وكل زريبة، بحثا عن مخابئ هذه الأوغاد. سوف يذهب إلى كل بريّة، وإلى كل غابة، ويجول في أحراش أفريقيا، ويبحث عنها في الغابات المطيرة بأمريكا الجنوبية، ولن تنجو الصين ولا اليابان من هذه الحملة، وسوف يقوم بتمشيط الجزر الجنوبية في المحيط الباسيفيكي حيث يعتبر لحم الخنْزير من الأكلات الشعبية.

صورة المسيح كما تخيلها الرسامون المسيحيون، وهو كما تخيّله المسلمون التقليديون يمسك بسيف في يده أثناء قيامه بمذبحة الخنازير

ومن الواضح بالطبع أنه لم يحدث في تاريخ الإنسانية كلها أن قام نبي بمثل هذه البطولات الدموية القذرة كما يُنسب إلى عيسى ﷺ حسب ما يراه كهنة الدين. فهذا هو ما يمكن أن ينتج عن التفسير الحرفي للأحاديث الشريفة التي نطق بها أبلغ البلغاء وأحكم الحكماء.. ومما يؤسف له أنهم لم يستطيعوا تجاوز جمود الحرف للوصول إلى المعاني الحقيقية التي تحتويها هذه النبوءات.

وفي حقيقة الأمر.. إن المعنى الحقيقي لنبوءة قتل الخنْزير هو القيام بتطهير

المجتمع الإنساني من السلوكيات غير الإنسانية وبعض العادات الخبيثة التي يرمز لها الخنْزير. هناك الكثير من الحيوانات والطيور التي تسرق ثمار عمل الفلاح في حقله من أجل الحفاظ على حياتها، ولكنها لا تقوم بتدمير وتخريب الأشجار والمحاصيل لمجرد اللهو. غير أن الخنازير تمتاز وحدها دون جميع الحيوانات الأخرى في ميولها التخريبية. كذلك فإن الخنازير معروفة بطبعها السيئ للخنازير في أكل جثث صغارها الميتة، ولا يوجد حيوان آخر غير الحيوانات البحرية لها هذا الطبع. إن الأسد الذي يترصّد فريسته، والذئب المتوحش، يفضل أن يموت جوعا، ويظل قابعا بجوار صغاره الميتة، دون أن يمر بخاطره أن يلتهم لحومها. والكلاب أيضا لا تأكل جثث صغارها الميتة. ورغم أن الخنازير.. المستأنسة منها والبرية.. هي من الحيوانات آكلة الأعشاب، إلا أنها تستمتع كثيرا بالتهام أجساد صغارها، إشباعا لغريزة دنيئة فيها. وعلى هذا يكون من الواضح أن الرسالة التي تتضمنها نبوءات الرسول ﷺ في أحاديثه الشريفة عن قتل الخنْزير تعني أن ذلك المسيح الموعود سوف يشن حربا مقدسة ضد الغرائز الدنيئة التي تستولي على الإنسان، وتدفعه إلى ارتكاب جرائم الإبادة البشرية على نطاق واسع، وعمليات القتل الجماعي، والتصرف بغير رادع من ضمير أو مبادئ أخلاقية.. مغتصبا حقوق الضعفاء من البشر. إن عادة الخنْزير في أكل صغاره يمكن أن تماثل الاستغلال السيئ للأطفال (child abuse) في العصور الحديثة. وسوء استغلال الأطفال.. جنسيا وغير ذلك.. يمكن أن يكون تجاه أطفال المرء أو أطفال الغير. وأيا كانت الحال.. فهي صفات خنْزيرية. وقد صار مؤخرا موضوع سوء استغلال الأطفال من الموضوعات الشائع بحثها في المجتمعات الحديثة، ولا يحتاج ذلك إلى تفصيل أكبر، وليس هناك من حيوان يمكن أن يتساوى مع البشر في هذه البشاعة.

إن شن الحرب ضد الشر كانت دائما هي مهمة الأنبياء. ولن يكون المسيح عليه السلام استثناء بين الأنبياء إذا فهمنا أن عودته الثانية ليست سوى

عودة مجازية. ولكن ذلك المسيح الذي ينتظره كهنة الدين بشكل حرفي.. قاتل الخنازير في القفار والبراري.. هو ذاك الذي يريدونه ويرحبون به. وفي اللحظة التي يصل فيها قُرة عيونهم هذا، ويبدأ مهمته في إبادة جميع أنواع الخنازير من عالم الحيوان، فإنه سيقابَل بالتصفيق والترحيب. وهكذا.. سوف يصفقون له ويلقون عليه قصائد المديح والثناء على أعماله البطولية في أيام مجده الأخيرة التي يقضيها على كوكب الأرض. أما الهتافات فسوف تنطلق عالية مدوية: "عاش المسيح.. عاش المسيح، بالروح.. بالدم.. نفديك يا مسيح". نعم سوف تُدوي هذه الهتافات فوق الأرض وفوق البحر، فوق التلال وفي الوديان. وقد لا تُقرع حينها أجراس الكنائس لتتناغم مع هتافات الجماهير، ولكن هتافات "الله أكبر.. الله أكبر.. عاش مخلصنا ومنقذنا عيسى المسيح" سوف تعلو فوق كل هتاف، وتطغى على كل صوت.

وأخيرا.. وقبل أن يغادر هذا المسيح الأرض للمرة الأخيرة، هناك عمل هام آخر لا بد من إنجازه، حتى يتم تحقيق جميع النبوءات التي قيلت في حقه، ولكنه في هذه المرة سيحتاج إلى المساعدة من كهنة الدين. فقد كان حتى الآن يقوم بتحقيق كل ما يتوقعونه منه، وحان الوقت الآن لكهنة الدين أن يقوموا بمساعدته ولو لمرة واحدة! إن كل ما سيطلبه المسيح من كهنة الدين.. بعد أن قام بغزواته العالمية.. هو أن يعاونوه على إتمام آخر عمل منوط به، وهو أن "يتزوج" لكي "يولد لــه". فبعد ما خلفه وراءه من تحطيم للصلبان، واغتيال للكفار، وتقتيل للخنْزير، سوف يكون الزواج أمرا محمودا يرحب به الجميع، لإحياء الأفراح.. والليالي الملاح.

وما دام كهنة الدين يرون ضرورة وحتمية التحقق الحرفي للنبوءات، فلا بد أن يبحثوا له عن عروس صغيرة لكي تُنجب لــه الصبيان والبنات، وتعيش معه في الثبات والنبات. وما دام المسيح على وشك الزواج فلا بد من "شيخ عظيم" يقوم بإلقاء خطبة النكاح، ويسأل والد العروس.. الذي

سيكون حما المسيح.. عما إذا كان يقبل تزويج ابنته لعيسى المسيح، وبعدما يرد بالإيجاب يقوم أيضا بسؤال عيسى كذلك لكي تتم إجراءات الزواج. فما أسعدها من لحظات فرح وسرور، وابتهاج وحبور! فبعد عزوف عن الزواج استمر لمدة تزيد عن ألفي عام.. جاءت اللحظة السعيدة أخيرا ليقف ويقول: "نعم يا شيخي الحبيب.. قبلت.. قبلت". وكيف يمكن الاحتفال بغزوات المسيح وانتصاراته بأسلوب أفضل من هذا؟ فمن الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، سوف تنطلق الزغاريد، ومعها أغاريد الابتهاج التي تملأ الأجواء بنغماتها العذبة. وكل ما تبقّى له هو أن ينتظر قدوم وليده البكر، الذي سوف يتبعه مجموعة متتالية من البنين والبنات. وهكذا.. بإنجابه الذرية بعد أن يكون عمره قد بلغ ألفي عام ونيف، يكون قد قام بأداء أعظم المعجزات من بين جميع المعجزات التي قام بها أو نُسبت إليه. لقد كانت روحه قوية صلبة بغير شك، ولكن يبدو أن الجسد أيضا لم يكن أقل قوة وفحولة. فيا لها من معجزة حقا.. أن يجعله مرور الوقت وانقضاء الزمن أكثر قوة وأصلب عودا، ويبدو أن العجز والوهن الذي يوصف به تقدم السن لم يصبه، بل ظل مدفونا في أرض شبابه منذ الزيارة الأولى. ثم أخيرا.. سوف تحل ساعة الفراق التي يأتي بها الموت، وياله من موت! فالسلام عليه يوم مولده، والسلام عليه يوم وفاته.

هذه هي حكاية المسيح التي.. لو تحققت.. سوف يظل كهنة الدين يقصونها على مسامع تلاميذهم في مدارسهم ومعاهدهم الدينية.. عاما بعد عام، وجيلا بعد جيل.

من الصعب حقا أن يجد المرء مثالا أشد بشاعة من هذا.. في تاريخ الأديان قاطبة.. عن الكيفية التي يتم بها تشويه النبوءات الإلهية بهذا الشكل المزري الفظيع، الذي قام به أولئك الذين فقدوا عقولهم من كهنة الدين سواء كانوا من المسلمين أو من غير المسلمين. فعندما وحيثما يتولى كهنة

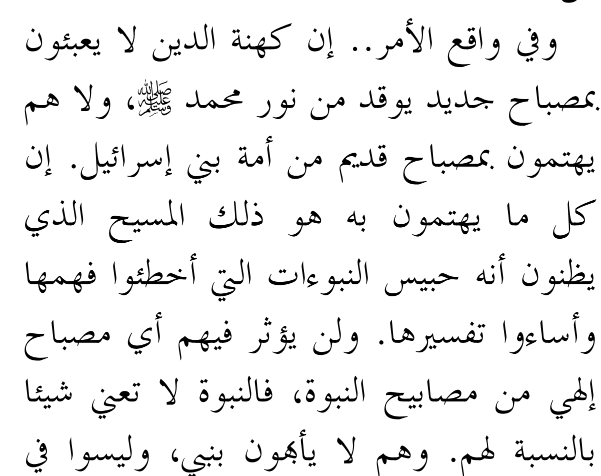
الدين القيادة الفكرية في أي دين أو مذهب، فإنهم يقلبون الحقائق إلى خيالات، ويبدلون الوقائع إلى أساطير. وهذا هو الثمن الذي يدفعه الإنسان حين يُسلم مقاليد دينه إلى نظام يفتقد العقل، ويعوزه المنطق، ولا قدرة لديه على التمييز بين ما هو وسيم وذميم. وأيا كانت بضاعتهم التي يتداولونها.. فالعقلانية ليست من ضمنها.

ولعل أشد الحالات سوءًا بين رجال الدين في العالم هي حالة كهنة الدين المسلمين. فإن الآمال العقيمة التي يبنونها في مخيلاتهم لتحقق النصر النهائي للإسلام، تقوم كلها على سوء فهم وأخطاء وإساءة تفسير للنبوءات، إلى أن جعلت منها سرابا وخيالا. إن هؤلاء لا يصلحون لقيادة أية فرقة أو مذهب.. ناهيك عن أن يكونوا قادة الإسلام! وهم في الحقيقة لم يعودوا يصلحون لأن يكونوا أتباعا لأي نبي.. جديدا كان أو قديما.

إن تصورهم العقيم عن تحقق النصر النهائي للإسلام عن طريق قوة المسيح يرفع عن كاهلهم عبء القيام بأي دور يتحتم عليهم القيام به في النضال من أجل تحقيق النصر للإسلام. وفي واقع الأمر.. إن كل ما هم في حاجة إليه ليس نبيا.. وإنما هم في حاجة إلى مارد قوي، يكون تحت تصرفهم وطوع أمرهم. إنهم لا يفهمون أن مسيحا كذلك الذي يتطلعون إلى نزوله من السماء لم يظهر قط في زمرة الأنبياء. ولم يأت في القرآن المجيد، ولا في أي كتاب مقدس آخر، ذكر نبي يقوم بالنضال من أجل تحقيق سيادة قومه بينما هم جالسون لا يحركون ساكنا. إن هذا ما فعله اليهود حين طلبوا من موسى عليه السلام أن يذهب هو وربه ليقاتلا بدلا منهم، ولكن طلبهم لم يلق استجابة ولا قبولا. ولو كان من الممكن تحقيق النصر النهائي لأي دين بغير بذل الدماء، وسكب حبات العرق، وتقديم كل غال ورخيص، وكدح وجهد وعناء، لما كان لنبي أبدا أن يطالب قومه بأن يخوضوا غمار بحر التضحيات. إن كهنة الدين يتخيّلون عودة مسيح يماثل الجني الذي يظهر في الأقاصيص والحكايات، وليس المصلح الرباني

الذي يظهر في الناس والأمم. إن المشكلة معهم في الحقيقة ليست هي في الاختيار بين جني ونبي.. قديم أو جديد، وإنما هي في الاختيار بين جني ونبي فقط. ولعل مسلكهم هذا يعيد إلى الأذهان قصة قديمة من قصص ألف ليلة وليلة.

إذ يحكى أن ساحرا كان يتخفى في زي بائع متجول في شوارع بغداد، وكان يصيح وينادي بأعلى صوته قائلا: "مصابيح جديدة مقابل المصابيح القديمة.. نستبدل المصابيح القديمة بمصابيح جديدة". واندفعت ربات البيوت إلى أبواب بيوتهن ليستبدلن مصابيحهن القديمة بالمصابيح الجديدة التي يقدمها البائع، وهن سعيدات بهذه الصفقة التي تبدو لهن صفقة رابحة. غير أنه كان هناك استثناء واحد.. إذ لم تكن إحدى ربات البيوت تعلم أنها حين استبدلت مصباحها القديم بآخر جديد.. فإن المصباح القديم كان يحتوي بداخله جنّيا لــه قدرات خارقة لا نهاية لها. و لم تكن تعلم أيضا أن من يملك هذا المصباح يكون هو سيد هذا الجني. وبالتالي فإن البائع المحتال لم يكن في الحقيقة يهتم بالمصباح نفسه، وإنما كان كل اهتمامه منحصرا في الجني الحبيس داخل المصباح. وإذا أمكن السيطرة على هذا الجني باستبدال مليون مصباح جديد مقابل هذا المصباح الواحد القديم، فليس هناك أربح من هذه الصفقة.





وفي واقع الأمر.. إن كهنة الدين لا يعبئون بمصباح جديد يوقد من نور محمد ﷺ، ولا هم يهتمون بمصباح قديم من أمة بني إسرائيل. إن كل ما يهتمون به هو ذلك المسيح الذي يظنون أنه حبيس النبوءات التي أخطئوا فهمها وأساءوا تفسيرها. ولن يؤثر فيهم أي مصباح إلهي من مصابيح النبوة، فالنبوة لا تعني شيئا بالنسبة لهم. وهم لا يأبهون بنبي، وليسوا في

حاجة إلى نبي، فكل ما يحتاجونه هو مارد عملاق يكون في خدمتهم ويحقق أغراضهم، ويستطيع أن يضع تحت أقدامهم كنوز الدنيا عندما يأمرونه بذلك.

إن كل مطامحهم ومطامعهم تنحصر في الهيمنة السياسية والاقتصادية على العالم، رغم أنهم غير مؤهلين على الإطلاق لهذه الهيمنة. وكل ما يحسنون صنعه هو إصدار الفتاوى بتكفير من يخالفهم الرأي من المسلمين، ويفتون بسفك دماء المسلمين، وقتل المسلمين بأيدي المسلمين.

إن أية ثورة دموية في أي بلد إسلامي يكون كهنة الدين من ورائها ينبغي ألا ينخدع بها الناس، فهي لا تستطيع بحال من الأحوال أن تغير ميزان القُوَى في العالم. وإطلاق العنان لأحلام السيطرة على العالم بغير إحراز التقدم العلمي والتكنولوجي هو ضرب من المحال، وعقد الآمال على تغيير موازين القوى في العالم لصالحهم بدون تقوية اقتصادهم.. وتحقيق ثورة في صناعاتهم.. هو ضرب من الخيال. وإعلان التحدي للقوى العظمى في العالم مع افتقاد القُدرة على صناعة أكثر الأسلحة تطورا وتقدما.. هو قمة الجنون. وإن المرء من حقه أن يتساءل.. كيف يمكن لهم بالقليل الذي في أيديهم أن ينجحوا في تحقيق الكثير مما يحلمون به؟

إن على كهنة الدين أن يفهموا أن تشويههم الفاضح للنبوءات التي تحتويها أحاديث الرسول ﷺ لن يمر بغير عقاب، ولن يحقق لهم ولمن يقتادونهم وراءهم سوى الخراب والدمار الشامل. فهذا هو الثمن الذي لا بد أن يدفعوه جزاء وفاقا لما قاموا به من تحريف وتزييف لحكمة الله. فليقبعوا في ركن يليق بهم، وليتابعوا مرور الأيام والليالي وهم في ركنهم قابعون. وليمدوا بأبصارهم نحو السماء، وليصغوا بأسماعهم لسماع صوت أقدام مخلصهم الأسطوري قادما من أغوار الفضاء، وليَطل بهم العمر انتظارا لأمل لن يتحقق، ثم ليموتوا وليهلكوا في يأس يتحقق، هم

ومن يليهم من جيل بعد جيل بعد جيل، فلن يأتي أحد حسب خيالهم لينقذهم من الفخ والشرَك الذي نصبته مخيلتهم الملتوية، وخلقته التناقضات بين مثالياهم القولية وممارساهم الفعلية. فمع كل لحظة تمر، ومع كل ثانية تمضي، يسارع الخوف من الله بالتضاؤل في قلوبهم، ويتجلى هذا في حياهم وتعاملاهم اليومية، حتى صارت الأمانة، والعدالة، والتضحية، والتآلف الأخوي، والمحبة المتبادلة، والاحترام لحقوق الغير، والحفاظ على ممتلكاهم.. كلها تبدو وكأها قِيَم من الأيام الخوالي، وهي وإن كانت لا تزال تُذكر بإعزاز في الخطب والمقالات، ولكنها تختفي وتغيب من العلاقات والتعاملات. وما أكثر الكلام والحديث عنها بشوق وحنين، وما أقل أن يظهر لها من تأثير في الدنيا والدين، وما أعظم المحبة والألفة التي يعتزون بها في القصص والروايات، ولكنها تظل حبيسة أسيرة في مخازن الذكريات!

الاختلاس، السرقة، القتل، سوء استغلال الأطفال، الخطف، الفحش، الزنى، الدعارة، الاحتيال، الغش، والخداع.. هي بعض صفات أولئك الذين يمشون وراء كهنة الدين.. يتبعوهم ويتعلمون منهم، أما الفريق الآخر من الناس الذين لا يتبعوهم فهم كمثلهم في فسادهم وفي حلف غير مقدس معهم. الاغتصاب الجماعي يتم في وضح النهار بواسطة نفس أولئك الذين يقومون على شؤون الأمن. وتنتشر الرشوة، والفساد، وانتهاك حرمة القوانين بصفاقة من السادة والكبراء الذين من المفترض فيهم أن يكونوا حماة العدل.

إنه مجتمع يقوم فيه حماة السلام باغتيال السلام، مجتمع تكون الفوضى فيه هي النظام الوحيد المعروف. ومع ذلك فمن الغرابة بمكان أهم لم يفقدوا تماما الإحساس بالصواب والخطأ. فهو مجتمع يكره الشر والفساد الذي يخلقه بنفسه، ويشمئز مستنكرا من الفظائع التي يرتكبها بيديه، ويستاء بشدة من التلوث الذي ينفثه وينشره بعمله. في كل يوم وفي كل

مكان ينتقد الناس الشرور التي يقترفونها، ويشجبون المفاسد التي يرتكبونها. إنهم ينتقدونها بشدة، ويستنكرونها بقوة، ويدينونها بأصوات صاخبة، تعلو نبراتها ويُسمع ضجيجها مدويا من منبر إلى منبر، ويجلجل صداها بين من يدخلون قاعات البرلمانات وبين من يعيشون في أكواخ الفقر. ومع ذلك.. فإنهم في نفس الوقت يحتضنون أعمالهم بإعزاز، ويتمسكون بها بشدة وشغف، ويواظبون عليها في جميع شؤون حياتهم، وعلى كافة مستويات ونوعيات المجتمع! إن أعمالهم تُبرز ما تدينه أفواههم، وهذه هي الكذبة الكبرى التي يعيشونها.. أو يموتون بها.. كل يوم، ولكنهم يسمونها حياة ومعيشة. أين ذهب حماة المثل الإسلامية العليا، وأين غاب حملة مشاعل السلوك الإنساني النبيل؟ هل هناك من يأرق في نومه اللذيذ قلقا على هذه الحقائق المرة؟ ولكن.. لماذا يهتم أحد على أية حال؟ ولماذا يهتم كهنة الدين؟ فالبشرى لهذا المجتمع الذي أرادوا لـــه أن يؤمن بأن ساعة القضاء الإلهي سوف تحل أخيرا.. وسوف يَنْزل المسيح ابن مريم من مقامه السماوي ليرفع المسلمين من الحضيض الذي تردوا فيه إلى قمة السُلطة ويسلمهم زمام القيادة، وهؤلاء هم المنوط بهم أن يبنوا شكل المستقبل، ويصوغوا قَدَر العالم بأجمعه. فليرنم كهنة الدين أغاني النوم للعامة من الناس حتى يغطوا في سبات عميق، إلى أن يحين الوقت الذي ينْزل فيه من السماوات إله العالم الغربي، فينبذ أولئك الذين ينتمون إلى الغرب، ويعلن نفسه نصيرا لهم هم أهل الشرق. فلماذا يؤرق كهنة الدين أنفسهم بالفساد الأخلاقي الذي تعاني منه قطعان العامة التي يتولون قيادتها؟ الصبر.. الصبر.. هو وحده الدواء الشافي.. فلا بد من الانتظار إلى أن تأتي الساعة الحاسمة.. ساعة الانتصار!

الويل لتلك الساعة إن حلت، بل هي اللعنة التي تحل. فإن حياة الخلق وبقاءهم تحت سطوة كهنة الدين لهي اللعنة بعينها. وهل من المعقول أن يرضى المسيح عليه السلام لنفسه أن يتردى في هاوية هذا الحضيض؟ هل من

الممكن أن يكون شريكا في هذه الجريمة؟ لا.. ليس هو! سواء كان عيسى أو غير عيسى. لا يمكن لأي نبي أن يحط من قدر نفسه بأن يكون نصيرا أو مدافعا عن هؤلاء المارقين المفسدين، فهذا عمل خليق فقط بزعيم متعطش للسلطة والحكم، فلا يتردد حتى في أن يكون ملكا على البهائم.. ناهيك عن أقوام صاروا كالأنعام والبهائم، وهو لن يتردد في التسلق على أكتاف الأنبياء لكي يحقق مطمعه.

إن أحلام كهنة الدين المجنونةَ لهي أشد من جنون المجانين، فهل من سبيل لتحقيقها؟ إن الأحلام المجنونة لا تُبدل الظلام نورا، ولا تجعل فجر يوم جديد يبزغ بعد ظلام ليلة طويلة. إن بزوغ فجر كل يوم جديد هو الذي يُبدد دائما ظلام أحلامهم. فلينم كهنة الدين إلى الأبد وليمتلئ الفراغ الذي في أدمغتهم بما يشاءون من خيالات وأوهام، تتغذى على تعطشهم غير المحدود للسُلطة. وليستيقظ المسلمون من غفلتهم، وليتمنوا لكهنة الدين أن يغطوا في سبات عميق إلى يوم الدين. وليستمر كهنة الدين في نومهم، وليغطوا في نوم أشد عمقا، وليتركوا أمة الرسول ﷺ وشأنها، لكي يتمكن الناس من رؤية نور النهار.

الفصل الرابع
خاتمة الكتاب

وفي الــنهاية.. نتناول موضوع الوحي إلى غير الإنبياء، فمن الصعب الاقتناع بفكرة انقطاع ظاهرة الوحي لغير الأنبياء أيضا، حتى ولو انقطعت النبوة. إن استمرار الوحي الإلهي أمر لا يمكن الاستغناء عنه لدعم الإيمان بوجــود الله ﷻ بشكل عميق راسخ لا يتزعزع.. ذلك الإيمان الذي لا يمكن تحقيقه بالاعتماد على البحث العقلاني وحده. وعلى هذا.. فالوحي يؤدي دائما دورا كبيرا لتقوية الإيمان بوجود الله العليم القدير.

والوحي الإلهي ليس محصورا في الأنبياء فقط، فالوحي وسيلة لتحقيق الوصال بين الله تعالى والإنسان. وهو ظاهرة عامة لكل الناس، وإنكاره يعد إنكارا لشهادة الملايين من الناس في جميع العصور والأزمان، وفي جميع أنحاء العالم.

وينْزل هذا الوحي الإلهي على عباد الله الذين أخضعوا أنفسهم برُمتها لإرادتــه ﷻ.. بــإخلاص وصدق لا تشوبه شائبة. وأما هؤلاء الذين لا يؤمــنون بالله ﷻ، أو يؤمنون بفكرة وجود إله بشكل عام غامض مبهم، فمن المستبعد أن يحظى هؤلاء بشرف الوحي الإلهي. وهذا ما ينطبق أيضا عــلى أولــئك المنغمســين في ارتكاب الآثام، أو الذين كرّسوا أنفسهم وجهدهم للاغتراف الواسع من المكاسب المادية، والارتواء البالغ من المتع الدنــيوية. ومع ذلك.. فحتى مثل هؤلاء.. ليسوا بمحرومين كليّة من أن يحظوا من حين لآخر بقبس من هذا الفضل الإلهي. إذ لا يستطيع أحد أن يمنع الله تبارك وتعالى من أن يُنعم بالرؤى الصادقة، أو الكشوف الصالحة، وحتى الوحي الكلامي، على من يشاء، ومتى يشاء.

ولا يدل تلقي الوحي بالضرورة على صلاح وتقوى من يتلقاه،

خاصة إذا كان هذا التلقي عرضيا. وأحيانا يكون الغرض من هذا الوحي هو تذكير الناس عامة بوجود الله، وأنه يستطيع أن يتصل بمن يشاء. ومثل هذه القبسات من الوحي ليست حكرا لأي دين، ولا وقفا على أي قوم، ولا حصرا في أي زمن، بل هي مشتركة بين الجميع. ولو لم يكن الأمر كذلك.. لاضمحل وتلاشى الإيمان بوجود الله نفسه وبإمكانية نزول الوحي الإلهي. إن قبسات الوحي الإلهي هذه مثل الغيث النادر الذي يهطل على حين غرة وبغير انتظار في وسط الصحراء القاحلة، فيخلق واحات تعين على نمو الحياة وسط الموات الممتد على مدى واسع في بحر من الرمال.

وبعض.. من غير المؤمنين.. ينفي وجود هذه الظاهرة العامة، ويعتبر أنها مجرد تهيؤات نفسية. وبالطبع فإن التهيؤات النفسية عامل لا يمكن إغفاله كلية أو استبعاده تماما، غير أن دلائل الوحي الإلهي تختلف عن الهذيانات النفسية العادية بوضوح بحيث يجب ألا يتشبه ويلتبس أمرهما على أحد. إنهما يختلفان كما يختلف النور عن الظلام، أو كما تختلف الحياة عن الموت. غير أنه من الصحيح أيضا أن دلائل الوحي الإلهي يقل وجودها، وتزداد ندرة، كلما ابتعدنا عن الزمن الذي ظهر فيه نبي من عند الله تعالى. فالتأثير المتنامي للمادية يؤثر على الناس، كالسم الذي يُلَوث أفكارهم وعقولهم، كما يفسد طهارة نفوسهم ونقاء قلوبهم، وحينئذ يتضاءل الإيمان بالوحي الإلهي بقدْر يتناسب مع هذا الاضمحلال. ومع مرور الوقت.. يحل عصر جليدي من التشكك في الوحي وإنكاره، وبذلك تبدأ مرحلة من الموات الروحي، وكل ما يتبقى هو الضلال والخداع، ويتسلل النفاق لينتهك حرمة الأديان. وأما المؤمنون في ذلك الوقت.. فمعظمهم يكونون مجرد مؤمنين بالاسم فقط، وأما أسلوب حياتهم فهو يُكَذّب وينفي اتصافهم بالإيمان. ويتلاشى الصدق والإخلاص عمليا من جميع المجالات التي يعمل فيها الإنسان، وتبدأ رياح الشك.. بل

أعاصير انعدام الإيمان.. تهب على أودية الدين. فينحسر الورع، وتتراجع التقوى. ومع ذلك فإن الاتصال بين الله والإنسان لا ينقطع كلية، بل يستمر الوحي لإعادة الحياة إلى الدين، وإعادة الإيمان إلى القلوب. أما أولئك الذين تتوهج وجوههم بنور الإيمان، ويسطع في قلوبهم ضياء محبة الله تعالى، حتى في خضم الظلام الحالك، فإن الله ﷻ يتجلى عليهم ببريق لا يماثله شيء، وبنور لا تشوبه ظلمة. وبالطبع.. فلا وجه للمقارنة بين قبسات الوحي التي تتناثر من الفضل الإلهي في زمن من الأزمان، وبين تجلي المحبة الإلهية التي يُعَبِّر عنها الوحي السماوي مما يغدقه الله تعالى على عباده الصادقين المخلصين. وهذه هي الرسالة التي يؤكد القرآن على حقيقتها، إذ تَعد المؤمنين بوضوح بنوال بركات الوحي بغير انقطاع على مدى الأزمان. يقول تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَّاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوْا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا ولا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (١٨ الكهف:١١١)

ومن الواضح أن التعبير ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوْا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ يرتبط مباشرة بالتعبير الذي سبقه والذي يذكر الوحي في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾. أما قرار صلاحية أحد لتلقي الوحي فهو دائما في يد الله ﷻ وليس في يد أحد من الناس.

وقد جاء نفس الوعد بنُزول هذا الفضل على المؤمنين بصورة أكثر وضوحا في العديد من الآيات الأخرى، تحمل البشرى للمؤمنين الذين صدقوا الإيمان، وأخلصوا في ثباتهم على الحق في أوقات المحن والابتلاءات. يقول تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوْا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوْا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ

الْمَلآئِكَةُ أَلا تَخَافُوْا وَلا تَحْزَنُوْا وَأَبْشِرُوْا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُوْنَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ (٤١ فُصّلت:٣١-٣٢)

ومن الواضح أن هذه الآيات لا تترك أية غلالة من شك في موضوع استمرار الوحي. ويقول تعالى أيضا في كتابه العزيز:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوْا لِي﴾ (٢ البقرة:١٨٧)

وهنا يتسع نطاق الوعد بالوحي، ليشمل جميع عباد الله الذين يدعونه ﷻ بإخلاص وخضوع، ويستجيبون لدعوته. وهذا وعد عام شامل لا يختص بزمان معين، ولا ينحصر في قوم بعينهم.

وباختصار.. إن الإسلام دين الأمل المستمر والمتجدد، الذي لا يُقْصِر وصال الله تعالى على الأزمنة الخوالي فقط، فهو ﷻ لا يزال الناصح الأمين الكريم الذي يهتم بشؤون خلقه، ولن يتوقف أبدا عن ذلك. إن بابه مفتوح لكل من يطرقه، والوصول إليه متاح لكل من يسعى إليه. وهو يجيب دعوة من يدعوه ولا يردها، إنه أزلي.. ولا يمكن لأي من صفاته أن تنتهي أو تتوقف.

إن الإنسان لا يزال في حاجة إلى الوحي الإلهي. ومن بعد رحيل النبي.. فإن الوحي هو الذي يُبقي شعلة الإيمان مضيئة، ويقويها أكثر من كل وسائل البحث الأخرى من دلائل عقلانية أو فلسفية. ويستطيع الإنسان من خلال تلقي الوحي أن يبلغ مقام اليقين الكامل بوجود الله الحي القيوم. وهو ﷻ ينعم على من يشاء من عباده من علامات قربه ما لا يقتصر فقط على من يدنيه منه، وإنما يضفي عليه من الفضل ما يمكن للآخرين أيضا أن يلمسوه ويتحققوا منه. إن الوحي يقيم الدين على

أساس صلب قوي من الإيمان، ويُبدد جميع الشكوك التي يمكن أن تساور الإنســان. والمأساة الكبرى التي يعاني منها الإسلام المعاصر، هي سقوطه تحــت التأثير المشؤوم لكهنة الدين من أصحاب عقلية العصور الوسطى، والمفكــرين المتغربين المعاصرين، حتى صار كالفريسة الميتة. وينال كهنة العصور الوسطى نصيب الأسد من لحم هذه الفريسة، أما المفكرون العظام من أمثال العلامة إقبال، وعلماء الدين من أمثال المودودي، فهم ليسوا أقل تنافســا للفــوز بــبعض الفتات من لحم الفريسة. فإقبال.. كمريد قدير لنيتشــة.. يــريد أن يلغي إلى الأبد الحاجة إلى الهدْي الإلهي. كذلك فإن المودودي.. الذي هو هجين نتج من التزاوج بين أفكار بولس وبهاء الله.. يريد أن يلغي مجيء أي نبي، لكي لا يكون التكذيب به سببا لنُزول اللعنة مــن الله تعالى. وبين هذيْن الفارسين المغواريْن لم يبق شيء من النبوة ولا مــن الوحي، فقد تركا الإسلام خاليا من كل أمل. وقد لا يمكن تلخيص فلسفتهما بكلمات أفضل من تلك التي صاغها الشاعر فيض أحمد فيض، أحد عظماء شعراء اللغة الأردية في العصر الحديث، إذ يقول ما ترجمته:

لقد أخفى التراب الغريب آثار جميع الأقدام
فأطفئ المصابيح وارْفع الكؤوس وأقداح الشراب
وأوْصد الأبواب التي تأتيك بالأمل وأغلقها بالمغاليق
فلن يأتي أحد! أبدا.. لن يأتي أحد!![١]

واأسفاه!.. لقد قضوا على الوحي والنبوة.. اللذين هما الروح والقلب لكــل دين حي، فلم يبق من الإسلام سوى جسد يماثل جسد من أصيب بــالموت الســريري.. لا تزال به مسحة من حياة، ولكن بلا معنى وبغير قيمة! ما لهم لا يقرءون الكتابة المحفورة على حائط التاريخ؟

إذا حــدث أن غاب الوحي كلية عن الحياة الدينية.. فإن نبض هذه الحــياة يتوقف، ويهوي الدين إلى حضيض الأساطير والخرافات. إذا فُقد الوحي فإن الحياة الروحية تفقد أيضا معناها، ويصبح الدين بغير قيمة ولا

هدف.

إن الوحي يضيء الإيمان بنور المعرفة الربانية، وينير الروح بأشعة المحبة الإلهية، وينفخ في الدين نسمات الحياة.

وفي خضم ظلمات المادية.. عندما يضاعف الإلحاد من شعور الكآبة وفقـــدان الغاية، فإن الوحي هو الذي يأتي بالنور الذي يُحَوّل اليأس إلى أمـــل، ويُـــبدّل ظلام الشكوك إلى نور اليقين، ويُغَير ليل الكفر إلى نهار الإيمـــان. إن الـــنبي بالنسبة للدين كالشمس بالنسبة للنهار، وعند غياب الشـــمس ورحيل النبي، فإن ما تقوم به النجوم من هداية للإنسان في ليلة محاق غير مقمرة، يقوم به الوحي في إزالة الغشاوة من على العيون.

اقطعوا النبوة.. وامنعوا نزول الوحي، ولكن.. اعتبروا ذلك اليوم هو يوم الدينونة، فلن يبقى شيء بعد ذلك سوى الموت المطبق.

وإلى الملتقى!

*****

المـــــــراجع

1. FAIZ AHMED FAIZ. *Nuskhah Hāi Wafā*, from poem ‘Tanhāī’.

فهارس

فهرس الآيات القرآنية

فهرس المواضيع

ت

خ

د

ذ

ر

ش

ص

ض

ل

فهرس الأسماء

إن أي انفصام بين الوحي من جهة وبين العقلانية والدين والمنطق من جهة أخرى لا بد أن يتعارض مع الفكر السليم. وإن لم يستطع الدين أن يتوافق مع العقلانية فلا بد أن يكون أحدهما معيبا.

هل يؤدي الوحي دورا حيويا في شؤون الإنسان؟ ألا تكفي العقلانية لهداية الإنسان في حل جميع المشاكل التي تواجهه؟ هناك الكثير من الأسئلة المماثلة التي يبحثها هذا الكتاب بشكل دقيق.

وقد حاول هذا السجل الحافل معالجة كل الأمور الرئيسة التي تثير الفكر الحديث.

ومهما كانت الخلفية الفكرية أو العلمية لدى القارئ فلا بد أن يجد في هذا الكتاب شيئا يثير اهتمامه.

فهو يتناول العديد من الموضوعات المتباينة، بما فيها مفهوم الوحي لدى الكثير من الأديان، كما يتناول تاريخ الفلسفة، وعلوم الكونيات، ووجود الحياة خارج نطاق الأرض، ومستقبل الحياة على الأرض، والانتخاب الطبيعي ودوره في النشوء والارتقاء؛ كما أنه يبحث بإسهاب موضوع مجيء المسيح، أو المجددين الذين ينتظرهم أتباع الأديان المختلفة. وبالمثل يبحث الكتاب في الكثير من الموضوعات التي تثير اهتمام الفكر الإنساني منذ فجر التاريخ.

وينصبّ التركيز الرئيس في الكتاب على قدرة القرآن الكريم في بحث جميع الوقائع الهامة في الماضي والحاضر والمستقبل منذ بداية الكون إلى نهايته الأخيرة. ولم يتحاش القرآن أن يُخضع جميع دعاويه للفحص العقلاني الدقيق لأنه مزوّد بالدلائل العلمية والمنطق الذي لا يُنقض.

ولسوف يكون من الصعب وجود قارئ لا يجد لاستفساراته أجوبة مرضية. ونحن نأمل أن يشهد معظم القراء على أن هذا الكتاب يقف متميزا بين سائر الكتب، ولعله يكون أعظم الأعمال الأدبية التي دُونت في القرن العشرين.

Any divide between revelation and rationality, religion and logic has to be irrational. If religion and rationality cannot proceed hand in hand, there has to be something deeply wrong with either of the two.

Does revelation play any vital role in human affairs? Is not rationality sufficient to guide man in all the problems which confront him? Numerous questions such as these are examined with minute attention.

All major issues which intrigue the modern mind are attempted to be incorporated in this fascinatingly comprehensive statute.

Whatever the intellectual or educational background of the reader, this book is bound to offer him something of his interest.

It examines a very diverse and wide range of subjects including the concept of revelation in different religions, history of philosophy, cosmology, extraterrestrial life, the future of life on earth, natural selection and its role in evolution. It also elaborately discusses the advent of the Messiah, or other universal reformers, awaited by different religions. Likewise, many other topical issues which have been agitating the human mind since time immemorial are also incorporated.

The main emphasis is on the ability of the Quran to correctly discuss all important events of the past, present and future from the beginning of the universe to its ultimate end.

Aided by strong incontrovertible logic and scientific evidence, the Quran does not shy away from presenting itself to the merciless scrutiny of rationality.

It will be hard to find a reader whose queries are not satisfactorily answered. We hope that most readers will testify that this will always stand out as a book among books – perhaps the greatest literary achievement of this century.

ISBN 1-85372-781-4

